

(٨٩١)

العتاب في القرآن

أحواله ودلالته

من مصنفات التفسير

د/ يوسف بن حمود الحوشان

١٤٤٤هـ

نسخة أولية من غير ترتيب او مراجعة

ومتاح لكل أحد الاستفادة منها

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله اما بعد

فهذه نصوص جمعت باستخدام برنامج شاملة وورد من برمجيات الدكتور سعود العقيل بواسطة المكتبة الشاملة

معتمدة على توظيف الكلمة المفتاحية وتوفير النصوص للباحثين لتحريرها والاستفادة منها وهي مشاعة لمن يستفيد منها

وسيتبعها نصوص أخرى يسر الله نشرها والله الموفق

يوسف بن حمود الحوشان

yhoshan@gmail.com

تليجرام https://t.me/dralhoshan

"١٣٦ – حمدت الله حين [هدى] فؤادي ... إلى الإسلام والدين الحنيف

ثم المغوج الإبهامي [يدعى] أحنف إما عن [طريق] السلب، كالتمريض والتقذية، والإشكاء، **والإعتاب** في سلب هذه المعاني وإزالتها، وإما على طريق النقل بالضد كما يقال للمهلكة: المفازة وللديغ: السليم.

السبط عند المبرد: من سبط عليه العطاء إذا أكثر ووالى كأنه مقلوب بسط، وكلاهما من الكثرة. وهذه هي طريقة الاشتقاق الأكبر، وهي رجوع." (١)

"هذه من لغات السلب، فإن الصارخ: المستغيث، والمصرخ: المغيث، ونظائرها كثيرة، مثل: الإشكاء، **والإعتاب**، ونحوهما. قال سلامة بن جندل:

٦٤١ – كنا إذا ما أتانا صارخ [فزع] ... كان الصراخ له قرع [الظنابيب].

وقال آخر:

٦٤٢ – نثوب إليهم كلما صاح صارخ ... وتصرخهم فيما ينوب وتفرع.." (٢)

"قال «١» تعالى:" بيدك الخير" «٢» [آل عمران: ٢٦] واقتصر عليه فلم ينسب الشر إليه، وإن كان بيده الخير والشر والضر والنفع، إذ هو على كل شي قدير، وهو بكل شي خبير. ولا اعتراض بما حكاه عليه السلام عن ربه عز وجل أنه يقول يوم القيامة: (يا ابن آدم مرضت فلم تعدني واستطعمتك فلم تطعمني واستسقيتك فلم تسقني) فإن ذلك تنزل في الخطاب وتلطف في **العتاب** مقتضاه التعريف بفضل ذي الجلال وبمقادير ثواب هذه الأعمال. وقد تقدم هذا المعنى. والله تعالى أعلم. ولله تعالى أن يطلق على نفسه ما يشاء، ولا نطلق نحن إلا ما أذن لنا فيه من الأوصاف الجميلة والأفعال الشريفة. جل وتعالى عن النقائص والآفات علوا كبيرا. وقال في الغلام:" فأردنا" فكأنه أضاف القتل إلى نفسه، والتبديل إلى الله تعالى. والأشد كمال الخلق والعقل. وقد مضى الكلام فيه في" الأنعام" «٣» والحمد لله. الثالثة– قال شيخنا الإمام أبو العباس: ذهب قوم من زنادقة الباطنية إلى سلوك طريق تلزم منه هذه الأحكام الشرعية، فقالوا: هذه الأحكام الشرعية العامة إنما يحكم بها على الأنبياء «٤» والعامة، وأما الأولياء وأهل الخصوص فلا يحتاجون إلى تلك النصوص، بل إنما يراد منهم ما يقع في قلوبهم، ويحكم عليهم بما يغلب عليهم من خواطرهم. وقالوا: وذلك لصفاء قلوبهم عن الاكدار، وخلوها عن الأغيار، فتتجلى لهم العلوم الإلهية، والحقائق الربانية، فيقفون على أسرار الكائنات، ويعلمون أحكام الجزئيات، فيستغنون بها عن أحكام الشرائع الكليات، كما اتفق للخضر، فإنه استغنى بما تجلى له من العلوم، عما كان عند موسى من تلك الفهوم. وقد جاء فيما ينقلون: استفت قلبك وإن أفتاك المفتون. قال شيخنا رضي الله عنه: وهذا القول زندقة وكفر يقتل قائله ولا يستتاب، لأنه إنكار ما علم من الشرائع، فإن الله تعالى قد أجرى سنته، وأنفذ حكمته، بأن أحكامه لا تعلم إلا بواسطة رسله السفراء بينه وبين خلقه، وهم المبلغون عنه رسالته «٥» وكلامه المبينون شرائعه وأحكامه، اختارهم لذلك، وخصهم بما هنالك، كما قال تعالى:" الله يصطفي من الملائكة رسلا ومن

---

(١) باهر البرهان فى معانى مشكلات القرآن، النيسابوري، بيان الحق ١٤٦/١

(٢) باهر البرهان فى معانى مشكلات القرآن، النيسابوري، بيان الحق ٧٦٣/٢

النحاس

---

(١). في ج وك وى: قاله.

(٢). راجع ج ٤ ص ٥٥.

(٣). راجع ج ٧ ص ١٣٤ فما بعد.

(٤). كذا في الأصول وهو واضح.

(٥). في ج وك وى: رسالاته. [.....]." (١)

"والمرأة فضربوا حدهم، وسماهم: حسان بن ثابت ومسطح بن أثاثة وحمنة بنت جحش. وفي كتاب الطحاوي:" ثمانين ثمانين". قال علماؤنا. وإنما لم يحد «١» عبد الله بن أبي لأن الله تعالى قد أعد له في الآخرة عذابا عظيما، فلو حد في الدنيا لكان ذلك نقصا من عذابه في الآخرة وتخفيفا عنه مع أن الله تعالى قد شهد ببراءة عائشة رضي الله عنها وبكذب كل من رماها، فقد حصلت فائدة الحد، إذ مقصوده إظهار كذب القاذف وبراءة المقذوف، كما قال الله تعالى:" فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون". وإنما حد هؤلاء المسلمون ليكفر عنهم إثم ما صدر عنهم من القذف حتى لا يبقى عليهم تبعة من ذلك في الآخرة، وقد قال صلى الله عليه وسلم في الحدود (إنها كفارة لمن أقيمت عليه)، كما في حديث عبادة بن الصامت. ويحتمل أن يقال: إنما ترك حد ابن أبي استئلافا لقومه واحتراما لابنه، وإطفاء لثائرة الفتنة المتوقعة من ذلك، وقد كان ظهر مبادئها من سعد بن عبادة ومن قومه، كما في صحيح مسلم. والله أعلم. السابعة- قوله تعالى: (لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا) هذا **عتاب** من الله سبحانه وتعالى للمؤمنين في ظنهم حين قال أصحاب الإفك ما قالوا. قال ابن زيد: ظن المؤمنون أن المؤمن لا يفجر بأمه، قاله المهدوي. و" لولا" بمعنى هلا. وقيل: المعنى أنه كان ينبغي أن يقيس فضلاء المؤمنين والمؤمنات الأمر على أنفسهم، فإن كان ذلك يبعد فيهم فذلك في عائشة وصفوان أبعد. وروي أن هذا النظر السديد وقع من أبي أيوب الأنصاري وامرأته، وذلك أنه دخل عليها فقالت له: يا أبا أيوب، أسمعت ما قيل! فقال نعم! وذلك الكذب! أكنت أنت يا أم أيوب تفعلين ذلك! قالت: لا والله! قال: فعائشة والله أفضل منك، قالت أم أيوب نعم. فهذا الفعل ونحوه هو الذي عاتب الله تعالى عليه «٢» المؤمنين إذ لم يفعله جميعهم. الثامنة- قوله تعالى: (بأنفسهم) قال النحاس: معنى" بأنفسهم" بإخوانهم. فأوجب الله على المسلمين إذا سمعوا رجلا يقذف أحدا ويذكره «٣» بقبيح لا يعرفونه به أن ينكروا عليه ويكذبوه. وتواعد من ترك ذلك ومن نقله.

---

(١). في ك: عدو الله.

---

(١) تفسير القرطبي، شمس الدين القرطبي ١١/٤٠

(٢). في الأصول وتفسير ابن عطية:" عاتب الله تعالى على المؤمنين".

(٣). كذا في ك.." [(١)]

"قلت: ولأجل هذا قال العلماء: إن الآية أصل في أن درجة الإيمان التي حازها الإنسان، ومنزلة الصلاح التي حلها المؤمن «١»، ولبسة العفاف التي يستتر بها المسلم لا يزيلها عنه خبر محتمل وإن شاع، إذا كان أصله فاسدا أو مجهولا.

التاسعة- قوله تعالى: (لولا جاؤ عليه بأربعة شهداء) هذا توبيخ لأهل الإفك. و" لولا" بمعنى هلا، أي هلا جاءوا بأربعة شهداء على ما زعموا من الافتراء. وهذا رد على الحكم الأول، وإحالة على الآية السابقة في آية القذف. العاشرة- قوله تعالى: (فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون) أي هم في حكم الله كاذبون. وقد يعجز الرجل عن إقامة البينة وهو صادق في قذفه، ولكنه في حكم الشرع وظاهر الأمر كاذب لا في علم الله تعالى، وهو سبحانه إنما رتب الحدود على حكمه الذي شرعه في الدنيا لا على مقتضى علمه الذي تعلق بالإنسان على ما هو عليه، فإنما يبنى على ذلك حكم الآخرة. قلت: ومما يقوي هذا المعنى ويعضده ما خرجه البخاري عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: أيها الناس إن الوحي قد انقطع وإنما نأخذكم الآن بما ظهر لنا من أعمالكم، فمن أظهر لنا خيرا أمناه وقربناه، وليس لنا من سريرته شي الله يحاسبه في سريرته، ومن أظهر لنا سوءا لم نؤمنه ولم نصدقه، وإن قال إن سريرته حسنة. وأجمع العلماء أن أحكام الدنيا على الظاهر، وأن السرائر إلى الله عز وجل. الحادية عشرة- قوله تعالى: (ولولا فضل الله عليكم ورحمته) «٢» " فضل" رفع بالابتداء عند سيبويه، والخبر محذوف لا تظهره العرب. وحذف جواب" لولا" لأنه قد ذكر مثله بعد، قال الله عز وجل" ولولا فضل الله عليكم ورحمته"" لمسكم" أي بسبب ما قلتم في عائشة عذاب عظيم في الدنيا والآخرة. وهذا **عتاب** من الله تعالى بليغ، ولكنه برحمته ستر عليكم في الدنيا ويرحم في الآخرة من أتاه تائبا والإفاضة: الأخذ في الحديث، وهو الذي وقع عليه **العتاب**، يقال: أفاض القوم في الحديث أي أخذوا فيه.

---

(١). في ك: المر .. [.....]

(٢). يريد آية ١٠ وهى قوله تعالى:" وهي قوله تعالى: (ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله تواب حكيم".." [(٢)]

"الرابعة عشرة- قوله تعالى: (ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم. يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا إن كنتم مؤمنين. ويبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم) **عتاب** لجميع المؤمنين أي كان ينبغي عليكم أن تنكروه ولا يتعاطاه بعضكم من بعض على جهة الحكاية والنقل، وأن تنزهوا الله تعالى عن أن يقع هذا من زوج نبيه عليه الصلاة والسلام. وأن تحكموا على هذه المقالة بأنها بهتان، وحقيقة البهتان أن يقال في الإنسان ما ليس فيه، والغيبة أن يقال في الإنسان ما فيه. وهذا المعنى قد جاء في صحيح الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم. ثم وعظهم

---

(١) تفسير القرطبي، شمس الدين القرطبي ٢٠٢/١٢

(٢) تفسير القرطبي، شمس الدين القرطبي ٢٠٣/١٢

تعالى في العودة إلى مثل هذه الحالة. و" أن" مفعول من أجله، بتقدير: كراهية أن، ونحوه. الخامسة عشرة- قوله تعالى: (إن كنتم مؤمنين) توقيف وتوكيد، كما تقول: ينبغي لك أن تفعل كذا وكذا إن كنت رجلا. السادسة عشرة- قوله تعالى:" (يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا" يعني في عائشة، لأن مثله لا يكون إلا نظير القول في المقول عنه بعينه، أو فيمن كان في مرتبته من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم، لما في ذلك من أذائه رسول الله صلى الله عليه وسلم في عرضه وأهله، وذلك كفر من فاعله. السابعة عشرة- قال هشام بن عمار سمعت مالكا يقول: من سب أبا بكر وعمر أدب، ومن سب عائشة قتل، لأن الله تعالى يقول:" يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا إن كنتم مؤمنين"، فمن سب عائشة فقد خالف القرآن، ومن خالف القرآن قتل. قال ابن العربي:" قال أصحاب الشافعي من سب عائشة رضي الله عنها أدب كما في سائر المؤمنين، وليس قوله:" إن كنتم مؤمنين" في عائشة [لأن ذلك «١»] كفر، وإنما هو كما قال عليه السلام: (لا يؤمن من لا يأمن جاره بوائقه). ولو كان سلب الإيمان في سب من سب عائشة حقيقة لكان سلبه في قوله: (لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن) حقيقة. قلنا: ليس «٢» كما زعمتم، فإن «٣»

---

(١). زيادة عن ابن العربي.

(٢). في الأصول" لئن كان كما زعمتم أن أهل" والتصويب عن ابن العربي.

(٣). في الأصول وابن العربي:" أن" بدون فاء.." (١)

"قوله تعالى: (أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله) أي بالعذاب. (من القرون) أي الأمم الخالية الكافرة. (من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا) أي للمال، ولو كان المال يدل على فضل لما أهلكهم. وقيل: القوة الآلات، والجمع الأعوان والأنصار، والكلام خرج مخرج التقريع من الله تعال لقارون، أي" أولم يعلم" قارون" أن الله قد أهلك من قبله من القرون". (ولا يسئل عن ذنوبهم المجرمون) أي لا يسألون سؤال **استعتاب** كما قال:" ولا هم يستعتبون""- فما هم من المعتبين" وإنما يسألون سؤال تقريع وتوبيخ لقوله:" فو ربك لنسئلنهم أجمعين" قاله الحسن. وقال مجاهد: لا تسأل الملائكة غدا عن المجرمين، فإنهم يعرفون بسيماهم، فإنهم يحشرون سود الوجوه زرق العيون. وقال قتادة: لا يسأل المجرمون عن ذنوبهم لظهورها وكثرتها، بل يدخلون النار بلا حساب. وقيل: لا يسأل مجرمو هذه الأمة عن ذنوب الأمم الخالية الذين عذبوا في الدنيا. وقيل: أهلك من أهلك من القرون عن علم منه بذنوبهم فلم يحتج إلى مسألتهم عن ذنوبهم.

[سورة القصص (٢٨): الآيات ٧٩ الى ٨٠]

فخرج على قومه في زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظ عظيم (٧٩) وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ولا يلقاها إلا الصابرون (٨٠)

قوله تعالى: (فخرج على قومه في زينته) أي على بني إسرائيل فيما رآه زينة من متاع الحياة الدنيا، من الثياب والدواب

---

(١) تفسير القرطبي، شمس الدين القرطبي ١٢/٢٠٥

والتجمل في يوم عيد. قال الغزنوي: في يوم السبت." في زينته" أي مع زينته. قال الشاعر: إذا ما قلوب القوم طارت مخافة من الموت أرسوا بالنفوس المواجد «١» أي مع النفوس. كان خرج في سبعين ألفا من تبعه، عليهم المعصفرات، وكان أول من صبغ له الثياب المعصفرة. قال السدي: مع ألف جوار بيض على بغال بيض بسروج من

---

(١). في نسخة: ارموا بالنفوس. وفي نسخة أخرى أرسوا بالنفوس النواجذ. ولم نعثر عليه.." (١)

"إلى البادية. وهي البداوة والبداوة، بالكسر والفتح. واصل الكلمة من البدو وهو الظهور." يسئلون" وقرأ يعقوب في رواية رويس (يتساءلون عن أنبائكم) أي عن أخبار النبي صلى الله عليه وسلم. يتحدثون: أما هلك محمد وأصحابه! أما غلب أبو سفيان وأحزابه! أي يودوا لو أنهم بادون سائلون عن أنبائكم من غير مشاهدة القتال لفرط جبنهم. وقيل: أي هم أبدا لجبنهم يسألون عن أخبار المؤمنين، وهل أصيبوا. وقيل: كان منهم في أطراف المدينة من لم يحضر الخندق، جعلوا يسألون عن أخباركم ويتمنون هزيمة المسلمين. (ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلا) أي رميا بالنبل والحجارة على طريق الرياء والسمعة، ولو كان ذلك لله لكان قليله كثيرا.

[سورة الأحزاب (٣٣): آية ٢١]

لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا (٢١)

فيه مسألتان. الأولى- قوله تعالى (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة) هذا **عتاب** للمتخلفين عن القتال، أي كان لكم قدوة في النبي صلى الله عليه وسلم حيث بذل نفسه لنصرة دين الله في خروجه إلى الخندق. والأسوة القدوة. وقرأ عاصم" أسوة" بضم الهمزة. الباقون بالكسر، وهما لغتان. والجمع فيهما واحد عند الفراء. والعلة عنده في الضم على لغة من كسر في الواحدة: الفرق بين ذوات الواو وذوات الياء، فيقولون كسوة وكسا، ولحية ولحى. الجوهري: والأسوة والإسوة بالضم والكسر لغتان. والجمع أسى وإسى. وروى عقبة ابن حسان الهجري عن مالك بن أنس عن نافع عن ابن عمر" لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة" قال: في جوع النبي صلى الله عليه وسلم، ذكره الخطيب أبو بكر أحمد وقال: تفرد به عقبة بن حسان عن مالك، ولم أكتبه إلا بهذا الإسناد. الثانية- قوله تعالى" أسوة" الأسوة القدوة. والأسوة ما يتأسى به، أي يتعزى به. فيقتدى به في جميع أفعاله ويتعزى به في جميع أحواله، فلقد شج وجهه، وكسرت رباعيته،." (٢)

"قوله تعالى: (وقال الذين كفروا) يريد كفار قريش. (لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه) قال سعيد عن قتادة:" ولا بالذي بين يديه" من الكتب والأنبياء عليهم الصلاة والسلام. وقيل من الآخرة. وقال ابن جريج: قائل ذلك أبو جهل بن هشام. وقيل: إن أهل الكتاب قالوا للمشركين صفة محمد في كتابنا فسلوه، فلما سألوه فوافق ما قال أهل

---

(١) تفسير القرطبي، شمس الدين القرطبي ١٣/٣١٦

(٢) تفسير القرطبي، شمس الدين القرطبي ١٤/١٥٥

الكتاب قال المشركون: لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي أنزل قبله من التوراة والإنجيل بل نكفر بالجميع، وكانوا قبل ذلك يراجعون أهل الكتاب ويحتجون بقولهم، فظهر بهذا تناقضهم وقلة علمهم. ثم أخبر الله تبارك وتعالى عن حالهم فيما لهم فقال (ولو ترى) يا محمد (إذ الظالمون موقوفون عند ربهم) أي محبوسون في موقف الحساب، يتراجعون الكلام فيما بينهم باللوم **والعتاب** بعد أن كانوا في الدنيا أخلاء متناصرين. وجواب" لو" محذوف، أي لرأيت أمرا هائلا فظيعا. ثم ذكر أي شي يرجع من الـقول بينهم فقال: (يقول الذين استضعفوا) في الدنيا من الكافرين (للذين استكبروا) وهم القادة والرؤساء (لولا أنتم لكنا مؤمنين) أي أغويتمونا وأضللتمونا. واللغة الفصيحة" لولا أنتم" ومن العرب من يقول" لولاكم" حكاها سيبويه، تكون" لولا" تخفض المضمر ويرتفع المظهر بعدها بالابتداء ويحذف خبره. ومحمد بن يزيد يقول: لا يجوز" لولاكم" لأن المضمر عقيب المظهر، فلما كان المظهر مرفوعا بالإجماع وجب أن يكون المضمر أيضا مرفوعا. (قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى) هو استفهام بمعنى الإنكار، أي ما رددناكم نحن عن الهدى، ولا أكرهناكم. (بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين) أي مشركين مصرين على الكفر. (وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار) المكر أصله في كلام العرب الاحتيال والخديعة، وقد مكر به يمكر فهو ماكر ومكار. قال الأخفش: هو على تقدير: هذا مكر الليل والنها ر. قال النحاس: والمعنى- والله أعلم- بل مكركم في الليل والنهار، أي مسارتكم إيانا ودعاؤكم لنا إلى الكفر حملنا على هذا. وقال سفيان الثوري: بل عملكم في الليل والنهار. قتادة: بل مكركم بالليل والنهار صدنا، فأضيف المكر إليهما لوقوعه فيهما." (١)

"في النار أو يجزعوا" فالنار مثوى لهم" أي لا محيص لهم عنها، ودل على الجزع قوله:" وإن يستعتبوا" لأن المستعتب جزع والمعتب المقبول **عتابه**، قال النابغة:

فإن أك مظلوما فعبد ظلمته ... - إن تك ذا عتبى فمثلك يعتب

أي مثلك من قبل الصلح والمراجعة إذا سئل. قال الخليل: **العتاب** مخاطبة الإدلال ومذاكرة الموجدة. تقول: عاتبته معاتبة، وبينهم أعتوبة يتعاتبون بها. يقال: إذا تعاتبوا أصلح ما بينهم **العتاب**. وأعتبني فلان: إذا عاد إلى مسرتي راجعا عن الإساءة، والاسم منه العتبى، وهو رجوع المعتوب عليه إلى ما يرضي العاتب. واستعتب وأعتب بمعنى، واستعتب أيضا طلب أن يعتب، تقول: استعتبته فأعتبني أي استرضيته فأرضاني. فمعنى" وإن يستعتبوا" أي طلبوا الرضا لم ينفعهم ذلك بل لا بد لهم من النار. وفي التفاسير: وإن يستقيلوا ربهم فما هم من المقالين. وقرأ عبيد بن عمير وأبو العالية" وإن يستعتبوا" بفتح التاء الثانية وضم الياء على الفعل المجهول" فما هم من المعتبين" بكسر التاء أي إن أقالهم الله وردهم إلى الدنيا لم يعملوا بطاعته لما سبق لهم في علم الله من الشقاء، قال الله تعالى:" ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه" [الأنعام: ٢٨] ذكره الهروي. وقال ثعلب: يقال أعتب إذا غضب وأعتب إذا رضي. قوله تعالى:" وقيضنا لهم قرناء" قال النقاش: أي هيأنا لهم شياطين. وقيل: سلطنا عليهم قرناء يزينون عندهم المعاصي، وهؤلاء القرناء من الجن والشياطين ومن الإنس أيضا، أي سببنا لهم قرناء، يقال: قيض الله فلانا لفلان أي جاءه به وأتاحه له، ومنه قوله تعالى:" وقيضنا لهم قرناء".

---

(١) تفسير القرطبي، شمس الدين القرطبي ١٤/٣٠٢

القشيري: ويقال قيض الله لي رزقا أي أتاحه كما كنت أطلبه، والتقييض الإبدال ومنه المقايضة، قايضت الرجل مقايضة أي عاوضته بمتاع، وهما قيضان كما تقول بيعان." فزينوا لهم ما بين أيديهم" من أمر الدنيا فحسنوه لهم حتى آثروه على الآخرة" وما خلفهم" حسنوا لهم ما بعد مماتهم ودعوهم إلى التكذيب بأمور الآخرة، عن مجاهد. وقيل: المعنى" قيضنا لهم قرناء" في النار" فزينوا لهم" أعمالهم في الدنيا، والمعنى قدرنا عليهم أن ذلك سيكون وحكمنا به عليهم. وقيل: المعنى أحوجناهم إلى الأقران، أي أحوجنا." (١)

"أما ترى بأني عالم أن لو أمرت بصاع أو صاعين من زبيب فأجعله في سقاء ثم أشن عليه من الماء فيصبح كأنه دم غزال، فقلت: يا أمير المؤمنين، أجل «١»! ما تنعت العيش، قال: أجل! والله الذي لا إله إلا هو لولا أني أخاف أن تنقص حسناتي يوم القيامة لشاركناكم في العيش! ولكني سمعت الله تعالى يقول لأقوام: أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها"." فاليوم تجزون عذاب الهون" أي الهوان." بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق" أي تتعظمون عن طاعة الله وعلى عباد الله." وبما كنتم تفسقون" تخرجون عن طاعة الله. وقال جابر: اشتهى أهلي لحما فاشتريته لهم فمررت بعمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: ما هذا يا جابر؟ فأخبرته، فقال: أو كلما اشتهى أحدكم شيئا جعله في بطنه! أما يخشى أن يكون من أهل هذه الآية:" أذهبتم طيباتكم" الآية. قال ابن العربي: وهذا **عتاب** منه له على التوسع بابتياع اللحم والخروج عن جلف الخبز والماء، فإن تعاطي الطيبات من الحلال تستشره لها الطباع وتستمرئها العادة فإذا فقدتها استسهلت في تحصيلها بالشبهات حتى تقع في الحرام المحض بغلبة العادة واستشراه الهوى على النفس الأمارة بالسوء، فأخذ عمر الأمر من أوله وحماه من ابتدائه كما يفعله مثله. والذي يضبط هذا الباب ويحفظ قانونه: على المرء أن يأكل ما وجد، طيبا كان أو قفارا «٢»، ولا يتكلف الطيب ويتخذه عادة، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يشبع إذا وجد، ويصبر إذا عدم، ويأكل الحلوى إذا قدر عليها، ويشرب العسل إذا اتفق له، ويأكل اللحم إذا تيسر، ولا يعتمده أصلا، ولا يجعله ديدنا. ومعيشة النبي صلى الله عليه وسلم معلومة، وطريقة الصحابة منقولة، فأما اليوم عند استيلاء الحرام وفساد الحطام فالخلاص عسير، والله يهب الإخلاص، ويعين على الخلاص برحمته. وقيل: إن التوبيخ واقع على ترك الشكر لا على تناول الطيبات المحللة، وهو حسن، فإن

---

(١). في بعض نسخ الأصل:" أجاد".

(٢). القفار (بالفتح): الطعام بلا أدم.." (٢)

---

(١) تفسير القرطبي، شمس الدين القرطبي ١٥/٣٥٤

(٢) تفسير القرطبي، شمس الدين القرطبي ١٦/٢٠٢

"تلقون ومبين عنه. والأفعال تبدل من الأفعال، كما قال تعالى: ومن يفعل ذلك يلق أثاما. يضاعف له العذاب «١» [الفرقان: ٦٩ - ٦٨]. وأنشد سيبويه:

متى تأتنا تلمم بنا في ديارنا ... تجد حطبا جزلا ونارا تأججا

وقيل: هو على تقدير أنتم تسرون إليهم بالمودة، فيكون استئنافا. وهذا كله معاتبة لحاطب. وهو يدل على فضله وكرامته ونصيحته لرسول الله صلى الله عليه وسلم وصدق إيمانه، فإن المعاتبة لا تكون إلا من محب لحبيبه «٢». كما قال:

أعاتب ذا المودة من صديق ... إذا ما رابني منه اجتناب

إذا ذهب **العتاب** فليس ود ... ويبقى الود ما بقي **العتاب**

ومعنى بالمودة أي بالنصيحة في الكتاب إليهم. والباء زائدة كما ذكرنا، أو ثابتة غير زائدة. قوله تعالى: (وأنا أعلم بما أخفيتم) أضمرتم وما أعلنتم أظهرتم. والباء في بما زائدة، يقال: علمت كذا وعلمت بكذا. وقيل: وأنا أعلم من كل أحد بما تخفون وما تعلنون، فحذف من كل أحد. كما يقال فلان أعلم وأفضل من غيره. وقال ابن عباس: وأنا أعلم بما أخفيتم في صدوركم، وما أظهرتم بألسنتكم من الإقرار والتوحيد. (ومن يفعله منكم) أي من يسر إليهم ويكاتبهم منكم (فقد ضل سواء السبيل) أي أخطأ قصد الطريق.

[سورة الممتحنة (٦٠): آية ٢]

إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء وودوا لو تكفرون (٢)

قوله تعالى: (إن يثقفوكم) يلقوكم ويصادفوكم، ومنه المثاقفة، أي طلب مصادفة الغرة في المسايفة وشبهها. وقيل: يثقفوكم يظفروا بكم ويتمكنوا منكم

---

(١). راجع ج ١٣ ص ٧٥.

(٢). في ح، ز، س:" لحبيب".." (١)

"وسلم فجعل، يقول: يا رسول الله أرشدني، وعند رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل من عظماء المشركين، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرض عنه، ويقبل على الآخر، ويقول: [أترى بما أقول بأسا] فيقول: لا، ففي هذا نزلت، قال: هذا حديث غريب. الثانية- الآية **عتاب** من الله لنبيه صلى الله عليه وسلم في إعراضه وتوليه عن عبد الله ابن أم مكتوم. ويقال: عمرو بن أم مكتوم، واسم أم مكتوم عاتكة بنت عامر بن مخزوم، وعمرو هذا: هو ابن قيس بن زائدة بن الأصم، وهو ابن خال خديجة رضي الله عنها. وكان قد تشاغل عنه برجل من عظماء المشركين، يقال كان الوليد بن المغيرة. ابن العربي: قاله المالكية من علمائنا، وهو يكنى أبا عبد شمس. وقال قتادة: هو أمية بن خلص وعنه: أبي بن خلف. وقال مجاهد: كانوا ثلاثة عتبة وشيبة ابنا ربيعة وأبي بن خلف. وقال عطاء عتبة بن ربيعة. سفيان الثوري:

---

(١) تفسير القرطبي، شمس الدين القرطبي ٥٤/١٨

كان النبي صلى الله عليه وسلم مع عمه العباس. الزمخشري: كان عنده صناديد قريش: عتبة وشيبة ابنا ربيعة، وأبو جهل بن هشام، والعباس بن عبد المطلب، وأمية بن خلف، والوليد بن المغيرة يدعوهم إلى الإسلام، رجاء أن يسلم بإسلامهم غيرهم. قال ابن العربي: أما قول علمائنا إنه الوليد بن المغيرة فقد قال آخرون إنه أمية بن خلف والعباس وهذا كله باطل وجهل من المفسرين الذين لم يتحققوا الدين، ذلك أن أمية بن خلف والوليد كانا بمكة وابن أم مكتوم كان بالمدينة، ما حضر معهما ولا حضرا معه، وكان موتهما كافرين، أحدهما قبل الهجرة، والآخر ببدر، ولم يقصد قط أمية المدينة، ولا حضر عنده مفردا، ولا مع أحد. الثالثة- أقبل ابن أم مكتوم والنبي صلى الله عليه وسلم مشتغل بمن حضره من وجوه قريش يدعوهم إلى الله تعالى، وقد قوي طمعه في إسلامهم وكان في إسلامهم إسلام من وراءهم من قومهم، فجاء ابن أم مكتوم وهو أعمى فقال: يا رسول الله علمني مما علمك الله، وجعل يناديه ويكثر النداء، ولا يدري أنه مشتغل بغيره، حتى ظهرت الكراهة في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم لقطعه كلامه، وقال في نفسه: يقول هؤلاء: إنما أتباعه العميان والسفلة." (١)

"وما يدريك أن ما طمعت فيه كائن. وقرأ الحسن" آأن «١» جاءه الأعمى" بالمد على الاستفهام ف- أن متعلقة بفعل محذوف دل عليه عبس وتولى التقدير: آأن جاءه أعرض عنه وتولى؟ فيوقف على هذه القراءة على وتولى، ولا يوقف عليه على قراءة الخبر، وهي قراءة العامة. السادسة- نظير هذه الآية في **العتاب** قوله تعالى في سورة الأنعام: ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي [الانعام: ٥٢] وكذلك قوله في سورة الكهف: ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا [الكهف: ٢٨] وما كان مثله، والله أعلم. أو يذكر يتعظ بما تقول فتنفعه الذكرى أي العظة. وقراءة العامة (فتنفعه) بضم العين، عطفا على يزكى. وقرأ عاصم وابن أبي إسحاق وعيسى فتنفعه نصبا. وهي قراءة السلمي وزر بن حبيش، على جواب لعل، لأنه غير موجب، كقوله تعالى: لعلي أبلغ الأسباب [غافر: ٣٦] ثم قال: فاطلع [الصافات: ٥٥].

[سورة عبس (٨٠): الآيات ٥ الى ٥١]

أما من استغنى (٥) فأنت له تصدى (٦) وما عليك ألا يزكى (٧) وأما من جاءك يسعى (٨) وهو يخشى (٩) فأنت عنه تلهى (١٠)

قوله تعالى: (أما من استغنى) أي كان ذا ثروة وغنى (فأنت له تصدى) أي تعرض له، وتصغي لكلامه. والتصدي: الإصغاء، قال الراعي:

تصدى لوضاح كأن جبينه ... سراج الدجى يحني إليه الأساور

«٢» وأصله تتصدد من الصد، وهو ما استقبلك، وصار قبالتك، يقال: داري صدد داره أي قبالتها، نصب على الظرف. وقيل: من الصدى وهو العطش. أي تتعرض له كما يتعرض العطشان للماء، والمصاداة: المعارضة. وقراءة العامة (تصدى)

---

(١) تفسير القرطبي، شمس الدين القرطبي ٢١٢/١٩

بالتخفيف، على طرح التاء

---

(١). قال الزمخشري وقرى (آأن) بهمزتين وألف بينهما.

(٢). الأسوار (بكسر الهمزة وضمها) قائد الفرس وقيل: هو الجيد الرمي بالسهام وقيل: هو الجيد الثبات على ظهر الفرس والجمع أساورة وأساور.." (١)

"تلحقوا به، فأنزل الله تعالى في ذلك (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل) إلى قول:" فآتاهم الله ثواب الدنيا" [آل عمران: ١٤٨]. وما نافية، وما بعدها ابتداء وخبر، وبطل عمل" ما". وقرأ ابن عباس" قد خلت من قبله الرسل" بغير ألف ولام. فأعلم الله تعالى في هذه الآية أن الرسل ليست بباقية في قومها أبدا، وأنه يجب التمسك بما أتت به الرسل وإن فقد الرسول بموت أو قتل. وأكرم نبيه صلى الله عليه وسلم [وصفيه] «١» باسمين مشتقين من اسمه: محمد وأحمد، وتقول العرب: رجل محمود ومحمد إذا كثرت خصاله المحمودة، قال الشاعر:

إلى الماجد القرم الجواد المحمد «٢»

وقد مضى هذا في الفاتحة «٣». وقال عباس بن مرداس:

يا خاتم النبآء إنك مرسل ... بالخير كل هدى السبيل هداكا

إن الإله بنى «٤» عليك محبة ... في خلقه ومحمدا سماكا

فهذه الآية من تتمة **العتاب** مع المنهزمين، أي لم يكن لهم الانهزام وإن قتل محمد، والنبوة لا تدرأ الموت، والأديان لا تزول بموت الأنبياء. والله أعلم. الثانية- هذه الآية أدل دليل على شجاعة الصديق وجرأته، فإن الشجاعة والجرأة حدهما ثبوت القلب عند حلول المصائب، ولا مصيبة أعظم من موت النبي صلى الله عليه وسلم كما تقدم بيانه في" البقرة" «٥» فظهرت عنده شجاعته وعلمه. قال الناس: لم يمت رسول الله صلى الله عليه وسلم، منهم عمر، وخرس عثمان، واستخفى علي، واضطرب الأمر فكشفه الصديق بهذه الآية حين قدومه من مسكنه بالسنح «٦»، الحديث، كذا في البخاري. وفي سنن ابن ماجه عن عائشة قالت: لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر عند امرأته ابنة خارجة بالعوالي، فجعلوا يقولون: لم يمت النبي صلى الله عليه وسلم إنما هو بعض ما كان يأخذه عند

---

(١). في ب وهـ.

---

(١) تفسير القرطبي، شمس الدين القرطبي ٢١٤/١٩

(٢). هذا عجز بيت للأعشى، وصدره:

إليك أبيت اللعن كان كلالها

والذي في الديوان: الماجد الفرع. كذا في ب و د وهـ. وفرع كل شي: أعلاه. [.....]

(٣). راجع ج ١ ص ١٣٣.

(٤). في د، واللسان: ثنى ولم يعرف هذا في اللغة. والأصول بنى.

(٥). راجع ج ٢ ص ١٧٦.

(٦). السنح (بضم أوله وسكون النون وقد تضم): موضع بعوالي المدينة، وهى منازل بنى الحارث بن الخزرج، بينهما وبين منزل النبي صلى الله عليه وسلم ميل.." (١)

"هاهنا لشيء، قد أهلك الله العدو وإخواننا في عسكر المشركين. وقال طوائف منهم: علام نقف وقد هزم الله العدو؟ فتركوا منازلهم التي عهد إليهم النبي صلي الله عليه وسلم ألا يتركوها، وتنازعوا وفشلوا وعصوا الرسول فأوجفت «١» الخيل فيهم قتلا. وألفاظ الآية تقتضي التوبيخ لهم، ووجه التوبيخ لهم أنهم رأوا مبادئ النصر، فكان الواجب أن يعلموا أن تمام النصر في الثبات لا في الانهزام. ثم بين سبب التنازع فقال: (منكم من يريد الدنيا). يعني الغنيمة. قال ابن مسعود: ما شعرنا أن أحدا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يريد الدنيا وعرضها حتى كان يوم أحد. (ومنكم من يريد الآخرة) وهم الذين ثبتوا في مركزهم، ولم يخالفوا أمر نبيهم صلى الله عليه وسلم مع أميرهم عبد الله بن جبير، فحمل خالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل عليه، وكانا يومئذ كافرين فقتلوه مع من بقي، رحمهم الله. **والعتاب** مع من انهزم لا مع من ثبت، فإن من ثبت فاز بالثواب، وهذا كما أنه إذا حل بقوم عقوبة عامة فأهل الصلاح والصبيان يهلكون، ولكن لا يكون ما حل بهم عقوبة، بل هو سبب المثوبة. والله أعلم. قوله تعالى: (ثم صرفكم عنهم ليبتليكم) أي بعد أن استوليتم عليهم ردكم عنهم بالانهزام. ودل هذا على أن المعصية مخلوقة لله تعالى. وقالت المعتزلة: المعنى ثم انصرفتم، فإضافته إلى الله تعالى بإخراجه الرعب من قلوب الكافرين من المسلمين ابتلاء لهم. قال القشيري: وهذا لا يغنيهم، لأن إخراج الرعب من قلوب الكافرين حتى يستخفوا بالمسلمين قبيح ولا يجوز عندهم، أن يقع من الله قبيح، فلا يبقى لقوله:" ثم صرفكم عنهم" معنى. وقيل: معنى" صرفكم عنهم" أي لم يكلفكم طلبهم قوله تعالى: (ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين) أي لم يستأصلكم بعد المعصية والمخالفة. والخطاب قيل هو للجميع. وقيل: هو للرماة الذين خالفوا ما أمروا به، واختاره الن حاس. وقال أكثر المفسرين: ونظير هذه الآية قوله:" ثم عفونا عنكم" [البقرة: ٥٢] «٢». (والله ذو فضل على المؤمنين) بالعفو والمغفرة. وعن ابن عباس قال: ما نصر النبي صلى الله

---

(١) تفسير القرطبي، شمس الدين القرطبي ٢٢٢/٤

(١). الإيجاف: سرعة السير.

(٢). راجع ج ١ ص ٣٩٧.." (١)

"قوله تعالى: (إن ينصركم الله فلا غالب لكم) أي عليه توكلوا فإنه إن يعنكم ويمنعكم من عدوكم لن تغلبوا .. (وإن يخذلكم) يترككم من معونته. (فمن ذا الذي ينصركم من بعده) أي لا ينصركم أحد من بعده، أي من بعد خذلانه إياكم، لأنه قال:" وإن يخذلكم" والخذلان ترك العون. والمخذول: المتروك لا يعبأ به. وخذلت الوحشية أقامت على ولدها في المرعى وتركت صواحباتها، فهي خذول. قال طرفة:

خذول تراعي ربربا بخميلة ... تناول أطراف البرير وترتدي «١»

وقال أيضا:

نظرت إليك بعين جارية ... خذلت صواحبها على طفل

وقيل: هذا من المقلوب، لأنها هي المخذولة إذا تركت. وتخاذلت رجلاه إذا ضعفتا. قال:

وخذول الرجل من غير كسح

«٢» ورجل خذلة للذي لا يزال يخذل. والله أعلم.

[سورة آل عمران (٣): آية ١٦١]

وما كان لنبي أن يغل ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون (١٦١)

فيه إحدى عشرة مسألة: الأولى- لما أخل الرماة يوم أحد بمراكزهم- على ما تقدم- خوفا من أن يستولي المسلمون على الغنيمة فلا يصرف إليهم شي، بين الله سبحانه أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يجور في القسمة، فما كان من حقكم أن تتهموه. وقال الضحاك: بل السبب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث طلائع في بعض غزواته ثم غنم قبل مجيئهم، فقسم للناس ولم يقسم للطلائع، فأنزل الله عليه عتابا:" وما كان لنبي أن يغل ومن يغلل" أي يقسم لبعض ويترك بعضا. وروي نحو هذا القول عن ابن عباس. وقال ابن عباس أيضا وعكرمة وابن جبير وغيرهم:

---

(١). الربوب: القطيع من بقر الوحش والظباء وغير ذلك. الخميلة: الأرض السهلة اللينة ذات الشجر. البرير:؟؟؟ الأراك.

(٢). هذا عجز بيت للأعشى وصدره: كل وضاح كريم جده.." (٢)

"لا سيما وقد ثبت في صحيح مسلم وكتاب النسائي وغيرهما قال: إنما سمل] النبي صلى الله عليه وسلم [«١» أعين أولئك لأنهم سملوا أعين الرعاة، فكان هذا قصاصا، وهذه الآية في المحارب المؤمن. قلت: وهذا قول حسن، وهو

---

(١) تفسير القرطبي، شمس الدين القرطبي ٤/٢٣٧

(٢) تفسير القرطبي، شمس الدين القرطبي ٤/٢٥٤

معنى ما ذهب إليه مالك والشافعي، ولذلك قال الله تعالى:" إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم" ومعلوم أن الكفار لا تختلف أحكامهم في زوال العقوبة عنهم بالتوبة بعد القدرة كما تسقط قبل القدرة. والمرتد يستحق القتل بنفس الردة- دون المحاربة- ولا ينفى ولا تقطع يده ولا رجله ولا يخلى سبيله بل يقتل إن لم يسلم، ولا يصلب أيضا، فدل أن ما اشتملت عليه الآية ما عني به المرتد. وقال تعالى في حق الكفار:" قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف" [الأنفال: ٣٨]. وقال في المحاربين:" إلا الذين تابوا" الآية، وهذا بين. وعلى ما قررناه في أول الباب لا إشكال ولا لوم ولا **عتاب** إذ هو مقتضى الكتاب، قال الله تعالى:" فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم" «٢» [البقرة: ١٩٤] فمثلوا فمثل بهم، إلا أنه يحتمل أن يكون **العتاب** إن صح على الزيادة في القتل، وذلك تكحيلهم بمسامير محماة وتركهم عطاشى حتى ماتوا، والله أعلم. وحكى الطبري عن السدي: أن النبي صلى الله عليه وسلم يسمل أعين العرنيين وإنما أراد ذلك، فنزلت الآية ناهية عن ذلك، وهذا ضعيف جدا، فإن الأخبار الثابتة وردت بالسمل، وفي صحيح البخاري: فأمر بمسامير فأحميت فكحلهم. ولا خلاف بين أهل العلم أن حكم هذه الآية مترتب في المحاربين من أهل الإسلام وإن كانت نزلت في المرتدين أو اليهود. وفي قوله تعالى:" إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله" استعارة ومجاز، إذ الله سبحانه وتعالى لا يحارب ولا يغالب لما هو عليه من صفات الكمال، ولما وجب له من التنزيه عن الأضداد والأنداد. والمعنى: يحاربون أولياء الله، فعبر بنفسه العزيزة عن أوليائه إكبارا لإذايتهم، كما عبر بنفسه عن الفقراء الضعفاء في قوله:" من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا"] البقرة: ٢٤٥] حثا على الاستعطاف عليهم، ومثله في صحيح السنة (استطعمتك فلم تطعمني). الحديث أخرجه مسلم، وقد تقدم في" البقرة" «٣».

---

(١). من ج وك وه.

(٢). راجع ج ٢ ص ٣٥٤.

(٣). راجع ج ٣ ص ٢٤٠.." (١)

"عليها، ولكن الباري عز وجل فرض ذلك عليهم أولا، وعلق «١» ذلك بأنكم تفقهون ما تقاتلون عليه، وهو الثواب. وهم لا يعلمون ما يقاتلون عليه. قلت: وحديث ابن عباس يدل على أن ذلك فرض. ثم لما شق ذلك عليهم حط الفرض إلى ثبوت الواحد للاثنين، فخفف عنهم وكتب عليهم ألا يفر مائة من مائتين، فهو على هذا القول تخفيف لا نسخ. وهذا حسن. وقد ذكر القاضي ابن الطيب أن الحكم إذا نسخ بعضه أو بعض أوصافه، أو غير عدده فجائز أن يقال إنه نسخ، لأنه حينئذ ليس بالأول، بل هو غيره. وذكر في ذلك خلافا.

---

(١) تفسير القرطبي، شمس الدين القرطبي ١٥٠/٦

[سورة الأنفال (٨): آية ٦٧]

ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم (٦٧)

فيه خمس مسائل: الأولى- قوله تعالى:" أسرى " جمع أسير، مثل قتيل وقتلى وجريح وجرحى. ويقال في جمع أسير أيضا: أسارى (بضم الهمزة) وأسارى (بفتحها) وليست بالعالية. وكانوا يشدون ال أسير بالقد وهو الإسار، فسمي كل أخيذ وإن لم يؤسر أسيرا. قال الأعشى:

وقيدني الشعر في بيته ... كما قيد الآسرات الحمارا

وقد مضى هذا في سورة" البقرة" «٢». وقال أبو عمر بن العلاء: الأسرى هم غير الموثقين عند ما يؤخذون، والأسارى هم الموثقون ربطا. وحكى أبو حاتم أنه سمع هذا من العرب. الثانية هذه الآية نزلت يوم بدر، **عتابا** من الله عز وجل لأصحاب نبيه صلى الله عليه وسلم. والمعنى: ما كان ينبغي لكم أن تفعلوا هذا الفعل الذي أوجب أن يكون للنبي

---

(١). هكذا في نسخ الأصل، والذي في ابن العربي: (وعلله بأنكم .. إلخ).

(٢). راجع ج ص ٢١.." (١)

"صلى الله عليه وسلم أسرى قبل الإثخان «١». ولهم هذا الإخبار بقوله" تريدون عرض الدنيا". والنبي صلى الله عليه وسلم لم يأمر باستبقاء الرجال وقت الحرب، ولا أراد قط عرض الدنيا، وإنما فعله جمهور مباشري الحرب، فالتوبيخ **والعتاب** إنما كان متوجها بسبب من أشار على النبي صلى الله عليه وسلم بأخذ الفدية. هذا قول أكثر المفسرين، وهو الذي لا يصح غيره. وجاء ذكر النبي صلى الله عليه وسلم في الآية حين لم ينه عنه حين رآه من العريش وإذ كره سعد ابن معاذ وعمر بن الخطاب وعبد الله بن رواحة، ولكنه عليه السلام شغله بغت الأمر ونزول النصر فترك النهي عن الاستبقاء، ولذلك بكى هو وأبو بكر حين نزلت الآيات. والله أعلم. روى مسلم من حديث عمر بن الخطاب، وقد تقدم أوله في" آل عمران" «٢» وهذا تمامه. قال أبو زميل: قال ابن عباس فلما أسروا الأسارى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر وعمر: (ما ترون في هؤلاء الأسارى)؟ فقال أبو بكر: يا رسول الله، هم بنو العم والعشيرة، أرى أن تأخذ منهم فدية، فتكون لنا قوة على الكفار، فعسى الله أن يهديهم للإسلام. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما ترى يا بن الخطاب)؟ قلت: لا والله يا رسول الله، ما أرى الذي رأى أبو بكر، ولكني أرى أن تمكنا فنضرب أعناقهم، فتمكن عليا من عقيل فيضرب عنقه، وتمكني من فلان (نسيبا لعمر) فأضرب عنقه، فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها. فهوي رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قال أبو بكر ولم يهو ما قلت، فلما كان من الغد جئت فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر قاعدين يبكيان، فقلت: يا رسول الله، أخبرني من أي شي تبكي أنت وصاحبك، فإن وجدت بكاء بكيت، وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أبكي للذي عرض علي أصحابك

---

(١) تفسير القرطبي، شمس الدين القرطبي ٤٥/٨

من أخذهم الفداء لقد عرض علي عذابهم أدنى من هذه الشجرة) (شجرة قريبة كانت من نبي الله صلى الله عليه وسلم) وأنزل الله عز وجل" ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض" إلى قوله تعالى:" فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا" [الأنفال: ٦٩] فأحل الله الغنيمة لهم. وروى يزيد بن هارون

---

(١). الإثخان في الشيء: المبالغة فيه والإكثار منه، والمراد به هنا: المبالغة في قتل الكفار.

(٢). راجع ج ٤ ص ١٩٣. [.....]." [1]

"[سورة التوبة (٩): آية ٣٨]

يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل (٣٨)

فيه مسألتان: الأولى- قوله تعالى: (ما لكم) " ما" حرف استفهام معناه التقرير والتوبيخ التقدير: أي شي يمنعكم عن كذا كما تقول: مالك عن فلان معرضا. ولا خلاف أن هذه الآية نزلت **عتابا** على تخلف من تخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك، وكانت سنة تسع من الهجرة بعد الفتح بعام، وسيأتي ذكرها في آخر السورة إن شاء الله. والنفر: هو التنقل بسرعة من مكان إلى مكان لأمر يحدث، يقال في ابن آدم: نفر إلى الام ينفر نفورا. وقوم نفور، ومنه قوله تعالى:" ولوا على أدبارهم نفورا" «١» [الاسراء: ٤٦]. ويقال في الدابة: نفرت تنفر (بضم الفاء وكسر ها) نفارا ونفورا. يقال: في الدابة نفار، وهو اسم مثل الحران. ونفر الحاج من منى نفرا. الثانية- قوله تعالى: (اثاقلتم إلى الأرض) قال المفسرون: معناه اثاقلتم إلى نعيم الأرض، أو إلى الإقامة بالأرض. وهو توبيخ على ترك الجهاد **وعتاب** على التقاعد عن المبادرة إلى الخروج، وهو نحو من أخلد إلى الأرض. وأصله تثاقلتم، أدغمت التاء في الثاء لقربها منها، واحتاجت إلى ألف الوصل لتصل إلى النطق بالساكن، ومثله" اداركوا" «٢» [الأعراف: ٣٨] و" فادارأتم" «٣» [البقرة: ٧٢] و" اطيرنا" «٤» [النمل: ٤٧] و" ازينت" «٥» [يونس: ٢٤]. وأنشد الكسائي:

تولي الضجيع إذا ما استافها خصرا ... عذب المذاق إذا ما اتابع القبل «٦»

---

(١). راجع ج ١٠ ص ٢٧١.

(٢). راجع ج ٧ ص ٢٠٤.

(٣). راجع ج ١ ص ٤٥٥.

(٤). راجع ج ١٣ ص ٢١٤.

---

(١) تفسير القرطبي، شمس الدين القرطبي ٨/٤٦

(٥). راجع ج ٨ ص ٣٢٦.

(٦). ساف الشيء يسوفه ويسافه سوفا وساوفه واستافه كله شمه. والخصر: البارد من كل شي.." (١)

"أو مرماتين «١» حسنتين لشهد العشاء (. يقول: لو علم أحدهم أنه يجد شيئا حاضرا معجلا يأخذه لأتى المسجد من أجله.) ولكن بعدت عليهم الشقة) حكى أبو عبيدة وغيره أن الشقة السفر إلى أرض بعيدة. يقال: منه شقة شاقة. والمراد بذلك كله غزوة تبوك. وحكى الكسائي أنه يقال: شقة وشقة. قال الجوهري: الشقة بالضم من الثياب، والشقة أيضا السفر البعيد وربما قالوه بالكسر. والشقة شظية تشظى من لوح أو خشبة. يقال للغضبان: احتد فطارت منه شقة، بالكسر. (وسيحلفون بالله لو استطعنا) أي لو كان لنا سعة في الظهر والمال. (لخرجنا معكم) نظيره" ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا" [آل عمران: ٩٧] فسرها النبي صلى الله عليه وسلم فقال: (زاد وراحلة) وقد تقدم «٢». (يهلكون أنفسهم) أي بالكذب والنفاق. (والله يعلم إنهم لكاذبون) في الاعتلال.

[سورة التوبة (٩): آية ٤٣]

عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين (٤٣)

قوله تعالى: (عفا الله عنك لم أذنت لهم) قيل: هو افتتاح كلام، كما تقول: أصلحك الله وأعزك ورحمك! كان كذا وكذا. وعلى هذا التأويل يحسن الوقف على قوله:" عفا الله عنك"، حكاه مكي والمهدوي والنحاس. وأخبره بالعفو قبل الذنب لئلا يطير قلبه فرقا «٣». وقيل: المعنى عفا الله عنك ما كان من ذنبك في أن أذنت لهم، فلا يحسن الوقف على قوله:" عفا الله عنك" على هذا التقدير، حكاه المهدوي واختاره النحاس. ثم قيل: في الإذن قولان: [الأول [" لم أذنت لهم" في الخروج معك، وفي خروجهم بلا عدة ونية صادقة فساد. [الثاني [-" لم أذنت لهم" في القعود لما اعتلوا بأعذار، ذكرهما القشيري قال: وهذا عتاب تلطف إذ قال:" عفا الله عنك". وكان عليه السلام أذن من غير وحي نزل فيه. قال قتادة وعمرو بن ميمون: ثنتان فعلهما النبي صلى الله عليه وسلم] و [«٤» لم يؤمر

---

(١). مرماتين (بكسر الميم) وقد تفتح. تثنية مرماة، وهي ظلف الشاة، أو ما بين ظلفها من اللحم.

(٢). راجع ج ٤ ص ١٥٣.

(٣). الفرق بالتحريك: الخوف والجزع.

(٤). من ج.." (٢)

"بهما: إذنه لطائفة من المنافقين في التخلف عنه ولم يكن له أن يمضي شيئا إلا بوحي وأخذه من الأسارى الفدية فعاتبه الله كما تسمعون. قال بعض العلماء: إنما بدر منه ترك الاولى فقدم الله له العفو على الخطاب الذي هو في صورة

---

(١) تفسير القرطبي، شمس الدين القرطبي ٨/١٤٠

(٢) تفسير القرطبي، شمس الدين القرطبي ٨/١٥٤

العتاب. قوله تعالى: (حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين) أي ليتبين لك من صدق ممن نافق. قال ابن عباس: وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن يومئذ يعرف المنافقين وإنما عرفهم بعد نزول سورة] التوبة [. وقال مجاهد: هؤلاء قوم قالوا: نستأذن في الجلوس فإن أذن لنا جلسنا وإن لم يؤذن لنا جلسنا. وقال قتادة: نسخ هذه الآية بقوله في سورة" النور":" فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم" «١» [النور: ٦٢]. ذكره النحاس في معاني القرآن له.

[سورة التوبة (٩): الآيات ٤٤ الى ٤٥]

لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم والله عليم بالمتقين (٤٤) إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون (٤٥)

إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون (٤٥) قوله تعالى: (لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر) أي في القعود ولا في الخروج، بل إذا أمرت بشيء ابتدروه، فكان الاستئذان في ذلك الوقت من علامات النفاق لغير عذر، ولذلك قال: (إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون). روى أبو داود عن ابن عباس قال: (لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله) نسختها التي في (النور) (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله- إلى قوله- غفور رحيم) «٢» " أن يجاهدوا" في موضع نصب بإضمار في، عن الزجاج. وقيل: التقدير

(١). راجع ج ١٢ ص ٣٢٠ فما بعد.

(٢). راجع ج ١٢ ص ٣٢٠ فما بعد.." (١)

"المستقبل، فقيل: هذا تنبيه على ظفرهم بعدوهم في الحال والاستقبال، أي إن ينصركم الله على عدوكم انتصرتم عليه في الحال، ولا يغلبكم بعد ذلك [أحد*]، إن الله معكم، فذكر ظفرهم بعدوهم في الاستقبال بالطائفة وفي الحال باللزوم، وتقدير الثاني: [وإن يخذلكم*] هزمتم، (فمن ذا الذي ينصركم من بعده)، وأجيب: أيضا بأن نصرة الله بأحد الوجهين: إما بأن يغلبوا عدوهم، وإما بممانعة حتى يساوونه ولا يغلبهم أحد، وذلك إذا كان أكثر منهم، وأشد قوة، وهم في غاية الضعف، فينصرهم الله عليهم، بمعنى أنه يمنعهم من غلبتهم، وإن قلت في الثاني: (وإن يخذلكم) فلا ناصر لكم، فالجواب: إذا كان المخاطب موافقا على ما خوطب به، فيؤتى بخطابه بحرف الاستفهام.

(١) تفسير القرطبي، شمس الدين القرطبي ١٥٥/٨

قوله تعالى: ﴿وما كان لنبي أن يغل ... (١٦١)﴾

قرئ [(يغل)، وهو من الغلول، بمعنى الخيانة في الغنيمة وغيرها، وقرئ (يغل)] وهو من غل يغل، وهو من الغل، بمعنى الحسد و الحقد، وحكى ابن عطية عن الضحاك، أن سبب نزولها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث طلائع في بعض غزواته، ثم غنم قبل مجيئهم، فقسم للغانمين، ولم يقسم للطلائع فأنزل الله هذه الآية [عليه **عتابا***] [**فصرفه عن الجبال معنى، والتقديرية للجهات وهذا قبيح]، ومبادرته لما فيه من التعرض لمقامه والمناقضة، لقوله تعالى: (وما ينطق عن الهوى).

ابن عرفة: والصواب عندي فيه آخر، وهو أن يبقي على حقيقته، ويكون المراد أن جميع ما صدر منه صلى الله عليه وعلى آله وسلم ليس بغلول؛ لأنه شرع في أفعاله كلها، لا غلول فيها بوجه، وإن كان ظاهرها الغلول لمن أراد، ويمنع منهم من رد قراءة (يغل) يعني، ما كان له أن يصور فإلا، أي لا ينبغي أن يعتقد فيه الغلول بوجه.

ابن عرفة: ويصح العكس، وهو رد يغل إلى يغل، ويكون فعل على حذف مضاف، وما كان لتابعي النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أن يغل فإذا لم يغل [تابعه*] صدق أنه لا يغل، وهذا على سبيل النهي.

قوله تعالى: (ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة).." (١)

"ابن عطية: الآية توبيخ للمؤمنين، ابن عرفة: هذه عبارة ثقيلة، والصواب أنها **عتاب** للمؤمنين.

ابن عرفة: وأخذوا منها أصلين:

الأول: ترجيح الاتفاق على الاختلاف وإنما الخلاف شر، فإذا تعارض حمل الأقوال على الاتفاق أو على الاختلاف نحملها على الاتفاق، وأجيب: بأن تلك في العقليات والاعتقادات، وأما الأمور الشرعية فلا ينتج هذا فيها بوجه؛ لأن هذا أمر اعتقادي عقلي ديني.

الثاني: إذا تعارض الأصل والغالب فالغالب مقدم، والأصوليون يرجحون تقديم الأصل، وقد رجح مالك رحمه الله في مسائل منها قوله في الحمار [قلت: أرأيت الحمار الوحشي إذا دجن وصار يعمل عليه كما يعمل على الأهلي؟ قال: قال مالك: إذا صار بهذه المنزلة فلا يؤكل] الوحشي: إذا [إذا دجن وصار*] (١) يحمل عليه أنه لا يؤكل مراعاة للغالب، ولو راعى الأصل لجاز أكله وهنا كذلك؛ لأن من يقول بإيمان المنافقين راعى الأصل؛ لأنهم كانوا مؤمنين، ومن يقل بكفرهم راعى الغالب وهو ما ظهر من حالهم في عدم عزتهم وعدم قتالهم.

قوله تعالى: (أتريدون أن تهدوا من أضل الله).

أي من الله ضلاله.

قوله تعالى: (ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا).

قال ابن عرفة: إن كانت وقتية أي ومن يضلل الله وقتا ما فهذا العموم يجب تخصيصه وإن كانت دائمة أي (ومن يضلل الله) دائما فاللفظ باق على عمومه من غير تخصيص، فإن قلت: هلا قيل: فلا سبيل له فهو أعم وأبين، فالجواب أنها

---

(١) تفسير ابن عرفة النسخة الكاملة، ابن عرفة ٤٣٨/١

مسألة بحث فأسند إلى ما يناسب الوجدان المقتضي للبحث والتأمل.

قوله تعالى: ﴿ودوا لو تكفرون كما كفروا ... (٨٩)﴾

قال ابن عرفة: إن كانت لو مصدرية فظاهر ذمهم على تمنيهم الكفر، وإن كانت شرطية فما تمنوه حق لازم فيه؛ لأنهم تمنوا الملازمة، والملازمة بحجة كقولك: وديته لو كفر زيد أن يدخل النار إلا أن يقال: إن التمني متسلط على فعل الشرط فقط وهو بعيد.

قوله تعالى: (فلا تتخذوا منهم أولياء).

____

(١) تم جبر هذا السقط من (المدونة. ١/ ٥٤٢).." (١)

"قوله تعالى: ﴿ولو شاء الله لجمعهم على الهدى ... (٣٥)﴾

المراد الهداية بالفعل واعتزل [المهدوي*] هنا، فقال: لاضطرهم إلى الهداية فاهتدوا.

قيل لابن عرفة: قال بعضهم: لو شاء الله لنصب لهم الدلائل المتوسطة ليظهر الحكمة في ذلك فيؤمن بعضهم ويكفر بعضهم فيقع الثواب والعقاب بسبب.

قوله تعالى: (فلا تكونن من الجاهلين).

وقال لنوح: (إني أعظك أن تكون من الجاهلين) فأورد المفسرون سؤالا من ناحية أن [الخطاب للنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم*]، والمراد أمته، وإما أن نوحا خوطب بهذا السند وسببه، وإما لأن القريب المحبوب ليشدد عليه النهي أكثر ممن ليس كذلك كراهة أن يقع المحظور، قلت: ونحوه نقل القاضي عياض في مداركه عن بعضهم لمن عرف بالسهروردي المالكي فقيه بغداد، وأنشدوا:

[لا تصيب*] الصديق قارعة التأنيب ... إلا من الصديق الرغيب

وأخبر ابن عطية بأن الأمر الذي نهى عنه نبينا صلى الله عليه وعلى آله وسلم أكبر وأعظم من الذي نهى عنه نوح عليه السلام، فكان النهي في [الأمرين اللذين وقع النهي عنهما **والعتاب** فيهما*] بحسب تعلقه (١)، ابن عرفة: وعادتهم يجيبون بوجهين:

أحدهما أن نوحا خوطب بهذا حيث لم يكن هنالك كفار بوجه؛ لأنه خوطب به بعد أن غرق الكفار، ولم يبق سوى هو وقومه، والنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم خوطب بذلك في محل الكفار. [ليعتبروا*] بهم، فشدد عليه في النهي لينزجر الكفار ويتعظوا.

الثاني: أن هذا ينتج العكس سواء، فيعجل نهيه مقرونا بالتخويف، لقوله (إني أعظك) هو أكثر من نهي النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، قلت: وكذا قال القاضي عياض في مداركه لما ذكر ما نقلنا عنه، ثم قال: والصحيح أن الآيتين

____

(١) تفسير ابن عرفة النسخة الكاملة، ابن عرفة ٢/ ٤٣

بمعنى وانظر كتاب الشفاء لعياض.

قوله تعالى: ﴿إنما يستجيب الذين يسمعون والموتى ... (٣٦)﴾
قال ابن عرفة: هذا يحتمل وجهين:

---

(١) قال القاضي أبو محمد: والوجه القوي عندي في الآية هو أن ذلك لم يجئ بحسب النبيين، وإنما جاء بحسب الأمرين اللذين وقع النهي عنهما **والعتاب** فيهما، وبين أن الأمر الذي نهى عنه محمد صلى الله عليه وسلم أكبر قدرا وأخطر مواقعة من الأمر الذي واقعه نوح صلى الله عليه وسلم. اهـ (المحرر الوجيز. ٢/ ٢٨٨).." (١)
"سورة الكهف
قوله تعالى: ﴿الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ... (١)﴾
قال الزمخشري: هذا تعليم للأمة كيف يحمدونه على نعمائه، وقال ابن عطية: لما [عانده*] الكفار، وأنزل الكتاب عليه للجزاء لهم، أمر بأن [يحمد الله*] على ذلك (١)، وفيه سؤالان: الأول: هلا قيل لا عوج له، فهو أخص من قوله (ولم يجعل له عوجا)؟، الثاني: هلا [قيل*]: ولم يجعل فيه عوجا، فهو أبلغ؟ وأجيب عن الأول بأن الجعل أسند إلى الله تعالى فلا فرق بين كون العوج منفيا عنه لذاته أو باعتبار الجعل؛ لأن الكل مسند إليه لأنه كلامه؟ وأجيب عن الثاني بأن فيه أخص من له ونفي الأعم يستلزم نفي الأخص ولا ينعكس.

قوله تعالى: ﴿قيما ... (٢)﴾ .. جعله الزمخشري تأكيدا، وأجاب ابن عرفة بأنه تأسيس، قال: لأن إقليدس فسر المستقيم بأنه أقرب خط بين نقطتين أو الخط المتوازي بين نقطتين وأن الموجودات أولها النقطة ثم الخط ثم السطح ثم الجسم ثم الدائرة فلا شك أن الجسم والخط يصدق عليه الاعوجاج والاستقامة، وأما النقطة فما يصدق عليها إنها معوجة ولا إنها مستقيمة، وكلام الزمخشري يقتضي أنه كلما انتفى الاعوجاج ثبتت الاستقامة، وليس كذلك بل ينتفي الاعوجاج ولا يثبت الاستقامة ما قلناه في النقطة قيل له إنها على طرفي النقيض وإنما يصح ما قاله فيما هو قائل لها بحيث إذا انتفى أحدهما عنه ثبت له الآخر بدليل أن الغرض لا يقال له إنه متحرك ولا ساكن، والحركة والسكون نقيضان فقال ما نزعناه في قوله كلما انتفى الاعوجاج تثبت الاستقامة قيل له: وهذا معنى من المعاني فليس يقابل لهما.
قوله تعالى: ﴿فلعلك باخع نفسك على آثارهم ... (٦)﴾
تقرئ (نفسك) بالفتح والكسر (٢)، وكان بعضهم يقول الفرق بين قولك زيد ضارب [عمروا*] [وبين قولك زيد ضارب عمرو، أنك*] إن أردت الإخبار عن مجرد ضربه عمرو نصبت وإن أردت الإخبار عن خصيصه بضرب عمرو وخصصت ل أ ن من أنواع الإضافة التخصيص.

---

(١) تفسير ابن عرفة النسخة الكاملة، ابن عرفة ١٥٢/٢

قوله تعالى: ﴿فضربنا على آذانهم ... (١١)﴾

الفاء للسبب ولا يصح أن تكون عاطفة على (فقالوا) لأنها تشترك في الإعراب والمعنى وهذا ليس من قولهم.

---

(١) النص في المحرر الوجيز هكذا:

"وسبب هذه البدأة في هذه السورة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما سألته قريش عن المسائل الثلاث، الروح، والكهف، وذي القرنين، حسبما أمرتهم بهن يهود، قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم غدا أخبركم، بجواب سؤالكم، ولم يقل إن شاء الله، فعاتبه الله عز وجل بأن استمسك الوحي عنه خمسة عشر يوما، فأرجف به كفار قريش، وقالوا: إن محمدا قد تركه ربه الذي كان يأتيه من الجن، وقال بعضهم: قد عجز عن أكاذيبه إلى غير ذلك، فشق ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم وبلغ منه، فلما انقضى الأمد الذي أراد الله تعالى **عتاب** محمد إليه، جاءه الوحي من الله بجواب الأسئلة وغير ذلك، فافتتح الوحي بحمد الله الذي أنزل على عبده الكتاب أي بزعمكم أنتم يا قريش، وهذا كما تقول لرجل يحب مساءتك فلا يرى إلا نعمتك الحمد لله الذي أنعم علي وفعل بي كذا على جهة النقمة عليه." اهـ (المحرر الوجيز. ٣/ ٤٩٤).

(٢) (باخع نفسك)، على الأصل، وعلى الإضافة (باخع نفسك): أى قاتلها ومهلكها. اهـ." (١)

"قوله تعالى: ﴿وإذ تقول للذي أنعم الله عليه ... (٣٧)﴾

قال ابن عرفة: هذا الفعل المراد به المعنى لاقترانه بـ إذ، وأتى بلفظ المضارع للتصوير.

قوله تعالى: (وتخشى الناس).

لا ينبغي حمله على أنه خاف فقط، بل المراد عناية خلط خوفه من الله تعالى بخوفه من الناس، وأمره بأن لا يخاف إلا الله فقط غير منسوب بشيء.

قال: وكان بعضهم يقول: عقاب [المالك*] لمملوكه على عدم تصرفه في ماله اعتناء منه به، وكذلك **عتاب** الله تعالى نبيه صلى الله عليه وعلى آله وسلم على إخفائه ما وقع في نفسه [وحضه*] لزيد رضي الله عنه على إمساك زينب رضي الله عنها، وامتناعه من تزويجها، فإن الجميع ملك لله تعالى.

قوله تعالى: (زوجناكها لكي لا يكون على المؤمنين حرج).

قال ابن عرفة: احتج الأصوليون على وجوب الاقتداء بالنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فيما يثبت فيه خصوصية، ولولا ذلك لما احتيج إلى تعليله بنفي الحرج عن المؤمنين، ومنهم من احتج به على عدم وجوب الاقتداء.

وقال: التعليل بهذا دل على صحة الاقتداء به في هذه القضية فقط، فالخصوصية ثابتة حتى يدل الدليل على الاقتداء حسبما أشار إليه ابن الحاجب، وعلى هذا يكون من باب تخصيص العام بحكم العام.

---

(١) تفسير ابن عرفة النسخة الكاملة، ابن عرفة ٣/٨٠

قوله تعالى: ﴿ما كان على النبي من حرج ... (٣٨)﴾
أي من نقص.
قيل لابن عرفة: وكذلك ما عمل غيره من الناس من حرج فيما فرض الله له، أوجب الله له فيما نفى الحرج فيه، وإن كان معناه فيما قدر الله له فيدخل فيه المباح، فيكون نفي الحرج عنه لما قد يتوهم في حقه من أنه لعلو منزلته، قد لا يفعل المباحات ويشدد على نفسه فيها كما يشاهد بعض أشراف الناس يتنزه عن أشياء يفعلها غيره.
قلت: وانظر قوله تعالى: (وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق) قوله صلى الله عليه وسلم: " [لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني*] "..." (١)
"سورة الصف
ابن عطية: مكية، وقيل: بعضها مكي وبعضها مدني، الزمخشري: مكية ولم يحكي خلافا، ثم لما ذكر سبب نزول قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون)، قال: إن المؤمنين قالوا: لو نعلم أحب الأعمال إلى الله تعالى [لعملناه*] ولبذلنا فيه أموالنا وأنفسنا، فدلهم الله على الجهاد، [فولوا يوم أحد فعيرهم*]، [وقيل*] لما أخبر الله تعالى بثواب شهداء بدر، [قالوا: لئن لقينا قتالا لنفرغن فيه وسعنا، ففروا يوم أحد ولم يفوا*] (١)، بقولهم، فنزلت الآية فظاهر هذا أن بعضها مدني، لأن غزوة بدر وأحد إنما كانت بعد الهجرة، فإن قلت: لا يبعد أن تكون الآية نزلت عتابا لهم فيما سيقع منهم لا ما وقع، قلت: قد قال الزمخشري: سبب نزولها عدم وفائهم بقولهم فهذا هو التناقض.

قوله تعالى: ﴿سبح لله ما في السماوات ... (١)﴾
السبب القوي أدل على وجود السبب من السبب الذي لا يساويه في تلك القوة ، فإذا كان الناظر إلى السماوات والأرض يسبح الله، فأحرى الناظر لنفس السماوات والأرض، ويستفاد هذا أيضا من دلالة تركيب النصوص لقوله تعالى: (وإن من شيء إلا يسبح بحمده).
قوله تعالى: (وهو العزيز الحكيم).
يجري مجرى العلة، ابن عطية: (العزيز) في سلطانه وقدرته (الحكيم) في أفعاله وتدبيره، المقترح في الأسرار العقلية، الحكمة راجعة للعلم بمعنى وضعه الأشياء في محلها، وإن قلت: المراد بها الانتقال يشتمل صفة العلم والإرادة، الآمدي في إبكار الأفكار: قيل: معناه الحاكم، وقيل: العليم فهو صفة علمية، وقيل: المتقن للأشياء فهي صفة فعلية، والحاكم الفاصل بالقول والأخبار أو بالقضاء والقدرة، وقيل: الحاكم المانع فالأول: صفة كلامية، والثاني: راجع للقدرة والإرادة.

قوله تعالى: ﴿لم تقولون ما لا تفعلون (٢)﴾

---

(١) تفسير ابن عرفة النسخة الكاملة، ابن عرفة ٣/٣٠٠

حضهم على أمر مركب من القول وعدم الفعل، والمركب [...] بأحد جزئيه، فهل المراد نفي القول أو نفي الفعل؟ فتوبيخهم على قولهم ما لا يفعلونه، هل معناه قولوا لنا [لم لا تفعلونه*]، أو أن الصواب أن لا يقولوا [آمنا لما لا يفعلونه*]، والظاهر الأول، لأن الثاني ينتفي فيه مصلحة القول، وكان بعضهم يورد في الآية سؤالا، تقريره أن ما لا [يلزمه*] فعل شيء فلم يفعله، إنما يعاقب على عدم الفعل لا على التزام ما لا يوف به،

---

(١) النص في الكشاف هكذا:

"روى أن المؤمنين قالوا قبل أن يؤمروا بالقتال: لو نعلم أحب الأعمال إلى الله تعالى لعملناه ولبذلنا فيه أموالنا وأنفسنا، فدلهم الله تعالى على الجهاد في سبيله، فولوا يوم أحد فعيرهم. وقيل: لما أخبر الله بثواب شهداء بدر قالوا: لئن لقينا قتالا لنفرغن فيه وسعنا، ففروا يوم أحد ولم يفوا. وقيل: كان الرجل يقول: قتلت ولم يقتل، وطعنت ولم يطعن، وضربت ولم يضرب، وصبرت ولم يصبر. وقيل: كان قد أذى المسلمين رجل ونكى فيهم، فقتله صهيب وانتحل قتله آخر، فقال عمر لصهيب: أخبر النبي عليه السلام أنك قتلته، فقال: إنما قتله لله ولرسوله، فقال عمر: يا رسول الله قتله صهيب، قال: كذلك يا أبا يحيى؟

قال: نعم، فنزلت «١» في المنتحل. وعن الحسن: نزلت في المنافقين. ونداؤهم بالإيمان: تهكم بهم وبإيمانهم". اهـ.." (١)

"أمرين إما أن يقدموا فتضرب أعناقهم وبين أن يأخذوا الفداء على أن يقتل منهم عدتهم، فدعا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الناس فذكر ذلك لهم فقالوا يا رسول الله عشائرنا وإخواننا، لا بل نأخذ فداءهم فنقوى به على قتال عدونا ويستشهد منا عدتهم، فليس في ذلك ما نكره فقتل منهم يوم أحد سبعون رجلا عدة أسارى أهل بدر.

وهذا الحديث في سنن الترمذي والنسائي، قال الترمذي حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث ابن أبي زائدة.

وعن عمر بن الخطاب قال لما كان يوم أحد من العام المقبل عوقبوا بما صنعوا يوم بدر من أخذهم الفداء فقتل منهم سبعون وفر أصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم عنه وكسرت رباعيته وهشمت البيضة على رأسه وسال الدم على وجهه فأنزل الله سبحانه وتعالى يعني هذه الآية وأخرجه أحمد بأطول منه.

ولكنه يشكل على حديث التخيير السابق ما نزل من المعاتبة منه سبحانه وتعالى لمن أخذ الفداء بقوله: (ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض) وما روي من بكائه صلى الله عليه وآله وسلم هو وأبو بكر ندما على أخذ الفداء ولو كان أخذ ذلك بعد التخيير لهم من الله سبحانه لم يعاتبهم عليه، ولا حصل ما حصل من النبي صلى الله عليه وآله وسلم ومن معه من الندم والحزن، ولا صوب النبي صلى الله عليه وآله وسلم رأى عمر حيث أشار بقتل الأسرى وقال

---

(١) تفسير ابن عرفة النسخة الكاملة، ابن عرفة ٢٢١/٤

ما معناه لو نزلت عقوبة لهم لم ينج منها إلا عمر، والجميع في كتب الحديث والسير.
أقول ويمكن الجمع بأن يقال إن **العتاب** نزل أولا ثم نزل التخيير لأن **العتاب** على الشروع والعزم على الفداء، والتخيير على تمامه، ويؤيده قوله في الحديث " إن الله قد كره ما صنع قومك " (إن الله على كل شيء قدير) ومنه نصركم على الطاعة وترك نصركم مع المخالفة.." (١)

"الجمهور يخصفان من خصف، والمعنى أنهما أخذا يقطعان الورق ويلزقانه بعورتهما ليستراها من خصف المنعل إذا جعله طبقة فوق طبقة.
عن عكرمة قال: كان لباس كل دابة منها ولباس الإنسان الظفر فأدركت آدم التوبة عند ظفره، وقال ابن عباس: كان لباس آدم وحواء كالظفر فلما أكلا من الشجرة لم يبق عليهما إلا مثل الظفر وطفقا ينزعان ورق التين فيجعلانه على سؤآتهما، وعنه قال لما سكن آدم الجنة كساه سربالا من الظفر فلما أصاب الخطيئة سلبه السربال فبقي في أطراف أصابعه.
وعن أنس بن مالك قال: كان لباس آدم في الجنة الياقوت فلما عصى قلص فصار الظفر، وقال مجاهد: يخصفان يرقعان كهيئة الثوب، وفي الآية دليل على أن كشف العورة من ابن آدم قبيح، ألا ترى أنهما بادرا إلى ستر العورة لما تقرر في عقلهما من قبح كشفها.
(وناداهما ربهما) قائلا لهما (ألم أنهكما عن تلكما الشجرة) التي نهيتكما عن أكلها، وهذا **عتاب** من الله تعالى لهما وتوبيخ حيث لم يحذرا ما حذرهما منه والاستفهام للتقرير (وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين) أي مظهر للعداوة بترك السجود حسدا وبغيا كما قال في سورة طه فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك الآية، قال السدي: قال آدم إنه حلف لي بك ولم أكن أعلم أن أحدا من خلقك يحلف بك إلا صادقا.." (٢)
"والثاني: أنه مغفرة الله لأهل بدر ما تقدم من ذنوبهم وما تأخر كما في الحديث الصحيح " إن الله اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم " (١).
القول الثالث: هو أنه لا يعذبهم ورسول الله فيهم كما قال تعالى (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم).
القول الرابع: أنه لا يعذب أحدا بذنب فعله جاهلا لكونه ذنبا.
القول الخامس: أنه ما قضاه الله من محو الصغائر باجتناب الكبائر.
القول السادس: إنه لا يعذب أحدا إلا بعد تأكيد الحجة وتقديم النهي ولم يتقدم نهي عن ذلك، وذهب ابن جرير الطبري إلى أن هذه المعاني كلها داخلة تحت اللفظ وأنه يعمها.
(لمسكم) أي لحل بكم (فيما) أي لأجل ما (أخذتم) من الفداء (عذاب عظيم) وهذا **عتاب** له صلى الله عليه وسلم

---

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٣٧١/٢
(٢) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٣٢١/٤

على ترك الأولى إذ كان الأولى له تدارك كثرة القتل فيهم لا الفداء وليس **عتابا** على فعل محرم تنزيها لمنصب النبوة عن ذلك.

وقد أخرج أحمد عن أنس قال: ا ستشار النبي صلى الله عليه وسلم الناس في الأسارى يوم بدر فقال: " إن الله قد أمكنكم منهم، فقام عمر بن الخطاب فقال: يا رسول الله اضرب أعناقهم فأعرض عنه النبي صلى الفه عليه وآله وسلم ثم عاد فقال: مثل ذلك فقام أبو بكر الصديق فقال: نرى أن تعفو عنهم وإن تقبل منهم الفداء فعفا عنهم وقبل منهم الفداء فأنزل الله ولولا كتاب من الله سبق) الآية "، وفي الباب روايات كثيرة بطرق عديدة بألفاظ مختلفة (٢).

---

(١) مسلم ٢٤٩٤ - البخاري/١٤٢٩.

(٢) الإمام أحمد ٣/ ٢٤٣.." (١)

"(يا أيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله أثاقلتم إلى الأرض) لما شرح معائب أولئك الكفار عاد إلى ترغيب المؤمنين في قتالهم، والاستفهام في (ما لكم) للإنكار والتوبيخ، أي أي شيء يمنعكم عن ذلك، ولا خلاف أن هذه الآية نزلت **عتابا** لمن تخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك، وكانت في رجب سنة تسع من الهجرة بعد رجوعه من الطائف بعد الفتح بعام، وتبوك مكان على طرف الشام بينه وبين المدينة عشرة مراحل، وهو ممنوع من الصرف للعلمية والتأنيث وبعضهم يصرفه على إرادة الموضع، فقد جاء في البخاري مصروفا وممنوعا منه، وقصة هذه الغزوة في سيرة الحلبي مفصلة.

والنفر هو الانتقال بسرعة من مكان إلى مكان لأمر يحدث، يقال استنفر الإمام الناس إذا حثهم على الخروج إلى الجهاد ودعاهم إليه، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: " إذا استنفرتم فانفروا " (١)، والاسم النفير.

---

(١) مسلم ٦٤٨١.." (٢)

"(عفا الله عنك لم أذنت لهم) الاستفهام للإنكار من الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم حيث وقع منه الإذن لمن استأذنه في القعود قبل أن يتبين من هو صادق منهم في عذره الذي أبداه، ومن هو كاذب فيه، وفي ذكر العفو عنه صلى الله عليه وسلم ما يدل على أن هذا الإذن الصادر منه كان خلاف الأولى، وفي هذا **عتاب** لطيف من الله سبحانه، وقيل أن هذا **عتاب** له صلى الله عليه وآله وسلم في إذنه للمنافقين بالخروج معه لا في إذنه لهم بالقعود عن الخروج، قاله الطبري والأول أولى.

وقد رخص له سبحانه في سورة النور بقوله: (فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم) ويمكن أن يجمع بين الآيتين بأن **العتاب** هنا متوجه إلى الإذن قبل الاستثبات حتى يتبين الصادق من الكاذب، والإذن هنالك متوجه إلى الإذن

---

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٥/٢١٥

(٢) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٥/٣٠١

بعد الاستثبات والله أعلم.
وقيل إن قوله: (عفا الله عنك) افتتاح كلام كما تقول أصلحك الله وأعزك ورحمك كيف فعلت كذا وكذا، حكاه مكي والنحاس والمهدوي، وعلى هذا التأويل يحسن الوقف على (عفا الله عنك) وعلى التأويل الأول لا يحسن، ولا يخفاك أن التفسير الأول هو المطابق لما يقتضيه اللفظ على حسب اللغة العربية، ولا وجه لإخراجه عن معناه العربي.
وفي الآية دليل على جواز الاجتهاد منه صلى الله عليه وسلم والمسألة." (١)

"فلذلك قال الزمخشري: ما حاصله ولكن كره الله خروجهم فثبطوا عن الخروج فيكون المعنى ما خرجوا ولكن ثبطوا لأن كراهة الله انبعاثهم تستلزم تثبطهم عن الخروج، والانبعاث الخروج أي حبسهم الله عن الخروج معك وخذلهم وكسلهم لأنهم قالوا إن لم يؤذن لنا في الجلوس أفسدنا وحرضنا على المؤمنين.
وقيل المعنى لو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن ما أرادوه لكراهة الله له، وعلى هذا فهو استدراك على نفس المقدم على نهج ما في الأقيسة الاستثنائية، وكان في خروجهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مفسدة عظيمة بدليل أنه تعالى أخبر عنها بقوله الآتي (ما زادوكم إلا خبالا) وأما **عتاب** الله لرسوله بقوله (لم أذنت لهم) فإنه أذن لهم قبل تمام الفحص وإكمال التأمل والتدبر في حالهم، فلهذا السبب عاتبه، وقيل إنما عاتبه لأجل أنه أذن لهم قبل أن يوحى إليه في أمرهم بالقعود.
(وقيل اقعدوا) والقائل لهم هو الشيطان بما يلقيه إليهم من الوسوسة، وقيل قاله بعضهم لبعض، وقيل قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم غضبا عليهم، وقيل هو عبارة عن الخذلان أي أوقع الله في قلوبهم القعود خذلانا لهم، وقال السيوطي: أي قدر الله ذلك أي القعود يعني فلا قول بالفعل لا من الله ولا من النبي صلى الله عليه وسلم.
(مع القاعدين) أي مع أولى الضرر من العميان والمرضى والنساء والصبيان وفيه من الذم لهم والإزراء عليهم والتنقص بهم ما لا يخفى.." (٢)

"والمعنى على الأول لسعوا بينكم بالإفساد بما يختلقونه من الأكاذيب المشتملة على الأرجاف والنمائم الموجبة لفساد ذوات البين، وعلى الثاني أسرعوا ركائبكم بينكم بالنميمة، وفيه استعارة تخييلية ومكنية، وقيل إنه استعارة تبعية شبه سرعة إفسادهم لذات البين بالنميمة بسرعة سير الركائب المسماة بالإيضاع وهو إسراع سير البعير، ثم استعير لسرعة الإفساد لفظ الإيضاع وهو للإبل ثم اشتق منه أوضعوا وأصل الاستعارة ولأوضعوا ركائب نمائمهم خلالكم، ثم حذف النمائم وأقيم المضاف إليه مقامها لدلالة سياق الكلام على أن المراد النميمة ثم حذف الركائب، قاله الطيبي كما ذكره زكريا.
(يبغونكم) يقال بغيته كذا طلبته له وأبغيته كذا أعنته على طلبه، والمعنى يطلبون لكم (الفتنة) أي ما يفتنون به في ذات بينكم بما يصنعونه من التحريش والإفساد، وقولهم للمؤمنين لقد جمعوا لكم كذا وكذا ولا طاقة لكم بهم وإنكم ستهزمون

---

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٣١٠/٥
(٢) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٣١٣/٥

منهم وسيظهرون عليكم، ونحو ذلك من الأحاديث الكاذبة التي تورث الجبن والفشل، وقيل الفتنة العيب والشر، وقيل الفتنة هنا الشرك.

(وفيكم سماعون لهم) أي والحال أن فيكم من يستمع ما يقولونه من الكذب فينقله إليكم، فيتأثر من ذلك الاختلاف بينكم والفساد لأحوالكم، قال مجاهد: معناه محدثون لهم بأحاديثكم غير منافقين وهم عيون للمنافقين. انتهى. فعلى هذا يكون المراد فيكم جواسيس منهم يسمعون لهم الأخبار منكم فاللام على الأول للتقوية، وعلى الثاني للتعليل أي لأجلهم (والله عليم بالظالمين) وبما يحدث منهم لو خرجوا معكم فلذلك اقتضت حكمته البالغة أن لا يخرجوا معكم وكره انبعاثهم معكم.

ولا ينافي حالهم هذا لو خرجوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ما تقدم من **عتابه** على الإذن لهم في التخلف، لأنه سارع إلى الإذن لهم ولم يكن." (١)

"عليه وسلم التصديق بنبوته وبما جاء به، وطاعته في كل ما يأمر به أو ينهي عنه وموالاة من والاه ومعاداة من عاداه، ومحبته وتعظيم سنته وإحياؤها بعد موته بما تبلغ إليه القدرة.

وقد ثبت في الحديث أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: " الدين النصيحة " ثلاثا، قالوا لمن؟ " قال لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم " (١). وفي الخازن: النصح أن يقيموا في البلد ويحترزوا عن إفشاء الأراجيف وإثارة الفتن ويسمعوا في إيصال الخير إلى أهل الجهاد ويقوموا بمصالح بيوتهم.

(ما على المحسنين من سبيل) جملة مقررة لمضمون ما سبق، أي ليس على المعذورين الناصحين طريق عقاب ومؤاخذة، ومن مزيدة للتأكيد، وعلى هذا فيكون لفظ المحسنين موضوعا في موضع الضمير الراجع إلى المذكورين سابقا، وأتى بالظاهر للدلالة على انتظامهم بنصحهم في سلك المحسنين، أو يكون المراد ما على جنس المحسنين من سبيل، وهؤلاء المذكورون سابقا من جملتهم، فتكون الجملة تعليلية، وقولهم لا سبيل عليه معناه لا حرج ولا **عتاب**، وأنه بمعنى لا عاتب يمر عليه فضلا عن **العتاب**، وإذا تعدى بإلى كقوله:

ألا ليت شعري هل إلى أم سالم ... سبيل فأما الصبر عنها فلا صبر

فبمعنى الوصول كما قال:

هل من سبيل إلى خمر فأشربها ... أم من سبيل إلى نصر بن حجاج

ونحوه، فتنبه لمواطن استعماله فإنه من مهمات الفصاحة (والله غفور

---

(١) مسلم ٥٥.." (٢)

---

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٣١٥/٥

(٢) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٣٦٩/٥

"لفسادهم وإرشادا لمن بقي إلى الصلاح، وقيل المراد بالحق مجازاة المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته كما في قوله سبحانه (ولله ما في السماوات وما في الأرض ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى) وقيل المراد بالحق الزوال لأنها مخلوقة وكل مخلوق زائل.

(وإن الساعة لآتية) وعند إتيانها ينتقم الله ممن يستحق العذاب، ويحسن إلى من يستحق الإحسان، وفيه وعيد للعصاة وتهديد، ثم أمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يصفح عن قومه فقال (فاصفح الصفح الجميل) أي تجاوز عنهم واعف عفوا حسنا، وقيل فأعرض عنهم إعراضا جميلا ولا تعجل عليهم بالانتقام وعاملهم معاملة الصفوح الحليم.

قال علي: الصفح الجميل الرضا بغير **عتاب**؛ وعن ابن عباس مثله وعن مجاهد قال: هذه الآية قبل القتال: وعن عكرمة مثله، يعني هذا منسوخ بآية السيف وفيه بعد، لأن الله أمر نبيه أن يظهر الخلق الحسن وأن يعاملهم بالعفو والصفح الخالي من الجزع والخوف والأمر بالصفح الجميل لا ينافي قتالهم.." (١)

"(و) اذكر (يوم نبعث) أي نحيي ونخرج (من كل أمة شهيدا) أو المعنى يوم نبعث وقعوا فيما وقعوا فيه وشهيد كل أمة نبيها يشهد لهم بالإيمان والتصديق وعليهم بالكفر والجحود والتكذيب.

قال ابن عباس: شهيدها نبيها، على أنه قد بلغ رسالات ربه، قال الله (وجئنا بك على هؤلاء شهيدا) قال ذكر لنا أن نبي الله صلى الله عليه وسلم كان إذا قرأ هذه الآية فاضت عيناه وذلك اليوم هو يوم القيامة.

(ثم لا يؤذن للذين كفروا) في الاعتذار إذ لا حجة لهم ولا عذر كقوله سبحانه (ولا يؤذن لهم فيعتذرون) أو في كثرة الكلام أو في الرجوع إلى دار الدنيا وإلى التكليف أو في حالة شهادة الشهود، بل يسكت أهل الجمع كلهم ليشهد الشهود أو لا يؤذنا لهم في معارضة الشهود بإلقاء معذرة أو ادلاء بحجة بل يشهدون عليهم ويقرونهم على ذلك، وإيراد (ثم) هاهنا للدلالة على أن ابتلاءهم بالمنع عن الاعتذار المنبئ عن الإقناط الكلي أشد من ا بتلائهم بشهادة الأنبياء.

(ولا هم يستعتبون) أي لا يطلب منهم العتبى أي الرجوع إلى ما يرضي الله من العبادات، لأن **العتاب** إنما يطلب لأجل العود إلى الرضاء، فإذا كان على عزم السخط فلا فائدة في **العتاب**. والمعنى أنهم لا يسترضون أي لا يكلفون أن يرضوا ربهم. لأن الآخرة ليست بدار عمل ولا تكليف، ولا يتركون إلى رجوع الدنيا فيتوبون.

وأصل الكلمة من العتب وهو الموجدة، يقال عتب عليه يعتب إذا وجد عليه وبابه ضرب ونصر، فإذا أفاض عليه ما عاتب فيه عليه، قيل عاتبه فإذا." (٢)

"رجع إلى مسرته قيل أعتبه والاسم العتبى وهو رجوع المعتوب عليه إلى ما يرضي العاتب قاله الهروي، **فالاستعتاب** التعرض لطلب الرضاء، وهذا باب منسد على الكفار في الآخرة.

وفي الخطيب أي لا تزال عتباهم وهي ما يعتبون عليها ويلامون؛ يقال استعتبت فلانا أي أزلت عتباه، انتهى. واستفعل بمعنى أفعل غير مستنكر.

---

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ١٩٣/٧

(٢) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٢٩٦/٧

قال الخليل: **العتاب** مخاطبة الإدلال ومذاكرة الموجدة، وعاتبه معاتبة **وعتابا** واعتبه سره بعدما ساء واستعتب واعتب بمعنى واستعتب أيضا طلب أن يعتب، أي استرضاه فأرضاه.." (١)

"(قال) الخضر (ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبرا) زاد هنا لفظ لك لأن سبب **العتاب** أكثر وموجبه أقوى فقد نقض العهد مرتين، وقيل زاد لقصد التأكيد كما تقول لمن توبخه، لك أقول وإياك أعني، وقيل زاد لعدم العذر هنا تحاملا في الخطاب وتقريعا لموسى.

ولهذا." (٢)

"شاهدا على غير المتعدي.

قال ابن عطية: وعندي أراد يلقون فيه، فحذف حرف الجر فاتصل الضمير.

وقال الخليل وأبو عمر: وأصل الولق الإسراع يقال جاءت الإبل تلق أي تسرع، وعن ابن جرير مثله وزاد الولق هو الإسراع بالشيء بعد الشيء كعدد في إثر عدد وكلام في إثر كلام، وقرئ تألقونه من الألق وهو الكذب؛ وقرئ يلقونه وهو مضارع ولق بكسر اللام والتلقي والتلقف والتلقن معان متقاربة خلا أن في الأول معنى الاستقبال، وفي الثاني معنى الخطف، والأخذ بسرعة، وفي الثالث معنى الحذق والمهارة؛ وقال الراغب: في التلقن الحذق في التناول، وفي التلقف الاحتيال فيه.

(وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم) معناه أن قولهم هذا مختص بالأفواه من غير أن يكون واقعا في الخارج معتقدا في القلوب، وقيل إن ذكر الأفواه للتأكيد كما في قوله: يطير بجناحيه ونحوه.

(وتحسبونه) أي الحديث الذي وقع الخوض فيه والإذاعة له (هينا) أي شيئا يسيرا لا يلحقكم فيه إثم (هو عند الله عظيم) ذنبه وعقابه والجملة في محل الحال؛ قيل جزع بعضهم عند الموت فقيل له في ذلك فقال أخاف ذنبا لم يكن مني على بال وهو عند الله عظيم.

(ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا) هذا **عتاب** لجميع المؤمنين أي هلا إذ سمعتم حديث الإفك قلتم تكذيبا للخائضين فيه المفترين له بمجرد أول السماع: ما ينبغي لنا ولا يمكننا أن نتكلم بهذا الحديث، ولا يصدر ذلك منا بوجه من الوجوه (سبحانك هذا بهتان عظيم) التعجب من أولئك الذين جاؤا بالإفك وأصله التنزيه لله سبحانه ثم كثر حتى استعمل في كل متعجب منه، والبهتان هو أن يقال في الإنسان ما ليس فيه أي." (٣)

"(قال إنما أوتيته) أي المال (على علم عندي) قال قارون: هذه المقالة ردا على من نصحه بما تقدم. أي إنما أعطيت ما أعطيت من المال لأجل علمي. وليس تفضلا. وهذا العلم الذي جعله سببا لما ناله من الدنيا قيل هو علم التوراة وقيل علمه بوجوه المكاسب والزراعات، وأنواع التجارات، وقيل معرفة الكنوز والدفائن، وقيل علم الكيمياء، وقيل

---

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٢٩٧/٧

(٢) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٨٨/٨

(٣) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ١٧٣/٩

المعنى أن الله آتاني هذه الكنوز على علم منه باستحقاقي إياها لفضل علمه مني.
واختار هذا الزجاج، وأنكر ما عداه، ثم رد الله عليه قوله هذا فقال:
(أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا)؟ للمال ولو كان المال، أو القوة يدلان على فضيلة لما أهلكهم الله. وقيل القوة الآلات، والجمع الأعوان. وهذا الكلام خارج مخرج التقريع والتوبيخ لقارون، لأنه قد قرأ التوراة، وعلم علم القرون الأولى، وإهلاك الله سبحانه لهم، أو سمعه من حفاظ التواريخ قاله الكرخي.
(ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون) أي لا يسألون سؤال **استعتاب** كما في قوله: ولا هم يستعتبون، وما هم من المعتبين، وإنما يسألون سؤال تقريع وتوبيخ ويحاسبون ويشدد." (١)

"عليهم كما في قوله تعالى: فوربك لنسألنهم أجمعين، وقال مجاهد: لا تسأل الملائكة عن المجرمين لأنهم يعرفون بسيماهم، فإنهم يحشرون سود الوجوه، زرق العيون. وقال قتادة: لا يسأل المجرمون عن ذنوبهم لظهورها وكثرتها، بل يدخلون النار بغير سؤال وحساب. وقيل لا يسأل مجرمو هذه الأمة عن ذنوب الأمم الخالية، أو المعنى يعترفون بها بغير سؤال وقيل: لا يسألهم الله عن كيفية ذنوبهم وكميتها إذا أراد أن يعاقبهم. قال ابن عادل: وأليق الوجوه بهذه الآية **الاستعتاب**.." (٢)

"(ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل) أي: وصفنا لهم كل صفة كأنها مثل في غرابتها وقصصنا عليهم كل قصة عجيبة الشأن، كصفة المبعوثين يوم القيامة، وقصتهم وما يقولون؛ وما يقال لهم، وما لا ينفع من اعتذارهم ولا يسمع من **استعتابهم**، وكذا ضربنا لهم من كل مثل من الأمثال التي تدلهم على توحيد الله، وصدق رسله، واحتججنا عليهم بكل حجة تدل على بطلان الشرك وفيه إشارة إلى إزالة الأعذار، والإتيان بما فوق الكفاية من الإنذار.
(ولئن جئتهم بآية) من آيات القرآن الناطقة بذلك، أو لئن جئتهم بآية كالعصا، واليد، أو جئتهم بكل آية جاءت بها الرسل (ليقولن الذين كفروا) منهم (إن أنتم إلا مبطلون) أي: ما أنت يا محمد وأصحابك إلا أصحاب أباطيل، تتبعون السحر وما هو مشاكل له في البطلان، أو أنكم كلكم أيها الرسل مبطلون، واللام مؤكدة واقعة في جواب القسم.." (٣)

"(لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة) أي قدوة صالحة، يقال: لي في فلان أسوة أي لي به اقتداء، والأسوة من الائتساء كالقدوة من الاقتداء اسم يوضع موضع المصدر يقال: ائتسى فلان بفلان أي اقتدى به، قال الجوهري: الأسوة والإسوة بالضم والكسر والجمع أسى وإسى، وقد قرىء بهما وهما سبعيتان وهما أيضا لغتان كما قال الفراء وغيره.
وفي هذه الآية **عتاب** للمتخلفين عن القتال مع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أي لقد كان لكم في رسول الله حيث بذل نفسه للقتال، وخرج إلى الخندق لنصرة دين الله أسوة، والمعنى اقتدوا به اقتداء حسنا، وهو أن تنصروا دين الله وتوازروا رسوله، ولا تتخلفوا عنه، وتصبروا على ما يصيبكم كما فعل هو إذ كسرت رباعيته، وجرح وشج وجهه، وجاع

---

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ١٠/١٥١
(٢) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ١٠/١٥٢
(٣) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٥١/٢٦٩

بطنه، وقتل عمه حمزة، وأوذي بضروب الأذى فصبر، وواساكم مع ذلك بنفسه، فافعلوا أنتم كذلك أيضا، واستنوا بسنته، وهذه الآية وإن كان سببها خاصا فـه ي عامة في كل شيء؛ ومثلها: (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) وقوله: (قل: إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله).

عن ابن عمر قال في الآية: هذا في جوع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وقد استدل بهذه الآية جماعة من الصحابة في مسائل كثيرة اشتملت عليها كتب السنة، وهي خارجة عما نحن بصدده، نعم فيه دلالة على لزوم الاتباع، وترك التقليد الحادث الذي أصيب به الإسلام، أي مصيبة وهل هذه الأسوة على الإيجاب أو على الاستحباب، فيه قولان، قال القرطبي يحتمل أن تحمل على الإيجاب في أمور الدين، وعلى الاستحباب في أمور الدنيا.

(لمن كان يرجو الله) أي حسنة كائنة لمن يرجو الله والمراد أنهم الذين يرجون الله ويخافون عذابه، يعني يرجون ثوابه ولقاءه (واليوم الآخر) أي أنهم يرجون رحمة الله فيه أو يصدقون بحصوله، وأنه كائن لا محالة وهذه الجملة تخصيص بعد التعميم بالجملة الأولى.." (١)

"(وقال الذين كفروا) يعني مشركي العرب (لن نؤمن بهذا القرآن، ولا بالذي بين يديه) أي بما أنزل قبل القرآن من كتب الله تعالى كالتوراة والإنجيل أو القيامة أو الجنة والنار، يعني أنهم جحدوا أن يكون القرآن من الله، وأن يكون لما دل عليه من الإعادة للجزاء حقيقة، ثم أخبر سبحانه عن حالهم في الآخرة فقال:

(ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم) الخطاب لمحمد – صلى الله عليه وسلم – أو لكل من يصلح له، والمعنى محبوسون في موقف الحساب، وجواب لو محذوف أي لرأيت أمرا عجيبا وحالا فظيعا (يرجع بعضهم إلى بعض القول) أي فيما بينهم باللوم **والعتاب** بعد أن كانوا في الدنيا متعاضدين متناصرين متحابين، ثم بين سبحانه تلك المراجعة فقال: (يقول الذين استضعفوا) وهم الأتباع (للذين استكبروا) وهم الرؤساء المتبوعون (لولا أنتم) صددتمونا عن الإيمان بالله والاتباع لرسوله (لكنا مؤمنين) بالله مصدقين لرسوله وكتابه.." (٢)

"(وما يدريك) التفت سبحانه من الغيبة إلى خطاب نبيه صلى الله عليه وآله وسلم لأن المشافهة أدخل في **العتاب**. أي أي شيء يجعلك داريا بحاله حتى تعرض عنه.

وجملة (لعله يزكى) مستأنفة لبيان أن له شأنا ينافي الإعراض عنه أي لعله يتطهر من الذنوب بالعمل الصالح بسبب ما يتعلمه منك لا من الشرك لأنه أسلم قديما بمكة، فالضمير في لعله راجع إلى الأعمى، وقيل هو راجع إلى الكافر أي وما يدريك أن ما طمعت فيه ممن اشتغلت بالكلام معه عن الأعمى أنه يزكى أو يذكر، والأول أولى، وكلمة الترجي باعتبار من وجه إليه الخطاب للتنبيه على أن الإعراض عنه مع كونه مرجو التزكي مما لا يجوز.

---

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٦٦/١١

(٢) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ١٩٦/١١

ومثل هذه الآية قوله في سورة الأنعام (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي) وكذلك قوله: في سورة الكهف: (ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا).." (١)

"إذا بلغ الرأي المشورة فاستعن ... برأي نصيح أو نصيحة حازم

ولا تجعل الشورى عليك غضاضة ... مكان الخوافي قوة للقوادم

وأدن إلى الشورى المسدد رأيه ... ولا تشهد الشورى امرأ غير كاتم

فكرر الشورى ثلاث مرات في البيتين الثاني والثالث ليكون كل نصف سائرا مسير المثل وبهذا يظهر وجه تعريف الهدى الثاني بالإضافة لضمير الجلالة دون أل مع أنها الأصل في وضع الظاهر موضع الضمير الواقع معاد لئلا يفوت هاته الجملة المستقلة شيء تضمنته الجملة الأولى إذ الجملة الأولى تضمنت وصف الهدى بأنه آت من الله والإضافة في الجملة الثانية تفيد هذا المفاد.

والإتيان ١في قوله تعالى: ﴿فإما يأتينكم﴾ بحرف الشرط الدال على عدم الجزم بوقوع الشرط إيذان ببقية من **عتاب** على عدم امتثال الهدى الأول وتعريض بأن محاولة هديكم في المستقبل لا جدوى لها كما يقول السيد لعبده إذا لم يعمل بما أوصاه به فغضب عليه ثم اعتذر له فرضِيَ عنه: إن أوصيتك يوما آخر بشيء فلا تعد لمثل فعلتك، يعرض له بأن تعلق الغرض بوصيته في المستقبل أمر مشكوك فيه إذ لعله قليل الجدوى، وهذا وجه بليغ فات صاحب الكشاف حجبه عنه توجيه تكلفه لإرغام الآية على أن تكون دليلا لقول المعتزلة بعدم وجوب بعثة الرسل للاستغناء عنها بهدى العقل في الإيمان بالله مع كون هدى الله تعالى الناس واجبا عندهم وذلك التكلف كثير في كتابه وهو لا يليق برسوخ

—

١اعلم أن تكرير الكلمة أو الجملة في الكلام أن يكون مكروها لما يورثه التكرير من سماحة السامع،لأن المقصود من الكلام تجدد المعاني غير أن الكراهة متفاوتة،فتكرير المفردات لا مندوحة عنه،فكان اختلاف الأخبار عنها والأوصاف دافعا لكراهة تكريرها.ولذلك لا يعد نكريرها عيبا إلا إذا كثر في كلام غير طويل نحو:

لا أرى الموت يسبق الموت شيئ ... نغص الموت ذا الغني والفقيرا

ولذلك عدت كثرت التكرير منافية للفصاحة.وأما تكريرالجمل في الكلام القريب فأصله السماجة إلا إذا حصل من التكريرنكتة بلاغية فحينئذيغالب النشاط الحاصل من التكريرأو التأثر والانزعاج تلك السماجة فيدحضها. وذلك كترير التهويل في" قربا مربط النعامة مني"وتكرير التطريب في إعادة اسم المحبوب فيقصد المتكلم تجديد ذلك التأثر في السامع حبا فيه أو نكاية وذلك تابع لحالة السامعين في ذلك المقام بحيث لا يسأمون من التكرير لأنهم يتطلبونه ويحمدونه لما يتجدد لهم من الانفعال الحسن.." (٢)

---

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٧٧/١٥

(٢) التحرير والتنوير، ٤٢٨/١

"سيما وقد قدر أن موتهم بالصاعقة لا يدوم إلا قليلا فلم تكن مثل صاعقة عاد وثمود. وبه تعلم أن ليس في إصابة الصاعقة لهم دلالة على أن رؤية الله تعالى مستحيلة وأن سؤالها والإلحاح فيه كفر كما زعم المعتزلة وأن لا حاجة إلى الجواب عن ذلك بأن الصاعقة لاعتقادهم أنه تعالى يشبه الأجسام فكانوا بذلك كافرين إذ لا دليل في الآية ولا غيرها على أنهم كفروا، كيف وقد سأل الرؤية موسى عليه السلام.

والصاعقة نار كهربائية من السحاب تحرق من أصابته، وقد لا تظهر النار ولكن يصل هواؤها إلى الأحياء فيختنقون بسبب ما يخالط الهواء الذي يتنفسون فيه من الحوامض الناشئة عن شدة الكهربائية، وقد قيل: إن الذي أصابهم نار، وقيل سمعوا صعقة فماتوا.

وقوله: ﴿وأنتم تنظرون﴾ فائدة التقييد بهذا الحال عند صاحب الكشاف الدلالة على أن الصاعقة التي أصابتهم نار الصاعقة لا صوتها الشديد لأن الحال دلت على أن الذي أصابهم مما يرى، وقال القرطبي أي وأنتم ينظر بعضكم إلى بعض أي مجتمعون. وعندي أن مفعول ﴿تنظرون﴾ محذوف وأن تنظرون بمعنى تحدقون الأنظار عند رؤية السحاب على جبل الطور طمعا أن يظهر لهم الله من خلاله لأنهم اعتادوا أن الله يكلم موسى كلاما يسمعه من خلال السحاب كما تقوله التوراة في مواضع، ففائدة الحال إظهار أن العقوبة أصابتهم في حين الإساءة والعجرفة إذ طمعوا فيما لم يكن لينال لهم.

وقوله: ﴿ثم بعثناكم من بعد موتكم﴾ [البقرة: ٥٦]إيجاز بديع، أي فمتم من الصاعقة ﴿ثم بعثناكم من بعد موتكم﴾ وهذا خارق عادة الله معجزة لموسى استجابة لدعائه وشفاعته أو كرامة لهم من بعد تأديبهم إن كان السائلون هم السبعين فإنهم من صالحي بني إسرائيل.

فإن قلت إذا كان السائلون هم الصالحين فكيف عوقبوا.

قلت قد علمت أن هذا عقاب دنيوي وهو ينال الصالحين ويسمى عند الصوفية **بالعتاب** وهو لا ينافي الكرامة، ونظيره أن موسى س أ ل رؤية ربه فتجلى الله للجبل فجعله دكا وخر موسى صعقا فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك.

فإن قلت إن الموت يقتضي انحلال التركيب المزاجي فكيف يكون البعث بعده في غير يوم إعادة الخلق قلت: الموت هو وقوف حركة القلب وتعطيل وظائف الدورة الدموية فإذا حصل عن فساد فيها لم تعقبه حياة إلا في يوم إعادة الخلق وهو المعنى بقوله تعالى: ﴿لا يذوقون." (١)

"فظاعتها وشناعتها، وذلك أن النهي عن السؤال يرد لمعنى تعظيم أمر المسؤول عنه نحو قول عائشة يصلي أربعا فلا تسأل عن حسنهن وطولهن ولهذا شاع عند أهل العلم إلقاء المسائل الصعبة بطريقة السؤال نحو "فإن قلت" للاهتمام. وقرأه جمهور العشرة بضم الفوقية ورفع اللام على أن لا نافية اي لا يسألك الله عن أصحاب الجحيم وهو تقرير لمضمون ﴿إنا أرسلناك بالحق﴾ والسؤال كناية عن المؤاخذة واللوم مثل قوله صلى الله عليه وسلم "وكلكم مسؤول عن رعيته" أي لست مؤاخذا ببقاء الكافرين على كفرهم بعد أن بلغت لهم الدعوة.

---

(١) التحرير والتنوير، ٤٩١/١

وما قيل أن الآية نزلت في نهيه صلى الله عليه وسلم عن السؤال عن حال أبويه في الآخرة فهو استناد لرواية واهية ولو صحت لكان حمل الآية على ذلك مجافيا للبلاغة إذ قد علمت أن قوله ﴿إنا أرسلناك﴾ تأنيس وتسكين فالإتيان معه بما يذكر المكدرات خروج عن الغرض وهو مما يعبر عنه بفساد الوضع.

[١٢٠] ﴿ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل إن هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم ما لك من الله من ولي ولا نصير﴾

عطف على قوله: ﴿ولا تسأل عن أصحاب الجحيم﴾ [البقرة: من الآية١١٩] أو على: ﴿إنا أرسلناك﴾ [البقرة: من الآية١١٩] وقد جاء هذا الكلام المؤيس من إيمانهم بعد أن قدم قبله التأنيس والتسلية على نحو مجيء **العتاب** بعد تقديم العفو في قوله تعالى: ﴿عفا الله عنك لم أذنت لهم﴾ [التوبة: من الآية٤٣] وهذا من كرامة الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم.

والنفي بلن مبالغة في التأنيس لأنها لنفي المستقبل وتأييده.

والملة بكسر الميم الدين والشريعة وهي مجموع عقائد وأعمال يلتزمها طائفة من الناس يتفقون عليها وتكون جامعة لهم كطريقة يتبعونها، ويحتمل أنها مشتقة من أمل الكتاب فسميت الشريعة ملة لأن الرسول أو واضع الدين يعلمها للناس ويمللها عليهم كما سميت دينا باعتبار قبول الأمة لها وطاعتهم وانقيادهم.

ومعنى الغاية في: ﴿حتى تتبع ملتهم﴾ الكناية عن اليأس من اتباع اليهود والنصارى لشريعة الإسلام يومئذ لأنهم إذا كانوا لا يرضون إلا باتباعه ملتهم فهم لا يتبعون ملته، ولما كان اتباع النبي ملتهم مستحيلا كان رضاهم عنه كذلك على حد ﴿حتى يلج الجمل." (١)

"حتى يقولوا إذا مروا على جدثي ... أرشدك الله من غاز وقد رشدا

وعلى هذا الاحتمال فالضمير راجع إلى الموت، بمعنى أسبابه، تنزيلا لرؤية أسبابه منزلة رؤيته، وهو كالاستخدام، وعندي أنه أقرب من الاستخدام لأنه عاد إلى أسباب الموت باعتبار تنزيلها منزلة الموت.

﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين﴾ [١٤٤].

عطف الإنكار على الملام المتقدم في قوله تعالى: ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة﴾ [آل عمران: ١٤٢] وقوله: ﴿ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه﴾ [آل عمران: ١٤٣] وكل هاته الجمل ترجع إلى **العتاب** والتقريع على أحوال كثيرة، كانت سبب الهزيمة يوم أحد، فيأخذ كل من حضر الوقعة من هذا الملام بنصيبه المناسب لما يعلمه من حاله ظاهرا كان أم باطنا.

---

(١) التحرير والتنوير، ٦٧٤/١

والآية تشير إلى ما كان من المسلمين من الاضطراب حين أرجف بموت الرسول صلى الله عليه وسلم فقال المنافقون: لو كان نبيا ما قتل، فارجعوا إلى دينكم القديم وإخوانكم من أهل مكة ونكلم عبد الله بن أبي يأخذ لنا أمانا من أبي سفيان، فهموا بترك القتال والانضمام للمشركين، وثبت فريق من المسلمين، منهم: أنس بن النضر الأنصاري، فقال: إن كان قتل محمد فإن رب محمد حي لا يموت، وما تصنعون بالحياة بعده، فقاتلوا على ما قاتل عليه.

ومحمد اسم رسول الله محمد بن عبد الله بن عبد المطلب صلى الله عليه وسلم سماه به جده عبد المطلب وقيل له: لم سميته محمدا وليس من أسماء آبائك فقال: رجوت أن يحمده الناس. وقد قيل: لم يسم أحد من العرب محمدا قبل رسول الله. ذكر السهيلي في الروض أنه لسم يسم به من العرب قبل ولادة رسول الله إلا ثلاثة: محمد بن سفيان بن مجاشع، جد جد الفرزدق، ومحمد بن أحيحة بن الجلاح الأوسي. ومحمد بن حمران من ربيعة.

وهذا الاسم من اسم مفعول حمده تحميدا إذا أكثر من حمده، والرسول فعول بمعنى مفعول مثل قولهم: حلوب وركوب وجزور.

ومعنى ﴿خلت﴾ مضت وانقرضت كقوله: ﴿قد خلت من قبلكم سنن﴾ [آل عمران: ١٣٧]." (١)

"وفي الحديث "ويل للأعقاب من النار" والمراد جهة الأعقاب أي الوراء.

وقوله: ﴿ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا﴾ أي شيئا من الضر، ولو قليلا، لأن الارتداد عن الدين إبطال لما فيه صلاح الناس، فالمرتد يضر بنفسه وبالناس، ولا يضر الله شيئا، ولكن الشاكر الثابت على الإيمان يجازى بالشكر لأنه سعى في صلاح الناس، والله يحب الصلاح ولا يحب الفساد.

والمقصود من الآية **العتاب** على ما وقع من الاضطراب، والثناء على الذين ثبتوا ووعظوا الناس، والتحذير من وقوع الارتداد عند موت الرسول عليه السلام، وقد وقع ما حذرهم الله منه بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم إذ ارتد كثير من المسلمين، وظنوا اتباع الرسول مقصورا على حياته، ثم هداهم الله بعد ذلك، فالآية فيها إنباء بالمستقبل.

﴿وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها وسنجزي الشاكرين﴾ [١٤٥].

﴿وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا﴾.

جملة معترضة، الواو اعتراضية.

فإن كان من تتمة الإنكار على هلعهم عند ظن موت الرسول، فالمقصود عموم الأنفس لا خصوص نفس الرسول عليه السلام، وتكون الآية لوما للمسامين على ذهولهم عن حفظ الله رسوله من أن يسلط عليه أعداؤه، ومن أن يخترم عمره قبل تبليغ الرسالة. وفي قوله: ﴿والله يعصمك من الناس﴾ [المائدة: ٦٧] عقب قوله: ﴿بلغ ما أنزل إليك من ربك﴾ [المائدة: ٦٧] الدال على أن عصمته من الناس لأجل تبليغ الشريعة. فقد ضمن الله له الحياة حتى يبلغ شرعه، ويتم مراده، فكيف يظنون قتله بيد أعدائه، على أنه قبل الإعلان بإتمام شرعه، ألا ترى أنه لما أنزل قوله تعالى: ﴿اليوم أكملت

---

(١) التحرير والتنوير، ٢٣٧/٣

لكم دينكم﴾ [المائدة: ٣] الآية. بكى أبو بكر وعلم أن أجل النبي صلى الله عليه وسلم قد قرب، وقال: ما كمل شيء إلا نقص. فالجملة، على هذا، في موضع الحال. والواو واو الحال.

وإن كان هذا إنكار مستأنفا على الذين فزعوا عند الهزيمة وخافوا الموت، فالعموم في النفس مقصودا ما كان ينبغي لكم الخوف وقد علمتم أن لكل نفس أجلا.

وجيء في هذا الحكم بصيغة الجحود للمبالغة في انتفاء أن يكون موت قبل الأجل." (١)

"بخلاف إضافة المصدر الصريح، وذلك جائز في باب كان في غير صيغ القصر، وأما في الحصر فيتعين تقديم المحصور.

والمراد من الذنوب جميعها، وعطف عليه بعض الذنوب وهو المعبر عنه هنا بالإسراف في الأمر، والإسراف هو الإفراط وتجاوز الحد، فلعله أريد به الكبائر من الذنوب كما نقل عن أبن عباس وجماعة، وعليه فالمراد بقوله: أمرنا، أي ديننا وتكليفنا، فيكون عطف خاص للاهتمام بطلب غفرانه، وتمحض المعطوف عليه حينئذ لبقية الذنوب وهي الصغائر. ويجوز عندي أن يكون المراد بالإسراف في المر التقصير في شأنهم ونظامهم فيما يرجع إلى أهبة القتال، والاستعداد له، أو الحذر من العدو، وهذا الظاهر من كلمة أمر، بأن يكونوا شكوا أن يكون ما أصابهم من هزيمتهم في الحرب مع عدوهم ناشئا عن سببين: باطن وظاهر، فالباطن هو غضب الله عليهم من جهة الذنوب، والظاهر هو تقصيرهم في الاستعداد والحذر، وهذا أولى من الوجه الأول.

وقوله: ﴿فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة﴾ إعلام بتعجيل إجابة دعوتهم لحصول خيري الدنيا والآخرة، فثواب الدنيا هو الفتح والغنيمة، وثواب الآخرة هو ما كتب لهم من حسن عاقبة الآخرة، ولذلك وصفه بقوله: ﴿وحسن ثواب الآخرة﴾ لأنه خير وأبقى، وتقدم الكلام على الثواب عند قوله تعالى في سورة البقرة [١٠٣] ﴿لمثوبة من عند الله خير﴾. وجملة ﴿والله يحب المحسنين﴾ تذييل أي يحب كل محسن، وموقع التذييل يدل على أن المتحدث عنهم من الذين أحسنوا، فاللام للجنس المفيد معنى الاستغراق، وهذه من أكبر الأدلة على أن أل الجنسية إذا دخلت على جمع أبطلت منه معنى الجمعية، وأن الاستغراق المفاد من أل إذا كان مدخولها مفردا وجملة سواء.

﴿يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين [١٤٩] بل الله مولاكم وهو خير الناصرين﴾ [١٥٠].

استئناف ابتدائي للانتقال من التوبيخ واللوم **والعتاب** إلى التحذير، ليتوسل منه إلى معاودة التسلية، على ما حصل من الهزيمة، وفي ضمن ذلك كله، من الحقائق الحكمية والمواعظ الأخلاقية والعبر التاريخية، ما لا يحصل مريد إحصائه. والطاعة تطلق على امتثال أمر الآمر وهو معروف، وعلى الدخول تحت حكم." (٢)

---

(١) التحرير والتنوير، ٢٤٠/٣

(٢) التحرير والتنوير، ٢٤٦/٣

"وأطلقت الجهل على عدم العلم قال السموأل:

فليس سواء عالم وجهول

وقال النابغة:

وليس جاهل شيء مثل من علما

وأحسب أن لفظ الجاهلية من مبتكرات القرآن، وصف به أهل الشرك تنفيرا من الجهل، وترغيبا في العلم، ولذلك يذكره القرآن في مقامات الذم في نحو قوله: ﴿أفحكم الجاهلية يبغون﴾ [المائدة: ٥٠] ﴿ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى﴾ [الأحزاب: ٣٣] ﴿إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية﴾ [الفتح: ٢٦[. وقال أبن عباس: سمعت أبي في الجاهلية يقول: اسقنا كأسا دهاقا، وفي حديث حكيم بن حزام: أنه سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن أشياء كان يتحنث بها في الجاهلية من صدقة وعتاقة وصلة رحم، وقالوا: شعر الجاهلية، وأيام الجاهلية. ولم يسمع ذلك كله إلا بعد نزول القرآن وفي كلام المسلمين.

وقوله: ﴿غير الحق﴾ منتصب على أنه مفعول ﴿يظنون﴾ كأنه قيل الباطل. وانتصب قوله: ﴿ظن الجاهلية﴾ على المصدر المبين للنوع إذ كل أحد يعرف عقائد الجاهلية إن كان متلبسا بها أو تاركا لها.

وجملة ﴿يخفون﴾ حال من الضمير في ﴿يقولون﴾ أي يقولون ذلك في حال نيتهم غير ظاهره، ف ﴿يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك﴾ إعلان بنفاقهم، وأن قولهم ﴿هل لنا من الأمر من شيء﴾ وقولهم: ﴿لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا﴾ هو وإن كان ظاهره صورة **العتاب** عن ترك مشورتهم فنيتهم منه تخطئة النبي في خروجه بالمسلمين إلى أحد، وأنهم أسد رأيا منه.

وجملة ﴿يقولون لو كان لنا من الأمر شيء﴾ بدل اشتمال من جملة ﴿يخفون في أنفسهم﴾ إذ كانوا قد قالوا ذلك فيما بينهم ولم يظهروه، أو هي بيان لجملة ﴿يقولون هل لنا من الأمر من شيء﴾ إذا أظهروا قولهم للمسلمين، فترجع الجملة إلى معنى بدل الاشتمال من جملة ﴿يظنون﴾ لأنها لما بينت جملة هي بدل فهي أيضا كالتي بينتها، وهذا أظهر لأجل قوله بعده ﴿قل لو كنتم في بيوتكم﴾ فإنه يقتضي أن تلك المقالة فشت وبلغت الرسول، ولا يحسن كون جملة ﴿يقولون لو كان﴾ إلى آخره مستأنفة خلافا لما في الكشاف .." (١)

"المسلمين من أحوال الأمن أو الخوف، تحدثوا بتلك الأخبار في الحالين، وأرجفوها بين الناس لقصد التثبيط عن الاستعداد، إذا جاءت أخبار أمن حتى يؤخذ المؤمنون وهم غارون، وقصد التجبين إذا جاءت أخبار الخوف، واختلاف المعاذير للتهيئة للتخلف عن الغزو إذا استنفروا إليه، فحذر الله المؤمنين من مكائد هؤلاء، ونبه هؤلاء على دخيلتهم، وقطع معذرتهم في كيدهم بقوله ﴿ولو ردوه إلى الرسول﴾ الخ، أي لولا أنهم يقصدون السوء لاستثبتوا الخبر من الرسول ومن أهل الرأي.

وعلى القول بأن الضمير راجع إلى المؤمنين فالآية **عتاب** للمؤمنين في هذا التسرع بالإذاعة، وأمرهم بإنهاء الأخبار إلى

---

(١) التحرير والتنوير، ٢٥٩/٣

الرسول وقادة الصحابة ليضعوه مواضعه ويعلموهم محامله.
وقيل: كان المنافقون يختلفون الأخبار من الأمن أو الخوف، وهي مخالفة للواقع، ليظن المسلمون الأمن حين الخوف فلا يأخذوا حذرهم، أو الخوف حين الأمن فتضطرب أمورهم وتختل أحوال اجتماعهم، فكان دهماء المسلمين إذا سمعوا ذلك من المنافقين راج عندهم فأذاعوا به، فتم للمنافقين الدست، وتمشت المكيدة، فلامهم الله وعلمهم أن ينهوا الأمر إلى الرسول وجلة أصحابه قبل إشاعته ليعلموا كنه الخبر وحاله من الصدق أو الكذب، ويأخذوا لكل حالة حيطتها، فيسلم المؤمنون من مكر المنافقين الذي قصدوه. وهذا بعيد من قوله ﴿جاءهم﴾ وعلى هذا فقوله ﴿لعلمه﴾ هو دليل جواب لو وعلته، فجعل عوضه وحذف المعلول، إذ المقصود لعلمه الذين يستنبطونه من أولي الأمر فلبينوه لهم على وجهه.
ويجوز أن يكون المعنى: ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلم ذلك المنافقون الذين اختلفوا الخبر فلخابوا إذ يوقنون بأن حيلتهم لم تتمش على المسلمين، فيكون الموصول صادقا على المختلقين بدلالة المقام، ويكون ضمير ﴿منهم﴾ الثاني عائدا على المنافقين بقرينة المقام.
والرد حقيقته إرجاع شيء إلى ما كان فيه من مكان أو يد، واستعمل هنا مجازا في إبلاغ الخبر إلى أولى الناس بعلمه. وأولو الأمر هم كبراء المسلمين وأهل الرأي منهم، فإن كان المتحدث عنهم المنافقون فوصف أولي الأمر بأنهم منهم جار على ظاهر الأمر وإرخاء العنان، أي أولو الأمر الذين يجعلون أنفسهم بعضهم؛ وإن كان المتحدث عنهم المؤمنين، فالتبعيض ظاهر.." (١)

"وذكر الحياة هنا له موقع عظيم وهو أن همهم من هذه الدنيا هو الحياة فيها لا ما يكتسب فيها من الخيرات التي تكون بها سعادة الحياة في الآخرة، أي غرتهم الحياة الدنيا فأوهمتهم أن لا حياة بعدها وقالوا: ﴿إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين﴾ [الأنعام: ٢٩].
والضمير المجرور في ﴿وذكر به﴾ عائد على القرآن لأن التذكير هو التذكير بالله وبالبعث وبالنعيم والعذاب.وذلك إنما يكون بالقرآن فيعلم السامع أن ضمير الغيبة يرجع إلى ما في ذهن المخاطب من المقام، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿فذكر بالقرآن من يخاف وعيد﴾ [ق: ٤٥].وحذف مفعول ﴿ذكر﴾ لدلالة قوله: ﴿وذر الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا﴾ أي وذكرهم به.
وقوله: ﴿أن تبسل نفس﴾ يجوز أن يكون مفعولا ثانيا لـ ﴿ذكر﴾ وهو الأظهر، أي ذكرهم به إبسال نفس بما كسبت، فإن التذكير يتعدى إلى مفعولين من باب أعطى لأن أصل فعله المجرد يتعدى إلى مفعول فهو بالتضعيف يتعدى إلى مفعولين هما"هم"و ﴿أن تبسل نفس﴾ .وخص هذا المصدر من بين الأحداث المذكر بها لما فيه من التهويل.ويجوز أن يكون ﴿أن تبسل نفس﴾ على تقدير لام الجر تعليلا للتذكير، فهو كالمفعول لأجله فيتعين تقدير لا النافية بعد لام التعليل المحذوفة.والتقدير: لئلا تبسل نفس، كقوله تعالى: ﴿يبين الله لكم أن تضلوا﴾ ، وقد تقدم في آخر سورة

---

(١) التحرير والتنوير، ٢٠٢/٤

النساء[١٧٦].وجوز فيه غير ذلك ولم أكن منه على ثلج.

ووقع لفظ"نفس"وهو نكرة في سياق الإثبات وقصد به العموم بقرينة مقام الموعظة، كقوله تعالى: ﴿علمت نفس ما قدمت وأخرت﴾ [الانفطار: ٥]أي كل نفس. علمت نفس ما أحضرت، أي كل نفس.

والإبسال: الإسلام إلى العذاب، وقيل: السجن والارتهان، وقد ورد في كلامهم بالمعنيين وهما صالحان هنا.وأصله من البسل وهو المنع والحرام.قال ضمرة النهشلي:

بكرت تلومك بعد وهن في الندى ... بسل عليك ملامتي **وعتابي**

وأما الإبسال بمعنى الإسلام فقد جاء فيه قول عوف بن الأحوص الكلابي:

وإبسالي بني بغير جرم ... بعوناه ولا بدم مراق

ومعنى ﴿بما كسبت﴾ بما جنت.فهو كسب الشر بقرينة ﴿تبسل﴾." (١)

"إسرائيل، وهو في الإصحاح عشرين من سفر التثنية"١".

ومثل هذا النفي في القرآن قد يجيء بمعنى النهي نحو ﴿وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله﴾ [الأحزاب: ٥٣]. وقد يجيء بمعنى أنه لا يصلح، كما هنا، لأن هذا الكلام جاء تمهيدا **للعتاب** فتعين أن يكون مرادا منه ما لا يصلح من حيث الرأي والسياسة.

ومعنى هذا الكون المنفي بقوله: ﴿ما كان لنبي أن يكون له أسرى﴾ هو بقاؤهم في الأسر، أي بقاؤهم أرقاء أو بقاء أعواضهم وهو الفداء. وليس المراد أنه لا يصلح أن تقع في يد النبي أسرى، لأن أخذ الأسرى من شؤون الحرب، وهو من شؤون الغلب، إذا استسلم المقاتلون، فلا يعقل أحد نفيه عن النبي، فتعين أن المراد نفي أثره، وإذا نفي أثر الأسر صدق بأحد أمرين: وهما المن عليهم بإطلاقهم، أو قتلهم، ولا يصلح المن هنا لأنه ينافي الغاية وهي حتى يثخن في الأرض، فتعين أن المقصود قتل الأسرى الحاصلين في يده، أي أن ذلك الأجدر به حين ضعف المؤمنين، خضدا لشوكة أهل العناد، وقد صار حكم هذه الآية تشريعا للنبي صلى الله عليه وسلم فيمن يأسرهم في غزواته.

والإثخان الشدة والغلظة في الأذى. يقال أثخنته الجراحة وأثخنه المرض إذا ثقل عليه، وقد شاع إطلاقه على شدة الجراحة على الجريح. وقد حمله بعض المفسرين في هذه الآية على معنى الشدة والقوة. فالمعنى: حتى يتمكن في الأرض، أي يتمكن سلطانه وأمره.

وقوله: ﴿في الأرض﴾ على هذا جار على حقيقة المعنى من الظرفية، أي يتمكن في الدنيا. وحمله في "الكشاف" على معنى إثخان الجراحة، فيكون جريا على طريقة التمثيل بتشبيه حال الرسول صلى الله عليه وسلم المقاتل الذي يجرح قرنه جراحا قوية تثخنه، أي حتى أعداءه فتصير له الغلبة عليهم في معظم المواقع، ويكون قوله: ﴿في الأرض﴾ قرينة التمثيلية.

---

(١) التحرير والتنوير، ١٥٨/٦

والكلام عتاب للذين أشاروا باختيار الفداء والميل إليه وغض النظر عن الأخذ بالحزم في قطع دابر صناديد المشركين، فإن في هلاكهم خضدا لشوكة قومهم فهذا ترجيح للمقتضى السياسي العرضي على المقتضى الذي بني عليه الإسلام وهو التيسير والرفق في شؤون المسلمين بعضهم مع بعض كما قال تعالى: ﴿أشداء على الكفار رحماء بينهم﴾

–

"١" في الفقرة ١٣ منه "وإذا دفعها "الضمير عائد إلى مدينة" الرب إلهك إلى يدك جميع ذكورها بالسيف.." (١)

"[[الفتح: ٢٩]]. وقد كان هذا المسلك السياسي خفيا حتى كأنه مما استأثر الله به، وفي الترمذي، عن الأعمش: أنهم في يوم بدر سبقوا إلى الغنائم قبل أن تحل لهم، وهذا قول غريب فقد ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم استشارهم، وهو في الصحيح.

وقرأ الجمهور ﴿أن يكون له﴾ — بتحتية – على أسلوب التذكير. وقرأه أبو عمرو، ويعقوب، وأبو جعفر بمثناة فوقية على صيغة التأنيث، لأن ضمير جمع التكسير يجوز تأنيثه بتأويل الجماعة.

والخطاب في قوله: ﴿تريدون﴾ للفريق الذين أشاروا بأخذ الفداء وفيه إشارة إلى أن الرسول عليه الصلاة والسلام غير معاتب لأنه إنما أخذ برأي الجمهور. وجملة: ﴿تريدون﴾ إلى آخرها واقعة موقع العلة للنهي الذي تضمنته آية ﴿ما كان لنبي﴾ فلذلك فصلت، لأن العلة بمنزلة الجملة المبينة.

و ﴿عرض الدنيا﴾ هو المال، وإنما سمي عرضا لأن الانتفاع به قليل اللبث، فأشبه الشيء العارض إذ العروض مرور الشيء وعدم مكثه لأنه يعرض للماشين بدون تهيؤ. والمراد عرض الدنيا المحض وهو أخذ المال لمجرد التمتع به.

والإرادة هنا بمعنى المحبة، أي: تحبون منافع الدنيا والله يحب ثواب الآخرة، ومعنى محبة الله إياها محبته ذلك للناس، أي يحب لكم ثواب الآخرة، فعلق فعل الإرادة بذات الآخرة، والمقصود نفعها بقرينة قوله: ﴿تريدون عرض الدنيا﴾ فهو حذف مضاف للإيجاز، ومما يحسنه أن الآخرة المرادة للمؤمن لا يخالط نفعها ضر ولا مشقة، بخلاف نفع الدنيا.

وإنما ذكر مع ﴿الدنيا﴾ المضاف ولم يحذف: لأن في ذكره إشعارا بعروضه وسرعة زواله.

وإنما أحب الله نفع الآخرة: لأنه نفع خالد، ولأنه أثر الأعمال النافعة للدين الحق، وصلاح الفرد والجماعة.

وقد نصب الله على نفع الآخرة أمارات، هي أمارات أمره ونهيه، فكل عرض من أعراض الدنيا ليس فيه حظ من نفع الآخرة، فهو غير محبوب لله تعالى، وكل عرض من الدنيا فيه نفع من الآخرة ففيه محبة من الله تعالى، وهذا الفداء الذي أحبوه لم يكن يحف به من الأمارات ما يدل على أن الله لا يحبه، ولذلك تعين أن عتاب المسلمين على." (٢)

"اختيارهم إياه حين استشارهم الرسول عليه الصلاة والسلام إنما هو عتاب على نوايا في نفوس جمهور الجيش، حين تخيروا الفداء أي أنهم ما راعوا فيه إلا محبة المال لنفع أنفسهم فعاتبهم الله على ذلك لينبههم على أن حقيقا عليهم أن لا ينسوا في سائر أحوالهم وآرائهم، الالتفات إلى نفع الدين وما يعود عليه بالقوة، فإن أبا بكر قال لرسول الله صلى

---

(١) التحرير والتنوير، ١٦١/٩

(٢) التحرير والتنوير، ١٦٢/٩

الله عليه وسلم عند الاستشارة "قومك وأهلك استبقهم لعل الله أن يتوب عليهم وخذ منهم فدية تقوي بها أصحابك" فنظر إلى مصلحة دينية من جهتين ولعل هذا الملحظ لم يكن عند جمهور أهل الجيش.

ويجوز عندي أن يكون قوله: ﴿تريدون عرض الدنيا﴾ مستعملا في معنى الاستفهام الإنكاري، والمعنى: لعلكم تحبون عرض الدنيا فإن الله يحب لكم الثواب وقوة الدين، لأنه لو كان المنظور إليه هو النفع الدنيوي لكان حفظ أنفس الناس مقدما على إسعافهم بالمال، فلما وجب عليهم بذل نفوسهم في الجهاد. فالمعنى: يوشك أن تكون حالكم كحال من لا يحب إلا عرض الدنيا، تحذيرا لهم من التوغل في إيثار الحظوظ العاجلة.

وجملة: ﴿والله عزيز حكيم﴾ عطف على جملة: ﴿والله يريد الآخرة﴾ عطفا يؤذن بأن لهذين الوصفين أثرا في أنه يريد الآخرة، فيكون كالتعليل، وهو يفيد أن حظ الآخرة هو الحظ الحق، ولذلك يريده العزيز الحكيم.

فوصف ﴿العزيز﴾ يدل على الاستغناء عن الاحتياج، وعلى الرفعة والمقدرة، ولذلك لا يليق به إلا محبة الأمور النفيسة، وهذا يومئ إلى أن أولياءه ينبغي لهم أن يكونوا أعزاء كقوله في الآية الأخرى: ﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾ [المنافقون: ٨] فلأجل ذلك كان اللائق بهم أن يربأوا بنفوسهم عن التعلق بسفاسف الأمور وأن يجنحوا إلى معاليها.

ووصف الحكيم يقتضي أنه العالم بالمنافع الحق على ما هي عليه، لأن الحكمة العلم بحقائق الأشياء على ما هي عليه.

وجملة: ﴿لولا كتاب من الله سبق﴾ الخ مستأنفة استئنافا بيانيا لأن الكلام السابق يؤذن بأن مفاداة الأسرى أمر مرهوب تخشى عواقبه، فيستثير سؤالا في نفوسهم عما يترقب من ذلك فبينه قوله: ﴿لولا كتاب من الله سبق﴾ الآية.

والمراد بالكتاب المكتوب، وهو من الكتابة التي هي التعيين والتقدير، وقد نكر." (١)

"الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل﴾ .

هذا ابتداء خطاب للمؤمنين للتحريض على الجهاد في سبيل الله، بطريقة **العتاب** على التباطئ بإجابة دعوة النفير إلى الجهاد، والمقصود بذلك غزوة تبوك. قال ابن عطية: "لا اختلاف بين العلماء في أن هذه الآية نزلت **عتابا** على تخلف من تخلف عن غزوة تبوك، إذ تخلف عنها قبائل ورجال من المؤمنين والمنافقون" فالكلام متصل بقوله: ﴿وقاتلوا المشركين كافة﴾ [التوبة:٣٦] - وبقوله - ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر﴾ إلى — قوله — ﴿فذوقوا ما كنتم تكنزون﴾ [التوبة:٢٩-٣٥] كما أشرنا إليه في تفسير تلك الآيات.

وهو خطاب للذين حصل منهم التثاقل، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم استنفر المسلمين إلى تلك الغزوة، وكان ذلك في وقت حر شديد، واستقبل سفرا بعيدا ومفازا، حين نضجت الثمار، وطابت الظلال، وكان المسلمون يومئذ في شدة حاجة إلى الظهر والعدة. فلذلك سميت غزوة العسرة كما سيأتي في هذه السورة، فجلى رسول الله للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة عدوهم، وأخبرهم بوجهه الذي يريد، وكان قبل ذلك لا يريد غزوة إلا ورى بما يوهم مكانا غير المكان

---

(١) التحرير والتنوير، ١٦٣/٩

المقصود، فحصل لبعض المسلمين تثاقل، ومن بعضهم تخلف، فوجه الله إليهم هذا الملام المعقب بالوعيد.

فإن نحن جرينا على أن نزول السورة كان دفعة واحدة، وأنه بعد غزوة تبوك، كما هو الأرجح، وهو قول جمهور المفسرين، كان محمل هذه الآية أنها **عتاب** على ما مضى وكانت ﴿إذا﴾ مستعملة ظرفا للماضي، على خلاف غالب استعمالها، كقوله تعالى: ﴿ وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها﴾ [الجمعة:١١] وقوله: ﴿ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد﴾ [التوبة:٩٢] الآية، فإن قوله: ﴿وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله﴾ [النساء:٧٥] صالح لإفادة ذلك، وتحذير من العودة إليه، لأن قوله: ﴿إلا تنفروا﴾ و ﴿إلا تنصروه﴾ و ﴿انفروا خفافا﴾ مراد به يستقبل حين يدعون إلى غزوة أخرى، وسنبين ذلك مفصلا في مواضعه من الآيات.

وإن جرينا على ما عزاه ابن عطية إلى النقاش: أن قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض﴾ هي أول آية نزلت من سورة براءة، كانت الآية **عتابا** على تكاسل وتثاقل ظهرا على بعض الناس، فكانت ﴿إذا﴾ ظرفا." (١)

"لأنه لو لم يأذن لهم لقعدوا، فيكون ذلك دليلا للنبي صلى الله عليه وسلم على نفاقهم وكذبهم في دعوى الإيمان، كما قال تعالى: ﴿ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم﴾ [محمد:٣٠].

والجملة مستأنفة استئنافا ابتدائيا لأنه غرض أنف.

وافتتاح **العتاب** بالإعلام بالعفو إكرام عظيم، ولطافة شريفة، فأخبره بالعفو قبل أن يباشره **بالعتاب**. وفي هذا الافتتاح كناية عن خفة موجب **العتاب** لأنه بمنزلة أن يقال: ما كان ينبغي، وتسمية الصفح عن ذلك عفوا ناظر إلى مغزى قول أهل الحقيقة: حسنات الأبرار سيئات المقربين.

وألقي إليه **العتاب** بصيغة الاستفهام عن العلة إيماء إلى أنه ما أذن لهم إلا لسبب تأوله ورجا منه الصلاح على الجلمة بحيث يسأل عن مثله في استعمال السؤال من سائل يطلب العلم وهذا من صيغ التلطف في الإنكار أو اللوم، بأن يظهر المنكر نفسه كالسائل عن العلة التي خفيت عليه، ثم أعقبه بأن ترك الإذن كان أجدر بتبيين حالهم، وهو غرض آخر لم يتعلق به قصد النبي صلى الله عليه وسلم.

وحذف متعلق ﴿أذنت﴾ لظهوره من السياق، أي لم أذنت لهم في القعود والتخلف.

و ﴿حتى﴾ غاية لفعل ﴿أذنت﴾ لأنه لما وقع في حيز الاستفهام الإنكاري كان في حكم المنفي فالمعنى: لا مقتضي للإذن لهم إلى أن يتبين الصادق من الكاذب.

وفي زيادة ﴿حتى﴾ بعد قوله: ﴿يتبين﴾ زيادة ملاطفة بأن **العتاب** ما كان إلا عن تفريط في شيء يعود نفعه إليه، والمراد بالذين صدقوا: الصادقون في إيمانهم، وبالكافرين الكاذبين فيما أظهروه من الإيمان، وهم المنافقون. فالمراد بالذين صدقوا المؤمنون.

[٤٤] ﴿لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم والله عليم بالمتقين﴾ .

---

(١) التحرير والتنوير، ١٠/٩٤

هذه الجملة واقعة موقع البيان لجملة ﴿حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين﴾ [التوبة:٤٣]. وموقع التعليل لجملة ﴿لم أذنت لهم﴾ أو هي استئناف بياني لما تثيره جملة ﴿حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين﴾ [التوبة:٤٤] والاعتبارات متقاربة ومآلها واحد.

والمعنى: أن شأن المؤمنين الذين استنفروا أن لا يستأذنوا النبي صلى الله عليه وسلم في التخلف." (١)

"وإبهام ﴿حين﴾ لأنه مختلف باختلاف آجال آحادهم، والمراد به التمتيع بالحياة لا بكشف العذاب، لأنهم بعد موتهم ناجون من العذاب إذ كانوا قد آمنوا وأخلصوا.

ولعل الحكمة في نجاة قوم يونس تتمثل في أمرين:

أحدهما: أن الله علم أن تكذيبهم يونس – عليه السلام– في ابتداء دعوته لم يكن ناشئا عن تصميم على الكفر واستخفاف بعظمة الله، ولكنه كان شكا في صدق يونس – عليه السلام– . ولعل ذلك أنهم كانوا على بقية من شريعة موسى – عليه السلام – وإنما حرفوا وحادوا عن طريق الإيمان مما يعلمه الله، فإن في نينوى كثيرا من أسرى بني إسرائيل الذين كانوا في أسر الآشوريين كما علمت آنفا، فلما أوعدهم يونس – عليه السلام – بالعذاب بعد أربعين يوما ورأوا أماراته بعد خمسة وثلاثين يوما اهتدوا وآمنوا إيمانا خالصا.

وثانيهما: أن يونس – عليه السلام – لما صدرت منه فلتة المغاضبة كان قد خلط في دعوته شيئا من حظ النفس وإن كان لفائدة الدين، فقدر الله إيمان قومه لعلمه كمال الإيمان والصبر والتسليم لله، وهذا **عتاب** وتأديب بينه وبين ربه، ولذلك حذر رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمة من توهم أن ما جرى ليونس – عليه السلام – من المغاضبة والمعاقبة ينقص من قدره فقال صلى الله عليه وسلم: "لا ينبغي لأحد أن يقول أنا خير من يونس بن متى" يعني في صحة الرسالة لا في التفاضل فيها.

وقد كان حال أهل مكة كحال قوم يونس إذ بادروا إلى الإيمان بمجرد دخول جيش الفتح مكة وقبل أن يقعوا في قبضة الأسر، ولذلك لم ينج منهم عبد الله بن خطل، لأنه لم يأت مؤمنا قبل أن يتمكن منه المسلمون ولم ينفعه التعلق بأستار الكعبة لأن ذلك التعلق ليس بإيمان وإنما هو من شعار العوذ في الجاهلية بما أبطله الإسلام إذ قال النبيء صلى الله عليه وسلم: "إن الحرم لا يعيذ عاصيا" . وقد بينا في آخر سورة غافر[٨٤] عند قوله تعالى: ﴿فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده﴾ إلى آخر السورة فانظره.

[٩٩] ﴿ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين﴾

عطف على جملة: ﴿إن الذين حقت عليهم كلمت ربك لا يؤمنون﴾ [يونس: ٩٧] لتسلية النبيء صلى الله عليه وسلم

---

(١) التحرير والتنوير، ١٠٧/١٠

على ما لقيه من قومه. وهذا تذييل لما تقدم من مشابهة حال قريش مع النبيء صلى الله عليه وسلم بحال قوم نوح وقوم موسى وقوم يونس. وهذه الجملة كالمقدمة الكلية للجملة التي بعدها." (١)

"يسألها من الله فتعين أنه سأل له المغفرة ويدل لذلك قوله تعالى: ﴿فلا تسألن ما ليس لك به علم﴾ كما سيأتي.

ويجوز أن يكون دعاء نوح – عليه السلام – هذا وقع قبل غرق الناس، أي نادى ربه أن ينجي ابنه من الغرق.

ويجوز أن يكون بعد غرق من غرقوا، أي نادى ربه أن يغفر لابنه وأن لا يعامله معاملة الكافرين في الآخرة.

والنداء هنا نداء دعاء فكأنه قيل: ودعا نوح ربه، لأن الدعاء يصدر بالنداء غالبا، والتعبير عن الجلالة بوصف الرب مضافا إلى نوح – عليه السلام – تشريف لنوح وإيماء إلى رأفة الله به وأن نهيه الوارد بعده نهي **عتاب.**

وجملة ﴿فقال رب إن ابني من أهلي﴾ بيان للنداء، ومقتضى الظاهر أن لا تعطف بفاء التفريع كما لم يعطف البيان في قوله تعالى: ﴿إذ نادى ربه نداء خفيا قال رب إني وهن العظم مني﴾ [مريم: ٣، ٤]، وخولف ذلك هنا. ووجه في "الكشاف" اقترانه بالفاء بأن فعل ﴿نادى﴾ مستعمل في إرادة النداء، أي مثل فعل "قمتم" في قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم﴾ [المائدة: ٦] الآية، يريد أن ذلك إخراج للكلام على خلاف مقتضى الظاهر فإن وجود الفاء في الجملة التي هي بيان للنداء قرينة على أن فعل ﴿نادى﴾ مستعار لمعنى إرادة النداء، أي أراد نداء ربه فأعقب إرادته بإصدار النداء، وهذا إشارة الى أنه أراد النداء فتردد في الإقدام عليه لما علم من قوله تعالى: ﴿إلا من سبق عليه القول﴾ [هود: ٤٠] فلم يطل تردده لما غلبته الشفقة على ابنه فأقدم على نداء ربه، ولذلك قدم الاعتذار بقوله: ﴿إن ابني من أهلي﴾ . فقوله: ﴿إن ابني من أهلي﴾ خبر مستعمل في الاعتذار والتمهيد لأنه يريد أن يسأل سؤالا لا يدري قبوله ولكنه اقتحمه لأن المسؤول له من أهله فله عذر الشفقة عليه. وتأكيد الخبر ب ﴿إن﴾ للاهتمام به.

وكذلك جملة ﴿وإن وعدك الحق﴾ خبر مستعمل في لازم الفائدة. وهو أنه يعلم أن وعد الله حق.

والمراد بالوعد ما في قوله تعالى: ﴿إلا من سبق عليه القول منهم ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون﴾ [المؤمنون: ٣٧] إذ أفاد ذلك أن بعض أهله قد سبق من الله تقدير بأنه لا يركب السفينة. وهذا الموصول متعين لكونه صادقا على ابنه إذ ليس غيره من أهله." (٢)

"وتأكيد الخبر لتحقيقه لغرابته.

وجملة ﴿إنه عمل غير صالح﴾ تعليل لمضمون جملة ﴿إنه ليس من أهلك﴾ ف"إن" فيه لمجرد الاهتمام.

و ﴿عمل﴾ في قراءة الجمهور بفتح الميم وتنوين اللام مصدر أخبر به للمبالغة وبرفع ﴿غير﴾ على أنه صفة "عمل". وقرأه الكسائي، ويعقوب ﴿عمل﴾ بكسر الميم بصيغة الماضي وبنصب ﴿غير﴾ على المفعولية لفعل "عمل". ومعنى العمل غير الصالح الكفر، وأطلق على الكفر "عمل" لأنه عمل القلب، ولأنه يظهر أثره في عمل صاحبه كامتناع ابن نوح من الركوب الدال على تكذيبه بوعيد الطوفان.

---

(١) التحرير والتنوير، ١٨٢/١١

(٢) التحرير والتنوير، ٢٦٩/١١

وتفرع على ذلك نهيه أن يسأل ما ليس له به علم نهي **عتاب**، لأنه لما قيل له: ﴿إنه ليس من أهلك﴾ بسبب تعليله بأنه عمل غير صالح، سقط ما مهد به إجابة سؤاله، فكان حقيقا بأن لا يسأله وأن يتدبر ما أراد أن يسأله من الله.

وقرأه نافع، وابن عامر، وأبو جعفر "فلا تسألني" – بتشديد النون – وهي نون التوكيد الخفيفة ونون الوقاية أدغمتا. وأثبت ياء المتكلم من عدا ابن كثير من هؤلاء. أما ابن كثير فقرأ "فلا تسألن" – بنون مشددة مفتوحة –. وقرأه أبو عمرو، وعاصم، وحمزة، والكسائي، ويعقوب، وخلف "فلا تسألن" – بسكون اللام وكسر النون مخففة – على أنه غير مؤكد بنون التوكيد ومعدى الى ياء المتكلم.

وأكثرهم حذف الياء في حالة الوصل. وأثبتها في الوصل ورش عن نافع وأبو عمرو.

ثم إن كان نوح – عليه السلام – لم يسبق له وحي من الله بأن الله لا يغفر للمشركين في الآخرة كان نهيه عن أن يسأل ما ليس له به علم، نهي تنزيه لأمثاله لأن درجة النبوءة تقتضي أن لا يقدم على سؤال ربه سؤلا لا يعلم إجابته. وهذا كقوله تعالى: ﴿ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له﴾ [سبأ: ٢٣] وقوله: ﴿لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا﴾ [النبأ: ٣٨]، وإن كان قد أوحي إليه بذلك من قبل، كما دل عليه قوله: ﴿وإن وعدك الحق﴾ . وكان سؤاله المغفرة لابنه طلبا تخصيصه من العموم. وكان نهيه نهي لوم **وعتاب** حيث لم يتبين من ربه جواز ذلك.

وكان قوله: ﴿ما ليس لك به علم﴾ محتملا لظاهره، ومحتملا لأن يكون كناية عن العلم بضده، أي فلا تسألني ما علمت أنه لا يقع.." (١)

"الذي تأكل الطير من رأسه هو رائي أكل الطير من خبز على رأسه.

وإذا كان نظم الآية على غير ما صدر من يوسف – عليه السلام – كان في الآية إيجاز لحكاية كلام يوسف عليه السلام، وكان كلاما معينا فيه كل من الفتيين بأن قال: أما أنت فكيت وكيت، وأما أنت فكيت وكيت، فحكي في الآية بالمعنى. وجملة ﴿قضي الأمر الذي فيه تستفتيان﴾ تحقيق لما دلت عليه الرؤيا، وأن تعبيرها هو ما أخبرهما به فإنهما يستفتيان في دلالة الرؤيا على ما سيكون في شأن سجنهما لأن ذلك أكبر همهما، فالمراد بالأمر تعبير رؤياهما.

والاستفتاء: مصدر استفتى إذا طلب الإفتاء. وهو: الإخبار بإزالة مشكل، أو إرشاد إلى إزالة حيرة. وفعله أفتى ملازم للهمز ولم يسمع له فعل مجرد، فدل ذلك على أن همزه في الأصل مجتلب لمعنى، قالوا: أصل اشتقاق أفتى من الفتى وهو الشاب، فكأن الذي يفتيه يقوي نهجه ببيانه فيصير بقوة بيانه فتيا أي قويا. واسم الخبر الصادر من المفتي: فتوى – بفتح الفاء وبضمها مع الواو مقصورا، وبضم الفاء مع الياء مقصورا –.

[٤٢] ﴿وقال للذي ظن أنه ناج منهما اذكرني عند ربك فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث في السجن بضع سنين﴾.

قال يوسف – عليه السلام – للذي ظن نجاته من الفتيين وهو الساقي. والظن هنا مستعمل في القريب من القطع لأنه لا يشك في صحة تعبيره الرؤيا. وأراد بذكره ذكر قضيته ومظلمته، أي اذكرني لربك، أي سيدك. وأراد بربه ملك مصر. وضميرا ﴿فأنساه﴾ و ﴿ربه﴾ يحتملان العود إلى ﴿الذي﴾ ، أي أنسى الشيطان الذي نجا أن يذكره لربه، فالذكر الثاني

---

(١) التحرير والتنوير، ٢٧١/١١

هو الذكر الأول. ويحتمل أن يعود الضميران إلى ما عاد إليه ضمير ﴿وقال﴾ أي يوسف – عليه السلام – أنساه الشيطان ذكر الله، فالذكر الثاني غير الذكر الأول. ولعل كلا الاحتمالين مراد، وهو من بديع الإيجاز. وذلك أن نسيان يوسف – عليه السلام – أن يسأل الله إلهام الملك تذكر شأنه ك ا ن من إلقاء الشيطان في أمنيته، وكان ذلك سببا إلهيا في نسيان الساقي تذكير الملك، وكان ذلك **عتابا** إلهيا ليوسف – عليه السلام – على اشتغاله بعون العباد دون استعانة ربه على خلاصه.

ولعل في إيراد هذا الكلام على هذا التوجيه تلطفا في الخبر عن يوسف – عليه." (١)

"والإصراخ: الإغاثة، اشتق من الصراخ لأن المستغيث يصرخ بأعلى صوته، فقيل: أصرخه، إذا أجاب صراخه، كما قالوا: أعتبه، إذا قبل **استعتابه**. وأما عطف ﴿وما أنتم بمصرخي﴾ فالمقصود منه استقصاء عدم غناء أحدهما عن الآخر.

وقرأ الجمهور ﴿بمصرخي﴾ بفتح التحتية مشددة. وأصله بمصرخيي بياءين: أولاهما ياء جمع المذكر المجرور، وثانيهما ياء المتكلم، وحقها السكون فلما التقت الياءان ساكنتين وقع التخلص من التقاء الساكنين بالفتحة لخفة الفتحة.

وقرأ حمزة وخلف ﴿بمصرخي﴾ – بكسر الياء – تخلصا من التقاء الساكنين بالكسرة لأن الكسرة هو أصل التخلص من التقاء الساكنين. قال الفراء: تحريك الياء بالكسر لأنه الأصل في التخلص من التقاء الساكنين، إلا أن كسر ياء المتكلم في مثله نادر. وأنشد في تنظير هذا التخلص بالكسر قول الأغلب العجلي:

قال لها هل لك يا تافي ... قالت له: ما أنت بالمرضي

أراد هل لك في يا هذه. وقال أبو على الفارسي: زعم قطرب أنها لغة بني يربوع. وعن أبي عمرو بن العلاء أنه أجاز الكسر. واتفق الجميع على أن التخلص بالفتحة في مثله أشهر من التخلص بالكسرة وإن كان التخلص بالكسرة هو القياس، وقد أثبته سند قراءة حمزة. وقد تحامل عليه الزجاج وتبعه الزمخشري وسبقهما في ذلك أبو عبيد والأخفش بن سعيد وابن النحاس ولم يطلع الزجاج والزمخشري على نسبة ذلك البيت للأغلب العجلي.

والذي ظهر لي أن هذه القراءة قرأ بها بنو يربوع من تميم، وبنو عجل ابن لجيم من بكر بن وائل، فقرأوا بلهجتهم أخذا بالرخصة للقبائل أن يقرأوا القرآن بلهجاتهم وهي الرخصة التي أشار إليها قول النبي صلى الله عليه وسلم: "إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرأوا ما تيسر منه"، كما تقدم في المقدمة السادسة من مقدمات هذا التفسير، ثم نسخت تلك الرخصة بقراءة النبي صلى الله عليه وسلم في الأعوام الأخيرة من حياته المباركة ولم يثبت ما ينسخها في هذه الآية. واستقر الأمر على قبول كل قراءة صح سندها ووافقت وجها في العربية ولم تخالف رسم المصحف الإمام. وهذه الشروط متوفرة في قراءة حمزة هذه كما علمت آنفا فقصارى أمرها أنها تتنزل منزلة ما ينطق به أحد فصحاء العرب على لغة قبائلها بحيث لو قرئ بها في الصلاة لصحت عند مالك وأصحابه.

---

(١) التحرير والتنوير، ٦٧/١٢

وجملة ﴿إني كفرت بما أشركتمون من قبل﴾ استئناف آخر من تبعات عبادتهم إياه قصد منه دفع زيادة العذاب عنه بإظهار الخضوع لله تعالى. وأرادت بقوله: ﴿كفرت﴾." (١)

"[٨٤] ﴿ويوم نبعث من كل أمة شهيدا ثم لا يؤذن للذين كفروا ولا هم يستعتبون﴾

الواو عاطفة جملة ﴿يوم نبعث﴾ الخ على جملة ﴿فإن تولوا فإنما عليك البلاغ المبين﴾ [النحل:٨٢] بتقدير: واذكر يوم نبعث من كل أمة شهيدا. فالتذكير بذلك اليوم من البلاغ المبين. والمعنى: فإن تولوا فإنما عليك البلاغ المبين، وسنجازي يوم نبعث من كل أمة شهيدا عليها. ذلك أن وصف شهيد يقتضي أنه شاهد على المؤمنين به وعلى الكافرين، أي شهيد لأنه بلغهم رسالة الله.

وبعث شهيد من كل أمة يفيد أن محمدا صلى الله عليه وسلم شهيد على هؤلاء الكافرين كما سيجيء عقبه قوله تعالى: ﴿وجئنا بك شهيدا على هؤلاء﴾ [النحل:٨٩]، وبذلك انتظم أمر العطف والتخلص إلى وصف يوم الحساب وإلى التنويه بشأنه.

وانتصب ﴿يوم نبعث﴾ على المفعول به للفعل المقدر. ولك أن تجعل ﴿يوم﴾ منصوبا على الظرفية لعامل محذوف يدل عليه الكلام المذكور يقدر بما يسمح به ا لمعنى، مثل: نحاسبهم حسابا لا يستعتبون منه، أو وقعوا فيما وقعوا من الخطب العظيم.

والذي دعا إلى هذا الحذف هو أن ما حقه أن يكون عاملا في الظرف وهو ﴿لا يؤذن للذين كفروا﴾ قد حول إلى جعله معطوفا على جملة الظرف بحرف ﴿ثم﴾ الدال على التراخي الرتبي، إذ الأصل: ويوم نبعث من كل أمة شهيدا لا يؤذن للذين كفروا... إلى آخره، فبقي الظرف بدون متعلق فلم يكن للسامع بد من تقديره بما تذهب إليه نفسه. وذلك يفيد التهويل والتفظيع وهو من بديع الإيجار.

والشهيد: الشاهد. وقد تقدم نظيره عند قوله تعالى: ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد﴾ في سورة النساء [٤١].

والبعث: إحضاره في الموقف.

و ﴿ثم﴾ للترتيب الرتبي، لأن إلجامهم عن الكلام مع تعذر **الاستعتاب** أشد هولا من الإتيان بالشهيد عليهم. وليست ﴿ثم﴾ للتراخي في الزمن، لأن عدم الإذن لهم مقارن لبعث الشهيد عليهم. والمعنى: لا يؤذن لهم بالمجادلة عن أنفسهم، فحذف متعلق ﴿يؤذن﴾ لظهوره من قوله تعالى: ﴿ولا هم يستعتبون﴾.." (٢)

"ويجوز أن يكون نفي الإذن كناية عن الطرد كما كان الإذن كناية عن الإكرام، كما في حديث جرير بن عبد الله: "ما استأذنت رسول الله منذ أسلمت إلا أذن لي" . وحينئذ لا يقدر له متعلق، أو لا يؤذن لهم في الخروج من جهنم حين يسألونه بقولهم: ﴿ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب﴾ [غافر:٤٩] فهو كقوله تعالى: ﴿فاليوم لا يخرجون منها ولا هم يستعتبون﴾ [الجاثية:٣٥].

---

(١) التحرير والتنوير، ٢٤٧/١٢

(٢) التحرير والتنوير، ١٩٦/١٣

و **الاستعتاب**: أصله طلب العتبى، والعتبى: الرضى بعد الغضب. يقال: استعتب فلان فلانا فأعتبه، إذا أرضاه، قال تعالى: ﴿وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين﴾ [فصلت:٢٤].

وإذا بني للمجهول فالأصل أن يكون نائب فاعله هو المطلوب منه الرضى، تقول: استعتب فلان فلم يعتب. وأما ما وقع في القرآن منه مبنيا للمجهول فقد وقع نائب فاعله ضمير المستعتبين كما في هذه الآية وكما في قوله تعالى في سورة الروم [٥٧] ﴿فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم ولا هم يستعتبون﴾، وفي سورة الجاثية [٣٥] ﴿فاليوم لا يخرجون منها ولا هم يستعتبون﴾. ففسره الراغب فقال: **الاستعتاب** أن يطلب من الإنسان أن يطلب العتبى اه.

وعليه فقال: استعتب فلم يستعتب، ويقال: على الأصل استعتب فلان فلم يعتب. وهذا استعمال نشأ عن الحذف. وأصله: استعتب له، أي طلب منه أن يستعتب، فكثر في الاستعمال حتى قل استعمال استعتب مبنيا للمجهول في غير هذا المعنى.

وعطف ﴿ولا هم يستعتبون﴾ على ﴿لا يؤذن للذين كفروا﴾ وإن كان أخص منه، فهو عطف خاص على عام، للاهتمام بخصوصه للدلالة على أنهم مأيوس من الرضى عنهم عند سائر أهل الموقف بحيث يعلمون أن لا طائل في **استعتابهم**، فلذلك لا يشير أحد عليهم بأن يستعتبوا. فإن جعلت ﴿لا يؤذن﴾ كناية عن الطرد فالمعنى: أنهم يطردون ولا يجدون من يشير عليهم بأن يستعتبوا.

[٨٥] ﴿وإذا رأى الذين ظلموا العذاب فلا يخفف عنهم ولا هم ينظرون﴾

عطف على جملة ﴿ثم لا يؤذن للذين كفروا﴾ [النحل:٨٤] و ﴿إذا﴾ شرطية ظرفية.

وجملة ﴿فلا يخفف﴾ جواب ﴿إذا﴾ وقرن بالفاء لتأكيد معنى الشرطية والجوابية." (١)

"وهم أهل مكة الذين سألوا عن أمر أهل الكهف.

أو يكون كناية رمزية عن حصول علم النبي صلى الله عليه وسلم بحقيقة أمرهم بحيث هو غني عن استفتاء أحد، وأنه لا يعلم المشركين بما علمه الله من شأن أهل الكهف، وتكون (من) تعليلية، والضمير المجرور بها عائدا إلى السائلين المتعنتين، أي لا تسأل علم ذلك من أجل حرص السائلين على أن تعلمهم بيقين أمر أهل الكهف فإنك علمته ولم تؤمر بتعليمهم إياه، ولو لم يحمل النهي على هذا المعنى لم يتضح له وجه. وفي التقييد بـ ﴿منهم﴾ محترز ولا يستقيم جعل ضمير ﴿منهم﴾ عائدا إلى أهل الكتاب، لأن هذه الآيات مكية باتفاق الرواة والمفسرين.

[٢٣-٢٤] ﴿ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله واذكر ربك إذا نسيت وقل عسى أن يهدين ربي لأقرب من هذا رشدا﴾

﴿ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله﴾

عطف على الاعتراض. ومناسبة موقعه هنا ما رواه ابن إسحاق و الطبري في أول هذه السورة والواحدي في سورة مريم: أن المشركين لما سألوا النبي صلى الله عليه وسلم عن أهل الكهف وذي القرنين وعدهم بالجواب عن سؤالهم من الغد

---

(١) التحرير والتنوير، ١٩٧/١٣

ولم يقل: (إن شاء الله)، فلم يأته جبريل عليه السلام بالجواب إلا بعد خمسة عشر يوما. وقيل: بعد ثلاثة أيام كما تقدم، أي فكان تأخير الوحي إليه بالجواب **عتابا** رمزيا من الله لرسوله صلى الله عليه وسلم كما عاتب سليمان عليه السلام فيما رواه البخاري: أن سليمان قال: لأطوفن الليلة على مائدة امرأة تلد كل واحدة ولدا يقاتل في سبيل الله فلم تحمل منهن إلا واحدة ولدت شق غلام. ثم كان هذا **عتابا** صريحا فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما سئل عن أهل الكهف وعد بالإجابة ونسي أن يقول: (إن شاء الله)كما نسي سليمان، فأعلم الله رسوله بقصة أهل الكهف، ثم نهاه عن أن يعد بفعل شيء دون التقييد بمشيئة الله.

وقوله: ﴿إلا أن يشاء الله﴾ استثناء حقيقي من الكلام الذي قبله. وفي كيفية نظمه اختلاف للمفسرين، فمقتضى كلام الزمخشري أنه من بقية جملة النهي، أي هو استثناء من حكم النهي، أي لا تقولن: إني فاعل الخ... إلا أن يشاء الله أن تقوله. ومشيئة الله تعلم من إذنه بذلك، فصار المعنى: إلا أن بأذن الله لك بأن تقوله. وعليه فالمصدر المسبك من ﴿أن يشاء الله﴾ مستثنى من عموم المنهيات وهو من كلام الله تعالى. ومفعول ﴿يشاء الله﴾." (١)

"والجمهور على أن قوله: ﴿واذكر ربك إذا نسيت﴾ لا دلالة فيه على جواز تأخير الثنيا، واستدلوا بأن السنة وردت بخلافة.

﴿وقل عسى أن يهدين ربي لأقرب من هذا رشدا﴾

لما أبر الله وعد نبيه صلى الله عليه وسلم الذي وعده المشركين أن يبين لهم أمر أهل الكهف فأوحاه إليه وأوقفهم عليه، أعقب ذلك **بعتابه** على التصدي لمجاراتهم في السؤال عما هو خارج عن غرض الرسالة دون إذن من الله، وأمره أن يذكر نهي ربه. ويعزم على تدريب نفسه على إمساك الوعد ببيان ما يسأل منه بيانه دون أن يأذنه الله به، أمره هنا أن يخبر سائليه بأنه ما بعث للاشتغال بمثل ذلك، وأنه يرجوا أن الله يهديه إلى ما هو أقرب إلى الرشد من بيان أمثال هذه القصة وإن كانت هذه القصة تشتمل على موعظة وهدى ولكن الهدى الذي في بيان الشريعة أعظم وأهم. والمعنى: وقل لهم عسى أن يهديني ربي لأقرب من هذا رشدا.

فجملة ﴿وقل عسى أن يهدين﴾ الخ.. معطوفة عىل جملة ﴿فلا تمار فيهم﴾ . ويجوز أن تكون جملة ﴿وقل عسى أن يهدين﴾ عطفا على جملة ﴿واذكر ربك إذا نسيت﴾ ، أي اذكر أمره ونهيه وقل في نفسك: عسى أن يهديني ربي لأقرب من هذا رشدا، أي ادع الله بهذا.

وانتصب ﴿رشدا﴾ على تمييز نسبة التفضيل من قوله: ﴿لأقرب من هذا﴾ ويجوز أن يكون منصوبا على أنه مفعول مطلق مبين لنوع فعل ﴿أن يهدين﴾ لأن الرشد نوع من الهداية.

ف ﴿عسى﴾ مستعملة في الرجاء تأدبا، واسم الإشارة عائد إلى المذكور من قصة أهل الكهف بقرينة وقوع هذا الكلام معترضا في أثنائها.

ويجوز أن يكون المعنى: وارج من الله أن يهديك فيذكرك أن لا تعيد وعدا ببيان شيء دون إذن الله.

---

(١) التحرير والتنوير، ١٥/٤٧

والرشد بفتحتين الهدى والخير. وقد تقدم القول فيه عند قوله تعالى في هذه السور ﴿وهيئ لنا من أمرنا رشدا﴾ [الكهف: ١٠].." (١)

"والمراد بهذا الفتون خوف موسى من عقاب فرعون وخروجه من البلد المذكور في قوله تعالى ﴿فأصبح في المدينة خائفا يترقب﴾ إلى قوله: ﴿وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى قال يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إني لك من الناصحين*فخرج منها خائفا يترقب قال رب نجني من القوم الظالمين﴾ [القصص:٢٠-٢١]

وذكر الفتون بين تعداد المنن إدماج للإعلام بأن الله لم يمهل دم القبطي الذي قتله موسى، فإنه نفس معصومة الدم إذ لم يحصل ما يوجب قتله لأنهم لم ترد إليهم دعوة إلهية حينئذ، فحين أنجى الله موسى من المؤاخذة بدمه في شرع فرعون ابتلى موسى بالخوف والغربة **عتابا** له على إقدامه على قتل النفس، كما قال في الآية الأخرى: ﴿قال هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين قال رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له﴾ [القصص: ١٥ - ١٦]. وعباد الله الذين أراد بهم خيرا ورعاهم بعنايته يجعل لهم من كل حالة كمالا يكسبونه، ويسمى مثل ذلك بالابتلاء، فكان من فتون موسى بقضية القبطي أن قدر له الخروج إلى أرض مدين ليكتسب رياضة نفس وتهيئة ضمير لتحمل المصاعب، ويتلقى التهذيب من صهره الرسول شعيب عليه السلام. ولهذا المعنى عقب ذكر الفتون بالتفريع في قوله: ﴿فلبثت سنين في أهل مدين ثم جئت على قدر يا موسى﴾ ، فبين له كيف كانت عاقبة الفتون.

أو يكون الفتون مشتركا بين محمود العاقبة وضده مثل الابتلاء في قوله: ﴿وبلوناهم بالحسنات والسيئات﴾ [الأعراف: ١٦٨]، أي واختبرناك اختبارا. والاختبار: تمثيل لحال تكليفه بأمر التبليغ بحال من يختبر، ولهذا اختير هنا دون الفتنة.

وأهل مدين: قوم شعيب، ومدين: اسم أحد أبناء إبراهيم عليه السلام سكنت ذريته في موطن تسمى الأيكة على شاطئ البحر الأحمر جنوب عقبة أيلة، وغلب اسم القبيلة على الأرض وصار علما للمكان فمن ثم أضيف إليه أهل. وقد تقدم في سورة الأعراف.

ومعنى ﴿جئت﴾ حضرت لدينا. وهو حضوره بالواد المقدس لتلقي الوحي.

و "على" للاستعلاء المجازي بمعنى التمكن؛ جعل مجيئه في الوقت الصالح للخير بمنزلة المستعلي على ذلك الوقت المتمكن منه.

والقدر: تقدير الشيء على مقدار مناسب لما يريد المقدر بحيث لم يكن على سبيل." (٢)

"[٢٣] ﴿لا يسأل عما يفعل وهم يسألون﴾

الأظهر أن هذه الجملة حال مكملة لمدلول قوله تعالى: ﴿لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون يسبحون الليل والنهار لا يفترون﴾ كما تقدم عند قوله تعالى: ﴿أم اتخذوا آلهة من الأرض﴾ الخ. فالمعنى أن من عنده وهم المقربون من المخلوقات هم مع قربهم يسألون عما يفعلون ولا يسألونه عما يفعل، أي لم يبلغ بهم قربهم إلى حد الإدلال عليه

---

(١) التحرير والتنوير، ٥٠/١٥

(٢) التحرير والتنوير، ١٢١/١٦

وانتصابهم لتعقب أفعاله. فلما كان الضمير المرفوع بالنيابة عن الفاعل مشعرا بفاعل حذف لقصد التعميم، أي لا يسأل سائل الله تعالى عما يفعل. وكان ممن يشملهم الفاعل المحذوف هم من عنده من المقربين، صح كون هذه الجملة حالا من "من عنده"، على أن جملة: ﴿لا يسأل عما يفعل﴾ تمهيد لجملة: ﴿وهم يسألون﴾.

على أن تقديمه على جملة: ﴿وهم يسألون﴾ اقتضته مناسبة الحديث عن تنزيهه تعالى عن الشركاء فكان انتقالا بديعا بالرجوع إلى بقية أحوال المقربين.

فالمقصود أن من عنده مع قربهم ورفعة شأنهم يحاسبهم الله على أعمالهم فهم يخافون التقصير فيما كلفوا به من الأعمال ولذلك كانوا لا يستحسرون ولا يفترون.

وبهذا تعلم أن ليس ضمير ﴿وهم يسألون﴾ براجع إلى ما رجع إليه ضمير ﴿يصفون﴾ لأن أولئك لا جدوى للإخبار بأنهم يسألون إذ لا يتردد في العلم بذلك أحد، ولا براجع إلى ﴿آلهة من الأرض﴾ لعدم صحة سؤالهم، وذلك هو ما دعانا إلى اعتبار جملة: ﴿لا يسأل عما يفعل﴾ حالا من ﴿من عنده﴾ .

والسؤال هنا بمعنى المحاسبة، وطلب بيان سبب الفعل، وإبداء المعذرة عن فعل بعض ما يفعل، وتخلص من ملام أو عتاب على ما يفعل. وهو مثل السؤال في الحديث "كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته". فكونهم يسألون كناية عن العبودية لأن العبد بمظنة المؤاخذة على ما يفعل وما لا يفعل وبمظنة للخطأ في بعض ما يفعل.

وليس المقصود هنا نفي سؤال الاستشارة أو تطلب العلم كما في قوله تعالى: ﴿قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها﴾ في البقرة، ولا سؤال الدعاء، ولا سؤال الاستفادة والاستنباط مثل أسئلة المتفقهين أو المتكلمين عن الحكم المبثوثة في الأحكام الشرعية أو في النظم الكونية لأن ذلك استنباط وتتبع وليس مباشرة بسؤال الله تعالى، ولا لتطلب." (١)

"أنها كذبات في بادئ الأمر وأنها عند التأمل يظهر المقصود منها. وذلك أن النهي عن الكذب إنما علته خدع المخاطب وما يتسبب على الخبر المكذوب من جريان الأعمال على اعتبار الواقع بخلافه. فإذا كان الخبر يعقب بالصدق لم يكن ذلك من الكذب بل كان تعريضا أو مزحا أو نحوهما.

وأما ما ورد في حديث الشفاعة فيقول إبراهيم: لست هناكم ويذكر كذبات كذبها فمعناه أنه يذكر أنه قال كلاما خلافا للواقع بدون إذن الله بوحي، ولكنه ارتكب قول خلاف الواقع لضرورة الاستدلال بحسب اجتهاده فخشي أن لا يصادف اجتهاده الصواب من مراد الله فخشي عتاب الله فتخلص من ذلك الموقف.

وقوله تعالى: ﴿فرجعوا إلى أنفسهم﴾ يجوز أن يكون معناه فرجع بعضهم إلى بعض، أي أقبل بعضهم على خطاب بعض وأعرضوا عن مخاطبة إبراهيم على نحو قوله تعالى: ﴿فسلموا على أنفسكم﴾ وقوله تعالى: ﴿ولا تقتلوا أنفسكم﴾ ، أي فقال بعضهم لبعض ﴿إنكم أنتم الظالمون﴾ .وضمائر الجمع مراد منها التوزيع كما في: ركب القوم دوابهم، ويجوز أن يكون معناه فرجع كل واحد إلى نفسه، أي ترك التأمل في تهمة إبراهيم وتدبر في دفاع إبراهيم. فلاح لكل منهم أن إبراهيم بريء فقال بعضهم لبعض: ﴿إنكم أنتم الظالمون﴾ . وضمائر الجمع جارية على أصلها المعروف. والجملة مفيدة للحصر،

---

(١) التحرير والتنوير، ١٧/٣٤

أي أنتم ظالمون لا إبراهيم لأنكم ألصقتم به التهمة بأنه ظلم أصنامنا مع أن الظاهر أن نسألها عمن فعل بها ذلك، ويظهر أن الفاعل هو كبيرهم.

والرجوع إلى أنفسهم على الاحتمالين السابقين مستعار لشغل البال بشيء عقب شغله بالغير، كما يرجع المرء إلى بيته بعد خروجه إلى مكان غيره.

وفعل ﴿نكسوا﴾ مبني للمجهول، أي نكسهم ناكس. ولما لم يكن لذلك النكس فاعل إلا أنفسهم بني الفعل للمجهول فصار بمعنى: انتكسوا على رؤوسهم. وهذا تمثيل.

والنكس: قلب أعلى الشيء أسفله وأسفله أعلاه، يقال: صلب اللص منكوسا، أي مجعولا رأسه مباشرا للأرض، وهو أقبح هيئات المصلوب. ولما كان شأن انتصاب جسم الإنسان أن يكون منتصبا على قدميه فإذا نكس صار انتصابه كأنه على رأسه، فكان قوله هنا ﴿نكسوا على رؤوسهم﴾ تمثيلا لتغير رأيهم عن الصواب كما قالوا ﴿إنكم أنتم." (١)

"والتأكيد بـ ﴿إن﴾ واللام منظور فيه إلى حال الناس لا إلى حال النبي صلى الله عليه وسلم، فالتأكيد واقع موقع التعويض بهم بقرينة قوله ﴿ولكن أكثرهم لا يشكرون﴾ .

و ﴿لكن﴾ استدراك ناشئ عن عموم الفضل منه تعالى فإن عمومه وتكرره يستحق بأن يعلمه الناس فيشكروه ولكن أكثر الناس لا يشكرون كهؤلاء الذين قالوا ﴿متى هذا الوعد﴾ فإنهم يستعجلون العذاب تهكما وتعجيزا في زعمهم غير قادرين قدر نعمة الإهمال.

[٧٤] ﴿وإن ربك ليعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون﴾

موقع هذا موقع الاستئناف البياني لأن قوله ﴿وإن ربك لذو فضل على الناس﴾ [النمل: ٧٣] يثير سؤالا في نفوس المؤمنين أن يقولوا: إن هؤلاء المكذبين قد أضمروا المكر وأعلنوا الاستهزاء فحالهم لا يقتضي إمهالهم فيجاب بأن الذي أمهلهم مطلع على ما في صدورهم وما أعلنوه وأنه أمهلهم مطلع على ما في صدورهم وما أعلنوه وأنه أمهلهم مع علمه بهم لحكمة يعلمها.

وفيه إشارة إلى أنهم يكنون أشياء للنبي صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين، منها: أنهم يتربصون بهم الدوائر، وأنهم تخامر نفوسهم خواطر إخراجه وإخراج المؤمنين. وهذا الاستئناف لما كان ذا جهة من معنى وصف الله بإحاطة العلم عطف جملته على جملة وصف الله بالفضل، فحصل بالعطف غرض ثان مهم، وحصل معنى الاستئناف البياني من مضمون الجملة.

وأما التوكيد بـ ﴿إن﴾ فهو على نحو توكيد الجملة التي قبله. ولك أن تجعله لتنزيل السائل منزلة المتردد وذلك تلويح **بالعتاب.**

و ﴿تكن﴾ تخفي وهو من "أكن" إذا جعل شيء كانا، أي حاصلا في كن. والكن: المسكن. وإسناد ﴿تكن﴾ إلى الصدور مجاز عقلي باعتبار أن الصدور مكانه.والإعلان: الإظهار.

---

(١) التحرير والتنوير، ١٧/٧٥

[٧٥] ﴿وما من غائبة في السماء والأرض إلا في كتاب مبين﴾

عطف على جملة ﴿وإن ربك ليعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون﴾ . وهو في معنى التذييل للجملة المذكورة لأنها منها علم الله بضمائرهم فذيل ذلك بأن الله يعلم كل غائبة في السماء والأرض.

وإنما جاء معطوفا لأنه جدير بالاستقلال بذاته من حيث إنه تعليم لصفة علم الله." (١)

"المقبول، لأن الله لو أذن لهم في الاعتذار لكان ذلك توطئة لقبوله اعتذارهم نظير قوله: ﴿من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه﴾ [البقرة: ٢٥٥]﴾.

والمثبت هنا معذرة من تلقاء أنفسهم لم يؤذن لهم بها فهي غير نافعة لهم كما قال تعالى ﴿قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون قال اخسأوا فيها ولا تكلمون﴾ [المؤمنون: ١٠٦- ١٠٨] وقوله: ﴿لا تجأروا اليوم إنكم منا لا تنصرون﴾ [المؤمنون: ٦٥]﴾.

وقرأ الجمهور ﴿تنفع﴾ بالمثناة الفوقية. وقرأه حمزة وعاصم والكسائي وخلف بالتحتية وهو وجه جائز لأن "معذرة" مجازي التأنيث، ولوقوع الفصل بين الفعل وفاعله بالمفعول.

و ﴿يستعتبون﴾ مبني للمجهول والمبني منه للفاعل استعتب، إذا سأل العتبى –بضم العين وبالقصر– وهي اسم **للإعتاب**، أي إزالة العتب، فهمزة **الإعتاب** للإزالة قال تعالى: ﴿وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين﴾ [فصلت: ٢٤]، فصار استعتب المبني للمجهول جاريا على استعتب المبني للمعلوم فلما قيل: استعتب بمعنى طلب العتبي صار استعتب المبني للمجهول بمعنى أعتب، فمعنى ﴿ولا هم يستعتبون﴾ : ولا هم بمزال عنهم المؤاخذة نظير قوله: ﴿فما هم من المعتبين﴾ . وهذا استعمال عجيب جار على تصاريف متعددة في الفصيح من الكلام، وبعض استقاقها غير قياسي ومن حاولوا إجراءه على القياس اضطروا إلى تلكفات في المعنى لا يرضي بها الذوق السليم، والعجب وقوعها في "الكشاف" . وقال في "القاموس" : واستعتبه: أعطاه العتبي كأعتبه، وطلب إليه العتبي ضد. والمعنى: لا ينفعهم اعتذار بعذر ولا إقرار بالذنب وطلب العفو. وتقدم قوله: ﴿ولا هم يستعتبون﴾ في سورة النحل [٨٤].

[٥٨، ٥٩] ﴿ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل ولئن جئتهم بآية ليقولن الذين كفروا إن أنتم إلا مبطلون [٥٨] كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون [٥٩]﴾

لما انتهى ما أقيمت عليه السورة من دلائل الوحدانية وإثبات البعث عقب ذلك بالتنويه بالقرآن وبلوغه الغاية القصوى في البيان والهدى.

والضرب حقيقته: الوضع والإلصاق. واستعير في مثل هذه الآية للذكر والتبيين لأنه كوضع الدال بلصق المدلول، وتقدم في قوله تعالى: ﴿إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلا." (٢)

---

(١) التحرير والتنوير، ٣٠١/١٩

(٢) التحرير والتنوير، ٨٣/٢١

"الفزع والهلع حتى كأنها لاضطرابها تتجاوز مقارها وترتفع طالبة الخروج من الصدور فإذا بلغت الحناجر لم تستطع تجاوزها من الضيق؛ فشبهت هيئة قلب الهلوع المرعود بهيئة قلب $ تجاوز موضعه وذهب متصاعدا طالبا الخروج، فالمشبه القلب نفسه باعتبار اختلاف الهيئتين. وليس الكلام على الحقيقة فإن القلوب لا تتجاوز مكانها، وقريب منه قولهم: تنفس الصعداء، وبلغت الروح التراقي.

وجملة ﴿وتظنون بالله الظنونا﴾ يجوز أن تكون عطفا على جملة ﴿زاغت الأبصار﴾ ، ويجوز أن يكون الواو للحال وجيء بالفعل المضارع للدلالة على تجدد تلك الظنون بتجدد أسبابها كناية عن طول مدة هذا البلاء.

وفي صيغة المضارع معنى التعجيب من ظنونهم لإدماج **العتاب** بالامتنان فإن شدة الهلع الذي أزاغ الأبصار وجعل القلوب بمثل حالة أن تبلغ الحناجر، دل على أنهم أشفقوا من أن يهزموا لما رأوا من قوة الأحزاب وضيق الحصار أو خافوا طول مدة الحرب وفناء الأنفس، أو أشفقوا من أن تكون من الهزيمة جراءة للمشركين على المسلمين، أو نحو ذلك من أنواع الظنون وتفاوت درجات أهلها.

والمؤمن وإن كان يثق بوعد ربه لكنه لا يأمن غضبه من جراء تقصيره، ويخشى أن يكون النصر مرجأ إلى زمن آخر، فإن ما في علم الله وحكمته لا يحاط به.

وحذف مفعولا ﴿تظنون﴾ بدون وجود دليل يدل على تقديرهما فهو حذف لتنزيل الفعل منزلة اللازم، ويسمى هذا الحرف عند النحاة الحذف اقتصارا، أي: للاقتصار على نسبة فعل الظن لفاعله، والمقصود من هذا التنزيل أن تذهب نفس السامع كل مذهب ممكن، وهو حذف مستعمل كثيرا في الكلام الفصيح وعلى جوازه أكثر النحويين ومنه قوله تعالى: ﴿أعنده علم الغيب فهو يرى﴾ [النجم: ٣٥﴾ وقوله: ﴿وظننتم ظن السوء﴾ [الفتح: ١٢]، وقول المثل: من يسمع يخل، ومنعه سيبويه والأخفش.

وضمن ﴿تظنون﴾ معنى تلحقون فعدي بالباء فالباء للملابسة. قال سيبويه: قولهم: ظننت به، معناه: جعلته موضع ظني. وليست الباء هنا بمنزلتها في ﴿كفى بالله حسيبا﴾ [النساء: ٦]، أي: ليست زائدة، ومجرورها معمول للفعل قبلها كأنك قلت: ظننت في الدار، ومثله: شككت فيه، أي: فالباء عنده بمعنى "في". والوجه أنها للملابسة كقول دريد بن الصمة:

فقلت لهم: ظنوا بألفي مدجج ... سراتهم في الفارسي المسرد

وسيأتي تفصيل ذلك عند قوله تعالى: ﴿فما ظنكم برب العالمين﴾ في سورة الصافات [٨٧].." (١)

"تأمرني قال: لا إنما أنا أشفع، قالت: لا حاجة لي فيه".

وقوله: ﴿أمسك عليك زوجك﴾ يؤذن بأنه جواب عن كلام صدر من زيد بأن جاء زيدا مستشيرا في فراق زوجه، أو معلما بعزمه على فراقها.

و ﴿أمسك عليك﴾ معناه: لازم عشرتها، فالإمساك مستعار لبقاء الصحبة تشبيها للصاحب بالشيء الممسك باليد.

وزيادة ﴿عليك﴾ للدلالة "على" على الملازمة والتمكن مثل ﴿أولئك على هدى من ربهم﴾ [البقرة: ٥] أو لتضمن

---

(١) التحرير والتنوير، ٢٠٥/٢١

﴿أمسك﴾ معنى احبس، أي ابق في بيتك زوجك، وأمره بتقوى الله تابع للإشارة بإمساكها، أي اتق الله في عشرتها كما أمر الله ولا تحد عن واجب حسن المعاشرة، أي اتق لله بملاحظة قوله تعالى: ﴿فإمساك بمعروف﴾ [البقرة: ٢٢٩].

وجملة ﴿وتخفي في نفسك ما الله مبديه﴾ عطف على جملة ﴿تقول﴾ . والإتيان بالفعل المضارع في قوله: ﴿وتخفي﴾ للدلالة على تكرر إخفاء ذلك وعدم ذكره. والذي في نفسه علمه بأنه سيتزوج زينب وأن زيدا يطلقها وذلك سر بينه وبين ربه ليس مما يجب عليه تبليغه ولا مما للناس فائدة من علمه حتى يبلغوه، ألا ترى أنه لم يعلم عائشة ولا أباها برؤيا إتيان الملك بها في سرقة حرير إلا بعد أن تزوجها.

فما صدق "ما في نفسك" هو التزوج بزينب وهو الشيء الذي سيبديه الله لأن الله أبدى ذلك في تزويج النبيء صلى الله عليه وسلم بها ولم يكن أحد يعلم أنه سيتزوجها ولم يبد الله شيئا غير ذلك فلزم أن يكون ما أخفاه في نفسه أمر يصلح للإظهار في الخارج، أي يكون من الصور المحسوسة.

وليست جملة ﴿وتخفي في نفسك﴾ حالا من الضمير في ﴿تقول﴾ كما جعله في "الكشاف" لأن ذلك مبني على توهم أن الكلام مسوق مساق **العتاب** على أن يقول كلاما يخالف ما هو مخفي في نفسه ولا يستقم له معنى. إذ يفضي إلى أن يكون اللائق به أن يقول له غير ذلك وهو ينافي مقتضى الاستشارة، ويفضي إلى الطعن في صلاحية زينب للبقاء في عصمة زيد، وقد استشعر هذا صاحب "الكشاف" فقال: "فإن قلت فماذا أراد الله منه أن يقول حين قال له زيد: اريد مفارقتها، وكان من الهجنة أن يقول له: أفعل فإني أريد نكاحها. قلت: كأن الذي أراد منه عز وجل أن يصمت عند ذلك أو يقول أنت أعلم بشأنك حتى لا يخالف سره في ذلك علانيته" اهـ وهو بناء على أساس كونه **عتابا**." (١) "وفيه وهن.

وجملة ﴿وتخشى الناس﴾ عطف على جملة ﴿وتخفي في نفسك﴾ ، أي تخفي ما سيبديه الله وتخشى الناس من إبدائه.

والخشية هنا كراهية ما يرجف به المنافقون، والكراهة من ضروب الخشية إذ الخشية جنس مقول على أفراده بالتشكيك فليست هي خشية خوف إذ خشية النبيء صلى الله عليه وسلم لم يكن يخاف أحد من ظهور تزوجه بزينب ولم تكن قد ظهرت أراجيف المنافقين بعد ولكن النبيء صلى الله عليه وسلم كان يتوسم من خبثهم وسوء طويتهم ما كان منهم في قضية الإفك، ولم تكن خشية تبلغ به مبلغ صرفه عما يرغبه بدليل أنه لم يتردد في تزوج زينب بعد طلاق زيد، ولكنها استشعار في النفس وتقدير لما سيرجفه المنافقون.

والتعريف في ﴿الناس﴾ للعهد، أي تخشى المنافقين، أي يؤذوك بأقوالهم.

وجملة ﴿والله أحق أن تخشاه﴾ معترضة لمناسبة جريان ذكر خشية الناس، والواو اعتراضية وليست واو الحال فمعنى الآية معنى قوله تعالى: ﴿فلا تخشوا الناس واخشون﴾ [المائدة: ٤٤]. وحملها على معنى الحال هو الذي حمل كثيرا من المفسرين على جعل الكلام **عتابا** للنبيء صلى الله عليه وسلم.

---

(١) التحرير والتنوير، ٢٦٢/٢١

و ﴿أحق﴾ اسم تفضيل مسلوب المفاضلة فهو بمعنى حقيق، إذ ليس في الكلام السابق ما يفيد وقوع إيثار خشية الناس على خشية الله ولا ما يفيد تعارضا بين الخشيتين حتى يحتاج إلى ترجيح خشية الله على خشية الناس، والمعنى: والله حقيق بأن تخشاه.

وليس في هذا التركيب ما يفيد أنه قدم خشية الناس على خشية الله لأن الله لم يكلفه شيئا فعمل بخلافه.

وبهذا تعلم أن النبيء صلى الله عليه وسلم ما فعل إلا ما يرضي الله، وقد قام بعمل الصاحب الناصح حين أمر زيدا بإمساك زوجه وانطوى على علم صالح حين خشي ما سيفترضه المنافقون من القالة إذا تزوج زينب خفية أن يكون قولهم فتنة لضعفاء الإيمان كقوله للرجلين اللذين رأياه في الليل مع زينب فأسرعا خطاهما فقال: "على رسلكما إنما هي زينب. فكبر ذلك عليهما وقالا: سبحان الله يا رسول الله. فقال: "إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم خشيت أن يقذف في قلوبكما"..." (١)

"فمقام النبيء صلى الله عليه وسلم في الأمة مقام الطبيب الناصح في بيمارستان يحوي أصنافا من المرضى إذا رأى طعاما يجلب لما لا يصلح ببعض مرضاه أن ينهي عن إدخاله خشية أن يتناوله من المرضى من لا يصلح ذلك بمرضه ويزيد في علته أو يفضي إلى انتكاسه.

وليس في قوله: ﴿وتخشى الناس﴾ عتاب ولا لوم ولكنه تذكير بما حصل له من توقيه قالة المنافقين. وحمله كثير من المفسرين على معنى العتاب وليس في سياق الكلام ما يقتضيه فأحسبهم مخطئين فيه ولكنه تشجيع له وتحقير لأعداء الدين وتعليم له بأن يمضي في سبيله ويتناول ما أباح الله له ولرسله من تناول ما هو مباح من مرغوباتهم ومحباتهم إذا لم يصدهم شيء عن طاعة ربهم كما قال تعالى: ﴿ما كان على النبيء من حرج فيما فرض الله له سنة الله في الذين خلوا من قبل وكان أمر الله قدرا مقدورا الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا إلا الله﴾ [الأحزاب: ٣٧، ٣٩]، وأن عليه ان يعرض عن قول المنافقين وعلى نحو قوله: ﴿لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين﴾ [الشعراء: ٣]، فهذا جوهر ما أشارت إليه الآية وليس فيها ما يشير إلى غير ذلك.

وقد رويت في هذه القصة أخبار مخلوطة، فإياك أن تتسرب إلى نفسك منها أغلوطة، فلا تصغ ذهنك إلى ما ألصقه أهل القصص بهذه الآية من تبسيط في حال النبيء صلى الله عليه وسلم حين أمر زيدا بإمساك زوجه فإن ذلك من مختلقات القصاصين، فأما أن يكون ذلك اختلافا من لقصاصين لتزيين القصة، وأما أن يكون كله أو بعضه من أراجيف المنافقين وبهتانهم فتلفقة القصاص وهو الذي نجزم به. ومما يدل لذلك انك لا تجد فيما يؤثر من أقوال السلف في تفسير هذه الآية أثرا مسندا إلى النبيء صلى الله عليه وسلم أو إلى زيد أو إلى زينب أو إلى أحد من الصحابة رجالهم ونسائهم ولكنها قصص وأخبار وقيل وقال.

ولسوء فهم الآية كبر أمرها على بعض المسلمين واستفزت كثيرا من الملاحدة وأعداء الإسلام من أهل الكتاب. وقد تصدى أبو بكر بن العربي في "الأحكام" لوهن أسانيدها وكذلك عياض في "الشفاء" .

---

(١) التحرير والتنوير، ٢٦٣/٢١

والآن نريد أن ننقل مجرى الكلام إلى التسليم بوقوع ما روي من الأخبار الواهية السند لكي لا نترك في هذه الآية مهواة لأحد. ومجموع القصة من ذلك: أن النبيء صلى الله عليه وسلم جاء بيت زيد يسأل عنه فرأى زينب وقيل رفعت الريح ستار البيت فرأى النبيء عليه الصلاة والسلام زينب فجأة على غير قصد فأعجبه حسنها وسبح لله وأن زينب." (١)

"[٣٢.٢٧] ﴿وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون قالوا إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين قالوا بل لم تكونوا مؤمنين وما كان لنا عليكم من سلطان بل كنتم قوما طاغين فحق علينا قول ربنا إنا لذائقون فأغويناكم إنا كنا غاوين﴾

عطف على ﴿مستسلمون﴾ [الصافات:٢٦]أي استسلموا وعاد بعضهم على بعض باللائمة والمتسائلون:المتقاولون وهم زعماء أهل الشرك ودهماؤهم كما تبينه حكاية تحاورهم من قوله: ﴿وما كان لنا عليكم من سلطان﴾ وقوله: ﴿فأغويناكم﴾ الخ.

وعبر عن إقبالهم بصيغة المضي مما سيقع في القيامة،تنبيها على تحقيق وقوعه لأن لذلك مزيد تأثير في تحذير زعمائهم من التغرير بهم،وتحذير دهمائهم من الاعتزاز بتغريرهم،مع أن قرينة الاستقبال ظاهرة من السياق من قوله: ﴿فإذا هم ينظرون﴾ [الصافات:١٩]الآية.

والإقبال:المجيء من جهة قبل الشيء،أي من جهة وجهه وهو مجيء المتجاهر بمجيئه غير المتختل الخائف.واستعير هنا للقصد بالكلام والاهتمام به كأنه جاءه من مكان آخر.

فحاصل المعنى حكاية عتاب ولوم توجه به الذين اتبعوا على قادتهم وزعمائهم،ودلالة التركيب عليه أن يكون الإتيان أطلق على الدعاية والخطابة فيهم لأن الإتيان يتضمن القصد دون إرادة مجيء، كقول النابغة:

آتاك امرؤ مستبطن لي بغضة

وقد تقدم استعماله واستعمال مرادفه وهو المجيء معا في قوله تعالى: ﴿قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون وأتيناك بالحق﴾ الآية في سورة الحجر[٦٣,٦٤].أو أن يكون اليمين مرادا به جهة الخير لأن العرب تضيف الخير إلى جهة اليمين.وقد اشتقت من اليمن وهو البركة،وهي مؤذنة بالفوز بالمطلوب عندهم. وعلى ذلك جرت عقائدهم في زجر الطير والوحش من التيمن بالسانح،وهو الوارد من جهة يمين السائر،والتشاؤم،أي ترقب ورود الشر من جهة الشمال.

وكان حق فعل ﴿تأتوننا﴾ أن يعدى إلى جهة اليمين بحرف "من" فلما عدي بحرف ﴿عن﴾ الذي هو للمجازة تعين تضمين ﴿تأتوننا﴾ معنى "تصدوننا" ليلائم معنى المجاوزة." (٢)

"اعتذر الأئمة عن وقوع التاء متصلة بـ ﴿حين﴾ في بعض نسخ المصحف الإمام بأن رسم المصحف قد يخالف القياس، على أن ذلك لا يوجد في غير المصحف الذي رآه أبو عبيد من المصاحف المعاصرة لذلك المصحف والمرسومة بعده.والمناص:النجاء والفوت،وهو مصدر ميمي،يقال:ناصة،إذا فاته.

والمعنى:فنادوا مبتهلين في حال ليس وقت نجاء وفوت، أي قد حق عليهم الهلاك كما قال تعالى: ﴿فلم يك ينفعهم

---

(١) التحرير والتنوير، ٢٦٤/٢١

(٢) التحرير والتنوير، ٢٤/٢٣

إيمانهم لما رأوا بأسنا سنت الله التي قد خلت في عباده﴾ [غافر:٨٥].

[٥.٤] ﴿وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب أجعل الآلهة إلها واحدا إن هذا لشيء عجاب﴾

﴿وعجبوا أن جاءهم منذر منهم﴾

عطف على جملة ﴿الذين كفروا في عزة وشقاق﴾ [ص:٢]فهو من الكلام الواقع الإضراب للانتقال إليه كما وقع في قوله تعالى: ﴿ق والقرآن المجيد بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم﴾ [ق:٢,١].

والمعنى:أنه استقر في نفوسهم استحالة بعثة رسول منهم فذلك سبب آخر لانصرافهم عن التذكير بالقرآن.

والعجب حقيقته:انفعال في النفس ينشأ عن علم بأمر غير مترقب وقوعه عن النفس،ويطلق عن إنكار شيء نادر على سبيل المجاز بعلاقة اللزوم كما في قوله تعالى: ﴿قالوا أتعجبين من أمر الله﴾ في سورة هود[٧٣]فإن محل **العتاب** هو كون امرأة إبراهيم أحالت أن تلد،وهي عجوز وكذلك إطلاقه هنا.والمعنى:وأنكروا وأحالوا أن جاءهم منذر منهم.

والمنذر:الرسول،أي منذرهم لهم بعذاب على أفعال متلبسون بها.

طلبوا صلحنا ولات أوان ... فأجبنا أن ليس حين بقاء

وإلى قول جميل:

نولي قبل ناي داري جمانا ... وحلينا كما زعمت قلانا." (١)

"وذكر غالب أحوال الخلطاء أراد به الموعظة لهما بعد القضاء بينهما على عادة أهل الخير من انتهاز فرص الهداية فأراد داود عليه السلام أن يرغبهما في إيثار عادة الخلطاء الصالحين وأن يكره إليهما الظلم والاعتداء.ويستفاد من المقام أنه يأسف لحالهما،وأنه أراد تسلية المظلوم عما جرى عليه من خليطه،وأن له أسوة في اكثر الخلطاء.

وفي تذييل كلامه بقوله: ﴿وقليل ما هم﴾ حث لهما أن يكونا من الصالحين لما هو متقرر في النفوس من نفاسة كل شيء قليل،قال تعالى: ﴿قل لا يستوي الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث﴾ [المائدة:١٠٠].والسبب في ذلك من جانب الحكمة أن الدواعي إلى لذات الدنيا كثيرة والمشي مع الهوى محبوب ومجاهدة النفس عزيزة الوقوع،فالإنسان محفوف بجواذب السيئات،وأما دواعي الحق والكمال فهو الدين والحكمة،وفي أسباب الكمال إعراض عن محركات الشهوات،وهو إعراض عسير لا يسلكه إلا من سما بدينه وهمته إلى الشرف النفساني وأعرض عن الداعي الشهواني،فذلك هو العلة في هذا الحكم بالقلة.

وزيادة ﴿ما﴾ بعد ﴿قليل﴾ لقصد الإبهام كما تقدم آنفا في قوله: ﴿جند ما هنالك﴾ [ص:١١]،وفي هذا الإبهام إيذان بالتعجب من ذلك بمعونة السياق والمقام كما أفادت زيادتها في قول امرئ القيس:

وحديث الركب يوم هنا ... وحديث ما على قصره

معنى التلهف والتشوق.

وقد اختلف المفسرون في ماهية هذين الخصمين،فقال السدي والحسن ووهب بن منبه:"كانا ملكين أرسلهما الله في

---

(١) التحرير والتنوير، ١١٢/٢٣

صورة رجلين لداود عليه السلام لإبلاغ هذا المثل إليه **عتابا** له".ورواه الطبري عن أنس مرفوعا.وقيل كانا أخوين شقيقين من بني إسرائيل،أي ألهمهما الله إيقاع هذا الوعظ.

واعلم أن سوق هذا النبأ عقب التنويه بداود عليه السلام ليس إلا تتميما للتنويه به لدفع ما قد يتوهم أنه ينقض ما ذكر من فضائله مما جاء في كتاب "صمويل الثاني" من كتب اليهود في ذكر هذه القصة من أغلاط باطلة تنافي مقام النبوة فأريد بيان المقدار الصادق منها وتذييله بأن ما صدر عن داود عليه السلام يستوجب **العتاب** ولا يقتضي العقاب ولذلك ختمت بقوله تعالى: ﴿وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب﴾ [ص:٤٠].وبهذا." (١)

"أي التبصر في مراعاة أحكام الله تعالى وتوخي مرضاته.

وجملة ﴿إنا أخلصناهم﴾ علة للأمر بذكرهم لأن ذكرهم يكسب الذاكر الاقتداء بهم في إخلاصهم ورجاء الفوز بما فازوا به من الاصطفاء والأفضلية في الخير.و ﴿أخلصناهم﴾ :جعلناهم خالصين،فالهمزة للتعدية،أي طهرناهم من درن النفوس فصارت نفوسهم نقية من العيوب العارضة للبشر،وهذا الإخلاص هو معنى العصمة اللازمة للنبوة.

والعصمة:قوة يجعلها الله في نفس النبي تصرفه عن فعل ما هو في دينه معصية لله تعالى عمدا أو سهوا،وعما هو موجب للنفرة والاستصغار عند أهل العقول الراجحة من أمة عصره.

وأركان العصمة أربعة:

الأول:خاصية للنفس يخلقها الله تعالى تقتضي ملكة مانعة من العصيان.

والثاني:حصول العلم بمثالب المعاصي ومناقب الطاعات.

الثالث:تأكيد ذلك العلم بتتابع الوحي والبيان من الله تعالى.

الرابع:العتاب من الله على ترك الأولى وعلى النسيان.

وإسناد الإخلاص إلى الله تعالى لأنه أمر لا يحصل للنفس البشرية إلا بجعل خاص من الله تعالى وعناية لدنية بحيث تنزع من النفس غلبة الهوى في كل حال وتصرف النفس إلى الخير المحض فلا تبقى في النفس إلا نزعات خفيفة تقلع النفس عنها سريعا بمجرد خطورها،قال النبي صلى الله عليه وسلم:"إني ليغان على قلبي فأستغفر الله في اليوم سبعين مرة".

والباء في ﴿بخالصة﴾ للسببية تنبيها على سبب عصمتهم.وعبر عن هذا السبب تعبيرا مجملا تنبيها على أنه أمر عظيم دقيق لا يتصور بالكنه ولكن يعرف بالوجه،ولذلك استحضر هذا السبب بوصف مشتق من فعل ﴿أخلصناهم﴾ على نحو قول النبي صلى الله عليه وسلم لمن سأله عن اقتناعه من أكل لحم الضب:"أني تحضرني من الله حاضرة أي حاضرة" لا توصف،ثم بينت هذه الخالصة بأقصى ما تعبر عنه اللغة وهي أنها ﴿ذكرى الدار﴾ .

والذكرى:اسم مصدر يدل على قوة معنى المصدر مثل الرجعي والبقيا لأن زيادة المبنى تقتضي زيادة المعنى. والدار

---

(١) التحرير والتنوير، ٢٣/١٣٦

المعهودة لأمثالهم هي الدار الآخرة،أي بحيث لا ينسون الآخرة ولا يقبلون على الدنيا، فالدار التي هي محل عنايتهم هي الدار الآخرة،قال." (١)

"ومعنى ﴿وإن يستعتبوا﴾ إن يسألوا العتبى بضم العين وفتح الموحدة مقصورا اسم مصدر **الإعتاب** وهي رجوع المعتوب عليه إلى ما يرضي العاتب. وفي المثل ما مسيء من أعتب أي من رجع عما أساء به فكأنه لم يسيء. وقلما استعملوا المصدر الأصلي بمعنى الرجوع استغناء عنه باسم المصدر وهو العتبى. والعاتب هو اللائم، والسين والتاء فيه للطلب لأن المرء لا يسأل أحدا أن يعاتبه وإنما يسأله ترك المعاتبة، أي يسأله الصفح عنه فإذا قبل منه ذلك قيل: أعتبه أيضا، وهذا من غريب تصاريف هذه المادة في للغة ولهذا كادوا أن يميتوا مصدر: أعتب بمعنى رجع وأبقوه في معنى قبل العتبى، وهو المراد في قوله تعالى ﴿فما هم من المعتبين﴾ أي أن الله لا يعتبهم، أي لا يقبل منهم.
[٢٥] ﴿وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم وحق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والأنس إنهم كانوا خاسرين﴾ [فصلت:٢٥]
عطف على جملة ﴿ويوم يحشر أعداء الله﴾ [فصلت:١٩] وذلك أنه حكي قولهم المقتضي إعراضهم عن التدبر في دعوة الإيمان ثم ذكر كفرهم بخالق الأكوان بقوله ﴿قل أإنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين﴾ [فصلت:٩] ثم ذكر مصيرهم في الآخرة بقوله ﴿ويوم يحشر أعداء الله﴾ ثم عقب ذلك بذكر سبب ضلالهم الذي نشأت عنه أحوالهم بقوله ﴿وقيضنا لهم قرناء﴾ وتخلل بين ما هنالك وما هنا أفانين من المواعظ والدلائل والمنن والتعاليم والقوارع والإيقاظ. وقيض: أتاح وهيأ شيئا للعمل في شيء. والقرناء جمع: قرين، وهو الصاحب الملازم، والقرناء هنا: هم الملازمون لهم في الضلالة: إما في الظاهر مثل دعاة الكفر وأئمته، وإما في باطن النفوس مثل شياطين الوسواس الذين قال الله فيهم ﴿ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين﴾ ويأتي في سورة الزخرف [٣٦]. ومعنى تقييضهم لهم: تقديرهم لهم، أي خلق المناسبات التي يتسبب عليها تقارن بعضهم مع بعض لتناسب أفكار الدعاة والقابلين كما يقول الحكماء استفادة القابل من المبدأ تتوقف على المناسبة بينهما. فالتقييض بمعنى التقدير عبارة جامعة لمختلف المؤثرات والتجمعات التي توجب التآلف والتحاب بين الجماعات، ولمختلف الطبائع المكونة في نفوس بعض الناس فيقتضي بعضها جاذبية الشياطين إليها وحدوث الخواطر السيئة فيها. والإحاطة بهذا المقصود أوثر التعبير هنا ب ﴿قيضنا﴾ دون غيره من نحوه: بعثنا، وأرسلنا.." (٢)

"الإخبار عنهم إلى مخاطب آخر ينبأ ببقية أمرهم تحقيرا لهم.
وقرأ الجمهور ﴿يخرجون﴾ بضم الياء وفتح الراء، فالمعنى: أنهم يسألون من يخرجهم فلا يخرجهم أحد كما في قوله تعالى ﴿ربنا أخرجنا منها﴾ [المؤمنون: ١٠٧] وقوله ﴿فهل إلى خروج من سبيل﴾ [غافر: ١١]. وقرأه حمزة والكسائي ﴿يخرجون﴾ بفتح الياء وضم الراء. فالمعنى: أنهم يفزعون إلى الخروج فلا يستطيعون لقوله تعالى ﴿كلما أرادوا أن يخرجوا

---

(١) التحرير والتنوير، ١٧٠/٢٣

(٢) التحرير والتنوير، ٤٣/٢٥

منها من غم أعيدوا فيها﴾ [الحج: ٢٢].

والاستعتاب بمعنى: **الإعتاب**، فالسين والتاء للمبالغة كما يقال: أجاب واستجاب. ومعنى **الإعتاب**: إعطاء العتبى وهي الرضا. وهو هنا مبني للمجهول. أي لا يستعتبهم أحد، أي ولا يرضون بما يسألون، وتقدم نظيره في قوله تعالى ﴿فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم ولا هم يستعتبون﴾ في سورة الروم.[٥٧]

وتقديم ﴿هم﴾ على ﴿يستعتبون﴾ وهو مسند فعلي بعد حرف النفي هنا تعريض بأن الله يعتب غيرهم، أي يرضي المؤمنين، أي يغفر لهم.

[٣٧,٣٦] ﴿فلله الحمد رب السماوات ورب الأرض رب العالمين وله الكبرياء في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم﴾

الفاء لتفريع التحميد والثناء على الله تفريعا على ما احتوت عليه السورة من ألطاف الله فيما خلق وأرشد وسخر وأقام من نظم العدالة، والإنعام على المسلمين في الدنيا والآخرة، ومن وعيد للمعرضين واحتجاج عليهم، فلما كان ذلك كله من الله كان دالا على اتصافه بصفات العظمة والجلال وعلى إفضاله على الناس بدين الإسلام كان حقيقا بإنشاء قصر الحمد عليه فيجوز أن يكون هذا الكلام مرادا منه ظاهر الإخبار، ويجوز أن يكون مع ذلك مستعملا في معناه الكنائي وهو أمر الناس بأن يقصروا الحمد عليه. ويجوز أن يكون إنشاء حمد لله تعالى وثناء عليه. وكل ما سبقه من آيات هذه السورة مقتض للوجوه الثلاثة، ونظيره قوله تعالى ﴿فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين﴾ في سورة الأنعام.[٤٥]

وتقديم "لله" لإفادة الاختصاص، أي الحمد مختص به الله تعالى يعني الحمد الحق الكامل مختص به تعالى كما تقدم في سورة الفاتحة.." (١)

"وأما ﴿تجاهدون﴾ فإنه لإرادة تجدد الجهاد إذا استنفروا إليه.

ومجيء ﴿يغفر﴾ مجزوما تنبيه على أن ﴿تؤمنون﴾ ﴿وتجاهدون﴾ وإن جاءا في صيغة الخبر فالمراد الأمر لأن الجزم إنما يكون في جواب الطلب لا في جواب الخبر. قال المبرد والزمخشري.

وقال الفراء: جزم ﴿يغفر﴾ لأنه جواب ﴿هل أدلكم﴾ ، أي لأن متعلق ﴿أدلكم﴾ هو التجارة المفسرة بالإيمان والجهاد، فكأنه قيل: هل تتجرون بالإيمان والجهاد يغفر لكم ذنوبكم.

وإنما جيء بالفعلين الأولين على لفظ الخبر للإيذان بوجوب الامتثال حتى يفرض المأمور كأنه سمع الأمر وأمتثله.

وقرأ الجمهور ﴿تنجيكم﴾ بسكون النون وتخفيف الجيم. وقرأه ابن عامر بفتح النون وتشديد الجيم، يقال: أنجاه ونج اهـ.

---

(١) التحرير والتنوير، ٣٩٠/٢٥

والإشارة ب ﴿ذلكم﴾ إلى الإيمان والجهاد بتأويل: المذكور: خير.

و ﴿خير﴾ هذا ليس اسم تفضيل الذي أصله أخير ووزنه: أفعل، بل هو اسم لضد الشر ووزنه: فعل.

وجمع قوله: ﴿خير﴾ ما هو خير الدنيا وخير الآخرة.

وقوله: ﴿إن كنتم تعلمون﴾ تعريض لهم **بالعتاب** على توليهم يوم أحد بعد أن قالوا: لو نعلم أي الأعمال أحب إلى الله لعملناه، فتدبوا إلى الجهاد فكان ما كان منهم يوم أحد، كما تقدم في أول السورة، فنزلوا منزلة من يشك في عملهم بأنه خير لعدم جريهم على موجب العلم.

والمساكن الطيبة: هي القصور التي في الجنة، قال تعالى: ﴿ويجعل لك قصورا﴾ [الفرقان:١٠].

وإنما خصت المساكن بالذكر هنا لأن في الجهاد مفارقة مساكنهم، فوعدوا على تلك المفارقة المؤقتة بمساكن أبدية. قال تعالى ﴿قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم﴾ إلى قوله: ﴿وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله﴾ [التوبة:٢٤]الآية.." (١)

"والشافعي، إذ قالا: لا يجب الإرضاع على الأم حتى في العصمة فلما انقطع إنفاق الأب عليها بالبينونة تمحضت إقامة غذاء ابنه عليه فإن أرادت أن ترضعه فهي أحق بذلك، ولها أجر الإرضاع وإن أبت فعليه أن يطلب ظئرا لابنه فإن كان الطفل غير قابل ثدي غير أمه وجب عليها إرضاعه ووجب على أبيه دفع أجرة رضاعه.

وقال أبو ثور: يجب إرضاع الابن على أمه ولو بعد البينونة. نقله عنه أبو بكر ابن العربي في الأحكام وهو عجيب. وهذه الآية أمامه.

والائتمار: التشاور والتداول في النظر. وأصله مطاوع أمره لأن المتشاورين يأمر أحدهما الآخر فيأتمر الآخر بما أمره. ومنه تسمية مجامع أصحاب الدعوة أو النحلة أو القصد الموحد مؤتمرا لأنه يقع الاستئمار فيه، أي التشاور وتداول الآراء.

وقوله ﴿وأتمروا بينكم﴾ خطاب للرجال والنساء الواقع بينهم الطلاق ليتشاوروا في أمر إرضاع الأم ولدها. وما يبذله الأب لها من الأجرة على ذلك.

وقيد الائتمار بالمعروف، أي ائتمرا ملابسا لما هو المعروف في مثل حالهم وقومهم، أي معتاد مقبول، فلا يشتط الأب في الشح ولا تشتط الأم في الحرص.

وقوله ﴿وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى﴾ **عتاب** وموعظة للأب والأم بأن ينزل كل منهما نفسه منزلة ما لو اجتلبت للطفل ظئر، فلا تسأل الأم أكثر من أجر أمثالها، ولا يشح الأب عما يبلغ أجر أمثال أم الطفل، ولا يسقط حق الأم إذا وجد الأب من يرضع له مجانا لأن الله قال ﴿فسترضع له أخرى﴾ وإنما يقال أرضعت له، إذا استؤجرت لذلك، كما يقال: استرضع أيضا، إذا آجر من يرضع له ولده. وتقدم في سورة البقرة قوله تعالى: ﴿وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم﴾ [٢٣٣] الآية.

---

(١) التحرير والتنوير، ٢٨/١٧٤

والتعاسر صدور العسر من الجانبين. وهو تفاعل من قولكم: عسرت فلانا، إذا أخذته على عسره، ويقال: تعاسر البيعان إذا لم يتفقا.

فمعنى ﴿تعاسرتم﴾ اشتد الخلاف بينكم ولم ترجعوا إلى وفاق، أي فلا يبقى الولد بدون رضاعة.

وسين الاستقبال مستعمل في معنى التأكيد، كقوله ﴿قال سوف أستغفر لكم ربي﴾ في سورة يوسف[٩٨]. وهذا المعنى ناشئ عن جعل علامة الاستقبال كناية عن تجدد ذلك الفعل في أزمنة المستقبل تحقيقا لتحصيله.." (١)

"يتعدى بحرف ﴿على﴾ .

وضمير ﴿عليه﴾ عائد على الإنباء المأخوذ من ﴿نبأت به﴾ أو على الحديث بتقدير مضاف يدل عليه قوله: ﴿نبأت به﴾ تقديره: أظهره الله على إفشائه.

وهذا تنبيه إلى عناية الله برسوله صلى الله عليه وسلم وانتصاره له لأن إطلاعه على ما لا علم له به مما يهمه، عناية ونصح له.

وهذا حاصل المعنى الثالث من المعاني التي اشتملت عليها الآيات وذكرناها آنفا.

ومفعول ﴿عرف﴾ الأول محذوف لدلالة الكلام عليه، أي عرفها بعضه، أي بعض ما أطلعه الله عليه، وأعرض عن تعريفها ببعضه. و الحديث يحتوي على أشياء: اختلاء النبي بسريته مارية، وتحريمها على نفسه، وتناوله العسل في بيت زينب، وتحريمه العودة إلى مثل ذلك، وربما قد تخلل ذلك كلام في وصف عثور حفصة على ذلك بغتة، أو في التطاول بأنها استطاعت أن تريهن من ميله إلى مارية. وإنما عرفها النبي صلى الله عليه وسلم بذلك ليوقفها على مخالفتها واجب الأدب من حفظ سر زوجها.

وهذا هو المعنى الرابع من المعاني التي سبقت إشارتي إليها.

وإعراض الرسول صلى الله عليه وسلم عن تعريف زوجه ببعض الحديث الذي أفشته من كرم خلقه صلى الله عليه وسلم في معاتبة المفشية وتأديبها إذ يحصل المقصود بأن يعلم بعض ما أفشته فتوقن أن الله يغار عليه.

قال سفيان: ما زال التغافل من فعل الكرام، وقال الحسن: ما استقصى كريم قط، وما زاد على المقصود يقلب **العتاب** من **عتاب** إلى تقريع.

وهذا المعنى الخامس من مقاصد ذكر هذا الحديث كما أشرنا إليه آنفا.

وقولها: ﴿من أنبأك هذا﴾ يدل على ثقتها بأن عائشة لا تفشي سرها وعلمت أنه لا قبل للرسول صلى الله عليه وسلم بعلم ذلك إلا من قبل عائشة أو من طريق الوحي فرامت التحقق من أحد الاحتمالين.

والاستفهام حقيقي ولك أن تجعله للتعجيب من علمه بذلك.

---

(١) التحرير والتنوير، ٢٨/٢٩٥

وفي هذا كفاية من تيقظها بأن إفشاءها سر زوجها زلة خلقية عظيمة حجبها عن مراعاتها شدة الصفاء لعائشة وفرط إعجابها بتحريم مارية لأجلها، فلم تتمالك عن أن تبشر." (١)

"زوجتي النبي صلى الله عليه وسلم قريبا وكان عملهما ما فيه بارقة من مخالفة، وكان في المثلين ما فيه إشعار بالحالين.

وتعدية ضرب اللام الدال على العلة تفيد أن إلقاء المثل لأجل مدخولا اللام. فمعنى: ﴿ضرب الله مثلا للذين كفروا﴾ أنه ألقى هذا التنظير لأجلهم، أي اعتبارهم بهم وقياس حالهم على حال المثل به، فإذا قيل: ضرب لفلان مثلا، كان المعنى: أنه قصده به وأعلمه إياه، كقوله تعالى: ﴿ما ضربوه لك إلا جدلا﴾ [الزخرف:٥٨] ﴿ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل﴾ [الروم:٥٨]. ونحو ذلك وتقديم المجرور باللام على المفعولين للاهتمام بإيقاظ الذين كفروا.

فمعنى ﴿ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأت نوح وامرأت لوط﴾ ، أن الله جعل حالة هاتين المرأتين عظة وتنبيها للذين كفروا، أي ليذكرهم بأن الله لا يصرفه عن وعيده صارف فلا يحبسوا أن لهم شفعاء عند الله، ولا أن مكانهم من جوار بينه وعمارة مسجده وسقاية حجيجه تصرف غضب الله عنهم، فإن هم أقلعوا عن هذا الحسبان أقبلوا على التدبر في النجاة من وعيد بالنظر في دلائل دعوة القرآن وصدق الرسول صلى الله عليه وسلم فلو كان صارف يصرف الله عن غضبه لكان أولى الأشياء بذلك مكانة هاتين المرأتين من زوجيها رسولي رب العالمين.

ومناسبة ضرب المثل بامرأة لوط دون غيرها من قرابة الأنبياء نحو أبي إبراهيم وابن نوح عليهما السلام لأن ذكر هاتين المرأتين لم يتقدم. وقد تقدم ذكر أبي إبراهيم وابن نوح، لتكون في ذكرهما فائدة مستجدة، وليكون في ذكرهما عقب ما سبق من تملوء أمي المؤمنين على زوجها صلى الله عليه وسلم تعريض لطيف بالتحذير من خاطر الاعتزاز بغناء الصلة الشريفة عنهما في الوفاء بحق ما يجب من الإخلاص للنبي صلى الله عليه وسلم ليكون الشبه في التمثيل وأقوى. فعن مقاتل يقول الله سبحانه لعائشة وحفصة لا تكونا بمنزلة امرأة نوح وامرأة لوط في المعصية وكونا بمنزلة امرأة فرعون ومريم. ووضحه في الكشاف بأنه من قبيل التعريض. ومنعه الفخر، وقال ابن عطية: قال بعض الناس في المثلين عبرة لزوجات النبي صلى الله عليه وسلم حين تقدم **عتابهن**. وفي هذا بعد لأن النص أنه للكفار يبعد هذا اهـ.

ويدفع استبعاده أن دلالة التعريض لا تنافي اللفظ الصريح، ومن لطائف التقيد بقوله تعالى: ﴿للذين كفروا﴾ أن المقصد الأصلي هو ضرب المثل للذين كفروا وذلك من الاحتراس من أن تحمل التمثيل على المشابهة من جميع الوجوه والاحتراس بكثرة." (٢)

"والإقبال: حقيقته المجيء إلى الغير من جهة وجهه وهو مشتق من القبل وهو ما يبدو من الإنسان من جهة وجهة ضد الإدبار، وهو هنا تمثيل لحال العناية باللوم.

واللوم: إنكار متوسط على فعل أو قول وهو دون التوبيخ وفوق **العتاب**، وتقدم عند قوله تعالى: ﴿فإنهم غير ملومين﴾

---

(١) التحرير والتنوير، ٣١٦/٢٨

(٢) التحرير والتنوير، ٣٣٥/٢٨

في سورة [المؤمنين:٦].

والطغيان: تجاوز الحد المتعارف في الكبر والتعاظم والمعنى: إنا كنا طاغين على حدود الله.

ثم استأنفوا عن ندامتهم وتوبتهم رجاءهم من الله أن يتوب عليهم فلا يؤاخذهم بذنبهم في الآخرة ولا في الدنيا فيمحو عقابه في الدنيا محوا كاملا بأن يعوضهم عن جنتهم التي قدر إتلافها بجنة أخرى خيرا منها.

وجملة ﴿إنا إلى ربنا راغبون﴾ بدل من جملة الرجاء، أي هو رجاء مشتمل على رغبة إليه بالقبول والاستجابة.

والتأكيد في ﴿إنا إلى ربنا راغبون﴾ للاهتمام بهذا التوجه.

والمقصود من الإطناب في قولهم بعد حلول العذاب بهم تلقين الذين ضرب لهم هذا المثل بأن في مكنتهم الإنابة إلى الله بنبذ الكفران لنعمته إذ أشركوا به من لا إنعام لهم عليه.

روي عن ابن مسعود أنه قال: بلغني أنهم أخلصوا وعرف الله منهم الصدق فأبدلهم جنة يقال لها: الحيوان، ذات عنب يحمل العنقود الواحد منه على بغل.

وعن أبي خالد اليماني١ أنه قال: دخلت تلك الجنة فرأيت كل عنقود منها كالرجل الأسود القائم.

وقرأ الجمهور: ﴿أن يبدلنا﴾ بسكون الموحدة وتخفيف الدال. وقرأه نافع وأبو عمرو وأبو جعفر ﴿يبدلنا﴾ بفتح الموحدة وتشديد الدال وهما بمعنى واحد.

قال ابن الفرس في "أحكام القرآن" استدل بهذه الآية أبو محمد عبد الوهاب على

_

١ كذا في تفسير القرطبي ونفائس المرجان والآلوسي. ووقع في تفسير القرطبي: أنه اليمامي، ولم أقف على ترجمته.." (١)

"سنة أربع عشرة أو خمسة عشرة.

وفيه نزلت هذه السورة وآية ﴿غير أولي الضرر﴾ من سورة النساء [٩٥].

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يحبه ويكرمه وقد استخلفه على المدينة في خروجه إلى الغزوات ثلاث عشرة مرة، وكان مؤذن النبي صلى الله عليه وسلم هو وبلال بن رباح.

والعبوس بضم العين: تقطيب الوجه وإظهار الغضب. ويقال: رجل عبوس بفتح العين، أي متقطب، قال تعالى: ﴿إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا﴾ [الإنسان:١٠]. وعبس من باب ضرب.

والتولي. أصله تحول الذات من مكانها، ويستعار لعدم اشتغال المرء بكلام يلقى إليه أو جلس يحل عنده، وهو هنا مستعار لعدم الاشتغال بسؤال سائل ولعدم الإقبال على الزائر.

وحذف متعلق ﴿تولى﴾ لظهور أنه تول عن الذي مجيئه كان سبب التولي.

وعبر عن ابن أم مكتوم ب ﴿الأعمى﴾ ترقيقا للنبي صلى الله عليه وسلم ليكون **العتاب** ملحوظا فيه أنه لما كان صاحب

---

(١) التحرير والتنوير، ٨٣/٢٩

ضرارة فهو أجدر بالعناية به، لأن مثله يكون سريعا إلى انكسار خاطره.

و ﴿أن جاءه الأعمى﴾ مجرور بلام الجر محذوف مع ﴿أن﴾ وهو حذف مطرد وهو متعلق بفعلي ﴿عبس وتولى﴾ على طريقة التنازع.

والعلم بالحادثة يدل على أن المراد مجيء خاص وأعمى معهود.

وصيغة الخبر مستعملة في **العتاب** على الغفلة عن المقصود الذي تضمنه الخبر وهو اقتصار النبي صلى الله عليه وسلم على الاعتناء بالحرص على تبليغ الدعوة إلى من يرجو منه قبولها مع الذهول عن التأمل فيما يقارن ذلك من تعليم من يرغب في علم الدين ممن آمن، ولما كان صدور ذلك من الله لنبيه صلى الله عليه وسلم لم يشأ الله أن يفاتحه بما يتبادر منه أنه المقصود بالكلام، فوجهه إليه على أسلوب الغيبة ليكون أول ما يقرع سمعه باعثا على أن يترقب المعني من ضمير الغائب فلا يفاجئه **العتاب** وهذا تلطف من الله برسوله صلى الله عليه وسلم ليقع **العتاب** في نفسه مدرجا وذلك أهون وقعا، ونظير هذا قوله: ﴿عفا الله عنك لم أذنت لهم﴾ [التوبة:٤٣].

قال عياض: قال عون بن عبد الله والسمرقندي: أخبره الله بالعفو قبل أن يخبره بالذنب حتى سكن قلبه اه. فكذلك توجيه **العتاب** إليه مسندا إلى ضمير الغائب ثم جيء." (١)

"على طريقة المبالغة.

والاستغناء: عد الشخص نفسه غنيا في أمر يدل عليه السياق قول، أو فعل أو علم، فالسين والتاء للحسبان، أي حسب نفسه غنيا. وأكثر ما يستعمل الاستغناء في التكبر والاعتزاز بالقوة.

فالمراد ب ﴿من استغنى﴾ هنا: من عد نفسه غنيا عن هديك بأن أعرض عن قبوله لأنه أجاب قول النبي صلى الله عليه وسلم له "هل ترى بما أقول بأسا" ، بقوله: "لا والدماء..."كناية على أنه لا بأس به يريد ولكني غير محتاج إليه.

وليس المراد ب ﴿من استغنى﴾ من استغنى بالمال إذ ليس المقام في أيثار صاحب مال على فقير.

وهذا الذي تصدى النبي صلى الله عليه وسلم لدعوته وعرض القرآن عليه هو على أشهر الأقوال المروية عن سلف المفسرين الوليد بن المغيرة المخزومي كما تقدم.

والإتيان بضمير المخاطب مظهرا قبل السند الفعلي دون استتاره في الفعل يجوز أن يكون للتقوي كأنه قيل: تتصدى له تصديا، فمناط **العتاب** هو التصدي القوي.

ويجوز أن يكون مفيدا للاختصاص، أي فأنت لا غيرك تتصدى له، أي ذلك التصدي لا يليق بك. وهذا قريب من قولهم: مثلك لا يبخل، أي لو تصدى له غيرك لكان هونا، فأما أنت فلا يتصدى مثلك لمثله فمناط **العتاب** هو أنه وقع من النبي صلى الله عليه وسلم في جليل قدره.

وقرأ نافع وابن كثير وأبو جعفر بفتح التاء وتشديد الصاد على إدغام إحدى التاءين في الصاد. والباقون بالفتح وتخفيف الصاد على حف إحدى التاءين.

---

(١) التحرير والتنوير، ٩٢/٣٠

والتصدي: التعرض، أطلق هنا على الإقبال الشديد مجازا.

[٧] ﴿وما عليك ألا يزكى﴾ .

جملة معترضة بين جملة ﴿أما من استغنى﴾ [عبس:٥] وجملة ﴿وأما من جاءك يسعى﴾ [عبس:٨] الآية، والواو اعتراضية.

و ﴿ما﴾ نافية و ﴿عليك﴾ خبر مقدم. والمبتدأ ﴿ألا يزكى﴾ ، والمعنى: عدم تزكيه." (١)

"تأخيره إرشاد ابن أم مكتوم لما علمت من أنه يستعمل في التنبيه على أمر مغفول عنه، والمعنى: لعله يزكى تزكية عظيمة كانت نفسه متهيئة لها ساعتئذ إذ جاء مسترشدا حريصا، وهذه حالة خفية.

وكذلك عذره في الحرص على إرشاد المشرك بقوله: ﴿وما عليك ألا يزكى﴾ [عبس:٧] إذ كان النبي صلى الله عليه وسلم يخشى تبعة من فوات إيمان المشرك بسبب قطع المحاورة معه والإقبال على استجابة المؤمن المسترشد.

فإن قال قائل: فلماذا لم يعلم الله رسوله صلى الله عليه وسلم من وقت حضور ابن أم مكتوم بما تضمنه هذا التعليم الذي ذكرتم.

قلنا: لأن العلم الذي يحصل عن تبين غفلة، أو إشعار بخفاء يكون أرسخ في النفس من العلم المسوق عن غير تعطش ولأن وقوع ذلك بعد حصول سببه أشهر بين المسلمين وليحصل للنبي صلى الله عليه وسلم مزية كلا المقامين: مقام الاجتهاد، ومقام الإفادة.

وحكمة ذلك كله أن يعلم الله رسوله صلى الله عليه وسلم بهذا المهيع من علي الاجتهاد لتكون نفسه غير غافلة عن مثله وليتأسى به علماء أمته وحكامها وولاة أمورها.

ونظير هذا ما ضربه الله لموسى عليه السلام من المثل في ملاقاة الخضر، وما جرى من المحاورة بينهما، وقول الخضر لموسى ﴿وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا﴾ [الكهف:٦٨] ثم قوله له ﴿ذلك تأويل ما لم تستطع عليه صبرا﴾ [الكهف:٨٢] . وقد سبق مثله في الشرائع السابقة كقوله في قصة نوح ﴿قال يانوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح﴾ [هود:٤٦] وقوله لإبراهيم ﴿لا ينال عهدي الظالمين﴾ [البقرة:١٢٤].

هذا ما لاح لي في تفسير هذه الآيات تأصيلا وتفصيلا، وهو بناء على أساس ما سبق إليه المفسرون من جعلهم مناط **العتاب** مجموع ما في القصة من الإعراض عن إرشاد ابن أم مكتوم، ومن العبوس له، والتولي عنه، ومن التصدي القوي لدعوة المشرك والإقبال عليه.

والأظهر عندي أن مناط **العتاب** الذي تؤتيه لهجة الآية والذي روي عن النبي صلى الله عليه وسلم ثبوته من كثرة ما يقول لابن أم مكتوم "مرحبا بمن عاتبني ربي لأجله" إنما هو **عتاب** على العبوس والتولي، لا على ما حف بذلك من

---

(١) التحرير والتنوير، ٩٥/٣٠

المبادرة بدعوة، وتأخير إرشاد، لأن ما سلكه النبي صلى الله عليه وسلم في هذه الحادثة من سبيل الإرشاد لا يستدعي **عتابا** إذ ما سلك إلا سبيل." (١)

"الاجتهاد القويم لآن المقام الذي أقيمت فيه هذه الحادثة تقاضاه إرشادان لا محيص من تقديم أحدهما على الآخر، هما: إرشاد كافر إلى الإسلام عساه أن يسلم. وإرشاد مؤمن إلى شعب الإسلام عساه أن يزداد تزكية.

وليس في حال المؤمن ما يفيت إيمانا وليس في تأخير إرشاده على نية التفرغ إليه بعد حين ما يناكد زيادة صلاحه فإن زيادة صلاحه مستمرة على ممر الأيام.

ومن القواعد المستقراة من تصاريف الشريعة والشاهدة بها العقول السليمة تقديم درء المفاسد على جلب المصالح، ونفي الضر الأكبر قبل نفي الضر الأصغر، فلم يسلك النبي صلى الله عليه وسلم إلا مسلك الاجتهاد المأمور به فيما لم يوح إليه فيه. وهو داخل تحت قوله تعالى لعموم الأمة ﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾ [التغابن:١٦] وهو القائل "إنما أنا بشر وإنكم تختصمون ألي ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له على نحو ما أسمع. فمن قضيت له بحق أخيه فلا يأخذه فإنما أقتطع له قطعة من نار" ، وهو القائل "أمرت أن أحكم بالظاهر والله يتولى السرائر" وهو حديث صحيح المعنى وإن كان في إسناده تردد. فلا قبل له بعلم المغيبات إلا أن يطلعه الله على شيء منها، فلا يعلم أن هذا المشرك مضمر الكفر والعناد وأن الله يعلم أنه لا يؤمن ولا أن لذلك المؤمن في ذلك صفاء نفس وإشراق قلب لا يتهيآن له في كل وقت.

وبذلك يستبين أن ما أوحى الله به إلى نبيه صلى الله عليه وسلم في هذه السورة هو وحي له بأمر كان مغيبا عنه حين أقبل على دعوة المشرك وأرجأ إرشاد المؤمن. وليس في ظاهر حالهما ما يؤذن بباطنه وما أظهر الله فيها غيب علمه إلا لإظهار مزية مؤمن راسخ الإيمان وتسجيل كفر مشرك لا يرجى منه الأيمان، ومع ما في ذلك من تذكير النبي صلى الله عليه وسلم بما عمله الله من حسن لأدبه مع المؤمنين ورفع شأنهم أمام المشركين. فمناط المعاتبة هو العبوس للمؤمن بحضرة المشرك الذي يستصغر أمثال ابن أم مكتوم، فما وقع في خلال هذا **العتاب** من ذكر حال المؤمن والكافر إنما هو إدماج لأن في الحادثة فرصة من التنويه بسمو منزلة المؤمن لانطواء قلبه على أشعة تؤهله لأن يستنير بها ويفيضها على غيره جمعا بين المعاتبة والتعليم، على سنن هدي القرآن في المناسبات.

[١١-١٦] ﴿كلا إنها تذكرة، فمن شاء ذكره، في صحف مكرمة، مرفوعة مطهرة،بأيدي سفرة،كرام بررة﴾ .." (٢)

"﴿كلا﴾

إبطال وقد تقدم ذكر "كلا" في سورة مريم [٧٩-٨٢]، وتقدم قريبا في سورة النبأ. وهو هنا إبطال لما جرى في الكلام السابق ولو بالمفهوم كما في قوله: ﴿وما يدريك لعله يزكى﴾ [عبس:٣]. ولو بالتعريض أيضا كما في قوله: ﴿عبس وتولى﴾ [عبس:١].

---

(١) التحرير والتنوير، ٩٩/٣٠

(٢) التحرير والتنوير، ١٠٠/٣٠

وعلى التفسير الثاني المتقدم ينصرف الإبطال إلى ﴿عبس وتولى﴾ خاصة.
ويجوز أن يكون تأكيدا لقوله: ﴿وما عليك ألا يزكى﴾ [عبس:٧] على التفسيرين، أي لا تظن أنك مسؤول عن مكابرته وعناده فقد بلغت ما أمرت بتبليغه.
﴿إنها تذكرة، فمن شاء ذكره، في صحف مكرمة، مرفوعة مطهرة، بأيدي سفرة، كرام بررة﴾ .
استئناف بعد حرف الإبطال، وهو استئناف بياني لأن ما تقدم من **العتاب** ثم ما عقبه من الإبطال يثير في خاطر الرسول صلى الله عليه وسلم الحيرة في كيف يكون العمل في دعوة صناديد قريش إذا لم يتفرغ لهم لئلا ينفروا عن التدبر في القرآن، أو يثير في نفسه مخافة أن يكون قصر في شيء من واجب التبليغ.
وضمير ﴿أنها﴾ عائدة إلى الدعوة التي تضمنها قوله: ﴿فأنت له تصدى﴾ [عبس:٦].
ويجوز أن يكون المعنى: أن هذه الموعظة تذكرة لك وتنبيه لما غفلت عنه وليست ملاما وإنما يعاتب الحبيب حبيبه.
ويجوز عندي أن يكون ﴿كلا إنها تذكرة﴾ استئنافا ابتدائيا موجها إلى من كان النبي صلى الله عليه وسلم يدعوه قبيل نزول السورة فإنه كان يعرض القرآن على الوليد بن المغيرة ومن معه، وكانوا لايستجيبون إلى ما دعاهم ولا يصدقون بالبعث، فتكون "كلا" إبطالا لما نعتوا به القرآن من أنه أساطير الأولين أو نحو ذلك.
فيكون ضمير ﴿إنها تذكرة﴾ عائدا إلى الآيات التي قرأها النبي صلى الله عليه وسلم عليهم في ذلك المجلس ثم أعيد عليها الضمير بالتذكير للتنبيه على أن المراد آيات القرآن.
ويؤيد هذا الوجه قوله تعالى عقبه ﴿قتل الإنسان ما أكفره﴾ [عبس:١٧] الآيات حيث ساق لهم أدلة إثبات البعث.
فكان تأنيث الضمير نكتة خصوصية لتحميل الكلام هذه المعاني.." (١)

"والحمد فلا يحتاج إلى تعليل لأنهما إنشاء تنزيه وثناء على الله.
ومن وراء ذلك أفادت الجملة إشارة إلى وعد بحسن القبول عند الله تعالى حينما يقدم على العالم القدسي، وهذا معنى كنائي لأن من عرف بكثرة قبول توبة التائبين شأنه أن يكرم وفادة الوافدين الذين سعوا جهودهم في مرضاته بمنتهى الاستطاعة، أو هو مجاز بعلاقة اللزوم العرفي لأن منتهى ما يخافه الأحبة عند اللقاء مرارة **العتاب**، فالإخبار بأنه تواب اقتضى أنه لا يخاف **عتابا**.
فهذه الجملة بمدلولها الصريح ومدلولها الكنائي أو المجازي ومستتبعاتها تعليل لما تضمنته الجملة التي قبلها من معنى صريح أو كنائي يناسبه التعليل بالتسبيح والحمد باعتبارهما تمهيدا للأمر بالاستغفار كما تقدم آنفا لا يحتاجان إلى التعليل، أو يغني تعليل الممهد له بهما عن تعليلهما ولكنهما باعتبار كونهما رمزا إلى مداناة وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم يكون ما في قوله: ﴿إنه كان توابا﴾ من الوعد بحسن القبول تعليلا لمدلولهما الكنائي، وأما الأمر بالاستغفار

---

(١) التحرير والتنوير، ١٠١/٣٠

فمناسبة التعليل له بقوله: ﴿إنه كان توابا﴾ ناهضة باعتبار كلتا دلالتيه الصريحة والكنائية، أي أنه متقبل استغفارك ومتقبلك بأحسن قبول، شأن من عهد من الصفح والتكرم.

وفعل ﴿كان﴾ هنا مستعمل في لازم معنى الاتصاف بالوصف في الزمن الماضي. وهو أن هذا الوصف ذاتي له لا يتخلف معموله عن عباده فقد دل استقراء القرآن على إخبار الله عن نفسه بذلك من مبدأ الخليقة قال تعالى: ﴿فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم﴾ [البقرة:٣٧].

ومقتضى الظاهر أن يقال: إنه كان غفارا، كما في آية ﴿فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا﴾ [نوح:١٠] فيجري الوصف على ما يناسب قوله: ﴿واستغفره﴾ ، فعدل عن ذلك تلطفا مع النبي صلى الله عليه وسلم بأن أمره بالاستغفار ليس مقتضيا إثبات ذنب له لما علمت آنفا من أن وصف ﴿تواب﴾ جاء من تاب عليه الذي يستعمل بمعنى وفقه للتوبة إيماء إلى أن أمره بالاستغفار إرشاد إلى مقام التأدب مع الله تعالى، فإنه لا يسأل عما يفعل بعباده، لولا تفضله بما بين لهم من مراده، ولأن وصف ﴿تواب﴾ أشد ملائمة لإقامة الفاصلة مع فاصلة ﴿أفواجا﴾ لأن حرف الجيم وحرف الباء كليهما حرف من الحروف الموصوفة بالشدة، بخلاف حرف الراء فهو من الحروف التي صفتها بين الشدة والرخوة.

وروي في "الصحيح" عن عائشة قالت ما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة بعد أن نزلت." (١)

"٢٤ هذا لأن لامه واو فهو من عتا يعتو إذا خضع عاقب له معنيان من العقوبة على الذنب ومن العقبى ومنه وإن فاتكم شيء من أزواجكم إلى الكفار فعاقبتم أي اصبتم عقبا أعجاز نخل أصولها أعجز الشيء إذا فات ولم يقدر عليه ومنه وما هم بمعجزين وما كان الله ليعجزه من شيء وأما معاجزين بالألف فمعناه مسابقين عال يعيل عيلة أي افتقر ومنه ووجدك عائلا وعال يعول عدل عن الحق وعال يعول أيضا كثر عياله والأشهر أن يقال في هذا المعنى أعال بالألف عرج يعرج بفتح الراء في الماضي وضمها في المضارع صعد وارتقى ومنه المعارج وعرج بالكسر في الماضي والفتح في المستقبل صار أعرج عتبى معناه الرضى ومنه فما هم من المعتبين ولا هم يستعتبون **العتاب** العدل أعد بالألف يسد الشيء هيأه وعد بغير الألف من العدد عرش سرير الملك ومنه ورفع أبويه على العرش وأهكذا عرشك وعرش الله فوق السماء وتعرشون تبنون وعلى عروشها سقوفها عورة أصل معناه الانكشاف فيما يكره كشفه ولذلك قيل عورة الإنسان عورات أي أوقات انكشاف وبيوتنا عورة أي خالية معرضة للسراق عافر له معنيان المرأة العقيم واسم فاعل من عقر الحيوان عبر يعبر له معنيان من عبارة الرؤيا ومنه إن كنتم للرؤيا تعبرون ومن الجواز على الموضع ومنه عابر سبيل عمون جمع عم وهو صفة على وزن فعل بكسر العين من العمى في البصر أو في البصيرة علا يعلو تكبر ومنه قوما عالين وعلا في الأرض والعلي اسم الله والمتعالي والأعلى من العلو بمعنى الجلال والعظمة وقيل بمعنى التنزيه عن عما لا يليق به عزب الشيء غاب ومنه لا يعزب عن ربك أي لا يخفى عنه عصبة جماعة من العشرة إلى الأربعين علقة واحدة العلق وهو الدم عاصف ريح شديدة عصف ورق الزرع

---

(١) التحرير والتنوير، ٥٢٣/٣٠

حرف الغين غشاوة غطاء إما حقيقة أو مجاز غمام هو السحاب غلف جمع أغلف وهو كل شيء جعلته في غلاف أي قلوبنا محجوبة غرفة." (١)

" ٦٨ أي على معادلة وقيل معناه إن تستوي معهم في العلم بنقض العهد ولا تحسبن الذين كفروا سبقوا أي لا تظن أنهم فاتوا ونجوا بأنفسهم أنهم لا يعجزون أي لا يفوتون في الدنيا ولا في الآخرة وأعدوا لهم الضمير للذين ينبذ لهم العهد أو للذين لا يعجزون وحكمه عام في جميع الكفار من قوة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا إن القوة الرمي ومن رباط الخيل قال الزمخشري الرباط اسم للخيل التي تربط في سبيل الله وقال ابن عطية رباط الخيل جمع ربط أو مصدر عدو الله وعدوكم يعني الكفار وآخرين يعني المنافقين وقيل بني قريظة وقيل الجن لأنها تنفر من صهيل الخيل وقيل فارس والأول أرجح لقوله مردوا على النفاق لا تعلمونهم الله يعلمهم قال السهيلي لا ينبغي أن يقال فيهم شيء لأن الله تعالى قال لا تعلمونهم فكيف يعلمهم أحد وهذا لا يلزم لأن معنى قوله لا تعلمونهم لا تعرفونهم أي لا تعرفون آح ا دهم وأعيانهم وقد يعرف صنفهم من الناس ألا ترى أنه قال مثل ذلك في المنافقين وإن جنحوا للسلم فاجنح لها السلم هنا المهادنة والآية منسوخة بآية القتال في براءة لأن مهادنة كفار العرب لا تجوز وألف بين قلوبهم قيل المراد بين قلوب الأوس والخزرج إذ كانت بينهما عداوة فذهبت بالإسلام واللفظ عام ومن اتبعك من المؤمنين عطف على اسم الله وقال الزمخشري مفعول معه والواو بمعنى مع أي حسبك وحسب من اتبعك الله إن يكن منكم عشرون صابرون الآية إخبار يتضمن وعدا بشرط الصبر ووجود ثبوت الواحد للعشرة ثم نسخ بثبوت الواحد للاثنين ذلك بأنهم قوم لا يفقهون أي يقاتلون على غير دين ولا بصيرة فلا يثبتون ما كان لنبي أن يكون له أسرى لما أخذ الأسرى يوم بدر أشار أبو بكر بحياتهم وأشار عمر بقتلهم فنزلت الآية **عتابا** على استبقائهم حتى يثخن في الأرض أي يبايع في القتال تريدون عرض الدنيا **عتاب** لمن رغب في فداء الأسرى لولا كتاب." (٢)

"المحرم وحرموا صفر حتى تكمل في العام أربعة أشهر محرمة يحلونه عاما ويحرمونه عاما أي تارة يحلون وتارة يحرمون ولم يرد العام حقيقة ليواطئوا عدة ما حرم الله أي ليوافقوا عدد الأشهر الحرم وهي أربعة فيحلوا ما حرم الله يعني إحلالهم القتال في الأشهر الحرم ما لكم إذا قيل لكم ... ٢٧١

٧٦ انفروا) **عتاب** لمن تخلف عن غزوة تبوك اثاقلتم إلى الأرض عبارة عن تخلفهم وأصل اثاقلتم تثاقلتم إلا تنفروا يعذبكم شرط وجزاء وهو العذاب في الدنيا والآخرة إلا تنصروه فقد نصره الله شرط وجواب والضمير لرسول الله صلى الله عليه وسلم فإن قيل كيف ارتبط هذا الشرط مع جوابه فالجواب أن المعنى إن لم تنصروه أنتم فسننصره الله الذي نصره حين كان ثاني اثنين فدل بقوله نصره الله على نصره في المستقبل إذ أخرجه الذين كفروا يعني خروجه من مكة مهاجرا

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل ل ا بن جزى، ٤٥/١

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزى، ٤٥١/١

إلى المدينة وأسند إخراجه إلى الكفار لأنهم فعلوا معه من الأذى ما اقتضى خروجه ثاني اثنين هو أبو بكر الصديق إذ يقول لصاحبه لا تحزن يعني أبا بكر إن الله معنا يعني بالنصر واللطف فأنزل الله سكينته عليه الضمير للرسول صلى الله عليه وسلم وقيل لأبي بكر لأن النبي صلى الله عليه وسلم نزل معه السكينة ويضعف ذلك بأن الضمائر بعدها للرسول عليه السلام وأيده بجنود لم تروها يعني الملائكة يوم بدر وغيره وجعل كلمة الذين كفروا السفلى يريد إذلالها ودحضها وكلمة الله هي العليا قيل هي لا إله إلا الله وقيل الدين كله انفروا خفافا وثقالا أمر بالتنفير إلى الغزو والخفة استعارة لمن يمكنه السفر بسهولة والثقل من يمكنه بصعوبة وقال بعض العلماء الخفيف الغني والثقيل الفقير وقيل الخفيف الشاب والثقيل الشيخ وقيل الخفيف النشيط والثقيل الكسلان وهذه الأقوال أمثلة في الثقل والخفة وقيل إن هذه الآية منسوخة بقوله ليس على الضعفاء ولا على المرضى الآية لو كان عرضا قريبا ." (١)

"الآية نزلت هي وكثير مما بعدها في هذه السورة في المنافقين الذين تخلفوا عن غزوة تبوك وذلك أنها كانت إلى أرض بعيدة وكانت في شدة الحر وطيب الثمار والظلال فثقلت عليهم فأخبر الله في هذه الآية أن السفر لو كان لعرض من الدنيا او إلى مسافة قريبة لفعلوه بعدت عليهم الشقة أي الطريق والمسافة وسيحلفون بالله إخبار بغيب وهو أنهم يعتذرون بأعذار كاذبة يحلفون يهلكون أنفسهم أي يوقعونها في الهلاك بحلفهم الكاذبة أو تخلفهم عن الغزو عفا الله عنك لم أذنت لهم الآية كان بعض المنافقين قد استأذن النبي صلى الله عليه وسلم في التخلف عن غزوة تبوك فأذن لهم فعاتبه الله تعالى على إذنه له وقدم العفو على **العتاب** إكراما له صلى الله عليه وسلم وقيل إن قوله عفا الله عنك ليس لذنب ولا **عتاب** ولكنه استفتاح كلام كما يقول أصلحك الله حتي يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين كانوا قد قالوا استأذنوه في العقود فإن أذن لنا قعدنا وإن لم يأذن لنا قعدنا وإنما كان يظهر الصدق من الكذب لو لم يأذن لهم فحينئذ كان يقعد ... ٢٧٢." (٢)

"للقمر والمعنى قدر سيره في منازل والحساب يعني حساب الأوقات من الأشهر والأيام والليالي ما خلق الله ذلك إلا بالحق أي ... ٢٨٥

٩٠ ما خلقه عبثا والإشارة بذلك إلى ما تقدم من المخلوقات إن الذين لا يرجون لقاءنا قيل معنى يرجون هنا يخافون وقيل لا يرجون حسن لقاءنا فالرجاء على أصله وقيل لا يرجون لا يتوقعون أصلا ولا يخطر ببالهم ورضوا بالحياة الدنيا أي قنعوا أن تكون حظهم ونصيبهم واطمأنوا بها أي سكنت أنفسهم عن ذكر الانتقال عنها والذين هم عن آياتنا غافلون يحتمل أن تكون هي الفرقة الأولى فيكون من عطف الصفات أو تكون غيرها يهديهم ربهم بإيمانهم أي يسددهم بسبب إيمانهم إلى الاستقامة أو يهديهم في الآخرة إلى طريق الجنة وهو أرجح لما بعده دعواهم فيها أي دعاؤهم

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزى، ٤٦١/١

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزى، ٤٦٢/١

ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضي إليهم أجلهم أي لو يعجل الله للناس الشر كما يحبون تعجيل الخير لهلكوا سريعا ونزلت الآية عند قوم في دعاء الإنسان على نفسه وماله وولده وقيل نزلت في الذين قالوا إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء وإذا مس الإنسان الضر دعانا **عتاب** في ضمنه نهي لمن يدعو الله عند الضر ويغفل عنه عند العافية لجنبه أي مضطجعاوروي انها نزلت في ابي حذيفة بن المغيرة لمرض كان به ولقد أهلكنا القرون إخبار ضمنه وعيد للكفار لننظر معناه ليظهر في الوجود فتقوم عليكم الحجة به وإذا تتلى عليهم يعني على قريش قل لو شاء الله ما تلوته عليكم أي ما تلوته إلا بمشيئة الله لأنه من عنده وما هو من عندي ولا أدراكم به أي ولا اعلمكم به فقد لبثت فيكم عمرا من قبله أي بقيت بينكم اربعين سنة قبل البعث ما تكلمت في هذا حتى جاءني من عند الله فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ... ٢٨٦." (١)

"١٤٨ سكرتهم يعمهون) الضمير لقوم لوط وسكرتهم ضلالهم وجهلهم ويعمهون أي يتحيرون فأخذتهم الصيحة أي صيحة جبريل وهي أخذه لهم مشرقين أي داخلين في الشروق وهو وقت بزوغ الشمس وقد تقدم تفسير ما بعد هذا من قصتهم في هود للمتوسمين أي للمتفرسين ومنه فراسة المؤمن وقيل للمعتبرين وحقيقة التوسم النظر إلى السيمة وإنها لبسبيل مقيم أي بطريق ثابت يراه الناس والضمير للمدينة المهلكة وإن كان أصحاب الأيكة لظالمين أصحاب الأيكة قوم شعيب والأيكة الغيضة من الشجر لما كفروا أضرمها الله عليهم نارا وإنهما لبإمام مبين الضمير في إنهما قيل إنه لمدينة قوم لوط وقوم شعيب فالإمام على هذا الطريق أي إنهما بطريق واضح يراه الناس وقيل الضمير للوط وشعيب أي إنهما على طريق من الشرع واضح والأول أظهر أصحاب الحجر هم ثمود قوم صالح والحجر واديهم وهو بين المدينة والشام المرسلين ذكره بالجمع وإنما كذبوا واحدا منهم وفي ذلك تأويلان أحدهما أن من كذب واحدا من الأنبياء لزمه تكذيب الجميع لأنهم جاءوا بأمر متفق من التوحيد والثاني أنه أراد الجنس كقولك فلانا يركب الخيل وإن لم يركب إلا فرسا واحدا وآتيناهم آياتنا يعني الناقة وما كان فيها من العجائب

وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا النحت النقر بالمعاويل وشبهها في الحجر والعود وشبه ذلك وكانوا ينقرون بيوتهم في الجبال آمنين يعني آمنين من تهدم بيوتهم لوثاقتها وقيل آمنين من عذاب الله إلا بالحق يعني أنها لم تخلق عبثا فاصفح الصفح الجميل قيل إن الصفح الجميل هو الذي ليس معه عقاب ولا **عتاب** وفي الآية مهادنة للكفار منسوخة بالسيف ولقد آتيناك سبعا من المثاني يعني أم القرآن لأنها سبع آيات وقيل يعني السور السبع الطوال وهي البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف والأنفال مع براءة والأول أرجح لوروده في الحديث والمثاني مشتق من التثنية وهي." (٢)

" ١٥٨ أن رجلا جاء إليه فقال إن أخي يشتكي بطنه فقال اسقه عسلا فذهب ثم رجع فقال قد سقيته فما نفع قال فاذهب فاسقه عسلا فقد صدق الله وكذب بطن أخيك فسقاه فشفاه الله عز وجل إلى أرذل العمر أي إلى أخسه

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزى، ٤٨٠/١

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزى، ٦٣/٢

وأحقره وهو الهرم وقيل حده خمسة وسبعين عاما وقيل ثمانون والصحيح أنه لا يحصر إلى مدة معينة وأنه يختلف بحسب الناس لكيلا يعلم بعد علم شيئا اللام لام الصيرورة أي يصير إذا هرم لا يعلم شيئا بعد أن كان يعلم قبل الهرم وليس المراد نفي العلم بالكلية بل ذلك عبارة عن قلة العلم لغلبة النسيان وقيل المعنى لئلا يعلم زيادة على علمه شيئا والله فضل بعضكم على بعض في الرزق الآية في معناها قولان أحدهما أنها احتجاج على الوحدانية كأنه يقول أنتم لا تسؤون بين أنفسكم وبين مماليككم في الرزق ولا تجعلونهم شركاء لكم فكيف تجعلون عبيدي شركاء لي والآخر أنها **عتاب** وذم لمن لا يحسن إلى مملوكه حتى يرد ما رزقه الله عليه كما جاء في الحديث أطعموهم مما تأكلون واكسوهم مما تلبسون والأول أرجح أبنعمت الله يجحدون الجحد هنا على المعنى الأول إشارة إلى الإشراك بالله وعبادة غيره وعلى المعنى الثاني إشارة إلى جنس المماليك فيما يجب لهم من الإنفاق والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا يعني الزوجات ومن أنفسكم يحتمل أن يريد من نوعكم وعلى خلقتكم أو يريد أن حواء خلقت من ضلع آدم وأسند ذلك إلى بني آدم لأنهم من ذريته وحفدة جمع حافد قال ابن عباس هم أولاد البنين وقيل الأصهار وقيل الخدم وقيل البنات إلا أن لفظ الذكور لا يدل عليهم والحفدة في اللغة الخدمة ويعبدون من دون الله الآية توبيخ للكفار ورد عليهم في عبادتهم للأصنام وهي لا تملك لهم رزقا وانتصب رزقا لأنه مفعول بيملك ويحتمل أن يكون مصدرا أو اسما لما يرزق فإن كان مصدر فإعراب شيئا مفعول به لأن المصدر نصيب المفعول وإن كان اسما فإعراب شيئا بدل منه ولا يستطيعون الضمير عائد." (١)

" ١٦٨ عقابكم وقد عادوا فبعث الله عليهم محمدا صلى الله عليه وسلم وأمته يقتلونهم ويذلونهم إلى يوم القيامة حصيرا أي سجنا وهو من الحصر وقيل أراد به ما يفرش ويبسط كالحصير المعروف يهدي للتي هي أقوم أي الطريقة والحالة التي هي أقوم وقيل يعني لا إله إلا الله واللفظ أعم من ذلك ويدع الإنسان بالشر دعاءه بالخير المعنى ذم **وعتاب** لما يفعله الناس عند الغضب من الدعاء على أنفسهم وأموالهم وأولادهم وأنهم يدعون بالشر في ذلك الوقت كما يدعون بالخير في وقت التثبت وقيل إن الآية نزلت في النضر بن الحارث حين قال اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك الآية وقد تقدم أن الصحيح في قائلها إنه أبو جهل وكان الإنسان عجولا الإنسان هنا وفي الذي قبله اسم جنس وقيل يعني هنا آدم وهو بعيد فمحونا آية الليل فيه وجهان أحدهما أن يراد أن الليل والنهار آيتان في أنفسهما فتكون الإضافة في آية الليل وآية النهار كقولك مسجد الجامع أي الآية التي هي الليل والآية التي هي النهار ومحو آية الليل على هذا كونه مظلما والوجه الثاني أن يراد بآية الليل القمر وآية النهار الشمس ومحو آية الليل على هذا كون القمر لم يجعل له ضوء كضوء الشمس وجعلنا آية النهار مبصرة يحتمل أن يريد النهار بنفسه أو الشمس ومعنى مبصرة تبصر فيها الأشياء لتبتغوا فضلا من ربكم أي لتتوصلوا بضوء النهار إلى التصرف في معايشكم ولتعلموا باختلاف الليل والنهار أو بمسير الشمس والقمر عدد السنين والحساب الأشهر والأيام وكل شيء فصلناه تفصيلا انتصب كل بفعل مضمر والتفصيل البيان وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه انتصب كل بفعل مضمر والطائر هنا العمل والمعنى أن عمله لازم له وقيل إن

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزى، ٢/٧٩

طائره ما قدر عليه وله من خير وشر والمعنى على هذا أن كل ما يلقى الإنسان قد سبق به القضاء وإنما عبر عن ذلك بالطائر لأن العرب كانت عادته ا التيمن والتشاؤم بالطير وقوله في عنقه أي." (١)

"والتوبة والعمل الصالح ويحتمل أن يكون الهدى هنا عبارة عن نور وعلم يجعله الله في قلب من تاب وآمن وعمل صالحا وما أعجلك عن ... ٤١٠

١٧ قومك يا موسى) قصص هذه الآية أن موسى عليه السلام لما أمره الله أن يسير هو وبنو إسرائيل إلى الطور تقدم هو وحده مبادرة إلى أمر الله وطلبا لرضاه وأمر بني إسرائيل أن يسيروا بعده واستخلف عليهم أخاه هارون فأمرهم السامري حينئذ بعبادة العجل فلما وصل موسى إلى الطور دون قومه قال له الله تعالى ما أعجلك عن قومك وإنما سأل الله موسى عن سبب استعجاله دون قومه ليخبره موسى بأنهم يأتون على أثره فيخبره الله بما صنعوا بعده من عبادة العجل وقيل سأله على وجه الإنكار لتقدمه وحده دون قومه فاعتذر موسى بعذرين أحدهما أن قومه على أثره أي قريب منه فلم يتقدم عليهم بكثير فيوجب **العتاب** والثاني أنه إنما تقدم طلبا لرضا الله وأضلهم السامري كان السامري رجلا من بني إسرائيل يقال إنه ابن خال موسى وقيل لم يكن منهم وهو منسوب إلى قرية بمصر يقال لها سامرة وكان ساحرا منافقا فرجع موسى إلى قومه يعني رجع من الطور بعد إكمال الأربعين يوما التي كلمه الله فيها أسفا ذكر في الأعراف ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا يعني ما وعدهم من الوصول إلى الطور أفطال عليكم العهد يعني المدة وهذا الكلام توبيخ لهم بملكنا قرىء بالفتح والضم والكسر ومعناه ما أخلفنا موعدك بأن ملكنا أمرنا ولكن غلبنا بكيد السامري فيحتمل أنهم اعتذروا بقلة قدرتهم وطاقتهم ويناسب هذا المعنى القراءة بضم الميم واعتذروا بقلة ملكهم لأنفسهم في النظر وعدم توفيقهم للرأي السديد ويناسب هذا المعنى القراءة بالفتح والكسر حملنا أوزارا من زينة القوم الأوزار هنا الأحمال سميت أوزارا لثقلها أو لأنهم اكتسبوا بسببها الأوزار أي الذنوب وزينة القوم هي حلي القبط قوم فرعون كان بنو إسرائيل قد ا ستعاروه منهم قبل هلاكهم وقيل أخذوه بعد هلاكهم." (٢)

"المنافق وقيل الذي بدأ بهذه الفرية غير معين والعذاب العظيم هنا يحتمل أن يراد به الحد أو عذاب الآخرة لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا لولا هنا عرض والمعنى أنه كان ينبغي للمؤمنين والمؤمنات أن يقيسوا ذلك الأمر على أنفسهم فإن كان ذلك يبعد في حقهم فهو في حق عائشة أبعد لفضلها وروى أن هذا النظر وقع لأبي أيوب الأنصاري فقال لزوجته أكنت أنت تفعلين ذلك قالت لا والله قال فعائشة أفضل منك قالت نعم فإن قيل لم قال سمعتموه بلفظ الخطاب ثم عدل إلى لفظ الغيبة في قوله ظن المؤمنون ولم يقل ظننتم فالجواب أن ذلك التفات قصد به المبالغة والتصريح بالإيمان الذي يوجب أن لا يصدق المؤمن على المؤمن شرا لولا جاؤا عليه بأربعة شهداء لولا هنا عرض والضمير في جاءوا لأهل الإفك ثم حكم الله بكذبهم إذ لم يأتوا بالشهداء أفضتم فيه يقال أفاض في الحديث

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزى، ١٠١/٢

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزى، ١٧٧/٢

وخاض فيه إذا أكثر الكلام فيه إذ تلقونه بألسنتكم العامل في إذ قوله مسكم أو أفضتم ومعنى تلقونه يأخذه بعضكم من بعض وفي هذا الكلام وفي الذي قبله وبعده **عتاب** لهم على خوضهم ... ٤٥٥." (١)

" ١٣٩ الناس لئلا يقولوا تزوج امرأة ابنه إذ كان قد تبناه فالذي أخفاه صلى الله عليه وسلم هو إرادة تزوجها فأبدى الله ذلك بأن قضى له بتزويجها فقالت عائشة لو كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كاتما شيئا من الوحي لكتم هذه الآية لشدتها عليه وقيل إن الله كان أوحى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتزوج زينب بعد طلاق زيد فالذي أخفاه رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أعلمه الله به من ذلك فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها لم يذكر أحد من الصحابة في القرآن باسمه غير زيد بن حارثة والوطر الحاجة قال ابن عطية ويراد به هنا الجماع والأحسن أن يكون أعم من ذلك أي لما لم يبق لزيد فيها حاجة زوجها الله من نبيه صلى الله عليه وسلم وأسند الله تزويجها إليه تشريفا لها ولذلك كانت زينب تفتخر على نساء النبي صلى الله عليه وسلم وتقول إن الله زوجني نبيه من فوق سبع سموات واستدل بعضهم بقوله زوجناكها على أن الأولى أن يقال في كتاب الصداق أنكحه إياها بتقديم ضمير الزوج على ضمير الزوجة كما في الآية لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم المعنى أن الله زوج زينب امرأة زيد من رسول الله صلى الله عليه وسلم ليعلم المؤمنين أن تزوج نساء أدعيائهم حلال لهم فإن الأدعياء ليسوا لهم بأبناء حقيقة ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له المعنى أن تزوج النبي صلى الله عليه وسلم لزينب بعد زيد حلال لا حرج فيه ولا إثم ولا **عتاب** وفي ذلك رد على من تكلم في ذلك من المنافقين وفرض هنا بمعنى قسم له سنة الله في الذين خلوا من قبل أي عادة الله في الأنبياء المتقدمين أن ينالوا ما أحل الله لهم وقيل الإشارة بذلك إلى داود في تزوجه للمرأة التي جرى له فيها ما جرى والعموم أحسن ونصب سنة على المصدر أو على إضمار فعل أو على الإغراء الذين يبلغون رسالات الله صفة للذين خلوا من قبل وهم الأنبياء أو رفع على إضمار مبتدأ أو نصب بإضمار فعل." (٢)

" ١٨٣ وذهبا ولم يرهما فشعر داود أن ذلك **عتاب** من الله له على ما وقع فيه فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب ولا تقتضي هذه القصة على هذه الرواية أن داود عليه السلام وقع فيما لا يجوز شرعا وإنما عوتب على أمر جائز كان ينبغي له أن يتنزه عنه لعلو مرتبته ومتانة دينه فإنه قد يعاتب الفضلاء على ما لا يعاتب عليه غيرهم كما قيل حسنات الأبرار سيئات المقربين وأيضا فإنه كان له تسع وتسعون امرأة فكان غنيا عن هذه المرأة فوقع **العتاب** على الاستكثار من النساء وإن كان جائزا وروي هذا الخبر على وجه آخر وهو أن داود انفرد يوما في محرابه للتعبد فدخل عليه طائر من كوة فوقع بين يديه فأعجبه فمد يده ليأخذه فطار على الكوة فصعد داود ليأخذه فرأى من الكوة امرأة تغتسل عريانة فأعجبته ثم انصرف فسأل عنها فأخبر أنها امرأة رجل من جنده وأنه خرج للجهاد مع الجند فكتب داود إلى أمير تلك الحرب أن يقدم ذلك الرجل يقاتل عند التابوت وهو موضع قل ما تخلص أحد منه فقدم ذلك الرجل فقاتل حتى قتل شهيدا فتزوج داود امرأته فعوتب على تعريضه ذلك الرجل للقتل وتزوجه امرأته بعده مع أنه كان له تسع وتسعون امرأة سواها وقيل إن

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزى، ٢/٢٥٢

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزى، ٢/٣٦٩

داود هم بذلك كله ولم يفعله وإنما وقعت المعاتبة على همه بذلك وروي أن السبب فيما جرى له مثل ذلك أنه أعجب بعلمه وظهر منه ما يقتضي أنه لا يخاف الفتنة على نفسه ففتن بتلك القصة وروي أيضا أن السبب في ذلك أنه تمنى منزلة آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب والتزم أن يبتلى كما ابتلوا فابتلاه الله بما جرى له في تلك القصة قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه سؤال مصدر مضاف إلى المفعول وإنما تعدى بإلى لأنه تضمن معنى الإضافة كأنه قال بسؤال نعجتك مضافة أو مضمومة إلى نعاجه فإن قيل كيف قال له داود لقد ظلمك قبل أن يثبت عنده ذلك فالجواب أنه روي أن الآخر اعترف بذلك وحذف ذكر اعترافه اختصارا ويحتمل أن يكون قوله لقد ظلمك على تقدير صحة قوله وقد قيل إن قوله." (١)

" ١٩٢ والرحم والمشيمة والأول أرجح لقوله بطون أمهاتكم ولم يذكر الصلب إن تكفروا فإن الله غني عنكم أي لا يضره كفركم ولا يرضى لعباده الكفر تأول الأشعرية هذه الآية على وجهين أحدهما أن الرضا بمعنى الإرادة ويعني بعباده من قضى الله له بالإيمان والوفاة عليه فهو كقوله إن عبادي ليس لك عليهم سلطان والآخر أن الرضا غير الإرادة والعباد على هذا على العموم أي لا يرضى الكفر لأحد من البشر وإن كان قد أراد أن يقع من بعضهم فهو لم يرضه دينا ولا شرعا وأراده وقوعا ووجودا وأما المعتزلة فإن الرضا عندهم بمعنى الإرادة والعباد على العموم جريا على قاعدتهم في القدر وأفعال العباد وإن تشكروا يرضه لكم هذا عموم والشكر الحقيقي يتضمن الإيمان ولا تزر وازرة ذكر في الإسراء وإذا مس الإنسان ضر الآية يراد بالإنسان هنا الكافر بدليل قوله وجعل له أندادا والقصد بهذه الآية عتاب وإقامة حجة فالعتاب على الكفر وترك دعاء الله وإقامة الحجة على الإنسان بدعائه إلى الله في الشدائد فإن قيل لم قال هنا وإذا مس بالواو وقال بعدها فإذا مس بالفاء فالجواب أن الذي بالفاء مسبب عن قوله اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة فجاء بفاء السببية قاله الزمخشري وهو بعيد ثم إذا خوله نعمة منه خوله أعطاه والنعمة هنا يحتمل أن يريد بها كشف الضر المذكور أو أي نعمة كانت نسي ما كان يدعو إليه من قبل يحتمل أن تكون ما مصدرية أي نسي دعاء أو تكون بمعنى الذي والمراد بها الله تعالى أم من هو قانت بتخفيف الميم على إدخال همزة الاستفهام على من وقيل هي همزة النداء الأول أظهر وقرئ بتشديدها على إدخال أم على من ومن مبتدأ وخبره محذوف وهو المعادل للاستفهام تقديره أم من هو قانت كغيره وإنما حذف لدلالة الكلام عليه وهو ما ذكر قبله وما ذكر بعده وهو قوله هل يستوي الذين يعلمون والقنوت هنا بمعنى الطاعة والصلاة بالليل وآناء الليل ساعاته قل يا." (٢)

"ظعينة معها كتاب من حاطب إلى المشركين فانطلقوا حتى وجدوا المرأة فقالوا لها أخرجي الكتاب فقالت ما معي كتاب ففتشوا جميع رحلها فما وجدوا شيئا فقال بعضهم ما معها كتاب فقال علي بن أبي طالب ما كذب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا كذب الله والله لتخرجن الكتاب أو لنجردنك قالت أعرضوا عني فأخرجته من قرون رأسها وقيل أخرجته من حجزتها فجاؤا به رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لحاطب من كتب هذا قال أنا يا رسول الله

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزى، ٢/٤٤٦

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزى، ٢/٤٦٣

ولكن لا تعجل علي فوالله ما فعلت ذلك ارتدادا عن ديني ولا رغبة في الكفر ولكني كنت امرأ ملصقا في قريش ولم أكن من أنفسها فأحببت أن تكون لي عندهم يد يرعونني بها في قرابتي فقال عمر بن الخطاب دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم صدق حاطب إنه من أهل بدر وما يدريك يا عمر لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم ل ا تقولوا الحاطب إلا خيرا فنزلت الآية **عتابا** لحاطب وزجرا عن أن يفعل أحد مثل فعله وفيها مع ذلك تشريف له لأن الله شهد له بالإيمان في قوله يا أيها الذين آمنوا تلقون إليهم بالمودة عبارة عن إيصال المودة إليهم وألقى يتعدى بحرف جر وبغير حرف جر كقوله ألقيت عليك ... ٧٠٦." (١)

"١٣٠ عظم الجرم وكثرة العمار وغير ذلك والأول أرجح يتنزل الأمر بينهن يحتمل أن يريد بالأمر الوحي أو أحكام الله وتقديره لخلقه

سورة التحريم

يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك

في سبب نزولها روايتان أحدهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء يوما إلى بيت زوجه حفصة بنت عمر بن الخطاب فوجدها قد مرت لزيارة أبيها فبعث إلى جاريته مارية فجامعها في البيت فجاءت حفصة فقالت يا رسول الله ما كان في نسائك أهون عليك مني أتفعل هذا في بيتي وعلى فراشي فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم مترضيا لها أيرضيك أن أحرمها قالت نعم فقال إني قد حرمتها والرواية الأخرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يدخل على زوجه زينب بنت جحش فيشرب عندها عسلا فاتفقت عائشة وحفصة وسودة بنت زمعة على أن تقول له من دنا منها أكلت مغافير والمغافير صمغ العرفط وهو حلو كريه الريح ففعلن ذلك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ولكني شربت عسلا فقلن له جرست نحلة العرفط فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا أشربه أبدا وكان يكره أن توجد منه رائحة كريهة فدخل بعد ذلك على زينب فقالت ألا أسقيك من ذلك فقال لا حاجة لي به فنزلت الآية **عتابا** له على أن يضيق على نفسه بتحريم الجارية أو تحريم العسل والرواية الأولى أشهر وعليها تكلم الناس في فقه السورة وقد خرج الرواية الثانية البخاري وغيره ولنتكلم على فقه التحريم فأما تحريم الطعام والمال وسائر الأشياء ما عدا النساء فلا يلزم ولا شئ عليه عند مالك وأوجب عليه أبو حنيفة الكفارة وأما تحريم الأمة فإن نوى به العتق لزم وإن لم ينوبه ذلك لم يلزم وكان حكمه ما ذكرنا في الطعام وأما تحريم الزوجة فاختلف الناس فيه على أقوال كثيرة فقال أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وابن عباس وعائشة وغيرهم إنما يلزم فيه كفارة يمين وقال مالك في االمشهور عنه ثلاث تطليقات في المدخول بها وينوي في غير المدخول بها فيحكم." (٢)

"بما نوى من طلقه أو اثنتين أو ثلاث وقال ابن الماجشون هي ثلاث في الوجهين وروى عن مالك أنها طلقة بائنة وقيل طلقة رجعية تبتغي مرضات أزواجك أي تطلب رضا أزواجك بتحريم ما أحل الله لك يعني تحريمه للجارية ابتغاء

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزى، ١٦٣/٣

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزى، ١٩٤/٣

رضا حفصة وهذا يدل على أنها نزلت في تحريم الجارية وأما تحريم العسل فلم يقصد فيه رضا أزواجه وإنما تركه لرائحته والله غفور رحيم في هذا إشارة إلى أن الله غفر له ما عاتبه عليه من التحريم على أن **عتابه** في ذلك إنما كان كرامة له وإنما وقع **العتاب** على تضييقه عليه السلام على نفسه وامتناعه مما كان له فيه أرب وبئس ما قال الزمخشري في أن هذا كان منه زلة لآنه حرم ما أحل ... ٧٢٤." (١)

" ١٣١ الله وذلك قلة أدب على منصب النبوة قد فرض الله لكل تحلة أيمانكم التحلة هي الكفارة وأحال تعالى هنا على ما ذكر في سورة المائدة من صفتها واختلف في المراد بها هنا فأما على قول من قال إن الآية نزلت في تحريم الجارية فاختلف في ذلك فمن قال إن التحريم يلزم فيه كفارة يمين استدل بها ومن قال إن التحريم يلزم فيه طلاق قال إن الكفارة هنا إنما هي لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم حلف وقال والله لاأطؤها أبدا واما على القول بأن الآية نزلت في تحريم العسل فاختلف أيضا فمن أوجب في تحريم الطعام كفارة قال هذه الكفارة للتحريم ومن قال لا كفارة فيه قال إنما هذه الكفارة لأنه حلف ألا يشربه وقيل هي في يمينه عليه السلام أن لا يدخل على نسائه شهرا والله مولاكم يحتمل أن يكون المولى بمعنى الناصر أو بمعنى السيد الأعظم وإذ أسر النبي إلى بعض أزواجه حديثا اختلف في هذا الحديث على ثلاثة أقوال أحدها أنه تحريم الجارية فإنه لما حرمها قال لحفصة لا تخبري بذلك أحدا والآخر أنه قال إن أبا بكر وعمر يليان الأمر من بعده والثالث أنه قوله شربت عسلا والأول أشهر وبعض أزواجه حفصة فلما نبأت به وأظهره الله عليه عرف بعضه وأعرض عن بعض كانت حفصة قد أخبرت عائشة بما أسر إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم من تحريم الجارية فأخبر الله رسوله عليه السلام بذلك فعاقب حفصة على إفشائها لسره فطلقها ثم أمره الله بمراجعتها فراجعها وقيل لم يطلقها فقوله فلما نبأت به حذف المفعول وهو عائشة وقوله وأظهره الله عليه أي أطلعه على إخبارها به وقوله عرف بعضه أي عاتب حفصة على بعضه وأعرض عن بعض حياء وتكريما فإن من عادة الفضلاء التغافل عن الزلات والتقصير في **العتاب** وقرئ عرف بالتخفيف من المعرفة فلما نبأها به قالت من أنبأك هذا أي لما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم حفصة بأنها قد أفشت سره ظنت بأن عائشة هي التي أخبرته فقالت له من أنبأك هذا." (٢)

"١٧٨ سورة عبس

سبب نزول صدر هذه السورة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان حريصا على إسلام قريش وكان يدعو أشرافهم إلى الله تعالى ليسلموا فيسلم بإسلامهم غيرهم فبينما هو مع رجل من عظمائهم قيل هو الوليد بن المغيرة وقيل عتبة بن ربيعة وقيل أمية بن خلف وقال ابن عباس كانوا جماعة إذ أقبل عبد الله بن أم مكتوم الأعمى فقال يا رسول الله علمني مما علمك الله وكرر ذلك وهو لا يعلم عنه بتشاغله بالقوم فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم قطع الأعمى كلامه فعبس وأعرض عنه وذهب الرجل الذي كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت الآية فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا رأى عبد الله بن أم مكتوم بعد ذلك يقول مرحبا بمن عاتبني فيه ربي ويبسط له رداءه وقد استخلفه على المدينة

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزى، ١٩٥/٣

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزى، ١٩٦/٣

مرتين عبس وتولى أي عبس في وجه الأعمى وأعرض عنه قال ابن عطية في مخاطبته بلفظ الغائب مبالغة في العتب لأن في ذلك بعض الإعراض وقال الزمخشري في الإخبار بالغيبة زيادة في الإنكار وقال غيرهما هو إكرام للنبي صلى الله عليه وسلم وتنزيه له عن المخاطبة **بالعتاب** وهذا أحسن أن جاءه الأعمى في موضع مفعول من أجله وهو منصوب بتولى أو عبس وذكر ابن أم مكتوم بلفظ الأعمى ليدل أن عماه هو الذي أوجب احتقاره وفي هذا دليل على أن ذكر هذه العاهات جائز إذا كانت لمنفعة أو يشهد صاحبها ومنه قول المحدثين سليمان الأعمش وعبد الرحمن الأعرج وغير ذلك وما يدريك أي أي شئ يطلعك على حال هذا الأعمى لعله يزكى أي يتطهر وينتفع في دينه بما يسمع منك أما من استغنى فأنت له تصدى أي تتعرض للغنى رجاء أن يسلم وما عليك ألا يزكى أي لا حرج عليك أن لا يتزكى هذا الغني وأما من جاءك يسعى إشارة إلى عبد الله بن أم مكتوم ومعنى يسعى يسرع في مشيه من حرصه في طلب الخير وهو يخشى أي يخشى الله أو يخاف الكفار وإذا يتهم له على اتباعك وقيل جاء وليس معه من يقوده فكان." (١)

"يخشى أن يقع وهذا ضعيف فأنت عنه تلهى أي تشتغل عنه بغيره من قولك لهيت عن الشئ إذا تركته وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تأدب بما أدبه الله في هذه السورة فلم يعرض بعدها عن فقير ولا تعرض لغنى وكذلك اتبعه فضلاء العلماء فكان الفقراء في مجلس سفيان الثوري كالأمراء وكان الأغنياء يتمنون أن يكونوا فقراء كلا ردع عن معاودة ما وقع **العتاب** فيه إنها تذكرة فيه وجهان أحدهما أن هذا الكلام المتقدم تذكرة أو موعظة للنبي صلى الله عليه وسلم والآخر أن القرآن تذكرة لجميع الناس فلا ينبغي أن يؤثر فيه أحد على أحد وهذا أرجح لأنه يناسبه فمن شاء ذكره وما بعده وأنت الضمير في قوله إنها تذكرة على معنى القصة أو الموعظة أو السورة أو القراءة ... ٧٧٢." (٢)

"١٨٢ بهذا لقوله شديد القوى ذو مرة عند ذي العرش يتعلق بذى قوة وقيل بمكين وهذا أظهر والمكين الذي له مكانة أي جاه وتقريب مطاع ثم أمين هذا الظرف إشارة إلى الظرف المذكور قبله وهو عند ذي العرش أي مطاع في ملائكة ذي العرش وما صاحبكم بمجنون هو محمد صلى الله عليه وسلم باتفاق ولقد رآه بالأفق المبين ضمير الفاعل لمحمد صلى الله عليه وسلم وضمير المفعول لجبريل عليه السلام وهذه الرؤية له بغار حراء على كرسي بين السماء والأرض وقيل الرؤية التي رآه عند سدرة المنتهى في الإسراء ووصف هذا الأفق بالمبين لأنه روى أنه كان في المشرق من حيث تطلع الشمس وأيضا فكل أفق فهو مبين وما هو على الغيب بضنين الضمير للنبي صلى الله عليه وسلم ومن قرأ بالضاد فمعناه بخيل أي لا يبخل بأداء ما ألقى إليه من الغيب وهو الوحي ومن قرأ بالظاء فمعناه متهم أي لا يتهم على الوحي بل هو أمين عليه ورجح بعضهم هذه القراءة بأن الكفار لم ينسبوا محمدا صلى الله عليه وسلم إلى البخل بالوحي بل اتهموه فنفى عنه ذلك وما هو بقول شيطان رجيم الضمير للقرآن فأين تذهبون خطاب لكفار قريش أي ليس لكم زوال عن هذه الحقائق وقد تقدم تفسير بقية السورة في نظائره فيما تقدم

سورة الانفطار

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزى، ٢٨٢/٣

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزى، ٢٨٣/٣

إذا السماء انفطرت أي انشقت وإذا الكواكب انتثرت أي سقطت من مواضعها وإذا البحار فجرت أي فرغت وقيل فجر بعضها إلى بعض فاختلط وإذا القبور بعثرت أي نبشت على الموتى الذين فيها وقال الزمخشري أصله من البعث والبحث فضمت إليها الراء والمعنى بحثت وأخرج موتاها علمت نفس ما قدمت وأخرت هذا هو الجواب ومعناه علمت كل نفس جميع أعمالها وقيل ما قدمت في حياتها وما أخرت مما تركته بعد موتها من سنة سنتها أو وصية أوصت بها وأفردت النفس والمراد به العموم حسبما ذكرنا في التكوير يا أيها الإنسان خطاب لجنس بني آدم ما غرك بربك الكريم هذا توبيخ **وعتاب**." (١)

"معناه أي شئ غرك بربك حتى كفرت به أو عصيته أو غفلت عنه فدخل في **العتاب** الكفار وعصاة المؤمنين ومن يغفل عن الله في بعض الأحيان من الصالحين وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ ما غرك بربك الكريم فقال غره جهله وقال عمر غره جهله وحمقه وقرأ إنه كان ظلوما جهولا وقيل غره الشيطان المسلط عليه وقيل غره ستر الله عليه وقيل غره طمعه في عفو الله عنه ولا تعارض بين هذه الأقوال لأن كل واحد ... ٧٧٦
١٨٣ منها مما يغر الإنسان إلا أن بعضها يغر قوما وبعضها يغر قوما آخرين فإن قيل ما مناسبة وصفه بالكريم هنا للتوبيخ على الغرور فالجواب أن الكريم ينبغي أن يعبد ويطاع شكرا لإحسانه ومقابلة لكرمه ومن لم يفعل ذلك فقد كفر النعمة وأضاع الشكر الواجب فعدلك بالتشديد والتخفيف أي عدل أعضاءك وجعلها متوازنة فلم يجعل إحدى اليدين أطول من الأخرى ولا إحدى العينين أكبر من الأخرى ولا إحداهما كحلى والأخرى زرقاء ولا بعض الأعضاء أبيض وبعضها أسود وشبه ذلك من الموازنة
في أي صورة ما شاء ركبك المجرور يتعلق بركبك وما زائدة والمعنى ركبك في أي صورة شاء من الحسن والقبح والطول والقصر والذكورة والأنوثة وغير ذلك من اختلاف الصور ويحتمل أن يتعلق المجرور بمحذوف تقديره ركبك حاصلا في أي صورة وقيل يتعلق بعدلك على أن يكون بمعنى صرفك إلى أي صورة شاء وهذا بعيد ولا يمكن إلا مع قراءة عدلك بالتخفيف كلا ردع عن الغرور المذكور قبل والتكذيب المذكور بعد بل تكذبون بالدين هذا خطاب للكفار والدين هنا يحتمل أن يكون بمعنى الشريعة أو الحساب أو الجزاء وإن عليكم لحافظين يعنى الملائكة الذين يكتبون أعمال بني آدم يعلمون ما تفعلون يعلمون الأعمال لمشاهدتهم لها وأما مالا يرى ولا يسمع من الخواطر والنيات والذكر بالقلب فقيل إن الله ينفرد بعلم ذلك وقيل إن الملك يجد لها ريحا يدركها به إن الأبرار لفي نعيم في هذه الآية وفيما بعدها من." (٢)

"كان يعرفانه ، ويعرفان ما عنده من العداوة والحَسَد ، فيستحيل في العادة أن يقبلا قوله ، فلا بد وأن يكون المباشر للوسوسة بعض أتباع إبليس.

وقد يُجَاب عن هذا بأن إبليس لما خالف أمر ربّه ولعن لعلّه انتقل من تلك الصورة التي يُعْرَفُ بها إلى صورة أخرى ، ولعلّ إبليس تشكّل لهما في صورة لا يعرفانها ، فإن له قدرة التشكل ، والله أعلم.

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزى، ٢٩٠/٣

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزى، ٢٩١/٣

فصل في بيان أن آدم عصى ربه ناسياً اختلفوا في صدور ذلك الفعل عن آدم – عليه الصلاة والسلام – بعد النبوة ، هل فعله ناسياً أو ذاكراً ؟ قال طائفة من المتكلمين : فعله ناسياً ، واحتجوا بقوله تعالى : ﴿فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾ [طه : ١١٥] ومثلوه بالصَّائم إذا أكل ناسياً ، وهذا باطل من وجهين : الأول : قوله تعالى : ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَاذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ﴾ [الأعراف : ٢٠].

وقوله : ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف : ٢١] يدلّ على أنه ما نسي النهي حال الإقدام.

الثاني : أنه لو كان ناسياً لما عوتب على ذلك الفعل.

أما من حيث العقل فلأن الناسي غير قادر على الفعل فلا يكون مكلفاً به لقوله تعالى : ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَ﴾ [البقرة : ٢٨٦].

وأما من حيث النقل فلقوله عليه الصلاة والسلام : " رُفِعَ عَنْ أمّتي الخَطَأُ والنِّسْيَانُ ".

وقد يجاب عن الأول بأنا لا نسلّم أن آدم وحواء – عليهما الصلاة والسلام – قَبَلاَ من إبليس ذلك الكلام وصَدّقاه ؛ لأنهما لو صدقاه لكانت معصيتهما في ذلك التصديق أعظم من أكل الشَّجرة ؛ لأن إبليس لما قال لهما : ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَاذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ﴾ [الأعراف : ٢٠] الآية فقد ألقى إليهما سوء الظَّن بالله – تعالى – ودعاهما إلى ترك التَّسْلِيم رأمره ، والرضا بحكمه ، وان يعتقدوا فيه كون إبليس ناصحاً لهما ، وأن الرب – تَعَالَى – قد غضهما ولا شك أن هذه الأشياء أعظم من أكل الشجرة ، فوجب أن تكون المُعَاتَبَةِ في ذلك أشد ، وأيضاً آدم – عليه الصلاة والسلام – كان عالماً بتمرد " إبليس " ، وكونه مبغضاً له وحاسداً له ، فكيف يجوز من العاقل أن يقبل قول عدوّه مع هذه القرائن ، وليس في الآية أنهما أقدما على ذلك الفعل عند ذلك الكلام.

وأما الجواب الثاني : فهو أن العتاب إنما حصل على قلّة التحفُّظ من سباب النسيان ، وهذا الضرب من السَّهو موضوع عن المسلمين ، وقد كان يجوز أن يؤاخذوا به ، وليس بموضوع عن الأنبياء لعظم خَطَرِهِمْ ومثّلوه بقوله : ﴿ يا نساء النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَآءِ﴾ [الأحزاب : ٣٢] ، ثم قال : ﴿مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ [الأحزاب : ٣٠].

وقال عليه الصلاة والسلام : " أَشَدُّ النَّاس بَلاَءً الأنبياءُ ثم الأوْلِيَاءُ ثم الأَمْثَلُ فالأَمْثَلُ " ، ولقد كان على النبي صلى الله عليه وسلم من التَّشْديدات في التَّكليف ما لم يَكُنْ على غيره.

وذكر بعض المفسّرين أن حوّاء سقته الخَمْرَ ، فسكر وزفي أثناء السّكر فعل ذلك قالوا وهذا ليس ببعيد ؛ عليه الصَّلاة والسَّلام – كان مأذوناً له في تناول كل الأشياء سوى تلك الشجرة ، فكان مأذوناً له في تناول الخمر ، ولقائل أن يقول : إن خمر الجَنَّة لا يسكر لقوله تعالى في صفة خمر الجنة : ﴿لاَ فِيهَا غَوْلٌ﴾ [الصافات : ٤٧].

القول الثاني : أن آدم – عليه الصَّلاة والسَّلام – فعله عامداً ؛ فها هنا قولان : أحدهما : أن ذلك النهي نهي تَنْزِيهِ ، لا نهي تحريم ، وقد تقدم.

الثاني : أنه تعمّد وأقدم على الكل بسبب اجتهاد أخطأ فيه ، وذلك لا يقتضي كون الذَّنْبِ كبيرة ، وهذا اختيار أكثر

المعتزلة.

وبيان خطأ الاجتهاد أنه لما قيل له : ﴿وَلاَ تَقْرَبَا هَاذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ [الأعراف : ١٩] فلفظ " هذه " يشار به إلى الشَّخص ، وقد يشار به إلى النوع ، كما روي أنه – عليه الصلاة والسلام – اخذ حريراً وذهباً بيده وقال : " هَذَانِ حَلاَلٌ لإنَاثِ أمّتِي حَرَامٌ على ذُكُرِهَا " وأراد به توعهما ، وتوضأ مرة وقال : " هذا وُضُوءٌ لا يقبل الله الصَّلاةَ إلاَّ به " وأراد نوعه ، فلما سمع آدم – عليه الصلاة والسلام – قوله : " ولا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ " ظنّ أن النهي إنما يتناول تلك الشجرة المعينة ، فتركها وتناول من شجرة أخرى من ذلك النوع ، فكان مخطئاً في ذلك الاجتهاد ؛ لأن مراد الله – تعالى – النهي عن النوع لا عن الشخص.

والاجتهاد في الفروع إذا كان خطأً لا يوجب استحقاق العقاب لاحتمال كونه صغيرةً مغفورة كما في شرعنا.

فغن قيل : الكلام على هذا القول من وجوه : أحدها : أن كلمة " هذا " في أصل اللغة للإشارة إلى الشَّيء الحاضر ، وهو لا يكون إلا شيئاً معيناً ، فإن أشير بها إلى النوع ، فذاك على خلاف الأصل ، وأيضاً فأنه – تعالى – لا تجوز الإشارة عليه ، فوجب ان يكون أمر بعض الملائكة بالإشَارَةِ إلى ذلك الشَّخص ، فكان ما عداه." (١)

"خارجاً عن النهي لا مَحَالة ، وإذا ثبت هذا فالمجتهد مكلف يحمل اللفظ على حقيقته ، فأدم – عليه الصلاة والسلام – لما حمل لفظ " هذه " على المُعَيّن كان قد فعل الواجب ، ولا يجوز له حمله على النوع ، وهذا متأيد بأمرين : أحدهما : أن قوله : ﴿وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ [البقرة : ٣٥] أفاد الإذْنَ في تناول كل ما في الجنّة إلا ما خصه الدليل.

والثاني : أن العقل يقتضي حلّ الانتفاع بجميع المَنَافِعِ إلاَّ ما خصّه الدليل ، والدليل المخصص لم يدلّ على ذلك المعيّن ، وإذا ثبت هذا امتنع أن يستحقّ بسبب تناول غيره وغن كان من ذلك النوع المنهي عنه **عتاباً** ، فوجب على هذا أن يكون مصيباً لا مخطئاً.

الاعتراض الثاني : هب أن لفظة " هذه " مترددة بين الشخص والنوع ، ولكن هل قرن الله بهذا اللَّفْظ ما يدلّ على أن المراد منه النوع دون الشخص أو لا ؟ فإن قرن به ، فإما أن يقال : إن آدم – عليه الصلاة والسلام – قصر في معرفة ذلك البيان ، فحينئذ يكون قد أتى بالذَّنب وإن لم يقصر بل عرفه ، فحينئذ يكون إقْدَامه على التَّناول من شَجَرَة من ذلك النوع إقداماً على الذنب قصداً.

الاعتراض الثالث : أن الأنبياء – عليهم الصلاة والسلام – لا يجوز لهم الاجْتِهَادُ ؛ لأن الاجتهاد إقدام على العمل بالظنّ وذلك إنما يجوز في حَقّ من لا يتمكن من تحصيل العلم ، أمّا الأنبياء فإنهم قادرون على تَحْصِيلِ اليقين ، فوجب ألا يجوز لهم الاجتهاد ؛ لأن الاكتفاء بالظن مع القدرة على تحصيل اليقين غير جائز عقلاً وشرعاً ، وذا ثبت ذلك ثبت أن افقدام على الاجتهاد معصية.

الاعتراض الرابع : هذه المسألة إما أن تكون من المَسَائل القَطْعِية او الظنية ، فإن كانت من القطعيات كان الخطأ فيها

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . موافق للمطبوع، ص/١٥٢

كبيراً ، وحينئذ يعود الإشكال ، وإن كانت من الظَّنيات فإن قلنا : إن كل مجتهد مصيب فلا يتحقّق الخطأ فيها أصلاً. وإن قلنا : المصيب فيها واحد ، والمخطيء فيها معذور بالاتفاق ، فكيف صار هذا القدر من الخطأ سبباً لإخراج آدم – عليه الصلاة والسلام – من الجنة ؟ والجواب عن الأوّل : أن لفظة " هذا " وإن كان في الأصل إشارة إلى الشَّخص ، لكنه قد يستعمل في الإشارة إلى النوع كما تقدم بيانه.

والجواب عن الثاني : أن الله – سبحانه وتعالى – كان قد قرن به ما دلّ على أنّ المراد هو النوع ، لكن لعلّ آدم – عليه الصلاة والسلام – قصر في معرفة ذلك الدَّليل ؛ لأنه ظنّ أنه لا يلزمه ذلك في الحال.

أو يقال : إنه عرف ذلك الدليل في وقت ما نهاه الله – تعالى – عن عين الشَّجرة ، فلما طالت المدة غفل عنه ، لأن في الخبر أن آدم – عليه الصلاة والسلام – بقي في الجَنّة الدهر الطويل ، ثم اخرج.

والجواب عن الثالث : أنه لا حاجة ها هنا إلى إثبات أن الأنبياء تمسَّكوا بالاجتهاد ، فإنَّا بيَّنَّا أن آدم – عليه الصلاة والسلام – قصّر في معرفة تلك الدّلالة ، وإن كان قد عرفها ، لكنه قد نسيها ، وهو المراد من قوله تعالى : ﴿فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾ [طه : ١١٥].

والجواب عن الرَّابع : يمكن أن يقال [كانت] الدلالة قطيعة [إلا أنه] – عليه الصَّلاة والسَّلام – لما نسيها صار النِّسْيان عذراً في ألاّ يصير الذنب كبيراً ، أو يقال : كانت ظنيةً إلاَّ أنه ترتَّب عليه من التَّشديدات ما لم يترتّب على خطأ سائر المجتهدين ؛ لأن ذلك يجوز أن يختلف باختلاف الأشخاص ، وكما أن الرسول – عليه الصَّلاة والسَّلام – مخصوص بأمور كثيرة في باب التَّشديدات بما لا يثبت في حق المة فكذا ها هنا.

واعلم أنه يمكن أن يقال في المسألة وجه آخر ، وهو أنه – تعالى – لما قال : ﴿وَلاَ تَقْرَبَا هَاذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ [الأعراف : ١٩] فهم آدم – عليه الصَّلاة والسَّلام – من هذا النهي أنهما إنما نُهِيَا حال اجتماعهما ؛ لأن قوله : " وَلاَ تَقْرَبَا " نهي لهما عن الجمع ، ولا يلزم من حصول النهي حال الاجتماع حصوله حال الانفراد ، فلعل الخطأ في الاجتهاد إنما وقع من هذا الوجه.

قوله : ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ " الفاء " – هنا – فاء السببية.

وقال المَهْدَوِيّ : إذا جعل " فأزلهما " بمعنى زلَّ عن المضكَان كان قوله : ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ توكيداً ، إذ قد يمكن أن يزولا عن مكان كانا فيه إلى مكان آخر ، وزهذا الذي قال المَهْدَوِيّ أشبه شيء بالتأسيس لا التأكيد ، لإفادته معنى جديداً.

قال " ابن عطية " : وهنا محذوف يدلّ عليه الظاهر تقديره : فأكلا من الشَّجرة ، يعني بذلك أن المحذوف [يقدر] قبل قوله : " فَأَزَلَّهُمَا ".

و " مَمَّا كَانَا " متعلّق بـ " اخرج " ، و " ما " يجوز أن تكون موصولة اسمية ، وأن تكون نكرة موصوفة ، أي : من المكان أو النعيم الَّذِي كانا فيه ، أو من مكان ، أو نعيم كانا فيه ، فالجملة من " كان " واسمها وخبرها لا مضحَلّ لها

على الأوّل ومحلّها الجرّ على الثاني ، و " من " لابتداء الغاية.

فصل في قصة الإغواء روي عن ابن عبّاس ، وقتادة قال الله تعالى لآدم : أَلَمْ يك فيما أبحتك الجَنّة مَنْدُوحَة عن." [1]

"وقد تقدم أنَّ الإهْلاَلَ : الصُّرَاخُ عند قوله ﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ﴾ [البقرة : ١٧٢].

" وفِعَالٌ " المضعَّف يطَّرد في تكسيره " أَفْعِلَة "كأَهِلَّةٍ ، وشذَّ فيه فِعَلٌ ؛ كقوله : عِنَنٌ ، وحِجَجٌ ، في عِنَان ، وحِجَاج.

وقدَّر بعضهم مضافاً قبل " الأَهِلَّة " أي : عن حكم اختلاف الأهلَّة ، لأنَّ السؤال عن ذاتها غير مفيدٍ ؛ ولذلك أُجيبوا بقوله : ﴿قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ وقيلك إنهم لمَّا سألُوا عن شيء قليل الجدوى ، أُجيبوا بما فيه فائدةٌ ، وعدل عن سؤالهم ، إذ لا فائدة فيه ، وعلى هذا ، فلا يحتاج إلى تقدير مضافٍ.

و " لِلنَّاسِ " متعلّقٌ بمحذوف ؛ لأنه صفةٌ لـ " مَوَاقِيتُ " أي : مواقيتُ كائنةٌ للنَّاسِ.

ولا يجوزُ تعلُّقُه بنَفْس المواقيتِ ؛ لما فيها من معنى النقل ؛ إذ لا معنى لذلك.

والمَوَاقِيتُ : جمع ميقَاتٍ ؛ رَجَعَتِ الو ا وُ إلى أصلها ؛ إذ الأصل : موقاتٌ من الوَقْتِ ، وإنَّما قلبت ياءً ؛ لكسر ما قبلها ، فلمَّا زال موجبه في الجمع ، رُدَّت واواً ، ولا ينصرف ؛ لأنه بزنة منتهى الجموع.

فإن قيل : لم صرفت قوارير ؟ قيل لأنَّها فاصلةٌ وقعت في رأس الآية الكريمة فنوّن ، ليجري على طريقة الآيات كام تنوَّن القوافي في مثل قوله : [الوافر] ٩٦٦ - أَقِلِّي اللَّوْمَ ، عَاذِلَ ، **والعتَابَنْ**

....

و " المِيقَات " : منتهى الوقت ؛ قال تبارك وتعالى : ﴿فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ﴾ [الأعراف : ١٤٢] والهلال : ميقات الشَّهر ؛ أي : منتهاه ، ومواضع الإحرام : مواقيت الحجِّ ؛ لأنَّها مواضع ينتهى إليها ، وقيل : الميقات : الوقت ؛ كالميعاد بمعنى الوعد.

فصل في تخصيص المواقيت بالهلال دون الشمس فإن قيل : لم خصَّ المواقيت بالأهلَّة وأشهرها دون الشمس وأشهرها ؟

٣٣٣

فالجواب : أنَّ الأهلَّة وأش ه رها ، إنَّما جعلت مواقيت للنَّاس ، دون الشمس وأشهرها ؛ لأنَّ الأشهر الهلاليَّة يعرفها كُلُّ أحدٍ من الخاصِّ والعامّ برؤية الهلال ومحاقه ؛ ولذلك عُلِّقت الأحكام الشَّرعيَّة بالشُّهور العربيَّة ، كصوم رمضان ، وأشهر الحجِّ ، وهي شوَّال ، وذُو القعدة وذو الحجَّة.

والأشهر المنذورة ، والكفَّارات ، وحول الزَّكاة وأشهر الإجارات والمداينات والسل ، وأشهر الإيلاء ، وأشهر العدد ، ومدَّة الرَّضاع وما تتحمَّله العاقلة في ثلاث سنين ، وغير ذلك ؛ بخلاف الشَّمس ، وأشهرها ؛ فإن الشَّمس لا يتغيَّر شكلها بزيادةٍ ، ولا نقصٍ ، ولا يعرف أوَّله وآخره ، ولا تختلِفُ رؤيتها ، وكذلك أشهرها لا يعرف أوَّلها وآخرها ، إلاَّ الخواصُّ من الحُسَّاب ، وليس لها مواقيت غير الفصول الأربعة ؛ وهي الصَّيف ، والشِّتاء ، والرَّبيع ، والخريف ؛ ولذلك

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل ـ موافق للمطبوع، ص/١٥٣

لا يتعلَّق به حكم شرعيٌّ ؛ فلذلك جعلت الأهلَّة وأشهرها مواقيت للنَّاس ، دون الشَّمس.

فصل اعلم أنَّ الله سبحانه ذكر وجه الحكمة في خلق الأهلَّة ؛ فقال تعالى : ﴿قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ وذكر هذا المعنى في آية أخرى ، وهي قوله تعالى : ﴿وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ [يونس : ٥] واعلم أنَّ تقدير الزمان بالشُّهور فيه منافع دينيةٌ ، ودنيويةٌ.

فالدينية : كالصَّوم ، والحَجِّ ، وعدَّة المتوفَّى عنها زوجها ، والنذور المتعلِّقة بالأوقات ، وقضاء الصَّوم في أيامٍ لا تُعْلَمُ إلاَّ بالأهلَّة.

والدنيويَّة : كالمداينات ، والإجارات ، والمواعيد ، ولمدَّة الحمل والرَّضاع.

قوله : " والحَجِّ " عطفٌ على " النَّاس " قوالوا : تقديره : ومواقيتُ الحَجِّ ، فحذف الثاني ؛ اكتفاءً بالأوَّل.

وقيل : فيه إضمارٌ ، تقديره : وللحَجِّ كقوله ﴿وَإِنْ أَردتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوا اْ أَوْل ادَكُمْ﴾ [البقرة : ٢٣٣] أي : لأولادكم.

ولمَّا كان الحجُّ من أعظم ما تُطْلَبُ مواقيته وأشهره بالأهلَّة ، أُفْرِدَ بالذِّكْرِ.

قال تعالى : ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ﴾ [البقرة : ١٩٧].

فإن قيل : الصَّوم أيضاً يطلب هلاله ؛ قال عليه الصَّلاة والسَّلام - : " صُومُوا لِرُؤْيَتِهِ ، وأَفْطِرُوا لِرُؤْيَتِهِ "

٣٣٤

" (١).

"والثاني : أنها حالٌ من الخبيث ؛ لأن في الجملة ضميراً يعود إليه ، أي : لا تقصدوا منفقاً منه.

والثالث : أنه مستأنف منه ابتداء إخبار بذلك ، وتمَّ الكلام عند قوله : ﴿وَلاَ تَيَمَّمُواْ الْخَبِيثَ﴾ ثم ابتدأ خبراً آخر ، فقال : تنفقون منه ، وأنتم لا تأخذونه إلا إذا أغمضتم ، كأن هذا **عتابٌ** للناس ، وتقريعٌ.

والتقدير : تنفقون مع أنكم لستم بآخذيه إلا مع الإغماض ، فهو استفهامٌ على سبيل الإنكار.

قال شهاب الدِّين : وهذا يردُّه المعنى.

فصل في بيان المراد من النفقة اختلفوا في المراد بهذه النفقة : فقال الحسن : المراد بها الزكاة المفروضة ؛ لأن هذا أمرٌ ، والأمر للواجب.

وقال قومٌ : صدقة التطوع ؛ لما روي عن علي ، والحسن ، ومجاهد : أنهم قالوا : كانوا يتصدَّقون بشرار ثمارهم ، ورديء أموالهم ؛ فنزلت هذه الآية.

" وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال جاء رجلٌ ذات يوم بعذق خشف فوضعه في الصَّدقة.

فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " بِئْسَ مَا صَنَعَ صاحبُ هذا " فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وقال آخرون : المراد الفرض ، والنفل ؛ لأن المفهوم من الأمر ترجيح جانب الفعل على جانب الترك من غير أن يكون فيه بيان أنه يجوز الترك أو لا يجوز وهذا المفهوم قدرٌ مشتركٌ بين الفرض والنَّفل ؛ فوجب أن يدخلا فيه ، فعلى القول

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . موافق للمطبوع، ص/٥٨٣

بأنَّه الزكاة فنقول : ظاهر الآية يدلُّ على وجوب الزكاة في كل مال يكتسبه الإنسان ، من الذَّهب ، والفضَّة ، والتجارة ، وزكاة الإبل ، والغنم ، والبقر ؛ لأن ذلك مما يوصف بأنه مكتسبٌ.

قال القرطبيُّ : والكسب يكون بتعب بدنٍ ، وهي الإجارة ، أو مقاولة في تجارةٍ ، وهو البيع ، والميراث داخلٌ في هذا ؛ لأن غير الوارث قد كسبه.

وقال ابن خويزمنداد : ولهذه الآية جاز للوالد أن يأكل من كسب ولده ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : " أَوْلاَدُكُمْ مِنْ طـَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ فَكُلُوا مِنْ أَمْوَالِ أَوْلاَدِكُمْ هَنِيئاً ".

٤٠٩

قوله : ﴿وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ﴾ يدلُّ على وجوب الزَّكاة في كل ما تنبته الأرض ، على ما هو قول أبي حنيفة – رحمه الله تعالى – وخصَّ مخالفوه هذا العموم بقوله – صلى الله عليه وسلم – : " لَيْسَ في الخُضْرَوَاتِ صَدَقَةٌ " وأستدل أبو حنيفة – رحمه الله – أيضاً بهذه الآية الكريمة على وجوب إخراج الزكاة من كلِّ ما أنبتته الأرض ، قليلاً كان ، أو كثيراً ؛ لظاهر الآية وخصَّ مخالفوه هذا العموم بقوله – صلى الله عليه وسلم – : " لَيْسَ فِيمَا دُونَ خَمْسَة أَوْسُق صَدَقَةٌ ".

أما المعدن والرِّكازُ فقال – صلى الله عليه وسلم – : " العَجْمَاءُ جَرْحُها جُبَارٌ ، والبِئْرُ جُبَارٌ ، والمعْدنُ جُبَارٌ ، وفي الرِّكاز الخمسُ " الجبار : الهدر الذي لا شيء فيه ، والعجماء : الدَّابَّة ، و الرِّكاز : هو ما دفنه أهل الجاهلية وعليه علامتهم.

فصل اختلفوا في الطِّيب : فقيل : هو الجيد ، فعلى هذا يكون الخبيث هو الرديء.

وقال

٤١٠

". (١)

"والمعنى : أنَّه تعالى كره خروجهم مع الرَّسُولِ – عليه الصلاة والسلام – ، فصرفهم عنه.

فإن قيل : خروجهم مع الرسول صلى الله عليه وسلم إمَّا أن يقال إنَّه كان مفسدة ، وإمَّا أن يقال إنه مصلحة ، فإن كان مفسدة ، فلمَ عاتبَ الرسول في إذنه لهم بالقعود ؟ وإن كان مصلحة فَلِمَ قال تعالى : إنه كره انبعاثهم وخروجهم ؟ والجوابُ : أنَّ خروجهم مع الرَّسولِ ما كان مصلحة ؛ لأنَّه تعالى صرَّح بعد هذه الآية بذكر المفاسد بقوله : ﴿لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً﴾ ، بقي أن يقال : فلمَّا كان الأصلح أن لا يخرجوا ، فلِمَ عاتب الرسول في الإذن ؟ فنقولُ :

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . موافق للمطبوع، ص/٨٩٤

قد حكينا عن أبي مسلم أنه قال : ليس في قوله : ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ [التوبة : ٤٣] أنه عليه الصلاة والسلام ، قد أذن لهم بالقُعُود ، بل يحتمل أن يقال : إنهم استأذنوه في الخروج معه ، فأذن لهم ، وعلى هذا يسقط السؤال.

قال أبو مسلم " ويدلُّ على صحَّة ما قلنا أنَّ هذه الآية دلَّت على أنَّ خُروجَهُمْ معه كان مفسدةً ؛ فوجب حمل ذلك العتاب على أنه عليه الصلاة والسلام أذن لهم في الخروج معه " ويؤكد ذلك قوله تعالى : ﴿فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَّن تَخْرُجُواْ مَعِيَ أَبَداً وَلَن تُقَاتِلُواْ مَعِيَ عَدُوّاً﴾ [التوبة : ٨٣] وقوله تعالى : ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ﴾ [الفتح : ١٥] فاندفع السُّؤال على طريق أبي مسلم.

والجوابُ على طريقة غيره ، وهو أن نسلم أنَّ العتاب في قوله : ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ [التوبة : ٤٣] يوجب أنَّهُ عليه الصلاة والسلام أذن لهم في القعود ، فنقولُ : ذلك العتابُ ما كان لأجل أن ذلك القعود كان مفسدة ، بل لأجل أنَّ إذنه عليه الصَّلاة والسَّلام بذلك القعود مفسدة ، وبيانه من وجوه : الأول : أنَّه عليه الصَّلاة والسَّلام أذن قبل إتمام التفحص وإكمال التأمل ، ولهذا قال تعالى ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ [التوبة : ٤٣].

والثاني : أن التقدير أنه عليه الصلاة والسلام ما كان يأذن لهم في القعود ، فهم كانوا يقعدون من تلقاء أنفسهم وكان يصير ذلك القعود علامة على نفاقهم ، وإذا ظهر نفاقهم احترز المسلمون منهم ، ولم يغتَرُّوا بقولهم ، فلمَّا أذن الرَّسولُ في ذلك القعود بقي نفاقهم مخفياً ، وفاتت تلك المصالح.

والثالث : أنَّهم لمَّا استأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم غضب عليهم وقال : ﴿اقْعُدُواْ مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ ثم إنَّهم اغتنموا هذه اللفظة وقالوا : قد أذن لنا ، فقال تعالى : ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ [التوبة : ٤٣] أي : لم ذكرت عندهم هذا اللفظ الذي أمكنهم أن يتوسلوا به إلى غرضهم.

الرابع : أن الذين يقولون إن الاجتهاد غير جائز على الأنبياء عليهم الصَّلاة والسَّلام ، قالوا : إنه إنَّما أذن بمجرد الاجتهاد وذلك غير جائز ؛ لأنهم لمَّا تمكنوا من الوَحْيِ ، وكان

١٠٦

الإقدامُ على الاجتهاد مع التَّمكن من الوحي جارياً مجرى الإقدام على الاجتهاد مع حضور النَّص ، فلمَّا كان هذا غير جائز فكذا ذاك.

ثم قال تعالى : ﴿وَقِيلَ اقْعُدُواْ مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾.

واختلفوا في تأويل هذا القول ، فقيل : هو الشيطان على طريق الوسوسة ، وقيل : قاله بعضهم لبعضٍ.

وقيل : قاله الرسُول – عليه الصلاة والسلام – ، لمَّا أذن لهم في التخلف ، فعاتبه الله.

وقيل : القائل هو الله تعالى ؛ لأنه كره خروجهم ؛ لأجل الإفساد ، فأمرهم بالقعود عن هذا الخروج المخصوص.

ثُمَّ بيَّن ذلك بقوله ﴿لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً﴾ أي : في جيشكم ، وفي جمعكم.

وقيل : " فِي " بمعنى " مع " أي : معكم.

قوله : " إِلاَّ خَبَالاً " جَوَّزُوا فيه أن يكون استثناء متصلاً ، وهو مفرَّغٌ ؛ لأنَّ زاد يتعدى لاثنين.

قال الزمخشري المُسْتَثنى منه غيرُ مذكورٍ ، فالاستثناءُ من أعمِّ العام ، الذي هو الشيء فكان استثناء متصلاً ، فإنَّ " الخبال " بعض أعمِّ العام ، كأنه قيل : " ما زادوكم شيئاً إلا خبالاً " وجوَّزُوا فيه أن يكون منقطعاً ، والمعنى : ما زادوكم قوةً ولا شدةً ، ولكنْ خبالاً.

وهذا يجيءُ على قول من قال : إنَّه لم يكن في عسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم خبال ، كذا قال أبو حيان.

وفيه نظرٌ ؛ لأنه إذا لم يكن في العسكر خبال أصلاً ، فكيف يُسْتثنى شيءٌ لم يكن ولم يتوهَّمْ وجوده ؟ .

وتقدم تفسير " الخبال " في آل عمران.

قال الكلبيُّ : إلاَّ شراً وقال يمان : إلاَّ مكراً ، وقيل : إلاَّ غيّاً ، وقال الضحاك : إلاَّ غَدْراً.

وقرأ ابن أبي عبلة : " ما زادكُمْ إلاَّ خَبَالاً " ، أي : ما زادكم خروجهم.

قوله : ﴿ولأَوْضَعُواْ خِلاَلَكُمْ﴾.

الإيضاعُ : الإسراعُ ، يقال : أوضع البعيرُ ، أي : أسرعَ في سيرِهِ ؛ قال امرؤ القيس : [الوافر] ٢٧٨٧ - أرَانَا مُوضِعِينَ لأمْرِ غَيْبٍ

ونُسْحَرُ بالطَّعامِ وبالشَّرابِ

" (١).

"وتعالى - : ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هؤلاء شَهِيداً﴾ [النساء : ٤١].

قوله : ﴿ثُمَّ لاَ يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ قال الزمخشري : " فإن قلت : ما معنى " ثُمَّ " هذه ؟ قلت : معناه : أنهم يُمْنَعُونَ بعد شهادة الأنبياء عليه السلام بما هو أطمّ منه ، وهو أنهم يمنعون الكلام ، فلا يؤذن لهم في إلقاء معذرة ولا [إدلاء حجة : .

انتهى.

ومفعول الإذن محذوف ، أي : لا يؤذن لهم في الكلام ؛ كما قال - تعالى - : ﴿وَلاَ يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات : ٣٦] أي : في الرُّجوع إلى الدنيا.

وقيل : لا يؤذنُ لهم في الكلام أصلاً ، ﴿وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أي : لا تزال **عتابهم** وهي ما يعتبون عليها ويلامون ؛ يقال : اسْتَعْتَبْتُ فلاناً بمعنى : أعْتَبْتُه ، أي : أزلت عُتْبَاه ، و " اسْتَفْعَل " بمعنى : " أفْعَلَ " غير مستنكرٍ ، قالوا : اسْتدنَيتُ فلاناً وأدْنَيتهُ بمعنًى واحد.

وقيل : السِّين على بابها من الطَّلب ، ومعناه : أنهم لا يسألون أن يرجعوا عما كانوا عليه في الدُّنيا ، فهذا **استعتاب** معناه طلب **عتابهم**.

وقال الزمخشري " ولا هم يسترضون ، أي : لا يقال لهم : أرضوا ربكم ؛ لأن الآخرة ليست بدار عمل ".

وسيأتي لهذا مزيد بيان إن شاء الله - تعالى - في سورة حم السجدة ؛ لأنه أليق لاختلاف القراء فيه.

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . موافق للمطبوع، ص/٢٦٢٧

ثم إنَّه – تعالى – أكَّد هذا الوعيد فقال : ﴿وَإِذَا رَأى الَّذِينَ ظَلَمُواْ الْعَذَابَ﴾ أي : أن هؤلاء المشركين إذا رأوا العذاب ووصلوا إليه ، فعند ذلك ﴿فَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ﴾ ولا يؤخّرون ولا يمهلون ؛ لأن التوبة هناك غير موجودة.
قوله : " فَلا يُخَفَّفُ " هذه الفاء وما حيِّزها جواب " إذَا " ، ولا بدَّ من إضمار مبتدأ قبل هذه الفاء ، أي : فهو لا يخفف ؛ لأن جواب " إذا " متى كان مضارعاً ، لم يحتج إلى فاء سواء كان موجباً ؛ كقوله – تعالى – : ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ﴾ [الحج : ٧٢] أم منفيًّا ؛ نحو : " إذَا جَاءَ زَيْدٌ لا يكرمك ".
قوله تعالى : ﴿وَإِذَا رَأى الَّذِينَ أَشْرَكُواْ شُرَكَآءَهُمْ﴾ وهذا من بقيَّة وعيد المشركين ، وفي الشركاء قولان : الأول : أن الله – تعالى – : يبعث الأصنام فتكذِّب المشركين ، ويشاهدونها في غاية الذُّلِّ والحقارة ، وكل ذلك مما يوجب زيادة الغمِّ والحسرة في قلوبهم.
والثاني : أن المراد بالشركاء : الشَّياطين الذين دعوا الكفَّار إلى الكفر ؛ قاله الحسن – رضي الله عنه – ، وإنَّما ذهب إلى هذا القول ؛ – لأنه – تعالى – حكى عن الشركاء أنَّهم كذَّبوا الكفار ، والأصنام جمادات فلا يصحُّ منهم هذا القول.
وهذا بعيد ؛ لأن الله – تعالى – قادرٌ على خلق الحياة في الأصنام وعلى خلق العقول والنُّطق فيها.
١٣٧
قوله : ﴿وَأَلْقَوْاْ إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ﴾ العامة على فتح السين واللام.
وقرأ أبو عمرو في رواية بسكون اللام ، ومجاهد بضمِّ السين واللام ، وكأنَّه جمع سلام ؛ نحو : قُذال وقُذُل ، والسَّلَمُ واحد ، وقد تقدَّم الكلام عليهما في سورة النساء.
فصل والمعنى : أن المشركين إذا رأوا تلك الشُّركاء ، ﴿قَالُواْ رَبَّنَا هَاؤُلآءِ شُرَكَآؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوْا مِن دُونِكَ﴾ ، وفائدة هذا القول من وجهين : الأول : قال أبو مسلم – رحمه الله – : " مقصود المشركين إحالةُ الذَّنب على الأصنام ؛ ظنًّا منهم أن ذلك ينجيهم من عذاب الله ، أو ينقص من عذابهم ، عند هذا تكذِّبهم تلك الأصنام ".
قال القاضي : " هذا بعيدٌ ؛ لأن الكفار يعلمون علماً ضروريًّا في الآخرة أنَّ العذاب ينزل بهم ، ولا ينفعهم فدية ولا شفاعة ".
والثاني : أن المشركين يقولون هذا الكلام تعجُّباً من حضور تلك الأصنام ، مع أنه لا ذنب لها ، واعترافاً بأنَّهم كانوا مخطئين في عبادتها.
ثم حكى – تعالى – انَّ الأصنام يكذبونهم ، فقال : ﴿فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ ، والمعنى : أنه – تعالى – يخلق الحياة والعقل والنطق في تلك الأصنام فيلقوا إليهم ، أي : يقولون لهم : " إنَّكُم لكَاذِبُونَ ".
فإن قيل : إن المشركين لم يقولوا ، بل أشاروا إلى أَنام ، فقالوا : هؤلاء شركاؤنا الذين كنَّا ندعو من دونك ، وقد كانوا صادقين في كلِّ ذلك ، فكيف قالت الأصنام طإنَّكم لكَاذبُونَ " ؟ .
فالجواب من وجوه : أصحها : أن المراد من قولهم : " هؤلاء شُركاؤنَا " ، أي : أنَّ هؤلاء هم الَّذين كنَّا نقول : إنهم شركاء الله في المعبودية ، فالأصنام كذَّبوهم في إثبات هذه الشركة.
وقيل : المراد : إنَّهم لكاذبون في قولهم : إنَّا نستحقُّ العذاب بدليل قوله – تعالى – ﴿كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾ [مريم

: ٨٢].
ثم قال : ﴿وَأَلْقَوْاْ إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ﴾ قال الكلبي : استسلم العابد والمعبود ، وأقرُّوا لله بالرُّبوبية وبالبراءة عن الشركاء والأنداد.
١٣٨
." (١)
"ثم قال : ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ﴾.
واعلم أنه تعالى وصف نفسه بكونه غافراً وغفَّاراً ، وبأن له غفراناً ومغفرةَ ، وعبر عنه بلفظ الماضي والمستقبل والأمر.
أما كون وصفه غافراً فقوله : وأما كونه غَفُوراً فقوله : ﴿وَرَبُّكَ ا﴾ [الكهف : ٥٨] (وأما كونه غفَّاراً فقوله : ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ) لِّمَن تَابَ وَآمَنَ﴾ [طه : ٨٢] وأما الغفران فقوله : ﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا﴾ [البقرة : ٢٨٥].
وأما المغفرة فقوله : ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ﴾ [الرعد : ٦].
وأما صيغة الماضي فقوله في حق داود : ﴿فَغَفَرْنَا لَهُ﴾ [ص : ٢٥].
وأما صيغة المستقبل فقوله : ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ النساء : [٤٨ ، ١١٦] وقوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً﴾ [الزمر : ١٣] وقوله : ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ﴾ [الفتح : ٢] وأما لفظ الاستغفار فـقوله : ﴿اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ﴾ [هود : ٣ ، ٥٢ ، ٩٠ ، نوح : ١٠] ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُواْ﴾ وهاهنا نكتة وهي أنَّ العبد له أسماء ثلاثة : الظالم ، والظَّلوم ، والظَّلاَّم إذا كثر منه الظلم ، ولله في مقابلة كل واحد من هذه الأسماء اسماً فكأنه تعالى قال : إن كنتَ ظالماً فأنا غافرٌ ، وإن كنت ظلوماً فأنا غَفوٌ ، وإن كنت ظلاَّماً فانَا غَفَّارٌ.
قال ابن عباس : " مَنْ تَابَ " عن الشرك " وَآمَنَ " وَحَّدَ الله وصدّقه " وَعَمِلَ صَالِحاً " أدَّى الفرائض " ثُمَّ اهْتَدَى " علم أنَّ ذلك توفيق من الله عز وجل.
وقال قتادة وسفيان
٣٤٥
الثوري : لزم الإسلام حتى مات عليه.
وقال الشعبي ومقاتل والكلبي : علم أنَّ لذلك ثواباً.
وقال زيد بن أسلم : تعلَّم العلم لتهتدي كيف يعمل.
وقال سعيد بن جبير : أقام على السنة والجماعة.
فصل قال بعضهم : تجبُ التوبةُ عن الكفر أولاً ثم الإتيان ثانياً ، لهذه الآية ، فإنه قدم التوبة على الإيمان.
ودلَّت هذه الآية أيضاً على أن العمل الصالح غيرُ داخلٍ في الإيمان ، لأنه تعالى عطف العمل الصالح على الإيمان ، والمعطوف عليه.

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل ـ موافق للمطبوع، ص/٣٢٤٤

جزء : ١٣ رقم الصفحة : ٣٤١

قوله : " وَمَا أَعْجَلَكَ " مبتدأ وخبر.

و " مَا " استفهامية عن سبب التقدم على قومه.

قال الزمخشري : فإن قلتَ : " مَا أَعْجَلَكَ " سؤال عن سبب العجلة ، فكان الذي ينطبق عليه من الجواب أن يقال : طلبُ زيادة رضَاكَ ، أو الشوق إلى كلامك وتنجز موعدك.

وقوله : ﴿هُمْ أُوْلا اءِ عَلَى أَثَرِي﴾ كَمَا تَرَى غير منطبق عليه.

قلت : قد تضمَّن ما واجهه به رب العزة شيئين : أحدهما : إنكار العجلة في نفسها.

والثاني : السؤال عن سبب التقدم والحامل عليه ، فكان أهم الأمرين إلى موسى بسط العذر ، وتمهيد العلة في نفس ما أنكر عليه فاعتلَّ بأنَّه لم يوجد منِّي إلا تقدمٌ يسير مثله لا يعتد به في العادة ولا يحتفل به ، وليس بيني وبين من سبقته إلا

٣٤٦

مسافة قريبة يتقدم بمثلها الوفد رأسهم ومقدمتهم ، ثم عقبه بجواب السؤال عن السبب فقال : ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى ﴾.

وأجاب غيره عن هذا السؤال بأنه - عليه السلام - ورد عليه من هيبة **عتاب** الله ما أذهله عن الجواب المنطبق المرتب على حدود الكلام.

فصل في الآية سؤالات : الأول : قوله : " وَمَا أَعْجَلَكَ " استفهام ، وهو على الله تعالى محال.

والجواب : أنه إنكار في صيغة الاستفهام ولا امتناع فيه.

الثاني : أنَّ موسى - عليه السلام - إما أن يقال : إنَّه كان ممنوعاً عن ذلك التقدم ، أو لم يكن ممنوعاً عنه ، فإن كان ممنوعاً كان ذلك التقدم معصية فيلزم وقوع المعصية من الأنبياء ، وإن لم يَكُنْ ممنوعاً كان ذلك الإنكار غير جائز.

والجواب : لعله - عليه السلام - ما وجد نصًّا في ذلك إلا أنَّه باجتهاده تقدم فأخطأ في ذلك الاجتهاد فاستوجب **العتاب**.

الثالث : قوله : " وَعَجِلْتُ " والعجلة مذمومة.

والجواب : أنها ممدوحة في الدين قال الله تعالى : ﴿وَسَارِعُوا اْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ﴾ [آل عمران : ١٣٣].

الرابع : قوله : " لِتَرْضَى " يدل على أنَّه - عليه السلام - إنَّما فعل ذلك ليحصل الرِّضا لله تعالى ، وذلك باطل من وجهين : أحدهما : يلزم تجدد صفة الله.

والآخر : أنه - تعالى - قبل حصول ذلك الرضا يجب أن يقال : (إنَّه ما) كان راضياً عن موسى ، لأنَّ تحصيل الحاصل محال ، ولما لَمْ يكن راضياً عنه وجب أن

٣٤٧

". (١)

"قلنا : لأن القرآن لم يكن مستقراً على حالة واحدة في زمان حياته ، لأنه كان تأتيه الآيات فيلحقها بالسور ، فلم تكن تأدية تلك السورة بدون الزيادة سبباً لزوال اللبس.

وثانيهما : لو كان كذلك لاستحق **العتاب** على فعل الغير ، وذلك لا يليق بالحكيم.

الوجه الرابع : أن المتكلم بهذا هو الرسول – عليه السلام – ثم هذا يحتمل ثلاثة أوجه : إما أن يكون قال هذه الكلمة سهواً أو قسراً أو اختياراً.

فإن قالها سهواً كما يروى عن قتادة ومقاتل أنهما قالا : إنه عليه السلام كان يصلي عند المقام فنعس وجرى على لسانه هاتان الكلمتان ، فلما فرغ من السورة سجد وسجد كل من في المسجد ، وفرح المشركون بما سمعوا ، وأتاه جبريل واستقرأه فلما انتهى إلى الغرانيق قال : لم آتِكَ بهذا ، فحزن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إلى أن أنزلت هذه الآية.

وهذا ضعيف لوجوه : أحدها : أنه لو جاز هذا السهو لجاز في سائر المواضع ، وحينئذ تزول الثقة عن الشرع.

وثانيها : أن الساهي لا يجوز أن يقع منه مثل هذه الألفاظ المطابقة لوزن السورة ، وطريقتها ومعناها ، فإنا نعلم بالضرورة أن واحداً لو أنشد قصيدة لما جاز أن يسهو حتى يتفق منه بيت شعر في وزنها ومعناها وطريقتها.

وثالثها : هب أنه تكلم بذلك سهواً فكيف لا يتنبه لذلك حين قرأها على جبريل وذلك ظاهر.

وأما إن تكلم بذلك قَسْراً ، كما قال قوم إن الشيطان أجبر النبي على التكلم به وهذا أيضاً فاسد لوجوه : أحدها : أن الشيطان لو قدر على ذلك في حق النبي لكان اقتداره علينا أكثر ، فوجب أن يزيل الشيطان الناس عن الدين ، ولجاز في أكثر ما يتكلم به أحدنا أن يكون ذلك بإجبار الشيطان.

وثانيها : أن الشيطان لو قدر على هذا الإجبار لارتفع الأمان عن الوحي لقيام هذا الاحتمال.

وثالثها : أنه باطل لقوله تعالى حاكياً عن الشيطان ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ [إبراهيم : ٢٢] ، وقوله تعالى : ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ﴾ [النحل : ٩٩]

١٢١

وقال : ﴿إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر : ٤٠] ولا شك أنه – عليه السلام – كان سيد المرسلين.

وأما إن كان تكلمه بذلك اختياراً وهاهنا وجهان : أحدهما : أن يقول إن هذه الكلمة باطلة.

والثاني : أن يقول إنها ليست كلمة باطلة.

أما على الأول فذكروا فيه طريقتين : الأول : قال ابن عباس في رواية عطاء : إن شيطاناً يقال له الأبيض أتاه على صورة جبريل وألقى عليه هذه الكلمة فقرأها فلما سمع المشركون ذلك أعجبهم ، فجاءه جبريل فاستعرضه ، فقرأ السورة ، فلما

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . موافق للمطبوع، ص/٣٥٩٢

بلغ إلى تلك الكلمة.
قال جبريل : أنا ما جئتك بهذا ، فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – " أَتَانِي آتٍ عَلَى صُورَتِكَ فَأَلْقَاهُ عَلَى لِسَانِي " .
الطريق الثاني : قال بعض الجهال : إنه – عليه السلام – لشدة حرصه على إيمان القوم أدخل هذه الكلمة من عند نفسه ، ثم رجع عنها.
وهذان القولان لا يرغب فيهما مسلم ألبتة ، لأن الأول يقتضي أنه – عليه السلام – ما كان يميز بين الملك المعصوم والشيطان الخبيث.
والثاني يقتضي أنه كان خائناً في الوحي ، وكل واحد منهما خروج عن الدين.
وأما الوجه الثاني وهو أن هذه الكلمة ليست باطلة فهاهنا أيضاً طرق : الأول : أن يقال : الغرانيق هم الملائكة ، وقد كان ذلك قرآناً منزلاً في وصف الملائكة ، فلما توهم المشركون أنه يريد آلهتهم نسخ الله ذلك.
الثاني : أن يقال : المراد منه الاستفهام على سبيل الإنكار ، فكأنه قال : أشفاعتهن ترتجى ؟ الثالث : أن يقال : ذكر تعالى الإثبات وأراد النفي كقوله ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ﴾ [النساء : ١٧٦] أي : لا تضلوا ، كما قد يذكر النفي ويريد به الإثبات كقوله : ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً﴾ [الأنعام : ١٥١] والمعنى أن تشركوا.
وهذان الوجهان الأخيران يعترض عليهما بأنه لو جاز ذلك بناء على هذا التأويل فلم لا يجوز أن يظهروا كلمة الكفر في جملة القرآن ، أو في الصلاة بناء على هذا التأويل ، ولكن الأصل في الدين
١٢٢
" (١).

"أصابها فلها المهر بما استحلَّ من فرجها ، فإن اشتجروا فالسلطان وليُّ (من لا وليّ له).
قوله : ﴿إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ الأصح أن هذا ليس وعداً بإغناء من يتزوج ، بل المعنى : لا تنظروا إلى فقر من يخطب إليكم ، أو فقر من تريدون تزويجها ، ففي فضل الله ما يغنيهم ، والمال غادٍ ورائح ، وليس في الفقر ما يمنع من الرغبة في النكاح ، فهذا معنى صحيح ، وليس فيه أن الكلام قصد به وعد الغنى حتى لا يجوز أن يقع فيه خلف.
وروي عن قدماء الصحابة ما يدلّ على أن ذلك وعد ، فروي عن أبي بكر قال : " أطيعُوا اللَّهَ فيما أمركُم به من النكاح ينجز لكم ما وَعَدكُم من الغِنَى ".
وعن عمر وابن عباس مثله.
وشكى رجل إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – الحاجة ، فقال : " عليك بالباءة " ، ويزيد الله في مروءتكم.
فإن قيل : فنحن نرى من كان غنياً فتزوج فيصير فقيراً ؟ فالجواب من وجوه : أحدها : أن هذا الوعد مشروط بالمشيئة

(١) تفسير اللباب لابن عادل . موافق للمطبوع، ص/٣٧٣٢

في قوله : ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَآءَ﴾ [التوبة : ٢٨] والمطلق يحمل على المقيد.
وثانيها : أن اللفظ وإن كان عامّاً إلا أنه يخصّ بعض المذكورين دون البعض ، وهو في الأيامى الأحرار الذين يملكون فيستغنون بما يملكون.
وثالثها : المراد بالغنى : العفاف ، فيكون الغنى هنا معناه : الاستغناء بالنكاح عن الوقوع في الزنا.
فصل استدل بعضهم بهذه الآية على أن العبد والأمة يملكان ، لأن ذلك راجع إلى كل من تقدم ، فاقتضى أن العبد قد يكون فقيراً وغنياً ، وذلك دل على الملك ، فثبت أنهما يملكان.
والمفسرون تأولوه على الأحرار خاصة ، فقالوا : هو راجع إلى الأيامى ، وإن فسرنا الغنى بالعفاف سقط استدلالهم.
٣٦٨
وقوله : ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ أي يوسع عليهم من أفضاله ، " عَلِيمٌ " بمقادير ما يصلحهم من الإفضال والرزق.
جزء : ١٤ رقم الصفحة : ٣٦٣
قوله : ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ نِكَاحاً﴾ الآية.
لما ذكر تزويج الحرائر والإماء ذكر حال من يعجز عن ذلك فقال : " وَلْيَسْتَعْفِفِ " أي : وليجتهد في العفة ، كأن المستعفف طالب من نفسه العفاف.
وقوله : ﴿لاَ يَجِدُونَ نِكَاحاً﴾ أي : لا يتمكنون من الوصول إليه ، يقال : لا يجد المرء الشيء إذا لم يتمكن منه ، قال تعالى : ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ﴾ [النساء : ٩٢] ويقال : هو غير واجد للماء ، وإن كان موجوداً ، إذا لم يمكنه أن يشتريه.
ويجوز أن يراد بالنكاح : ما ينكح به من المال ، فبين تعالى أن من لا يتمكن من ذلك فليطلب التعفف ولينتظر أن يغنيه الله من فضله ثم يصل إلى بغيته من النكاح.
فإن قيل : أفليس ملك اليمين يقوم مقام نفس النكاح ؟ قلنا : لكن من لم يجد المهر والنفقة فبأن لا يجد ثمن الجارية أولى.
قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ...
﴾ الآية لما بعث السيد على تزويج الصالحين من العبيد والإماء مع الرق رغبهم في أن يكاتبوهم إذا طلبوا ذلك ليصيروا أحراراً فيتصرفون في أنفسهم كالأحرار ، فقال : ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ﴾.
يجوز في الذين الرفع على الابتداء ، والخبر الجملة المقترنة بالفاء لما تضمنه المبتدأ من معنى الشرط.
ويجوز نصبه بفعل مقدر على الاشتغال ، كقولك : " زيداً فاضربه " وهو أرجح لمكان الأمر.
والكتاب والكتابة **كالعتاب والعتابة** ، وفي اشتقاق لفظ الكتابة وجوه :
٣٦٩
أحدها : أن أصل الكلمة من الكتب ، وهو الضم والجمع ، ومنه سميت الكتابة لأنها تضم النجوم بعضها إلى بعض ،

وتضم ماله إلى ماله.

وثانيها : مأخوذ من الكتاب ، ومعناه : كتبت لك على نفسي (أن تعتق إذا وفيت بمالي وكتبت لي على نفسي) أن تفي لي بذلك ، أو كتبت عليك الوفاء بالمال ، وكتبت عليَّ العتق ، قاله الأزهري.

وثالثها : سمي بذلك لما يقع فيه من التأجيل بالمال المعقود عليه ، لأنه لا يجوز أن يقع على مال هو في يد العبد حين يكاتب ، لأن ذلك مال لسيده اكتسبه في حال ما كانت يد السيد غير مقبوضة عن كسبه ، فلا يجوز لهذا المعنى أن يقع هذا العقد حالاً ، بل يقع مؤجلاً ، ليكون متمكناً من الاكتساب.

ثم من آداب الشريعة أن يكتب على من عليه المال المؤجل كتاب ، فلهذا المعنى سمي هذا العقد كتاباً لما فيه من الأجل ، قال تعالى : ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد : ٢٨].

فصل قال بعض العلماء : الكتابة أن يقول لمملوكه : كاتبتك على كذا ، ويسمي مالاً معلوماً ، يؤديه في نجمين أو أكثر ، ويبين عدد النجوم ، وما يؤدي في كل نجم ، ويقول : إذا أديت ذلك المال فأنت حر ، أو ينوي ذلك بقلبه ، ويقول العبد : قبلت.

فإذا لم يقل بلسانه ، أو لم ينو بقلبه : إذا أديت ذلك فأنت حر ، لم يعتق.

وقال مالك وأبو حنيفة وأصحابه : لا حاجة إلى ذلك ، لأن قوله تعالى : " فَكَاتِبُوهُمْ " ليس فيه شرط ، فتصح الكتابة بدون هذا الشرط ، وإذا صحت الكتابة وجب أن يعتق بالأداء للإجماع.

واحتج الأولون بأن الكتابة ليست عقد معاوضة

٣٧٠

" (١).

"قوله : ﴿مَنْ هُوَ أَشَدُّ﴾ من موصولة أو نكرة موصوفة وهو في موضع المفعول بـ " أهلك " ، و " مِنْ قَبْلِهِ " متعلق به ، و " مِنَ الْقُرُونِ " يجوز فيه ذلك ويجوز أن يكون حالاً من ﴿مَنْ هُوَ أَشَدُّ﴾.

قوله : " وَلاَ يُسْأَلُ " هذه قراءة العامة على البناء للمفعول وبالياء من تحت ، ورفع الفعل ، وقرأ ابو جعفر " وَلاَ تُسْأَل " بالتاء من فوق والجزم وابن سيرين وأبو العالية كذلك إلا أنه مبني للفاعل وهو المخاطب ، قال ابن أبي إسحاق : لا يجوز ذلك حتى ينصب " المُجْرِمِين " ، قال صاحب اللوامح : هذا هو الظاهر إلاَّ أنَّه لم يبلغني فيه شيء ، فإن تركها مرفوعاً فيحتمل وجهين : أحدهما : أن يكون " المُجْرِمُونَ " خبر مبتدأ محذوف أي هم المجرمون.

الثاني : أن يكون بدلاً من أصل الهاء والميم في " ذُنُوبِهِمْ " لأنهما مرفوعاً المحل ، يعني أن " ذُنُوباً " مصدر مضاف لفاعله ، قال فحمل المجرمون على الأصل كما تقدم في قراءة ﴿مَثَلاً مَّا بَعُوضَةٍ﴾ بجر بعوضة ، وكان قد خرجها على أن الأصل : يضرب مثل بعوضةٍ ، وهذا تعسف كثير فلا ينبغي أن يقرأ ابن سيرين وأبو العالية إلا " المُجْرِمِينَ " بالياء فقط وإنما ترك نقلها لظهوره.

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . موافق للمطبوع، ص/٣٨٢٦

قوله : ﴿وَلاَ يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ قال قتادة : يدخلون النار بغير حساب ولا سؤال ، وقال مجاهد يعني لا تسأل الملائكة عنهم ، لأنهم يعرفونهم بسيماهم ، وقال الحسن : لا يسألون سؤال استعلام وإنما يسألون سؤال تقريع وتوبيخ ، وقيل : إن المراد أن الله تعالى إذا عاقب المجرمين فلا حاجة به إلى أن يسألهم عن كيفية ذنوبهم وكنيتها ، لأن الله تعالى عالم بكل المعلومات فلا حاجة إلى لاسؤال ، فإن قيل : كيف الجمع بينه وبين قوله : ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُواْ

٢٩٣

يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر : ٩٢ ، ٩٣] فالجواب : يحمل ذلك على وقتين كما قررناه.

وقال أبو مسلم : السؤال قد يكون للمحاسبة ، وقد يكون للتقريع والتوبيخ ، وقد يكون **للاستعتاب** ، وأليق الوجوه بهذه الآية **الاستعتاب** لقوله ﴿ثُمَّ لاَ يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [النحل : ٨٤] ﴿هَذَا يَوْمُ لاَ يَنطِقُونَ وَلاَ يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات : ٣٥ ، ٣٦].

قوله : " فِي زِينَتِهِ " إما متعلق بـ " خَرَجَ " ، وإما بمحذوف على أنه حال من فاعل خرج.

جزء : ١٥ رقم الصفحة : ٢٨٦

دلت الآية على أنه خرج بأظهر زينة وأكملها ، وليس في القرآن إلا هذا القدر والناس ذكروا وجوهاً مختلفة ، والأولى ترك هذه التقديرات لأنها متعارضة ، ثم إن الناس لمَّا رأوه على تلك الزينة قال من كان منهم يرغب في الدنيا : ﴿يا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ من الحال ، وهؤلاء الراغبون يحتمل أن يكونوا من الكفار ، وأن يكونوا من المسلمين الذين يحبُّون الدنيا ، فأمّا الذين أوتوا العلم - وهم أهل الدين - قال ابن عباس : يعني الأحبار من بني إسرائيل ، وقال مقاتل : أوتوا العلم بما وعد الله في الآخرة.

فقالوا للذين تمنوا : ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ﴾ من هذه النعم ، أي : ما عند الله من الجزاء والثواب ﴿خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ﴾ وصدَّق بتوحيد الله وعمل صالحاً ، لأن للثواب منافع عظيمة خالصة عن شوائب المضار دائمة ، وهذه النِّعم على الضد في هذه الصفات.

قوله : " وَيْلَكُمْ " : منصوب بمحذوف ، أي : " أَلْزَمَكُمْ اللَّهُ وَيْلَكُمْ " ، قال الزمخشري : ويلك أصله الدعاء بالهلاك ، ثم استعمل في الزجر والرَّدع والبعث على ترك ما يضر.

قوله : " وَلاَ يُلَقَّاهَا " أي : هذه الخصلة وهي الزهد في الدنيا والرغبة فيما عند الله.

وقيل : الضمير يعود إلى ما دل عليه قوله : ﴿آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً﴾ يعني هذه الأعمال لا يؤتاها إلا الصَّابرون (وقال الزجاج : ولا يُلَقَّى هذه الكلمة وهي قولهم : ﴿ثَوَابُ اللَّهِ

٢٩٤

". (١)

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . موافق للمطبوع، ص/٤٠٢٢

"لأن كل أحد يعلم ذلك ، وإنما متعلَّقَهُ مقدر من جنس ما يدل عليه السياق أي لو كانوا يعلمون أن هذا مثلهم.
قوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ﴾ ، قرأ أبو عمرو وعاصم " يَدْعُون " بياء الغيبة ، والباقون بالخطاب.
و " ما " يجوز أن تكون موصولة منصوبة بـ " يَعْلَمُ " أي يعلم الذين يدعونهم ويعلم أحوالهم ، و " من شيء " مصدر ، وأن تكون استفهامية ، ويحينئذ يجوز فيها وجهان أن تكون هي وما عملت فيها معترضاً بين قوله : " يَعْلَمُ " وبين قوله : ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ كأنه قيل : أَيُّ شيءٍ تدعون من دون الله.
والثاني : ان تكون متعلقة " لِيَعْلَمَ " فتكون في موضع نصب بها ، وإليه ذهب الفارسي وأن تكون نافية و " مِنْ " في " مِنْ شَيْءٍ " مزيدة في المفعول به كأنه قيل : ما تدعون من دون الله ما يستحق أن يطلق عليه شيء.
قال الزمخشري : هذا زيادة توكيد على التمثيل حيث إنهم لا يدعون من دونه من شيء يعني ما يدعون ليس بشيء ، وهو عزيز حكيم ، فكيف يجوز للعاقل أن يترك القادر الحكيم ويشتغل بعبادة ما ليس بشيء أصلاً وهذا يفهم منه أنه جعل " ما " نافية ، والوجه فيه حينئذ أن تكون الجملة معترضة كالأول من وجهي الاستفهامية ، وأن تكون مصدرية ، قال أبو البقاء : و " شيء " مصدر ، وفي هذا نظر ، إذ يصير التقدير يعلم دعاءكم في شيء من الدعاء.
قوله : ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾ يجوز أن يكون " نضربها " خبر " تلك الأمثال " و " الأمثال " نعت أو بدل ، أو عطف بيان ، وأن يكون " الأمثال " خبراً ، و " نضربها " حال ، وأن يكون خبراً ثانياً.
٣٥٧
فصل وتلك الأمثال : الأشباه ، والمَثَل : كلام سائغ يتضمن تشبيه الآخر بالأول ، يريد امثال القرآن التي شبه بها أحوال الكفار هذه الأمة بأحوال كفار الأمم المتقدمة " نضربها " تَنْبِيهاً للناس ، قال مقاتل : لكفار مكة ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلاَّ الْعَالِمُونَ﴾ أي ما يعقل الأَمْثَالَ إلا العلماءُ الذين يعقلون عن الله.
روى جابر " أن النبي - صلى الله عليه وسلم - تلا هذه الآية ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون﴾ قال : " العالم من عقل عن الله فعمل بطاعته ، واجتنب سَخَطَهُ " فصل روي أن الكفار قالوا : كيف يضرب خالقُ الأرض والسموات الأمثال بالهوامُ والحشرات كالبعوض والذباب والعنكبوت ، فقيل : الأمثال تضربها للناس إذْ لم يَكونوا كالأنعام يحصل لكم منه إدراك ما يوجب نُفْرَتَكُمْ مما أنتم فيه لأن التشبيه يؤثر في النفس تأثيراً مثل تأثير الدليل ، فإذا قال الحكيم لمن يغتاب (بالغيبة) كأنك تأكل لحم ميت لأنك وقعت في هذا الرجل الغائب وهو غائب لا يفهم ما تقول ولا يسمع حتى يجيبك كمن يقع في ميت يأكل كما ينفر إذا قال له : إنك توجب العقاب ويورث **العتاب**.
جزء : ١٥ رقم الصفحة : ٣٥٦
قوله تعالى : ﴿خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ بالحق وإظهار الحق ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ إن في خلقها " لآيَة لِلْمُؤْمِنِينَ " على قدرته وتوحيده ، فإن قال قائل كيف خص

٣٥٨
" (١).

"على كل الممكنات فكان قادراً على أن يقهر المسلمين بالكفار مع أنهم ضعفاء كما قهر الكافين بالمؤمنين مع قوتهم وشوكتهم.
قوله : " إِذْ جَاءَتْكُمْ " يجوز أن يكون منصوباً " بنعمة " أي النعمة الواقعة في ذلك الوقت ، ويجوز أن يكون منصوباً باذْكُرُوا على أن يكون بدلاً من " نعمة " بدل اشتمال ، والمراد بالجنون الأحزاب وهم قريش وغَطفَان ، ويهود قُرَيْظَةَ والنَّضِير ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً﴾ وهي الصَّبَا ، قال عكرمة : قالت الجنوب للشمال ليلة الأحزاب : انطلق بنصر رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقالت الشمالُ إن الحرَّة لا تَسْرِي بالليل فكانت الريح التي أرسلت عليهم الصبا وروى مجاهد عن ابن عباس عن النبي – صلى الله عليه وسلم – " قال : " نُصِرتُ بالصَّبَا وأهلكَتْ عَادٌ بالدَّبورِ " قوله : ﴿وَجُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا﴾ قرأ الحسن بفتح الجيم ، والعامة بضمها ، و " جُنوداً " عطفاً على " ريحاً " و " لَمْ تروها " صفة لهم ، وروي عن أبي عمرو ، وأبي بكر " لم يَرَوْهَا " بياء الغيبة ، وهم الملائكة ولم تقاتل الملائكة يومئذ فبعث الله عليهم تلك اليلة ريحاً باردة فقلعت الأوتاد وقطعت أطنا الفَسَاطِيطِ وأطفأت النيرانَ وأَكْفَأت القُدُورَ ، وجالت الخيل بعضها في بعض وكثر تكبير الملائكة في جوانب عسكرهم حتى كان سيد كل حي يقول : يا بني فلان هَلُمَّ إليَّ فإذا اجتمعوا عنده قال : النَّجَا النَّجَا أتيتم لما بعث الله عليهم من الرعب فانهزموا من غير قتال.
﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً﴾ وهذا إشارة إلى أنه الله علم التجاءكم إليه وجاءكم فضله فنصركم على الأعداء عند الاستعداد والقصة مشهورة.
قوله : " إِذْ جَاؤُوكُمْ " بدل من " إِذْ " الأولى ، والحناجر جمع " حَنْجَرَةٍ " وهي رأس الغَلْصَمَةِ والغَلْصَمَة منتهى الحُلْقُومِ ، والحلقوم مجرى الطعام والشراب ، وقيل : الحلقوم
٥١٠
مَجْرَى النفس والمريء الطعام والشراب وهو تحت الحلقوم وقال الرَّاغِبُ : رَأْسُ الغَلْصَمَةِ من خارج.
قوله : " الظُّنُونا " قرأ نافع وابن عامر وأبو بكر بإثبات ألف بعد نون " الظُّنُون " ولام الرسول في قوله : ﴿وَأَطَعْنَا الرَّسُولاَ﴾ [الأحزاب : ٦٦] ولام السبيل في قوله : ﴿فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاْ﴾ [الأحزاب : ٦٧] وصلاً وَوَقْفاً موافقة للرسم ؛ لأنهن رسمن في المصحف كذلك وأيضاً فإن هذه الألف تشبه هاء السكت لبيان الحركة ، وهاء السكت تثبت وَقْفاً للحاجة إليها وقد ثبتت وصلاً إجراءً للوصل مُجْرَى الوقف كما تقدم في البقرة والأنعام فكذلك هذه الألف ، وقرأ أبو عمرو وحمزةُ بحذفها في الحالين ؛ لأنها لا أصل لها وقولهم : أجريت الفواصل مُجْرَى القوافي غير معتدٍّ به لأن القوافيَ يلتزم الوقف عليها غاباً ، والفواصل لا يلزم ذلك فيها فلا تُشَبَّهُ بها ، والباقون بإثباتها وقفاً وحذفها وصلاً إجراء للفواصل مُجْرَى القوافي في ثبوت ألف الإطلاق كقوله : ٤٠٦٩ – اسْتَأْثَرَ اللَّهُ بِالوَفَاءِ وَبِالعَدْلِ

(١) تفسير اللباب لابن عادل . موافق للمطبوع، ص/٤٠٥٠

وَوَلَّى المَلاَمَةَ الرَّجُلاَ

جزء : ١٥ رقم الصفحة : ٥٠٩

وقوله : ٤٠٧٠ - أَقِلِّي اللَّوْمَ عَاذِلَ وَالعِتَابَا

وَقُولِي إِنْ أَصَبْتُ لَقَدْ أَصَابَا

ولأنها كهاء السكت وهي تثبت وقفاً وتحذف وصلاً ، قال شهاب الدين : "كذلك يقولون تشبيهاً للفواصل بالقوافي وأنا لا أحب هذه العبارة فإنها منكرة لفظاً ".

ولا خلاف في قوله : ﴿وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ أنه بغير ألف في الحالين.

٥١١

". (١)

"وبهذا يتبين ضعف قول الراغب : إنها من ذَواتِ اليَاء حيث عدها في مادة سيح ، ثم قال : الساحة المكان الواسع ومنه : ساحة الدر.

والسائح الماء الجري في الساحة ،

٣٥٩

وسَاحَ فلانٌ في الأرْض مَرَّ مَرَّ السائح.

ورجل سَائِحٌ وَسيَّاح انتهى.

ويحتمل أنْ يَكْون لها مادَّتَانِ لكن كان ينبغي أن يذكر ما هي الأشهر أو يذكرهما معاً.

قوله تعالى : ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ﴾ يعني العذاب بساحَتِهِمْ ، قال مقاتل : بحَضْرَتِهِمْ وقيل : بعِتابهم.

قال الفراء : العرب تكتفي بذكر الساحة عن القوم ﴿فَسَآءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ﴾ فبئس صَبَاح الكَافرين الذين أُنْذِرُوا بالعذاب. لما خرج - عليه (الصَّلاَةُ و) السلام - إلى خَيْبَرَ أتاها ليلاً ، وكان إذا جَاء قوماً بلَيْلٍ لم يَغْزُ حتى يُصْبحَ فلما أصبح خرجت يهودُ (خَيْبَرَ) بمَسَاحِيها ومَكَاتِلِهَا ، فلما رأوه قالوا : مُحَمَّد واللَّهِ مُحَمَّد والخميس فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اللَّهُ أكبرُ خَرِبَتْ خَيْبَر إنَّا إذا نَزَلْنا بسَاحَةِ قَوْمٍ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ".

قوله : ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ قيل : المراد من هذه الكلمة فيما تقدم أحوال الدنيا وفي هذه الكلمة أحوال القيامة وعلى التقديرين فالتكرير زائل ، وقيل : المراد من التكرير المبالغة في التَّهديد والتَّهْويل.

فإن قيل : ما الحكمة في قوله أولاً : " وَأَبْصِرهُمْ " وههنا قال : " وَأَبْصِرْ " بغير ضمير ؟ فالجواب أنه حذف مفعول " أبصر " الثاني إمَّا اختصاراً لدلالة الأولى عليه وما اقتصار تفنُّناً في البلاغة ثمَّ إنَّهُ تعالى ختم السورة بتنزيه نفسه عن كل ما لا يليق بصفات الإلهيّة فقال : ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ﴾ أي الغلبة والقوة ، أضاف الربَّ إلى العزة لاختصاصه بها كأنه قيل : ذُو العِزَّة ، كما تقول : صاحب صدق لاختصاصه به.

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . موافق للمطبوع، ص/٤١١٤

وقيل : المراد بالعزة المخلوقة الكائنة بيْن خلقه.
ويترتب على القولين مسألة اليمين.
فصل قوله : ﴿رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ﴾ الربوبية إشارة إلى كمال الحكمة والرحكمة والعزة إشارة إلى كمال القدرة ، فقوله : " رب العزة " يدل على أنه القادر على جميع الحوادث ، لأن الألف
٣٦٠
واللام في قوله : " العزة " يفيد الاستغراق وإذا كان الكل ملكاً له لم يبق لغيره شيء فثبت أن قوله : ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ كلمة محتوية على أقصى الدرجات وأكمل النهايات " وَسَلاَمٌ عَلَى المُرْسَلِينَ " ، الذين بلغوا عن الله التوحيد بالشرائع " وَالحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ " على هلك الأعداد ونصر الأنبياء – عليه (الصلاة و) السلام – .
رُوِي عن عليّ – رضي الله عنه – قال " مَنْ أَحَبَّ أنْ يَكْتَالَ بِالمِكْيَالِ الأَوْفَى مِنَ الأَجْرِ فَلْيَكُنْ آخِرَ كَلاَمِهِ مِنْ مَجْلِسِهِ : سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ العِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وسَلامٌ على المُرْسَلينَ والحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ ورَوَى أبو أمامة عن أبيّ بن كعب قال : " قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – من قرأ سورة " والصافات " أُعْطِيَ مِنَ الأَجْرِ عَشْرَ حَسَنَاتٍ بِعَدَدِ كُلِّ جِنِّيٍّ وَشَيْطَانٍ وَتَبَاعَدَتْ مِنْهُ مَرَدَةُ الشياطين وَبرِئَ مِنَ الشِّرْكِ وشَهِدَ لَهُ حَافِظَاهُ يَوْمَ القِيَامَةِ أنَّه كَانَ مُؤْمِناً ".
والله سبحانه وتعالى أعلم.
٣٦١
جزء : ١٦ رقم الصفحة : ٣٥٨." (١)
"والثاني : أن يكون " ظَنُّكُمْ " بدلاً ، والموصول خبره ، و " أَرْدَاكُمْ " حال أيضاً.
الثالث : أن يكون الموصول خبراً ثانياً.
الرابع : أن يكون " ظنكم " بدلاً أو بياناً ، والموصول هو الخبر ، و " أرْدَاكُمْ " خبر ثاني.
الخامس : أن يكون ظنكم والموصول والجملة من " أرْداكم " أخباراً إلا أن أبا حيان ردَّ على الزمخشري قوله : " وَظَنُّكُمْ وَأَرْدَاكُمْ " خبران قال : لأن قوله " وَذلِكُمْ " إشارة إلى ظنهم السابق فيصير التقدير : وظنكم بربكم أنه لا يعلم ظنكم بربكم فاستفيد من الخبر ما استفيد من المبتدأ وهو لا يجوز وهذا نظير ما منعه النحاة من قولك : سَيِّد الجارية مالكها.
وقد منع ابن عطية كون " أَرْدَاكُمْ " حالاً ، لعدم وجود " قد ".
وتقدَّمم الخلاف في ذللك.
فصل قال المفسرون : وذلك ظنكم الذي ظننتم بربكم أي ظنكم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون أرادكم أهلككم.
قال ا بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ : طرحكم ف يالنار ﴿فأصبحتم من الخاسرين﴾ وهنذا نص صريح في أن من ظن أنه يخرج شيء من المعلومات عن علم الله فإنه يكون من الهالكين الخاسرين.
قال المحققون : الظن قسمان : أحدهما : حسن ، والآخر : فاسد.

(١) تفسير اللباب لابن عادل ـ موافق للمطبوع، ص/٤٢٩٨

فالحسن أن يظن بالله عز وجل الرحمة والفضل والإحسان ، قال عليه الصلاة والسلام حكايةً عن الله عز وجل : " أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بي " وقال عليه الصلاة والسلام : " لاَ يمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إلاَّ وهُوَ حَسَنُ الظَّنِّ بالله ".

والظن القبيح أن يظن أنه تعالى أنه يعرب عن علمه بعض الأحوال.

وقال قتادة :

١٢٩

والظن نوعان : مُنْجِي ومُرْدِي فالمنجي قوله : ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلاَقٍ حِسَابِيَهْ﴾ [الحاقة : ٢] وقوله : ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُو رَبِّهِمْ﴾ [البقرة : ٤٦] والمردي هو قوله ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ﴾.

جزء : ١٧ رقم الصفحة : ١٢٦

قوله تعالى : ﴿فَإِن يَصْبِرُواْ فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ أي سكن لهم ، يعني إن أمسكوا عن الاستغاثة لفرجٍ يتنظرونه لم يجدوا ذلك وتكون النار مثوى لهم أيم مقاماً لهم.

قوله : ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ العامة على فتح الياء من " يَسْتَعْتِبُوا " وكسر التاء الثانية مبنياً للفاعل ﴿فما هم من المعتبين﴾ بكسر التاء اسم الفاعل ومعناه وإن طلبوا العُتْبَى وهي الرضا فما هم ممن يعطاها.

والمعتب الذي قبل عتابه وأجيب إلى ما سأل ، يقال : أعتبني فلانٌ ، أي أرضاني بعد إسخاطه إيَّاي ، وا ستعتبته طلبتمنه أن يعتب أي يرضى.

وقيل : المعنى وإن طلبوا زوال ما يعتبون فيه فماهم من المجابين إلى إزالة العتب.

وأصل العتب المكان النَّائي بنازله ، ومنه قيل لأسكفَّة الباب والمرقاة : عتبة ، ويعبر بالعتب عن الغلظة التي يجدها الإنسان في صدره على صاحبه ، وعتبت فلاناً أبرزت له الغلظة ، وأعتبته أزلت عبتاه كأشكيته وقيل : حملته على العتب.

وقرأ الحسن وعمرو بن عبيد : وإن يُستعتبوا مبنياً للمفعول فما هم من المُعْتِبِينَ اسم فاعل بمعنى إن يطلب منهم أن يرضوا فما هم فاعلون ذلك ، لأنهم فارقوا دار التكليف ، وقيل : معناه أن يطلب ما لا يعتبون عليه فما هم ممَّن يريد العُتْبَى وقال أبو ذؤيب : ٤٣٦٣. أَمِنَ المَنُونِ وَرَيْبِهِ تَتَوَجَّعُ

والدَّهْرُ لَيْسَ بِمُعْتِبٍ مَنْ يَجْزَعُ

١٣٠

قوله : " وَقَيَّضْنَا لَهُمْ " بعثنا لهم وولكنا ، وقال مقاتل : هَيَّأْنَاهُ.

وقال الزجاج : سينالهم وأصل التقييض التيسير والتهيئة ، قضيته للداء هيأته له ويسّرته ، وهذان ثوبان قيّضان أي كل منهما مكافىء للآخرة في الثمن.

والمقايضة المعارضة ، وقوله ﴿نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً﴾ [الزخرف : ٣٦] أي نسهل ونيسر ليستولي عليه استيلاء القَيْض على البَيْض.

والقيض في الأصل قشر البيض الأعلى.

قال الجوهري : ويقال : قايضت الرجل مقايضة أي عاوضته بمتاع ، وهما قيضان كما يقال : بيعان.

وقيَّض الله فلاناً لفلان أي جاء به ومنه قوله تعالى : ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ﴾ و المراد بالقرناء النظراء من الشياطين حتى أضلونهم ﴿فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ من أمر الدنيا حتى أثروه على الآخر " وَمَا خَلْفَهُمْ " من أمر الآخرة فدعوهم إلى التكذيب وإنكار البعث.

وقال الزجاج : زينوا (لهم ماب ين أيديهم من أمر الآخرة أنَّه لا بعث ولا جنة ولا نار ، وما خلفهم من أمر الدنيا وأن الدنيا قديمة ، ولا صانع إلا الطبائع والأفلاك.

وقيل : مابين أيديهم أعمالهم التي يعملونها وما خلفهم ما يعزمون أن يعملوه.

وقال ابن زيد : مابين أيديهم ما مضى من أعمالهم الخبيثة (وما بقي من أعمالهم الخسيسة)).

فصل دلت هذه الآية على أنه تعالى يريد الكفر من الكافر ؛ لأنه تعالى قيَّض لهم قرناء

١٣١

." (١)

"إذا وضع لواحدٍ وعَلاَ عليه لا يكون معناه موجوداً فإن من سمي سَعْداً وسَعِداً قد لا يكون كذلك وكذلك من لُقِّب إمام الدين أو حُسَام الدّين لا يفهم منه أنه كذلك وإنما هو علامة ، وكذلك النَّبز ، فإن من سمي مروان الحمار لم يكن كذلك فكأنه تعالى قالك لا تَتَكَبَّرُوا فَتَسْتَحْقِروا إخوانكم بحيث لا تلتفوا إليهم إصلاً ، وإذا نزلتم عن هذا فلا تَعيبُوهم طالبين حَطَّ درجتهم وإذا تَعِيبُوهم ولم تصفوهم بما يسوؤم فلا تُسَمُّوهم بما يكرهُونه.

فصل قال ابن الخطيب : القَوْمُ اسم يقع على جمع من الرجال ولا يقع على النساء ولا على الأطفال لأنه جمع قائم والقائم بالأمور هو الرجال وعلى هذا ففي إفراد الرجال والنساء فائدة وهي أن عدم الالتفات والاستحقار إنما يصدر في أكثر الأمر من الرجال بالنسبة إلى الرجال ؛ لأن المرأة في نفسها ضعيفة ؛ قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ : " النِّسَاءُ لَحْمٌ على وَضَم " فالمرأة لا يوجد منها استحقار الرجل لأنَّها مضطرة إليه في رفعش حوائِجِها وأما الرجال بالنسبة إلى الرجال والنساء بالنسبة إلى النساء فإنه يوجد فيهم ذلك.

فصل في قوله : ﴿عَسَى أَن يَكُونُواْ خَيْراً مِّنْهُمْ﴾ حكمة وهي أنهم أذا وجد منهم التَّكَبُّر المُفْض] إلى إحباط الأعمال وجعل نفسه خيراً منهم ، كما فعل إبليس حيث لم يلتفت إلى آدم وقال : " أَنَا خَيْرٌ منه " فصار هو خيارٌ منه ، ويحتمل أن يكون المراد بقوله : " يكونوا " أي يصيروا ، فإن من استحقر إنساناً لفقره أو ضَعْفِهِ لا يأم أن يفتقر هو ويستغني الفقير ويضعف هو ويَقْوَى الضعيفُ.

فصل في قوله : ﴿وَلاَ تَلْمِزُوا اا أَنفُسَكُمْ﴾ وجهان : أحدهما : أن عيب الأخ عائد إلى الأخ فإذا أعابه فكأنه أعاب نَفْسَه.

والثاني : أنه إذا عابه وهو لا يخلو من عيب فيعيبه به المعاب فيكون هو بمعيبه حاملاً للغير على عيبه فكأنه هو

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل ـ موافق للمطبوع، ص/٤٤٣٧

العائب نفسه ونظيره قوله تعالى : ﴿وَلاَ تَقْتُلُوا اْ أَنْفُسَكُمْ﴾ [النساء : ٢٩].
ويحتمل أن يقال : لا تعيبوا أنفسكم أي كل واحد منكم مُعَيَّب فإنكم إن فعلتم فقد
٥٤٧
عبتم أنفسكم أي كل واحد عاب واحد فصِرْتُمْ عائِبِينَ من وجه مُعيَّبين من وجه.
وهذا ههنا ظاهر ولا كذلك في قوله : " وَلاَ تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ".
فصل قال : " وَلاَ تَنَابَزُوا " وَلَمْ يقُل : ولا تَنْبزُوا لأن الامِزَ إذا لَمَزَ فالمَلْمُوز قد لا يجد فيه في الحال عيباً يَلْمِزُهُ به وإنما يبحث ويتتبّع ليطلع منه على عيب فيوجد اللمز في جانب.
وأما النَّبْزُ فلا يعجز كل أحد عن الإتيَانِ بِنَبْزٍ ، فالظاهر أن النَّبْزَ يُفْظِي في الحال إلى التَّنَابز ، ولا كذلك اللمزُ.
فصل قال المفسرون : اللقب هو أن يدعي الإنسان بغير ما يُسَمَّى به ، وقال عكرمة : هو قول الرجل للرجل يا فاسقُ ، يا منافقُ ، يا كَافرُ.
وقال الحسن : كان اليهودي والنصرانيّ يسلم ، فيقال له بعد إسلامه ، يا يهوديّ يا نصرانيّ فنهوا عن ذلك ، وقال عطاء : هو أن يقول الرجل لأخيه : يا حمارُ يا خنزيرُ.
، وعن ابن عباس (رضي الله عنهما) : التنابز بالألقاب أن يكون الرجلُ عمل السيئات ثم تاب عنها فنهي أن يعيَّر بما سلف من عمل.
قوله : ﴿بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإَيمَانِ﴾ أي بئسَ الاسمُ أن يقول له : يا يَهُودِيُّ يا فاسِقُ بعدما آمَن.
وقيل : معناه من فعل ما نهي عنه من السخرية واللمز والنبز فهو فاسق وبئس الاسم الفسصوق بعد الإيمان فلا تفعلوا ذلك فستحقوا اسم الفسوق.
ثم قال : ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ﴾ أي من ذلك ﴿فَأُوْلَائِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.
قوله تعالى : ﴿ يا أيها الَّذِينَ آمَنُواْ اجْتَنِبُواْ كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ...
﴾ الآية.
قيل : نَزَلَتْ في رَجُلَيْن اعتابا رفيقهما ، " وذلك أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كسان غزا أو سافر ضم الرجل المحتاج إلى رَجُلَيْن مُوسِرَيْن يخدمهما ويقتدم لهما إلى المنزل فيهيّيء لهما طعامَهُمَا وشرابهما فضم سلمان الفارسي إلى رجلين في بعض أسفاره فتقدم سلمانُ الفارسي إلى المنزل فغلبته عيناه فَلَمْ يُهيّيءْ لهما فلما قدما قالا له ما صَنَعْتَ شيئاً ؟ قال : لا غلبتني عَيْنَاي ، قالا له : انطلق إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ واطلب لنا منه طعاماً ، فجاء سلمان إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وسأله طعاماً ، فقال له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : انطلق إلى أسامة بن زيد وقل له : إن كان عند فضلٌ من طعام فَلْيُعْطِكَ ؛ وكان أسامة خازن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعلى رَحْلِه فأتاه فقال ما عندي شيء فرجع سَلْمَانُ إليهما فأخبرهما فقالا : كمان عند أسامةم ولكن بَخِلَ

٥٤٨
" (١).

"ويجوز أن يكون خبر مبتدأ مضمر ، أي : أنتم تسرون.

قاله ابن عطية.

ولا يخرج عن معنى الاستئناف.

وقال أبو البقاء : " هو توكيد لـ " تلقون " بتكرير معناه ".

قال شهاب الدين : " وفيه نظر ، لأن الإلقاء أعم من أن يكون سرّاً وجهراً ".

وتقدم الكلام على الباء في قوله : " بالمودَّة ".

قوله : ﴿وَأَنَاْ أَعْلَمُ﴾.

هذه الجملة حال من فاعل " تُسِرُّونَ " ، أي : وأيُّ طائلٍ لكم في إسراركم ، وقد علمتم أن الإسرار والإعلان سيان في علمي.

و " أَعْلَمُ " ، يجوز أن يكون أفعل تفضيل ، وهو الظاهر ، أي : أنا أعلم من كل أحد بما يخفون ، وما يعلنون.

وأن يكون فعلاً مضارعاً.

قاله ابن عطية ، وعُدِّي بالباء ، لأنك تقول : علمت بكذا ، وعلمت كذا فتكون زائدة.

وقيل : وأنا أعلم من كل أحد كما يقال : فلان أعلم وأفضل من غيره.

١٠

[فإن قيل : لم قدم العلم بالإخفاء على العلم بالإعلان مع أن ذلك مستلزم لهذا من غير عكس ؟ .

فالجواب هذا بالنسبة إلى علمنا ، لا بالنسبة إلى علمه – تعالى – إذ هما سيّان في علمه تعالى ؛ لأن المقصود بيان ما هو الإخفاء ، وهو الكفر ، فيكون مقدماً.

فإن قيل : لم لم يقل : بما أسررتم ، ثم وما أعلنتم ، مع أنه أليق بما سبق في قوله : " تُسِرُّونَ ؟ " فالجواب : أن فيه من المبالغة ما ليس في ذلك ، فإنَّ الإخفاء أبلغ من الإسرار بدليل قوله : ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه : ٧] ، أي : أخفى من السِّر].

فصل في معاتبة حاطب قال القرطبي : وهذا كله معاتبة لحاطب ، وهو يدل على فضله وكرامته ، ونصيحته للرسول صلى الله عليه وسلم وصدق إيمانه ؛ فإن المعاتبة لا تكون إلا من محبٍّ لحبيب ؛ كما قال : [الوافر] ٤٧٦٠ – إِذَا ذَهَبَ **العِتَابُ** فلَيْسَ وُدٌّ

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . م وافق للمطبوع، ص/٤٦١٥

ويَبْقَى الودُّ مَا بَقِي **العِتَابُ**

فصل في المراد بالمودة والمراد بالمودَة في الآية النصيحة.

قال ابن عباس رضي الله عنهما : وأنا أعلم بما أخفيتم في صدوركم ، وما أظهرتم بألسنتكم من الإقرار والتوحيد.

﴿وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ﴾ أي : من يسر إليهم ويكاتبهم ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ السَّبِيلِ﴾ أي : أخطأ طريق الهدى.

قوله : " ومَن يفعلهُ ".

في الضمير وجهان : أظهرهما : أنه يعود على الإسرار ؛ لأنه أقرب مذكور.

والثاني : يعود على الاتِّخاذ.

قاله ابن عطية.

قوله : ﴿سَوَآءَ السَّبِيلِ﴾.

يجوز أن يكون منصوباً على الظرف ، إن قلنا : ضلَّ قاصر.

وأن يكون مفعولاً به ، إن قلنا : هو متعد.

١١

[فإن قيل : ما الفائدة في قوله " مِنكُمْ " ، ومن المعلوم أن من فعل هذا ، فقد ضل سواء السبيل ؟ فالجواب : إن كان المراد من قوله : " مِنْكُمْ " هم المؤمنون فظاهر ، لأن من يفعل ذلك لا يلزم أن يكون مؤمناً].

جزء : ١٩ رقم الصفحة : ٣

قوله : ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ﴾ يلقونكم ويصادفونكم ، ومنه المثاقفة ، أي : طلب مصادفة [الغرة] في المسايفة وشبهها.

وقيل : " يثقفوكم " : يظفروا بكم ويتمكنوا منكم ﴿يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوا اْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّواءِ﴾ أي : بالضَّرب والشَّتم.

قوله : ﴿وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ﴾.

في " ودوا " وجهان : أحدهما : أنه معطوفٌ على جواب الشرط ، وهو قوله : " يَكُونُوا " و " يَبْسطُوا " قاله الزمخشري.

ثم رتب عليه سؤالاً وجواباً ، فقال : " فإن قلت : كيف أورد جواب الشَّرط مضارعه مثله ، ثم قال : " ودوا " بلفظ الماضي ؟ .

قلت : الماضي وإن كان يجري في باب الشرط مجرى المضارع في علم الإعراب فإن فيه نكتة ، كأنه قيل : ودوا قبل كل شيء كفركم وارتدادكم ، يعني أنهم يريدون أن يلحقوا مضار الدنيا والآخرة جميعاً ".

والثاني : أنه معطوف على جملة الشَّرط والجزاء ، ويكون تعالى قد اخبر بخبرين بما تضمنته الجملة الشرطية ، وموادتهم كفر المؤمنين.

ورجح أبو حيان هذا ، وأسقط به سؤال الزمخشري وجوابه ، فقال : " وكأن الزمخشري فهم من قوله : " ووَدُّوا " أنه معطوف على جواب الشرط ، والذي يظهر أنه ليس معطوفاً عليه ؛ لأن ودادتهم كفرهم ليست مرتبة على الظفر بهم

والتسليط عليهم ، بل هم

١٢

وادُّون كفرهم على كل حال سواء ظفروا بهم أم لم يظفروا " انتهى.

قال شهاب الدين : " والظَّاهر أنه عطف على الجواب ، وقوله : هم وادُّون ذلك مطلقاً مسلم ، لكن ودَادَتَهُم له عند الظَّفر والتسليط أقرب وأطمع لهم فيهم ".

وقوله : ﴿لَوْ تَكْفُرُونَ﴾.

يجوز أن يكون لما سيقع لوقوع ، وأن تكون المصدرية عند من يرى ذلك.

وتقدم تحريرهما في البقرة.

فصل في معنى الآية والمعنى : ودوا لو تكفرون بمحمد صلى الله عليه وسلم فلا تناصحوهم ، فإنهم لا يناصحونكم.

جزء : ١٩ رقم الصفحة : ١٢

". (١)

"قال القرطبي : وقد روى الدارقطني عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : أنه أتاه رجل فقال : إني جعلت امرأتي عليَّ حراماً ، فقال : كذبت ، ليست عليك بحرام ، ثم تلا : ﴿ يا أيها النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ ؟ عليك أغلظ الكفَّارات عتق رقبة ، وقد قال جماعة من المفسرين : إنه لما نزلت هذه الآية كفر عن يمينه بعتق رقبة ، وعاد إلى مارية صلى الله عليه وسلم قاله زيد بن أسلم وغيره ".

هذا كله في الزوجة ، وأما الأمةُ [فليس] فيها شيء من ذلك إلاَّ أن ينوي العتق عند مالك ، وذهب عامة العلماء إلى أن عليهن كفَّارة يمين.

قال ابن العربي : " والصحيح أنها طلقة واحدة ؛ لأنه لو ذكر الطلاق لكان أقله ، وهو الواحدة إلا أن يعدده ، فكذلك إذا ذكر لتحريم يكون أقله إلا أن يقيده بالأكثر ، مثل أن يقول : أنت عليَّ حرامٌ إلا بعد زوج ، فهذا نصف في المراد ".

فصل في هذا الاستفهام قال ابن الخطيب : قال صاحب " النظم " : قوله : " لِمَ تُحَرِّمُ " استفهام بمعنى الإنكار ، وذلك من اللَّه نهيٌ ، وتحريم الحلال مكروه ؛ لأن الحلا لا يحرم إلا بتحريمِ اللَّهِ تعالى.

فإن قيل : قوله : ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ يوهم أن هذا الخطاب بطريق **العتاب** ، وخطاب النبي صلى الله عليه وسلم ينافي ذلك لما فيه من التشريف والتعظيم ؟ .

فالجوابُ : إن هذه الخطاب ليس بطريق **العتاب** ، بل بطريق لاتنبيه على أن ما صدر منه لم يكن على ما ينبغي.

فإن قيل : تحريم ما أحلَّ اللَّهُ غير ممكن ، فكيف قال : لم تحرم ما أحل الله ؟ فالجواب : أن المراد بهذا التحريم هو الامتناع من الانتفاع بالأزواج ؛ لاعتقاد كونه حراماً بعدما أحله الله تعالى ، فالنبي صلى الله عليه وسلم امتنع عن الانتفاع

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . موافق للمطبوع، ص/٤٨٨٩

بها مع اعتقاد كونها حلالاً ؛ فإن من اعتقد أن هذا التحريم هو تحريم ما أحله الله – تعالى – فقد كفر ، فكيف يضاف إلى الرسول – عليه الصلاة والسلام – مثل هذا ؟ .

قوله : ﴿تَبْتَغِي﴾.

١٩٠

يجوز أن يكون حالاً من فاعل " تُحَرِّمُ " ، أي : لم تحرم مبتغياً به مرضات أزواجك.

ويجوز أن يكون تفسيراً لـ " تُحَرِّمُ ".

ويجوز أن يكون مستأنفاً ، فهو جواب للسؤال.

و " مَرْضَاتَ " اسم مصدر ، وهو الرضا ، وأصله " مرضوة ".

والمصدر هنا مضاف إما للمفعول ، أو للفاعل ، أي : ترضي أنت أزواجك أو أن ترْضِيْنَ.

والمعنى : يفعل ذلك طلباً لرضاهن ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾ أي : لما أوجب المعاتبة ﴿رَّحِيمٌ﴾ برفع المُؤاخذِة.

قال القرطبيُّ : " وقد قيل : إن ذلك كان ذنباً من الصَّغائر ، والصحيح أنه معاتبة على ترك الأولى ، وأنه لم تكن له صغيرة ، ولا كبيرة ".

قوله : ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾.

﴿فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ أي : بيَّن لكم ، كقوله تعالى : ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا﴾ [النور : ١] وقيل : قد أوجب الله.

وقال صاحب " النظم " : إذا وصل " فَرَضَ " بـ " عَلَى " لم تحتمل غير الإيجاب كقوله : ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ﴾ [الأحزاب : ٥٠] ، وإذا وصل باللام احتمل الوجهين.

قوله : ﴿تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾.

تحليل اليمين كفَّارتها ، أي : إذا أحللتم استباحة المحلوف عليه ، وهو قوله تعالى في سورة " المائدة " : ﴿فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ﴾ [الآية : ٨٩].

قال القرطبيُّ : وتحصل من هذا أن من حرم شيئاً من المأكول ، أو المشروب لم يحرم عليه ؛ لأن الكفارة لليمين لا للتحريم ، وأبو حنيفة يراه يميناً في كل شيءٍ ، ويعتبر الانتفاع المقصود فيما يحرم ، فإذا حرم طعاماً فقد حلف على أكله ، أو أمة فعلى وطئها ، أو زوجة فعلى الإيلاء منها إذا لم يكن له نية ، وإن نوى الظهار فظهار ، وإن نوى الطلاق فطلاق بائنٌ ، وكذلك إن نوى ثنتين أو ثلاثاً ، وإن قال : نويتُ الكذب دينَ فيما بينه وبين الله تعالى ، ولا يدين في القضاء بإبطال الإيلاء ، وإن قال : كل حلال عليه حرام ، فعلى الطعام والشراب إذا لم ينو ، وإلا فعلى ما نوى ، ولا يراه الشافعي يميناً ، ويكون في الكفارة وجهان : قوله : ﴿تَحِلَّةَ﴾.

١٩١

مصدر " حَلّل " مضعفاً ، نحو " تكرمة " ، وهذا ليسا [مقيسين] ، فإن قياس مصدر " فَعَّلَ " " التفعيل " إذا كان صحيحاً غير مهموزٍ.

فأما المعتل اللام نحو " زَكَّى " ومهموزها نحو : " نبَّأ " فمصدرهما " تَفْعِلَةٌ " نحو : " تَزْكِيَةٌ ، وتَنْبِئَةٌ ".

على أنه قد جاء " التفعيل " كاملاً في المعتل ، نحو : [الرجز]

٤٧٨٤ - بَاتَتْ تُنَزِّي دَلْوَهَا تَنْزِيًّا

جزء : ١٩ رقم الصفحة : ١٨٤

". (١)

"سورة الفجر

مكية ، وهي ثلاثون آية ، وتسع وثلاثون كلمة ، وخمسمائة وسبعة وتسعون حرفا.

جزء : ٢٠ رقم الصفحة : ٣٠٦

قوله تعالى : ﴿وَالْفَجْرِ﴾ ، قيل : جواب القسم مذكور ، وهو قوله تعالى : ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ [الفجر : ١٤] ، قاله ابن الأنباري.

وقيل : محذوف ، لدلالة المعنى عليه ، أي : ليجازي كل واحد بما عمل ، بدليل ما فعل بالقرون الخالية.

وقدَّره الزمخشريُّ : ليُعذبنَّ ، قال : يدل عليه قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ إلى قوله " فصبَّ ".

وقدره أبو حيَّان : بما دلت عليه خاتمة السورة قبله ، أي : لإيابهم إلينا وحسابهم علينا.

وقال مقاتل : " هل " هنا : في موضع " إنَّ " تقديره : " إنَّ في ذلك قسماً لذي حجر ، ف " هل " هذا في موضع جواب القسم.

انتهى.

وهذا قول باطل ؛ لأنه لا يصلح أن يكون مقسماً عليه تقدير تسليم أنَّ التركيب هكذا ، وإنما ذكرناه للتنبيه على سقوطه.

وقيل : ثم مضاف محذوف ، أي : صلاة الفجر ، أو ربِّ الفجر.

والعامة : على عدم التنوين في : " الفَجْرِ ، والوَتْرِ ، ويَسْرِ ".

وأبو الدينار الأعرابي : بتنوين الثلاثة.

٣٠٧

قال ابن خالويه : هذا ما روي عن بعض العرب أنه يقف على آخر القوافي : بالتنوين ، وإن كان فعلاً ، وإن كان فيه الألف واللام ؛ قال الشاعر : [الوافر] ٥١٨٩ - أقِلِّي اللَّوْمَ عَاذلَ **والعِتابَنْ**

وقُولِي إنْ أصَبْتُ لَقدْ أصَابَنْ

يعني : هذا تنوين الترنُّم ، وهو أن العربي إذا أراد ترك الترنُّم - وهو : مدّ الصوت - نوَّن الكلمة ، وإنما يكن في الروي المطلق.

وقد عاب بعضهم النحويين تنيون الترنم ، وقال : بل ينبغي أن يسموه بتنوين تركه ، ولهذا التنوين قسيم آخر ، يسمى : التنوين الغالي وهو ما يلحقُ الرويَّ المقيد ؛ كقوله : [الرجز]

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . موافق للمطبوع، ص/٤٩٦٧

٥١٩٠ - خَاوِي المُخترَقْنْ

على أن بعض العروضيين أنكروا وجوده ، ولهذين التنوينين أحكام مخ الفة لحكم التنوين مذكورة في علم النحو.

والحاصل : أن هذا القارئ أجرى الفواصل مجرى القوافي ، وله نظائر منها : " الرَّسُولا ، والسَّبِيلا ، والظُّنُونَا " " في الأحزاب ١٠١ و ٦٦ و ٦٧ " و " المتعال " في الرعد و " عَشْرٍ " هنا.

قال الزمخشري : فإن قيل : فما بالها منكرة من بين ما أقسم به ؟ قلت : لأنها ليال مخصوصة من نفس جنس الليالي العشر بعض منها ، أو مخصوصة بفضيلة ليست لغيرها ، فإن قلت : فهلا عرفت بلام العهد ؛ لأنها ليال معلومة معهودة ؟ .

قلت : لو فعل ذلك لم تستقل بمعنى الفضيلة الذي في التنكير ؛ ولأن الأحسن أن تكون الكلمات متجانسة ، ليكون اللام أبعد من الإلغاز والتَّعمِيَة.

٣٠٨

يعني بتجانس اللامات ، أن تكون كلها إمَّا للجنس ، والغرض الظاهر أن اللامات في : " الفجر " وما معه ، للجنس ، فلو جيء بالليالي معرفة بلام العهد لفات التجانس.

أقسم سبحانه : بالفجر ، وليال عشر ، و الشفع والوتر ، والليل إذا يسر : أقسام خمسة.

واختلف في " الفجرِ " ، فقال عليٌّ وابنُ الزُّبيرِ وابنُ عبَّاسٍ - رضي الله عنهم - : " الفَجْر " هنا : انفجار الظلمة عن النهار من كل يوم.

قال ابنُ الخطيب : أقسم تعالى بما يحصل فيه ، من حصول النور ، وانتشار الناس ، وسائر الحيوان في طلب الأرزاق ، وذلك مشاكل لنشور الموتى ، وفيه عبرة لمن تأمل ، كقوله تعالى : ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ [التكوير : ١٨] ، ومدح بكونه خالقاً ، فقال سبحانه : ﴿فَالِقُ الإِصْبَاحِ﴾ [الأنعام : ٩٦].

وعن ابن عباسٍ - رضي الله عنهما - أنه : النهار كله ، وعبر عنه بالفجر ؛ لأنه أوله.

وروى ابن محيصن عن عطيَّة عن ابن عبَّاسٍ : يعني : فجر المحرم.

قال قتادةُ : هو فجر أول يوم من المحرم منه تنفجر السنة ، وعنه أيضاً : صلاة الصبح.

وروى ابن جريح عن عطاء عن ابن عباس قال : يريد صبيحة يوم النحر ؛ لأن الله تعالى جعل لكل يوم ليلة قبله إلا يوم النحر لم يجعل له ليلة قبله ولا ليلة بعده ؛ لأن يوم عرفة له ليلتان ليلة قبله وليلة بعده ، فمن أدرك الموقف الليلة اليت بعد عرفة فقد أدرك الحج إلى طلوع فجر يوم النحر ، وهذا قول مجاهد.

وقال عكرمة : " والفجر " قال : انشقاق الفجر من يوم الجمعة.

وعن محمد بن كعب القرظي : " والفجر " قال : آخر أيام العشر إذا رفعت أو دفعت من جمع.

وقال الضحاك : فجر ذي الحجة ؛ لأن الله تعالى قرن به الأيام ، فقال تعالى : ﴿وَلَيالٍ عَشْرٍ﴾ أي ليال عشر من ذي

الحجة.

٣٠٩." (١)

"٣١٥- حدثنا أبي، ثنا أبو سلمة، ثنا حماد، أنبأ عطاء بن السايب، عن ابن سابط، أن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: "دحيت الأرض من مكة، وأول من طاف بالبيت الملائكة، فقال: " إني جاعل في الأرض خليفة " يعني: مكة".

٣١٦- حدثنا أحمد بن عصام الأنصاري، وحميد بن عياش، قالا: ثنا مؤمل، ثنا حماد بن سلمة، وحماد بن زيد، عن خالد الحذاء، قال: سألت الحسن، فقلت: يا أبا سعيد، آدم للسماء خلق أم الأرض ؟ قال: "أما تقرأ القرآن: " إني جاعل في الأرض خليفة " لا بل للأرض خلق".

قوله: " خليفة "

٣١٧- حدثنا عمرو بن عبد الله الأودي، ثنا وكيع، ثنا سفيان، عن سالم بن أبي حفصة، عن رجل، عن ابن عباس، قال: "أخرج الله آدم من الجنة قبل أن يسكنها إياه، ثم قرأ: " إني جاعل في الأرض خليفة " ".

قوله: " قالوا أتجعل فيها "

٣١٨- حدثنا أبي، ثنا هشام بن عبيد الله، أنبأ **عتاب** أعين، عن سفيان الثوري، عن عطاء بن السائب، عن ابن سابط،"في قول الله: " أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء " قال: يعنون الحرام".

قوله: " من يفسد فيها ويسفك الدماء " ." (٢)

"﴿أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون * واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين * الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم إليه راجعون * يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين * واتقوا يوما لا تجزي نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون * وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم * ﴾

قوله: " أتأمرون الناس بالبر "

٤٧٢- حدثنا حجاج بن يوسف بن الشاعر، ثنا سهل بن حماد أبو **عتاب**، ثنا هشام الدستوائي، عن المغيرة بن حبيب، عن مالك بن دينار، عن ثمامة، عن أنس بن مالك، قال: "لما عرج بالنبي صلى الله عليه وسلم مر على قوم تقرض

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . موافق للمطبوع، ص/٥٢٦٧

(٢) تفسير ابن أبي حاتم، ٨١/١

شفاهم، فقال: يا جبريل، من هؤلاء ؟ قال: هؤلاء الخطباء من أمتك الذين يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم، ويتلون الكتاب ولا يعقلون".." (١)

"﴿ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون * وقالوا قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم فقليلا ما يؤمنون * ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين * بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغيا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده فبآؤوا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين*﴾

قوله: " لقد آتينا موسى الكتاب "

٨٧٩- حدثني أبي، ثنا ابن نفيل، ثنا **عتاب**، عن خصيف، عن زياد بن أبي مريم،"في قوله: " آتينا " ، قال: أعطينا".

قوله: " وقفينا من بعده بالرسل "

٨٨٠- حدثنا أبو بكر بن أبي موسى، ثنا هارون بن حاتم، ثنا عبد الرحمن بن أبي حماد، عن أسباط بن نصر، عن السدي، عن أبي مالك،"قوله: " وقفينا " يعني أتبعنا".

قوله: " وآتينا عيسى ابن مريم البينات " ." (٢)

"٢٧٨١- حدثنا أبو سعيد بن يحيى بن سعيد القطان، ثنا ال عن أسباط، عن السدي، عن عدي بن ثابت، عن البراء: " " والله غني " عن صدقاتكم"قوله تعالى: " حليم "

٢٧٨٢- حدثنا أبي، ثنا أبو صالح، حدثني معاوية بن صالح، عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس"أخبر الله عباده بحلمه وعطفه وكرمه وسعة رحمته ومغفرته"قوله تعالى: " يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى "

٢٧٨٣- حدثنا الحسن بن المنهال، ثنا محمد بن عبد الله بن عمار الموصلي، ثنا **عتاب**، عن خصيف، عن مجاهد، عن ابن عباس، قال: "لا يدخل الجنة مدمن خمر ولا عاق، ولا منان ، قال ابن عباس: فشق ذلك علي، لأن المسلمين يصيبون ذنوبا حتى وجدت في كتاب الله في المنان " لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى " ".

٢٧٨٤- حدثنا أبو زرعة، ثنا عمرو بن حماد، ثنا أسباط، عن السدي،"قوله: " لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى " فتبطل كما بطلت صدقة الرياء".

٢٧٨٥- أخبرنا موسى بن هارون الطوسي، فيما كتب إلي، ثنا الحسين بن محمد المروذي، ثنا شيبان، عن قتادة،"قوله:

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم، ١٢١/١

(٢) تفسير ابن أبي حاتم، ٢٣١/١

" لا تبطلوا صدقاتكم " ، قال: كره الله ذلك للمؤمنين، وقدم فيه".

قوله: " بالمن " ." (١)

"٧٦٦٨- حدثنا أحمد بن عثمان بن حكيم الأودي فيما كتب إلي، ثنا أحمد بن مفضل، ثنا أسباط، عن السدي، قوله:" " اليوم تجزون عذاب الهون " أما " عذاب الهون " ، قال: الذي يهينهم".

قوله: " بما كنتم تقولون على الله غير الحق "

٧٦٦٩- حدثنا علي بن الحسين، ثنا أبو الأصبغ عبد العزيز بن يحيى، ثنا **عتاب**، عن خصيف، عن مقسم، عن ابن عباس، قال: آيتان يبشر بهما الكافر عند موته: " ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم " إلى قوله " بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون " ، قال:"فهاتان آيتان يبشر بهما الكافر في الدنيا".

قوله: " ولقد جئتمونا فرادى " ." (٢)

"٨٣١٨- حدثنا علي بن الحسين، ثنا المقدمي، ثنا أبو معشر البراء، ثنا أبو رجاء، عن الحسن : " " ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين " ، قال : ذكر تفضيل الملائكة، فضلوا بالصور، وفضلوا بالأجنحة، وفضلوا بالكرامة".

٨٣١٩- حدثنا أبي، ثنا أبو معمر المنقري، ثنا عبد الوارث، عن حميد، قال : كان مجاهد، يقرأ : " " إلا أن تكونا ملكين " بنصب اللام، من الملائكة"، وروي عن قتادة، والأعمش، وطلحة بن مصرف، والأعرج، نحو ذلك.

٨٣٢٠- حدثنا أبي، ثنا ابن نفيل، ثنا **عتاب**، عن خصيف، عن ابن منبه، قال : "إن في الجنة شجرة لها غصنان، أحدهما تطوف به الملائكة، والآخر قوله : " ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين " : يعني من الملائكة الذين يطوفون بذلك الغصن".

قوله تعالى : " أو تكونا من الخالدين "

٨٣٢١- حدثنا أبو زرعة، ثنا عمرو بن حماد، ثنا أسباط، عن السدي" " أو تكونا من الخالدين " ، يقول : لا تموتون أبدا"، وروي عن محمد بن كعب القرظي، ووهب بن منبه، نحو ذلك.

قوله تعالى : " وقاسمهما " ." (٣)

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم، ٣٠١/٢

(٢) تفسير ابن أبي حاتم، ٣٢٥/٥

(٣) تفسير ابن أبي حاتم، ٤٨٩/٥

"١١٦٩١- حدثنا أبي، ثنا أبو نفيل، ثنا عتاب، عن خصيف"أن سفينة نوح كانت من خشب، وكانت ثلاثة أبيات، وكان طول السفينة ثلاثمائة ذراع، وعرضها خمسون ذراعا، وطول الأبيات الثلاثة من أسفل إلى فوق ثلاثون ذراعا كل بيت منها عشرة أذرع، وكانت مغطاة أعلاها وأسفلها إلا بابا يدخل منه كل شيء، ثم ردمه".

١١٦٩٢- حدثنا أبي، ثنا عبد الله بن عمر القراريدي، ثنا نوح بن قيس، عن محمد بن سيف أبو رجاء، عن الحسن، قال:"كان طول سفينة نوح ألفا ومائة ذراع، وعرضها ستمائة ذراع، وكانت مطبقة".

١١٦٩٣- حدثنا أبي، ثنا موسى بن أيوب النصيبي، ثنا مخلد بن حسين، عن عوف، عن الحسن، قال:"كان طول سفينة نوح ألفي ذراع، وعرضها مائة ذراع".

قوله تعالى: " بأعيننا "

١١٦٩٤- حدثنا محمد بن عبد الله بن المبارك، ثنا حجاج بن محمد، عن ابن أبي نجيح، عن عطاء الخراساني، عن ابن عباس: " واصنع الفلك بأعيننا " قال:"بعين الله ووحيه".

قوله تعالى: " ووحينا "

١١٦٩٥- حدثنا حجاج بن حمزة، ثنا شبابة، ثنا ورقاء، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، قوله: " ووحينا " "كما نأمرك".

١١٦٩٦- حدثنا أبي، ثنا عبيد بن آدم، ثنا أبي شعيب أبو شيبة، عن عطاء الخراساني، في قوله: " ووحينا " أي"بوحي الله".." (١)

"- ١٤٠٤٧ عن هارون بن، عن شيخ من بني فزارة، في قوله:" " وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض﴾، قال: إذا ماج الجن والإنس بعضهم في بعض، قال إبليس: أنا أعلم لكم علم هذا الأمر، فيظعن إلى المشرق، فيجد الملائكة قد نطقوا الأرض، ثم يظعن إلى المغرب فيجد الملائكة قد نطقوا الأرض، ثم يظعن يمينا وشمالا حتى ينتهي إلى أقصى الأرض فيجد الملائكة قد نطقوا الأرض، فيقول: ما من محيص، فبينما هو كذلك إذ عرض له طريق كأنه شواظ، فأخذ عليه هو وذريته فبينما هو كذلك إذ هجم على النار فخرج إليه خازن من خزان النار، فقال: يا إبليس، ألم تكن لك المنزلة عند ربك؟ ألم تكن في الجنان؟، فيقول: ليس هذا يوم عتاب، لو إن الله افترض علي عبادة لعبدته عبادة لم يعبده أحد من خلقه، فيقول: إن الله قد فرض عليك فريضة، فيقول: ما هي؟، فيقول: يأمرك إن تدخل النار، فيتلكأ عليه، فيقول به وبذريته بجناحه فيقذفهم في النار، فتزفر جهنم زفرة لا يبقى ملك مقرب ولا نبي مرسل إلا جثا لركبتيه".

- ١٤٠٤٨ عن يعقوب، عن هارون بن عن ابيه، عن ابن عباس،" " وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض﴾، قال: الجن والإنس، يموج بعضهم في بعض". قوله: " الذين كانت اعينهم في غطاء عن ذكري وكانوا لا يستطيعون سمعا﴾

- ١٤٠٤٩ عن قتادة، في قوله:" " الذين كانت اعينهم في غطاء عن ذكري وكانوا لا يستطيعون سمعا﴾، قال: كانوا

(١) تفسير ابن أبي حاتم، ١٦٢/٨

عميا عن الحق فلا يبصرونه صما عنه فلا يسمعونه".

- ١٤٠٥٠ عن مجاهد، في قوله:" " لا يستطيعون سمعا﴾، قال: لا يعقلون سمعا".قوله: " أفحسب الذين كفروا﴾." (١)

"﴿ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلنا معه أخاه هارون وزيرا * فقلنا اذهبا إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا فدمرناهم تدميرا * وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم وجعلناهم للناس آية وأعتدنا للظالمين عذابا أليما * وعادا وثمود وأصحاب الرس وقرونا بين ذلك كثيرا * وكلا ضربنا له الأمثال وكلا تبرنا تتبيرا * ولقد أتوا على القرية التي أمطرت مطر السوء أفلم يكونوا يرونها بل كانوا لا يرجون نشورا﴾

قوله تعالى: " ولقد آتينا موسى "

١٥٩٤٥- حدثنا أبي، ثنا ابن نفيل، ثنا **عتاب**، عن خصيف، عن زياد بن أبي مريم، قوله" " آتينا " ، قال: أعطينا".

١٥٩٤٦- حدثنا أبي، ثنا عثمان بن أبي شيبة، ثنا جرير، عن الأعمش، عن مسلم، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال:"أتي رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعا من المثاني الطوال وأتي موسى ستا من المثاني".

١٥٩٤٧- حدثنا محمد بن يحيى، أنبأ العباس بن الوليد، ثنا يزيد بن زريع, ثنا سعيد، عن قتادة، قوله" " الكتاب " ، قال: التوراة، وفي قوله: " وجعلنا معه أخاه هارون وزيرا " أي: عونا وعضدا".

قوله تعالى: " فقلنا اذهبا إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا " ." (٢)

"١٦٩٣٩- حدثنا أبي، ثنا ابن نفيل، ثنا **عتاب**، عن خصيف، عن زياد بن أبي مريم، قوله: " آتينا " ، قال:"أعطينا".

قوله تعالى: " علما "

١٦٩٤٠- حدثنا أبو زرعة، ثنا صفوان بن صالح، ثنا الوليد، ثنا سعيد، عن قتادة، قوله: " داود وسليمان علما " ، قال:"فهما".

١٦٩٤١- أخبرنا عبيد بن محمد بن يحيى بن حمزة، فيما كتب إلي، ثنا أبو الجماهر، حدثني سعيد، عن قتادة، قوله: " ولقد آتينا داود وسليمان علما " :"كان داود أعطي ثلاثا، سخرت له الجبال يسرت معه، وألين له الحديد، وعلم منطق الطير، علم موسى نبي الله عليه السلام منطق الطير، وسخرت له الجن وكان ذلك مما ورث عنه لم تسخر له الجبال، ولم يلن له الحديد

قوله تعالى: " وقالا الحمد لله الذي فضلنا على كثير "

١٦٩٤٢- ذكر عن إبراهيم بن هشام بن يحيى، أخبرني أبي، عن جدي، قال: كتب عمر بن عبد العزيز:"أن الله، عز وجل، لم ينعم على عبد نعمة، فحمد الله عليها إلا كان حمده أفضل من نعمة لو كنت لا تعرف ذلك إلا في كتاب

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم، ٢٤١/٩

(٢) تفسير ابن أبي حاتم، ٣٠٢/١٠

الله المنزل، قال الله جل وعلا: " ولقد آتينا داود وسليمان علما وقالا الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين " وأي نعمة أفضل مما أوتى داود وسليمان؟

قوله تعالى: " وورث سليمان داود " ." (١)

"١٨١٠٣- حدثنا أبي، ثنا ابن نفيل، ثنا عتاب، عن خصيف، عن زياد بن أبي مريم، في قوله: " آتيناه " ، قال:"أعطيناه".

قوله تعالى: " أجره في الدنيا "

١٨١٠٤- حدثنا أبي، ثنا أبو صالح، حدثني معاوية بن صالح، حدثني ابن صالح، عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس، قوله: " وآتيناه أجره في الدنيا " ، يقول:"الذكر الحسن".

١٨١٠٥- حدثنا علي بن الحسين، عن علي بن زيد، عن سعيد بن جبير، أنه كتب إلى عكرمة، يسأله، عن قول ابن عباس، فيها يعني قوله: " أجره في الدنيا " ، فقال:"إن الله تبارك وتعالى رضا لأهل الأديان بدينهم، فليس أهل دين إلا وهم يتولون إبراهيم ويرضون عنه".

١٨١٠٦- حدثنا محمد بن يحيى، ثنا العباس بن الوليد، ثنا يزيد بن زريع، قال: سمعت سعيدا، عن قتادة، قوله: " وآتيناه أجره في الدنيا " عافية وعمل صالح وثناء حسن، فلست تلاقي أحدا من الملل إلا يرضى إبراهيم، ويقولان: وإنه في الآخرة لمن الصالحين".

١٨١٠٧- ذكر الحسن بن محمد بن الصباح، ثنا حجاج بن محمد، عن ابن جريج، أخبرني القاسم بن أبي بزة، عن عكرمة، في قوله: " وآتيناه أجره في الدنيا " ، قال:"لسان الصدق الذي جعل له".." (٢)

"بعضهم في بعض قال إبليس : أنا أعلم لكم علم هذا الأمر فيظعن إلى المشرق فيجد الملائكة قد نطقوا الأرض ثم يظعن إلى المغرب فيجد الملائكة قد نطقوا الأرض ثم يظعن يمينا وشمالا حتى ينتهي إلى أقصى الأرض فيجد الملائكة قد نطقوا الأرض فيقول : ما من محيص فبينما هو كذلك إذ عرض له طريق كأنه شواظ فأخذ عليه هو وذريته ، فبينما هو كذلك إذ هجم على النار فخرج إليه خازن من خزان النار فقال : يا إبليس ألم تكن لك المنزلة عند ربك ألم تكن في الجنان فيقول : ليس هذا يوم عتاب لو أن الله افترض علي عبادة لعبدته عبادة لم يعبده أحد من خلقه ، فيقول

(١) تفسير ابن أبي حاتم، ٨٠/١١

(٢) تفسير ابن أبي حاتم، ٤٢٢/١١

: إن الله قد فرض عليك فريضة ، فيقول : ما هي

فيقول : يأمرك أن تدخل النار ، فيتلكأ عليه فيقول به وبذريته بجناحه فيقذفهم في النار فتزفر جهنم زفرة لا يبقى ملك مقرب ولا نبي مرسل إلا جثا لركبتيه.

الآية ١٠١.

أخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿الذين كانت أعينهم في غطاء عن ذكري وكانوا لا يستطيعون سمعا﴾ قال : كانوا عميا عن الحق فلا يبصرونه صما عنه فلا يسمعونه.

". (١)

"وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ عن أبي ميسرة ﴿كل يوم هو في شأن﴾ قال : يحيي ويميت ويصور في الأرحام ما يشاء ويعز من يشاء ويذل من شاء ويفك الأسير.

وأخرج عبد بن حميد عن الربيع رضي الله عنه ﴿كل يوم هو في شأن﴾ قال : يخلق خلقا ويميت آخرين ويرزقهم ويكلؤهم.

وأخرج عبد بن حميد عن سويد بن جبلة الفزاري وكان من التابعين قال : إن ربكم ﴿كل يوم هو في شأن﴾ يعتق رقابا ويفحم عتابا ويعطي رغابا.

وأخرج عبد بن حميد عن أبي الجوزاء رضي الله عنه ﴿كل يوم هو في شأن﴾ قال : لا يشغله شأن عن شأن.

وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير عن مجاهد رضي الله عنه ﴿كل يوم هو في شأن﴾ قال : من أيام الدنيا كل يوم يجيب داعيا ويكشف كربا ويجيب مضطر ويغفر ذنبا.

الآيات ٣١ - ٤٥

أخرج عبد بن حميد وعبد الرزاق ، وابن جرير عن قتادة رضي الله عنه ﴿سنفرغ لكم أيها الثقلان﴾ قال : قدنا من الله فراغ لخلقه.

". (٢)

"تابوا تاب الله عليهم وإن عادوا عاد الله عليهم الرجف والقذف والخذف والمسخ والخسف والصواعق فإذا قيل : هلك الناس هلك الناس فقد هلكوا

ولن يعذب الله أمة حتى تعذر قالوا : وما عذرها قال : يعترفون بالذنوب ولا يتوبون ولتطمئن القلوب بما فيها من برها وفجورها كما تطمئن الشجرة بما فيها حتى لا يستطيع محسن يزداد إحسانا ولا يستطيع مسيء استعتابا ، قال الله : ﴿كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾.

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة ﴿كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾ قال : أعمال السوء ذنب على ذنب حتى

---

(١) الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي، ٦٨٨/٩

(٢) الدر المنثور في ال تفسير بالمأثور للسيوطي، ١٢٢/١٤

مات قلبه واسود.

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد رضي الله عنه ﴿كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾ قال : أثبتت على قلبه الخطايا حتى غيرته.

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ران﴾ قال : طبع.

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد رضي الله عنه قال : الران الطابع.

وأخرج سعيد بن منصور ، وابن المنذر والبيهقي في شعب الإيمان عن." (١)

" صفحة رقم ١٤٣

الحطة وهي غفران الذنوب .

قال الحرالي : أمروا بالإخلاص لله نظرا إلى حياة قلوبهم فطلبوا الحنطة نظرا إلى حياة جسومهم فقال تعالى) فبدل (من التبديل وهو تعويض شيء مكان شيء - انتهى .

) الذين ظلموا (وأسقط : منهم ، لما يأتي في الأعراف) قولا) أي مكان القول الذي أمروا به .

ولما كان التبديل وإن كان يفهم التغيير لكنه يصدق بأدنى تغيير ولو أنه في اللفظ وإن اتحد المعنى بين أنه مضاد له بحيث لا يمكن اجتماعهما بقوله : (غير الذي قيل لهم (فإن غيرا كما قال الحرالي كلمة تفهم انتفاء وإثبات ضد ما انتفى ، وقال : ذكر تعالى عدولهم عن كل ذلك واشتغالهم ببطونهم وعاجل دنياهم فطلبوا طعام بطونهم التي قد فرغ منها التقدير وأظهر لهم الغناء عنها في حال التيه بإنزال المن والسلوى إظهارا لبلادة طباعهم وغلبة حب العاجلة عليهم فبدلوا كلمة التوحيد وهي لا إله إلا الله وهي الحطة بطلب الحنطة

٧٧ ( ) ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم ( ) ٧ [المائدة : ٦٦]

٧٧ ( ) ولو أن أهل القرى أمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ( ) ٧ [الأعراف : ٩٦] (من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين) انتهى .

وبين أنه خص المبدلين **بالعتاب** نعمة منه مع أن له أن يعم فقال) فأنزلنا) أي بعظمتنا بسبب ذلك) على الذين ظلموا) أي خاصة) رجزا (قال الحرالي : هو أشد العذاب ، وما جره أيضا يسمى رجزا مما يجب أن يزجر عنه والزجر كف البهائم عن عدواها - انتهى .

ولما كان الإنزال مفهما للسماء حققه تعظيما له بقوله : (من السماء بما) أي بسبب ما)كانوا يفسقون) أي يجددون." (٢)

---

(١) الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي، ٢٩٩/١٥

(٢) نظم الدرر . (موافق للمطبوع - ت: عبدالرزاق غالب)، ١٤٣/١

" صفحة رقم ٢٢٥

ولما كان اختصاصهم بالإرث عن النساء والأطفال من الفوز عندهم ، بل لم يكن الفوز العظيم عندهم إلا الاحتواء على الأموال وبلوغ ما في البال منها من الآمال قال تعالى معظما بأداة البعد : (وذلك) أي الأمر العالي المرتبة من الطاعة المندوب إليها) الفوز العظيم) أي لا غيره من الاحتواء على ما لم يأذن به الله ، وهذا أنسب شيء لتقديم الترغيب لتسمح نفوسهم بترك ما كانوا فيه مع ما فيه من التلطف بهذه الأمة والتبشير له (صلى الله عليه وسلم) بأنها مطيعة راشدة .

ولما أشربت القلوب الصافية ذوات الهمم العالية حب نيل هذا الفوز أتبع الترهيب فطما لها عن تلك الفوائد بالكلية فقال : (ومن يعص الله) أي الذي له العظمة كلها) ورسله) أي في ذلك وغيره) ويتعد حدوده) أي التي حدها في هذه الأحكام وغيرها ، وأفرد العاصي في النيران في قوله : (يدخله نارا خالدا فيها (لأن الانفراد المقتضي للوحشة من العذاب والهوان ، ولما كان منعهم للنساء والأطفال من الإرث استهانة بهم ختم الآية بقوله : (وله عذاب مهين (ولما تقدم سبحانه في الإيصاء بالنساء ، وكان الإحسان في الدنيا تارة يكون بالثواب ، وارة يكون بالزجر **والعتاب** ، لأن مدار الشرائع على العدل والإنصاف ، والاحتراز في كل باب عن طرفي الإفراط والتفريط ، وختم سبحانه بإهانة العاصي إحسانا إليه بكفه عن الفساد ، لئلا يلقيه ذلك إلى الهلاك أبد الآباد ، وكان من أفحش العصيان الزنى ، وكان الفساد في النساء أكثر ، والفتنة بهن أكبر ، والضرر منهن أخطر ، وقد يدخلن على الرجال من يرث منهم من غير أولادهم ؛ قدمهن فيه اهتماما بزجرهن فقال : (واللاتي (وهو جمع (التي) ولعله عبر فيهن بالجمع إشارة إلى كثرتهن - كما أشار إلى ذلك) مثنى وثلاث ورباع) [النساء : ٣] وإلى كثرة الفساد منهن) يأتين) أي يفعلن من إطلاق السبب على المسبب والتعبي ربع أبلغ) الفاحشة) أي الفعلة الشديدة الشناعة ، وفي الآية لأن من أعظم المرادات بنظمها عقب آيات الإرث وما تقدمها الاحتياط للنسب إشارة بذكر عقوبة الزانية من غير تعرض لأرص الولد الآتي منها إلأى أن الولد للفراش ، وأنه لا ينفي بالمظنة ، بل بعد التحقق على ما سورة النور ، لأنهع لا يلزم من وجود الزنى نفيه ، وكونه من الزنى ، قال أبو حيان في النهر : " الفقاحشة هنا الزنى بإجماع المفسرين إلا ما ذهب إليه مجاهد وتبعه أ [و مسلم الأصفهاني من أنها لامساحقة ، ومن الرجال اللواط ، ثم بين الموصول بقوله) من نسائكم) أي الحرائر فاستشهدوا) أي فأطلبوا أن تشهدوا) عليهن أربعة (من الرجال. ولما كان تعالى قد جعل هذه الأمة وسطا يقبلون على غيرهم ولا يقبل غيرهم." (١)

" صفحة رقم ٢٥٩

أنزل ؟ قال) إني أحب أن أسمعه من غيري (فقرأت عليه سورة النساء حتى بلغت) فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا (قال) أمسك (فإذا عيناه تذرفان) ثم استأنف الجواب عن ذلك بقوله : (يومئذ) أي تقوم الإشهاد) يوم الذين كفروا) أي ستروا ما تهدي إليبه ما أظهر من بيناته) لو تسوى بهم الأرض) أي تكون مستوية معتدلة بهم ، ولا تكون كذلك إلا وقد غيبتهم واستوت بهم ، ولم يبق فهيا شيء من عوج ولا نتو بسبب أحد منهم ولا

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع - ت: عبدالرزاق غالب)، ٢/٢٢٥

شيء من أجسامهم ؛ وإنما ودوا ذلك خوفا مما يستقبلهم من الفضيحة بعتابهم ثم الإهانة بعقابهم .
ولما كان التقدير : فلا تسوي بهم ، عطف عليه قوله : (ولا يكتمون الله) أي الملك الأعظم) حديثا) أي شيئا أحدثوه بل يفتضحون بسيء أخبارهم ، ويحملون جميع أوزارهم ، جزاء لما كانوا يكتمون من آياته وما نصب للناس من بيناته .

ولما وصف الوقوف بين يديه في يوم العرض والأهوال الذي أدت فيه سطوة الكبرياء والجلال إلى تمني العدم ، ومنعت قوة يد القهر والجبر أن يكتم حديثا ، وتضمن وصفه أنه لا ينجو فيه إلا من كان طاهر القلب والجوارح بالإيمان به والطاعة لرسوله (صلى الله عليه وسلم) ؛ ؛ وصف الوقوف بين يديه في الدنيا خطرت معاني اللطف والجمال فهي الالتفات إلى غيره ، الوقوف في ذلك اليوم ، والذي خطرت معاني اللطف والجمال فهي الالتفات إلى غيره ، وأمر بالطهارة في حال التزين به عن الخبائث فقال : (ياأيها الذين أمنوا) أي أقروا بالتصديق بالرسل وما أتوا به عن الله ، وأوله وأولاه أن لا تشركوا به شيئا من الإشراك) لا تقربوا الصلاة) أي بأن لا تكونوا في موضعها فضلا عن أن تفعلوها) وأنتم) أي والحال أنكم) سكارى) أي غائبو العقل من الخمر أو نحوها ، فإنه يوشك أن يسبق اللسان – بتمكن الشيطان بزوال العقل إلى شيء من الإشراك ، فيكون شركا لسانيا وإن كان القلب مطمئنا بالإيمان ، فيوشك أن يعرض ذلك عليه يوم الوقوف الأكبر ، فإن من أنتم بين يديه لا يكتم حديثا ، فيود من نطق سانه بذلك – لما يحصل له من الألم – لو كان من أهل العدم وأصل السكر في اللغة : سد الطريق ؛ وسبب نزولها ما رواه مسدد بإسناد – قال شيخنا البوصيري : رجاله ثقات – عن علي رضي الله تعالى عنه (أن رجلا من الأنصار دعاه وعبد الرحمن بن عوف رضي الله تعالى عنه فسقاهما قبل أن تحرم الخمر ، ." (١)

" صفحة رقم ٢٧٤

كونهم) يحلفون بالله) أي الحاوي لصفات الكمال من الجلال والجامل غير مستحضرين لصفة من صفاته) إن) أي ما) أردنا) أي في جميع أحوالنا وبسائر افعالنا) إلا إحسانا وتوفيقا) أي أن تكون الأمور على الوجه الأحسن والأوفق لما رأينا في ذلك مما خفي على غيرنا – وقد كذبوا في جميع ذلك .

ولما ذكر سبحانه وتعالى بعض ما يصدر منهم من التناقضات وهم غير محتشمين ولا هائبين ، قال معلما بشأنهم معلما لما يصنع بهم : (أولئك) أي البعداء عن الخير) الذين يعلم الله) أي الحاوي لنعوت العظمة) ما في قلوبهم) أي من شدة البغض للإسلام وأهله وإن اجتهدوا في إخفائه عنه ، ثم سبب تعليما لما يصنع بهم وإعلاما بأنهم لا يضرون إلا أنفسهم قوله : (فأعرض عنهم) أي عن عقابهم وعن الخشية منهم وعن عتابهم ، لأنهم أقل من أن يحسب لهم حساب) وعظهم) أي وإن ظننت أن ذلك لا يؤثر ، لأن القلوب بيد الله سبحانه وتعالى يصطنعها لما أراد متى أراد) وقل لهم في أنفسهم) أي بسببها وما يشرح أحوالها ويبين ونقائصها من نفائسها ، أو خاليا معهم ، فإن ذلك أقرب إلى ترقيقهم) قولا بليغا) أي يكون في غاية البلاغة في حد ذاته .

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ٢٥٩/٢

النساء : (٦٤ – ٦٨) وما أرسلنا من. .. . .
) ومآ أرسلنا من رسول ألا ليطاع بإذن الله ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جآءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيرا لهم وأشد تثبيتا وإذا لآتيناهم من لدنآ أجرا عظيما ولهديناهم صراطا مستقيما (( )

ولما أمر بطاعة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، وذم من حاكم إلى غيره وهدده ، وختم تهديده بأمر النبي (صلى الله عليه وسلم) بالإعراض عنه والوعظ له ، فكان التقدير : فما أرسلناك وغيرك من الرسل إلا الرفق بالأمة والصفح عنهم والدعاء لهم على غاية الجهد والنصيحة ، عطف عليه قوله : (وما أرسلنا) أي بما لنا من العظمة ، ودل على الإعراق في الاستغراق بقوله : (من رسول (ولما كان ما يؤتيهم سبحانه وتعالى من الآيات ويمنحهم به من المعجزات حاملا في ذاته على الطاعةن شبهه بالحامل على إرساله فقال : (إلا ليطاع) أي لأن منصبه الشريف مقتض لذلك آمر به داع إليه) بإذن الله) أي بعلم الملك الأعظم الذي له الإحاطة بكل شيء في تمكينه من أن يطاع ، لما جعلنا له من المزية بالصفات العظيمة والمناصب الجليلة والأخلاق الشريفة كما قال (صلى الله عليه وسلم) (ما من الأنبياء نبي إلا وقد أوتي من." (١)

" صفحة رقم ٤٧٩

ودعت إليه كتبهم من ابتاعك) فاعلم إنما يريد الله) أي الذي له جميع العظمة العظمة) أن يصيبهم (لأنه لو أراد بهم الخير لهداهم إلى القبول الذي يطابق عليه شاهد العقل بما تدعو إليه الفطرة الأولى والنقل بما في كتبهم ، إما من الأمر بذلك الحكم بعينه ، وإما من الأمر باتباعك) ببعض ذنوبهم) أي التي هذا منها ، وأبهمه زيادة في استدراجهم وإضلالهم وتحذيرا لهم من جميع مساوي أعمالهم ، لئلا يعلموا عين الذنب الذي اصيبوا به ، فيحملهم ذلك على الرجوع عنه ، ويصير ذلك كالإلجاء ، أو يكون إبهامه للتعظيم كما أن التنكير يفيد التعظيم ، فيؤذن السياق بتعظيم هذا التولي وبكثرة ذنوبهم واجترائهم على مواقعتها .

ولما كان التقدير : فإنهم بالتولي فاسقون ، عطف عليه : (وإن كثيرا من الناس) أي هم وغيرهم) لفاسقون) أي خارجون عن دائرة الطاعات ومعادن السعادات ، متكلفون لأنفسهم إظهار ما في بواطنهم من خفي الحيلة بقوة ؛ ولما كان من المعلوم أن من أعرض عن حكم الله أقبل ولا بد على حكم الشيطان الذي هو عين الهوى الذي هو دين أهل الجهل الذين لا كتاب لهم هاد ولا شرع ضابط ، سبب عن إعراضهم الإنكار عليهم بيقوله : (أفحكم الجاهلية) أي خاصة مع أن أحكامها لا يرضى بها عاقل ، لكونها لم يدع إليها كتاب ، بل إنما هي مجرد أهواء وهم أهل كتاب) يبغون) أي يرديون بإعراضهم عن حكمك مع ما دعا إليه كتابهم من اتباعك ، وشهد به كتابك بالعجز عن معارضته من وجوب رسالتك إلى جميع الخلائق ، وقراءة ابن عامر بالالتفات إلى الخطاب أدل على الغضب .

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ٢٧٤/٢

ولما كان حسن الحكم تابعا لإتقانه ، وكان إتقانه دائرا على صفات الكمال من تمام العلم وشمول القدرة وغير ذلك ، قال – معلما أن حكمه أحسن الحكم عاطفا على ما تقديره : فمن أضل منهم : (ومن (ويجوز أن تكون الجملة حالا من واو يبغون ، أي يريدون ذلك والحال أنه يقال : من) أحسن من الله) أي المستجمع لصفات الكمال) حكما (ثم زاد في تقريعهم بكثافة الطباع وجمود الأذهان ووقوف الأفهام بقوله معبرا بلم البيان إشارة إلى المعنى بهذا الخطاب : (لقوم) أي فيهم نهضة وقوة محاولة لما يريدونه) يوقنون) أي يوجد منهم اليقين يوما ما وأما غيرهم فليس بأهل الخطاب فكيف **بالعتاب** إنما **عتابه** شديد العقاب ، وفي ذلك أيضا غاية التبكيت لهم والتقبيح فكيف **بالعتاب** إنما **عتابه** شديد العقاب ، وفي ذلك أيضا غاية التبكيت لهم والتقبيح عليهم من حيث إنهم لم يزالوا يصفون أهل الجاهلية بالضلال ، وأن دينهم لم ينزل الله به من سلطان ، وقد عدلوا في هذه الأحكام إليه تاركين جميع ما أنزل الله من كتابهم والكتاب الناسخ له ، فقد ارتكبوا الضلال بلا شبهة على علم ، وتركوا الحق المجمع عليه .." (١)

" صفحة رقم ٧١٤

قال مرغبا في التذكر فإنه سبب الفيض الإلهي على القلوب المهيأة له : (لهم) أي المتذكرين) دار السلام) أي الجنة ، أضافها سبحانه إليه زيادة في الترغيب فيها ، وخص هذا الاسم الشريف لأنه لا يلم بها شيء من عطب ولا خوف ولا نصب ؛ ثم زاد الترغيب فيها بقوله : (عند ربهم) أي في ضمان المحسن إليهم وحضرته بما هيأهم له ويسره لهم) وهو) أي وحده) وليهم) أي المتكفل بتولي أمورهم ، لا يكلهم إلى أحد سواه ، وهذا يدل على قربه منهم ، والعندية تدل على قربهم منه لما شرح من صدورهم بالتوحيد ؛ ولما كان ذلك ربما قصر على التذكر ، بين أن المراد منه التأدية إلى الأعمال فإنها معيار الصدق وميزانه فقال : (بما) أي بسبب ما) كانوا) أي كما جبلهم عليه ، فما كان ذلك إلا بفضله) يعلمون (.

الأنعام : (١٢٨ – ١٣٠) ويوم يحشرهم جميعا. .. . .

) ويوم يحشرهم جميعا يامعشر الجن قد استكثرتم من الإنس وقال أوليآؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنآ أجلنا الذي أجلت لنا قال النار مثواكم خالدين فيهآ إلا ما شآء الله إن ربك حكيم عليم وكذلك نولي بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون يامعشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقآء يومكم هذا قالوا شهدنا على أنفسنا وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين (( )

ولما فصل سبحانه أحوال الفريقين ، وحض على التذكر تنبيها على أن كل ما في القرآن مما يهدي إليه العقل ، وذكر مآل المتذكرين فأفهم أن غيرهم إلى عطب ، لأنهم تولوا ما يضرهم لأنهم تبعوا شهواتهم ، وكان من المعلوم أنهم يعبدون غير مالكهم ، وأنه ما من عبد يخدم غير سيده بغير أمر سيده إلا عاتبه أو عاقبه ، هذا مركوز في كل عقل ؛ ذكر سبحانه ما يتقدم ذلك المآل من الأهوال في الأجل المسمى الذي أخفاه عنده وجعله من أعظم مباني هذه السورة ، وأبهمه في أولها ، وبين في أثنائها بعض أحواله مرارا في وجوه من أفانين البيان ، وهو يوم الحشر ، فذكر هنا سبحانه بعض أحوال

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ٤٧٩/٢

الغافلين وبعض ما يقول لهم فيه وما يفعله معهم من عتاب وعقاب ، لطفا بهم واستعطافا إلى المتاب ، فقال جامعا الفريقين) ويوم) أي اذكر في تذكرك يوم) يحشرهم) أي أهل ولايتنا وأهل عداوتنا) جميعا (لا نذر منهم أحدا) يا) أي فنقول على لسان من نشاء من جنودنا لأهل عداوتنا تبكيتا وتوبيخا حين لا يكون لهم مدافعة أصلا : (معشر الجن) أي المستترين الموحشين من مردة الشياطين المسلطين على الإنس ، وهم يرونهم من حيث لا ترونهم) قد استكثرتم) أي طلبتم وأوجدتم الكثرة) من الإنس) أي من إغواء." (١)

" صفحة رقم ٢١٧

ويخضعوا لأوامره) يغفر لهم (بناه للمفعول لأن النافع نفس الغفران وهو محو الذنب) ما قد سلف (اي مما اجتراه كائنا ما كان فيمحي عينا وأثرا فلا عقاب عليه ولا عتاب) وإن (اي وإن يثبتوا على كفرهم و) يعودوا (إي المغالبة) فقد مضت سنة) أي طريقة) الأولين) أي وجدت وانقضت ونفذت فلا مرد لها بدليل ما سمع من أخبار الماضين وشوهد من حال أهل بدر مما أوجب القطع بأن الله مع المؤمنين وعلى الكافرين ، ومن كان معه نصر ، ومن كان عليه خذل وأخذ وقسر

٧٧ ( ) كتب الله لأغلبن أنا ورسلي ( ) ٧

[المجادلة : ٢١]

٧٧ ( ) و لينصرن الله من ينصره ( ) ٧

[الحج : ٤٠]

٧٧ ( ) والعاقبة للمتقين ( ) ٧

[القصص : ١٢٨] وإن كانت الحرب سجالا .

ولما أشار ختم الآية قتالهم إن أصروا ، وكان التقدير فأقدموا عليهم حيثما عادوكم إقدام الليوث الجريئة غير هائبين كثرتهم ولا قوتهم فإن الله خاذلهم ، عطف عليه قوله مصرحا بالمقصود : (وقاتلوهم) أي دائما) حتى لا تكون فتنة) أي سبب يوجب ميلا عن الدين أصلا) ويكون الدين (ولما كانت هذه الوقعة قد سرت كتائب هيبتها في القلوب فوجبت ايما وجبت ، فضاقت وضعفت صدور الكافرين ، وانشرحت وقويت قلوب المؤمنين ؛ اقتضى هذا السياق التأكد فقال ،) كله لله (اي الملك الأعظم خالصا غير مشوب بنوع خوف أو إعضاء على قذى ، وأصل الفتن : الخلصة المحلية ، ويلزم ذلك أن يكون السبب عظيما لأن الشيء لا يحول عن حاله إلا لأمرعظيم لأن مخالفة المألوف عسرة ، ومنه النتف ، وكذا نفت القدر ، وهو أن يغلي المرق فليزق بجوانبها ، والتنوفه : القفر ، لأنه موضع ذلك ، ويلزمه الإخلاص ، من فتنت اذهب – إذا اذبته فتميز جيده من رديئه ، وتارة يكون الميل إلى جهة الردئ وهو الأغلب ، وتارة إلى الجيد ، ومنه

٧٧ ( ) وفتناك فتونا ( ) ٧

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ٧١٤/٢

[طه : ٤٠] ولما كان لهم حال اللقاء حالان : إسلام وإقبال ، وكفر وإعراض وإخلال ، قال مبينا لحكم القسمين : (فإن انتهوا) أي عن قتالكم بالمواجهة بالأسلام فاقبلوا منهم وانتهوا عن مسهم بسوء ولا تقولوا : أنتم متعوذون بذلك غير مخلصين ، تمسكا بالتأكيد بكله ، فأنه ليس عليكم إلا ردهم عن المخالفة الظاهرة ، وأما الباطن فإلى الله) فإن الله (اي المحيط علما وقدرة ، وقدم المجرور اهتماما به إفهاما لأن العلم به كالمختص به فقال : (بما يعملون) أي وإن دق) بصير (فيجاريهم عليه ، وأما أنتم فلستم عالمين بالظاهر والباطن معا فعليكم قول الظاهر ، والله بما تعلمون أنتم أيضا – من كف عنهم وقتل لله أو لحظ نفس – بصير ، فيجازيكم على حائق الأمور وبواطنها وإن أظهرتم للناس." (١)

" صفحة رقم ٢٤٣

وحرمة ، فيكون من الإزالة ، وآذن العشب : بدأ يجف فبعضه رطب وبعضه يابس كأنه أمكن من جره وجمعه ببدو صلاحه ، والآذن : الحاجب ، لأنه للتمكن والنمع ، والأذنة محركة : صغار الإبل والغنم كأنها تبيح كل أحد ما يريد منها ، وطعام لا أذنة له : لا شهوة لريحة ، فكأنه ممنوع منه لعدم اشتهائه ، وتأذن الأمير في الناس : نادى فيهم بتهدد ، فهو يرجع إلى المنع والزجر عن شيء تعزيرا ، والذين – بالكسر والياء : العنب ، وكذا الذان – بالألف منقلبة عن واو : العنب ، كأنه لسهولة تناوله ولذة مطعمه أمكن من نفسه ، والتذون – ب بالواو مشددة : الغنى والنعمة ، كأنهما سبب للإمكان مما يشتهي ، والذؤنون – مهموزا كزنبور : نبت من نبات الأرض ؛ والمعنى أنه إنما أذن لكم في ذلك إذا فعلتم الشرط المذكور لأنكم فقهتم على الحرب وبنيتم أمركم فيه على دعائمها الخمس التي ملاكها والداخل في كل منها الصبر ، فكان الله معكم ، وهو مع كل صابر هذا الصبرالمثبت في الدعائم الخمس في كل أوان ، ومما يسأل عنه في الآية أنه ابتدئ في العشرات بثاني عقودها ، وفي المئات والآلاف بأولها .

سالت شيخا الإمام انتفى وعلم محقق زمانه شمس الدين محمد بن علي القاياتي قاضي الشافعية بالديار المصرية : ما حكمته ؟ فقال : الأصل الابتداء بأول العقود ، لكن لو قيل : إن يكم منكم عشرة صابرة يغلبوا مائة ، لربما توهم انه لا تجب مصابرة الواحد للعشرة إلا عند بلوغ المؤمنين هذا العقد ، فعدل إلى الابتداء بثاني عقود هذه المرتبة لينتقي هذا المحذور ، فلما انتقى وعلم أنه يجب مصابرة كل واحد لعشرة ، ذكر باقي المراتب في الباقي على الأصل المعتاد ، وأما تكرير المعنى الواحد وهو مقاومة الجماعة لأكثر منها مرتين : قبل التخفيف وبعده فللدلالة – كما قال في الكشاف – على أن الحال مع القلة والكثرة واحدة لا تتفاوت وإن كان قد يظن تفاوته ، وكأنه لم يذك الآحاد بشارة بكثرة هذه الأمة واجتماعها وبدأ بالعشرات وختم بالألوف ليستوفي مراتب الأعداد الأصلية – والله أعلم ولما تقدم الأمر بالإثخان في) فشردبهم (ثم بإعداد القوة ، ثم التحريض على القتال بعد الإعلام بالكفاية ثم إيجاب ثبات الواحد لعشرة ثم إنزال التخفيف إلى اثنين ؛ كذن ذلك مقتضيا للإمعان في الإثخان ، فحس **عتاب** الأحباب في اختيار غير ما أفهمه هذا الخطاب ، لكون ذلك أقعد في الامتنان عليهم بالعفو والغفران بسبب أن أكثرهم مال إلى الفداء الأساري فإن النبي (

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ٢١٧/٣

صلى الله عليه وسلم) استشارهم فيهم فاشار أبو بكر رضي الله عنه بالمفاداة ومال معه الأكثر ، وأشار عمر رضي الله عنه بضرب أعناقهم ، وروري أنه قال (صلى الله عليه وسلم) (لو نزل من السماء عذاب – اي في هذا – ما نجا منه غير عمر وسعد بن معاذ) رضي الله." (١)

" صفحة رقم ٢٤٤

عنهما .

فقال تعالى استئنافا واستنتاجا : (ماكان) أي ما صح وما استقام) لنبي (اي في شرع نبي الأنبياء مستقل ولا مقر ، ولعله عبر بوصف النبوة ليفيد مع العموم أن كلا من رفعه القدر والإخبار من الله يمنع من الإقدام على فعل بدون إذن خاص) أن يكون له أسرى) أي أن ياح له أسر العدو) حتى يثخن في الأرض) أي يبالغ فيقتل أعدائه ، فهو **عتاب** لمن أسر من الصحابة غير من نهى النبي (صلى الله عليه وسلم) عن قتله من المشركين أو رضي بذلك ، وإنما أسند إلى نبي – وقرئ شاذا بالتعريف – ولم يقل : ما كان في شرع نبي ، تهويلا للأسر تعظيما للعفو للمبالغة في القيام بالشكر ، وهذا كان يوم بدر والمسلمون يومئذ قليل ، فلما كثروا واشتد سلطانهم أنزل الله سبحانه وتعالى)) فإما منا بعد وإما فداء ( ) [محمد : ٤] قاله ابن عباس رضي الله عنهما ، ومادة ثخن تدور على الضخامة ، وتارة يلزمها اللين والضعف ، وتارة الصلابة والقوة ، فحقيقته : يبالغ في القتل فيغلظ أمره فيقوى ، ويلين له أعداؤه ويضعفوا ؛ ثم بين لهم ان الميل عن ذلك إنما هو لإرداة الأعراض الدنيوية المبكت به اليهود في آخر التي قبلها بقوله تعالى)) يأخذون عرض هذا الأدنى ( ) [الأعراف : ١٩٦] كما ان النزاع في الأنفال ميل إلى الدنيا ، وكل ذلك بمعزل عن معالي الأخلاق وكرائم السجايا ، معللا لعدم الكون المذكور بما تقديره : لأن الأسر إنما يراد به الدنيا ، هكذا الأصل ولكنه ابرز في اسلوب الخطاب لأنه أوقع في النفس فقال : (تردون) أي أنها المؤمنون المرغبون في الأنفاق لا في الجمع ، باستبقائهم) عرض الدنيا (قال الراغب : العرض ما لا ثبات له ، ومنه استعارة المتكلمون لما لا ثبات له إلا بالجوهر كاللون ، وقال ابن هشام في تهذيب السيرة ، أي المتاع الفداء بأخذ الرجال) والله) أي الذي له الكمال كله) يريد) أي لكم) الاخرة (اي جوهرها لأنه يأمر بذلك لأمرا هو في تأكيده ليمتثل كالإدراة التي لا يتخلف مرادها ، وذلك بالإثخان في قتلهم لظهور الدين الذي تريدون إظهاره والذي به تدرك الآخرة ، ولا ينبغي للمحب أن يريد إلا ما يريد حبيبه) والله) أي الملك العظم) عزيز) أي منزه جنابه العلي عن لحاق شيء مما فيه ادنى سفول) حكيم) أي لا يصدر عنه فعل إلا وهو في غاية الإتقان فهو يامر بالإثخان عند ظهوره قوة المشركين ، فغذا ضعفت وقوي المسلمون فأنتم بالخيار ، ولا يصح ادعاء ولا يته إلا لمن ترقى في معارج صفاته ، فيكون عزيزا في نفسه فلا يدنسها بالأطماع الفانية ، وفعله فلا يحطه عن أوج المعالي إبى حضيض المهاوي ، وحكيما فلا ينشأ عنه فعل إلا وهو في غاية الإتقان .

الأنفال : (٦٨ – ٧١) لولا كتاب من. .. . .

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ٢٤٣/٣

) لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيمآ أخذتم عذاب عظيم فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا واتقوا الله إن الله غفور رحيم يأيها النبي قل لمن في أيديكم من." (١)

" صفحة رقم ٣٢٣

وسطا عدلا مقاربا) لا تبعوك) أي لأجل رجاء العرض مع سهولة السفر لأن هممهم قاصرة ومنوطة بالحاضر) ولكن) أي لم يتبعوك تثاقلا إلى الأرض ورضي بالفاني الحاضر من الباقي الغائب لأنها) بعدت عليهم الشقة) أي المسافة التي تطوى بذرع الأرجل بالمسير فيحصل بها النكال والمشقة فلم يواز ما يحصل لهم بها من التعب ما يرجونه من العرض ، فاستأذنوك ، وفي هذا إشارة إلى ذمهم بسفول الهمم ودناءة الشيم بالعجز والكسل والنهم والثقل ، وإلى أن هذا الدين متين لا يحمله إلا ماضي الهم صادق العزم كما قال الشاعر :

إذا هم ألقى بين عينيه عزمه وأعرض عن ذكر العواقب جانبا

فلله در اولي العزائم والصبر على الشدائد والمغارم ولما ذمهم بالشح بالدنيا ، أتبعه وصمهم بالسماح بالدين فقا مخبرا عما سيكون منهم علما من أعلام النبوة : (وسيحلفون) أي المختلفون باخبار محقق لا خلف فيه) بالله) أي الذي لا أعظم منه عند رجوعكم إليهم جمعا إلى ما انتهكوا من حرمتك بالتخلف الذي يريدون به حياتها لأنهم كذبوا فيه فانتهكوا حرمة اسم الله) والله) أي والحال ان الملك الأعظم المحيط علما وقدرة سبحانه) يعلم إنهم لكاذبون (فقد جمعوا بين إهلاك انفسهم والفضيحة عند الله بعلمه بكذبهم في انهم غير مستطيعين ، وجزاء الكاذب في مثل ذلك الغضب المؤيد الموجب للعذاب الدائم المخلد .

ولما بكتهمعلى وجه الإعراض لأجل التخلف والحلف عليه كاذبا ، اقبل إليه (صلى الله عليه وسلم) **بالعتاب** فبي لذيذ الخطاب على الاسترسال في اللين لهم والائتلاف وأخذ العفو وترك الخلاف إلى هذا الحد ، فقال مؤذنا بأنهم ما تخلفوا إلا بإذنه (صلى الله عليه وسلم) لأعذار ادعوها كاذبين فيها كما كذبوا في هذا الحلف ، مقدما للدعاء على **العتاب** لشدة الاعتناء بشأنه واللطف به (صلى الله عليه وسلم) : (عفا الله) أي ذو الجلال و ا لإكرام) عنك (وهذا كما كانت عادة العرب في مخاطبتهم لأكابرهم بأن يقولوا : أصلح الله الأمير ، والملك - ونحو ذلك ولما كان من المعلوم أنه لا يأذن إلا لما يرى أنه يرضي الله من تألفهم ونحوه ، بين أنه سبحانه يرضى منه ترك الإذن فقال كناية عن ذلك : (

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع - ت: عبدالرزاق غالب)، ٢٤٤/٣

لم اذنت لهم) أي في التخلف عنك تمسكا بما تقدم من الأمر باللين لهم والصفح عنهم موافقا لما جلبت عليه من محبة الرفق ، وهذا إنما كان في أول الأمر لخوف التنازع والفتنة ، وأما الآن فقد علا." (١)

" صفحة رقم ٣٤٦

لأنه أوقع في باب **العتاب** وأقعد في استجلابالمصالح للمتاب : (كالذين (اي حاصل ما مضى من أمركم أيها المنافقون أنكم مثل الذين ؛ ولما كان فاعل ما يذكر إنما هو بعض من مضى اثبت الجار فقال : (من قبلكم) أي من الأمم الخالية ، ثم شرع في شرح حالهم وذكر وجه الشبه فقال : (كانوا اشد منكم قوة (لأن الزمان كان إذ ذاك أقرب إلى سن الشباب) وأكثر أموالا وأولادا (وهذا ناظر إلى قوله : (فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم) فاستمعوا (اي طلبوا المتاع والانتفاع في الدنيا بغاية الرغبة معرضين عن العقبى) بخلاقهم) أي نصيبهم الذي قدره الله وخلقه لهم ، وكان الأليق بهم أن يتبلغوا به في السفر الذي لا بد منه إلى الآخره) فاستمتعتم بخلاقكم) أي كالمقتفين لآثارهم والقاصدين لنارهم)كما استمتع (وفي الإتيان بقوله : (الذين (ولما كانوا لم يستغرقوا الزمن الماضي ، أثبت الجار فقال : (من قبلكم بخلافكم (ظاهرا غير مضمر تنبيه على ذمهم بقلة النظر لنفسهم المستلزم لقلة عقولهم حيث كانوا دونهم في القوة ابدانا وأموالا وأولادا لم يكفوا عن الاستمتاع والخوض خوفا مما محق أولئك الأحزاب على قوتهم من العذاب من غير ان ينفعهم سبب من الأسباب) وخضتم) أي ذهبتم في أقوالكم وافعالكم خبطا على غير ان سببسنن قويم)كالذي) أي كخوضهم الذي من الخوض فب الماء ولا يستعجل غلا في الباطل لأن التصرف في الحق إنما هو على ترتيب ونظام ، وأمور الباطل إنما هي خوض ، ومنه قوله (صلى الله عليه وسلم)) رب متخوض في مال الله له النار يوم القيامة (ولما آذن هذا النظم لهم بالخسارة ، حصل التشوف إلى عاقبة امرهم فأخبر عن ذلك بقوله : (اولئك) أي البعداء من الخير ، والظاهر أنه إشارة إلى الذين وصفهم بالشدة وكثرة الأموال والأولاد) حبطت) أي فسدت فبطلت) اعمالهم في الدنيا (اي بزواله ا عنهم ونسان لذاتها) والآخرة (اي في الدار الباقية لأنهم لم يسعوا لها سعيها ؛ وزاد في التنبيه على بعدهم مما قصدوا لأنفسهم من النفع فقال : (وأولئك هم) أي خاصة) الخاسرون) أي لا خاسر في الحقيقة غيرهم لأنهم خسروا خلاقهم في الدارين فخسروا أنفسهم فلا أخسر ممن تشبه بهم ، ولعل في الالتفات إلى مقام الخطاب." (٢)

" صفحة رقم ٣٦٢

عليهم ، ورهبهم بأنه لا مرد لما يريد من العذاب بقوله : (فإن يتوبوا (ولما كان المقام جديرا بأن يشتد تشوف السامع إلى معرفة حالهمفيه ، حذف نون الكون اختصارا تبيهيا على ذلك فقال) يك (اي ذلك) خيرا لهم (من إصرارهم . ولما كان للنفوس من اصل الفطرة الأولى داعية شديدة إلى المتاب ، وكان القرآن في وعظه زاجرا مقبول **العتاب** عظيم الأخذ بالقلوب والعطف للألباب ، أشار إلى ذلك بصيغة التفعيل فقال : (وإن يتولوا) أي يكلفوا أنفسهم الإعراض عن المتاب) يعذبهم الله) أي المحيط بكل شيء قدرة وعلما بحوله وقوته) عذابا أليما) أي لا صبر لهم عليه) في الدنيا

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ٣/٣٢٣

(٢) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ٣/٣٤٦

) أي بما هم فيه من الخوف والخزي والكلف وغيرها) والآخرة) أي بالعذاب الأكبر الذي لا خلاص لهم منه) وما لهم في الأرض) أي التي لا يعرفون غيرها لسفول هممهم) من ولي) أي يتولى أمورهم فيصلح ما أفسد العذاب منهم أو يشفع لهم) ولا نصير) أي ينقذهم ؛ وأما السماء فهم أقل من أن يطمعوا منها بشيء ناصر أو غيره وأغلظ أكبادا من أن يرتقي فكرهم إلى ما لها من العجائب وما بها من الجنود ؛ وسبب نزول الآية على ما قال ابن عباس رضي الله عنهما ان النبي (صلى الله عليه وسلم) كان جالسا في ظل شجرة فقال : سيأتيكم إنسان ينظر إليكم بعيني شيطان ، فإذا جاء فلا تكلموه ، فلم يلبثوا أن طلع رجل أرزق فدعاه رسول الله صلى اله عليه وسلم فقال : علام تشتمني انت وأصحابك ؟ فانطلق الرجل فجاء بأصحابه فحلفوا بالله .

ما قلوا ، فأنزل الله الآية ؛ وقال الكلبي : نزلت في الجلاس بن سويد ، وذلك أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) خطب ذات يوم بتبوك فذكر المنافقين فسماهم رجسا وعابهم فقال الجلاس : لئن كان محمدا لصادق وأنتم شر من الحمير ، فلما انصرف رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إلى المدينة أتاه عامر بن قيس فأخبره بما قاله الجلاس ، فقال الجلاس : كذب علي يا رسول الله فأمرهما رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أن يحلفا عند المنبر فقام الجلاس عند بعد العصر فحلف بالله الذي لا إله إلا هو ما قاله ولقد كذب علي عامر ، وقام عامر فحلف بالله الذي لا إله إلا هو ما قاله ولقد ثم رفع عامر رضي الله عنه يديه إلى السماء فقال : اللهم انزل على نبيك تصديق الصادق منا ، فقال النبي (صلى الله عليه وسلم) والمؤمنون آمنين فنزل جبريل عليه السلام قبل أن يتفرقا بهذه الآية حتى بلغ) فغن تبوبوا يك (اي التوب) خيرا لهم (فقام الجلاس فقال : يا رسول الله اسمع الله قد عرض علي التوبة ، صدق عامر بن قيس فيما قاله ، لقد قلته ، ." (١)

" صفحة رقم ٣٧٧

) فأعرضوا عنهم (إعراض المقت ؛ روي أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال (لا تجالسوهم ولا تكلموهم) ثم علل وجوب الإعراض بقوله) إنهم رجس) أي لا يطهركم **العتاب** فهو عبث .

ولما كان من المقرر انه لا بد لهم من جزاء ، وأن النفس تتشوف إلى معرفته ، قال : (ومأواهم (اي في الآخرة) جهنم جزاء) أي لأجل جزائهم) بما كانوا يكسبون) أي فلا تتكلفوا لهم جزاء غير ذلك بتوبيخ ولا غيره ؛ المرتبة ؛ الثالثة الحلف للرضى عنهم فقال : (يحلفون لكم) أي مجتهدون في الحلف بمن تقدم أنهم يحلفون به وهو الله) لترضوا عنهم (خوفا من غائلة غضبكم) فإن ترضوا عنهم) أي لمجرد أيمانهم المبني على عدم إيمانهم) فإن الله) أي الذي له الغنى المطلق) لا يرضى (عنهم ، هكذا كان الأصل ولكنه قال : (عن القوم الفاسقين (إشارة إلى تعليق الحكم بالوصف وتعميما لكل من اتصف بذلك ، والمعنى أنه لا ينفعهم رضاكم وتكونون به مخالفين الله ، فهو في الحقيقة نهي للمؤمنين عن الرضى عنهم ، أبرز في هذا الأسلوب العجيب المرقص ، وفي ذلك رد على من يتوهم أن رضى المؤمنين لو رضوا عنهم يقتضي رضى الله ، فإن ذلك رد نزعة مما يفعل الأخبار والرهبان في رضاهم وغضبهم وتحليلهم ونحرسيمهم

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ٣٦٢/٣

الذي يعتقد أتباعهم أنه عن الله تعالى .

ولما ترتب سبحانه الاستئذان في العقود والرضى بما فيه من الدناءة على عدم الفقه تارة والعلم اخرى وختم بصنف الأعراب ، بين أن الأعراب أولى بذلك لكونهم أعرق في هذا الوصف وأجرأ على الفسق لبعدهم عن معدن العلم وصرفهم أفكارهم في غير ذلك من أنواع المخازي لتحصيل المال الذي كلما داروا عليه طار عنهم فأبعد .

فهم لا يزالون في همه قد شغلهم ذلك عن كل هم وهم يحسبون انهم يحسبون صنعا فقال تعالى : (الأعراب) أي اهل البدو) اشد (اي من اهل المدر) كفرا ونفاقا (لبعدهم عن دار الهجرة ومعدن العلم وجفائهم بأن مرائي قلوبهم لم تصقل بأنوار الكتاب والسنة) وأجدر أن) أي وأحق بأن) لا يعلموا (ولما كان الإحجام أصعب من الإقدام ، وأطراف الأشياء المختلطة في غاية الإلباس ، قال : (حدود ما أنزل الله) أي المحيط علما وحكمة بكل شيء) على رسوله) أي الذي أعلم الخلق من القرآن والشرائع والأحكام لعدم إقبالهم عليه شغلا بغيره فإن الله يعلم ذلك منهم) والله) أي الذي له." (١)

" صفحة رقم ٤١٤

خالصا ينفي كل معصية صغيرة أو كبيرة وكل هفوة جليلة أو حقيرة على اختلاف الرتب وتباين المقامات) وبشر) أي خص) الذين آمنوا) أي اوجدوا هذا الوصف وعملوا تصديقا لدعواهم له الصالحات ، اي من الأعمال اللسانية وغيرها ، بالبشارة بقبول حسناتهم وتكفير سيئاتهم والتجاوز عن هفواتهم وترفع درحجاتهم كما كان إرسال الرسل قبله وكما هو مقتضى العدل في إثابة الطائع الطائع وعتاب العاصي ، والإنذار : افعلام بما ينبغي ان يحذر منه ، والتبشير : التعريف بما فيه السرور ، واضاف القدم – الذي هو السابقة بالطاعة – إلى الصدق في قوله تعالى موصلا لفعل البشارة إلى المبشر به دون حرف جر : (أن لهم) أي خاصة) قدم صدق (اي عمالا حقة ثابته قدموها لأنفسهم صدوا فيها وأخلصوا فيما يسروا له لأنهم خلقوا له وكان مما يسعى إليه بالإقدام ، وزاد في البشارة بقوله : (عند ربهم (ففي إضافة القدم تنبيه على أنه يجب أن يخلص له الطاعة كإخلاص الصدق من شوائب الكذب ، وفي التعبير بصفة الإحسان إشارة إلى المضاعفة .

ولما ثبت أن الرسول وام أرسل به على وفق اعادة ، انتفى أن يكون عجبا من هذه الجهة ، فصار المحل قابلا لأن يتعجب منهم فيقال : ما قالوا حين اظهروا العجب ؟ ومن أي وجه رأوه عجبا ؟ فقيل : (قال الكافرون (اي الراسخون في هذا الوصف منهم وتبعهم غيرهم مؤكدين ماحق قولهم من الإنكار) إن هذا) أي القول وما تضمنه من الإخبار بما لا يعرف من البعث وغيره) لسحر (اي محمد لساحر – كما في قراءة ابن كثير وحمزة والكسائي) مبين (اي ظاهر في نفسه ، وهو من شدة ظهوره مظهر لكل شيء أنه كذلك ، فجاؤوابما هو في غاية البعد عن وصفه ، فإن السحر قد تقرر لكل ذي لب انه – مع كونه تمويها لا حقيقة له – شر محض ليس فيه شيء من الحكمة فضلا عن ان يمتطي الذروة منه مع أن في ذلك ادعاءهم أمرا متناقضا ، وهو أنه من قول البشر كما هي العادة في السحر ، وانهم عاجزون

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ٣٧٧/٣

عنه ، لأن السحر فعل تخفي الحيلة فيه حتى يتوهم الإعجاز به ، فقد اعترفوا بالعجز عنه وكذبوا في ادعاء أنه لسحر لأن الآتي به منهم لم يفارقهم قط وما خالط عالما لا بسحر ولا غيره حتى يخالطهم فيه شبهة ، فهم يعلمون ان قولهم في غاية الفساد ، فشرع سبحانه يقيم الدليل على بطلان قولهم من أنه – مع ما تضمنه من البعث – سحر ، وعلى حقيقة انه من عنده من غير شبهة ، وعلى أن الرسالة لا عجب فيها ، لأنه سبحانه خلق الوجود كله وهو نافذ الأمر فيه وقد ابتلى من فيه من العقلاء ليردهم إليه ويحاسبهم فإنه لم يخلقهم سدى لأنه حكيم ، فلا بد من رسول يخبرهم بما يرضيه وما يغضبه لتقوم بذلك الحجة فقال : (إن ربكم) أي الموجد لكم." (١)

" صفحة رقم ٣٠٠

تقدير من التقادير) للذين كفروا) أي بعد شهادة الشهداء في الاعتذار كما يؤذن في هذه الدار للمشهود عليه عند سؤال في الإعذار ، لأنه لا عذر هناك في الحقيقة) ولا هم) أي خاصة) يستعتبون) أي ولا يطلب منهم **الإعتاب** المؤثر للرضى وهو إزالة العتب وهو الموجدة المعبر بها عن الغضب المعبر به عن آثاره من السطوة والانتقام ، وأخذ العذاب لأهل الإجرام من قبيح ما ارتكبوا ، لأن تلك الدار ليست بدار تكليف ؛ ثم وصل به أن ما يوجبه الغضب يدوم عليهم في ذلك اليوم ، فقال تعالى عاطفا على ما بعد (ثم) : (وإذا رءا (وأظهر موضع الإضمار تعميما فقال تعالى : (الذين ظلموا (فعبر بالوصف الموجب للعذاب) العذاب (بعد الموقف وشهادة الشهداء ، وجزاء الشرط محذوف لدلالة ما قرن بالفاعلية تقديره : لابسهم) فلا يخفف) أي يحصل تخفيف بنوع من الأنواع ولا بأحد من الخلق) عنهم (شيء منه) ولا هم ينظرون (بالتأخير ولا لحظة بوجه من الوجوه على تقدير من التقادير من أحد ما .

ولما بين سبحانه حاصل امرهم في البعث وما بعده ، وما من أهم المهم أمرهم في الموقف مع شركائهم الذين كانوا يترجمهم ، عطف على ذلك قوله تعالى : (وإذا رءا) أي بالعين يوم القيامة) الذين أشركوا (فأظهر أيضا الوصف المناسب للمقام) شركاءهم) أي الآلهة التي كانوا يدعونها شركاء) قالوا ربنا (يا من أحسن إلينا وربانا) هؤلاء شركاؤنا (أضافوهم إلى أنفسهم لأنه لا حقيقة لشركتهم سوى تسميتهم لها الموجب لضرهم ؛ ثم بينوا المراد بقولهم : (الذين كنا ندعوا) أي نعبد .

ولما كانت المراتب متكثرة دون رتبته سبحانه لأن علوه غيرمنحصر ، أدخل الجار فقال تعالى : (من دونك (ليقربونا إليك ، فأكرمنا لأجلهم جريا على منهاجهم في الدنيا في الجهل والغباوة ، فخاف الشركاء من عواقب هذا القول والإقرار عليه سطوات الغضب) فألقوا) أي الشركاء) إليهم) أي المشركين) القول) أي بادروا به حتى كان إسراعه إليهم شيء ثقيل يلقى من علو ؛ وأكدوا قولهم لأنه مطاعنة لقول المشركين فقالوا : (إنكم لكاذبون (في جعلنا شركاء وأنا نستحق العبادة أو نشفع أو يكون لنا أمر نستحق به أن نذكر) وألقوا) أي الشركاء) إلى الله) أي الملك الأعلى) يومئذ) أي يوم القيامة إذ نبعث من كل أمة شهيدا) السلم) أي الانقياد والاستسلام بما علم به الكفار أنهم من جملة العبيد لا أمر لهم أصلا ، فأصلد زندهم ، وخاب قصدهم ، وقيد بذلك اليوم لأنهم كانوا في الدنيا – بتزيين الشياطين لأمورهم ونطقهم

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ٤١٤/٣

على ألسنتهم – بحيث يظن عابدوهم أن لهم منعة ، ويهم قوة ويجوز أن يكون ضمير (ألقوا) للمشركين) وضل عنهم) أي عن الكفار) ما كانوا) أي بجبلاتهم) يفترون) أي يتعمدون من." (١)

" صفحة رقم ٢١٥

المرحوم في إزالة ضرره هو معنى) وكشفنا (اي بما من العظمة) ما بهم من ضر (وهو الذي عرض جؤارهم بسببه) للجوا) أي تمادوا تماديا عظيما) في ظغيانهم (الذي كانوا عليه قبل الجؤار وهو إفراطهم في منابذة الحق والاستقامة) يعمهون) أي يفعلون من التحير والتردد فعل من لا بصيرة له في السير النحرف عن القصد ، والجائر عن الاستقامة ، قال ابن كثير : فهذا من باب علمه بما لا يكون لو كان كيف كان يكون ، قال الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما : كل ما فيه (لو) فهو مما لا يكون أبدا .

ثم أتبع هذا الدليل تأييدا له ما يدل على أنهم لا يسلكون الصراط غلا اضطرارا فقال : (ولقد أخذناهم) أي بما لنا من العظمة) بالعذاب) أي بمطلقه كإظهار حزب الله عليهم في بدر وغيرها) فما استكانوا) أي خضعوا خضوعا هو كالجبلة لهم) لربهم (المحسن إليهم عقب المحنة ، وحقيقته ما طلبوا أن يكون وا له ليكرموا مقام العبودية من الذب والخضوع والانقياد لأموامره تاركين حظوظ أنفسهم ، والحاصل أنه لما ضربهم بالعذاب كان من حقهم أن يكونوا له لا لشركائهم ، فما عملوا بمقتضى ذلك إيجادا ولا طلبا) وما يتضرعون (اي يجددون الدعاء بالخضوع والذل والخشوع في كل وقت بحيث يكون لهم عادة ، بل هم على ما جلبوا عليه من الاستكبار والعتو إلا إذا التقت حلقتا البطان ، على عتوهم) حتر إذا فتحنا) أي بما لنا من العظمة ، ودل على أنه فتح عذاب فقال : (عليهم بابا (من الأبواب التي نقهر بها من شئنا بحيث يعلوه أمرها ولا يستطيع دفعها) ذا عذاب شديد (يعني القتل والأسر يوم بدر – قاله ابن عباس رضي الله عنهما ، أو القحط الذي سلطه عليهم غجابة لدعوة النبي (صلى الله عليه وسلم) في قوله : (اللهم أعني عليهم بسبع كسبع يوسف)) إذا هم فيه) أي ذلك الباب مظرفون لا يقدرون منه على نوع خلاص) مبلسون) أي متحيزون ساكنون على ما في أنفسهم آئسون لا يقدرون أن ينطقوا بكلمة ، داخلون في الإبلاس وهو عدم الخير ، متأهلون لسكنى (بولس) وهو سجن جهنم ، لعدم جعلهم التضرع وصفا لهم لازما غير عارض ، والخوف من الله شعارا دائما غير مفارق ، استحضارا لقدرته واستكبارا لعظمته ؛ ثم التفت غلى خطابهم ، استعطافا **بعتابهم** ، لأنه عند التذكير بعذابهم أقرب إلى إيابهم ، فقال : (وهو) أي ما استكانوا لربهم والحال أنه هو لا غيره) الذي أنشأ لكم (يا من يكذب بالآخرة ، على غير مثال سبق) السمع والأبصار (ولعله جمعها لأن التفاوت فيها أكثر من التفاوت في السمع) والأفئدة (التي هي مراكز العقول ، فكنتم بها أعلى من بقية الحيوانات ، جمع." (٢)

" صفحة رقم ٢٤٢

عنهم ، فكانت تبكي معها ، وسأل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عن عائشة رضي الله عنها جاريتها بريرة رضي

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ٣٠٠/٤

(٢) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ٢١٥/٥

الله عنها فاستعظمت أن يظن في عائشة رضي الله عنها مثل ذلك فقالت : سبحان الله والله ما علمت عليها إلا ما يعلم الصائغ على تبر الذهب الأحمر ، وخطب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الناس على المنبر واستعذر ممن تكلم في أهله وما علم عليهم إلا خيرا ، وشهد رسول الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق بصلاح صفوان بن المعطل رضي الله عنه وأنه ما علم عليه إلا خيرا ، فكاد الناس يقتتلون فسكنهم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، ثم دخل بعد أن صلى العصر على عائشة رضي الله عنها وهي تبكي والأنصارية معها فوعظها ، فأجابت وأجادت ، فأنزل الله على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في ذلك المجلس فأخذه ما كان يأخذه من البرجاء ، قالت عائشة رضي الله عنها : فأما أنا حين رأيت من ذلك ما رأيت فو الله ما فزعت وما باليت ، قد عرفت أني بريئة ، وأن الله غير ظالمي ، وأما أبواي فوالذي نفس عائشة بيده ما سري عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حتى ظننت لتخرجن أنفسهما فرقا من أن يأتي الله بيحقيق ما قاله الناس ، قالت : فرفع عنه وإني لأتبين السرور في وجه وهو يمسح عن جبينه العرق ويقول : (أبشري يا عائشة ، فقد أنزل الله براءتك) ، فكنت اشد ما كنت غضبا ، فقال لي أبواي : قومي إليه فقلت : والله لا أقوم إليه ولا أحمده ولا أحمدكما ولا أحمد إلا الله الذي أنزل براءتي ، لقد سمعتمه فما أنكرتمه ولا غيرتموه ، وأنزل الله تعالى : (إن الذين جاؤوا بالإفك (العشر الآيات كلها ، قالت عائشة رضي الله عنها : والله إن الرجل الذي قيل له ما قيل ليقول : سبحان الله والذي نفسي بيده ما كشفت كنف أنثى قط .

قالت : ثم قتل بعد ذلك شهيدا في سبيل الله .

النور : (١٢ - ١٦) لولا إذ سمعتموه. .. . .

) لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا وقالوا هذآ إفك مبين لولا جآءوا عليه بأربعة شهدآء فإذ لم يأتوا بالشهدآء فأولئك عند الله هم الكاذبون ولولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة لمسكم في مآ أفضتم فيه عذاب عظيم إذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنآ أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم (( )

ولما أخبر سبحانه وتعالى بعقابهم ، وكان من المؤمنين من سمعه فسكت ، وفيهم من سمعه فتحدث به متعجبا من قائله ، أو مستثبيتا في أمره ، ومنهم من كذبه ، أتبعه سبحانه **بعتابهم** ، في أسلوب خطابهم ، مثنيا على من كذبه ، فقال مستأنفا محرضا : (لولا) أي هلا ولم لا) إذ سمعتموه (أيها المدعون للإيمان .

ولما كان هذا الإفك قد." (١)

" صفحة رقم ٢٤٨

الزاكي من غير المعصومين قد يزل ، فتدركه الزكاة بالتوبة فيرجع كما كان ، وقد تكون الثلاثة لموصوف واحد لأن سبب نزولها مسطح رضي الله عنه ، فالعطف إذن للتمكن في كل وصف منها .

ولما كان النهي عن ذلك غير صريح في العفو ، وكان التقدير : فلؤتوهم ، عطف عليه مصرحا بالمقصود قوله : (وليعفوا

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع - ت: عبدالرزاق غ ا لب)، ٢٤٢/٥

(اي عن زللهم بأن يمحوه ويغطوه بما يسلبونه عليه من أستار الحلم حتى لا يبقى له أثر .

ولما كان المحو لا ينفي التذكر قال : (وليصفحوا) أي يعرضوا عنه أصلا ورأسا ، فلا يخطروه لهم على بال ليثمر ذلك افحسان ، ومنه الصفوح وهو الكريم .

ولما كانت لذة الخطاب تنسي كل **عتاب** ، أقبل سبحانه بفضله ومنه وطوله على أولي الفضل ، مرغبا في أن يفعلوا بغيرهم ما يحبون أن يفعل بهم ، مرهبا من أن يشدد عليهم إن شددوا فقال : (ألا تحبون (اي يا أولي الفضل) أن يغفر الله (اي الملك الأعظم) لكم (اي م ا قصرتم في حقه ، وسبب نزولها كما في الصحيح منحديث عائشة رضي الله عنها أن أباها رضي الله تعالى عنه كان حلف ما بعد برأ الله عائشة رضي الله عنها أن لا ينفق على مسطح ابن خالته لكونه خاض من أهل الإفك ؛ وفي تفسير الأصبهاني عن ابن عباس رضي الله عنهما : أقسم ناس من الصحابة فيهم أبو بكر رضي الله عنهم أن لا يتصدقوا على رجل تكلم بشيء من الإفك ولا ينفعوهم فأنزل الله هذه الآية .

وناهيك بشهادة الله جل جلاله للصديق بأنه من أولي الفضل فيا له من شرف ما أجلاه ومن سؤدد وفخار ما أعلاه ولا سيما وقد صدقه رضي الله عنه بالعفو عمن شنع على ثمرة فؤاده ومهجة كبده ، وهي أنه لا ينقطع النفقة عنه أبدا ، فيا لله من أخلاق ما أبهاها وشمائل ما أطهرها وأزكاها وأشرفها وأسندها .

ولما كان الجواب قطعا كما أجاب الصديق رضي الله عنه : بلى والله إنا لنحب أن يغفر الله لنا ، وكان كأنه قيل : فاغفروا لمن أساء إليكم ، فالله حكم عدل ، يجازيهم على إساءتهم إليكم إن شاء ، والله عليم شكور ، يشكر لكم ما صنعتم إليهم ، عطف عليه قوله : (والله (اي مع قدرته الكاملة وعلمه الشامل) غفور رحيم (من صفته ذلك ، إن شاء يغفر لكم ذنوبكم بأن يمحوها فلا يدع لها أثرا ويرحمكم بعد محوها بالفضل عليكم كما فعلتم معهم ، فإن الجزاء من جنس العمل .." (١)

" صفحة رقم ٣٦٢

والخبز الفطير للإسراع ، وألطخوا **أعتابكم** بالدم ، لني أوصيت الملائكة الذين يقتلون الأبكار أن لا يدخلوا بيتا على بابه دم ؛ ثم علل أمر له بالسير في الليل بقوله : (إنكم متبعون) أي لا تظن أنهم لكثرة ما رأوا من الآيات يكفون عن اتباعكم ، فأسرع بالخروج لتبعدوا عنهم إلى الموضع الذي قدرت في الأزل أن يظهر فيه مجدي ، والمراد توافيهم عند البحر ، ولم يكتم اتباعكم عن موسى عليه السلام لعدم تأثره به لما تحقق عنده من الحفظ لما تقدم به لاوعد الشريف بذلك التأكيد .

ولما كان التقدير : فأسرى بهم امتثالا للأمر بعد نصف الليل ، عطف عليه قوله : (فأرسل فرعون) أي لما أصبح وأعلم بهم) في المدائن حاشرين) أي رجالا يجمعون الجنود بقوة وسطوة وإن كرهوا ، ويقولون تقوية لقلوبهم وتحريكا لهممهم : (إن هؤلاء (إشارة بأداة القرب تحقيرا لهم إلى أنهم في القبضة وإن بعدوا ، لما بهم م ن العجز ، وبآل فرعون من القوة ، فليسوا بحيث يخاف قوتهم ولا ممانعتهم) لشرذمة) أي طائفة وقطعة من الناس .

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ٢٤٨/٥

ولما كانت قلتهم إنما هي بالنسبة إلى كثرة آل فرعون وقوتهم وما لهم عليهم من هيبة الاستبعاد ، وكان التعبير بالشرذمة موهما لأنهم في غاية القلة ، أزال هذا الوهم بالتعبير بالجمع دون المفرد ليفيد أنه خبر بعد خبر ، لا صفة ، وأن التعبير بالشرذمة إنما هو للإشارة إلى تفرق القلوب ، والجمع ولا سيما ما للسلامة مع كونه ايضا للقلة أدل على أنهم أوزاع ، وفيه أيضا إشارة إلى انهم مع ضعفهم بقلة العدد آيسون من إسعاف بمدد .

وليس لهم أهبة لقتال لعدم العدة لأنهم لم يكونوا قط في عداد من يقاتل كما تقول لمن تزدريه : هو أقل من أن يفعل كذا ، فقال : (قليلون) أي بالنسبة إلى ما لنا من الجنود التي لا تحصى وإن كانوا في أنفسهم كثيرين ، فلا كثرة لهم تمنعكم أيها المحشورون من اتباعهم ؛ قال ،البغوي عن ابن مسعود رضي الله عنهما : كانوا ستمائة ألف وتسعين ألفا ، ولا يحصى عدد أصحاب فرعون – انتهى .

وكل هذا بيان لأن فرعون مع تناهي عظمته لم يقد على أثر ما في موسى عليه السلام ولا من اتبعه تحقيقا لما تقدم من الوعد به أول القصة .

ولما ذكر ما يمنع الخوف من اتباعهم ، ذكر ما يوجب الحث عليه ويحذر من التقاعس عنه فقال : (وإنهم لنا (ونحن على ما نحن عليه من الكثرة والعظمة) لغائظون (اي بما فجعونا به من أنفسهم وما استعاروه من الزينة من أواني الذهب والفضة وفاخر الكسوة ، فلا رحمة في قلوبكم تحميهم .

ولما كان مدار مادة (شرذم) على التقطع .

فكان في التعبير بها إشارة إلى أنهم مع." (١)

" صفحة رقم ٤١٥

قوة تدرك بها تخاطبا بينها يتفاهم كل نوع منها بع فيما يريد ، ويكون ذلك قاصرا عن إدراك الإنسان لخصوصه بالجزئيات الناشئة عن الحسيات) وأوتينا (ممن له العظمة بأيسر أمر من أمره) من كل شيء) أي يكمل به ذلك من اسباب الملك والنبوة وغيرهما ، وعبر بأداة الاستغراق تعظيما للنعمة كما يقال لمن يكثر تردد الناس إليه : فلان يقصده كل أحد .

ولما كان هذا أمرا باهرا ، دل عليه بقوله مؤكدا بانواع التأكيد وشاكرا حاثا لنفسه على مزيد الشكر وهازا لها إليه : (إن هذا) أي الذي أوتيناه) لهو الفضل المبين) أي البين في نفسه لكل من ينظره ، الموضح لعلو قدر صاحبه ووحدانية مفيضة مؤتية .

ولما كان هذا مجرد خبر ، أتبعه ما يصدقه فقال : (وحشر) أي جمع جمعا حتما بقهر وسطوة وإكراه بأيسر سعي) لسليمان جنوده (.

ولما دل ذلك على عظمه ، زاد في الدلالة عليه بقوله : (من الجن (بدأ بهم لعسر جمعهم) والأنس (ثنى بهم لشرفهم ومشاركتهم لهم في ذلك من حيث تباعد أغراضهم وتناءي قصودهم .

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ٣٦٢/٥

ولما ذكر ما يعقل وبدأ به لشرفه ، أتبعه ما لا يعقل فقال : (والطير (ولما كان الحشر معناه الجمع بكره ، فكان لا يخلو عن انتشار ، وكان التقدير : وسار بهم في بعض الغزوات ، سبب عنه قوله تعظيما للجيش وصاحبه : (فهم يوزعون) أي يكفون بجيش أولهم على آخرهم بأدن أمر وأسهله ليتلاحقوا ، فيكون ذلك أجدر بالهيبة ، وأعون على النصرة ، وأقرب إلى السلامة ؛ عن قتادة أنه كان على كل صنف من جنوده وزعة ترد أولاها على أخرها لئلا يتقدموا في المسير ، قال : والوازع : الحابس وهو النقيب .

وأصل الوزع الكف والمنع .

ولما كان التقدير : فساروا ، لأن الوزع لا يكون إلاعن سير ، غياه بقوله : (حتى إذا أتوا) أي أشرفوا .

ولما كان على بساطه فوق متن الريح بين السماء والأرض .

عبر بأداة الاستعلاء فقال : (علی واد النمل (وهو واد بالطائف – كما نقله البغوي عن كعب ، وهو الذي تميل إليه النفس فإنه معروف إلى الآن عندهم بهذا الاسم ، ويسمى أيضا نخب وزن كتف ، وقد رأيته لما قصدت تلك الديار لرؤية مشاهدها ، والتطوف في معابدها ومعاهدها .

والتبرك بآثار الهادي ، في الانتهاء والمبادىء ، ووقفت بمسجد فيه قرب سدرة تسمى الصادرة مشهور عندهم أن النبي (صلى الله عليه وسلم) صلى به ، وهذه السدرة مذكورة في غزوة الطائف من السيرة الهشامية واقتصر في تسمية الوادي على نخب ، وأنشدت فيه يوم وقوفي ببابه ، وتضرعي في **أعتابه** :." (١)

" صفحة رقم ٦٤٥

إيساغ الحلية فيي وجه يزيل ما ظهر من التقصير لأنهم لا عذر لهم وإن بالغوا في إثباته ، والعبارة شديدة جدا من حيث كانت تعطي أن من وقع منه ظلم ما يوما ما كان هذا حاله ، وهي تدل على أنه تكون منهم معاذير ، وترقق كثير ، وتذلل كبير ، فلا يقبل منه شيء – هذا على قراءة الجماعةيتأنيث الفعل وهي أبلغ من قراءة الكوفيين للعصاة من المؤمنين ، فإن منهم من ينفعه الاعتذار فيعفى عنه ، ويشهد لهذا ما ورد في آخر أهل النار خروجا منها أنه يسأل في صرف وجهه عنها ويعاهد ربه سبحنه أنه لا يسأله غير ذلك ، فإذا صرفه عن ذلك رأى شجرة عظيمة فيسأل أنيقدمه غلى ظلها فيقول الله : ألست أعطيت العهود والمواثيق أن لا تسال ؟ فيقولك بلى يارب ولكن لا أكون أشق منه أن يزيل العتب لأن ذلك لا يمكن إلا بالعمل ، وقد فات محله ، فأتت المغفرة من وراء ذلك كله .

ولما كان **العتاب** من سنة الأحباب قال : (ولا هم) أي والذين وضعوا الأشياء في غير مواضعها) يستعتبون) أي يطلب منهم ظاهرا أوباطنا بتلويح أو تصريح أن يزيلوا ما وقعوا فيه مما يوجب العتب ، وهو الموجدة عن تقصير يقع فيه المعتوب ، لأن ذلك لا يكون إلا بالطاعة وقد فات محلها بكشف الغطاء لفواتالدار التي تنفع فيها الطاعات لكونها إيمانا بالغيب ، والعبارة تدل على أن المؤمنين يعاتبون **عتابا** يلذذهم .

ولما أبانت هذه السورة طرق الإيمان اي بيان ، وألقت على وجوه أهل الطغيان غاية الخزي والهوان ، وكان التقدير : لقد

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ٤١٥/٥

أتينا في هذه السورة خاصة بعد عموم ما في سائر القرآن بكل حجة لا تقوم لها الأمثال ، ولم نبق لأحد عذرا ولا شيئا من إشكال ، لكونها ليس لها في وضوحها مثال ، عطف عليه قوله صارفا الكلام إلى مقام العظمة تقبيحا لمخافتهم لما يأتي من قبله وترهيبا من الأخذ مؤكدا لأنهم ينكرون أن يكون في القرآن دلالة ، ومن أقر منهم مع الكفر فكفره قائم مقام إنكاره : (ولقد ضربنا (.." (١)

" صفحة رقم ٦

الحائزون ن منازل القربة أعظم رتبة) على هدى) أي عظيم هم متمكنون منه تمكن المستعلي على الشيء ، وقال : (من ربهم (تذكيرا لهم بأنه لو لا إحسانه ما وصلوا ألى شيء .

ليلزموا تمزيع الجباه على **الأعتاب** ، خوفا من الإعجاب) وأولئك هم) أي خاصة) المفلحون) أي الظافرون بكل مراد .

ولما كان فطم النفس عن الشهوات .

أعظم هدى قائد إلى حصول المرادات ، وكان اتباعها الشهوات أعظم قاطع عن الكمالات ، وكان في ختام الروم أن من وقف مع الموهومات عن طلب المعلومات مطبوع على قلبه ، وكان ما دعا إليه الكتاب هو الحكمة التي نتيجتها الفوز ، وما دعا إليه اللهو هو السفه المضاد للحكمة ، بوضع الأشياء في غير مواضعها ، المثمر للعطب ، قال تعالى معجبا ممن يترك الجد إلى اللهو ، ويعدل عن جوهر العلم إلى صدق السهو ، عاطفا على ما تقديره : فمن الناس من يتحلى بهذا الحال فيرقى إلى حلبة أهل الكمال : (ومن (ويمكن أن يكون حالا من فاعل الإشارة .

أي أشير إلى آيات الكتاب الحكيم حال كونه هدى لمن ذكر والحال أن من) الناس (الذين هم في أدنى رتبة الإحساس ، لم يصلوا إلى رتبة أهل الإيمان ، فضلا عن مقام أولي الإحسان .

ولما كان التقدير : من يسير بغير هذا السير ، فيقطع نفسه عن كل خير ، عبر عنه بقوله : (من يشتري) أي غير مهتد بالكتاب ولا مرحوم به) لهو الحديث) أي ما يلهي من الأشياء المتجددة التي تستلذ فيقطع بها الزمان من الغناء والمضحكات وكل شيء لا اعتبار فيه ، فيوصل النفس بما أوصلها إليه من اللذة إلى مجرد الطبع البهيمي فيدعوها إلى العبث من اللعب كالرقص ونحوه مجتهدا في ذلك معملا الخيل في تحصيله باشتراء سببه ، معرضا عن اقتناص العلوم وتهذيب النفس بها عن العموم والغموم ، فينزل إلى أسفل سافلين كما علا الذي قبله بالحكمة إلى أعلى عليين – قال ابن عباس رضي الله عنهما : نزلت في رجل اشترى جارية تغنيه ليلا ونهارا ، وقال مجاهد : في شرى القيان والمغنين والمغنيات ، وقال ابن مسعود : اللهو الغناء ، وكذا قال ابن عباس وغيره .

ولما كان من المعلوم أن عاقبة هذه الملاهي الضلال ، بانهماك النفس في ذلك ، لمل طبعت عليه من الشهوة لمطلق البطالة ، فكيف مع ما يثير ذلك ويدعو إليه من اللذاذة ، ." (٢)

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ٥/٦٤٥

(٢) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ٦/٦

" صفحة رقم ١٠٠

العذاب) أي بسبب ذلك ، ولما هول الأمر بالمفاعلة في قراءة نافع المفهمة لأكثر من اثنين كما مضى في البقرة ، سهله بقوله : (ضعفين) أي بالنسبة إلى ما لغيرها لأن مقدارها لا يعشره مقدار غيرها كما جعل حد الحر ضعفي ما للعبد ، وكما جعل أجرهن مرتين .

واشتد **العتاب** فيما بين الأحباب ، وعلى قدر علو المقام يكون الملام ، وبقدر النعمة تكون النقمة ، وكل من بناء يضاعف للمجهول من باب المفاعلة أو التفعيل لأبي جعفر والبصريين أو للفاعل بالنون عند ابن وكثير وابن عامر يدل على عظمته سبحانه ، والبناء للمجهول يدل على العناية بالتهويل بالعذاب بجعله عمدة الكلام وصاحب الجملة بإسناد الفعل إليه ، وذلك كله إشارة إلى أن الأمور الكبار صغيرة عنده سبحانه لأنه لا يضره شيء ولا ينفعه ، ولا يوجب شيء من الأشياء له حدوث شيء لم يكن ، ولذلك قال : (وكان ذلك) أي مع كونه عظيما عندكم) علي الله يسيرا (فهذا ناظر إلى مقام الجلال والكبرياء والعظمة .

ولما قدم درء المفاسد الذي هو من باب التخلي ، أتبعه جلب المصالح الذي هو من طراز التحلي فقال : (ومن يقنت) أي يخلص الطاعة ، وتقدم توجيه قراءة يعقوب بالفوقانية على ما حكاه البغوي والأهوازي في الشواذ عن ابن مسلم) منكن لله (الذي هو أهل لئلا يلتفت إلى غيره لأنه لا أعظم منه بإدامة الطاعة فلا يخرج عن مراقبته أصلا) ورسوله (فلا تغاضبه ولا تطلب منه شيئا ، ولا تختار عيشا غير عيشه ، فإنه يجب على كل أحد تصفية فكره ، وتهدئه باله وسره ، ليتمكن غاية التمكن من إنقاذ أوامرنا والقيام بما أرسلناه بسببه من رحمة العباد ، بإنقاذهم مما هم فيه من الأنكاد .

ولما كان ذلك قد يفهم الاقتصار على عمل القلب قال : (وتعمل (قرأها حمزة والكسائي بالتحتانية ردا على لفظ (من) حثا لهن على منازل الرجال ، وقراءة الجماعة بالفوقانية علي معناها على الأصل مشيرة إلى الرفق بهن في عمل الجوارح والرضى بالمستطاع كما قال عليه أفضل الصلاة والسلام : (إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم) .

وأما عمل القلب فلا رضى فيه بدون الغاية ، فلذا كان (يقنت) مذكرا لا من العظمة على قراءة الجماعة بالنون ، وقراءة حمزة والكسائي بالتحتانية على أن الضمير لله) أجرها مرتين) أي بالنسبة إلى أجر غيرها من نساء بقية الناس) وأعتدنا) أي هيأنا." (١)

" صفحة رقم ١٠١

بما لنا من العظمة وأحضرنا) لها (بسبب قناعتها مع النبي (صلى الله عليه وسلم) المريد للتخلي من الدنيا التي يبغضها الله مع ما في ذلك من توفير الحظ في الآخرة) رزقا كريما) أي في الدنيا والآخرة ، فلا شيء أكرم منه لأن ما في الدنيا منه يوفق لصرفه على وجه يكون فيه أعظم الثواب ، ولا يخشى من أجله نوع **عتاب** فضلا عن عقاب ، وما في الآخرة منه لا يوصف ولا يحد ، ولا نكد أصلا ولا كد .

الأحزاب : (٣٢ - ٣٥) يا نساء النبي. .. . .

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع - ت: عبدالرزاق غالب)، ١٠٠/٦

) ينسآء النبي لستن كأحد من النسآء إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض وقلن قولا معروفا وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة إن الله كان لطيفا خبيرا إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما (( )

ولما كان لكل حق حقيقة ، ولكل قول صادق بيان ، قال مؤذنا بفضلهن : (يا نساء النبي) أي الذي لأنتن من أعلم الناس بما بينه وبين الله من الإنباء بدقائق الأمور وخفايا الأسرار وما له من الزلفى لديه) لستن كأحد من النساء (قال البغوي : ولم يقل : كواحدة ، لأن الأحد عام يصلح للواحد والاثنين والجمع والمذكر والمؤنث – انتهى ، فالمعنى كجماعات من جماعات النساء إذا تقصيت أمة النساء جماعة دماعة لم توجد فيهن جماعة تساويكن في الفضل لما خصكن الله به من قربة بقرب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، ونزول الوحي الذي بينه وبين الله في بيوتكن .

ولما كان المعنى : بل أنتن أعلى النساء ، ذكر شرط ذلك فقال : (إن اتقيتن) أي جعلتن بينكن وبين غضب الله وغضب رسوله وقاية ، ثم سبب عن هذا النفي قوله : (فلا تخضعن) أي إذا تكلمتن بحضرة أجنبي) بالقول) أي بأن يكون لينا عذبا رخما ، والخضوع التطامن والتواضع واللين والدعوة إلى السواء ؛ ثم سبب عن الخضوع : قوله : للدلالة على أن أمنيته لا سبب لها في الحقيقة ، لأن اللين في كلام النساء خلق لهن لا تكلف فيه ، فأريد من نساء النبي (صلى الله عليه وسلم) التكلف للإتيان بضده .." (١)

" صفحة رقم ١٠٦

المحيية بالفناء قال : (والذاكرين الله) أي مع استحضار ما له من الكمال بصفات الجلال والجمال) كثيرا (بالقلب واللسان في كل حالة) والذاكرات (ومن علامات الإكثار من الذكر اللهج به عند الاستيقاظ من النوم .

ولما كان المطيع وإن جاوز الحد في الاجتهاد مقتصرا عن بلوغ ما يحق له ، أشار إلى ذلك سبحانه بقوله مكررا الاسم الأعظم إشارة إلى ذلك وإلى صغر الذنوب إذا نسبت إلى عفوه : (أعد الله) أي الذي لا يقدر أحد أن يقدره حق قدره مع أنه لا يتعاظمه شيء) لهم مغفرة) أي لهفواتهم وما أتوه من سيئاتهم بحيث يمحو عينه وأثره ، فلا عتاب ولا عقاب ، ولا ذكر له سبب من الأسباب .

ولما ذكر الفضل بالتجاوز ، أتبعه التفضل بالكرم والرحمة فقال : (وأجرا عظيما (وإعداد الأجر يدل على أن المراد بهذه الأوصاف اجتماعها لأن مظهر الإسلام نفاقا كافر ، وتارك شيء والرسوخ في كل وصف منها زيادة على التمكن الذي أفاده التعبير بالوصف دون الفعل ، وحينئذ تعدم الكبائر فيتأتى تكفير الصغائر ، فتأتي المغفرة والأجر ، وأما آية التحريم فلم تعطف لئلا يظن أنهن أنواع كل نوع يتفرد بوصف ، وإفادة الرسوخ هنا في الأوصاف من سياق الامتنان

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ١٠١/٦

والمدح بكونهن خيرا .

الأحزاب : (٣٦ - ٣٩) وما كان لمؤمن. .. . . .

) وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيآئهم إذا قضوا منهن وطرا وكان أمر الله مفعولا ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له سنة الله في الذين خلوا من قبل وكان أمر الله قدرا مقدورا الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا إلا الله وكفى بالله حسيبا (((

ولما كان الله سبحانه قد قدم قوله : (النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم (- الآية ، فعلم قطعا أنه تسبب عنها ما تقديره : وما كان لمؤمن ولا مؤمنة لأن يكون له ولي غير النبي (صلى الله عليه وسلم) ، فطوى ذلك للعلم به ، واستدل على مضمون الآية وما قبلها بقصة الأحزاب ، وأتبعها نتيجة ذلك مما ذكر تأديب الأزواج له (صلى الله عليه وسلم) وتهذيبهن لأجله وتطهير أهل بيته وتكريمهم حتى ختم سبحانه بالصفات العشر التي بدأها بالإسلام الذي ليس معه شيء." (١)

" صفحة رقم ١٠٧

من الإباء ، وختمها بأن ذكر الله يكون ملء القلب والفم وهو داع إلى مثل ذلك لأنه سبب الإسلام ، عطف على مسبب آية الولاية ما يقتضيه كثرة الذكر من قوله : (وما كان (.

ولما كان الإيمان قد يدعى كذبا لخفاء به ، قال : (لمؤمن) أي من عبد الله بن جحش وزيد وغيرهما) ولا مؤمنة) أي من زينب وغيرها ، فعلق الأمر بالإيمان إعلاما بأن من اعتراض غير مؤمن وإن ظهر الإيمان بلسانه) إذا قضى الله) أي الملك الأعظم الذي لا ينبغي لعاقل التوقف في أمره) ورسوله (الذي لا يعرف قضاؤه إلا به) أمرأ) أي أي أمر كان .

ولما كان المراد كل مؤمن ، والعبارة صالحة له ، وكان النفي عن المجموع كله نفيا عما قل عنه من باب الأولى ، قال : (أن تكون) أي كونا راسخا على قراءة الجماعة بالفوقانية ، وفي غاية الرسوخ على قراءة الكوفيين بالتحتانية) لهم) أي خاصة) الخيرة (مصدر من تخير كالطيرة من تطير على غير قياس) من أمرهم) أي الخاص بهم باستخارة لله ولا بغيرها ليفعلوا خلاف ذلك القضاء ، فإن المراد بالاستخارة ظن ما اختاره الله ، ولا بغيرها ليفعلوا خلاف ذلك القضاء ، فإن المراد بالاستخارة ظن ما اختاره الله ، وإخبار النبي (صلى الله عليه وسلم) قطعي الدلالة على ما اختاره الله تعالى ، وفي هذا **عتاب** لزينب رضي الله عنها على تعليق الإجابة للنبي (صلى الله عليه وسلم) عند ما خطبها لنفسه الشريفة على الاستخارة ، وعلى كراهتها عند ما خطبها لزيد مولاه ، ولكنها لما قدمت بعد نزول الآية خيرته (صلى الله عليه وسلم) في تزويجها من زيد رضي الله عنهما على خيرتها ، عوضها الله أن صيرها لنبيه (صلى الله عليه وسلم) ومعه

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع - ت: عبدالرزاق غالب)، ١٠٦/٦

في الجنة في أعلى الدرجات ، فالخيرة للنبي (صلى الله عليه وسلم) لأنه لا ينطق عن الهوى ، فمن فعل غير ذلك فقد قضى النبي (صلى الله عليه وسلم) ، ومن عصاه عصى الله لأنه لا ينطق إلا عنه) ومن يعص الله) أي الذي لا أمر لأحد معه) ورسوله) أي الذي معصيته معصيته لكونه بينه وبين الخلق في بيان ما أرسل به إليهم) فقد ضل (وأكده المصدر فقال : (ضلالا (وزاده بقوله : (مبينا) أي لا خفاء به ، فالواجب على كل أحد أن يكون معه (صلى الله عليه وسلم) في كل ما يختاره وإن كان فيه أعظم المشقات عليه تخلفا بقول الشاعر حيث قال :

وقف الهوى بي حيث أنت فليس لي متأخر عنه ولا متقدم وأهنتني فأهنت نفسي عامدا ما من يهون عليك ممن يكرم

ولما كان قد أخبره سبحانه – كما رواه البغوي وغيره عن سفيان بن عيينة عن علي ابن جدعان عن زيد العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب – أن زينب رضي الله عنها ستكون من أزواجه وأن زيدا سيطلقها ، وأخفى في نفسه ذلك تكرما وخشية من قاله." (١)

" صفحة رقم ١١٥

في وقتيهما من الشغل بالراحة وغيرها – دالة على غاية المحبة للمثول بالحضرات الربانية حاملة على المواظبة على غيرهما من الصلوات وجميع الطاعات بطريق الأولى ، ويؤكد هذا الثاني تعبيره بلفظ الصلاة في تعليل ذلك بدوتم ذكره لنا سبحانه بقوله : (هو الذي يصلي عليكم) أي بصفة الرحمانية متحننا ، لأن المصلي منا يتعطف في الأركان) وملائكته) أي كلهم بالاستغفار لكم وحفظكم من كثير من المعاصي والآفات ويتردد بعضهم بينه سبحانه وبين الأنبياء بما ينزل إليهم من الذكر الحافظ من كل سوء فقد اشتركت الصلاتان في إظهار شرف المخاطبين .

ولما كان فعل الملائكة منسوبا إليه مع كونه الخالق له الآمر به قال : (ليخرجكم) أي بذلك) من الظلمات) أي الكائنة من الجهل الموجب للضلال) إلى النور) أي الناشئ من العلم المثمر للهدى ، فيخرج بعضكم بالفعل من ظلمات المعاضي المقتضية للرين على القلب إلى نور الطاعات ، فتكونوا بذلك مؤمنين) وكان) أي ازلا وأبدا) بالمؤمنين) أي الذين صار الإيمان لهم ثابتا خاصة) رحيما) أي بليغ الرحمة بتوفيقهم لفعل ما ترضاه الإلهية ، فإنهم أهل خاصته فيحملهم على الإخلاص في الطاعات ، فيرفع لهم الدرجات في روضات الجنات .

ولما كان أظهر الأوقات في ثمرة هذا الوصف ما بعد الموت ، قال تعالى مبينا لرحمتهم : (تحيتهم يوم يلقونه) أي بالموت أو البعث) سلام) أي يقولون له ذلك ، (أنت السلام ومنك السلام فحيّنا ربنا السلام) كما يقوله المحرم المشبه لحال من هو في الحشر فيجابون بالسلام الذي فيه إظهار شرفهم ويأمنون معه من كل عطب) وأعد) أي والحال أنه أعد) لهم) أي بعد السلامة الدائمة) أجرا كريما) أي غدقا دائما لا كدر في شيء منه .

ولما وعظ المؤمنين فيه (صلى الله عليه وسلم) له بما أقبل بأسماعهم وقلوبهم إليه ، وختم بما يوجب لهم الفوز بما عنده سبحانه ، وكان معظم ذلك له (صلى الله عليه وسلم) فإن رأس المؤمنين ، أقبل بالخطاب عليه ووجهه إليه فقال منوها من ذكره ومشيدا من قدره بما ينتظم بقوله) الذين يبلغون رسالات الله (الآية وما جرها من **العتاب** : (يا أيها

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ٦/١٠٧

النبي) أي الذي مخبره بما لا يطلع عليه غيره .
ولما كان الكافرون – المجاهرون منهم والمساترون – ينكرون الرسالة وما تبعها ، أكد قوله في أمرها وفخمه فقال : (إنا أرسلناك) أي بعظمتنا بما ننبئك به إلى سائر خلقنا) شاهدا) أي عليهم ولهم مطلق شهادة ، لأنه لا يعلم بالبواطن إلا الله ، وأنت مقبول الشهادة ، فأبلغهم جميع الرسالة سرهم ذلك أو ساءهم سرك فعلهم أو ساءك .." (١)
"صفحة رقم ١٤٤
سورة سبإ
سبأ : (١ – ٢) الحمد لله الذي. .. . .
) الحمد لله الذي له ما في السماوات وما في الأرض وله الحمد في الآخرة وهو الحكيم الخبير يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السمآء وما يعرج فيها وهو الرحيم الغفور (( )
مقصودها أن الدار الآخرة – التي أشار إليها آخر تلك بالعذاب والمغفرة بعد أن أعلم أن الناس يسألون عنها – كائنة لا ريب فيها ، لما في ذلك من الحكمة ، وله عليه من القدرة ، وفي تركها من عدم الحكمة والتصوير بصورة الظلم ، ولقصة سبأ التي سميت بها السورة مناسبة كبيرة لهذا المقصد كما ياتي بيانه لذلك سميت بها) بسم الله (الذي من شمول قدرته إقامة الحساب) الرحمن (الذي من عموم رحمته ترتيب الثواب والعقاب) الرحيم (الذي يمن على أهل كرامته بطاعته حتى لا عقاب يلحقهم ولا عتاب .
لما ختمت سورة الأحزاب بأنه سبحانه عرض أداء الأمانة وحملها – و ه ي جميع ما في الوجود من المنافع – على السماوات والأرض والجبال ، فأشفقن منها وحملها الإنسان الذي هو الإنس والجان ، وأن نتجية العرض والأداء والحمل العذاب والثواب ، فعلم أن الكل ملكه وفي ملكه ، خائفون من عظمته مشفقون من قهر سطوته وقاهر جبروته ، وأنه المالك التام الملك والملك المطاع المتصرف في كل شيء من غير دفاع ، وختم ذلك بصفتي المغفرة والرحمة ، دل على ذلك كله بأن ابتدأ هذه قوله : (الحمد) أي الإحاطة بأوصاف الكمال من الخلق والأمر كله مطلقا في الأولى الأخرى وغيرهما مما يمكن أن يكون ويحيط به عمله سبحانه) لله (ذي الجلال والجمال .
ولما كان هذا هو المراد ، وصفه بما يفيد ذلك ، فقال منبها على نعمة الإبداء والإبقاء أولا : (الذي له) أي وحده ملكا وملكا وإن نسبتم إلى غيره ملكا وملكا ظاهريا." (٢)
" صفحة رقم ٢٠٥
فاطر : (٧ – ٩) الذين كفروا لهم. .. . .
) الذين كفروا لهم عذاب شديد والذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر كبير أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا فإن الله يضل من يشآء ويهدي من يشآء فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن الله عليم بما يصنعون والله الذي أرسل

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ١١٥/٦

(٢) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ١٤٤/٦

الرياح فتثير سحابا فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور (( )
ولما أنهى البيان في غرض الشيطان إلى منتهاه ، نبه على ما حكم به هو سبحانه في أشياعه بقوله مستأنفا : (الذين كفروا) أي غطو بالاتباع له بالهوى ما دلتهم عليه عقولهم وكشفه لهم غاية الكشف هذا البيان العزيز) لهم عذاب شديد) أي في الدنيا بفوات غالب ما يؤملون مع تفرقة قلوبهم وانسداد بصائرهم وسفالة هممهم حتى أنهم رضوا أن يكون إلآههم حجرا ، وانحجاب المعارف التي لا لذاذة في الحقيقة غيرها عنهم ، وفي الآخرة بالسعير التي دعاهم إلى صحبتها .

ولما ذكر جزاء حزبه ، اتبعه حزب الله الذين عادوا عدوهم فقال : (والذين آمنوا وعملوا) أي تصديقا لإيمانهم) الصالحات (ولما كان من أعظم مصايد الشيطان ما يعرض للإنسان خطأ وجهلا من العصيان ، لما له من النقصان ليجره بذلك إلى العمد والعدوان ، قال تعالى داعيا له إلى طاعته وإزالة لخجلته : (لهم مغفرة) أي ستر لذنوبهم بحيث لا عقاب وا **عتاب** ، وذلك معجل في هذه الدار ، ولولا ذلك لافتضحوا وغدا ، ولولا ذلك لهلكوا .
ولما محاها عينا وأثرا ، أثبت الإنعام فقال : (واجر كبير) أي يجل عن الوصف بغير هذا الإجمال ، فمنه عاجل بسهولة العبادة ودوام المعرفة وما يرونه في القلوب من وراء اليقين ، وآجل بتحقيق المسؤول من عظيم المنة ، ونيل ما فوق المأمول في الجنة .
ولما أبان هذا الكلام تفاوت الحزبين في المآل بالهلاك والفوز ، وكان لا يقدم على الهلاك أحد في حس ، وكان الكفار يدعون أنهم الفائزون قناعة بالنظر إلى ما هم فيه ، ويدعون أنهم أبصر الناس وأحسنهم اعمالا وكذا كل عاص ومبتدع ، كان ذلك سببا في إنكار تساويهما ، فأنكره مبينا السبب في ضلالهم بما فيه تسلية للمحسنين وندب إلى الشكر وحث على ملازمة الافتقار والذي وسؤال العافية من الزلل والزيغ قوله : (زين له سوء عمله) أي قبحه الذي من شأنه أن يسوء صاحبه حالا أو مآلا بجمع مال ذاهب أو مذهوب عنه من غير خلة وبيع راحة الجنة المؤبدة بمتابعة شهوة منقية وإيثار مخلوق فإن على ربه الغني الباقي ؛ ثم سبب عنه ما أنهى إليه من الغاية فقال : (فرآه) أي السيئ بسبب التزيين ،) حسنا) أي فركبه ، بما أشار إليه إضافة العمل إليه ، وطوى." (١)
" صفحة رقم ٣٨٥
ولما ظهر بهذا ما له من ضخامة الملك وعز السلطان ، وكانت الأوبة عظيمة جدا ، وكان الثبات على مقام الشهود مع حفظه من جميع جهاته أعظم ، نبه عليه بقوله مؤكدا لما طبعت عليه النفوس من ظن أن الأواب لا ينبغي أن يواجه **بالعتاب** : (ولقد فتنا) أي بما لنا من العظمة) سليمان) أي مع إسراعه بالرجوع إلى الله والتنبه لما فيه رضاه نوعا من الفتنة ، الله أعلم بحقيقتها ، فأسفرت تلك الفتنة عن رسوخه في مقام الأوبة فتنبه لما أردنا بها من تدريبه على ما أقمناه فيه كما فعلنا بأبيه داود عليهما السلام فاقتد بهما في الاستبصار بالبلاء ، فإنا نريد بك أمرا عظيما جليلا شريفا كريما) وألقينا) أي بما لنا من العظمة) على كرسيه (الذي كانت تهابه أسود الفيل .

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ٢٠٥/٦

ولما كانت العبرة إنما هي بالمعاني ، فمن كان معناه ناقصا كان كأنه جسد لا روح فيه ، له صورة بلا معنى ، قال : (جسدا (فغلب ع‌ل‌ى ذلك المكان الشريف مع ما كنا شرفناه به من هيبة النبوة المقرونة بالملك بحيث لم يكن أحد يظن أن أحدا يقدر على أن يدنو إليه فضلا من أن يغلب عليه ، فمكنا هذا الجسد منه تمكينا لا كلفة عليه فيه ، بل كان ذلك بحيث كأنه ألقى عليه بغير اختياره ليعلم أن الملك إنما هو لنا ، نفعل ما نشاء بمن نشاء ، فالسعادة لمن رجانا والويل لمن يأمن مكرنا فلا يخشانا ، فعما قليل تصير هذه البلدة في قبضتك ، وأهلها مع العزة والشقاق طوع مشيئتك ويكون لك بذلك أمر لا يكون لأحد بعدك كما أنه ما كان لأحد كان قبلك وبقاء الذكر ، والذي أنت فيه الآن ابتلاء واختبار وتدريب على ما يأتي من الأمور الكبار .

ولما كان المراد بإطلاق الجسد عليه التعريف بأنه لا معنى له ، لا أنه لا روح فيه ، أطلقه ولم يتبعه ما يبين أنه جماد كما فعل في العجل حيث قال (له خوار) فبين بذلك أنه لا روح له ، وإن صح أن هذا الجسد هو صخر الجني وأن سببه سجود الجرادة امرأة سليمان عليه السلام لصورة أبيها بغير علم نبي الله سليمان عليه السلام ولا إرادته ، فالإشارة بذلك في التسلية أنا سلبنا الملك من صفينا لصورة رفع السجود بعض من ينسب إليه لها في بيته أمره إرادته ولا علمه ، فكيف بمن يسجد لهذه الأوثان في البيت الحرام فعما قليل نزيل أمرهم ونخمد شرهم ونمحو ذكرهم .

ولما كانت الإنابة رجوعا إلى ما كان ، فهي استرجاع لما فات قال : (ثم أناب (وفسر الإنابة ليعلم أنه تعالى فتنه مع أنه عبد عظيم المنزلة مجاب الدعوة بقوله جوبا لمن سأل عنها : (قال رب) أي أيها المحسن إلي) اغفر لي) أي الأمر الذي كانت الإنابة بسببه .

ولما قدم أمر الآخرة ، أتبعه قوله : (وهب لي) أي بخصوصي) ملكا لا ينبغي (." (١)

" صفحة رقم ٤٨٨

ولما كان تعالى باطنا لا يحيط أحد به علما ، أشار إلى أنهم مع أنهم أهل الحضرة هم من وراء حجاب الكبر وأردية العظمة ، لا فرق بينهم في ذلك وبين ما هو في الأرض السفلى بقوله : (ويؤمنون (لأن الإيمان إنما يكون بالغيب .

ولما كانوا لقربهم أشد الخلق خوفا لأنه على قدر القرب من تلك الحضرات يكون الخوف ، فهم أشد خوفا من أهل السماء السابعة ، وأهل السماء السابعة أشد خوفا من أهل السماء السادسة وهكذا ، وكانوا قد علموا من تعظيم الله تعالى للنوع الإنساني ما لم يعلمه غيرهم لأمره سبحانه لهم بتعظيمه بما اختص به سبحانه من السجود ، وكان من أقرب ما يقترب به إلى الملك التقرب إلى أهل وده ، نبه سبحانه على ذلك كله بقوله : (ويستغفرون) أي يطلبون محو الذنوب أعيانا وآثارا .

ولما كان الاشتراك في الإيمان أشد من الاتحاد في النسب ، قال دالا على أن الاتصاف بذلك يجب أن يكون أدعى شيء إلى النصيحة وأبعثه على إمحاض الشفقة : (للذين آمنوا) أي أوقعوا هذه الحقيقة لما بينهم من أخوة الإيمان ومجانسته وإن اختلف جنسهم في حقيقة التركيب وإن وقع منهم بعد ذلك خلل يحق عليهم الكلمة لولا العفو) وما

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع - ت: عبدالرزاق غالب)، ٦/٣٨٥

قدروا الله حق قدره ( ) ويعفو عن كثير ((لن يدخل أحد الجنة بعمله) .

ولما استغفارهم بين عبارتهم عنه بقوله : (ربنا) أي أيها المحسن إلينا بالإيمان وغيره .

ولما كان المراد بيان اتساع رحمته سبحانه وعلمه ، وكان ذلك أمرا لا يحتمله العقول ، عدل إلى أسلوب التمييز تنبيها على ذلك مع ما فيه من هز السامع وتشويقه بالإبهام إلى الإعلام فقال : (وسعت كل شيء (ثم بين جهة التوسع بقوله تميزا محولا عن الفاعل : (رحمة) أي رحمتك أي بإيجاده من العدم فما فوق ذلك) وعلما) أي وأحاط بهم علمك ، فمن أكرمته فعن علم بما جلبته عليه مما يقتضي إهانة أو إكراما .

ولما كان له سبحانه أن يفعل ما يشاء من تعذيب الطائع وتنعيم العاصي وغير ذلك ، قالوا منبهين على ذلك : (فاغفر للذين تابوا) أي رجعوا إليك عن ذنوبهم برحمتك لهم بأن تمحوا أعيانها وآثارها ، فلا عقاب ولا **عتاب** ولا ذكر لها) واتبعوا) أي كلفوا أنفسهم على ما لها من العوج أن لزموا) سبيلك (المستقيم الذي لا لبس فيه .

ولما كان الغفران قد يكون لبعض الذنوب ، وكان سبحانه له أن يعذب من لا ذنب له ، وأن يعذب من غفر ذنبه قالوا : (وقهم عذاب الجحيم) أي اجعل بينهم وبينه وقاية بأن تلزمهم الاستقامة وتتم نعمتك عليهم ، فإنك وعدت من كان كذلك بذلك ، ولا يبدل القول لديك ، وإن كان يجوز أن تفعل ما تشاء .." (١)

" صفحة رقم ٥٤٨

ولما ختمت غافر الكفرة جادلوا في آيات الله بالباطل ، وفرحوا بما عندهم من علم ظاهر الحياة الدنيا ، وأنهم عند البأس انسلخوا عنه وتبرؤوا منه ورجعوا إلى ما جاءت به الرسل فلم يقبل منهم ، فعلم أن كل علم لم ينفع عند الشدة والبأس فليس بعلم ، بل الجهل خير منه ، وكان ذلك شاقا على النبي (صلى الله عليه وسلم) خوفا من أن يكون آخر أمر أمته الهلاك ، مع الإصرار على الكفر إلى مجيء البأس ، وأن يكون أغلب أحواله (صلى الله عليه وسلم) النذارة ، افتتح سبحانه هذه السورة بأن هذا القرآن رحمة لمن كان له علم وله قوة توجب له القيام فيما ينفعه ، وكرر الوصف بالرحمة في صفة العموم وصفة الخصوص إشارة إلى أن أكثر الأمة مرحوم ، وأعلم أن الكتاب فصل تفصيلا وبين تبيينا لا يضره جدال مجال ، وكيد مماحك مماحل ، وأنه مغن بعجز الخلق عنه عن اقتراح الآيات فقال مخبرا عن مبتدأ : (تنزيل) أي بحسب التدريج عظيم) من الرحمن) أي الذي له الرحمة العامة للكافر والمؤمن بإنزال الكتب وإرسال الرسل) الرحيم) أي الذي يخص رحمته بالمؤمنين بإلزامهم ما يرضيه عنهم .

ولما تشوف السامع إلى بيان هذا التنزيل المفرق بالتدريج ، بين أنه مع ذلك حاو لكل خير فقال مبدلا من تنزيل : (كتاب) أي جامع قاطع غالب .

ولما كان الجمع ربما أدى إلى اللبس قال : (فصلت) أي تفصيل الجوهر) آياته) أي بينت بيانا شافيا في اللفظ والمعنى مع كونها مفصلة إلى أنواع من المعاني ، وإلى مقاطع وغايات ترقى جلائل المعاني إلى أعلى النهايات ، حال كونه) قرآنا) أي جامعا مع التفصيل ، وهو مع الجمع محفوظ بما تؤديه مادة (قرا) من معنى الإمساك ، وهو مع

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ٦/٤٨٨

جمع اللفظ وضبطه وحفظه وربطه منشور اللواء منتشر المعاني لا إلى حد ، ولا نهاية وعد ، بل كلما دقق النظر جل المفهوم ، ولذلك قال تعالى : (عربيا (لأن لسان العرب أوسع الألسن ساحة ، وأعمقها عمقا وأغمرها باحة ، وأرفعها بناء وأفصحها لفظا ، وأبينها معنى وأجلها في النفوس وقعا ، قال الحرالي : وهو قرأن لجمعه ، فرقان لتفصيله ، ذكر لتنبيهه على ما في الفطر والجبلات ، وجوده حكيم لإنبائه الاقتضاءات الحكمية ، مجيد لإقامته قسطاس العدل ، عربي لبيانه عم كل شيء ، كما قال تعالى في سوره أحسن القصص ، وتفصيل كل شيء مبين لمحوه الكفر بما أبان من إحاطة أمر الله ، محفوظ لإحاطته حيث لم يختص فيقبل العدول عن سنن .

ولما كان لا يظهر إلا لمن له قابلية ذلك ، وأدمن اللزوم ذلا للأعتاب ، والقرع خضوعا وحبا للأبواب ، قال معلقا ب (فصلت أو تنزيل) أو (الرحمن الرحيم) : (لقوم) أي ناس فيهم قوة الإدراك لما يحاولونه) يعملون) أي فيهم قابلية العلم وتجدد الفهم." (١)

" صفحة رقم ٦٤٢

إشارة إلى أن الفتنة إنما هي في إقرار الظلم لا في نصر المظلوم واحدا كان أو جماعة فقال : (فأولئك) أي المنتصرون لأجل دفع ظلم الظالم عنهم فقط) ما عليهم (وأكد بإثبات الجار فقال : (من سبيل) أي عقاب ولا عتاب ، وروى النسائي وابن ماجه عن عائشة رضي الله عنها قالت : ما علمت حتى دخلت علي زينب رضي اله عنها بغير إذن وهي غضبى ثم أقبلت علي فأعرضت عنها حتى قال النبي (صلى الله عليه وسلم) : دونك فانتصري ، فأقبلت عليها حتى رأيتها قد يبس ريقها في فيها ما ترد علي شيئا ، فرأيت النبي (صلى الله عليه وسلم) يتهلل وجه .

ولما نفى السبيل عنه بعد تشوف السامع إلى موضع ما أشعر به الكلام السابق من الظلم ، بين ذلك فقال : (إنما السبيل) أي الطريق السالك الي لا منع منه اصلا بالحرج والعنت) على (وجمع إعلاما بكثرة المفسدين تجرئة على الانتصار منهم وإن كانوا كثيرا فإن اله خاذلهم فقال : (الذين يظلمون الناس) أي يوقعون بهم ظلمهم تعمدا عدوانا) ويبغون) أي يتجاوزن الحدود) في الأرض (بما يفسدها بعد إصلاحها بتهيئتها للصلاح طبعا وفعلا وعلما وعملا .

ولما كان الفعل قد يكون بغيا وإن كان مصحوبا بحق كالانتصار المقترن بالتعدي فيه قال : (بغير الحق) أي الكامل ولما أثبت عليهم بهذا الكلام السبيل ، كان السامع جديرا بأن يسأل عنه فقال : (أولئك) أي البغضاء البعداء من الله) لهم عذاب أليم) أي مؤلم بما آلموا من ظلموه من عباد الله بحيث يعم إيلامه وأرواحهم بما لها من المشاعر الظاهرة والباطنة .

ولما أفهم سياق هذا الكلام وترتيبه هكذا أن التقدير : فلمن صبر عن الانتصار أحسن حالا ممن انتصر ، لأن الخطأ في العفو أولى من الخطأ في الانتقام ، عطف عليه مؤكدا لما أفهمه السياق أيضا من مدح المنتصر : (ولمن صبر (عن الانتصار من غير انتقام ولا شكوى) وغفر (فصرح بإسقاط العقاب والعتاب فمحا عين الذنب وأثره : (إن ذلك) أي ذلك الفعل الواقع منه البالغ في العلو جدا لا يوصف) لمن عزم الأمور) أي الأمور التي هي لما لها من الأهلية

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ٥٤٨/٦

لأن يعزم عليها قد صارت في أنفسها كأنها دوات العزم أو متأهلة لأن تعزم على ما تريد ، والعزم : الإقدام على الأمر بعد الروية والفكرة ، قال أبو علي بن الفراء ؛ آيات العفو محمولة على الجاني النادم ، وآيات مدح الانتصار على المصر ، وذلك إنما يحمد مع القدرة على تمام النصرة كما قال يوسف." (١)

" صفحة رقم ١١١

قال أبو حيان : ولا يستعمل إلا في إلا في المكروه .

) ما كانوا (جبلة وخلقا) به يسهزءون) أي يوجدون الهزء به على غاية الشهوة واللذة إيجاد من هو طالب لذلك) وقيل) أي لهم على قطع الأحوال وأشدها قولا لا معقب له ، فكأنه بلسان كل قائل : (اليوم ننساكم) أي نفع لمعكم بالترك من جميع ما يصلحكم فعل المنسي الذي نقطع عنه جميع إحساننا فيأتيه كل شر) لقاء يومكم هذا) أي الذي عملتم في أمره عمل الناسي له ، ومن نسي لقاء اليوم نسيء لقاء الكائن فيه بطريق الأولى ، وقد عابهم الله سبحانه تعالى بذلك أشد العيب لأن ما عملوه ليس من فعل الحزمة أن يتركوا ما ضرره محتمل لا يعتدون له ، وإنما هذا فعل الحمق الذين هم عندهم أسقال لا عبرة لهم ولا وزن لهم ، وعبر بالنسيان لأن علمه مركوز في طبائعهم ، وعبر في فعله بالمضارع ليدل على الاستمرار ، وفي فعلهم بالماضي ليدل على أن من وقع منه ذلك وقتا ما وإن قل كان على خطر عظيم بتعريض نفسه لاستمرار الإعراض عنه .

ولما كان تركه على هذا الحال يلزم منه استمرار العذاب ، صرح به إيضاحا له لئلا يظن غير ذلك ، فقال مبينا لحالهم : (ومأواكم النار (ليس لكم براح عنها أصلا ، لأن أعمالكم أدخلتكموها ، ولا يخرج منها إلا من أذنا من إخراجه ، نحن قد جعلناكم في عداد المنسي فلا يكون م نقبلنا لكم فرج) وما لكم (في نفس الأمر سواء أفكرتم وأنتم مكذبون في مدافعة هذا اليوم أو تركتموه ترك المنسي) من ناصرين (ينقذونكم من ذلك بشفاعة ولا مقاهرة .

ولما ذكر جزاءهم على ما هو الحق المساوي لأعمالهم طبق الفعل بالفعل ، علله بما لزم على أعمالهم فقال : (ذالكم) أي العذاب العظيم) بأنكم اتخذتم) أي بتكليف منكم لأنفسكم وقسر على خلاف ما أدى إليه العقل ، وجاءت به الرسل ، وساعدت عليه الفطر الأول) آيات الله) أي الملك الأعظم الذي لا شيء أعظم منه) هزوا) أي جعلتموها عين ما أنزلت للإبعاد منه) وغرتكم (لضعف عقولكم) الحياة الدنيا) أي الدنية فآثرتمها لكونها حاضرة وأنت كالبهائم لا يعدو نظركم المحسوس فقلتم : لا حياة غيرها ولا بعث ولا حساب ، ولو تعقلتم وصفكم لها لأداكم إلى الإقرار بالأخرى .

ولما أوصلهم إلى هذا الحد من الإهانة ، سبب عنه زيادة في إهانتهم وتلذيذا لأوليائه الذين عادوهم فيه وإشماتا لهم بهم : (فاليوم (بعد إيوائهم فيها) لا يخرجون (بمخرج ما) منها (لأن الله لا يخرجهم ولا يقدر غيره على ذلك) ولا هم (خاصة) يستعتبون) أي يطلب من طالب ما منهم **الإعتاب** ، وهو الاعتذار بما يثبت لهم." (٢)

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ٦٤٢/٦

(٢) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ١١١/٧

" صفحة رقم ١٦١

في كثير من أقوات العرب وغيرهم ، ثم بالخمر لأنه إذا حصل الري والمطعوم تشوفت النفس إلى ما يتلذذ به ، ثم بالعسل لأن فيه الشفاء في الدنيا مما يعرض من المطعوم والمشروب – انتهى .

وأحسن منه أنه لما كان السياق للتعجب في ضرب المثل لأنه قول لا ينفك عن غرابة بدأ بأنهار الماء لغرابتها في بلادهم وشدة حاجتهم إليها ، ولما كان خلوها عن تغير أغرب نفاه ، ولما كان اللبن أقل فكان جريه أنهارا أغرب ، ثنى به ، ولما كان الخمر أعز ثلث به ، ولما كان العسل أشرفها وأقلها ختم به ، ونبه – مع هذا التذكير متمحض للشرابية كالخمر وبعضها في غذائية وهي فيه أغلب ، وهو العسل ، وبعضها ينزع إلى كل منهما وهو اللبن كلها من الماء مع تمايزها مذاقا وأثرا في الغذاء والدواء وغير ذلك ، فإن لماء أصل النبات ، ومن النبات يكون اللبن والخمر والعسل بما لا يخفى من الأسباب ، وأما الآخرة فغنيه عن ال‍أسباب لظهور اسمه الظاهر سبحانه هناك لأنه لا ابتلاء فيها ، وبهذا فهم للترتيب سر آخر وهو أنه تعالى قدم الماء لأنه الأصل لها ، وتلاه بأقرب الأشياء إليه في الشرابية والطبع : اللبن ، ثم بما هو أقرب إلى اللبن من جهة أنه شراب فقط ، ثم بالعسل لأنه أبعدها منه .

ولما كانت الثمار ألذ مستطاب بعد سائغ الشراب قال تعالى : (ولهم فيها (ولما كان أهلها متفاوين في الدرجات فلا تجمع جنان أغلبهم جميع ما في الجنة من الثمار بعض فقال : (من كل الثمرات) أي جميع أصنافها على وجه لا حاجة معه من قلة ولا انقطاع .

ولما كان العيش لا يطيب مع الإنصاف بما يوجب العتب ، قال مشيرا إلى أنه لا يقدر أحد أن يقدر الله حق قدره ، لأن الرتب متضائلة عن رتبته سبحانه : (ومغفرة من ربهم) أي المحسن إليهم بمحو ذنوبهم السالفة أعيانها وأثارها بحيث لا يخشون لها عاقبة بعقاب .

لا **عتاب** وعدم بلوغهم إلى ما يحق له م‍ن الشكر سبحانه .

ولما أرشد هذا السياق إلى أن التقدير : أفمن هو في هذا النعيم الأكبر المقيم ، بنى عليه قوله : (كمن هو خالد) أي مقيم إقامة لا انقطاع معها ، ووحده لأن الخلود يعم من فيها على حد سواء) في النار) أي التي لا يطفأ لهيبها ، لا يفك أسيرها ولا يؤنس عريبها .

ولما كان كل واحد من داخليها له سقي يخصه على حسب عمله ولا يظلم ربك أحدا .

كان المؤثر لضرهم السقي على الكيفية التي تذكر لا كونه من ساق معين ، بني للمجهول قوله مسندا إلى ضمير الجمع قوله تعالى : (وسقوا) أي عوض ما ذكر من شراب أهل الجنة) ماء حميما) أي في غاية الحرارة) فقطع أمعاءهم (ويمكن أن." (١)

" صفحة رقم ٢٣٩

المخاطبون بهذه الآية المعاتبون بها ، قال أبو حيان : قال مجاهد : نزلت في بني أسد بن خزيمة – انتهى .

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ١٦١/٧

فلذلك اختار أبو عمرو القراءة بها ، وعدل عن لغة الحجاز) من أعمالكم شيئا (فلا حاجة إلى إخباركم عن إيمانكم بغير ما يدل عليه من الأقوال والأفعال ، قال ابن برجان : فعموم الناس وأكثر أهل الغفلة مسلمون غير مؤمنين ، فإن يعلموا علم ما شهدوا وعقدوا عليه عقدا علما ويقينا لهم المؤمنون .

وفي الآية احتباك من وجه آخر : ذكر عدم الإيمان أولا دليلا على إثباته ثانيا ، وذكر توفير الأعمال ثانيا دليلا على بخسها أو إحباطها أولا ، وسره أنه نفى أساس الخير أولا ورغب في الطاعة بحفظ ما تعبوا عليه من الأعما ثانيا .

ولما كان الإنسان مبنيا على النقصان ، فلو وكل إلى عمله هلك ، ولذهب عمله فيما يعتريه من النقص ، قال مستعطفا لهم إلى التوبة ، مؤكدا تنبيها على أنه مما حيق تأكيده لأن الخلائق لا يفعلون مثله : (إن الله) أي الذي له صفات الكمال) غفور) أي ستور للهفوات والزلات لمن تاب وصحت نيته ، ولغيره إذا أراد ، فلا عتاب ولا عقاب) رحيم) أي يزيد على الستر عظيم الإكرام .

الحجرات : (١٥ - ١٨) إنما المؤمنون الذين. .. . .

) إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون قل أتعلمون الله بدينكم والله يعلم ما في السماوات وما في الأرض والله بكل شيء عليم يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا علي إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين إن الله يعلم غيب السماوات والأرض والله بصير بما تعملون (( )

ولما نفى عنهم الإيمان ، وكان ربما غلط شخص في نفسه فظن أنه مؤمن ، وليس كذلك ، أخبر بالمؤمن على سبيل الحصر ذاكرا أمارته الظاهرة الباطنة ، وهي أمهات الفضائل : العلم والعفة والشجاعة ، فقال جوابا لمن قال : فمن الذي آمن ؟ عادلا عن جوابه إلى وصف الراسخ ترغيبا في الاتصاف بوصفه وإيذانا بأن المخبر عن نفسه بآية إيمانه لا يريد إلا أنه راسخ : (إنما المؤمنون) أي العريقون في الإيمان الذي هو حياة القلوب ، قال القشيري : والقلوب لا تحيا إلا بعد ذبح النفوس ، والنفوس لا تموت ولكنها تعيش) الذين آمنوا) أي صدقوا معترفين) بالله (معتقدين جميع ما له من صفات الكمال) ورسوله (شاهدين برسالته ، وهذا هو المعرفة التي هي العلم ، وغياتها الحكمة ، وهذا الإثبات هنا يدل على أن المنفي فيما قيل الكمال لا المطلق ، وإلا لقال (إنما الذين آمنوا) .." (١)

" صفحة رقم ٥٥٠

ولما كان التقدير بما هدى إليه العاطف : فمن فعل منكم فقد ظن أني لا أعلم الغيب أو فعل ما يقتضي ظن ذلك ، عطف عليه قوله : (ومن يفعله) أي يوجد الاتخاذ سرا أو علنا أو يوجد الإسرار بالمودة فالإعلان أولى في وقت من الأوقات ماض أو حال أو استقبال .

ولما كان المحب قد يفعل بسبب الإدلال ما يستحق به التبكيت ، فإذا بكت ظن أن ذلك ليس على حقيقته لأن محبته لا يضرها شيء ، وكان قد ستر المعايب بأن أخرج الكلام مخرج العموم ، صرح بأن هذا العتاب مراد به الإحباب فقال

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع - ت: عبدالرزاق غالب)، ٢٣٩/٧

: (منكم (وحقق الأمر وقربه بقوله : (فقد ضل) أي عمي ومال وأخطأ) سواء السبيل) أي قويم الطريق الواسع الموسع إلى القصد قويمه وعدله ، وسبب نزول هذه الآية روي من وجوه كثيرة فبعضه في الصحيح عن علي ومنه في الطبراني عن أنس ومنه في التفاسير (أن سارة مولاة أبي عمرو بن صيفي بن هاشم بن عبد مناف أتت المدينة ورسول الله (صلى الله عليه وسلم) يتجهز لفتح مكة فسألها ما أقدمها ، فقالت : ذهب موالي وقد احتجت حاجة شديدة ، وكنتم الأهل والعشيرة والموالي ، فحث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بني عبد المطلب وبني المطلب فأعطوها وكسوها وحمولها ، فكتب معها حاطب بن أبي بلتعة حليف بني أسد بن عبد العزى من حاطب بن أبي بلتعة إلى أهل مكة أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يريدكم فخذوا حذركم ، فأعطاها عشرة دنانير ، فنزل جبريل عليه السلام بالخبر فبعث رسول الله الله صلى الله عليه عمر وعليا وعمارا والزبير وطلحة والمقداد وأبا مرثد وكانوا كلهم فرسانا فقال : (انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها ظعينة معها كتاب من حاط إلى المشركين ، فخذوه منها وخلوا سبيلها ، وإن لم تدفعه غليكم فاضربوا عنقها (فانطلقوا تعادي بهم خيلهم ، فأدركوها في ذلك المكان فأنكرت وحلفت بالله ، ففتشوها فلم يجدوه فهموا بالرجوع ، فقال علي رضي الله عنه : ما كذبنا ولا كذبنا ، وسل سيفه فقال : أخرجي الكتاب أو لألقين الثياب ولأضربن عنقك ، فقالت : على أن لا تردوني ، ثم أخرجته من عقاصها قد لفت عليه شعرها ، فخلوا سبيلها ، فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لحاطب : (ل تعرف الكتاب (، قال : نعم ، قال : (فما حملك على هذا (؟ قال : لا تعجل يا رسول الله ، والله ما كفر منذ أسلمت ولا غششت منذ نصحتك ولا احببتهم منذ فارقتهم ، ولكن لم يكن أحد من المهاجرين إلا وله بمكة من يدفع الله به عن عشيرته ، وكنت غريبا خليفا فيهم ، وكان أهلي بين ظهرانيهم فأردت أن أتخذ عندهم يدا يدفع الله بها عن أهلي ، وقد علمت أن الله تعالى ينزل بهم بأسه ، وأن كتابي لا يغني عنهم شيئا ، فقال لهم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : (صدق ولا تقولوا له إلا خيرا (، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق ، فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : (وما يدريك يا عمر لعل الله اطلع على أهل بدر." (١)

" صفحة رقم ٥٦٧

بالوضع من الفروج ولأن عادة الولد مع أنه يسقط بين أيدي أنه ورجليها أنه يمشي أمامها ، وهذا شامل لما كان من شبهة أو لقطة .

ولما حقق هذه الكبائر العظيمة تعظيما لأمرها لعسر الاحتراز منها ، وأكد النهي عن الزنى مطابقة وإلزاما لما يجر إليه من الشرور القتل فما دونه ، وغلظ أمر النسب لما يتفرع عليه من إيقاع الشبهات وانتهاك الحرمات ، عم في النهي فقال : (ولا يعصينك) أي على حال من الأحوال) في معروف) أي فرد كان منه صغيرا كان أو كبيرا ، وفي ذكره مع العلم بأنه (صلى الله عليه وسلم) لا يأمر إلا به إشعار بأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، وقدم المنهيات على المأمورات المستفادة من المعروف لأن التخلي عن الرذائل مقدم على التخلي بالفضائل لأن درء المفاسد أولى من جلب

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع - ت: عبدالرزاق غالب)، ٧/٥٥٠

المصالح : (فبايعهن) أي التزم لهن بما وعدت على ذلك من إعطاء الثواب لمن وفت منهن في نظير ما ألزمن أنفسهن من الطاعة .

ولما كان الإنسان محل النقصان لا سيما النسوان رجاهن سبحانه بقوله : (واستغفر) أي اسأل) لهن الله) أي الملك الأعظم ذا الجلال والإكرام في الغفران إن وقع منهن تقصير وهو واقع لأنه لا يقدر أحد ان يقدر الله حق قدره .

ولما كانت عظمته سبحانه مانعة لعظيم الهيبة من سؤاله ما طمع به ، علله بقوله معيدا الاسم الأعظم لئلا يظن بإضماره وتقييده بحيثية الهجرة من النساء ونحو ذلك مؤكدا لما طبع الأدمي عليه من أنه لا يكاد يترك المسيء من عقاب أو **عتاب** فضلا عن التفضيل بزيادة الإكرام : (إن الله) أي الذي له صفات الجلال والإكرام فلو أن الناس لا يذنبون لجاء بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم لتظهر صفة إكرامه) غفور) أي بالغ الستر للذنوب عينا وأثرا) رحيم) أي بالغ الإكرام بعد الغفران فضلا منه وإحسانا ، وقد حقق سبحانه ذلك وصدق ، ومن أصدق من الله قيلا ، فأقبل النساء للبيعة عامة ثاني يوم الفتح على الصفا بعد فراغه (صلى الله عليه وسلم) من بيعة الرجال فنزلت هذه الآية وهو على الصفا فقام عمر بن الخطاب رضي الله أسفل منه يبايعهن بأمره ويبلغهن عنه وهند بنت عتبة متنقبة لتأخذ علينا أمرا ما رأيناك أخذته على الرجال ، وبايع الرجال يومئذ على الإسلام والجهاد ، فقال) ولا يسرقن (فقالت : إن إبا سفيان رجل شحيح وإني أصيب من ماله هنات فلا أدري أيحل لي أم لا ؟ فقال أبو سفيان : ما أصبت من شيء فيما مضى وفيما غير فهو لك حلال ، فضحك رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وعرفها فقال : (وإنك لهند بنت عتبة) ، قالت : نعم ، فاعف عني ما سلف عفا الله عنك ، فقال : (ولا يزنين (فقال : أو تزني الحرة ، فقال) ولا يقتلن أولادهن (فقالت : ربيناهم صغارا وقتلتموهم كبارا وأنتم وهم أعلم ، ." (١)

" صفحة رقم ٥٦٨

وكان ابنها حنظلة بن أبي سفيان قتل يوم بدر فضحك عمر رضي الله عنه حتى استلقى وتبسم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وذكر البهتان وهو أن تقذف ولدا على زوجها ليس منه ، قالت هند : والله إن البهتان لقبيح وما تدعونا إلا إلى الرشد ومكارم الأخلاق ، فقال) ولا يعصينك في معروف (فقالت : ما جلسنا مجلسنا هذا وفي أنفسنا أن نعصيك في شيء ، وما مست يد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يد امرأة لا تحل له ، وكانت أسماء بنت يزيد بن السكن في المبايعات فقالت : يا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ابسط يدك نبايعك ، فقال : (إني لا أصافح النساء لكن آخذ عليهن) ، وعن الشعبي أنه (صلى الله عليه وسلم) دعا بقدح من ماء فغمس يده فيه ثم غمسن أيديهن فيه ، وعنه أنه (صلى الله عليه وسلم) لقنهن في المبايعة (فيما استطعتن وأطقتن) فقالت : الله ورسوله أرحم بنا من أنفسنا .

ولما ذكر ما أمر به نبيه (صلى الله عليه وسلم) في المبايعات بعد أن عد الذين آمنوا أصلا في امتحان المهاجرات فعلم نم لك أن تولي النساء مع أنه لا ضرر فيهن بقتال ونحوه لا يسوغ إلا بعد العلم بإيمانهن ، وكان الختم بضفتي

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع - ت: عبدالرزاق غالب)، ٥٦٧/٧

الغفران والرحمن مما جرأه على محاباة المؤمنين لعبض الكفار من أزواج أو غيرهم لقرابة أو غيرها لعلة يبديها الزوج أو غير لك من الأمور ، كرر سبحانه الأمر بالبراءة من كل عدو ، ردا لآخر السورة على أولها تأكيدا للإعراض عنهم وتنفيرا من توليهم كما أفهمته آية المبايعة وآية الامتحان ، فقال ملذذا لهم بالإقبال بالخطاب كما فعل أولها بلذيذ **العتاب** : (يا أيها الذين آمنوا (.

ولما كان الميل عن الطريق الأقوام على خلاف ما تامر به الفطرة الأولى فلا يكون إلا عن معالجتها ، عبر بالتفعل كما عبر به أول السورة بالافتعال فقال : (لا تتولوا) أي تعالجوا أنفسكم أن تتولوا) قوما) أي ناسا لهم قوة على ما يحاولونه فغيرهم من باب الأولى) غضب الله) أي أوقع الملك الأعلى الغضب) عليهم (لإقبالهم على ما أحاط بهم من الخطايا فهو عام في كل من اتصف بذلك يتناول اليهود تناولا أوليا .

ولما كان السامع لهذا يتوقع بيان سبب الغضب ، قال معللا ومبينا أنه لا خير فيهم يرجى وإن ظهر خلاف ذلك : (قد يئسوا) أي تحققوا عدم الرجاء) من الآخرة) أي من أن ينالهم منها خير ما لإحاطة معاصيهم بهم أو لعدم اعتقادهم لقيامها ولا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ، فيوشك من والهم يكتب منهم فيحل بهم الغضب) كما." (١)

" صفحة رقم ٥٧٥

بدل الأذى ، والتبيجيل والانقياد موضع التوقف والإباء ، قال محققا بحرف التحقيق مضمون الكلام : (وقد) أي والحال أنكم) تعلمون) أي علمتم قطعيا مع تجدده لكم في كل وقت بتجدد أسبابه بما آتيتكم به من المعجزات وبالكتاب الحافظ لكم من الزيغ) أني رسول الله) أي الملك الأعظم الذي لا كفوء له ورسوله أيضا يعظم ويحترم لا أنه تنتهك جلالته وتخترم) إليكم (لا أقول لكم شيئا إلا عنه ، ولا أنطق عن الهوى ، فعصياني عصاينه مع أني ما قلت لكم شيئا إلا تم ، وإن كنتم قاطعين بخلافه فهي معصيته لا حامل عليها أصلا إلا رداءة الجبلات .

ولما تحنن إليهم واستعطفهم وذكرهم ما يعلمون من رسليته وصلته بالله بما شاهدوا من الآيات التي هي أعظم الإحسان إليهم ، أعلم أنهم أوشكوا العصيان ، فقال معبرا عن ذلك بالفاء تسبيبا عن هذا القول الذي هو أهل لأن يسبب الثبات وتعقيبا وتقريبا : (فلما زاغوا) أي تحقق زيغهم عن قرب عن أوامر الله في الكتبا الآتي إليهم بما أبوا من قبول أمره في الإقدام على الفتح) أزاغ الله) أي الذي له الأمر كله) قلوبهم (من الاستواء ، وجمع الكثرة يدل على أنه لم يثبت منهم إلا القليل فهزمهم بين يدي أعدائهم وضربهم بالتيه لأنهم فسقوا عن أمر الله) فالله (- لا يهديهم ، فأسند الذنب إليهم والعقوبة إليه وإن كان الكل فعله تعليما لعباده الأدب وإعلاما بأن أفعالهم الاختيارية ينسب إليهم كسبها ويقوم به الحجة عليهم لعدم علمهم بالعاقبة) والله) أي الملك الأعظم الذي له الحكمة البالغة لأنه المستجمع لصفات الكمال) لا يهدي) أي بالتوفيق بعد هداية البيان) القوم الفاسقين) أي العريقين في الفسق الذين لهم قوة المحاولة فلم يحملهم على الفسق ضعف ، فاحذروا أن تكونوا مثلهم في العزائم فتساووهم في عقوبات الجرائم - انتهى .

ولما كان أذى النبي (صلى الله عليه وسلم) بمخالفة أمره تارة يكون مع العلم برسالته والإقرار بها وتارة مع الإنكار ،

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع - ت: عبدالرزاق غالب)، ٥٦٨/٧

وقدم العتاب على ما كان منه على تقدير التصديق ، وذكر فيه بقصة موسى عليه الصلاة والسلام الذي كانوا يؤذونه مع العلم برسالته ، وهدد بما اتفق لهم من زيغ القلوب التي هي عماد الأبدان وصلاح الإنسان ، أتبعه ما يكون منه عند فرض الإنكار .

ولما كان رد المنكر تارة بالعقل وتارة بالنقل ، وكان الذي بالعقل يكون بنظر المعجزات ولا سيما إخراج الخبأ وقد كان منه في قصة حاطب رضي الله تعالى عنه في إخراج كتابه الذي اجتهد في إخفائه واجتهدت الظعينة الحاملة له في كتمانه ما فيه مقنع في العلم بالرسالة وتحقق الجلالة ، أتبع ذلك دليلا نقليا تأييدا للعقل مع كونه دليلا على صحة الإخبار بإزاغة قلوب بني إسرائيل جزاء على زيغهم عن الحق فقال : (وإذ) أي واذكروا حين) قال عيسى (ووصفه بما حقق من هو فقال : (ابن مريم) أي لقوم." (١)

" صفحة رقم ٥٧٦

موسى عليهما الصلاة والسلام الذين أرسل إليهم وثبتت نبوته لديهم بالمعجزات مع إخلاص الدعوة لله وتصديق من كان قبله من أهل الله : (يا بني إسرائيل (وذكرهم بما كان عليه أبوهم من الدين وما وصى به نبيه من التمسك بالإسلام ، ولم يعبر بالقوم كما قال موسى عليه الصلاة والسلام لأنه لا أب له فيهم وإن كانت أمه منهم ، فإن النسب إنما هو من جهة الأب ، وأكد لإنكار بعضهم فقال : (إني رسول الله) أي الملك الأعظم الذي أحاط علمه بكل شيء) إليكم) أي لا إلى غيركم ، حال كوني) مصدقا (نصبه بما في الرسول من رائحة الفعل ولا ينصب ب (إليكم) لأنه صفة للرسول ، وحروف الجر لا تعمل بأنفسها بل بما فيها من معنى الفعل ، فإذا كانت صلات لم تكن متضمنة لمعنى فعل فلا تعمل ، وهو الحرف الذي يسمى في غير (الكتاب العزيز) لغوا) لما بين يدي) أي تقدمني وكان من قبلي) من التوراة (التي تعلمون أن الله تعالى أنزلها على موسى عليه الصلاة والسلام وهي أول الكتب التي نزلت بعد الصحف وحكم بها النبيون ، فتصديقي لها مع تأييدي لها مؤيد لأن ما أقمته من الدلائل حق ومبين أنها دليلي فيما لم أنسخه منه كما يستدل الإنسان بما قدامه من الأعلام ويراعيه ببصره .

ولما ذكر أول الكتب ذكر أيضا أول الأنبياء خلقا وآخرهم بعثا وهو آخر الرسل ليكون في ذلك إشارة إلى أن البشراة به في التوراة والإنجيل فقال : (ومبشرا) أي في حال تصديقي للتوراة .

ولما كانت رسالته (صلى الله عليه وسلم) عامة لجميع الخلق لم يذكر في رسالته حرف الغاية كما ذكر في الرسالتين المذكورتين قبل فقال : (برسول) أي إلى كل من شملته المربوبية) يأتي (ولما كان إتيانه بعده بمدة طويلة أدخل الجار فقال : (من بعدي (ولما كان الإتيان بغاية البيان وإزاحة اللبس بكل اعتبار أقعد في العتاب لمن هفا بعده والأخذ لمن جفا فنقض عهده ، أتى بالاسم الذي ما شارك النبي (صلى الله عليه وسلم) فيه أحد في زمانه ولا قبله أصلا ، ووزنه دال على المبالغة في معناه فقال : (اسمه أحمد) أي دال على أنه أبلغ الخلق حامدا ومحمودا وهو اسمه (صلى الله عليه وسلم) في السماء التي سيصير إليها هذا المبشر ، وفي تخصيصه بالذكر احتراز عن أن يتوهم أن البعدية في الرتبة

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ٥٧٥/٧

لأنه يليح بتصديره بالهمزة التي هي أول الحروف مخرجا وأشد حروف الحلق الذي هو أول المخارج وتضمينه الميم إلى أنه (صلى الله عليه وسلم) كما أنه خاتم بما أشار إليه أشهر أسمائه وأعظمها (محمد) لابتدائه المخارج ، لا نبي بعده فهو فاتح مقدم باعتبار الذكر والشرف والحكم بالوصف الشريف لا نبي قبله في الخلق وجبت له النبة وإن آدم لمنجدل في طينه وبين الروح والجسد كما." (١)

" صفحة رقم ٥٨٦

يكون منه خارجا عنه ليكون خالصا بفتح بلد الحج ليسهل الوصول إليه من كل من أراده وغير ذلك من شرائعه فتكونوا ممن يصدق فعله قوله ، وهذا المعنى لا وقفة فيه لأنه فرق بين قولنا : فلان فعل كذا - الصادق بمرة ، وبين قولنا بفعله الدال على أن فعله قد صار ديدنا له ، فالمعنى : يا من فعل الإيمان إن أردتم النجاة فكونوا عريقين في وصف الإيمان حقيقين به ثابتي الإقدام فيه وأديموا الجهاد دلالة على ذلك فإن الجهاد لما فيه من الخطر والمشقة والضرر أعظم دليل على صدق الإيمان ، ويؤيد ذلك أن السياق لقصة حاطب رضي الله عنه المفهمة في الظاهر لعدم الثبات في الإيمان وإرادة الجهاد الدال على المصدق فيه ، ولذلك قال عمر رضي الله عنه ما قال - والله الهادي .

ولما كان الجميع بين الروح وعديلها المال على وجه الرضى والرغبة أدل على صحة الإيمان ، قال : (بأموالكم (وقدمها لعزتها في ذلك الزمان ولأنها قوام الأنفس والأبدان ، فمن بذل ماله كله لم يبخل بنفسه لأن المال قوامها .

ولما قدم اقوم أتبعه القائم به فقال : (وأنفسكم (ولما أمر بهذا في صيغة الخبر اهتماما به وتأييدا لشأنه ، أشار إلى عظمته بمدحه قبل ذكر جزائه ، فقال : (ذلكم) أي الأمر العظيم من الإيمان وتصديقه بالجهاد) تعلمون) أي إن كان يمكن أن يتجدد لكم علم في وقت من الأوقات فأنتم تعلمون أن ذلك خير لكم ، فإذا علمتم ، أنه خير أقبلتم عليه فكان لكم به أمر عظيم ، وإن كانت قلوبكم قد طمست طمسا لا رجاء لصلاحها فصلوا على أنفسكم صلاة الموت .

الصف : (١٢ - ١٤) يغفر لكم ذنوبكم. .. . . .

) يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين يأيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنص ا ري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله فآمنت طآئفة من بني إسرائيل وكفرت طآئفة فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين (( )

ولما كان معنى (تؤمنون) : فالأمر كما تقدم ، لكنه حول عن ذلك لما ذكر ، وكان أهم ما إلى الإنسان خوفه مما هدد عليه ، أمن سبحانه من ذلك دالا على اصل الفعل بجزم ما هو في موضع الجواب فقال : (يغفر لكم) أي خاصة دون من لم يفعل ذلك) ذنوبكم) أي بمحو أعيانها وآثارها كلها .

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع - ت: عبدالرزاق غالب)، ٥٧٦/٧

ولما قرع القلوب من كدر العقاب **والعتاب** ، لذذها بطيب الثواب فقال : (ويدخلكم) أي بعد التزكية بالمغفرة رحمة لكم) جنات تجري (ودل على قرب." (١)

" صفحة رقم ٦٠٣

ولكن قاصد التجارة هو الكثر ، أنث الضمير فقال معلما بالاهتمام بها لأن اللهو مسبب عنها : (إليها (وللدالة على أنه إذا ذم قاصدها مع ما فيها من النفع والإنسان لا بد له من إصلاح معاشه لقيام حاله ولا سيما والحاجة إذ ذاك شديدة ،كان الذم لقصد اللهو نم باب الأولى .

ولما كان ذلك حال الخطبة التي هي جديرة بشدة الإصغاء إليها والاتعاظ بها في صرف النفس عن الدنيا والإقبال على الآخرة قال : (وتركوك) أي تخطب حتى بقيت في اثني عشر رجلا ، قال جابر رضي الله عنه : أنا أحدهم ، ودل على مشروعية القيام بقوله : (قائما (فالواجب خطبتان : قائما يفصل بينهما بجلوس ، والواجب فيهما أن يحمد الله تعالى ويصلي على النبي (صلى الله عليه وسلم) ويوصي بتقوى الله تعالى ، هذه الثلاثة واجبة في الخطبتين معا ، ويجب أن يقرأ في الأولى آية من القرآن وفي الثانية أن يدعو للمؤمنين ، فلو تـرك واحدة من هذه الخمس لم تصح الخطبة عند الشافعي رضي الله عنه ، ولجواز الجمعة خمس شرائط : الوقت وهو وقت الظهر ، والعدد وهو الأربعون ، والإمام والخطبة ودار الإقامة ، فإن فقد شرط وجبت الظهر ، ولا تبتدأ الخطبة إلا بعد تمام ، وبقاء هذا العدد شرط إلى آخر الصلاة ، فإن انفض بعضهم ثم عاد ولم يفته شيء من الأركان صحت .

ولما كان هذا فعل من سفلت همته عن سماع كلام الحق من الحق ، أمره (صلى الله عليه وسلم) بوعظهم إلهابا لهم إلى الرجوع إلى تأهلهم للخطاب ولو **بالعتاب** قال : (قل) أي لهم ترغيبا في الرجوع إلى ما كانوا عليه من طلب الخير من معدنه : (ما عند الله) أي المحيط بجميع صفات الكمال من الأعراض العاجلة في الدنيا من واردات القلوب وبادر الحقيقة ، الحاصل من سماع الخطبة الآمر بكل خير ، الناهي عن كل شر ، المفيد لتزكية الباطن وتقويم الظاهر والبركة في جميع الأحوال والآجلة في ال آخرة مام لا يدخل تحت الوصف) خير (ولما قدم التجارة أولا اهتماما بها ، قدم هنا ما كانت سببا له ليصير كل منهما مقصودا بالنهي فقال : (نم اللهو (ولما بدأ به لإقبال الإغلب في حال الرفاهية عليه قال معيدا الجار للتأكيد : (ومن التجارة) أي وإن عظمت .

ولما كان من عنده الشيء قد لا يعطيه بسهولة وإذا أعطاه لا يعطيه إلا من يحبه قال : (والله) أي ذو الجلال والإكرام وحده) خير الرازقين (لأنه يرزق متاع الدنيا لسفوله ولكونه زادا إلى الآخر البر والفاجر والمطيع والعاصي ، ويعطي نم يريد ما لا يحصيه العد ولا يحصره الحد ، وأما المعارف الإلهية والأعمال الدينية الدال عليها رونق الصدق وصفاء الإخلاص وجلالة المتابعة فلا يؤتيها إلا الأبرار وإن كانوا أضعف الناس." (٢)

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ٥٨٦/٧

(٢) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ٦٠٣/٧

" صفحة رقم ١٨
الأقارب وألصق الناس بالإنسان وهو كالعلة لآخر (المنافقون) : (يا أيها الذين آمنوا (ولما كان الأزواج أقرب عداوة من الأولاد قدمهن ، فقال مؤكدا لمن يستبعد ذلك : (إن من أزواجكم (وإن أظهرن غاية المودة) وأولادكم (وإن أظهروا أيضا غاية الشفقة والحنان) عدوا لكم) أي لشغلهم لكم عن الدين أو لغير ذلك من جمع المال وتحصيل الجاه لأجلهم والتهاون بالنهي عن المنكر فإن الولد مجبنة وغير ذلك ، قال أبو حيان رحمه الله تعالى : ولا أعدى على الرجل من زوجه وولده إذا كانا عدوين وذلك في الدنيا والآخرة ، أما في الدنيا فبإذهاب ماله -كما هو معروف - وعرضه ، وأما في الآخرة فيما يسعى في اكتسابه من الحرام لأجلهم وبما يكسبانه منه بسبب جاهه .
فالرجل من رأى ذلك نعمة من الله فجعله معينا له على طاعته لا قاطعا ومعوقا عما يرضيه بأن يلتهي بمحبته وعداوته وبغضته .
ولما أخبر عن الءداوة ، عبر بما قدم يفهم الواحد فقط تخفيفا ، ولما أمر بالحذر جمع إشارة إلى زيادة التحذير والخوف في كل أحد ولو كان أقرب الأقرباء لأن الحزم سوء الظن كما رواه الطبراني في الأوسط ، فسبب عن الإخبار بالعداوة الأمر بالحذر في قوله : (فاحذروهم) أي بأن تتقوا الله في كل أمرهم فتطلبوا في السعي عليهم الكفاف من حله وتقتصروا عليه ، ولا يحملنكم حبهم في كل أمرهم فتطلبوا وليشتد حذركم منهم بالعمل بما أمر الله حتى في العدل بينهم لئلا يتمكنوا من أذاكم فيعظم بهم الخطب ويكون فاتنا لكم في الدين إما بالردة - والعياذ بالله تعالى - أو بالشغل عن الطاعة أو بالإقحام في المعصية ومالفة السنة والجماعة ولما كان قد يقع ما يؤذي مع الحذر لأنه لا يغني من قدر أو مع الاستسلام ، وكان وكل المؤذي إلى الله أولى وأعظم في الاستنصار ، قال مرشدا إلى ذلك : (وإن تعفوا) أي توقعوا المجاوزة عن ذنوبهم بعدم ا لعقاب عليها فإنه لا فائدة في ذلك لأن من طبع على شيء لا يرجع ، وإنما النافع الحذر الذي أرشد إليه سبحانه لئلا يكون سببا للو المنهي عنه .
ولما كان الرجوع عن الحظوظ صعبا جدا ، أكد سبحانه فقال : (وتصفحوا) أي بالإعراض عن المقابلة بالتثريب باللسان) وتغفروا) أي بأن تستروا ذنوبهم سترا تاما شاملا للعين والأصر بالتجاوز بعد ترك العقاب عن **العتاب** ، فلا يكون منكم اشتغال بعداوتهم ولا ما قد يجرها عما ينفع من الطاعة ، ولما كان التقدير : يغفر الله لكم ، سبب عنه قوله : (فإن الله) أي الجامع لصفات الكمال) غفور) أي بالغ المحو الأعيان الذنوب وآثرها جزاء لكم على غفرانكم لهم وهو جدير بأن يصلحهم لكم بسبب غفرانكم لهم فإنه) رحيم (يزيدكم بعد ذلك الستر بالإنعام إن أكرمتموهم ، فتخلقوا بأخلاقه سبحانه يزدكم من فضله .." (١)
" صفحة رقم ٣٤
يكون تأديبا لأمر بمعروف ليتوصل بصورة شر قليل ظاهر إلى خير كثير قال : (لتضيقوا) أي تضييقا بالغا لا شبهة في كونه كذلك مستعليا) عليهن (حتى يلجئهن ذلك إلى الخروج .

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع - ت: عبدالرزاق غالب)، ١٨/٨

ولما كانت النفقة واجبة للرجعية ، وكانت عدتها تارة بالأقراء وتارة بالأشهر وتارة باحمل ، وكان ربما توهم أن ما بعد الثلاثة الأشهر من مدة الحمل للرجعية وجميع المدة لغيرها لا يجب الإنفاق فيه قال : (وإن كن) أي المعتدات) أولات حمل) أي من الأزواج كيف ما كانت العدة من موت أو طلاق بائن أو رجعي) فأنفقوا عليهن (وإن مضت الأشهر) حتى يضعن حملهن (فإن العلة الاعتداد بالحمل ، وهذه الشرطية تدل على اختصاص الحوامل من بين المعتدات البوائن بوجوب النفقة .

ولما غيى سبحانه وجوب الإنفاق بالوضع ، وكانت قد تريد إرضاع ولدها ، وكانت اشتغالها بإرضاعه يفوت عليها كثير من مقاصدها ويكسرها ، جبرها بأن قال حاثا على مكافأة الأخوان على الإحسان مشيرا بأداة الشك إلى أنه لا يجيب عليها الإرضاع : (فإن أرضعن (وبين أن النسب للرجال بقوله تعالى : (لكم) أي بأجرة بعد انقطاع علقة النكاح) فآتوهن أجورهن (على ذلك الإرضاع .

ولما كان ما يتعلق بالنساء من مثل ذلك موضع المشاجرة لا سيما أمر الرضاع ، وكان الخطر في أمره شديدا ، وكان الله تعالى قد رحم هذه الأمة بأنه يحرك لكل متشاحين من يأمرهما بخير لا سيما في أمر الولد رحمة له قال مشيرا إلى ذلك : (واتمروا) أي ليأمر بعضكم بعضا في الإرضاع والأجر فيه وغير ذلك وليقبل بعضكم أمر بعض ، وزادهم رغبة في ذلك بقوله : (بينكم) أي إن هذا الخير لا يعدوكم ، وأكد ذلك بقوله : (بمعروف (ونكره سبحانه تحقيقا على الأمة بالرضى بالمستطاع ، وهو يكون مع الخلق بالإنصاف ، ومع الناس بالخلاف ، ومع الحق بالاعتراف .

ولما كان ذلك موجبا للمياسرة ، وكان قد يوجد في الناس من الغالب عليه الشر ، قال مشيرا بالتعبير بأداة الشك إلى أن ذلك وإن وجد فهو قليل عاطفا على ما تقديره فإن تياسرتم فهو حظكم وأنتم جديرون بسماع هذا الوعد بذلك : (وإن تعاسرتم) أي طلب كل منكم ما يعسر على الآخر بأن طلبت المرأة الأجرة وطلب الزوج إرضاعها مجانا فليس له أن يكرهها .

ولما كان سبحانه قد تكفل بأرزاق عباده وقدرها قبل إيجادهم .

قال مخبرا جبرا للأب بما يصلح عتابا للأم : (فسترضع) أي بوعد لا خلف فيه ، وصرف الخطاب إلى الغيبة إيذانا بأن الأب ترك الأولى فيما هو جدير به من المياسرة لكونه حقيقا بأن يكون أوسع بطانا وأعظم شأنا من أن يضيق عما ترضى." (١)

"صفحة رقم ٤٣

سورة التحريم

مقصودها الحث على تقدير التدبير في الأدب مع الله ومع رسوله (صلى الله عليه وسلم) ومع سائر العباد والندب إلى التخلق بالأدب الشرعي وحسن المباشرة لا سيما للنساء اقتداء بالنبي (صلى الله عليه وسلم) في حسن عشرته وكريم صحبته وبيان ان الأ ب الشرعي تارة يكون باللين والأناة ، وأخرى بالسوط وما داناه ومرة بالسيف وما والاه ، وكل من

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ٣٤/٨

اسميها التحريم والنبي (صلى الله عليه وسلم) موضح لذلك) بسم الله (الذي له الكمال كله على الدوام) الرحمن (الذي عم عباده بعظيم الإنعام) الرحيم (الذي أتم خواصه نعمة الإسلام .

التحريم : (١ – ٣) يا أيها النبي. .. . .

) يأيها النبي لم تحرم مآ أحل الله لك تبتغي مرضاة أزواجك والله غفور رحيم قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم والله مولاكم وهو العليم الحكيم وإذ أسر النبي إلى بعض أزواجه حديثا فلما نبأت به وأظهره الله عليه عرف بعضه وأعرض عن بعض فلما نبأها به قالت من أنبأك هذا قال نبأني العليم الخبير (( )

لما ختم سبحانه الطلاق بإحاطة علمه وتنزل أمره بين الخافقين في تدبيره ، دل عليه أول هذه بإعلاء أمور الخلق بأمر إخفاء ما تعلق به منه فأظهره سبحانه **عتابا** لأزواج نبيه (صلى الله عليه وسلم) في صورة عقابه لأنه أبلغ رفقا به لأنه يكاد من شفقته أن يبخع نفسه الشريفة رحمة لأمته تارة لطلب رضاهم وأخرى رغبة في هداهم ، لأنه (صلى الله عليه وسلم) بالغ في تهذيب أخلاقه مع ما طهره الله به من نزاهتها عن كل دنس حتى ضيق عليها بالامتناع عن بعض ما أبيح له حفظا لخاطر الغير ، فقال تعالى مناديا له بأداة البعد وهو أقرب أهل الحرضة مع أنها معدة لما يكون ذا خطب جليل ومعنى جسيم جليل ، وفيها إيماء إلى تنبيه الغير وإسماعه إرادة لتأديبه وتزيكته وتهذيبه : (يا أيها النبي (مخاطبة بالوصف الذي يعلم بالعصمة ويلائمه أشد الملاءمة خلو البال وسرور القلب وانشراح الصدر لأنه للتلقي عن الله تعالى فيحث كل." (١)

" صفحة رقم ٤٦

الطلاق أقرب شيء وأشبه بسورة الأنفال وبراءة لتقارب المعاني والتحام المقاصد – انتهى .

ولما كانت العدة فيمن رأى حبيبه قد ضاق صدره أن يسعى أولا في شرح صدره وطيب نفسه ثم يزيده بسطا بأن يقول للحاضرين : إن حبيبنا هذا الكريم علينا اتفق له كذا ، وقد كرهت هذا وضمنت زواله ، وكان تعالى قد طيب نفسه (صلى الله عليه وسلم) بأول السورة ، ثم أتبعه الأمر الآخر ، فكان التقدير : اذكروا هذا الذي ذكرته من حسن عشرة نبيكم (صلى الله عليه وسلم) لنسائه رضي الله تعالى عنهن وكريم صحبته وشريف أخلاقه وجميل أفضاله وجليل حلمه واذكروا ما خفف الله به عنكم في الأيمان التي لا مثنوية فيها واذكروا فيها اسمه المقدس ، عطف عليه قوله تعالى تشريفا لنبيه (صلى الله عليه وسلم) بالمعاتبة عليه وبإظهار ما هو حامل له نم ثقل هذا السر على أجمل وجه تخفيفا عنه وترويحا له : (أسر النبي) أي الذي شأنه أن يرفعه الله دائما بأن يتلقى من فياض علمه ما يخبر به الناس فإنه ما ينطق عن الهوى وأبهم الزوجة وهي حفصة رضي الله عنها ، كنى عنها صيانة لهن لأن حرمتهن رضي الله عنهن من حرمته (صلى الله عليه وسلم)) حديثا (ليس هو من شأن الرسالة ولو كان من شأنها لهم به وأعلنه لم يخص بهولا أسره وذلك هو تحريم مارية رضي الله عنها ووعده بأن يترك العسل وبشارته بولاية أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ولم يبين الحديث ويفصله إكراما له (صلى الله عليه وسلم) وحفظا لسره لأن العادة جارية بأن الإنسان لا يحب تفصيل سره وإن كنا

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ٤٣/٨

اطلعنا عليه بعد ذلك لنتأسى به فيما فيه من الأحكام ، فإن أحواله (صلى الله عليه وسلم) كلها أحكام لنا إلا ما اختص به وأشار إلى قرب زمن إفشائه من زمن التحديث بالفاء في قوله تعالى : (فلما نبأت) أي أخبرت إخبارا عظيما جليلا لشرفه في نفسه ولأنه من عند الله وبالغت في ذلك وأخبرت) به (كله من جميع وجوهه ، وجعل ذلك في سياق حكاية لأنه أستر لحرمه (صلى الله عليه وسلم) حيث لم يقل : فنبأت به ولا قال : أساءت بالإنباء به ، ونحو ذلك مما يفهم أنه مقصود بالذات) وأظهره الله) أي أطلعه الملك الذي له الإحاطة بكل شيء) عليه) أي الحديث بأنه قد أفشى مناصحة له في إعلامه بما يقع في غيبته ليحذره إن كان شرا ويثيب عليه إن كان خيرا) عرف) أي النبي (صلى الله عليه وسلم) التي أسر إليها) بعضه (وهو أمر الخلافة عتابا لها عليه لأنه كان أوصاها أن لا تظهره ، والكف عن بعض العتب أبعث على حياء المعتوب وأعون على توبته وعدم عدده إلى فعل مثله) وأعرض عن بعض (وهو أمر السرية والعسل تكرما منه أن يستقصي في العتاب وحياء وحسن عشرة ، قال الحسن : ما استقصى كريم." (١)

" صفحة رقم ٤٧

قط ، وقال سفيان الثوري : ما زال التغافل من فعل الكبراء وإنما عاتب على أمر الخلافة خوفا من أن ينتشر في الناس ويذيع ، فربما أثار حسدا من بعض المنافقين وأورث الحسود للصديق والفاروق كيدا أو جر غلى مفسدة لا نعلمها ، وخفف الكسائي : عرف أي أقر به والمعرفة سبب التعريف والتعريف عن المعرفة فإطلاق أحدهما على الآخر شائع وعلاقته ذلك وأشار إلى مبادرته بتعريفها ذلك لئلا ينتشر ما يكرهه منه بقوله : (فلما نبأها (بما فعلت من إفشاء ما عرفها منه على وجه لم يغادر من ذلك الذي عرفها) به (شيئا منه ولا من عوارضه ليزداد بصيرة ، روي أنها قالت : قلت لعائشة رضي الله عنها سرا وأنا أعلم أنها لا تظهره ، قاله الملوي وهو معنى قوله : (قالت) أي ظنا منها أن عائشة رضي الله عنها أفشت عليها) من أنبأت هذا) أي مطلق إخبار ، واستأنف قوله : (قال نبأني (وحذف المتعلق اختصارا للفظ وتكثيرا للمعنى بالتعميم إشارة إلى أنه أخبره بجميع ما دار بينها وبين عائشة رضي الله عنهما مما عرفها به ومن غيره على أتم ما كان) العليم) أي المحيط بالعلم) الخبير) أي المطلع على الضمائر والظواهر فهو أهل لأن يحذر فلا يتكلم سرا ولا جهرا إلا بما يرضيه .

التحريم : (٤ - ٥) إن تتوبا إلى. .. . .

) إن تتوبآ إلى الله فقد صغت قلوبكما وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وأبكارا ( ))

ولما عرف من هذا أن المعاتب المنبئة ومن نباته ، وكان قد يكون عددا أشار إلى أنه واحد فالمعاتب اثنتان ، وكانتا قد اتسعت قلوبهما لما يأتي من قبل الله من الرغائب بهذا العتاب على هذا الأمر الخفي جدا والكرم عليهما فيه بعدم الاستقصاء فمالت قلوبهما إلى المعالي وغ ا صت على جليل المعارف فصاغت من جواهر ذلك دقيق المعاني ، لفت

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع - ت: عبدالرزاق غالب)، ٨/٤٦

إليهما الخطاب بلطيف العباد لشريف المتاب ، فقال تشريفا آخر له (صلى الله عليه وسلم) بالإقبال على نسائه رضي الله تعالى عنهن **بالعتاب** لأجله قياما عنه بما ربما أزعجه لو باشره حفظا لخاطره الشريف مما قد يغره) إن تتوبا) أي يا عائشة ويا حفصة مما صنعته حفصة بالإفشاء وعائشة بالاحتيال على المنع من شرب العسل والتحليف على مارية) إلى الله) أي الملك الذي أحاط علمه فجلت قدرته ولطف بهما لأجله (صلى الله عليه وسلم) غاية اللطف في قوله : (فقد صغت) أي مالت وغاضت بما صاغت) قلوبكما (وفي جمع القلوب جمع كثرة تأكيد لما فهمته من ميل القلب بكثرة المعارف بما أفادهما إظهار هذا السر **والعتاب** عليه من الحياء ، فصارتا جديرتين بالمبادرة إلى التوبة متأهلتين لذلك غاية التأهل .." (١)

" صفحة رقم ٥٠

منهن مطلقا وإن قيل بوجود في خديجة رضي الله عنها لما جرب من تحاملها على نفسها في حقه (صلى الله عليه وسلم) وبلوغها في حبه والأدب معه ظاهرا وباطنا النهاية القصوى ومريم عليها السلام التي أحصنت فرجهاحتى كانت من القانتين ، وذلك في الآخرة ، والكلام خارج مخرج الشرط بالطلاق وقد علم سبحانه أنه لا يقع لكنه سبحانه علم أنه لو وقع أبدله (صلى الله عليه وسلم) من هو بالصفات المذكورة المقتضية للإخلاص في طاعته كما أشار إليه (قانتات) ولا شك أن من لازم طاعته وقيد الاتصال به في الدارين كان خيرا من غيره ، وتعليق تطلق الكل لا يدل على أنه لم يطلق حفصة رضي الله عنها فقد روي أنه طلقها ولم يزدها ذلك إلا فضلا من الله تعالى لأن الله تعالى أمره بأن يراجعها لأنها صوامة قوامه – والله الموفق .

ولما وعد بما ذكر ، وكان أول منظور إليه الظاهر ، فصل ذلك الوعد وفسر الخيرية بادئا بقوله : (مسلمات) أي ملقيات لجميع قيادهن ظاهرا وباطنا لله ولرسوله (صلى الله عليه وسلم) على وجه الخضوع .

ولما كان المشاهد من الإسلام إنما هو الظاهر قال : (مؤمنات) أي راسخات في القوة العلمية بتصديق الباطن .

ولما كان ذلك قد يكون فيه نوع شوب قال : (قانتات) أي مخلصات في ذلك لا شائبة في شيء منه فهن في غاية ما يكون من إدامة الطاعة له من الذل والانكسار والمبادرة إلى امتثال أمره (صلى الله عليه وسلم) في المنشط والمكره .

ولما كان الإنسان مجبولا على النقصان ، وكان الإخلاص يدل صاحبه على تقصيره فكان ربما فتره ذلك ، قال تسهيلا لخدمته وتقريبا لدوام طاعته معلما الأدب لمحتاجه) تائبات) أي راجعات من الهفوات أو الزلات سريعا إن وقع منهن شيء من ذلك .

ولما كان هذا مصححا للعبادة لدوامها قال : (عابدات) أي مديمات للعبادة بسبب إدامة تجديد التوبة .

ولما كان دوام العبادة مسهلا للخروج عن الدنيا قال : (سائحات) أي متصفات بصفات الملائكة من التخلي عن الدنيا والاستغراق في الآخرة بما أدناه الصيام ماضيات في ذلك غاية المضاء ليتم الانقياد لله ولرسوله (صلى الله عليه

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ٨/٤٧

وسلم) ، لأن من كان هكذا لم يكن له مراد ، فكان تابعا لربه في أمره دائم ويصير لطيف الذات حلو الشمائل ، قال الملوي : والمرأة إذا كانت كثيرة الصيام قليلة الأكل يقل عرقها ويصغر كرشها وتطلف رائحتها وتخف حركتها لما يراد منها – انتهى .

وسوق هذه الأوصاف هذا السياق في **عتاب** من هو متصف بها معرف أن المراد منها التمام لا سيما وهي لا يوجد وصف منها على سبيل الرسوخ إلا كان مستلزما لسائرها ، فلذلك لم يحتج في تعدادها إلى العطف بالواو .

والتجريد عنه أقعد في الدلالة على إرادة اجتماعها كلها .." (١)

" صفحة رقم ٥١

ولما أكمل الصفات النافعة في أمر العشرة ولم يبق إلا الصفات الكونية وكان التنويع إلى عارفة بالعشر وباقية على أصل الفطر ، ألذ وأشهى إلى النفس ، قال مقسما للنساء المتصفات بالصفات الست عاطفا ثاني الوصفين بالواو للتضاد) ثيبات (قدمهن لأنهن أخبر بالعشرة التي هذا سياقها) وأبكارا (.

التحريم : (٦ – ٧) يا أيها الذين. .. . . .

) يأيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله مآ أمرهم ويفعلون ما يؤمرون يأيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم إنما تجزون ما كنتم تعملون (( )

ولما أبلغ سبحانه في **عتاب** أزواج النبي (صلى الله عليه وسلم) مع صيانتهن عن التسمية إكراما له (صلى الله عليه وسلم) وعلم اتصافهن بهذه الصفات العظيمة على سبيل الرسوخ من دوام صحبته (صلى الله عليه وسلم) لهن ليكن من جملة أزواجه في الجنة وكان اتصافهن بذلك الذي أداهن إلى السعادة العظمة إنما هو بحسن تأديب أوليائهن لهن وإكمال ذلك الأدب بحسن عشرته (صلى الله عليه وسلم) وتأدبهن بكريم أخلاقه أثمر ذلك أمر الأمة بالتأسي به في هذه الأخلاق الكاملة والتأسي بأوليائهن في ذلك ليعرفن حق الله وحق الأزواج فيحصل بذلك صلاح ذات البين المثمرات للخير كله فقال تعالى متبعا لهذه الموعظة الخاصة بموعظة عامة دالة على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر للأقرب فالأقرب) يا أيها (مخاطبة لأدنى الأسنان إشارة إلى أن من فوقهم تأسى من حين دخوله في الإسلام فهو غني عن امر جديد) الذين آمنوا (أي أقروا بذلك) قوا أنفسكم (أي اجعلوا لها وقاية بالتأسي به (صلى الله عليه وسلم) في أدبه مع الخلق والخالق في لينه لمن يستحق اللين من الخلق تعظيما للخالق فعاملوه قبل كل شيء بما يعاملكم به من الأدب ، وكذا كونوا مع بقية الخلق .

ولما كان الإنسان راعيا أله بيته مسؤولا عن رعيته قال تعالى : (وأهليكم (من النساء والأولاد وكل من يدخل في هذا الاسم قوهم) نارا (بالنصح والتأديب ليكونوا متخلقين بأخلاق أهل النبي (صلى الله عليه وسلم) كما روى أحمد

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ٥٠/٨

والطبراني عن سعيد بن العاص رضي الله عنه رفعه : (ما نحل والد ولدا أفضل من أدب حسن) ولما كانت الأشياء لا تعظم في نفسها وعند المخبر بها إلا بإخباره بما يشتمل عليه من الأوصاف قال : (وقودها (." (١)

" صفحة رقم ٥٧

ولما كان انتقام الولي من العدو إنما هو لله سبحانه وتعالى ، لاحظ فيه ، فكان موجبا لعدم اكتفاء الله به في حق الولي ، فكان التقدير : فإنهم ليس لهم عصمة ولا حرمة في الدنيا ولا قوة وإن لاح في أمرهم خلاف ذلك ، عطف عليه قوله : (ومأواهم) أي في الآخرة) جهنم) أي الدركة النارية التي تلقى داخلها بالعبوسة والكراهة .

ولما كان التقدير : إليها مصيرهم لا محالة ، عليه قوله : (وبئس المصير) أي هي ، فذلك جزاء الله لهم عن الإساءة إلى أوليائه والانتقاص لأحبائه .

التحريم : (١٠) ضرب الله مثلا. .. . .

) ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنينا عنهما من الله شيئا وقيل ادخلا النار مع الداخلين (( )

ولما كان أمر الاستئصال في الإنجاء والإهلاك أشبه شيء بحال أهل الآخرة في الدينونة بالعدل والفضل ، وكان المفتتح به السورة عتاب النساء ، ثم أتبع بالأمر بالتأديب لجميع الأمة إلى أن ختم بهلاك المخالف في الدارين ، وكان للكفار قرابات بالمسلمينت وكانوا يظنون أنها ربما تنفعهم ، وللمسلمين قرابات بالكفار وكانوا ربما توهموا أنها تضرهم ، قال مجيبا لما يتخيل من ذلك تأديبا لمن ينكر عليه (صلى الله عليه وسلم) من النساء وغيرهن : (ضرب الله) أي الملك الذي أحاط بكل شيء قدرة وعلما) مثلا (يعلم به من فيه قابلية العلم ويتعظ به من له أهلية الاتعاظ) للذين كفروا) أي غطوا الحق على أنفسهم وعلى غيرهم سواء كانوا مشاققين أو منافقين في عدم انتفاعهم مع كفرهم بما بينهم وبين المؤمنين من الوصل والعلائق فيغلظ عليهم في الدارين معاملة بما يستحقون من غير محاباة لأحد وإن جل مقامه ، وعلا منصبه ومرامه ، لأن الكفر قاطع للعلائق بين الكافر والمسلم : (امرأت نوح (الذي أهلك الله من كذبه بالغرق ونصره وآو اه عليه الصلاة والسلام وكان اسمها فيهما يقال واعلة) وامرأت لوط (الذي أهلك الله أيضا من كذبه بالحصب والخسف والإغراق ، واسمها فيما قيل واهلة ، ودل على وجه الشبه بقوله : (كانتا) أي مع كونهما كافرتين .

ولم يقل : تحتهما ، بل أظهر بالوصف العبودية المضافة إليه سبحانه وتعالى والوصف بالصلاح لأن ذلك أفخم ، فيكون أشد تأثيرا للمواعظ وأعظم ، ودفعا لأن يتوهم أحد بشيء لا يليق بمقامهما عليهما الصلاة والسلام فقال : (تحت عبدين) أي كل واحدة منهما تحت عبد ، وعبر بذلك لأن أثر الناس عند الملك كما تقدم عبيده ، ودل على كثرة عبيده تنبيها على غناه بقوله : (من عبادنا (.

ولما كانت طبقات القرب متفاوتة بحسب الصلاح قال : (صالحين (وهما نوح." (٢)

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ٥١/٨

(٢) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ٥٧/٨

" صفحة رقم ١١٠

ولما كشف هذا الدليل الشبه ورفع الستار ، فأوصل إلى أعظم من ضوء النهار ، لفت القول إليهم بالخطاب لفت المغضب عند **العتاب** ، فقال معجبا منهم منبها على ما هم فيه من اعوجاج الفطر وفساد الفكر منكرا عليهم غاية الإنكار : (ما لكم) أي أي شيء يحصل لكم من هذه الأحكام الجائرة البعيدة عن الصواب .

ولما نبههم على أنه ليس لهم في مثل هذه الأحكام شيء يمكن أن يكون نافعا ، وكان العاقل إذا علم أن شيئا من الأشياء لا نفع فيه بعد منه ، أنكر عليهم ثالثا حال أحكامهم هذه لأن نفي أحوالها أشد لنفيها كما تقدم في))كيف تكفرون ((في [البقرة : ٢٨] فقال : (كيف تحكمون) أي أي عقل دعاكم إلى هذا الحكم الذي يتضمن التسوية من السيد بين المحسن من عبيده والمسيء .

ولما كان الحكم لا يمكن وجوده إلا مكيفا بكيفية ، وكان سبحانه وتعالى قد نفى حكمهم هذا بإنكار جميع كيفياته التي يمكن أن يصح معها ، وكان الحكم الصحيح لا بد وأن يكون مستندا إلى عقل أو نقل ، زاد بطلان حكمهم وضحا بنفي الأمرين معا ، فقال عاطفا على ما تقديره : ألكم دليل من العقل إليه تلجؤون : (أم لكم كتاب) أي سماوي معروف أنه من عند الله خاص بكم) فيه) أي لا في غيره من أساطير الأولين وبر الممحوقين) تدرسون) أي تقرؤون قراءة أتقنتم مخالطتها أو أنعمتم فهمه بسببها .

ولما ذكر المدروس فقال تعالى : (إن لكم) أي خاصة على وجه التأكيد الذي لا رخصة في تركه) فيه) أي الكتاب لتكونوا في غاية الوثوق به ، لا في غيره مما لا وثوق لكم به) لما تخيرون) أي تبالغون في انتقائه وأخذ خياره ، وكسر الهمزة وكان حقها الفتح لولا اللام لأن ما بعدها هو المدروس ، ويجوز أن تكون الجملة حكاية للمدروس وأن تكون استئنافية .

القلم : (٣٩ - ٤٣) أم لكم أيمان. .. . .

) أم لكم أيمان علينا بالغة إلى يوم القيامة إن لكم لما تحكمون سلهم أيهم بذلك زعيم أم لهم شركآء فليأتوا بشركآئهم إن كانوا صادقين يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون (( )

ولما نفى دليل العقل والنقل مع التعجب منهم والتهكم بهم ، وكان قد بقي أن الإنسان ربما عاهد غيره على شيء فيلزمه الوفاء به وإن كان خارجاص عما يدعو إليه العقل والنقل ، نفى ذلك بقوله : (أم لكم أيمان) أي غليظة جدا) علينا (قد حملتمونا إياها) بالغة) أي لأجل عظمها إلى نهاية رتب التأكيد بحيث يكون بلوغ غيرها ما يقصد بالنسبة إلى بلوغها ذلك عدما أي أن بلوغها هو البلوغ لا غيره ، أو ثباتها منته) إلى يوم." (١)

" صفحة رقم ٢١٩

فلا يسعه إلا العفو بل الغفر فقال حاثا على أن يكون ختام الأعمال بالاستغفار والاعتراف بالتقصير في خدمة المتكبر

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع - ت: عبدالرزاق غالب)، ٨/١١٠

الجبار مشيرا إلى حالة انفصال روحه عن بدنه وأن صلاحها الراحة من كل شر : (واستغفروا الله) أي اطلبوا وأوجدوا ستر الملك الأعظم الذي لا تحيطون بمعرفته فكيف بأداء حق خدمته لتقيركم عينا وأثرا بفعل ما يرضيه واجتناب ما يسخطه .

ولما علم من السياق ومن التعبير بالاسم الأعظم أنه سبحانه بالغ العظمة إللى حد يؤيس من إجابته ، علل الأمر بقوله مؤكدا تقريبا لما يستبعده من يستحضر عظمته سبحانه وشدة انتقامه وقوة بطشه ") إن الله (وأظهر إعلالما بأن صفاته لا تقصر آثارها على المستغفرين ولا على مطلق السائلين) غفور) أي بالغ الستر لأعيان الذنوب وآثارها حتى لا تكون عليها **عتاب** ولا عقاب) رحيم) أي بالغ الإكرام بعد الستر إفضالا وإحسانا وتشريفا وامتنانا وقد اشتملت هذه السورة على شرح قول النبي (صلى الله عليه وسلم) فيما أوتي من جوامع الكلم " اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي وأصلح لي آخرتي التي إليها منقلبي واجعل الحياة زيادة لي في كل خير واجعل الموت راحة لي من كل شر "كما أشير إلى كل جملة منها في محلهعنا ، ولقد رجع آخر السورة – بالترغيب في العمل وذكر جزائه – على أولها الأمكر بالقيام بين يبديه وبإشارة الاستغفار إلى عظمم المقام وإن جل العمل ودام وإن كان بالقيام في ظلام الليالي والناس نيام ، فسبحان من له هذا الكلام المعجز لسائر الأنام لأحاطته بالجلال والإكرام ، فسبحانه من إله جابر القلوب المنكسرة .." (١)

"صفحة رقم ٣٢٣

سورة عبس

وتسمى الصاخة .

مقصودها شرح) إنما أنت منذر من يخشاها) [النازعات : ٤٥] بأن المراد الأعظم تزكية القابل للخشية بالتخويف بالقيامة التي قام الدليل على القدرة عليها بابتداء الخلق من الإنسان ، وبكل من الابتداء والإعادة لطعامه والتعجيب ممن أعرض مع قيام الدليل والإشارة إلى أن الاستغناء والترف أمارة الإعراض وعدم القابلية والتهيؤ للكفر والفجور ، وإلى أن المصائب أمارة للطهارة والإقبال واستكانة القلوب وسمو النفوس لشريف الأ " مال ، فكل من كان فيها أرسخ كان قلبيه أرق وألطف فكان أخشى ، فكان الإقبال عليه أحب وأولى ، واسمها عبس هو الدال على ذلك بتأمل آياته وتدبر فواصله وغاياته ، وكذا الصاخة النافخة بشرها وشررها والباخة) بسم الله (الذي له القدرة البالغة والحكمة الباهرة) الرحمن (الذي عم بنعمة الإيجاد الظاهرة ثم بآيات البيان الزاهرة ، ا) الرحيم (ا لذي خص أولياءه بأن أتم نعمته عليهم ، فكانت بهم إلى مرضاته سائرة .

عبس : (١ – ٦) عبس وتولى

) عبس وتولى أن جآءه الأعمى وما يدريك لعله يزكى أو يذكر فتنفعه الذكرى أما من استغنى فأنت له تصدى (( )

ولما قصره سبحانه على إنذاره من يخشى ، وكان قد جاءه (صلى الله عليه وسلم) عبد الله بن أم مكتوم الأعمى رضي

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ٢١٩/٨

الله تعالى عنه ، وكان من السابقين ، وكان النبي (صلى الله عليه وسلم) حين مجيئه مشتغلا بدعاء ناس من صناديد قريش إلى الله تعالى ، وقد وجد منهم نوع لين ، فشرع عبد الله رضي الله عنه يسأله وهو لا يعلم ما هو فيه من الشغل ، يسأله أن يقرئه ويعلمه مما عمله الله فكره أن يقطع كلام مع أولئك خوفا من أن يفوته منهم ما يرجوه من إسلامهم المستتبع لإسلام ناس كثير من أتباعهم ، ان يعرض عنه ويقبل عليهم ، وتظهر الكراهة في وجهه ، لاطفه سبحانه وتعالى **بالعتاب** عن التشاغل عن أهل ذلك بالتصدي لمن شأنه أن لا يشخى لافتتانه بزينة الحياة الدنيا وإقباله بكليته على ما يفنى ، فقال مبينا لشرف الفقر وعلو مرتبته وفضل أهل الدين وإن هانوا ، وخسة أهل الدنيا وإن زانوا ، معظما له." (١)

" صفحة رقم ٣٢٤

(صلى الله عليه وسلم) بسياق الغيبة كما قال سعد بن معاذ رضي الله عنه لما حكم في بني قريظة : وعلى من ههنا يشير إلى ناحية النبي (صلى الله عليه وسلم) وهو معرض عنها حياء منه (صلى الله عليه وسلم) وإجلالا له : (عبس) أي فعل الذي هو أعظم خلقنا ونجله عن أن نواجهه بمثل هذا **العتاب** بوجهه فعل الكاره للشيء من تقطيب الوجه بما له من الطبع البشري حين يحال بينه وبين مراده ، وآذن بمدحه (صلى الله عليه وسلم) بأن ذلك خلاف ما طبعه عليه سبحانه من حرمة المساكين ومحبتهم والسرور بقرهم وصحبتهم بقوله) وتولى) أي كلف نفسه الإعراض عنه رجاء أن يسلم أولئك الأشراف الذين كان يخاطبهم فيتأيد بهم الإسلام ويسلم بإسلامهم أتباعهم فتلعو كلمة الله لأجل) أن جاءه الأعمى (الذي ينبثي أن يبالغ في العطف عليه وفي إكرامه جبرا لكسره واعترافا بحقه في مجيئه ، وذكره بالوصف للإشعار بعذره في الإقدام على قطع الكلام والبعث على الرأفة به والحرمة له ، فكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذا رآه بعد ذلك قال : (مرحبا بمن عاتبني فيه ربي) واستخلفه على المدينة الشريفة عند غزوه مرتين ، قال أنس بن مالك رضي الله عنه : ورأيته يوم القادسية عليه درع ومعه راية سوداء رضي الله عنه .

ولما عرف بسياق الغيبة ما أريد من الإجلال ، وكان طول الإعراض موجبا للانقباض ، أقبل عليه (صلى الله عليه وسلم) فقال : (وما يدريك) أي وأي شيء يجعلك دارا بحاله وإن اجتهدت في ذلك فإن ذوات الصدور لا يعلمها إلا الله تعالى) لعله) أي الأعمى) يزكى) أي يكون بحيث يرجى تطهره ونمو أحواله الصالحة بما يسمع منك ولوعلى أدنى الوجوه بما يشير إليه إدغام تاء الافتعال ، وكذا قوله : (أو يذكر) أي أو يقع منه التذكر لشيء يكون سببا لزكائه وتذكره ولو كان ذلك منه على أدنى الوجوه المخرجة من الكفر فإن الخير لا يحقر شيء منه ، وسبب عن تزكيه وتذكره قوله : (فتنفعه) أي عقب تذكره وسببه) الذكرى (وفي ذلك إيماء إلى أن الإعراض كان لتزكية غيره وتذكره ، وقراءة النشب على أنه جواب (لعل) .

ولما ذكر العبوس والتولي عنه فأفهما ضدهما لمن كان مقبلا عليهم ، بين ذلك فقال : (أما من استغنى) أي طلب الغنى وهو المال والثورة فوجده وإن لم يخش ولم يجئ إليك) فأنت له) أي دون الأعمى) تصدى) أي تتعرض بالإقبال عليه والاجتهاد في وعظه رجاء إسلامه وإسلام أتباعه بإسلامه وهم عتبة بن ربيعة وأبو جهل وأبي وأمية ابنا خلق ، وأشار

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ٣٢٣/٨

حذف تاء التفعل في قراءة الجماعة وإدغامها في قراءة نافع وابن كثير إلى أن ذلك كان على وجه خفيف كما هي عادة العقلاء .." (١)

" صفحة رقم ٣٢٦

ولما سبقت لابن أم مكتوم الحسنى لم يضره عدم الصيت الدنياوي ولا أخل به عماه بل عظم ربه شأنه لما نزل في حقه

٧٧ ( ) وما يدريك لعله يزكى أو يذكر فتنفعه الذكرى ( ) ٧

[عبس : ٢ ٤] فيا له صيتا ما أجله بخلاف من قدم ذكره ممن طرد فلم يتزك ولم ينتفع بالذكرى حين قصد بها

٧٧ ( ) إنما أنت منذر من يخشاها ( ) ٧

[النازعات : ٤٥] كابن أم مكتوم ، من نمط ما نزل في ابن أم مكتوم قوله تعالى :

٧٧ ( ) واصبر نفسك مع الذي يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ( ) ٧

[الكهف : ٢٨] وقوله :

٧٧ ( ) ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ( ) ٧

[الأنعام : ٥٢] فتبارك ربنا ما أعظم لطفه بعبيده اللهم لا تؤيسنا من رحمتك ولا تقنطنا من لطفك ولا تقطع بنا عنك بمنك وإحسانك انتهى .

ولما كان فعله ذلك فعل من يخشى أن يكون عليه في بقائهم على كفرهم ملامة ، بين له أنه سالم من ذلك فقال : (وما) أي فعلت ذلك والحال أنه ما) عليك) أي من بأس في) ألا يزكى (ورأسا ولو بأدنى تزك بما أشار إليه الإدغام إن عليك إلا البلاغ ، ويجوز أن يكون استفهاما أي وأي شيء يكون عليك في عدم تزكيه وفيه إشارة إلى أنه يجب الاجتهاد في تزكية التابع الذي عرف منه القبول .

ولما ذكر المستغني ، ذكر مقابله فقال : (وأما من جاءك (حال كونه) يسعى) أي مسرعا رغبة فيما عندك من الخير المذكر بالله وهو فقير) وهو) أي والحال أنه) يخشى) أي يوجد الخوف من الله تعالى ومن الكفار في أذاهم على الإتيان إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) ومن معاثر الطريق لعماه) فأنت عنه) أي خاصة في ذلك المجلس لكونه في الحاصل) تلهى) أي تتشاغل لأجل أولئك الأشراف الذين تريد إسلامهم لعلو بهم الدين تشاغلا حفيفا بما أشار إليه حذف التاء ، من لهى عنه كرضى إذا سلى وغفل وترك ، وفي التعبير بذلك إشارة إلى أن الاشتغال بأولئك لا فائدة فيه على ما تفهمه تصاريف المادة وإلى أن من يقصد الانسان ويتخطى رقاب الناس إليه له عليك حق عظيم ، والآية من الاحتباك : ذكر الغنى أولا يدل على الفقر ثانيا ، وذكر المجيء والخسية ثانيا يدل على ضدهما أولا ، وسر ذلك التحذير مما يدعو إليه الطبع البشري من الميل إلى الأغنياء ، ومن الاستهانة بحق الآتي إعظاما لمطلق إتيانه .

ولما كان **العتاب** الذي هو من شأن الأحباب ملوحا بالنهي عن الإعراض عمن وقع **العتاب** عليه ، وكل من كان حاله

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ٣٢٤/٨

كحاله والتشاغل عن راغب ، صرح به فقال : (كلا) أي لا تفعل ذلك أصلا فإن الأمر في القضاء والقدر ليس على ما يظن العباد ولا هو جار على الأسباب التي تعرفونها بل هو من وراء علومهم على حكم تدق عن." (١)

" صفحة رقم ٣٣٢

يمكن .

ولما ذكر فاكهة الناس ، ذكر فاكهة بقية الحيوان فقال : (وأبا) أي ومرعى ونباتا وعشبا وكلأ ما دام رطبا يقصد ، من أب الشيء إذا أمه .

لما جمع ما يقتات وما يتفكه ، فدل دلالة واضحة على تمام القدرة ، ذكر بالنعمة فيه قارعا بأسلوب الخطاب لتعميم الأفراد بعد سياق **العتاب** للتصريح بأن الكل عاجزون عن الوفاء بالشكر فكيف إذا انضم إليه الكفر فقال : (متاعا (وهو منصوب على الحال .

ولما ذكر ما يأكله الناس وما يعلف للدواب ، وكان السياق هنا لطعام الإنسان ، قال مقدما ضميرهم : (لكم ولأنعامكم (بخلاف ما في السجدة وقد مضى ، والأنعام بها يكون تمام الصلاح للإنسان بما له فيها من النعم بالركوب والأكل والشرب والكسوة والجمال وسائر المنافع ، وذكر هذا ذكرا ظاهرا مشيرا إلى المعادن لأن منها ما لا يتم ما مضى إلا به وهي آلات الزرع والحصد والطبخ والعجن وغير ذلك ، والملائكة المدبرة لما صرفها الله فيه من ذلك ، فدل ذلك على أن الوجود كله خلق لأجل منافع الإنسان ليشكر لا ليكفر ، ودلت القدرة على ذلك قطعا على القدرة على البعث .

عبس : (٣٣ - ٤٢) فإذا جاءت الصاخة

) فإذا جآءت الصآخة يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه وجوه يومئذ مسفرة ضاحكة مستبشرة ووجوه يومئذ عليها غبرة ترهقها قترة أولئك هم الكفرة الفجرة (( )

ولما ذكر عجائب الصنع في الطعام ، وكان ذلك يقطع فيعود لا سيما المرعى فإنه يأتي عليه الخريف فينشف ثم يتحطم من الرياح ويتفرق في الأرض ثم يصير ترابا ثم يبعث الله المطر فيجمعه من الأرض بعد أن صار ترابا ثم ينبته كما كان ، وكان ذلك مثل إحياء الموتى سواء ، فتحقق لذلك ما تقدم من أمر الإنشار بعد الإقبار ، وكان ذلك أيضا مذكرا بأمر أبينا آدم عليه الصلاة والسلام لما أمره الله بالأكل من الجنة إلا من الشجرة التي نهاه عنها ، فلما أكل منها أخرجه من الجنة فسبجنه في دار ليست بجنة ولا نار ولا غيرهما بل هي ممن ممتزج الدارين وكالبرزخ بينهما ، فيها ما يذكر بهذه وما يذكر بتلك وفيها أمثلة الموجدات كلها ، قال مسببا عما ثبت به الإحياء للبعث إلى المحشر معبرا بأداة التحقق لأن الساعة ممن لا بد منه ولا محيد عنه لأنها سر الكون فإن فيها حساب الذين استخلفوا في هذا الوجود وأفيضت عليهم النعم التي أودعها فيه ، وأشار إلى أنهم عاجزون عن القيام بشكرها ، وكثير منهم بل أكثرهم زاد على ذلك بكفرها ، فأوجب ذلك ولا بد حسابهم على ما فعلوا فيما استخلفوا فيه واسترعوه كما هي عادة كل مسترع ومستخلف : (فإذا

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع - ت: عبدالرزاق غالب)، ٣٢٦/٨

جاءت) أي كانت ووجدت لأن كل ما هو كائن كأنه لاقبك وجاء إليك) الصآخة) أي الصرخة العظيمة التي يبالغ في إسماع الأسماع بها حتى." (١)

" صفحة رقم ٣٨١

الاختصاص فقال : (هو) أي وحده) يبدئ) أي يوجد ابتداء أي خلق أراد على أي هيئة أراد) ويعيد) أي ذلك المخلوق بعد إفنائه في أي وقت أراده ، وغيره لا يقدر على شيء من ذلك ، وليس هذا الضمير بفصل لأنه لا يكون إلا والخبر لا يكون إلا معرفة ، أو شبيه بها في أنه لا يلحقه (ألا) المعرفة مثل خير منك ، وأجاز المازني وقوعه قبل المضارع لمشابهته الاسم وامتناع دخول (أل) عليه فأشبه المعرفة ، وقال : ولا يكون قبل الماضي لأن الماضي لا يشبه الاسم ، قال الرضي : وما قاله دعوى بلا حجة ومثل (ومكر أولئك هو يبور) ليس بنص في كونه فصلا لجواز كونه مبتدأ بما بعده خبره ، ونقض قوله في الماضي بقوله تعالى :

٧٧ ( ) وإنه هو أضحك وأبكى ( ) ٧

[النجم : ٤٣] .

ولما ذكر سبحانه بطشه ، وكان القادر على العنف قد لا يقدر على اللطف ، وإن قدر فربما لم يقدر على الإبلاغ في ذلك ، وكان لا يقدر على محو الذنوب أعيانها وآثارها على كل أحد بحيث لا يحصل لصاحبها عقاب ولا **عتاب** من أحد أصلا إلا من كان قادرا على كل شيء ، قال مبينا لجميع ذلك دليلا على أنه الفاعل المختار ، ومؤكدا لخروجه عن العوائد : (وهو) أي وحده) الغفور) أي المحاء لأعيان الذنوب وآثارها إذا أراد بحيث لا يحصل لمن محا ذنبه كدر من جهة ذلك الذنب أصلا) الودود) أي الذي يفعل بمن أراد فعل المحب الكثير المحبة فيجيبه إلى ما شاء ويلقي على صاحب الذنب الذي محاه عنه ودا أي محبة كبيرة واسعة يجعل له في قلوب الخلق رحمة ، ومادة (ود) تدور على الاتساع كما بينته في سورة الروم ، وزاد الأمر تأكيدا بذكر ما لا ينازع أصلا في اختصاصه به تشريفا له وتنبيها على أنه أعظم المخلوقات : (ذو العرش) أي العز الأعظم أو السرير الدال على اختصاصه الملك بالملك وانفراده بالتدبير والسيادة والسياسة ، الذي به قوام الأمور) ا لمجيد) أي الشريف الكريم العظيم في ذاته وصفاته الحسن الجميل الرفيع العالي الكثير العطاء - هذا إذا رفع على أنه صفة ل (ذو) وكذا إن جر على أنه صفة للعرش في قراءة حمزة والكسائي .

ولما كان الاختصاص يدل قطعا على كمال القدرة ، أنتج ذكر هذه الاختصاصات قوله : (فعال) أي على سبيل التكرار والمبالغة) لما يريد (لا يؤده شيء من الأفعال سواء كانت منسوبة إليه من غير واسطة أو نسبت في الظاهر إلى غيره . ولما تمت الدلالة على أن بطشه شديد ، قرره بما وجد من ذلك وذكره به تخويفا وتسلية له لأن النظر في المحسوسات

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع - ت: عبدالرزاق غالب)، ٣٣٢/٨

أمكن في النفوس فقال : (هل أتاك) أي يا أعظم خلقنا) حديث الجنود) أي اذكر ما أتاك مما حدث لهم من بطشنا وما وقع بهم من سطواتنا لتكذيبهم رسلنا عليهم أفضل الصلاة والسلام بحيث صار حديثا يتلى ، وذكرا بين الخلق." (١)

" صفحة رقم ٤٠٠

الماء من جداوله إلى ما صنع له كان ذلك قدرا فهو النهاية ، فمتى ذكر واحد من الثلاثة : الحكم والقضاء والقدر ، دل على الآخر .

ولما كان ما هذا شأنه يهلك على ما جرت به العادة في أسرع وقت ، فإذا كان من شأنه مع هذا العظم أنه لا يهلك كان ذلك دليلا واضحا على أنه لا يعلم كنه عظمة مقدره إلى هو سبحانه وتعالى فأشار إلى ذلك بالتعبير بأداة التراخي إعلاما بأن مراتب هذه الشدة في التردد بين الموت والحياة لا يعلم علوها عن شدة الصلى إلا الله تعالى فقال : (ثم لا يموت فيها) أي لا يتجدد له في هذه النار موت وإن طال المدى .

ولما كان من يدخل النار فلا تؤثر في موته قد يكون ذلك إكراما له من باب خرق العوائد ، احترز عنه بقوله : (ولا يحيى) أي حياة تنفعه لأنه ما تزكى فلا صدق ولا صلى .

ولما ثبت بهذا أن لهذا هذا الشقاء الأعظم ، فكان التقدير : لأنه لم يزك نفسه لأنه ما كان م طبوعا على الخشية ، أنتج ولا بد قوله تعالى دالا على الدين التكليفي وهو اجتناب واجتلاب ، فجمع الاجتناب والاجتلاب بالتزكية بالتبتل بالأبواب والملازمة للأعتاب بامتثال الأمر واجتناب النهي بالمجاهدات المقربات إليه سبحانه وتعالى ، المنجيات بعد ما حذر من المهلكات ، للمسارعة في محابه ومراضيه اجتماعا على العبادة الموصلة للخالق بعد حصول الكمال والتكميل فإنه لا بد في الحياة الطيبة بعد الانتماء إلى ذي الجاه العريض والاقتداء بمن لا يزلغ من الارتباط بطريقة مثلى يحصل بها الاغتباط ليصل بها إلى المقصود ويعمر أوقاته بوظائفها لئلا يحصل له خلل ولا ضياع لنفائس الأوقات ولا غفلة يستهويه بها قطاع الطريق : (قد أفلح) أي فاز بكل مراد) من تزكى) أي أعمل نفسه في تطهيرها من فاسد الاعتقادات والأخلاق والأقوال والأفعال والأموال وتنمية أعمالها القلبية والقالبية وصدقة أموالها ، وذلك هو التسبيح الذي أمر به أول السورة وما تأثر عنه ، من عمل هذا فهو الأسعد .

ولما كان أعظم الأعمال المزكية الذكر والصلاة قال تعالى : (وذكر) أي بالقلب واللسان ذكر وذكر - بالكسر والضم) اسم ربه) أي صفات المحسن إليه فإنه إذا ذكر الصفة سر بها فأفاض باطنه على ظاهره ذكر اللفظ الدال عليها ، وإذا ذكر اللفظ وهو الاسم الدال عليها انطبع في قلبه ذكر المسمى) فصلى) أي الصلاة الشرعية لأنها أعظم الذكر ، فهي أعظم عبادات البدن كما أن الزكاة أعظم عبادات المال ، ومن فعل ذلك استراح من داء الإعجاب وما يتبعه من النقائص الموجبة لسوء الانقلاب ، وكان متخلقا بما ذكر من أخلاق الله في أول السورة من التخلي عن النقائص بالتزيكة ، والتحلي بالكمالات بالذكر والصلاة لأنه لعظمته لا يتأهل لذكره إلا من واظب إلى ذكر." (٢)

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع - ت: عبدالرزاق غالب)، ٨/٣٨١

(٢) نظم الدرر . (موافق للمطبوع - ت: عبدالرزاق غالب)، ٨/٤٠٠

" صفحة رقم ٤٧٥

سواهم فلم نمكن منهم الشهوات ولا غيرها ، وأقمناهم على ما اقتضاه منهاج العقل ، فتبعوا لارسل بسبب إبقائنا لهم على الفطرة الأولى في أحسن تقويم ، لم يدنس محياها بشهوة ولا حظ ولا هوى ، فسهل انقيادهم ، فأداهم ذلك إلى العدل والنصف والإحسان ، وجميع مكارم الأخلاق ومعالي الأمور ، ولم يزيغوا عن منهاج الرسل في قول ولا عمل ، فالآية كما ترى من الاحتباك : حذف أولا بما أفهمته الآية عمل السيئات ، وثانيا الإبقاء على أصل الخلق في أحسن تقويم على الفطرة الأولى ، ليكون نظمها في الأصل) ثم رددناه أسفل سافلين (بعمل السيئات فله على ذلك عذاب مهين) إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات (فإنا أبقيناهم على الفطرة الأولى في أحسن تقويم .

ولما كان السياق لمدح المؤمنين ، حسن أن يعد أعمالهم التي تفضل عليهم بها سببا كما من عليهم به من الثواب فقال : (فلهم) أي فتسبب عن ذلك أن كان لهم في الدارين على ما وفقوا له مما يرضيه سبحانه وتعالى) أجر) أي عظيم جدا وهو مع ذلك) غير ممنون) أي مقطوع أو يمن عليهم به حتى في حالة المرض والهرم لكونهم سعوا في مرضاة الله سبحانه وتعالى وعزموا عزما صادقا أنهم لا ينقصون من أعمال البر ذرة ولو عاشوا مدى الدهر ، وذلك الأجر جزاء لأعمالهم فضلا منهبالأصل والفرع حتى أنهم إذا عجزوا بالهرم كتب لهم أجر ما كانوا يعملون في حال الصحة ، ولمن تابع هواه في السفول عذاب عظيم لأنه رد أسفل سافلين .

ولما ثبت بهذا أنه لا يجوز في الحكمة تركهم بغير جزاء مع ما يشاهد من ظلم بعضهم لبعض معاندة لما يقتضيه قويم العقل الذي لا شك فيه ، فكان ذلك بحيث لا يرضاه أحد منهم ولا يقر مخلوق عبيدا في ملكه على مثله بأن يبغي بعضهم على بعض فيهملهم بل لا بد أن يحجز بينهم أو يأخذ للمظلوم من الظالم ، ولو كان ذلك المالك أقل الناس وأجهلهم فكيف إن كان عاق‌ر‌ا فكيف إن كان حاكما فكيف إن كان لا يخاف أحدا فكيف إن كان عدلا مقسطا قد ثبتت إحاطة علمه وقدرته سبحانه وتعالى ، حسن كل الحسن أن يكون ذلك سببا للإنكار على من يظن أن الله يهمل عباده من الحكم بينهم لمجازاة كل من المطيع والعاصي بما عمل مع ما ترى من ظلم بعضهم لبعض ، وأن الظالم قد يموت قبل القصاص ، فقال مسببا عن الوعد بما أفصح به الكتاب من إثابة المؤمنين الذي طالما بغى عليهم الظلمة ، وانتقصهم حقوقهم الفسقة ، والوعيد بما أفهمه الخطاب **لعتاب** المجرمين الذي طالما بغوا على غيرهم : (فما) أي فتسبب عن إقامة الدليل على تمام القدرة وعلى بغي العبيد بعضهم على بعض أنه يقال لك تصديقا لك فيما أخبرت به من أن الله سبحانه وتعالى يبعث الخلائق بعد موتهم ليجازي كلا بما." (١)

" صفحة رقم ٥٢٠

إنهم قالوا عند نزولها : أي نعيم وإنما هما الأسودان : التمر والماء ، وسيوفنا على رقابنا والعدو حاضر ، قال : (إن ذلك سيكون) له شاهد عند الطبراني عن ابن الزبير رضي الله عنهما ، وعند الطبراني أيضا عن الحسن البصري مرسلا ، فقد التحم آخرها بأولها على وجه هو من أطلف الخطاب ، وأدق المسالك في النهي عما يجر إلى العذاب ، لان

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع - ت: عبدالرزاق غالب)، ٤٧٥/٨

العاقل إذا علم أن بين يديه سؤالا عن كل ما يتلذذ به علم أنه يعوقه ذلك في زمن السؤال عن لذاذات الجنة العوال الغوال ، فكان خوفه من مطلق السؤال مانعا له عن التنعم بالمباح فكيف بالمكروه ثم كيف بالمحرم ؟ فكيف إذا كان السؤال من ملك تذوب لهيبته الجبال ؟ فكيف إذا كان السؤال على وجه **العتاب** ؟ فكيف إذا جر إلى العذاب ؟ فتأمل كلام خالقك ما ألطف إشاراته وأجل عباراته ، في نذاراته وبشاراته – والله أرحم .

.. .." (١)

"﴿ ٣٧ ﴾ ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴾ .

أي: لا أحد أظلم ﴿ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ بنسبة الشريك له، أو النقص له، أو التقول عليه ما لم يقل، ﴿ أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ﴾ الواضحة المبينة للحق المبين، الهادية إلى الصراط المستقيم، فهؤلاء وإن تمتعوا بالدنيا، ونالهم نصيبهم مما كان مكتوبا لهم في اللوح المحفوظ، فليس ذلك بمغن عنهم شيئا، يتمتعون قليلا ثم يعذبون طويلا ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ ﴾ أي: الملائكة الموكلون بقبض أرواحهم واستيفاء آجالهم.

﴿ قَالُوا ﴾ لهم في تلك الحالة توبيخا **وعتابا** ﴿ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ من الأصنام والأوثان، فقد جاء وقت الحاجة إن كان فيها منفعة لكم أو دفع مضرة. ﴿ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا ﴾ أي: اضمحلوا وبطلوا، وليسوا مغنين عنا من عذاب اللّه من شيء.

﴿ وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴾ مستحقين للعذاب المهين الدائم.." (٢)

"﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ ﴾ في الأرض تتمتعون بها وتدركون مطالبكم ﴿ مِنْ بَعْدِ عَادٍ ﴾ الذين أهلكهم اللّه، وجعلكم خلفاء من بعدهم، ﴿ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ ﴾ أي: مكن لكم فيها، وسهل لكم الأسباب الموصلة إلى ما تريدون وتبتغون ﴿ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا ﴾ أي: من الأراضي السهلة التي ليست بجبال، تتخذون فيها القصور العالية والأبنية الحصينة، ﴿ وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا ﴾ كما هو مشاهد إلى الآن من أعمالهم التي في الجبال، من المساكن والحجر ونحوها، وهي باقية ما بقيت الجبال، ﴿ فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ ﴾ أي: نعمه، وما خولكم من الفضل والرزق والقوة، ﴿ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ أي: لا تخربوا الأرض بالفساد والمعاصي، فإن المعاصي تدع الديار العامرة بلاقع، وقد أخلت ديارهم منهم، وأبقت مساكنهم موحشة بعدهم.

﴿ قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ ﴾ أي: الرؤساء والأشراف الذين تكبروا عن الحق، ﴿ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا ﴾ ولما كان المستضعفون ليسوا كلهم مؤمنين، قالوا ﴿ لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ ﴾ أي: أهو صادق أم كاذب؟.

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبد ا لرزاق غالب)، ٨/٥٢٠

(٢) تفسير السعدي، ص/٢٨٨

فقال المستضعفون: ﴿ إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴾ من توحيد اللّه والخبر عنه وأمره ونهيه.
﴿ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾ حملهم الكبر أن لا ينقادوا للحق الذي انقاد له الضعفاء.
﴿ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ ﴾ التي توعدهم إن مسوها بسوء أن يصيبهم عذاب أليم، ﴿ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ ﴾ أي: قسوا عنه، واستكبروا عن أمره الذي من عتا عنه أذاقه العذاب الشديد. لا جرم أحل اللّه بهم من النكال ما لم يحل بغيرهم ﴿ وَقَالُوا ﴾ مع هذه الأفعال متجرئين على اللّه، معجزين له، غير مبالين بما فعلوا، بل مفتخرين بها: ﴿ يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا ﴾ إن كنت من الصادقين من العذاب فقال: ﴿ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾ .
﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ على ركبهم، قد أبادهم اللّه، وقطع دابرهم.
﴿ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ ﴾ صالح عليه السلام حين أحل اللّه بهم العذاب، ﴿ وَقَالَ ﴾ مخاطبا لهم توبيخا **وعتابا** بعدما أهلكهم اللّه: ﴿ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ ﴾ أي: جميع ما أرسلني اللّه به إليكم، قد أبلغتكم به وحرصت على هدايتكم، واجتهدت في سلوككم الصراط المستقيم والدين القويم. ﴿ وَلَكِنْ لا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ ﴾ بل رددتم قول النصحاء، وأطعتم كل شيطان رجيم.
واعلم أن كثيرا من المفسرين يذكرون في هذه القصة أن الناقة قد خرجت من صخرة صماء ملساء اقترحوها على صالح وأنها تمخضت تمخض الحامل فخرجت الناقة وهم ينظرون وأن لها فصيلا حين عقروها رغى ثلاث رغيات وانفلق له الجبل ودخل فيه وأن صالحا عليه السلام قال لهم: آية نزول العذاب بكم، أن تصبحوا في اليوم الأول من الأيام الثلاثة ووجوهكم مصفرة، واليوم الثاني: محمرة، والثالث: مسودة، فكان كما قال.
وكل هذا من الإسرائيليات التي لا ينبغي نقلها في تفسير كتاب اللّه، وليس في القرآن ما يدل على شيء منها بوجه من الوجوه، بل لو كانت صحيحة لذكرها اللّه تعالى، لأن فيها من العجائب والعبر والآيات ما لا يهمله تعالى ويدع ذكره، حتى يأتي من طريق من لا يوثق بنقله، بل القرآن يكذب بعض هذه المذكورات، فإن صالحا قال لهم: ﴿ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ﴾ أي: تنعموا وتلذذوا بهذا الوقت القصير جدا، فإنه ليس لكم من المتاع واللذة سوى هذا، وأي لذة وتمتع لمن وعدهم نبيهم وقوع العذاب، وذكر لهم وقوع مقدماته، فوقعت يوما فيوما، على وجه يعمهم ويشملهم [احمرار وجوههم، واصفرارها واسودادها من العذاب] (١) .
هل هذا إلا مناقض للقرآن، ومضاد له؟". فالقرآن فيه الكفاية والهداية عن ما سواه.
نعم لو صح شيء عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم مما لا يناقض كتاب اللّه، فعلى الرأس والعين، وهو مما أمر القرآن باتباعه ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ [ص ٢٩٦] وقد تقدم أنه لا يجوز تفسير كتاب اللّه بالأخبار الإسرائيلية، ولو على تجويز الرواية عنهم بالأمور التي لا يجزم بكذبها، فإن معاني كتاب اللّه يقينية، وتلك أمور لا تصدق ولا تكذب، فلا يمكن اتفاقهما.

(١) زيادة من هامش ب.." (١)

"﴿ ٤١ - ٤٢ ﴾ ﴿ انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ .

يقول تعالى لعباده المؤمنين -مهيجا لهم على النفير في سبيله فقال: ﴿ انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالا ﴾ أي: في العسر واليسر، والمنشط والمكره، والحر والبرد، وفي جميع الأحوال.

﴿ وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أي: ابذلوا جهدكم في ذلك، واستفرغوا وسعكم في المال والنفس، وفي هذا دليل على أنه -كما يجب الجهاد في النفس- يجب الجهاد في المال، حيث اقتضت الحاجة ودعت لذلك.

ثم قال: ﴿ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أي: الجهاد في النفس والمال، خير لكم من التقاعد عن ذلك، لأن فيه رضا اللّه تعالى، والفوز بالدرجات العاليات عنده، والنصر لدين اللّه، والدخول في جملة جنده وحزبه.

لو كان خروجهم لطلب العرض القريب، أي: منفعة دنيوية سهلة التناول ﴿ وَ ﴾ كان السفر ﴿ سَفَرًا قَاصِدًا ﴾ أي: قريبا سهلا. ﴿ لاتَّبَعُوكَ ﴾ لعدم المشقة الكثيرة، ﴿ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ﴾ أي: طالت عليهم المسافة، وصعب عليهم السفر، فلذلك تثاقلوا عنك، وليس هذا من أمارات العبودية، بل العبد حقيقة هو المتعبد لربه في كل حال، القائم بالعبادة السهلة والشاقة، فهذا العبد للّه على كل حال.

﴿ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ ﴾ أي: سيحلفون أن تخلفهم عن الخروج أن لهم أعذرا وأنهم لا يستطيعون ذلك.

﴿ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ ﴾ بالقعود والكذب والإخبار بغير الواقع، ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾

وهذا **العتاب** إنما هو للمنافقين، الذين تخلفوا عن النبي صلى الله عليه وسلم في "غزوة تبوك" وأبدوا من الأعذار الكاذبة ما أبدوا، فعفا النبي صلى الله عليه وسلم عنهم بمجرد اعتذارهم، من غير أن يمتحنهم، فيتبين له الصادق من الكاذب، ولهذا عاتبه اللّه على هذه المسارعة إلى عذرهم فقال:." (٢)

"﴿ ٥٠ - ٥٢ ﴾ ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ * أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ آلآنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ * ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾

يقول تعالى: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا ﴾ وقت نومكم بالليل ﴿ أَوْ نَهَارًا ﴾ في وقت غفلتكم ﴿ مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ أي: أي بشارة استعجلوا بها؟ وأي عقاب ابتدروه؟.

﴿ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ ﴾ فإنه لا ينفع الإيمان حين حلول عذاب الله، ويقال لهم توبيخًا **وعتابًا** في تلك الحال التي

---

(١) تفسير السعدي، ص/٢٩٥

(٢) تفسير السعدي، ص/٣٣٨

زعموا أنهم يؤمنون، ﴿ آلآنَ ﴾ تؤمنون في حال الشدة والمشقة؟ ﴿ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ فإن سنة الله في عباده أنه يعتبهم إذا استعتبوه قبل وقوع العذاب، فإذا وقع العذاب لا ينفع نفسًا إيمانها، كما قال تعالى عن فرعون، لما أدركه الغرق ﴿ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ وأنه يقال له: ﴿ الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين ﴾ .

وقال تعالى: ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ ﴾ وقال هنا: ﴿ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ آلآنَ ﴾ تدعون الإيمان (١) ﴿ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ فهذا ما عملت أيديكم، وهذا ما استعجلتم به.

﴿ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ حين يوفون أعمالهم يوم القيامة: ﴿ ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ ﴾ أي: العذاب الذي تخلدون فيه، ولا يفتر عنكم ساعة. ﴿ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلا بِمَا كُنْتُمْ تكْسِبُونَ ﴾ من الكفر والتكذيب والمعاصي.

---

(١) كذا في ب، وفي أ: للإيمان.." (١)

"﴿ ٥٥ - ٥٧ ﴾ ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ * وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالإيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ * فَيَوْمَئِذٍ لا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ .

يخبر تعالى عن يوم القيامة وسرعة مجيئه وأنه إذا قامت الساعة ﴿ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ باللّه أنهم ﴿ مَا لَبِثُوا ﴾ في الدنيا إلا ﴿ سَاعَة ﴾ وذلك اعتذار منهم لعله ينفعهم العذر واستقصار لمدة الدنيا.

ولما كان قولهم كذبا لا حقيقة له قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴾ أي: ما زالوا -وهم في الدنيا- يؤفكون عن الحقائق ويأتفكون الكذب، ففي الدنيا كذَّبوا الحق الذي جاءتهم به المرسلون، وفي الآخرة أنكروا الأمر المحسوس وهو اللبث الطويل في الدنيا، فهذا خلقهم القبيح والعبد يبعث على ما مات عليه.

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالإيمَانَ ﴾ أي: مَنَّ اللّه عليهم بهما وصارا وصفا لهم العلم بالحق والإيمان المستلزم إيثار الحق، وإذا كانوا عالمين بالحق مؤثرين له لزم أن يكون قولهم مطابقا للواقع مناسبا لأحوالهم.

فلهذا قالوا الحق: ﴿ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴾ أي: في قضائه وقدره، الذي كتبه اللّه عليكم وفي حكمه ﴿ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ ﴾ أي: عمرتم عُمْرًا يتذكر فيه المتذكر ويتدبر فيه المتدبر ويعتبر فيه المعتبر حتى صار البعث ووصلتم إلى هذه الحال.

﴿ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾ فلذلك أنكرتموه في الدنيا وأنكرتم إقامتكم في الدنيا وقتا تتمكنون فيه من الإنابة والتوبة، فلم يزل الجهل شعاركم وآثاره من التكذيب والخسار دثاركم.

﴿ فَيَوْمَئِذٍ لا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ ﴾ فإن كذبوا وزعموا أنهم ما قامت عليهم الحجة أو ما تمكنوا من الإيمان ظهر كذبهم بشهادة أهل العلم والإيمان، وشهادة جلودهم وأيديهم وأرجلهم، وإن طلبوا الإعذار وأنهم يردون ولا يعودون لما

---

(١) تفسير السعدي، ص/٣٦٦

نُهوا عنه لم يُمَكَّنُوا فإنه فات وقت الإعذار فلا تقبل معذرتهم، ﴿ وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ أي: يزال عتبهم **والعتاب** عنهم.." (١)

"﴿ ٥٨ - ٦٠ ﴾ ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلا مُبْطِلُونَ * كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ * فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ ﴾ .

أي: ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا ﴾ لأجل عنايتنا ورحمتنا ولطفنا وحسن تعليمنا ﴿ لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ﴾ تتضح به الحقائق وتعرف به الأمور وتنقطع به الحجة. وهذا عام في الأمثال التي يضربها اللّه في تقريب الأمور المعقولة بالمحسوسة. وفي الإخبار بما سيكون وجلاء حقيقته [حتى] (١) كأنه وقع.

ومنه في هذا الموضع ذكر اللّه تعالى ما يكون يوم القيامة وحالة المجرمين فيه وشدة أسفهم وأنه لا يقبل منهم عذر ولا **عتاب**.

ولكن أبى الظالمون الكافرون إلا معاندة الحق الواضح ولهذا قال: ﴿ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ ﴾ أي: أي آية تدل على صحة ما جئت به ﴿ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلا مُبْطِلُونَ ﴾ أي: قالوا للحق: إنه باطل. وهذا من كفرهم وجراءتهم وطَبْعِ اللّه على قلوبهم وجهلهم المفرط ولهذا قال: ﴿ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾ فلا يدخلها خير ولا تدرك الأشياء على حقيقتها بل ترى الحق باطلا والباطل حقا.

﴿ فَاصْبِرْ ﴾ على ما أمرت به وعلى دعوتهم إلى اللّه، ولو رأيت منهم إعراضا فلا يصدنك ذلك.

﴿ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ أي: لا شك فيه وهذا مما يعين على الصبر فإن العبد إذا علم أن عمله غير ضائع بل سيجده كاملا هان عليه ما يلقاه من المكاره [ص ٦٤٦] ويسر عليه كل عسير واستقل من عمله كل كثير.

﴿ وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ ﴾ أي: قد ضعف إيمانهم وقل يقينهم فخفت لذلك أحلامهم وقل صبرهم، فإياك أن يستخفك هؤلاء فإنك إن لم تجعلهم (٢) منك على بال وتحذر منهم وإلا استخفوك وحملوك على عدم الثبات على الأوامر والنواهي، والنفس تساعدهم على هذا وتطلب التشبه والموافقة (٣) وهذا مما يدل على أن كل مؤمن موقن رزين العقل يسهل عليه الصبر، وكل ضعيف اليقين ضعيف [العقل] (٤) خفيفه.

فالأول بمنزلة اللب والآخر بمنزلة القشور فاللّه المستعان.

---

(١) زيادة من ب.

(٢) كذا في ب وفي أ: تجعل.

---

(١) تفسير السعدي، ص/٦٤٥

(٣) كذا في ب وفي أ: والموافقة.

(٤) زيادة من ب.." (١)

"﴿ ٣٧ ﴾ ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولا ﴾ .

وكان سبب نزول هذه الآيات، أن اللّه تعالى أراد أن يشرع شرعًا عامًا للمؤمنين، أن الأدعياء ليسوا في حكم الأبناء حقيقة، من جميع الوجوه وأن أزواجهم، لا جناح على من تبناهم، في نكاحهن.

وكان هذا من الأمور المعتادة، التي لا تكاد تزول إلا بحادث كبير، فأراد أن يكون هذا الشرع قولا من رسوله، وفعلا وإذا أراد اللّه أمرًا، جعل له سببًا، وكان زيد بن حارثة يدعى "زيد بن محمد" قد تبناه النبي صلى اللّه عليه وسلم، فصار يدعى إليه حتى نزل ﴿ ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ ﴾ فقيل له: "زيد بن حارثة" .

وكانت تحته، زينب بنت جحش، ابنة عمة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم، وكان قد وقع في قلب الرسول، لو طلقها زيد، لتزوّجها، فقدر اللّه أن يكون بينها وبين زيد، ما اقتضى أن جاء زيد بن حارثة يستأذن النبي صلى اللّه عليه وسلم في فراقها.

قال اللّه: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ ﴾ أي: بالإسلام ﴿ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ ﴾ بالعتق (١) حين جاءك مشاورًا في فراقها: فقلت له ناصحًا له ومخبرًا بمصلحته (٢) مع وقوعها في قلبك: ﴿ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ ﴾ أي: لا تفارقها، واصبر على ما جاءك منها، ﴿ وَاتَّقِ اللَّهَ ﴾ تعالى في أمورك عامة، وفي أمر زوجك خاصة، فإن التقوى، تحث على الصبر، وتأمر به.

﴿ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ ﴾ والذي أخفاه، أنه لو طلقها زيد، لتزوجها صلى اللّه عليه وسلم.

﴿ وَتَخْشَى النَّاسَ ﴾ في عدم إبداء ما في نفسك ﴿ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ﴾ (٣) وأن لا تباليهم شيئًا، ﴿ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا ﴾ أي: طابت نفسه، ورغب عنها، وفارقها. ﴿ زَوَّجْنَاكَهَا ﴾ وإنما [ص ٦٦٦] فعلنا ذلك، لفائدة عظيمة، وهي: ﴿ لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ ﴾ حيث رأوك تزوجت، زوج زيد بن حارثة، الذي كان من قبل، ينتسب إليك.

ولما كان قوله: ﴿ لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ ﴾ عامًا في جميع الأحوال، وكان من الأحوال، ما لا يجوز ذلك، وهي قبل انقضاء وطره منها، قيد ذلك بقوله: ﴿ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولا ﴾ أي: لا بد من فعله، ولا عائق له ولا مانع.

وفي هذه الآيات المشتملات على هذه القصة، فوائد، منها: الثناء على زيد بن حارثة، وذلك من وجهين:

أحدهما: أن اللّه سماه في القرآن، ولم يسم من الصحابة باسمه غيره.

---

(١) تفسير السعدي، ص/٦٤٥

والثاني: أن اللّه أخبر أنه أنعم عليه، أي: بنعمة الإسلام والإيمان. وهذه شهادة من اللّه له أنه مسلم مؤمن، ظاهرًا وباطنًا، وإلا فلا وجه لتخصيصه بالنعمة، لولا أن المراد بها، النعمة الخاصة.

ومنها: أن المُعْتَق في نعمة الْمُعْتِق.

ومنها: جواز تزوج زوجة الدَّعِيّ، كما صرح به.

ومنها: أن التعليم الفعلي، أبلغ من القولي، خصوصا، إذا اقترن بالقول، فإن ذلك، نور على نور.

ومنها: أن المحبة التي في قلب العبد، لغير زوجته ومملوكته، ومحارمه، إذا لم يقترن بها محذور، لا يأثم عليها العبد، ولو اقترن بذلك أمنيته، أن لو طلقها زوجها، لتزوجها من غير أن يسعى في فرقة بينهما، أو يتسبب بأي سبب كان، لأن اللّه أخبر أن الرسول صلى اللّه عليه وسلم، أخفى ذلك في نفسه.

ومنها: أن الرسول صلى اللّه عليه وسلم، قد بلغ البلاغ المبين، فلم يدع شيئًا مما أوحي إليه، إلا وبلغه، حتى هذا الأمر، الذي فيه **عتابه**.

وهذا يدل، على أنه رسول اللّه، ولا يقول إلا ما أوحي إليه، ولا يريد تعظيم نفسه.

ومنها: أن المستشار مؤتمن، يجب عليه -إذا استشير في أمر من الأمور- أن يشير بما يعلمه أصلح للمستشير (٤) ولو كان له حظ نفس، فتقدم مصلحة المستشير على هوى نفسه وغرضه.

ومنها: أن من الرأي: الحسن لمن استشار في فراق زوجته أن يؤمر بإمساكها مهما أمكن صلاح الحال، فهو أحسن من الفرقة.

ومنها: [أنه يتعين] (٥) أن يقدم العبد خشية اللّه، على خشية الناس، وأنها أحق منها وأولى.

ومنها: فضيلة زينب رضي اللّه عنها أم المؤمنين، حيث تولى اللّه تزويجها، من رسوله صلى اللّه عليه وسلم، من دون خطبة ولا شهود، ولهذا كانت تفتخر بذلك على أزواج رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم، وتقول زوجكن أهاليكن، وزوجني اللّه من فوق سبع سماوات.

ومنها: أن المرأة، إذا كانت ذات زوج، لا يجوز نكاحها، ولا السعي فيه وفي أسبابه، حتى يقضي زوجها وطره منها، ولا يقضي وطره، حتى تنقضي عدتها، لأنها قبل انقضاء عدتها، هي في عصمته، أو في حقه الذي له وطر إليها، ولو من بعض الوجوه.

---

(١) في هامش ب: والإرشاد والتعليم.

(٢) في هامش ب: مقدمًا لها على رغبتك.

(٣) في هامش ب: فإن خشيته، جالبة لكل خير،]مانعة[من كل شر (مع أن كلمة مانعة واضحة في الأصل).

(٤) كذا في ب، وفي أ: للمستشار، ولعل الصواب ما أثبت -والله أعلم-.

(٥) زيادة من: ب.." (١)

"﴿ ٤٧ - ٥٠ ﴾ ﴿ وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ * وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ ﴾ .

يخبر تعالى عن تخاصم أهل النار، **وعتاب** بعضهم بعضًا واستغاثتهم بخزنة النار، وعدم الفائدة في ذلك فقال: ﴿ وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ ﴾ يحتج التابعون بإغواء المتبوعين، ويتبرأ المتبوعون من التابعين، ﴿ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ ﴾ أي: الأتباع للقادة ﴿ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا ﴾ على الحق، ودعوهم إلى ما استكبروا لأجله. ﴿ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا ﴾ أنتم أغويتمونا وأضللتمونا وزينتم لنا الشرك والشر، ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ ﴾ أي: ولو قليلا.

﴿ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا ﴾ مبينين لعجزهم ونفوذ الحكم الإلهي في الجميع: ﴿ إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴾ وجعل لكل قسطه من العذاب، فلا يزاد في ذلك ولا ينقص منه، ولا يغير ما حكم به الحكيم.

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ ﴾ من المستكبرين والضعفاء ﴿ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ ﴾ لعله تحصل بعض الراحة.

ف ﴿ قَالُوا ﴾ لهم موبخين ومبينين أن شفاعتهم لا تنفعهم، ودعاءهم لا يفيدهم شيئًا: ﴿ أَوَ لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ التي تبينتم بها الحق والصراط المستقيم، وما يقرب من الله وما يبعد منه؟." (٢)

"﴿ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصَارُكُمْ وَلا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ * وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ * فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ ﴾ .

فإذا شهدت عليهم عاتبوها، ﴿ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ ﴾ هذا دليل عل أن الشهادة تقع من كل عضو كما ذكرنا: ﴿ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا ﴾ ونحن ندافع عنكن؟ ﴿ قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ فليس في إم كاننا، الامتناع عن الشهادة حين أنطقنا الذي لا يستعصي عن مشيئته أحد.

﴿ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ فكما خلقكم بذواتكم، وأجسامكم، خلق أيضا صفاتكم، ومن ذلك، الإنطاق. ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ في الآخرة، فيجزيكم بما عملتم، ويحتمل أن المراد بذلك، الاستدلال على البعث بالخلق الأول، كما هو طريقة القرآن.

﴿ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصَارُكُمْ وَلا جُلُودُكُمْ ﴾ أي: وما كنتم تختفون عن شهادة أعضائكم

---

(١) تفسير السعدي، ص/٦٦٥

(٢) تفسير السعدي، ص/٧٣٩

عليكم، ولا تحاذرون من ذلك. ﴿ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ ﴾ بإقدامكم على المعاصي ﴿ أَنَّ اللَّهَ لا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ فلذلك صدر منكم ما صدر، وهذا الظن، صار سبب هلاكهم وشقائهم ولهذا قال: ﴿ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ ﴾ الظن السيئ، حيث ظننتم به، ما لا يليق بجلاله. ﴿ أَرْدَاكُمْ ﴾ أي: أهلككم ﴿ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ لأنفسهم وأهليهم وأديانهم بسبب الأعمال التي أوجبها لكم ظنكم القبيح بربكم، فحقت عليكم كلمة العقاب والشقاء، ووجب عليكم الخلود الدائم، في العذاب، الذي لا يفتر عنهم ساعة:

﴿ فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ ﴾ فلا جَلَدَ عليها، ولا صبر، وكل حالة قُدِّر إمكان الصبر عليها، فالنار لا يمكن الصبر عليها، وكيف الصبر على نار، قد اشتد حرها، وزادت على نار الدنيا، بسبعين ضعفًا، وعظم غليان حميمها، وزاد نتن صديدها، وتضاعف برد زمهريرها وعظمت سلاسلها وأغلالها، وكبرت مقامعها، وغلظ خُزَّانها، وزال ما في قلوبهم من رحمتهم، وختام ذلك سخط الجبار، وقوله لهم حين يدعونه ويستغيثون: ﴿ اخْسَئُوا فِيهَا وَلا تُكَلِّمُونِ ﴾

﴿ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا ﴾ أي: يطلبوا أن يزال عنهم العتب، ويرجعوا إلى الدنيا، ليستأنفوا العمل. ﴿ فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ ﴾ لأنه ذهب وقته، وعمروا، ما يعمر فيه من تذكر وجاءهم النذير وانقطعت حجتهم، مع أن **استعتابهم**، كذب منهم ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾." (١)

"﴿ ١-٥ ﴾ ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ * إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ * عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا ﴾.

هذا **عتاب** من الله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم، حين حرم على نفسه سريته "مارية" أو شرب العسل، مراعاة لخاطر بعض زوجاته، في قصة معروفة، فأنزل الله [تعالى] هذه الآيات ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ ﴾ أي: يا أيها الذي أنعم الله عليه بالنبوة والوحي والرسالة ﴿ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ﴾ من الطيبات، التي أنعم الله بها عليك وعلى أمتك.

[ص ٨٧٣]

﴿ تَبْتَغِي ﴾ بذلك التحريم ﴿ مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ هذا تصريح بأن الله قد غفر لرسوله، ورفع عنه اللوم، ورحمه، وصار ذلك التحريم الصادر منه، سببًا لشرع حكم عام لجميع الأمة، فقال تعالى حاكما حكما عاما في جميع الأيمان:

﴿ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ ﴾ (١) أي: قد شرع لكم، وقدر ما به تنحل أيمانكم قبل الحنث، وما به الكفارة (٢) بعد الحنث، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا ﴾ إلى

---

(١) تفسير السعدي، ص/٧٤٧

أن قال: ﴿ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ﴾ .

فكل من حرم حلالا عليه، من طعام أو شراب أو سرية، أو حلف يمينًا بالله، على فعل أو ترك، ثم حنث أو أراد الحنث، فعليه هذه الكفارة المذكورة، وقوله: ﴿ وَاللَّهُ مَوْلاكُمْ ﴾ أي: متولي أموركم، ومربيكم أحسن تربية، في أمور دينكم ودنياكم، وما به يندفع عنكم الشر، فلذلك فرض لكم تحلة أيمانكم، لتبرأ ذممكم، ﴿ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ الذي أحاط علمه بظواهركم وبواطنكم، وهو الحكيم في جميع ما خلقه وحكم به، فلذلك شرع لكم من الأحكام، ما يعلم أنه موافق لمصالحكم، ومناسب لأحوالكم.

[وقوله:] ﴿ وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا ﴾ قال كثير من المفسرين: هي حفصة أم المؤمنين رضي الله عنها، أسر لها النبي صلى الله عليه وسلم حديثًا، وأمر أن لا تخبر به أحدًا، فحدثت به عائشة رضي الله عنهما، وأخبره الله بذلك الخبر الذي أذاعته، فعرفها صلى الله عليه وسلم، ببعض ما قالت، وأعرض عن بعضه، كرمًا منه صلى الله عليه وسلم، وحلمًا، فـ ﴿ قَالَتْ ﴾ له: ﴿ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا ﴾ الخبر الذي لم يخرج منا؟ ﴿ قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ﴾ الذي لا تخفى عليه خافية، يعلم السر وأخفى.

[وقوله:] ﴿ إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ الخطاب للزوجتين الكريمتين من أزواجه صلى الله عليه وسلم عائشة وحفصة رضي الله عنهما، كانتا سببًا لتحريم النبي صلى الله عليه وسلم على نفسه ما يحبه، فعرض الله عليهما التوبة، وعاتبهما على ذلك، وأخبرهما أن قلوبهما (٣) قد صغت أي: مالت وانحرفت عما ينبغي لهن، من الورع والأدب مع الرسول صلى الله عليه وسلم واحترامه، وأن لا يشققن عليه، ﴿ وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ ﴾ أي: تعاونا (٤) على ما يشق عليه، ويستمر هذا الأمر منكن، ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴾ أي: الجميع أعوان للرسول، مظاهرون، ومن كان هؤلاء أعوانه (٥) فهو المنصور، وغيره ممن يناوئه مخذول (٦) ، وفي هذا أكبر فضيلة وشرف لسيد المرسلين، حيث جعل الباري نفسه [الكريمة]، وخواص خلقه، أعوانًا لهذا الرسول الكريم.

وهذا فيه من التحذير للزوجتين الكريمتين ما لا يخفى، ثم خوفهما أيضا، بحالة تشق على النساء غاية المشقة، وهو الطلاق، الذي هو أكبر شيء عليهن، فقال: ﴿ عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ ﴾ .

﴿ عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ ﴾ أي: فلا ترفعن عليه، فإنه لو طلقكن، لم يضق (٧) عليه الأمر، ولم يكن مضطرًا إليكن، فإنه سيلقى (٨) ويبدله الله أزواجًا خيرًا منكن، دينا وجمالا وهذا من باب التعليق الذي لم يوجد، ولا يلزم وجوده، فإنه ما طلقهن، ولو طلقهن، لكان ما ذكره الله من هذه الأزواج الفاضلات، الجامعات بين الإسلام، وهو القيام بالشرائع الظاهرة، والإيمان، وهو: القيام بالشرائع الباطنة، من العقائد وأعمال القلوب.

القنوت هو دوام الطاعة واستمرارها ﴿ تَائِبَاتٍ ﴾ عما يكرهه الله، فوصفهن بالقيام بما يحبه الله، والتوبة عما يكرهه الله، ﴿ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا ﴾ أي: بعضهن ثيب، وبعضهن أبكار، ليتنوع صلى الله عليه وسلم، فيما يحب، فلما سمعن -رضي الله عنهن- هذا التخويف والتأديب، بادرن إلى رضا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكان هذا [ص ٨٧٤] الوصف منطبقًا عليهن، فصرن أفضل نساء المؤمنين، وفي هذا دليل على أن الله لا يختار لرسوله صلى الله عليه وسلم إلا أكمل

الأحوال وأعلى الأمور، فلما اختار الله لرسوله بقاء نسائه المذكورات معه دل على أنهن خير النساء وأكملهن.

---

(١) في ب: فقال تعالى: "قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم" وهذا عام في جميع أيمان المؤمنين.

(٢) في ب: وما به تتكفر.

(٣) في ب: أن قلوبكما.

(٤) في ب: تتعاونا.

(٥) في ب: أنصاره.

(٦) في ب: وغيره أن يناوئه فهو مخذول.

(٧) في ب: لا يضيق.

(٨) في ب: سيجد.." (١)

"﴿ ١٩ ﴾ ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴾ .

وهذا عتاب وحث على النظر إلى حالة الطير التي سخرها الله، وسخر لها الجو والهواء، تصف فيه أجنحتها للطيران، وتقبضها للوقوع، فتظل سابحة في الجو، مترددة فيه بحسب إرادتها وحاجتها.

﴿ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلا الرَّحْمَنُ ﴾ فإنه الذي سخر لهن الجو، وجعل أجسادهن وخلقتهن (١) في حالة مستعدة للطيران، فمن نظر في حالة الطير واعتبر فيها، دلته على قدرة الباري، وعنايته الربانية، وأنه الواحد الأحد، الذي لا تنبغي العبادة إلا له، ﴿ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴾ فهو المدبر لعباده بما يليق بهم، وتقتضيه حكمته.

---

(١) في ب: وجعل أجسادها وخلقتها.." (٢)

"فالأعمال جعلها الله سببا لدخول الجنة ومادة لنعيمها وأصلا لسعادتها.

[ص ٨٨٤]

﴿ ٢٥ - ٣٧ ﴾ ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ * يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ * مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ * هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ * خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ * إِنَّهُ كَانَ لا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ * وَلا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴾ .

هؤلاء أهل الشقاء يعطون كتب أعمالهم السيئة (١) بشمالهم تمييزا لهم وخزيا وعارا وفضيحة، فيقول أحدهم من الهم والغم والخزي (٢) ﴿ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ﴾ لأنه يبشر بدخول النار والخسارة الأبدية.

﴿ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴾ أي: ليتني كنت نسيا منسيا ولم أبعث وأحاسب ولهذا قال:

---

(١) تفسير السعدي، ص/٨٧٢

(٢) تفسير السعدي، ص/٨٧٧

﴿ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴾ أي:: يا ليت موتتي هي الموتة التي لا بعث بعدها.

ثم التفت إلى ماله وسلطانه، فإذا هو وبال عليه لم يقدم منه لآخرته، ولم ينفعه في الافتداء من عذاب الله (٣) فيقول:

﴿ مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ ﴾ أي: ما نفعني لا في الدنيا، لم أقدم منه شيئا، ولا في الآخرة، قد ذهب وقت نفعه.

﴿ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ﴾ أي: ذهب واضمحل فلم تنفع الجنود الكثيرة، ولا العدد الخطيرة، (٤) ولا الجاه العريض، بل ذهب ذلك كله أدراج الرياح، وفاتت بسببه المتاجر والأرباح، وحضر بدله الهموم والغموم والأتراح، فحينئذ يؤمر بعذابه فيقال للزبانية الغلاظ الشداد: ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴾ أي: اجعلوا في عنقه غلا يخنقه.

﴿ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴾ أي: قلبوه على جمرها ولهبها.

﴿ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا ﴾ من سلاسل الجحيم في غاية الحرارة ﴿ فَاسْلُكُوهُ ﴾ أي: انظموه فيها بأن تدخل في دبره وتخرج من فمه، ويعلق فيها، فلا يزال يعذب هذا العذاب الفظيع، فبئس العذاب والعقاب، وواحسرة من له التوبيخ **والعتاب**.

فإن السبب الذي أوصله إلى هذا المحل: ﴿ إِنَّهُ كَانَ لا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴾ بأن كان كافرا بربه معاندا لرسله رادا ما جاءوا به من الحق.

﴿ وَلا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴾ أي: ليس في قلبه رحمة يرحم بها الفقراء والمساكين فلا يطعمهم [من ماله] ولا يحض غيره على إطعامهم، لعدم الوازع في قلبه، وذلك لأن مدار السعادة ومادتها أمران: الإخلاص لله، الذي أصله الإيمان بالله، والإحسان إلى الخلق بوجوه الإحسان، الذي من أعظمها، دفع ضرورة المحتاجين بإطعامهم ما يتقوتون به، وهؤلاء لا إخلاص ولا إحسان، فلذلك استحقوا ما استحقوا.

---

(١) في ب: كتبهم المشتملة على أعمالهم السيئة.

(٢) في ب: الحزن.

(٣) في ب: ولا ينفعه لو افتدى به من العذاب.

(٤) في ب: فلم تنفع الجنود ولا الكثرة ولا العدد ولا العدد.." (١)

"﴿ فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ * فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ *كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ * فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ * بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةً *كَلا بَلْ لا يَخَافُونَ الآخِرَةَ *كَلا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ * فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ * وَمَا يَذْكُرُونَ إِلا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ ﴾ .

﴿ فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴾ لأنهم لا يشفعون إلا لمن ارتضى، وهؤلاء لا يرضى الله أعمالهم (١) . فلما بين الله مآل المخالفين، ورهب مما (٢) يفعل بهم، عطف على الموجودين **بالعتاب** واللوم، فقال: ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴾ أي: صادين غافلين عنها. ﴿كَأَنَّهُمْ ﴾ في نفرتهم الشديدة منها ﴿ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ ﴾ أي: كأنهم حمر وحش

---

(١) تفسير السعدي، ص/٨٨٣

نفرت فنفر بعضها بعضا، فزاد عدوها، ﴿ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ﴾ أي: من صائد ورام يريدها، أو من أسد ونحوه، وهذا من أعظم ما يكون من النفور عن الحق، ومع هذا الإعراض وهذا النفور، يدعون الدعاوى الكبار.
ف ﴿ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةً ﴾ نازلة عليه من السماء، يزعم أنه لا ينقاد للحق إلا بذلك، وقد كذبوا، فإنهم لو جاءتهم كل آية لم يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم، فإنهم جاءتهم الآيات البينات التي تبين الحق وتوضحه، فلو كان فيهم خير لآمنوا، ولهذا قال: ﴿ كَلا ﴾ أن نعطيهم ما طلبوا، وهم ما قصدوا بذلك إلا التعجيز، ﴿ بَلْ لا يَخَافُونَ الآخِرَةَ ﴾ فلو كانوا يخافونها لما جرى منهم ما جرى.
﴿ كَلا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ ﴾ الضمير إما أن يعود على هذه السورة، أو على ما اشتملت عليه [من] هذه الموعظة، ﴿ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ ﴾ لأنه قد بين له السبيل، ووضح له الدليل.
﴿ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ فإن مشيئته (٣) نافذة عامة، لا يخرج عنها حادث قليل ولا كثير، ففيها رد على القدرية، الذين لا يدخلون أفعال العباد تحت مشيئة الله، والجبرية الذين يزعمون أنه ليس للعبد مشيئة، ولا فعل حقيقة، وإنما هو مجبور على أفعاله، فأثبت تعالى للعباد مشيئة حقيقة وفعلا وجعل ذلك تابعا لمشيئته، ﴿ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ ﴾ أي: هو أهل أن يتقى ويعبد، لأنه الإله الذي لا تنبغي العبادة إلا له، وأهل أن يغفر لمن اتقاه واتبع رضاه. تم تفسير سورة المدثر ولله الحمد (٤) .
تفسير سورة القيامة
[وهي] مكية

---

(١) كذا في ب، وفي أ: ولا يرضى أعمالهم.
(٢) في ب: وبين ما يفعل بهم.
(٣) في ب: فإن مشيئة الله.
(٤) في ب: تمت ولله الحمد والمنة.." (١)

"﴿ ٧ - ١٥ ﴾ ﴿ فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ * وَخَسَفَ الْقَمَرُ * وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ * يَقُولُ الإنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ *كَلا لا وَزَرَ * إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ * يُنَبَّأُ الإنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ * بَلِ الإنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ * وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ ﴾ .
أي: إذا كانت القيامة برقت الأبصار من الهول العظيم، وشخصت فلا تطرف كما قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأبْصَارُ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴾
﴿ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ﴾ أي: ذهب نوره وسلطانه، ﴿ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴾ وهما لم يجتمعا منذ خلقهما الله تعالى، فيجمع الله بينهما يوم القيامة، ويخسف القمر، وتكور الشمس، ثم يقذفان في النار، ليرى العباد أنهما عبدان مسخران،

---

(١) تفسير السعدي، ص/٨٩٨

وليرى من عبدهما أنهم كانوا كاذبين.

﴿ يَقُولُ الإنْسَانُ ﴾ حين يرى تلك القلاقل المزعجات: ﴿ أَيْنَ الْمَفَرُّ ﴾ أي: أين الخلاص والفكاك مما طرقنا وأصابنا (١)

﴿كَلا لا وَزَرَ ﴾ أي: لا ملجأ لأحد دون الله، ﴿ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ﴾ لسائر العباد فليس في إمكان أحد أن يستتر أو يهرب عن ذلك الموضع، بل لا بد من إيقافه ليجزى بعمله، ولهذا قال: ﴿ يُنَبَّأُ الإنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾ أي: بجميع عمله الحسن والسيء، في أول وقته وآخره، وينبأ بخبر لا ينكره.

﴿ بَلِ الإنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴾ أي: شاهد ومحاسب، ﴿ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ ﴾ فإنها معاذير لا تقبل، ولا تقابل ما يقرر به العبد (٢) ، فيقر به، كما قال تعالى: ﴿ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ .

فالعبد وإن أنكر، أو اعتذر عما عمله، فإنكاره واعتذاره لا يفيدانه شيئا، لأنه يشهد عليه سمعه وبصره، وجميع جوارحه بما كان يعمل، ولأن **استعتابه** قد ذهب وقته وزال نفعه: ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾

---

(١) في ب: والفكاك مما طرقنا وألم بنا.

(٢) في ب: بل يقرر بعمله.." (١)

"﴿ ١ - ١٠ ﴾ ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الأعْمَى * وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى * أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى * أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى * فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى * وَمَا عَلَيْكَ أَلا يَزَّكَّى * وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى * وَهُوَ يَخْشَى * فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى ﴾ .

وسبب نزول هذه الآيات الكريمات، أنه جاء رجل من المؤمنين أعمى يسأل النبي صلى الله عليه ويتعلم منه.

وجاءه رجل من الأغنياء، وكان صلى الله عليه وسلم حريصا على هداية الخلق، فمال صلى الله عليه وسلم [وأصغى] إلى الغني، وصد عن الأعمى الفقير، رجاء لهداية ذلك الغني، وطمعا في تزكيته، فعاتبه الله بهذا **العتاب** اللطيف، فقال: ﴿ عَبَسَ ﴾ [أي:] في وجهه ﴿ وَتَوَلَّى ﴾ في بدنه، لأجل مجيء الأعمى له، ثم ذكر الفائدة في الإقبال عليه، فقال: ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ ﴾ أي: الأعمى ﴿ يَزَّكَّى ﴾ أي: يتطهر عن الأخلاق الرذيلة، ويتصف بالأخلاق الجميلة؟

﴿ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى ﴾ أي: يتذكر ما ينفعه، فيعمل (١) بتلك الذكرى.

[ص ٩١١]

وهذه فائدة كبيرة، هي المقصودة من بعثة الرسل، ووعظ الوعاظ، وتذكير المذكرين، فإقبالك على من جاء بنفسه مفتقرا لذلك منك (٢) ، هو الأليق الواجب، وأما تصديك وتعرضك للغني المستغني الذي لا يسأل ولا يستفتي لعدم رغبته في الخير، مع تركك من هو أهم منه، فإنه لا ينبغي لك، فإنه ليس عليك أن لا يزكى، فلو لم يتزك، فلست بمحاسب على ما عمله من الشر.

---

(١) تفسير السعدي، ص/٨٩٩

فدل هذا على القاعدة المشهورة، أنه: " لا يترك أمر معلوم لأمر موهوم، ولا مصلحة متحققة لمصلحة متوهمة " وأنه ينبغي الإقبال على طالب العلم، المفتقر إليه، الحريص عليه أزيد من غيره.

---

(١) في ب: فينتفع.

(٢) في ب: مفتقرا لذلك مقبلا.." (١)

"وقوله تعالى " ليس عليكم جناح " الآية الجناح أعم من الإثم لأنه فيما يقتضي العقاب وفيما يقتضي **العتاب** والزجر و " تبتغوا " معناه تطلبون بمحاولتكم

وقال ابن عمر وابن عباس ومجاهد وعطاء إن الآية نزلت لأن العرب تحرجت لما جاء الإسلام أن يحضروا أسواق الجاهلية كعكاظ وذي المجاز ومجنة فأباح الله تعالى ذلك أي لا درك في أن تتجروا وتطلبوا الربح

وقال مجاهد كان بعض العرب لا يتجرون مذ يحرمون فنزلت الآية في إباحة ذلك

وقال ابن عمر فيمن أكرى ليحج حجه تام ولا حرج عليه في ابتغاء الكراء وقرأ ابن عباس وابن مسعود وابن الزبير ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم في مواسم الحج

وقوله تعالى " فإذا أفضتم من عرفات " أجمع أهل العلم على تمام حج من وقف بعرفة بعد الزوال وأفاض نهارا قبل الليل إلا مالك بن أنس فإنه قال لا بد أن يأخذ من الليل شيئا وأما من وقف بعرفة بالليل فلا خلاف بين الأمة في تم ا م حجه وأفاض القوم أو الجيش إذا اندفعوا جملة ومنه أفاض الرجل في الكلام ومنه فاض الإناء وأفضته ومنه المفيض في القداح والتنوين في عرفات على حده في مسلمات الكسرة مقابلة للياء في مسلمين والتنوين مقابل للنون فإذا سميت به شخصا ترك وهو معرف على حده قبل أن تسمي به فإن كان " عرفات " اسما لتلك البقعة كلها فهو كما ذكرناه وإن كان جمع عرفة فهو كمسلمات دون أن يسمى به وحكى سيبويه كسر التاء من عرفات دون تنوين في حال النصب والخفض مع التعريف وحكى الكوفيون فتحها في حال النصب والخفض تشبيها بتاء فاطمة وطلحة وسميت تلك البقعة " عرفات " لأن إبراهيم عرفها حين رآها على ما

وصفت له قاله السدي

وقال ابن عباس سميت بذلك لأن جبريل عليه السلام كان يقول لإبراهيم عليه السلام هذا موضع كذا فيقول قد عرفت

وقيل سميت بذلك لأن آدم عرف بها حواء حين لقيها هناك

قال القاضي أبو محمد والظاهر أنه اسم مرتجل ك‍سائر أسماء البقاع وعرفة هي نعمان الأراك وفيها يقول الشاعر

(تزودت من نعمان عود أراكة

لهند ولكن من يبلغه هندا)

و " المشعر الحرام " جمع كله وهو ما بين جبلي المزدلفة من حد مفضى مأزمي عرفة قال ذلك ابن عباس وابن جبير

---

(١) تفسير السعدي، ص/٩١٠

والربيع وابن عمر ومجاهد فهي كلها مشعر إلى بطن محسر كما أن عرفة كلها موقف إلا بطن عرنة بفتح الراء وضمها روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال عرفة كلها موقف إلا بطن عرنة والمزدلفة كلها مشعر إلا وارتفعوا عن بطن محسر وذكر هذا عبد الله بن الزبير في خطبته وفي

٢٧٥

المزدلفة قرن قزح الذي كانت قريش تقف عليه وذكر الله تعالى عند المشعر الحرام ندب عند أهل العلم

وقال مالك من مر به ولم ينزل فعليه دم

(١) ".

"ومنه التيمم الذي هو البدل من الوضوء عند عدم الماء وهكذا قرأ جمهور الناس وروى البزي عن ابن كثير تشديد التاء في أحد وثلاثين موضعا أولها هذا الحرف وحكى الطبري أن في قراءة عبد الله بن مسعود ولا تؤموا الخبيث من أممت إذا قصدت ومنه إمام البناء والمعنى في القراءتين واحد وقرأ الزهري ومسلم بن جندب ولا تيمموا بضم التاء وكسر الميم وهذا على لغة من قال يممت الشيء بمعنى قصدته وفي اللفظ لغات منها أممت الشيء خفيفة الميم الأولى وأممته بشدها ويممته وتيممته وحكى أبو عمرو أن ابن مسعود قرأ ولا تؤمموا بهمزة بعد التاء وهذه على لغة من قال أممت مثقلة الميم وقد مضى القول في معنى " الخبيث " وقال الجرجاني في كتاب نظم القرآن قال فريق من الناس إن الكلام تم في قوله " الخبيث " ثم ابتدأ خبرا آخر في وصف الخبيث فقال " تنفقون " منه وأنتم لا تأخذونه إلا إذا أغمضتم أي ساهلتم قال

القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه كأن هذا المعنى **عتاب** للناس وتقريع والضمير في " منه " عائد على " الخبيث "

قال الجرجاني وقال فريق آخر بل الكلام متصل إلى قوله " فيه "

قال القاضي أبو محمد فالضمير في " منه " عائد على " ما كسبتم " ويجيء " تنفقون " كأنه في موضع نصب على الحال وهو كقولك إنما أخرج أجاهد في سبيل الله واختلف المتأولون في معنى قوله تعالى " ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه " فقال البراء بن عازب وابن عباس والضحاك وغيرهم معناه ولستم بآخذيه في ديونكم وحقوقكم عند الناس إلا بأن تساهلوا في ذلك وتتركون من حقوقكم وتكرهونه ولا ترضونه أي فلا تفعلوا مع الله ما لا ترضونه لأنفسكم وقال الحسن بن أبي الحسن معنى الآية ولستم بآخذيه لو وجدتموه في السوق يباع إلا أن يهضم لكم من ثمنه وروي نحوه عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه

قال القاضي أبو محمد رحمه الله وهذان القولان يشبهان كون الآية في الزكاة الواجبة وقال البراء بن

٣٦٣

عازب أيضا معناه ولستم بآخذيه لو أهدي إليكم " إلا أن تغمضوا " أي تستحيي من المهدي أن تقبل منه ما لا حاجة

---

(١) المحرر الوجيز . موافق للمطبوع، ١/٢٦٠

لك فيه ولا قدر له في نفسه

قال القاضي أبو محمد وهذا يشبه كون الآية في التطوع وقال ابن زيد معنى الآية ولستم بآخذي الحرام إلا أن تغمضوا في مكروهه وقرأ جمهور الناس إلا أن تغمضوا بضم التاء وسكون الغين وكسر الميم

وقرأ الزهري بفتح التاء وكسر الميم مخففا وروي عنه أيضا تغمضوا بضم التاء وفتح الغين وكسر الميم مشددة وحكى مكي عن الحسن البصري تغمضوا مشددة الميم مفتوحة وبفتح التاء

وقرأ قتادة بضم التاء وسكون الغين وفتح الميم مخففا قال أبو عمرو معناه إلا أن يغمض لكم

". (١)

"إنما كان سيفا قال النقاش ويقال إنما نزلت لأن الرماة قالوا يوم أحد الغنيمة الغنيمة أيها الناس إنما نخشى أن يقول النبي صلى الله عليه وسلم (من أخذ شيئا فهو له) فلما ذكروا ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم قال (خشيتم أن نغل) ونزلت هذه الآية وقال الضحاك بل السبب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث طلائع في بعض غزواته ثم غنم قبل مجيئهم فقسم للناس ولم يقسم للطلائع فأنزل الله تعالى عليه **عتابا** " وما كان لنبي أن يغل " أي يقسم لبعض ويترك بعضا وروي نحو هذا القول عن ابن عباس ويتجه على هذا أن تكون الآية إعلاما بعدل رسول الله صلى الله عليه وسلم وقسمه للغنائم وردا على الأعراب الذين صاحوا به اقسم علينا غنائمنا يا محمد وازدحموا حتى اضطروه إلى السمرة التي أخذت رداءه ونحا إليه الزجاج وقال ابن إسحاق الآية إنما نزلت إعلاما بأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكتم شيئا مما أمر بتبليغه

٥٣٦

قال القاضي وكأن الآية على هذا في قصة أحد لما نزل عليه " وشاورهم في الأمر " آل عمران ١٥٩ إلى عير ذلك مما استحسنوه بعد إساءتهم من العفو عنهم ونحوه وبالجملة فهو تأويل ضعيف وكان يجب أن يكون يغل بضم الياء وكسر الغين لأنه من الإغلال في الأمانة وأما قراءة من قرأ أن يغل بضم الياء وفتح الغين فمعناها عند جمهور من أهل العلم أن ليس لأحد أن يغله أي يخونه في الغنيمة فالآية في معنى نهي الناس عن الغلول في المغانم والتوعد عليه وخص النبي بالذكر وإن كان ذلك محظورا مع الأمراء لشنعة الحال مع النبي صلى الله عليه وسلم لأن المعاصي تعظم مع حضرته لتعين توقيره والولاة هم عن أمر النبي صلى الله عليه وسلم فلهم حظهم من التوقير وقال بعض الناس معنى أن يغل أن يوجد غالا كما تقول أحمدت الرجل وجدته محمودا فهذه القراءة على هذا التأويل ترجع إلى معنى يغل بفتح الياء وضم الغين وقال أبو علي الفا رسي معنى يغل بضم الياء وفتح الغين يقال له غللت وينسب إلى ذلك كما تقول أسقيته إذا قلت سقاك الله كما قال ذو الرمة

---

(١) المحرر الوجيز . موافق للمطبوع، ٣٥٩/١

(وأسقيه حتى كاد مما أبثه
تكلمني أحجاره وملاعبه) " الطويل "
" (١).

"وإنما هذا الإحياء بمنزلة قول نمرود أنا أحيي سمي الترك إحياء ومحيي نفس كمحيي الجميع في حفظ الحرمة واستحقاق الحمد ثم أخبر الله تعالى عن بني إسرائيل أنهم جاءتهم الرسل من الله بالبينات في هذا وفي سواه ثم لم يزل الكثير منهم بعد ذلك في كل عصر يسرفون ويتجاوزون الحدود وفي هذه الآية إشارة إلى فعل اليهود في همهم بقتل النبي صلى الله عليه وسلم وغيره إلى سائر ذلك من أعمالهم

قوله عز وجل

سورة المائدة ٣٣ ٣٤

اقتضى المعنى في هذه الآية كون " إنما " حاصرة الحصر التام واختلف الناس في سبب هذه الآية فروي عن ابن عباس والضحاك أنها نزلت بسبب قوم من أهل الكتاب كان بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد فنقضوا العهد وقطعوا السبيل وأفسدوا في الأرض

قال القاضي أبو محمد ويشبه أن تكون نازلة بني قريظة حين هموا بقتل النبي صلى الله عليه وسلم وقال عكرمة والحسن نزلت الآية في المشركين

قال القاضي أبو محمد وفي هذا ضعف لأن توبة المشرك نافعة بعد القدرة عليه وعلى كل حال وقال أنس بن مالك وجرير بن عبد الله وسعيد بن جبير وعروة بن الزبير وعبد الله بن عمر وغيرهم إن الآية نزلت في قوم من عكل وعرينة قدموا على النبي صلى الله عليه وسلم فأسلموا ثم إنهم مرضوا واستوخموا المدينة فأمرهم النبي صلى الله عليه وسلم أن يكونوا في لقاح الصدقة وقال اشربوا من ألبانها وأبوالها

فخرجوا فيها فلما صحوا قتلوا الرعاء واستاقوا الإبل فجاء الصريخ فأخبر بذلك النبي صلى الله عليه وسلم فأمر فنودي في الناس يا خيل الله اركبي فركب رسول الله على أثرهم فأخذوا وقال جرير بن عبد الله فبعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم في نفر من المسلمين حتى

إذا أدركناهم وقد أشرفوا على بلادهم فجئنا بهم النبي صلى الله عليه وسلم قال جميع الرواة فقطع رسول الله صلى الله عليه وسلم أيديهم وأرجلهم من خلاف وسمر أعينهم ويروى وسمل وتركهم في جانب الحرة يستسقون فلا يسقون وفي حديث جرير فكانوا يقولون الماء ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم النار وفي بعض الروايات عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أحرقهم بالنار بعدما قتلهم قال أبو قلابة هؤلاء كفروا وقتلوا وأخذوا الأموال وحاربوا الله ورسوله وحكى الطبري عن بعض أهل العلم أن هذه الآية نسخت فعل النبي

١٨٤

---

(١) المحرر الوجيز . موافق للمطبوع، ٥٦٧/١

صلى الله عليه وسلم بالعرنيين ووقفت الأمر على هذه الحدود وقال بعضهم وجعلها الله **عتابا** لنبيه صلى الله عليه وسلم على سمل الأعين وحكي عن جماعة من أهل العلم أن هذه الآية ليست بناسخة لذلك الفعل لأن ذلك وقع في المرتدين ". (١)

"قال القاضي أبو محمد وهذا كله عندي قول واحد لأن أهل اليمن هم قوم أبي موسى ومعنى الآية على هذا القول مخاطبة جميع من حضر عصر النبي صلى الله عليه وسلم على معنى التنبيه لهم **والعتاب** والتوعد وقال السدي الإشارة بالقوم إلى الأنصار

٢٠٨

قال القاضي أبو محمد وهذا على أن يكون قوله تعالى " يا أيها الذين آمنوا " خطابا للمؤمنين الحاضرين يعم مؤمنهم ومنافقهم

لأن المنافقين كانوا يظهرون الإيمان والإشارة بالارتداد إلى المنافقين والمعنى أن من نافق وارتد فإن المحققين من الأنصار يحمون الشريعة ويسد الله بهم كل ثلم وقرأ أبو عمرو وابن كثير وحمزة والكسائي وعاصم يرتد بإدغام الدال في الدال وقرأ نافع وابن عامر يرتدد بترك الإدغام وهذه لغة الحجاز مكة وما جاورها والإدغام لغة تميم وقوله تعالى " أذلة على المؤمنين " معناه متذللين من قبل أنفسهم غير متكبرين وهذا كقوله تعالى " أشداء على الكفار رحماء بينهم " وكقوله صلى الله عليه وسلم (المؤمن هين لين) وفي قراءة ابن مسعود أذلة على المؤمنين غلظاء على الكافرين وقوله تعالى " ولا يخافون لومة لائم " إشارة إلى الرد على المنافقين في أنهم كانوا يعتذرون بملامة الأخلاق والمعارف من الكفار ويراعون أمرهم وقوله تعالى " ذلك فضل الله " الإشارة بذلك إلى كون القوم يحبون الله ويحبهم وقد تقدم القول غير مرة في معنى محبة الله للعبد وأنها إظهار النعم المنبئة عن رضاه عنه وإلباسه إياها

و " واسع " معناه ذو سعة فيما يملك ويعطي وينعم

قوله عز وجل

سورة المائدة ٥٥ ٥٦ ٥٧

الخطاب بقوله " إنما وليكم الله " الآية للقوم الذين قيل لهم " لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء " و " إنما " في هذه الآية حاصرة يعطي ذلك المعنى وولي اسم جنس وقرأ ابن مسعود إنما موليكم الله وقوله " والذين آمنوا " أي ومن آمن من الناس حقيقة لا نفاقا وهم " الذين يقيمون الصلاة " المفروضة بجميع شروطها " ويؤتون الزكاة " وهي هنا لفظ عام للزكاة المفروضة وللتطوع بالصدقة ولكل أفعال البر إذ هي تنمية للحسنات مطهرة للمرء من دنس الذنوب فالمؤمنون يؤتون من ذلك كل بقدر استطاعته وقرأ ابن مسعود آمنوا والذين يقيمون بواو وقوله تعالى " وهم راكعون " جملة ". (٢)

---

(١) المحرر الوجيز . موافق للمطبوع، ٢/٢١٣

(٢) المحرر الوجيز . موافق للمطبوع، ٢/٢٤٢

"قال القاضي أبو محمد وهذا أسلوب معنى الآية واسم كان يصح أن يكون الأمر والشأن و "كبر إعراضهم " خبرها ويصح أن يكون " إعراضهم " هو اسم كان ويقدر في "كبر " ضمير وتكون "كبر " في موضع الخبر والأول من الوجهين أقيس والنفق السرب في الأرض ومنه نافقاء اليربوع والسلم الشيء الذي يصعد عليه ويرتقي ويمكن أن يشتق اسمه من السلامة لأنه سببها وجمعه سلاليم ومنه قول الشاعر ابن مقبل

(لا يحزن المرء أحجاء البلاد ولا

تبنى له في السماوات السلاليم) " البسيط "

و " تأتيهم بآية " أي بعلامة ويريد إما في فعلك ذلك أي تكون الآية نفس دخولك في الأرض أو ارتقائك في السماء وإما أن " تأتيهم بالآية " من إحدى الجهتين وحذف جواب الشرط قبل في قوله " إن استطعت " إيجاز لفهم السامع به تقديره فافعل أو فدونك كما تقدم و " لجمعهم " يحتمل إما بأن يخلقهم مؤمنين وإما بأن يكسبهم الإيمان بعد كفرهم بأن يشرح صدورهم والهدى والإرشاد وهذه الآية ترد على القدرية المفوضة الذين يقولون إن القدرة لا تقتضي أن يؤمن الكافر وإن ما يأتيه الإنسان من جميع أفعاله لا خلق لله فيه تعالى عن قولهم و " من الجاهلين " يحتمل في أن لا يعلم أن الله " لو شاء لجمعهم " ويحتمل في أن تهتم بوجود كفرهم الذي قدره وأراده وتذهب به لنفسك إلى ما لم يقدر الله به يظهر تباين ما بين قوله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم " فلا تكونن من الجاهلين " وبين قوله لنوح عليه السلام " إني أعظك أن تكون من الجاهلين " وقد تقرر أن محمدا صلى الله عليه وسلم أفضل الأنبياء قال مكي والمهدي والخطاب بقوله " فلا تكونن من الجاهليين " للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد به أمته وهذا ضعيف لا يقتضيه اللفظ وقال قوم وقر نوح لسنه وشيبته وقال قوم جاء الحمل أشد على محمد صلى الله عليه وسلم لقربه من الله تعالى ومكانته عنده كما يحمل العاقب على قريبه أكثر من حمله على الأجانب

قال القاضي أبو

محمد والوجه القوي عندي في الآية هو أن ذلك لم يجيء بحسب النبيين وإنما جاء بحسب الأمرين اللذين وقع النهي عنهما **والعتاب** فيهما وبين أن الأمر الذي نهى عنه محمد صلى الله عليه وسلم أكبر قدر وأخطر مواقعة من الأمر الذي واقعه نوح صلى الله عليه وسلم

قوله عز وجل

سورة الأنعام ٣٦ ٣٧ ٣٨

هذا من النمط المتقدم في التسلية أي لا تحفل بمن أعرض فإنما يستجيب لداعي الإيمان الذين يقيمون الآيات ويتلقون البراهين بالقبول فعبر عن ذلك كله ب " يسمعون " إذ هو طريق العلم بالنبوة والآيات

٢٨٩

". (١)

(١) المحرر الوجيز ـ موافق للمطبوع، ٣٣٩/٢

"هذا أمر بالمشاركة وكان ذلك بحسب قلة أتباع الإسلام حينئذ قال قتادة ثم نسخ ذلك وما جرى مجراه بالقتال وقال مجاهد الآية إنما هي للتهديد والوعيد فهي كقوله تعالى " ذرني ومن خلقت وحيدا " وليس فيها نسخ لأنها متضمنة خبرا وهو التهديد وقوله " لعبا ولهوا " يريد إذ يعتقدون أن لا بعث فهم يتصرفون بشهواتهم تصرف اللاعب اللاهي " وغرتهم الحياة الدنيا " أي خدعتهم من الغرور وهو الإطماع بما لا يتحصل فاغتروا بنعم الله ورزقه وإمهاله وطمعهم ذلك فيما لا يتحصل من رحمته

قال القاضي أبو محمد ويتخرج في " غرتهم " هنا وجه آخر من الغرور بفتح الغين أي ملأت أفواههم وأشبعتهم ومنه قول الشاعر

(ولما التقينا بالحنية غرني

بمعروفه حتى خرجت أفوق) " الطويل "

ومنه غر الطائر فرخه ولا يتجه هذا المعنى في تفسير غر في كل موضع وأضاف الدين إليهم على معنى أنهم جعلوا اللعب واللهو دينا ويحتمل أن يكون المعنى اتخذوا دينهم الذي كان ينبغي لهم لعبا ولهوا والضمير في " به " عائد على الدين وقيل على القرآن و " أن تبسل " في موضع المفعول أي لئلا تبسل أو كراهية أن تبسل ومعناه تسلم قال الحسن وعكرمة وقال قتادة تحبس وترتهن وقال ابن عباس تفضي وقال الكلبي وابن زيد تجزي وهذه كلها متقاربة بالمعنى ومنه قول الشنفرى

(هنالك لا أرجو حياة تسرني

سمير الليالي مبسلا بالجرائر) " الطويل "

وقال بعض الناس هو مأخوذ من البسل أي من الحرام كما قال الشاعر

ضمرة النهشاني

(بكرت تلومك بعد وهن في الندى

بسل عليك ملامتي وعتابي) " الكامل "

قال القاضي أبو محمد وهذا بعيد و " نفس " تدل على الجنس ومعنى الآية وذكر بالقرآن والدين وادع إليه لئلا تبسل نفس التارك للإيمان بما كسبت من الكفر وآثرته من رفض الإسلام وقوله تعالى " ليس

٣٠٦

لها من دون الله) في موضع الحال و " من " لابتداء الغاية ويجوز أن تكون زائدة و " دون " ظرف مكان وهي لفظة تقال باشتراك وهي في هذه الآية الدالة على زوال من أضيفت إليه من نازلة القول كما في المثل

(وأمر دون عبيدة الودم

)

والولي والشفيع هما طريقا الحماية والغوث في جميع الأمور " وإن تعدل كل عدل " أي وإن تعط كل فدية وإن عظمت

فتجعلها عدلا لها لا يقبل منها وحكى الطبري عن قائل أن المعنى وإن تعدل من العدل المضاد للجور ورد عليه وضعفه بالإجماع على أن توبة الكافر مقبولة
" (١).

"رأى المقداد بن الأسود بحمص وهو على تابوت صراف وقد فضل على التابوت من سمنه وهو يتجهز للغزو فقال له لقد عذرك الله فقال أتت علينا سورة البعوث " انفروا خفافا وثقالا " وروي سورة البحوث وقوله تعالى " بأموالكم وأنفسكم " وصف لأكمل ما يكون من الجهاد وأنفسه عند الله تعالى فحض على كمال الأوصاف وقدمت الأموال في الذكر إذ هي أول مصرف وقت التجهيز فرتب الأمر كما هو في نفسه ثم أخبر أن ذلك لهم خير للفوز برضى الله وغلبة العدو ووراثة الأرض وفي قوله " إن كنتم تعلمون " تنبيه وهز للنفوس وقوله " لو كان عرضا قريبا " الآية ظاهر هذه الآية وما يحفظ من قصة تبوك أن الله لما أمر رسوله بغزو الروم نذب الناس وكان ذلك في شدة من الحر وطيب من الثمار والظلال فنفر المؤمنون واعتذر منهم لا محالة فريق لا سيما من القبائل المجاورة للمدينة ويدل على ذلك قوله في أول هذه الآية " يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض " لأن هذا الخطاب ليس للمنافقين خاصة بل هو عام واعتذر المنافقون بأعذار كاذبة وكانوا بسبيل كسل مفرط وقصد للتخلف وكانت أعذار المؤمنين خفيفة ولكنهم
٣٨
تركوا الأولى من التحامل فنزل ما سلف من الآيات في **عتاب** المؤمنين ثم ابتدأ من هذه الآية ذكر المنافقين وكشف ضمائرهم فيقول لو كان هذا الغزو لعرض أي لمال وغنيمة تنال قريبا بسفر قاصد يسير لبادروا إليه لا لوجه الله ولا لظهور كلمته ولكن بعدت عليهم الشقة في غزو الروم أي المسافة الطويلة وذكر أبو عبيدة أن أعرابيا قدم البصرة وكان قد حمل حمالة فعجز عنها وكان معه ابن له يسمى الأحوص فبادر الأحوص أباه بالقول فقال إنا من تعلمون وابنا سبيل وجئنا من شقة ونطلب في حق وتنطوننا ويجزيكم الله فتهيأ أبوه ليخطب فقال له يا إياك إني قد كفيتك .
قال القاضي أبو محمد يا تنبيه وإياك نهي وقرأ عيسى ابن عمر الشقة بكسر الشين وقرأ الأعرج بعدت بكسر العين وحكى أبو حاتم أنها لغة بني تميم في اللفظتين وقوله " سيحلفون بالله " يريد المنافقين وهذا إخبار بغيب وقوله " يهلكون أنفسهم " يريد عند تخلفهم مجاهرة وكفرهم فكأنهم يوجبون على أنفسهم الحتم بعذاب الله
ثم أخبر أن الله الذي هو أعدل الشاهدين يعلم كذبهم وأنهم كانوا يستطيعون الخروج ولكنهم تركوه كفرا ونفاقا وهذا كله في الجملة لا بتعيين شخص ولو عين لقتل بالشرع وقرأ الأعمش على جهة التشبيه بواو ضمير الجماعة لو استطعنا بضم الواو ذكره ابن جني ومثله بقوله تعالى " لقد ابتغوا الفتنة " " فتمنوا الموت " و " اشتروا الضلالة " .

---

(١) المحرر الوجيز . موافق للمطبوع، ٣٦٠/٢

قوله عز وجل

التوبة ٤٣ – ٤٤

" (١) .

"هذه الآية في صنف مبالغ في النفاق واستأذنوا دون اعتذار منهم عبد الله بن ابي والجد بن قيس ورفاعة بن التابوت ومن اتبعهم فقال بعضهم إيذن لي ولا تفتني وقال بعضهم إيذن لنا في الإقامة فإذن لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم استيفاء منه صلى الله عليه وسلم وأخذا بالأسهل من الأمور وتوكلا على الله وقال مجاهد إن بعضهم قال نستأذنه فإن أذن في القعود قعدنا وإلا قعدنا فنزلت الآية في ذلك .

وقال فرقة إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أذن

لهم دون أن يؤمر بذلك فعفي عنه ما يلحق من هذا وقدم له ذكر العفو قبل **العتاب** إكراما له صلى الله عليه وسلم وقال عمرو بن ميمون الأودي إن رسول الله صلى الله عليه وسلم صدع برأيه في قصتين دون أن يؤمر فيهما بشيء .

هذه وأمر أسارى بدر فعاتبه الله فيهما وقالت فرقة بل قوله في هذه الآية " عفا الله عنك " استفتاح كلام كما تقول أصلحك الله وأعزك الله ولم يكن منه صلى الله عليه وسلم ذنب يعفى عنه لأن صورة الاستنفارة قبول الإعذار مصروفة إلى اجتهاده وأما قوله " لم أذنت " فهي على معنى التقرير وقوله " الذين "

٣٩

(صدقوا) يريد استئذانك وأنك لو لم تأذن لهم خرجوا معك وقوله " وتعلم الكاذبين " يريد في أنهم استأذنوك يظهرون لك انهم يقفون عند حدك وهم كذبة قد عزموا على العصيان أذنت لهم أو لم تأذن وقال الطبري معناه حتى تعلم الصادقين في أن لهم عذرا والكاذبين في أن لا عذر لهم .

قال القاضي أبو محمد وعلى هذا التأويل يختلط المتعذرون وقد قدمنا أن فيهم مؤمنين كالمستأذنين وهم لا يؤمنون بالله واليوم الآخر والأول أصوب والله أعلم .

وأدخل الطبري أيضا في تفسير هذه الآية عن قتادة أن هذه الآية نزلت بعدها الآية الأخرى في سورة النور " فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم " .

قال القاضي أبو محمد وهذا غلط لأن آية النور نزلت سنة أربع من الهجرة في غزوة الخندق في استئذان بعض المؤمنين رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض شأنهم في بيوتهم في بعض الأوقات فأباح الله له أن يأذن فتباينت الآيتان في الوقت والمعنى وقوله " لا يستأذنك " الآية نفي عن المؤمنين ان يستأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في التخلف دون عذر كما فعل الصنف المذكور من المنافقين وقوله " أن يجاهدوا " يحتمل أن تكون " أن " في موضع نصب على معنى لا يستأذنون في التخلف كراهية أن يجاهدوا قال سيبويه ويحتمل أن تكون في موضع خفض .

قال القاضي أبو محمد على معنى لا يحتاجون إلا أن يستأذنوا في أن يجاهدوا بل يمضون قدما أي فهم أحرى ألا

---

(١) المحرر الوجيز . موافق للمطبوع، ٤٢/٣

يستأذنوا في التخلف ثم أخبر بعلمه تعالى " بالمتقين " وفي ذلك تعيير للمنافقين وطعن عليهم بين .

قوله عز وجل

التوبة ٤٥ – ٤٧

(١) ".

"ومن الآخر قوله عز وجل " سنفرغ لكم أيها الثقلان " وقرأ الأعمش فنذر الذين لا يرجون لقاءنا و " يرجون " في هذا الموضع على بابها والمراد الذين لا يؤمنون بالبعث فهم لا يرجون لقاء الله والرجاء مقترن أبدا بخوف والطغيان الغلو في الأمر وتجاوز الحد والعمه الخبط في ضلال فهذه الآية نزلت ذامة لخلق ذميم هو في الناس يدعون في الخير فيريدون تعجيل الإجابة فيحملهم أحيانا سوء الخلق على الدعاء في الشر فلو عجل لهم لهلكوا وقوله تعالى " وإذا مس الإنسان الضر " الآية هذه الآية أيضا **عتاب** على سوء الخلق من بعض الناس ومضمنه النهي عن مثل هذا والأمر بالتسليم إلى الله تعالى والضراعة إليه في كل حال والعلم بأن الخير والشر منه لا رب غيره وقوله " لجنبه " في موضع حال كأنه قال مضطجعا ويجوز أن يكون حالا من الإنسان والعامل فيه " مس " ويجوز أن يكون حالا من ضمير الفاعل في " دعانا " والعامل فيه دعا و ه ما معنيان متباينان و " الضر " لفظ لجميع الأمراض والرزايا في النفس والمال والأحبة هذا قول اللغويين وقيل هو مختص برازيا البدن الهزال والمرض وقوله " مر " يقتضي أن نزولها في الكفار ثم هي بعد تتناول كل من دخل تحت معناها من كافر أو عاص فمعنى الآية " مر " في إشراكه بالله وقلة توكله عليه وقوله " زين " إن قدرناه من الله تعالى فهو خلقه الكفر لهم واختراعه في نفوسهم صحبة أعمالهم الفاسدة ومثابرتهم عليها وإن قدرنا ذلك من الشيطان فهو بمعنى الوسوسة والمخادعة ولفظة التزيين قد جاءت في القرآن بهذين المعنيين من فعل الله تعالى ومرة من فعل الشياطين .

قوله عز وجل

يونس ١٣ – ١٥

هذه

الآية وعيد للكفار وضرب أمثال لهم أي كما فعل هؤلاء فعلكم فكذلك يفعل بكم ما فعل بهم

١١٠

(٢) ".

"وقالوا في قوله عز وجل " فخانتاهما " إن الواحدة كانت تقول للناس هو مجنون والأخرى كانت تنبه على الأضياف وأما غير هذا فلا وهذه منازع ابن عباس وحججه وهو

قوله وقول الجمهور من الناس .

---

(١) المحرر الوجيز . موافق للمطبوع، ٤٣/٣

(٢) المحرر الوجيز . موافق للمطبوع، ١٢٤/٣

وقرأ ابن أبي مليكة فلا تسلني بتخفيف النون وإثبات الياء وسكون اللام دون همز .
وقرأت فرقة بتخفيف النون وإسقاط الياء وبالهمز فلا تسألن وقرأ أبو جعفر وشيبة بكسر النون وشدها والهمز وإثبات الياء فلا تسألني وقرأ نافع ذلك دون ياء فلا تسألن وقرأ ابن كثير وابن عامر فلا تسألن بفتح النون المشددة وهي قراءة ابن عباس وقرأ أبو عمرو وعاصم وحمزة والكسائي فلا تسلن خفيفة النون ساكنة اللام وكان أبو عمرو يثبت الياء في الوصل وحذفها عاصم وحمزة في الوصل والوقف .
ومعنى قوله " فلا تسألني ما ليس لك به علم " أي إذ وعدتك فاعلم يقينا أنه لا خلف في الوعد فإذ رأيت ولدك لم يحمل فكان الواجب عليك أن تقف وتعلم أن ذلك ہو بحق واجب عند الله .
قال القاضي أبو محمد ولكن نوحا عليه السلام حملته شفقة النبوة وسجية البشر على التعرض
١٧٨
لنفحات الرحمة والتذكير وعلى هذا القدر وقع **عتابه** ولذلك جاء بتلطف وترفيع في قوله " إني أعظك أن تكون من الجاهلين " وقد قال الله لمحمد صلى الله عليه وسلم " فلا تكونن " وذلك هنا بحسب الأمر الذي عوتب فيه وعظمته فإنه لضيق صدره بتكاليف النبوة وإلا فمتقرر أن محمدا صلى الله عليه وسلم أفضل البشر وأولاهم بلين المخاطبة ولكن هذا بحسب الأمرين لا بحسب النبيين .
وقال قوم إنما وقر نوح لسنه .
وقال قوم إنما حمل اللفظ على محمد صلى الله عليه وسلم كما يحمل الإنسان على المختص به الحبيب إليه .
قال القاضي أبو محمد وهذا كله ضعيف ويحتمل قوله " فلا تسألني ما ليس لك به علم " أي لا تطلب مني أمرا لا تعلم المصلحة فيه علم يقين ونحا إلى هذا أبو علي الفارسي وقال إن " به " يجوز أن يتعلق بلفظة " علم " كما قال الشاعر
(كان جزائي بالعصا أن أجلدا
) " الرجز "
ويجوز أن يكون " به " بمنزلة فيه فتتعلق الباء بالمستقر .
قال القاضي أبو محمد واختلاف هذين الوجهين إنما هو لفظي والمعنى في الآية واحد وروي أن هذا الابن إنما كان ربيبه وهذا ضعيف وحكى الطبري عن ابن زيد أن معنى قوله " إني أعظك أن تكون من الجاهلين " في أن تعتقد أني لا أفي لك بوعد وعدتك به .
قال القاضي أبو محمد وهذا تأويل بشع وليس في الألفاظ ما يقتضي أن نوحا اعتقد هذا وعياذا بالله وغاية ما وقع لنوح عليه السلام أن رأي ترك ابنه معارضا للوعد فذكر به ودعا بحسب الشفقة ليكشف له الوجه الذي استوجب به ابنه الترك في الغرقى .
قوله عز وجل

". (١)

"هذه الآية فيها موادعة نسختها آية السيف والمعنى إن أعرضوا فلست بقادر على خلق الإيمان في قلوبهم وإنما عليك أن تبين وتبلغ أمر الله ونهيه ثم قرعهم ووبخهم بأنهم يعرفون نعمة الله في هذه الأشياء المذكورة ويقرون أنها من عنده ثم يكفرون به تعالى وذلك فعل المنكر للنعمة الجاحد لها هذا قول مجاهد فسماهم منكرين للنعمة تجوزا إذ كانت لهم أفعال المنكر من الكفر برب النعمة وتشريكهم في النعمة الأوثان على وجه ما وهو ما كانوا يعتقدون للأوثان من الأفعال من الضر والنفع وقال السدي النعمة ها هنا محمد صلى الله عليه وسلم ووصفهم تعالى بأنهم يعرفون بمعجزاته وآيات نبوته وينكرون ذلك بالتكذيب ورجحه الطبري ثم حكم على أكثرهم بالكفر وهم أهل مكة وذلك أنه كان فيهم من قد داخله الإسلام ومن أسلم بعد ذلك وقوله " ويوم نبعث

" الآية وعيد والتقدير واذكر يوم نبعث ويرد

٤١٤

" شهيدا " على كفرهم وإيمانهم ف) (شهيد)) بمعنى شاهد وذكر الطبري أن المعنى ثم ينكرونها اليوم " ويوم نبعث من كل أمة شهيد " أي ينكرون كفرهم فيكذبهم الشهيد وقوله " ثم لا يؤذن " أي لا يؤذن لهم في المعذرة وهذا في موطن دون موطن لأن في القرآن أن "كل نفس تأتي تجادل عن نفسها " ويترتب أن تجيء كل نفس تجادل فإذا استقرت أقوالهم بعث الله الشهود من الأمم فتكذب الكفار فلم يؤذن للمكذبين بعد في معذرة و " يستعتبون " معناه يعتبون يقال أعتبت الرجل إذا كفيته ما عتب فيه كما تقول أشكيته إذاكفيته ما شكا فكأنه قال ولا هم يكفون ما يعتبون فيه ويشق عليهم والعرب تقول استفعل بمعنى أفعل تقول أدنيت الرجل واستدنيته وقال قوم معناه لا يسألون أن يرجعوا عما كانوا عليه في الدنيا .

قال القاضي أبو محمد فهذا استعتاب معناه طلب عتابهم وقال الطبري معنى " يستعتبون " يعطون الرجوع إلى الدنيا فيقع منهم توبة عمل .

وقوله " وإذا رأى الذين ظلموا العذاب " الآية أخبر الله تعالى في هذه الآية أن هؤلاء الكفرة الظالمين في كفرهم إذا أراهم الله عذاب الله وشارفوها وتحققوا كنه شدتها فإن ذلك الأمر الهائل الذي نزل بهم لا يخفف بوجه ولا يؤخر عنهم وإنما مقصد الآية الفرق بين ما يحل بهم وبين رزايا الدنيا فإن الإنسان لا يتوقع أمرا من خطوب الدنيا إلا وله طمع في أن يتأخر عنه وفي أن يجيئه في أخف ما يتوهم برجائه وكذلك متى حل به كان طامعا في أن يخف وقد يقع ذلك في خطوب الدنيا كثيرا فأخبر الله تعالى أن عذاب الآخرة إذا عاينه الكافر لا طماعية فيه بتخفيف ولا بتأخير .

قوله عز وجل

---

(١) المحرر الوجيز . موافق للمطبوع، ١٩٣/٣

." (١)

"وقرأ ابن مسعود والأعمش وما أوتوا ورواها ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم وقرا الجمهور وما أوتيتم واختلف فيمن خوطب بذلك فقالت فرقة السائلون فقط ترجم الطبري بذلك ثم أدخل تحت الترجمة عن قتادة أنهم اليهود وقال قوم المراد اليهود بجملتهم وعلى هذا هي قراءة ابن مسعود وقالت فرقة العالم كله وهذا هو الصحيح لأن قول الله له " قل الروح " إنما هو أمر بالقول لجميع العالم إذ كذلك هي أقواله كلها وعلى ذلك تمت الآية من مخاطبة الكل ويحتمل أيضا أن تكون مخاطبة من الله للنبي ولجميع الناس ويتصف ما عند جميع الناس من العلم بالقلة بإضافته إلى علم الله عز وجل الذي هو بهذه الأمور التي عندنا من علمها طرف يسير جدا كما قال الخضر عليه السلام لموسى عليه السلام ما نقص علمي وعلمك وعلم الخلائق من علم الله إلا كما نقص هذا العصفور من البحر وأراد الخضر علم الله تعالى بهذه الموجودات التي عند ا لبشر من علمها طرف يسير نسبة إلى ما يخفى عليهم نسبة النقطة إلى البحر وأما علم الله على الإطلاق فغير متناه ويحتمل أن يكون التجوز في قول الخضر كما نقص هذا العصفور أي إما لا ينقص علمنا شيئا من علم الله تعالى على الإطلاق ثم مثل بنقرة العصفور في عدم النقص إذ نقصه غير محسوس فكأنه معدوم فهذا احتمال ولكن فيه نظر وقد قالت اليهود لرسول الله صلى الله عليه وسلم كيف لم نؤت من
العلم إلا قليلا وقد أوتينا التوراة وهي الحكمة ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرافعارضهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بعلم الله فغلبوا وقد نص رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله في بعض الأحاديث كلا يعني أن المراد ب " أوتيتم " جميع العالم وذلك أن يهود قالت له نحن عنيت أم قومك فقال كلا وفي هذا المعني نزلت " ولو أنما في الأرض من شجرة أقلام " حكى ذلك الطبري رحمه الله وقوله تعالى " ولئن شئنا " الآية فيها شدة على النبي صلى الله عليه وسلم وهي عتاب على قوله غدا أعلمكم فأمر بأن يقول إن الروح من أمر ربه فيذعن بالتسليم لله في أنه يعلم بما شاء ويمسك عن عباده ما شاء ثم قيل له " وما أوتيتم " أنت يا محمد وجميع الخلائق " من العلم إلا قليلا " فالله يعلم من علمه بماء شاء ويدع ما شاء ولئن شاء لذهب بالوحي الذي أتاك ثم لا ناصر لك منه أي فليس بعظيم أن لا تجيء بتفسير في الروح الذي أردت أن تفسره للناس ووعدتهم بذلك وروى ابن مسعود أنه ستخرج ريح حمراء من قبل الشام فتزيل القرآن من المصاحف ومن الصدور وتذهب به ثم يتلو هذه الآية .
أراد ابن مسعود بتلاوة الآية أن يبدي أن الأمر جائز الوقوع ليظهر مصداق خبره من كتاب الله تعالى .
." (٢)

"كان حفص عن عاصم يسكت عند قوله " عوجا " سكتة خفيفة وعند " مرقدنا " في سورة يس وسبب هذه البدأة في هذه السورة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما سألته قريش عن المسائل الثلاث الروح والكهف وذي

---

(١) المحرر الوجيز . موافق للمطبوع، ٤١٧/٣

(٢) المحرر الوجيز . موافق للمطبوع، ٥٠١/٣

القرنين حسبما أمرتهم بهن يهود قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم غدا أخبركم بجواب سؤالكم ولم يقل إن شاء الله فعاتبه الله عز وجل بأن استمسك الوحي عنه خمسة عشر يوما فأرجف به كفار قريش وقالوا إن محمدا قد تركه ربه الذي كان يأتيه من الجن وقال بعضهم قد عجز عن أكاذيبه إلى غير ذلك فشق ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم وبلغ منه فلما انقضى الأمد الذي أراد الله تعالى **عتاب** محمد إليه جاءه الوحي من الله بجواب الأسئلة وغير ذلك فافتتح الوحي بحمد الله " الذي أنزل على عبده الكتاب " أي بزعمكم أنتم يا قريش وهذا كما تقول لرجل يحب مساءتك فلا يرى إلا نعمتك الحمد لله الذي أنعم علي وفعل بي كذا على جهة النقمة عليه و " الكتاب " هو القرآن وقوله " ولم يجعل له عوجا " أي لم يزله عن طريق الاستقامة والعوج فقد الاستقامة وهو بكسر العين في الأمور والطرق وما لا يحس متنصبا شخصا والعوج بفتح العين في الأشخاص كالعصا والحائط ونحوه وقال ابن عباس معناه ولم يجعله مخلوقا وقوله " ولم يجعل له

٤٩٥

عوجا) يعم هذا وجميع ما ذكره الناس من أنه لا تناقض فيه ومن أنه لا خلل ولا اختلاف فيه .

وقوله " قيما " نصب على الحال من " الكتاب " فهو بمعنى التقديم مؤخر في اللفظ أي أنزل الكتاب قيما واعترض بين الحال وذي الحال قوله " ولم يجعل له عوجا " وذكر الطبري هذا التأويل عن ابن عباس ويجوز أن يكون منصوبا بفعل مضمر تقديره أنزله أو جعله " قيما " وفي بعض مصاحف الصحابة ولم يجعل له عوجا لكن جعله قيما قاله قتادة ومعنى قيم مستقيم هذا قول ابن عباس والضحاك وقيل معناه أنه قيم على سائر الكتب بتصديقها ذكره المهدوي وهذا محتمل وليس من الاستقامة ويصح أن يكون معنى قيم قيامه بأمر الله عز وجل على العالم وهذا المعنى يؤيده ما بعده من النذارة والبشارة اللذين عما العالم .

". (١)

"قال القاضي أبو محمد وإنما استسهلت ذكر هذا مع بعده لأنه عجب يتخلد ذكره ما شاء الله عز وجل وقوله " واتل ما أوحي إليك " الآية من قرأ ولا تشرك بالنهي عطف قوله " واتل " عليه ومن قرأ ولا يشرك جعل هذا أمرا بدئ به كلام آخر ليس من الأول وكأن هذه الآية في معنى **الإعتاب** للنبي صلى الله عليه وسلم عقب **العتاب** الذي كان تركه الاستثناء كأنه يقول هذه أجوبة الأسئلة فاتل وحي الله إليك أي اتبع في أعمالك وقيل اسرد بتلاوتك ما أوحي إليك من كتاب ربك لا نقض في قوله " ولا مبدل لكلماته " وليس لك سواه جانب تميل إليه وتستند والملتحد الجانب الذي يمال إليه ومعنى اللحد كأنه الميل في أحد شقي القبر ومنه الإلحاد في الحق وهو الميل عن الحق ولا يفسر قوله " لا مبدل لكلماته " أمر النسخ لأن المعنى إما أن يكون لا مبدل سواه فتبقى الكلمات على الإطلاق وإما أن يكون أراد من الكلمات الخبر ونحوه مما لا يدخله نسخ والإجماع أن الذي لا يتبدل هو الكلام القائم بالذات الذي بحسبه يجري القدر .

---

(١) المحرر الوجيز . موافق للمطبوع، ٥١٤/٣

فأما الكتب المنزلة فمذهب ابن عباس أنها لا تبدل إلا بالتأويل .
٥١٢
الكهف ٢٨ - ٢٩
سبب هذه الآية أن عظماء الكفار قيل من أهل مكة وقيل عيينة بن حصن وأصحابه والأول أصوب لأن السورة مكية قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم لو أبعدت هؤلاء عن نفسك لجالسناك وصحبناك يريدون عمار بن ياسر وصهيب بن سنان وسلمان الفارسي وابن مسعود وغيرهم من الفقراء كبلال ونحوه وقالوا إن ريح جباتهم تؤذينا فنزلت الآية بسبب ذلك وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج إليهم وجلس بينهم وقال الحمد لله الذي جعل من أمتي من أمرت أن أصبر نفسي معه وروي أنه قال لهم رحبا بالذي عاتبني فيهم ربي وروى سلمان أن المؤلفة قلوبهم عيينة بن حصن والأقرع بن حابس وذويهم قالوا ما ذكر فنزلت الآية في ذلك .
قال القاضي أبو محمد فالآية على هذا مدنية ويشبه أن تكون الآية مكية وفعل المؤلفة قريش فرد بالآية عليهم " واصبر " معناه احبس ومنه المصبورة التي جاء فيها الحديث نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن صبر الحيوان أي حبسه للرمي ونحوه وقرأ الجمهور بالغداة وقرأ ابن عامر بالغدوة وهي قراءة نصر بن عاصم ومالك بن دينار وأبي عبد الرحمن والحسن وهي في الخط على القراءتين بالواو فمن يقرأها بالغداة يكتبها بالغدوة كما تكتب الصلوة والزكوة وفي قراءة من قرأ بالغدوة ضعف لأن غدوة اسم معروف فحقه أن لا تدخل عليه الألف واللام ووجه القراءة بذلك أنهم ألحقوها ضربا من التنكير إذ قالوا حيث غدوة يريدون الغدوات فحسن دخول الألف واللام كقولهم الفينة وفينة اسم معرف والإشارة بقوله " يدعون ربهم بالغداة والعشي " إلى الصلوات الخمس .
." (١)

"فأخذ جماعة صفوان ولببوه وجاؤوا به رسول الله صلى الله عليه وسلم فأهدر رسول الله صلى الله عليه وسلم جرح حسان أو استوهبه إياه وهذا يقتضي أن حسان ممن تولى الكبر وقال قوم الإشارة ب " الذي " إلى البادي بهذه الفرية والذي اختلقها ف " لكل " واحد " منهم ما اكتسب " وللبادي المفتري عذاب عظيم وهو على هذا غير معين وهذا قول الضحاك والحسن وقال أبو زيد وغيره هو عبد الله بن أبي وقرأ
١٧٠
جمهور الناس كبره بكسر الكاف وقرأ حميد والأعرج ويعقوب والزهري وأبو رجاء والأعمش وابن أبي عبلة كبره بضم الكاف وهما مصدران من كبر الشيء عظم ولكن استعملت العرب ضم الكاف في السن تقول هذا كبر القوم أي كبيرهم سنا أو مكانة ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم في قصة حويصة ومحيصة الكبر الكبر ومن استعماله في المعنى الثاني قول ابن الحطيم . " المنسرح "
(تنام عن كبر شأنها فإذا

---

(١) المحرر الوجيز . موافق للمطبوع، ٥٣٦/٣

قامت رويدا تكاد تنقصف)

قوله عز وجل

سورة النور الآية ١٢١٣

الخطاب بهاتين الآيتين لجميع المؤمنين حاشى من تولى الكبر ويحتمل دخولهم في الخطاب وفي هذا **عتاب** للمؤمنين أي كان الإنكار واجبا عليهم والمعنى أنه كان ينبغي ان يقيس فضلاء المؤمنين والمؤمنات الأمر على انفسهم وإذا كان ذلك يبعد فيهم فكانوا يقضون بأنه من صفوان وعائشة أبعد لفضلهما وروي ان هذا النظر السديد وقع من أبي ايوب الأنصاري وامراته وذلك انه دخل عليها فقالت له يا أبا ايوب أسمعت ما قيل فقال نعم وذلك الكذب اكنت أنت يا ام ايوب تفعلين ذلك قالت لا والله قال فعائشة والله افضل منك قالت أم ايوب نعم فهذا الفعل ونحوه هو الذي عاتب الله المؤمنين إذ لم يفعله جميعهم والضمير في قوله " جاؤوا " لأولئك الذين تولوا الكبر وإذا كانوا عند الله كذبة فهي الحقيقة فيهم وعند هذا حدوا ولم يرو في شهير الدواوين أن عبد الله بن أبي حد ويشبه ذلك لأنه لم تقم عليه بالمقالة بينة لنفاقه وتستره وإنما كان يخوض فيه مع من يذيعه ولا يسأل عن شهادته كما قال عروة أخبرت أنه كان يقره ويستمعه ويستوشيه .

قال الفقيه الإمام القاضي ولكن النبي عليه السلام استعذر منه على المنبر ووقذه بالقول ووقع في أمره بين الأوس والخزرج ما هو مطول في مسلم في جملة حديث الإفك .

قوله عز وجل

سورة النور الآية ١٤١٨

هذا **عتاب** من الله تعالى بليغ ذكر أن حالتهم التي وقع فيها جميعهم من تعاطيهم الحديث وإن لم

١٧١

". (١)

"يكن المخبر ولا المخبر مصدقين ولكن نفس التعاطي والتلقي من لسان إلى لسان والإفاضة في الحديث هو الذي وقع **العتاب** فيه وقرأ محمد بن السميفع إذ تلقونه بضم التاء وسكون اللام وضم القاف من لإلقاء وهذه قراءة بينة وقرأ أبي بن كعب وابن مسعود إذ تتلقونه بضم التاء من التلقي بتاءين وقرأ جمهور السبعة إذ تلقونه بحذف التاء الواحدة وإظهار الذال دون إدغام وهو أيضا من التلقي وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي أتلقونه بإدغام الذال في التاء وقرأ ابن كثير إذ تلقونه بإظهار الذال وإدغام التاء في التاء وهذه قراءة قلقة لأنها تقتضي اجتماع ساكنين وليس كالإدغام في قراءة من قرأ فلا تناجوا ولا تنابزوا لأن لدونه الألف الساكنة وكونها حرف لين حسنت هنالك ما لا يحسن مع سكون الدال وقرأ ابن يعمر وعائشة رضي الله عنها وهي أعلم الناس بهذا الأمر إذ تلقونه بفتح التاء وكسر اللام وضم القاف ومعنى هذه القراءة من قول العرب ولق الرجل ولقا إذا كذب قال ابن سيده في المحكم قرىء إذ تلقونه وحكى أهل اللغة أنها من ولق

---

(١) المحرر الوجيز . موافق للمطبوع، ٤/٢٠٦

إذا كذب فجاؤوا بالمتعدي شاهدا على غير المتعدي وعندي أنه أراد إذ تلقون فيه فحذف حرف الجر ووصل بالضمير وحكى الطبري وغيره أن هذه اللفظة مأخوذة من الولق الذي هو إسراعك بالشيء بعد الشيء كعدو في إثر عدو وكلام في إثر كلام يقال ولق في سيره إذا أسرع ومنه قول الشاعر :

(جاءت به عنس من الشام تلق)

وقوله تعالى " وتقولون بأفواهكم " مبالغة وإلزام وتأكيد

والضمير في قوله " وتحسبونه " للحديث والخوض فيه والإذاعة له وقوله تعالى " ولولا إذ سمعتموه " إلى " حكيم " **عتاب** لجميع المؤمنين أي كان ينبغي عليكم أن تنكروه ولا يتعاطاه بعضكم من بعض على جهة الحكاية والنقل وأن تنزهوا الله تعالى عن أن يقع هذا من زوج نبيه عليه السلام وأن تحكموا على هذه المقالة بأنها " بهتان " وحقيقة البهتان أن يقال في الإنسان ما ليس فيه والغيبة أن يقال في الإنسان

ما فيه ثم وعظهم تعالى في العودة إلى مثل هذه الحالة و " أن " مفعول من أجله بتقدير كراهية أن ونحوه وقوله " إن كنتم مؤمنين " توقيف وتأكيد كما تقول ينبغي لك أن تفعل كذا وكذا إن كنت رجلا وسائر الآية بين و " عليم حكيم " صفتان تقتضيهما الآية .

قوله عز وجل

سورة النور الآية ١٩٢٠

". (١)

"وقال الشعبي كانت زينب تقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم إني لأدل عليك بثلاث ما من نسائك امرأة تدل بهن أن جدي وجدك واحد وأن الله أنكحك إياي من السماء وأن السفير في ذلك جبريل

قوله عز وجل من سورة الأحزاب آية ٣٨ - ٤٤

هذه مخاطبة من الله تعالى لجميع الأمة أعلمهم أنه لا حرج على رسول الله صلى الله عليه وسلم في نيل ما فرض الله له

وأباحه من تزويج زينب بعد زيد ثم أعلم أن هذا ونحوه هو السنن الأقدم في الأنبياء من أن ينالوا ما أحل الله لهم وحكى الثعلبي عن مقاتل وابن الكلبي أن الإشارة إلى داود عليه السلام حيث جمع الله بينه وبين من فتن بها و " سنة " نصب على المصدر أو على إضمار فعل تقديره الزم أو

٣٨٨

نحوه أو على الإغراء كأنه قال فعليه سنة الله و " الذين خلوا " هم الأنبياء بدليل وصفهم بعد بقوله " الذين يبلغون رسالات الله " و " أمر الله " في الآية أي مأمورات الله والكائنات عن أمره فهي مقدورة وقوله " قدرا " فيه حذف مضاف أي ذا قدر وقرأ ابن مسعود الذين بلغوا رسالات الله وقوله " ولا يخشون أحدا إلا الله " تعريض **بالعتاب** الأول في خشية

---

(١) المحرر الوجيز . موافق للمطبوع، ٢٠٧/٤

النبي عليه السلام الناس ثم رد الأمر كله إلى الله وأنه المحاسب على جميع الأعمال والمعتقدات " وكفى " به لا إله إلا هو ويحتمل أن يكون " حسيبا " بمعنى محسب أي كافيا وقوله تعالى " ما كان محمدا أبا أحد من رجالكم " إلى قوله تعالى "كريما " أذهب الله تعالى في هذه الآية ما وقع في نفوس منافقين وغيرهم من نقد تزويج رسول الله صلى الله عليه وسلم زينب زوجة دعيه زيد بن حارثة لأنهم كانوا استعظموا أن تزوج زوجة ابنه فنفى القرآن تلك البنوة وأعلم أن محمدا لم يكن في حقيقة أمره أبا أحد من رجال المعاصرين له ولم يقصد بهذه الآية أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن له ولد فيحتاج إلى الاحتجاج بأمر بنيه بأنهم كانوا ماتوا ولا في أمر الحسن والحسين بأنهما كانا طفلين ومن احتج بذلك فإنه تأول نفي البنوة عنه بهذه الآية على غير ما قصد بها وقرأ ابن أبي عبلة وبعض الناس ولكن رسول الله بالرفع على معنى هو رسول الله وقرأ نافع وأبو عمرو وعاصم والأعرج وعيسى رسول الله بالنصب على العطف على " أبا " وهؤلاء قرؤوا ولكن بالتخفيف وقرأت فرقة ولكن بشد النون ونصب رسول على أنه اسم لكن والخبر محذوف وقرأ عاصم وحده والحسن والشعبي والأعرج بخلاف وخاتم بفتح التاء بمعنى أنهم به ختموا فهو كالخاتم والطابع لهم وقرأ الباقون والجمهور خاتم بكسر التاء بمعنى أنه ختمهم أي جاء آخرهم وروت عائشة أنه عليه السلام قال أنا خاتم الأنبياء بفتح التاء وروي عنه عليه السلام أنه قال أنا خاتم ألف نبي وهذه الألفاظ عند جماعة

". (١)

"بكسر اللام وقطع الألف وهذان المثلان اللذان للكفار والمؤمنين معناهما ان من كفر لا يغني عنه شيء ولا ينفعه وزر ولو كان متعلقا بأقوى الأسباب وان من آمن لا يدفعه دافع عن رضوان الله تعالى ولو كان في أسوأ منشأ واخسر حال

وقال بعض الناس إن في المثلين عبرة لزوجات النبي محمد عليه السلام حين تقدم عتابهن وفي هذا بعد لأن النص انه للكفار يبعد هذا

واختلف الناس في خيانة هاتين المرأتين فقال ابن عباس وغيره خانتا في الكفر وفي ان امراة نوح كانت تقول للناس إنه مجنون وان امرأة لوط كانت تنم الى قومه متى ورده ضيف فتخبر به وقال ابن عباس وما بغت زوجة نبي قط ولا ابتلي الأنبياء في نسائهم بهذا وقال الحسن في كتاب النقاش خانتاهما بالكفر والزنا وغيره وقرا الجمهور (يغنيا) بالياء وقرا مبشر بن عبيد (تغنيا) بالتاء من فوق

قوله عز وجل

سورة التحريم ١١ - ١٢

" امراة فرعون " اسمها آسية وقولها " وعمله " معناه وكفره وما هو عليه من الضلالة وهذا قول كافة المفسرين وقال

---

(١) المحرر الوجيز . موافق للمطبوع، ٤/٤٤٨

جمهور من المفسرين معناه من ظلمه وعقابه وتعذيبه لي وروي في هذا ان فرعون اتصل به إيمانها بموسى وأنها تحب ان يغلب فبعث اليها قوما وقال إن رأيتم منها ذلك فابطحوها في الارض ووتدوا يديها ورجليها وألقوا عليها أعظم حجر وإن لم تروا ذلك فهي امراتي

قال فذهب القوم فلما احست بالشر منهم دعت بهذه الدعوات فقبض الله روحها وصنع أولئك امر الحجر بشخص لا روح فيه وروي في قصصها غير هذا مما يطول ذكره فاختصرته لعدم صحته

وقال آخرون في كتاب النقاش " وعمله "كناية عن الوطء والمضاجعة

وهذا ضعيف

واختلف الناس في الفرج الذي احصنت مريم فقال الجمهور هو فرج الدرع الذي كان عليها وانها كانت صينة وإن جبريل عليه السلام نفخ فيها الروح من جيب الدرع وقال قوم من المتأولين هو الفرج الجارحة فلغظة " أحصنت " إذا كان فرج الجارحة متمكنا حقيقة والإحصان صونه وفيه هي مستعملة

وإذا قدرنا فرج الدرع فلفظ " أحصنت " فيه مستعارة من حيث صانته ومن حيث صار مسلكا لولدها وقوله تعالى " فنفخنا " عبارة عن فعل جبريل حقيقة وإن ذهب ذاهب الى ان النفخ فعل الله تعالى فهو عبارة عن خلقه واختراعه الولد في بطنها وشبه ذلك بالنفخ الذي من شأنه ان يسير في الشيء برفق ولطف

وقوله تعالى " من روحنا " إضافة المخلوق إلى خالق ومملوك الى مالك كما تقول بيت الله وناقة الله وكذلك الروح الجنس كله هو روح الله

وقرا الجمهور (وصدقت) بشد الدال وقرا أبو مجلز

٣٣٦

". (١)

" صفحة رقم ١٧٠

قوله عز وجل :) فاصفح الصفح الجميل (فيه أربعة أوجه :

أحدها : أنه الإعراض من غير جزع .

الثاني : أنه صفح المنكر عليهم بكفرهم ، المقيم على وعظهم ، قاله ابن بحر .

الثالث : أنه العفو عنهم بغير توبيخ ولا تعنيف .

الرابع : أنه الرضا بغير **عتاب** ، قاله علي بن أبي طالب .

وفيه قولان :

---

(١) المحرر الوجيز . موافق للمطبوع، ٣٠٩/٥

أحدهما : أنه أمر بالصفح عنهم في حق الله تعالى ، ثم نسخ بالسيف ، فقال لهم النبي (صلى الله عليه وسلم) بعد ذلك ، (لقد أتيتكم بالذبح ، وبعثت بالحصاد ولم أبعث بالزراعة) قاله عكرمة ومجاهد .

الثاني : أنه أمره بالصفح في حق نفسه فيما بينه وبينهم ، قاله الحسن .

(الحجر : (٨٧ - ٨٨) ولقد آتيناك سبعا . . . . .

" ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم ولا تحزن عليهم واخفض جناحك للمؤمنين " (قوله عز وجل :) ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم (فيه خمسة أقاويل :

أحدها : أن السبع المثاني هي الفاتحة ، سميت بذلك لأنها تثنى كلما قرىء القرآن وصلي ، قاله الربيع بن أنس وأبو العالية والحسن . وقيل : لأنها يثني فيها الرحمن الرحيم ، ومنه قول الشاعر :

نشدتكم بمنزل القرآن

أم الكتاب السبع من مثاني

ثنين من آي من القرآن

والسبع سبع الطول الدواني

الثاني : أنها السبع الطول : البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف ويونس ، قاله ابن مسعود وابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد .." (١)

" صفحة رقم ٢٦٩

الثالث : لأن الملائكة تعرفهم بسيماهم فلا تسأل عنهم ، قاله مجاهد .

الرابع : أنهم لا يسألون سؤال **استعتاب** : لم لم يؤمنوا ، قاله ابن بحر كما قال

) ولا هم يستعتبون (" [الروم : ٥٧] .

(القصص : (٧٩ - ٨٠) فخرج على قومه . . . . .

" فخرج على قومه في زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظ عظيم وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ولا يلقاها إلا الصابرون " (قوله :) فخرج على قومه في زينته (فيه ثلاثة أقاويل

: أحدها : في حشمه ، قاله قتادة .

الثاني : في تبعه في سبعين ألفا عليهم المعصفرات وكان أول يوم رؤيت فيه المعصفرات قاله ابن زيد ، قال أبو لبابة : أول من صبغ بالسواد قارون .

الثالث : خرج في جوار بيض على بغال بيض بسروج من ذهب على قطف أرجوان ، قاله السدي .

) قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون (تمنوا ماله رغبة في الدنيا .

---

(١) النكت والعيون ـ موافق للمطبوع، ٣/١٧٠

) إنه لذو حظ عظيم (فيه وجهان

: أحدهما : لذو درجة عظيمة ، قاله الضحاك .

الثاني : لذو جد عظيم ، قاله السدي .

(القصص : (٨١ - ٨٢) فخسفنا به وبداره . . . . .

" فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر لولا أن من الله علينا لخسف بنا ويكأنه لا يفلح الكافرون " (." (١)

" صفحة رقم ١٧٧

نزلت في ثلاثة نفر تساروا فقالوا أترى الله يسمع إسرارنا ؟

قوله عز وجل :) وإن يستعتبوا فيما هم من المعتبين (فيه خمسة أوجه :

أحدها : معناه وإن يطلبوا الرضا فما هم بمرضى عنهم ، والمعتب : الذي قبل **عتابه** وأجيب إلى سؤاله ، قاله ابن عيسى .

الثاني : إن يستغيثوا فما هم من المغاثين .

الثالث : وإن يستقيلوا فما هم من المقالين .

الرابع : وإن يعتذروا فما هم من المعذورين .

الخامس : وإن يجزعوا فما هم من الآمنين .

قال ثعلب : يقال عتب إذا غضب ، وأعتب إذا رضي .

(فصلت : (٢٥ - ٢٩) وقيضنا لهم قرناء . . . . .

" وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم وحق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس إنهم كانوا خاسرين وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون فلنذيقن الذين كفروا عذابا شديدا ولنجزينهم أسوأ الذي كانوا يعملون ذلك جزاء أعداء الله النار لهم فيها دار الخلد جزاء بما كانوا بآياتنا يجحدون وقال الذين كفروا ربنا أرنا الذين أضلانا من الجن والإنس نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين " (قوله عز وجل :) وقيضنا لهم قرناء (فيه قولان :

أحدهما : هيأنا لهم شياطين ، قاله النقاش .

الثاني : خلينا بينهم وبين الشياطين ، قاله ابن عيسى .

) فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم (فيه أربعة تأويلات :." (٢)

---

(١) النكت والعيون . موافق للمطبوع، ٤/٢٦٩

(٢) النكت والعيون . موافق للمطبوع، ٥/١٧٧

"كيف جعلهم غضابا. ثم قال : فأعتبوا : أي أزيل غضبهم ، والغضب في معنى العتب ، والمعنى : لا يقال لهم أرضوا ربكم بتوبة وطاعة ، ومثله قوله تعالى : ﴿فاليوم لا يخرجون منها ولا هم يستعتبون﴾ . فإن قلت : كيف جعلوا غير مستعتبين في بعض الآيات ، وغير معتبين في بعضها ؟ وقوله : ﴿وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين﴾ ؟ قلت : أما كونهم غير مستعتبين ، فهذا معناه ؛ وأما كونهم غير معتبين ، فمعناه أنهم غير راضين بما هم فيه ؛ فشبهت حالهم بحال قوم جنى عليهم ، فهم عاتبون على الجاني ، غير راضين منه. فإن يستعتبوا الله : أي يسألوه إزالة ما هم فيه ، فما هم من المجابين إلى إزالته. وقال ابن عطية : هذا إخبار عن هول يوم القيامة ، وشدة أحواله على الكفرة في أنهم لا ينفعهم الاعتذار ، ولا يعطون عتبى ، وهو الرضا. ويستعتبون بمعنى : يعتبون ، كما تقول : يملك ويستملك. والباب في استفعل أنه طلب الشيء وليس هذا منه ، لأن المعنى لا يفسد إذا كان المفهوم منه ، ولا يطلب منهم عتبى. انتهى. فيكون استفعل في هذا بمعنى الفعل المجرد ، وهو عتب ، أي هم من الإهمال وعدم الالتفات إليهم بمنزلة من لا يؤهل للعتب. وقد قيل : لا يعاتبون على سيئاتهم ، بل يعاقبون. وقيل : لا يطلب لهم العتبى. وقيل : لا يلتمس منهم عمل وطاعة ، ولكن ضربنا إشارة إلى إزالة الأعذار والإتيان بما فوق الكفاية من الإنذار. وقال الزمخشري : وصفنا لهم كل صفة كأنها مثل في غرابتها ، وقصصنا عليهم كل قصة عجيبة الشأن ، كصفة المبعوثين يوم القيامة ، وما يقال لهم ، وما لا يقع من اعتذارهم ، ولا يسمع من **استعتابهم** ، ولكنهم لقسوة قلوبهم ومج أسماعهم حديث الآخرة ، إذا جئتهم بآية من آيات القرآن قالوا : أجئتنا بزور باطل ؟ انتهى. و﴿أنتم﴾ : خطاب للرسول والمؤمنين ، أي : تبطلون في دعواكم الحشر والجزاء. وقال أبو عبد الله الرازي : وفي توحيد الخطاب بقول : ﴿ولان جئتهم﴾ ، والجمع في قوله : ﴿إن أنتم﴾ لطيفة ، وهي : أن الله عز وجل قال : ﴿ولان جئتهم﴾ بكل آية جاءت بها الرسل ، فيمكن أن يجاوبوه بقوله : أنتم كلكم أيها المدعون الرسالة مبطلون.

﴿كذلك يطبع الله﴾ : أي مثل هذا الطبع يطبع الله ، أي يحتم على قلوب الجهلة الذين قد حتم الله عليهم الكفر في الأزل ، وأسند الطبع إلى ذاته تعالى ، إذ هو فاعل ذلك ومقدره. وقال الزمخشري : ومعنى طبع الله : صنع الألطاف التي يشرح لها الصدور حتى تقبل الحق ، ثم قال : فكأنه كذلك تصدأ القلوب وتقسو قلوب الجهلة حتى يسموا المحقين مبطلين ، وهم أعرف خلق الله في تلك الصفة. انتهى ، وهو على طريقة الاعتزال. ثم أمره تعالى بالصبر على عداوتهم ، وقواه بتحقق الوعد أنه لا بد من إنجازه والوفاء به ، ونهاه عن الاهتزاز بكلامهم والتحرك ، فإنهم لا يقين لهم ولا بصيرة. وقرأ ابن أبي إسحاق ، ويعقوب :

١٨١

ولا يستحقنك : بحاء مهملة وقاف ، من الاستحقاق ؛ والجمهور : بخاء معجمة وفاء ، من الاستخفاف ؛ وسكن النون ابن أبي عبلة ويعقوب ، والمعنى : لا يفتننك ويكونوا أحق بك من المؤمنين.

جزء : ٧ رقم الصفحة : ١٦٠." (١)

---

(١) تفسير البحر المحيط ـ موافق للمطبوع (دار الفكر)، /

"المغفرة ، ﴿فلن أكون﴾ إن عصمتني ﴿ظهيرا للمجرمين﴾ . وقيل : ﴿فلن أكون﴾ دعاء لا خبر ، ولن بمعنى لا في الدعاء ، والصحيح أن لن لا تكون في الدعاء ، وقد استدل على أن لن تكون في الدعاء بهذه الآية ، وبقول الشاعر :

لن تزالوا كذاكم ثم ما زلت لهم خالدا خلود الجبال

جزء : ٧ رقم الصفحة : ١٢٧

والمظاهرة ، إما بصحبته لفرعون وانتظامه في جملته وتكثير سواده حيث كان يركب بركوبه كالولد مع الوالد ، وكان يسمى ابن فرعون ، وإما أنه أدت المظاهرة إلى القتل الذي جرى على يده. وقيل : بما أنعمت علي من النبو ، فلن أستعملها إلا في مظاهرة أوليائك ، ولا أدع قبطيا يغلب إسرائيليا. واحتج أهل العلم بهذه الآية على منع معونة أهل الظلم وخدمتهم ، نص على ذلك عطاء بن أبي رباح وغيره. وقال رجل لعطاء : إن خي يضرب بعلمه ولا يعد ورزقه ، قال : فمن الرأس ، يعني من يكتب له ؟ قال : خالد بن عبد الله القسري ، قال : فأين قول موسى ؟ وتلا الآية : ﴿فأصبح فى المدينة خآافا﴾ من قبل القبطي أن يؤخذ به ، يترقب وقوع المكروه ، به أو الإخبار هل وقفوا على ما كان منه ؟ قيل : خائفا من أنه يترقب المغفرة. وقيل : خائفا يترقب نصرة ربه ، أو يترقب هداية قومه ، أو ينتظر أن يسلمه قومه. ﴿فإذا الذى استنصره بالامس﴾ : أي الإسرائيلي الذي كان قتل القبطي بسببه. وإذا هنا للمفاجأة ، وبالأمس يعني اليوم الذي قبل يوم الاستصراخ ، وهو معرب ، فحركة سينه حركة إعراب لأنه دخلته أل ، بخلاف حاله إذا عري منها ، فالحجاز تنبيه إذا كان معرفة ، وتميم تمنعه الصرف حالة الرفع فقط ، ومنهم من يمنعه الصرف مطلقا ، وقد يبنى مع أل على سبيل الندور. قال الشاعر :

وإني حسبت اليوم والأمس قبلهاإلى الليل حتى كادت الشمس تغرب

﴿يستصرخها﴾ : يصيح به مستغيثا من قبطي آخر ، ومنه قول الشاعر :

كنا إذا ما أتانا صارخ فزع كان الصراخ له قرع ارطنابيب

قال له موسى : الظاهر أن الضمير في له عائد على الذي ﴿إنك لغوى مبين﴾ لكونك كنت سببا في قتل القبطي بالأمس ، قال له ذلك على سبيل **العتاب** والتأنيب. وقيل : الضمير في له ، والخطاب للقبطي ، ودل عليه قوله : يستصرخه ، ولم يفهم الإسرائيلي أن الخطاب للقبطي. ﴿فلمآ أن أراد أن يبطش﴾ : الظاهر أن الضمير في أراد ويبطش هو لموسى. ﴿بالذى هو عدو لهما﴾ : أي للمستصرخ وموسى وهو القبطي يوهم الإسرائيلي أن قوله : ﴿إنك لغوى مبين﴾ هو على سبيل إرادة السوء به ، وظن أنه يسطو عليه. قال ، أي الإسرائيلي : ﴿قال ياموسى أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفسا بالامس﴾ ، دفعا لما ظنه من سطو موسى عليه ، وكان تعيين القائل القبطي قد خفي على الناس ، فانتشر في المدينة أن قاتل القبطي هو موسى ، ونمى ذلك إلى فرعون ، فأمر بقتل موسى. وقيل : الضمير في أراد ويبطش للإسرائيلي عند ذلك من موسى ، وخاطبه بما يقبح ، وأن بعد لما يطرد زيادتها. وقيل : لو إذا سبق قسم كقوله :

جزء : ٧ رقم الصفحة : ١٢٧

فأقسم أن لو التقينا وأنتملكان لكم يوم من الشر مظلم
وقرأ الجمهور : يبطش ، بكسر الطاء ؛ والحسن ، وأبو جعفر : بضمها. ﴿إن تريد إلا أن تكون جبارا فى الارض﴾ : وشأن الجبار أن يقتل بغير حق. وقال الشعبي : من قتل رجلين فهو جبار ، يعني بغير حق ، ولما أثبت له الجبروتية نفى عنه الصلاح. ﴿وجآء رجل من أقصا المدينة﴾ ، قيل : هو مؤمن آل فرعون ، وكان ابن عم فرعون. قال الكلبي : واسمه جبريل بن شمعون. وقال الضحاك : شمعون بن إسحاق. وقيل : هو غير مؤمن آل فرعون. ﴿يسعى ﴾ : يشتد في مشيه. ولما أمر فرعون بقتله ، خرج الجلاوزة
١١٠
من الشارع الأعظم ، فسلك هذا الرجل طريقا أقرب إلى موسى. ومن أقصى المدينة ، ويسعى : صفتان ، ويجوز أن يكون يسعى حالا ، ويجوز أن يتعلق من أقصى بجاء. قال الزمخشري : وإذا جعل ، يعني ، من أقصى حالا ، لجاء لم يجز في يسعى إلا الوصف. انتهى. يعني : أن رجلا يكون نكرة لم توصف ، فلا يجوز منها الحال ، وقد أجاز ذلك سيبويه في كتابه من غير وصف. قال : ﴿إن الملأ﴾ ، وهم وجوه أهل دولة فرعون ، ﴿يأتمرون﴾ : يتشاورون ، قال الشاعر ، وهو النمر بن تولب :
أرى الناس قد أحدثوا شيمةوفي كل حادثة يؤتمر
." (١)

"وروي عن أبي ربيعة ، عن البزي : تخفيف التاء كباقي القراء ، وهذه التاءات منها ما قبله متحرك ، نحو : ﴿فتفرق بكم﴾ ﴿فإذا هى تلقف﴾ ومنها ما قبله ساكن من حرف المد واللين نحو : ﴿ولا تيمموا ﴾ ومنها ما قبله ساكن غير حرف مدولين نحو : ﴿فإن تولوا ﴾ ﴿نارا تلظى ﴾ ﴿إذ تلقونه﴾ ﴿هل تربصون﴾ قال صاحب (الممتع) : لا يجيز سيبويه إسكان هذه التاء في يتكلمون ونحوه ، لأنها إذا سكنت احتيج لها ألف وصل ، وألف الوصل لا تلحق الفعل المضارع ، فإذا اتصلت بما قبلها جاز ، لأنه لا يحتاج إلى همزة وصل. إلا أن مثل ﴿أن تولوا ﴾ و﴿إذ تلقونه﴾ لا يجوز عند البصريين على حال لما في ذلك من الجمع بين الساكنين ، وليس الساكن الأول حرف مدولين. إنتهى كلامه.
وقراءة البزي ثابتة تلقتها الأمة بالقبول ، وليس العلم محصورا ولا
٣١٧
مقصورا على ما نقله وقاله البصريون ، فلا تنظر إلى قولهم : إن هذا لا يجوز.
وقرأ عبد الله : ولا تأمموا ، من : أممت ، أي : قصدت. وقرأ ابن عباس ، والزهري ، ومسلم بن جندب : تيمموا.
وحكى الطبري أن في قراءة عبد تالله ولا تأموا ، من : أممت ، أي : قصدت ، والخبيث والطيب صفتان غالبتان لا يذكر معهما الموصوف إلا قليلا ، ولذلك جاء : ﴿والطيبون للطيبات﴾ وجاء : ﴿والخبيثون للخبيثات﴾ وقال تعالى : ﴿ويحرم عليهم الخبا ئث﴾ وقال صلى الله عليه وسلم : "أعوذ بالله من الخبث والخبائث".

---

(١) تفسير البحر المحيط . موافق للمطبوع (دار الفكر)، /

ومنه متعلق بقوله : تنفقون ، والضمير في : منه ، عائد على الخبيث. و: تنفقون ، حال من الفاعل في : تيمموا ، قيل : وهي حال مقدرة ، لأن الإنفاق منه يقع بعد القصد إليه ، ويجوز أن يكون حالا من المفعول ، لأن في الكلام ضميرا يعود عليه ، وأجاز قوم أن يكون الكلام في قوله : الخبيث ، ثم ابتدأ خبرا آخر في وصف الخبيث ، فقال : تنفقون منه وأنتم لا تأخذونه إلا إذا أغمضتم ، أي تساهلتم ، كأن هذا المعنى **عتاب** للناس وتقريع ، وفيه تنبيه على أن المنهي عنه هو القصد للرديء من جملة ما في يده ، فيخصه بالإنفاق في سبيل الله ، وأما إنفاق الرديء لمن ليس له غيره ، أو لمن لا يقصده ، فغير منهي عنه.

﴿ولستم باىاخذيه﴾ . وقيل : هذه الجملة مستأنفة لا موضع لها من الإعراب ، وقيل : الواو للحال ، فالجملة في موضع نصب.

قال البراء ، وابن عباس ، والضحاك ، وغيرهم : معناه : ولستم بآخذيه في ديونكم وحقوقكم عند الناس ، إلا بأن تساهلوا في ذلك ، وتتركوا من حقوقكم وتكرهوه ولا ترضوه ، أي : فلا تفعلوا مع الله ما لا ترضونه لأنفسكم. وقال الحسن : المعنى : ولستم بآخذيه لو وجدتموه في السوق يباع إلا أن يهضم لكم من ثمنه. وروري نحوه عن علي. وقال البراء أيضا : معناه : ولستم بآخذيه لو أهدي لكم إلا أن تغمضوا ، أي : تستحوا من المهدي أن تقبلوا من ما لا حاجة لكم به ، ولا قدر له في نفسه. وقال ابن زيد : ولستم بآخذي الحرام إلا أن تغمضوا في مكروهه.

والظاهر عموم نفي الأخذ بأي طريق أخذ الخبيث ، من أخذ حق ، أوهبة.

والهاء في : بآخذيه ، عائدة على الخبيث ، وهي مجرورة بالإضافة ، وأن كانت من حيث المعنى مفعوله. قال بعض المعربين : والهاء في موضع نصب : بآخذين ، والهاء والنون لا يجتمعان ، لأن النون زائدة ، وهاء الضمير زائدة ومتصلة كاتصال النون ، فهي لا تجتمع مع المضمر المتصل. إنتهى كلامه. وهو قول الأخفش : أن التنوين والنون قد تسقطان للطافة الضمير لا للإضافة ، وذلك في نحو : ضاربك ، فالكاف ضمير نصب ، ومذهب الجمهور أنه لا يسقط شيء منها للطافة الضمير ، وهذا مذكور في النحو. وقد أجاز هشام : ضاربنك ، بالتنوين ، ونصب الضمير ، وقياسه جواز إثبات النون مع الضمير ، ويمكن أن يستدل له بقوله :

هم الفاعلون الخير والآمرونه

وقوله :

ولم يرتفق والناس محتضرونه

﴿إلا أن تغمضوا فيه ﴾ موضع أن نصب أو خفض عند من قدره إلا بأن تغمضوا ، فحذف الحرف ، إذ حذف جائز مطرد ، وقيل : نصب بتغمضوا ، وهو موضع الحال ، وقد قدمنا قبل ، أن سيبويه لا يجيز انتصاب أن والفعل مقدرا بالمصدر في موضع الحال ، وقال الفراء : المعنى معنى الشرط والجزاء ، لأن معناه إن أغمضتم أخذتم ، ولكن إلا وقعت على أن ففتحتها ، ومثله : (الا أن يخافه) و﴿إلا أن يعفون﴾ هذا كله جزاء ، وأنكر أبو العباس وغيره قول الفراء ، وقالوا

: أن ، هذه لم تكن مكسورة قط ، وهي التي تتقدر ، هي وما بعدها ، بالمصدر ، وهي مفتوحة على كل حال ، والمعنى : إلا بإغماضكم.

جزء : ٢ رقم الصفحة : ٣١٥

وقرأ الجمهور : تغمضوا ، من أغمض ، وجعلوه مما حذف مفعوله ، أي : تغمضوا ، بضم التاء وفتح الغين وكسر الميم مشدودة ، ومعناه معنى قراءة الجمهور. وروى عنه : تغمضوا ، بفتح التاء وسكون الغين وكسر الميم ، مضارع : غمض ، وهي لغة في أغمض ، ورويت

٣١٨

." (١)

"تقولها ، ورد الناس على أبي إسحاق في إنكاره ، ونقلوها من لغة العرب. وممن رد عليه : أبو منصور الجواليقي ، وكان ثعلب إماما في اللغة وإماما في النحو على مذهب الكوفيين ، ونقلوا أيضا قراءتين : إحداهما ضم الهاء ووصلها بواو ، وهي قراءة الزهري ، والأخرى : ضمها دون وصل ، وبها قرأ سلام.

والباء في : بقنطار ، وفي : بدينارد قيل : للإلصاق. وقيل : بمعنى على ، إذا الأصل أن تتعدى بعلى ، كما قال مالك : ﴿لا تأمانا على يوسف﴾ وقال : ﴿هل ءامنكم عليه إلا كمآ أمنتكم على أخيه﴾ وقيل : بمعنى في أي : في حفظ قنطار ، وفي حفظ دينار. والذي يظهر أن القنطار والدينار مثالان للكثير والقليل ، فيدخل أكثر من القنطار وأقل. وفي الدينار أقل منه.

قال ابن عطية : ويحتمل أن يريد طبقه يعني في الدينار لا يجوز إلا في دينار فما زاد ، ولم يعن بذكر الخائنين في : أقل ، إذ هم طغام حثالة.انتهى.

ومعنى : ﴿إلا ما دمت عليه قآئما ﴾ قال قتادة ، ومجاهد ، والزجاج ، والفراء ، وابن قتيبة : متقاضيا بأنواع التقاضي من : الخفر ، والمرافعة إلى الحكام ، فليس المراد هيئة القيام ، إنما هو من قيام المرء على أشغاله : أي اجتهاده فيها.

وقال السدي وغيره : قائما على رأسه وهي الهيئة المعروفة وذلك نهاية الخفر ، لأن معنى ذلك الخفر ، لأن معنى ذلك أنه في صدد شغل آخر يريد أن يستقبله. وذهب إلى هذا التأويل جماعة من الفقهاء ، وانتزعوا من الآية جواز السجن ، لأن الذي يقوم عليه غريمه هو يمنعه من تصرفاته في غير القضاء ، ولا فرق بين المنع من التصرفات وبين السجن. وقيل : قائما بوجهك فيها بك ويستحي منك. وقيل : معنى : دمت عليه قائما ، أي : مستعليا ، فإن استلان جانبك لم يؤد إليك أمانتك.

جزء : ٢ رقم الصفحة : ٤٩٧

وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي ، ويحيى بن وثاب ، والأعمش ، وابن أبي ليلى ، والفياض بن غزوان ، وطلحة ، وغيرهم : دمت بكسر الدال ، وتقدم أنها لغة تميم وتقدم الخلاف في مضارعه.

---

(١) تفسير البحر المحيط ـ موافق للمطبوع (دار الفكر)، ٢/٢٤٠

و : ما ، في : ما دمت ، مصدرية ظرفية. و: دمت ، ناقصة فخبرها : قائما ، وأجاز أبو البقاء أن تكون : ما ، مصدرية فقط لا ظرفية ، فتتقدر بمصدر ، وذلك المصدر ينتصب على الحال ، فيكون ذلك استثناء من الأحوال لا من الأزمان. قال : والتقدير : إلا في حال ملازمتك له. فعلى هذا يكون : قائما ، منصوبا على الحال ، لا خبرا لدام ، لأن شرط نقص : دام ، أن يكون صلة لما المصدرية الظرفية.

﴿ذلك بأنهم قالوا ليس علينا فى الاميان سبيل﴾ روي أن بني إسرائيل كانوا يعتقدون استحلال أموال. العرب لكونهم أهل أوثان ، فلما جاء الإسلام ، وأسلم من أسلم من العرب ، بقي اليهود فيهم على ذلك المعتقد ، فنزلت الآية مانعة من ذلك. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "كل شيء من أمر الجاهلية فهو تحت قدمي ، إلا الأمانة فإنها مؤادة إلى البر و ا لفاجر. "والإشارة بذلك إلى ترك الأداء الذي دل عليه لا يؤده ، أي : كونهم لا يؤدون الأمانة كان بسبب قولهم.

والضمير في : بأنهم ، قيل : عائد على اليهود وقيل : عائد على لفيف بني إسرائيل. والأظهر أنه عائد على : من ، في قوله : ﴿من إن تأمنه بدينار لا يؤدها إليك﴾ وجمع حملا على المعنى ، أي : ترك الأداء في الدينا فما دونه وفما فوقه كائن بسبب قول المانع للأداء الخائن : ﴿ليس علينا فى الاميان﴾ وهم الذين ليسوا من أهل الكتاب ، وهم العرب. وتقدم كونهم سموا أميين في سورة البقرة.

والسبيل ، قيل : **العتاب** والذم وقيل : الحجة على ، نحو قول حميد بن ثور :

وهل أنا إن عللت نفسي بسرحةمن السرح موجود علي طريق

وقوله : فأولئك ما عليهم من سبيل من هذا المعنى ، وهو كثير في القرآن وكلام العرب وقيل : السبيل هنا الفعل المؤدي إلى الإثم. والمعنى : ليس عليهم طريق فيما يستحلون من أموال المؤمنين الأميين.

قال : وسبب استباحتهم لأموال الأميين أنهم عندهم مشركون ، وهم بعد إسلامهم باقون على ما كانوا عليه ، وذلك لتكذيب اليهود للقرآن وللنبي صلى الله عليه وسلم وقيل : لأنهم انتقض العهد الذي كان

٥٠٠

بينهم بسبب إسلامهم ، فصاروا كالمحاربين ، فاستحلوا أموالهم وقيل : لأن ذلك مباح في كتابهم أخذ مال من خالفهم.

جزء : ٢ رقم الصفحة : ٤٩٧

". (١)

"والوجه : فتح اللام انتهى. وقول الزمخشري : قول أهل مكة تعالي يحتمل أن تكون عربية قديمة ، ويحتمل أن يكون ذلك مما غبرته عن وجهه العربي فلا يكون عربيا. وأما قوله في شعر الحمداني فقد صرح بعضهم بأنه أبو فراس ، وطالعت ديوانه جمع الحسين بن خالويه فلم أجد ذلك فيه. وبنو حمدان كثيرون ، وفيهم عدة من الشعراء ، وعلى تقدير ثبوت ذلك في شعرهم لا حجة فيه ، لأنه لا يستشهد بكلام المولدين. والظاهر من قوله : رأيت المنافقين أنها من رؤية

---

(١) تفسير البحر المحيط ـ موافق للمطبوع (دار الفكر)، ٣٨٢/٢

العين ، صدوا مجاهرة وتصريحا ، ويحتمل أن يكون من رؤية القلب أي : علمت. ويكون صدهم مكرا وتخابثا ومسارقة حتى لا يعلم ذلك منه إلا بالتأويل عليه. وصدودا : مصدر لصد ، وهو هنا متعد بحرف الجر ، وقد يتعدى بنفسه نحو : "قصدهم عن السبيل" وقياس صد في المصدر فعل نحو : صده صدا. وحكى ابن عطية : أن صدودا هنا ليس مصدرا ، والمصدر عنده صد.

جزء : ٣ رقم الصفحة : ٢٧٦

﴿فكيف إذآ أصابتهم مصيبةا بما قدمت أيديهم ثم جآءوك يحلفون بالله إن أردنآ إلا إحسانا وتوفيقا﴾ قال الزجاج : كيف في موضع نصب تقديره : كيف تراهم ، أو في موضع رفع أي : فكيف صنيعهم والمصيبة. قال الزجاج : قتل عمر الذي رد حكم الرسول صلى الله عليه وسلم. وقيل : كل مصيبة تصيب المنافقين في الدنيا والآخرة ، ثم عاد الكلام إلى ما سبق يخبر عن فعلهم فقال : ثم جاؤك يحلفون بالله. وقيل : هي هدم مسجد الضرار ، وفيه نزلت الآية ، حلفوا دفاعا عن أنفسهم ما أردنا ببناء المسجد إلا طاعة وموافقة الكتاب. وقيل : ترك الاستعانة

٢٨٠

بهم وما يلحقهم من الذل من قوله : فقل إن تخرجوا معي أبدا ولن تقاتلوا معي عدوا ، والذي قدمت أيديهم ردهم حكم الرسول أو معاصيهم المتقدمة أو نفاقهم واستهزاؤهم ثلاثة أقوال. وقيل في قوله : إلا إحسانا وتوفيقا أي : ما أردنا بطلب دم صاحبنا الذي قتله عمر إلا إحسانا إلينا ، وما يوافق الحق في أمرنا. وقيل : ما أردنا بالرفع إلى عمر إلا إحسانا إلى صاحبنا بحكومة العدل ، وتوفيقا بينه وبين خصمه. وقيل : جاؤا يعتذرون إلى الرسول صلى الله عليه وسلم من محاكمتهم إلى غيره ما أردنا في عدولنا عنك إلا إحسانا بالتقريب في الحكم ، وتوفيقا بين الخصوم ، دون الحمل على الحق. وفي قوله : فكيف إذا أصابتهم مصيبة ، وعيد لهم على فعلهم ، وأنهم سيندمون عليه عند حلول بأس الله تعالى حين لا ينفعهم الندم ، ولا يغني عنهم الاعتذار.

﴿أولائك الذين يعلم الله ما فى قلوبهم فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم فى أنفسهم قوا بليغا﴾ أي : يعلم ما في قلوبهم من النفاق. والمعنى : يعلمه فيجازيهم عليه ، أو يجازيهم على ما أسروه من الكفر ، وأظهروه من الحلف الكاذب. وعبر بالعلم عن المجازاة. فأعرض عنهم : أي عن معاتبتهم وشغل البال بهم ، وقبول إيمانهم وأعذارهم. وقيل : المعنى بالإعراض معاملتهم بالرفق والإناة ، ففي ذلك تأديب لهم ، وهو **عتابهم**. ولا يراد بالإعراض الهجر والقطيعة ، فإن قوله : وعظهم يمنع من ذلك. وعظهم : أي خوفهم بعذاب الله وازجرهم ، وأنكر عليهم أن يعودوا لمثل ما فعلوا.

والقول البليغ هو الزجر والردع. قال الحسن : هو التوعد بالقتل إن استداموا حالة النفاق. ويتعلق قوله : في أنفسهم بقوله : قل على أحد معنيين ، أي : قل لهم خاليا بهم لا يكون معهم أحد من غيرهم مسارا لأن النصح إذا كان في السر كان أنجح ، وكان بصدد أن يقبل سريعا. ومعنى بليغا : أي مؤثرا فيهم. أو قل لهم في معنى أنفسهم النجسة المنطوية على النفاق قولا يبلغ منهم ما يزجرهم عن العود إلى ما فعلوا.

جزء : ٣ رقم الصفحة : ٢٧٦

وقال الزمخشري : (فإن قلت) : ثم تعلق قوله : في أنفسهم ؟ (قلت) : بقوله : بليغا أي : قل لهم قولا بليغا في أنفسهم ، مؤثرا في قلوبهم يغتمون به اغتماما ، ويستشعرون منه الخوف استشعارا ، وهو التوعد بالقتل والاستئصال إن نجم منهم النفاق ، وأطلع قرنه ، وأخبرهن أن ما في نفوسهم من الدغل والنفاق معلوم عند الله ، وأنه لا فرق بينكم وبين المشركين. وما هذه المكافة إلا لإظهاركم الإيمان ، وإسراركم الكفر وإضماره ، فإن فعلتم ما تكشفون به غطاءكم لم يبق إلا السيق انتهى كلامه. وتعليقه في أنفسهم بقوله : بليغا لا يجوز على مذهب البصريين ، لأن معمول الصفة لا يتقدم عندهم على الموصوف. لو قلت : هذا

٢٨١

". (١)

"﴿ولما سقط فى أيديهم﴾ مبنيا للفاعل ، قال الزمخشري أي وقع الغض فيها ، وقال الزجاج : سقط الندم في أيديهم ، قال ابن عطية : ويحتمل أن الخسران والخيبة سقط في أيديهم ، وقرأ ابن أبي عبلة : أسقط في أيديهم رباعيا مبنيا للمفعول ورأوا أي علموا ﴿أنهم قد ضلوا ﴾ ، قال القاضي : يجب أن يكون المؤخر مقدما لأن الندم والتحسر إنما يقعان بعد المعرفة فكأنه تعالى قال : ولما رأوا أنهم قد ضلوا وسقط في أيديهم لما نالهم من عظيم الحسرة انتهى ، ولا يحتاج إلى هذا التقدير بل يمكن تقدم الندم على تبين الضلال لأن الإنسان إذا شك في العمل الذي أقدم عليه أهو صواب أو خطأ حصل له الندم ثم بعد يتكامل النظر والفكر فيعلم أن ذلك خطأ ، قالوا : ﴿لان لم يرحمنا ربنا﴾ انقطاع إلى الله تعالى واعتراف بعظيم ما أقدموا عليه وهذا كما قال : آدم وحواء ﴿وإن لم تغفر لنا وترحمنا﴾ ولما كان هذا الذنب وهو اتخاذ غير الله إلها أعظم الذنوب بدأوا بالرحمة التي وسعت كل شيء ومن نتاجها غفران الذنب وأما في قصة آدم فإنه جرت محاورة بينه تعالى وبينهما وعتاب على ما صدر منهما من أكل ثمر الشجرة بعد نهيه إياهما عن قربانها فضلا عن أكل ثمرها فبادرا إلى الغفران وأتباه بالرحمة إذ غفران ما وقع العتاب عليه أكد ما يطلب أولا ، وقرأ الأخوان والشعبي وابن وثاب والجحدري وابن مصرف والأعمش وأيوب بالخطاب في ترحمنا وتغفر ونداء ربنا ، وقرأ باقي السبعة ومجاهد والحسن والأعرج وأبو جعفر وشيبة بن نصاح وغيرهم : ﴿يرحمنا ربنا ويغفر لنا﴾ بالياء فيهما ورفع ربنا وفي مصحف أبي قالوا : ربنا لئن ترحمنا وتغفر لنا ، بتقديم المنادى وهو ربنا ويحتمل أن يكون القولان صدرا منهم جميعهم على التعاقب أو هذا من طائفة وهذا من طائفة فمن غلب عليه الخوف وقوي على المواجهة خاطب مستقيلا من ذنبه العظيم ومن غلب عليه الحياء أخرج كلامه مخرج المستحيي من الخطاب فأسند الفعل إلى الغائب وفي قولهم : ﴿ربنآ﴾ استعطاف حسن إذ الرب هو المالك الناظر في أمر عبيده والمصلح منهم ما فسد.

جزء : ٤ رقم الصفحة : ٣٨٣

---

(١) تفسير البحر المحيط ـ موافق للمطبوع (دار الفكر)، ٣/٢٢٩

﴿ولما رجع موسى إلى قومها غضبان أسفا قال بئسما خلفتمونى منا بعدى أعجلتم أمر ربكم﴾ ، أي رجع من المناجاة يروي أنه لما قرب من محلة بني إسرائيل سمع أصواتهم فقال هذه أصوات قوم لاهين فلما تحقق عكوفهم على عبادة العجل داخلة الغضب والأسف وألقى الألواح. وقال الطبري أخبره تعالى قبل رجوعه أنهم قد فتنوا بالعجل فلذلك رجع وهو غاضب ويدل على هذا القول قوله ﴿فإنا قد فتنا قومك منا بعدك وأضلهم السامرى﴾ الآية وغضبان من صفات المبالغة والغضب غليان القلب بسبب حصول ما يؤلم وذكروا أنه عليه السلام كان من أسرع الناس غضبا وكان سريع الفيئة ، قال ابن القاسم : سمعت مالكا يقول كان إذا غضب طلع الدخان من قلنسوته ورفع شعر بدنه جبته وأسفا من أسف فهو أسف كما تقول فرق فهو فرق يدل على ثبوت الوصف ولو ذهب به مذهب الزمان لكان على فاعل فيقال : آسف والآسف الحزين قاله ابن عباس والحسن والسدي أو الجزع قاله مجاهد أو المتلهف أو الشديد الغضب قاله الزمخشري وابن عطية قال : وأكثر ما يكون بمعنى الحزين أو المغضب قاله ابن قتيبة أو النادم قاله القتبي أيضا ، أو متقاربان قاله الواحدي قال : فإذا أتاك ما تكره ممن دونك غضبت أو ممن فوقك حزنت فأغضبه عبادتهم العجل وأحزنه فتنة الله إياهم وكان قد أخبره بذلك بقوله إنا قد فتنا قومك من بعدك وتقدم الكلام على بئسما في أوائل

٣٩٤

". (١)

"ثم قال تعالى : ﴿فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا ﴾ أي مما عنمتم ومنه ما حصل بالفداء الذي أقره الرسول صلى الله عليه وسلم وقال لا يفلتن منهم رجل إلا بفدية أو ضرب عنق وليس هذا الأمر منشأ لإباحة الغنائم إذ قد سبق تحليلها قبل يوم بدر ولكنه أمر يفيد التوكيد واندراج مال الفداء في عموم ما غنمتم إذ كان قد وقع **العتاب** في الميل للفداء ثم أقره الرسول وانتصب حلالا على الحال من ما إن كانت موصولة أو من ضميره المحذوف أو على أنه نعت لمصدر محذوف أي أكلا حلالا وجوزوا في ما إن تكون مصدرية وروي أنهم أمسكوا عن الغنائم ولم يمدوا أيديهم إليها فنزلت ، وجعل الزمخشري قوله فكلوا متسببا عن جملة محذوفة هي سبب وأفادت ذلك الفاء وقدرها قد أبحت لكم الغنائم فكلوا ، وقال الزجاج الفاء للجزاء والمعنى قد أحللت لكم الفداء فلكوا وأمر تعالى بتقواه لأن التقوى حاملة على امتثال أمر الله وعدم الإقدام على ما لم يتقدم فيه إذن ففيه تحريض على التقوى من مال إلى الفداء ثم جاءت الصفتان مشعرتين بغفران الله ورحمته عن الذين مالوا إلى الفداء قبل الإذن ، وقال الزمخشري : معناه إذا اتقيتموه بعدما فرط منكم من استباحة الفداء قبل أن يؤذن لكم فيه غفر لكم ورحمكم وتاب عليكم ، وقال ابن عطية : وجاء قوله واتقوا الله اعتراضا فصيحا في أثناء القول لأن قوله إن الله غفور رحيم هو متصل بقوله فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا ، وقيل غفور لما أتيتم رحيم بإحلال ما غنمتم.

جزء : ٤ رقم الصفحة : ٥١٨

﴿إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثلها﴾ وقال : ﴿إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون﴾

---

(١) تفسير البحر المحيط ـ موافق للمطبوع (دار الفكر)، ٣١٩/٤

٥١٩

ثم قال تعالى : ﴿فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا ﴾ أي مما عنمتم ومنه ما حصل بالفداء الذي أقره الرسول صلى الله عليه وسلم وقال لا يفلتن منهم رجل إلا بفدية أو ضرب عنق وليس هذا الأمر منشأ لإباحة الغنائم إذ قد سبق تحليلها قبل يوم بدر ولكنه أمر يفيد التوكيد واندراج مال الفداء في عموم ما غنمتم إذ كان قد وقع **العتاب** في الميل للفداء ثم أقره الرسول وانتصب حلالا على الحال من ما إن كانت موصولة أو من ضميره المحذوف أو على أنه نعت لمصدر محذوف أي أكلا حلالا وجوزوا في ما إن تكون مصدرية وروي أنهم أمسكوا عن الغنائم ولم يمدوا أيديهم إليها فنزلت ، وجعل الزمخشري قوله فكلوا متسببا عن جملة محذوفة هي سبب وأفادت ذلك الفاء وقدرها قد أبحت لكم الغنائم فكلوا ، وقال الزجاج الفاء للجزاء والمعنى قد أحللت لكم الفداء فلكوا وأمر تعالى بتقواه لأن التقوى حاملة على امتثال أمر الله وعدم الإقدام على ما لم يتقدم فيه إذن ففيه تحريض على التقوى من مال إلى الفداء ثم جاءت الصفتان مشعرتين بغفران الله ورحمته عن الذين مالوا إلى الفداء قبل الإذن ، وقال الزمخشري : معناه إذا اتقيتموه بعدما فرط منكم من استباحة الفداء قبل أن يؤذن لكم فيه غفر لكم ورحمكم وتاب عليكم ، وقال ابن عطية : وجاء قوله واتقوا الله اعتراضا فصيحا في أثناء القول لأن قوله إن الله غفور رحيم هو متصل بقوله فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا ، وقيل غفور لما أتيتم رحيم بإحلال ما غنمتم.

جزء : ٤ رقم الصفحة : ٥١٨

﴿رحيم * يا أيها النبى قل لمن فى أيديكم من الاسرى إن يعلم الله في قلوبكم خيرا يؤتكم خيرا ممآ أخذ منكم ويغفر لكم﴾ .

". (١)

"والذي يظهر من لفظ الآية أن اللبن يكون وسطا بين الفرث والدم ، والبينية يحتمل أن تكون باعتبار المكانية حقيقة كما قاله المفسرون وادعى الرازي أنه على خلاف الحس والمشاهدة. ويحتمل أن تكون البينية مجازية ، باعتبار تولده من ما حصل في الفرث أولا ، وتولده من الدم الناشيء من لطيف ما كان في الفرث ثانيا كما قرره الرازي. ومن الأولى للتبعيض متعلقة بنسقيكم ، والثانية لابتداء الغاية متعلقة بنسقيكم ، وجاز تعلقهما بعامل واحد لاختلاف مدلوليهما. ويجوز أن يكون من بين في موضع الحال ، فتتعلق بمحذوف ، لأنه لو تأخر لكان صفة أي : كائنا من بين فرث ودم. ويجوز أن يكون من بين فرث بدلا من ما في بطونه. وقرأت فرقة : سيغا بتشديد الياء ، وعيسى بن عمر : سيغا مخففا

---

(١) تفسير البحر المحيط ـ موافق للمطبوع (دار الفكر)، ٤/٤٢٦

من سيغ كهين المخفف من هين ، وليس بفعل لازم كان يكون سوغا. والسائغ : السهل في الحلق اللذيذ ، وروي في الحديث "أن اللبن لم شرق به أحد قط" ولما ذكر تعالى ما من به من بعض منافع الحيوان ، ذكر ما من به من بعض منافع النبات. والظاهر تعلق من ثمرات بتتخذون ، وكررت من للتأكيد ، وكان الضمير مفردا راعيا لمحذوف أي : ومن عصير ثمرات ، أو على معنى الثمرات وهو الثمر ، أو بتقدير من المذكور. وقيل : تتعلق بنسقيكم ، فيكون معطوفا على مما في بطونه ، أو بنسقيكم محذوفة دل عليها نسقيكم المتقدمة ، فيكون من عطف الجمل ، والذي قبله من عطف المفردات إذا اشتركا في العامل. وقيل : معطوف على الأنعام أي : ومن ثمرات النخيل والأعناب عبرة ، ثم بين العبرة بقوله : تتخذون. وقال الطبري : التقدير ومن ثمرات النخيل والأعناب ما تتخذون. فحذف ما هو لا يجوز على مذهب البصريين ، وقال الزمخشري : ويجوز أن يكون صفة موصوف محذوف كقوله : بكفي كان من أرمي البشر. تقديره : ومن ثمرات النخيل والأعناب ثمر تتخذون منه انتهى. وهذا الذي أجازه قاله الحوفي قال : أي وإن من ثمرات ، وإن شئت شيء بالرفع بالابتداء ، ومن ثمرات خبره انتهى.

جزء : ٥ رقم الصفحة : ٤٩٩

والسكر في اللغة الخمر. قال الشاعر :

بئس الصحاة وبئس الشرب شربهمإذا جرى منهم المزاء والسكر

٥١٠

وقال الزمخشري : سميت بالمصدر من سكر سكرا وسكرا نحو : رشد رشدا ورشدا. قال الشاعر :

وجاءونا بهم سكر علينافأجلى اليوم والسكران صاحي

وقاله : ابن مسعود ، وابن عمر ، وأبو رزين ، والحسن ، ومجاهد ، والشعبي ، والنخعي ، وابن أبي ليلى ، والكلبي ، وابن جبير ، وأبو ثور ، والجمهور. وهذه الآية مكية نزلت قبل تحريم الخمر ، ثم حرمت بالمدينة فهي منسوخة. قال الحسن : ذكر الله نعمته في السكر قبل تحريم الخمر. وقال ابن عباس : هو الخل بلغة الحبشة. وقيل : العصير الحلو الحلال ، وسمي سكرا باعتبار مآله إذا ترك. وقال أبو عبيدة : السكر الطعم ، يقال هذا سكر لك أي طعم ، واختاره الطبري قال : والسكر في كلام العرب ما يطعم. وأنشد أبو عبيدة :

جعلت أعراض الكرام سكرا

أي : تنقلت بأعراضهم. وقيل : هو من الخمر ، وأنه إذا ابترك في أعراض الناس فكأنه تخمر بها ، قاله الزمخشري ، وتبع الزجاج قال : يصف أنه يخمر بعيوب الناس ، وعلى هذه الأقوال لا نسخ. وقال الزجاج : قول أبي عبيدة لا يصح ، وأهل التفسير على خلافه. وقيل : السكر ما لا يسكر من الأنبذة ، وقيل : السكر النبيذ ، وهو عصير العنب والزبيب والتمر إذا طبخ حتى يذهب ثلثاه ثم يترك حتى يشتد ، وهو حلال عند أبي حنيفة إلى حد السكر انتهى. وإذا أريد بالسكر الخمر فقد تقدم أن ذلك منسوخ ، وإذا لم نقل بنسخ فقيل : جمع بين **العتاب** والمنة. يعني **بالعتاب** على اتخاذ ما يحرم ، وبالمنة على اتخاذ ما يحل ، وهو الخل والرب والزبيب والتمر. وقال الزمخشري : ويجوز أن يجعل السكر

رزقا حسنا كأنه قيل : تتخذون منه ما هو سكر ورزق حسن انتهى. فيكون من عطف الصفات ، وظاهر العطف المغايرة. ولما كان مفتتح الكلام : وأن لكم في الأنعام لعبرة ، ناسب الختم بقوله : يعقلون ، لأنه لا يعتبر إلا ذوو العقول كما قال : ﴿إن فى ذالك لعبرة لاولى الابصار﴾ . وانظر إلى الإخبار عن نعمة اللبن ونعمة السكر والرزق الحسن ، لما كان اللبن لا يحتاج إلى معالجة من الناس ، أخبر عن نفسه تعالى بقوله : نسقيكم. ولما كان السكر والرزق الحسن يحتاج إلى معالجة قال : تتخذون ، فأخبر عنهم باتخاذهم منه السكر والرزق ، ولأمر ما عجزت العرب العرباء عن معارضته. ولما ذكر تعالى المنة بالمشروب اللبن وغيره ، أتم النعمة بذكر العسل النحل. ولما كانت المشروبات من اللبن وغيره هو الغالب في الناس أكثر من العسل ، قدم اللبن وغيره عليه ، وقدم اللبن على ما بعده لأنه المحتاج إليه كثيرا وهو الدليل على الفطرة. ولذلك اختاره الرسول صلى الله عليه وسلم حين أسري به ، وعرض عليه اللبن والخمر والعسل ، وجاء ترتيبها في الجنة لهذه الآية قال تعالى :

جزء : ٥ رقم الصفحة : ٤٩٩

" (١)

"﴿ويوم نبعث من كل أمة شهيدا ثم لا يؤذن للذين كفروا ولا هم يستعتبون * وإذا رءا الذين ظلموا العذاب فلا يخفف عنهم ولا هم ينظرون * وإذا رءا الذين أشركوا شركآءهم قالوا ربنا هؤلاء شركآؤنا الذين كنا ندعوا من دونكا فألقوا إليهم القول إنكم لكاذبون﴾ : لما ذكر إنكارهم لنعمة الله تعالى ، ذكر حال يوم القيامة حيث لا ينفع فيه الإنكار على سبيل الوعيد لهم بذلك اليوم. وانتصب يوم بإضمار اذكر قاله : الحوفي ، والزمخشري ، وابن عطية ، وأبو البقاء. وقال الزمخشري : أو يوم نبعث وقعوا فيما وقعوا فيه. وقال الطبري : هو معطوف على ظرف محذوف العامل فيه : ثم ينكرونها ، أي ينكرونها اليوم. ويوم نبعث أي : ينكرون كفرهم ، فيكذبهم الشهيد ، والشهيد نبي تلك الأمة يشهد عليهم بإيمانهم وبكفرهم ، ومتعلق الأذن محذوف. فقيل : في الرجوع إلى دار الدنيا. وقيل : في الكلام والاعتذار كما قال : ﴿هاذا يوم لا ي نطقون * ولا يؤذن لهم﴾ فيعتذرون أي بعد شهادة أنبيائهم عليهم ، وإلا فقبل ذلك تجادل كل أمة عن نفسه. وجاء كلامهم في ذلك ، ولكنها مواطن يتكلمون في بعضها ولا ينطقون في بعضها ولا هم يستعتبون أي : مزال عنهم العتب. وقال قوم : معناه لا يسألون أن يرجعوا عن ما كانوا عليه في الدنيا ، فهذا **استعتاب** معناه طلب عتباهم ، ونحوه قول من قال : ولا هم يسترضون أي : لا يقال لهم ارضوا ربكم ، لأن الآخرة ليست بدار عمل قاله الزمخشري. وقال الطبري : معناه يعطون الرجوع إلى الدنيا فيقع منهم توبة وعمل.

جزء : ٥ رقم الصفحة : ٥١٧

قال الزمخشري : (فإن قلت) : فما معنى ثم هذه ؟ (قلت) : معناها انهم يمنون بعد شهادة الأنبياء بما هو أطم منه ، وأنهم يمنعون الكلام فلا

(١) تفسير البحر المحيط ـ موافق للمطبوع (دار الفكر)، ٥/٤١٦

٥٢٥

." (١)

"والثاني : أن صد الكافر مسبب عن رخاوة الرجل في الدين ولين شكيمته ، فذكر المسبب ليدل على السبب كقولهم لا أرينك هاهنا. المراد نهيه عن مشاهدته والكون بحضرته وذلك سبب رؤيته إياه ، فكان ذكر المسبب دليلا على السبب كأنه قيل : فكن شديد الشكيمة صلب المعجم حتى لا يتلوح منك لمن يكفر بالبعث أنه يطمع في صدك عما أنت عليه ﴿هوا ه فتردى ﴾ يجوز أن يكون منصوبا على جواز النهي وأن يكون مرفوعا أي فأنت تردى. وقرأ يحيى فتردى بكسر التاء.

﴿وما تلك بيمينك ياموسى ﴾ هو تقرير مضمنه التنبيه ، وجمع النفس لما يورد عليها وقد علم تعالى في الأزل ما هي وإنما سأله ليريه عظم ما يخترعه عز وجل في الخشبة اليابسة من قلبها حية نضناضة ، ويتقرر في

٢٣٣

نفسه المباينة البعيدة بين المقلوب عنه والمقلوب إليه ، وينبهه على قدرته الباهرة و﴿ما﴾ استفهام مبتدأ و﴿تلك﴾ خبره و﴿يمينك﴾ في موضع الحال كقوله ﴿وهاذا بعلى شيخا ﴾ والعامل اسم الإشارة. قال الزمخشري : ويجوز أن يكون ﴿تلك﴾ أسما موصولا صلته بيمينك ، ولم يذكر ابن عطية غيره وليس ذلك مذهبا للبصريين وإنما ذهب إليه الكوفيون ، قالوا : يجوز أن يكون اسم الإشارة موصولا حيث يتقدر بالموصول كأنه قيل : وما التي بيمينك ؟ وعلى هذا فيكون العامل في المجرور محذوفا كأنه قيل : وما التي استقرت بيمينك ؟ وفي هذا السؤال وما قبله من خطابه تعالى لموسى عليه السلام استئناس عظيم وتشريف كريم.

﴿قال هى عصاى﴾ . وقرأ ابن أبي إسحاق والجحدري عصي بقلب الألف ياء وإدغامها في ياء المتكلم. وقرأ الحسن عصاي بكسر الياء وهي مروية عن ابن أبي إسحاق أيضا وأبي عمرو معا ، وهذه الكسرة لالتقاء الساكنين. وعن أبي إسحاق والجحدري عصاي بسكون الياء. ﴿قال هى﴾ أي أتحامل عليها في المشي والوقوف ، وهذا زيادة في الجواب كما جاء "هو الطهور ماؤه الحل ميتته". في جواب من سأل أيتوضأ بـماء البحر ؟ وكما جاء في جواب ألهذا حج ؟ قال : "نعم ولك أجر". وحكمة زيادة موسى عليه السلام رغبته في مطاولة مناجاته لربه تعالى ، وازدياد لذاذته بذلك كما قال الشاعر :

جزء : ٦ رقم الصفحة : ٢٢١

وأملي عتابا يستطاب فليتنيأطلت ذنوبا كي يطول عتابه

وتعداده نعمه تعالى عليه بما جعل له فيها من المنافع ، وتضمنت هذه الزيادة تفصيلا في قوله ﴿قال هى عصاى أتوكؤا عليها وأهش﴾ وإجمالا في قوله ﴿ولى فيها ماارب أخرى ﴾ . وقيل : ﴿قال هى﴾ جواب لسؤال آخر وهو أنه لما قال ﴿هى عصاى﴾ قال له تعالى فما تصنع بها ؟ قال : ﴿قال هى﴾ الآية. وقيل : سأله تعالى عن شيئين عن العصا بقوله

---

(١) تفسير البحر المحيط ـ موافق للمطبوع (دار الفكر)، ٤٢٨/٥

﴿وما تلك﴾ وبقوله ﴿بيمينك﴾ عما يملكه ، فأجابه عن ﴿وما تلك﴾ ؟ بقوله ﴿هى عصاى﴾ وعن قوله ﴿بيمينك﴾ بقوله ﴿قال هى عصاى﴾ إلى آخره انتهى. وفي التحقيق ليس قوله ﴿بيمينك﴾ بسؤال وقدم في الجواب مصلحة نفسه في قوله ﴿قال هى﴾ ثم ثنى بـم صلحة رعيته في قوله ﴿وأهش﴾ .

وقرأ الجمهور بضم الهاء والشين المعجمة ، والنخعي بكسرها كذا ذكر أبو الفضل الرازي وابن عطية وهي بمعنى المضمومة الهاء والمفعول محذوف وهو الورق. قال أبو الفضل : ويحتمل ذلك أن يكون من هش يهش هشاشة إذا مال ، أي أميل بها على غنمي بما أصلحها من السوق وتكسير العلف ونحوهما ، يقال منه : هش الورق والكلأ والنبات إذا جف ولأن انتهى. وقرأ الحسن وعكرمة : وأهس بضم الهاء والسين غير معجمة ، والهس السوق ومن ذلك الهس والهساس غير معجمة في الصفات. ونقل ابن خالويه عن النخعي أنه قرأ وأهس بضم الهمزة من أهس رباعيا وذكر صاحب اللوامح عن عكرمة ومجاهد وأهه بضم الهاء وتخفيف الشين قال : ولا أعرف وجهه إلا أن يكون بمعنى العامة لكن فر من قراءته من التضعيف لأن الشين فيه تفش فاستثقل الجمع بين التضعيف والتفشي. فيكون كتخفيف ظلت ونحوه. وذكر الزمخشري عن النخعي أنه قرأ ﴿علىها وأهش﴾ بضم الهمزة والشين المعجمة من أهش رباعيا قال : وكلاهما من هش الخبز يهش إذا كان يتكسر لهشاشته. ذكر على التفصيل والإجمال المنافع المتعلقة بالعصا كأنه أحس بما يعقب هذا السؤال من أمر عظيم يحدثه الله تعالى فقال ما هي إلا عصا لا تنفع إلا منافع بنات جنسها كما ينفع العيدان ليكون جوابه مطابقا للغرض الذي فهمه من فحوى كلام ربه ، ويجوز أن يريد عز وجل أن يعدد المرافق الكثيرة التي علقها بالعصا ويستكثرها ويستعظمها ثم يريه على عقب ذلك الآية العظيمة

٢٣٤

كأنه يقول أين أنت عن هذه المنفعة العظمى والمأربة الكبرى المنسية عندها كل منفعة ومأربة. كنت تعتد بها وتحتفل بشأنها وقالوا اسم العصا نبعة انتهى.

جزء : ٦ رقم الصفحة : ٢٢١

" (١).

"والظاهر أن قوله عز وجل ﴿عن قومك﴾ يريد به جميع بني إسرائيل كما قد بينا قبل لا السبعين. وقال الزمخشري : وليس يقول من جوز أن يراد جميع قومه وأن يكون قد فارقهم قبل الميعاد وجه صحيح ما يأباه قوله ﴿هم أولاء على أثرى﴾ انتهى. ﴿ومآ أعجلك﴾ سؤال عن سبب العجلة وأجاب بقوله ﴿هم أولاء على أثرى وعجلت إليك رب لترضى ﴾ لأن قوله ﴿ومآ أعجلك﴾ تضمن تأخر قومه عنه ، فأجاب مشيرا إليهم لقربهم منه إنهم على أثره جائين للموعد ، وذلك على ما كان عهد إليهم أن يجيئوا للموعد. ثم ذكر السبب الذي حمله على العجلة وهو ما تضمنه قوله ﴿وعجلت إليك رب لترضى ﴾ من طلبه رضا الله تعالى في السبق إلى ما وعده ربه ومعنى ﴿إليك﴾ إلى مكان وعدك و﴿لترضى ﴾ أي ليدوم رضاك ويستمر ، لأنه تعالى كان عنه راضيا.

---

(١) تفسير البحر المحيط ـ موافق للمطبوع (دار الفكر)، ١٧١/٦

جزء : ٦ رقم الصفحة : ٢٥٦

وقال الزمخشري : فإن قلت : ﴿ومآ أعجلك﴾ سؤال عن سبب العجلة ، فكان الذي ينطبق عليه من الجواب أن يقال : طلب زيادة رضاك والشوق إلى كلامك وينجز موعدك وقوله ﴿هم أولاء على أثرى﴾ كما ترى غير منطبق عليه. قلت : قد تضمن ما واجهه به رب العزة شيئين أحدهما إنكار العجلة في نفسها ، والثاني السؤال عن سبب المستنكر والحامل عليه ، فكان أهم الأمرين إلى موسى بسط العذر وتمهيد العلة في نفس ما أنكر عليه ، فاعتل بأنه لم يوجد مني إلا تقدم يسير مثله لا يعتد به في العادة ولا يحتفل به ، وليس بيني وبين من سبقته إلا مسافة قريبة يتقدم بمثلها الوفد رأسهم ومقدمهم ، ثم عقبه بجواب السؤال عن السبب فقال ﴿وعجلت إليك رب لترضى ﴾ ولقائل أن يقول : حار لما ورد عليه من التهيب لعتاب الله فأذهله ذلك عن الجواب المنطبق المترتب على حدود الكلام انتهى. وفيه سوء أدب على الأنبياء عليهم السلام.

وقرأ الحسن وابن معاذ عن أبيه أولائي بياء مكسورة وابن وثاب وعيسى في رواية ﴿أولاء﴾ بالقصر. وقرأت فرقة أولاي بياء مفتوحة. وقرأ عيسى ويعقوب وعبد الوارث عن أبي عمرو وزيد بن علي إثري بكسر الهمزة وسكون الثاء. وحكى الكسائي أثري بضم الهمزة وسكون الثاء وتروى عن عيسى. وقرأ الجمهور ﴿أولاء﴾ بالمد والهمز على ﴿أثرى﴾ بفتح الهمز والثاء و﴿على أثرى﴾ يحتمل أن يكون خبرا بعد خبر ، أو في موضع نصب على الحال.

قال : ﴿فإنا قد فتنا قومك منا بعدك وأضلهم السامرى﴾ أي اختبرناهم بما فعل السامري أو ألقيناهم في فتنة أي ميل مع الشهوات ووقوع في اختلاف ﴿منا بعدك﴾ أي من بعد فراقك لهم. وقال الزمخشري : أراد بالقوم المفتونين الذين خلفهم مع هارون ، وكانوا ستمائة ألف ما نجا من عبادة العجل إلا اثنا عشر ألفا فإن قلت : فيي القصة أنهم أقاموا بعد مفارقته عشرين ليلة وحسبوا أربعين مع أيامها ، وقالوا قد أكملنا العدة ثم كان أمر العجل بعد ذلك ، فكيف التوفيق بين هذا وبين قوله تعالى لموسى عند مقدمه ﴿قد فتنا قومك منا بعدك﴾ ؟ قلت : قد أخبر الله تعالى عن الفتنة المترقبة بلفظ الموجودة الكائنة على عادته ، وافترض السامري غيبته فعزم على إضلالهم غب انطلاقه. وأخذ في تدبير ذلك فكان بدء الفتنة موجودا انتهى.

جزء : ٦ رقم الصفحة : ٢٥٦

وقرأ الجمهور : ﴿وأضلهم﴾ فعلا ماضيا. وقرأ أبو معاذ وفرقة وأضلهم برفع اللام مبتدأ والسامري خبره وكان أشدهم ضلالا لأنه ضال في نفسه مضل غيره. وفي

٢٦٧

القراءة الشهري أسند الضلال إلى السامري لأنه كان السبب في ضلالهم ، وأسند الفتنة إليه تعالى لأنه هو الذي خلقها في قلوبهم. و﴿السامرى﴾ قيل اسمه موسى بن ظفر. وقيل : منجا وهو ابن خالة موسى أو ابن عمه أو عظيم من بني إسرائيل من قبيلة تعرف بالسامرة ، أو علج من كرمان ، أو من باجرما أو من اليهود أو من القبط آمن بموسى وخرج معه ، وكان جاره أو من عباد البقر وقع في مصر فدخل في بني اسرائيل بظاهره وفي قلبه عبادة البقر أقوال وتقوم في الأعراف

كيفية اتخاذ العجل وقبل ذلك في البقرة فأغنى عن إعادتها هنا.
". (١)

"وقيل قوله ﴿قال يا ابن أم﴾ كلام محذوف تقديره فرجع موسى ووجدهم عاكفين على عبادة العجل ﴿قال يا ابن أم﴾ وكان ظهور العجل في سادس وثلاثين يوما وعبدوه وجاءهم موسى بعد استكمال الأربعين ، فعتب موسى على عدم اتباعه لما رآهم قد ضلوا و﴿لا﴾ زائدة كهي في قوله ﴿لا تسجدوا ﴾ . وقال علي بن عيسى دخلت ﴿لا﴾ هنا لأن المعنى ما دعاك إلى أن لا تتبعني ، وما حملك على أن لا تتبعني بمن معك من المؤمنين﴿أفعصيت أمري﴾ يريد قوله أفعصيت أمري﴾ يريد قوله يريد قوله ﴿اخلفنى﴾ الآية. وقال الزمخشري : ما منعك أن تتبعني في الغضب لله وشدة الزجر على الكفر والمعاصي ، وهلا قاتلت من كفر بمن آمن ومالك لم تباشر الأمر كما كنت أباشره أنا لو كنت شاهدا ، أو مالك لم تلحقني. وفي ذلك تحميل للفظ ما لا يحتمله وتكثير ولما كان قوله تتبعني لم يذكر متعلقه كان الظاهر أن لا تتبعني إلى جبل الطور ببني إسرائيل فيجيء اعتذار هارون بقوله ﴿إني خشيت أن تقول فرقت بين بنى إسرا ءيل﴾ إذ كان لا يتبعه إلا المؤمنون ويبقى عباد العجل عاكفين عليه كما قالوا ﴿لن نبرح عليه عاكفين﴾ ويحتمل أن يكون المعنى تتبعني تسير بسيري في الإصلاح والتسديد ، فيجيء اعتذاره أن الأمر تفاقم فلو تقويت عليه تقاتلوا واختلفوا فكان تفريقا بينهم وإنما لاينت جهدي.

وقرأ عيسى بن سليمان الحجازي بلحيتي بفتح اللام وهي لغة أهل الحجاز. وكان موسى عليه السلام شديد الغضب لله ولدينه ، ولما رأى قومه عبدوا عجلا من دون الله بعد ما شاهدوا من الآيات العظام لم يتمالك أن أقبل على أخيه قابضا على شعر رأسه ، وكان كثير الشعر وعلى شعر وجهه يجره إليه فأبدى عذره فإنه لو قاتل بعضهم ببعض لتفرقوا وتفانوا ، فانتظرتك لتكون المتدراك لهم ، وخشيت **عتابك** على اطراح ما وصيتني به والعمل بموجبها. وتقدم الكلام على ﴿ابن أم﴾ قراءة وإعرابا وغير ذلك. وقرأ أبو جعفر ولم يرقب بضم التاء وكسر القاف مضارع أرقب.

جزء : ٦ رقم الصفحة : ٢٧٠

ولما اعتذر له أخوه رجع إلى مخاطبة الذي أوقعهم في الضلال وهو السامري وتقدم الكلام في الخطب في سورة يوسف. وقال ابن عطية ﴿ما خطبكما ﴾ كما تقول ما شأنك وما أمرك ، لكن لفظة الخطب تقتضي انتهارا لأن الخطب مستعمل في المكاره فكأنه قال : ما تحسك وما شؤمك ، وما هذا الخطب الذي جاء من قبلك انتهى. وهذا ليس كما ذكر ألا ترى إلى قوله قال ﴿فما خطبكم أيها المرسلون﴾ وهو قول إبراهيم لملائكة الله فليس هذا يقتضي انتهارا ولا شيئا مما ذكر. وقال الزمخشري : خطب مصدر خطب الأمر إذا طلبه ، فإذا قيل لمن يفعل شيئا ما خطبك ، فمعناه ما طلبك له انتهى. ومنه خطبة النكاح وهو طلبه. وقيل : هو مشتق من الخطاب كأنه قال له : ما حملك على أن خاطبت بني إسرائيل بما خاطبت وفعلت معهم ما فعلت ﴿قال بصرت بما لم يبصروا به﴾ . قال أبو عبيدة : علمت ما لم يعلموا. وقال الزجاج : بصر بالشيء إذا علمه وأبصر إذا نظر. وقيل : بصر به وأبصره بمعنى واحد. وقرأ الأعمش وأبو السماك :

---

(١) تفسير البحر المحيط ـ موافق للمطبوع (دار الفكر)، ١٩٥/٦

بصرت بكسر الصاد بما لم تبصروا بفتح الصاد. وقرأ عمرو بن عبيد بصرت بضم الباء وضم الصاد بما لم تبصروا بضم التاء وفتح الصاد مبنيا للمفعول فيهما. وقرأ الجمهور ﴿بصرت﴾ بضم الصاد وحمزة والكسائي وأبو بحرية والأعمش وطلحة وابن أبي ليلى وابن مناذر وابن سعدان وقعنت تبصروا بتاء الخطاب لموسى وبني إسرائيل وباقي السبعة ﴿يبصروا ﴾ بياء الغيبة.

وقرأ الجمهور ﴿فقبضت قبضة﴾ بالضاد المعجمة فيهما أي أخذت بكفي مع الأصابع. وقرأ عبد الله وأبي وابن الزبير وحميد والحسن بالصاد فيهما ، وهو الأخذ بأطراف الأصابع. وقرأ الحسن بخلاف عنه وقتادة ونصر بن عاصم بضم القاف والصاد المهملة ، وأدغم ابن محيصن الضاد المنقوطة في تاء المتكلم وأبقى الإطباق مع تشديد التاء. وقال المفسرون ﴿الرسول﴾ هنا جبريل عليه السلام ،

٢٧٣

وتقديره من ﴿أثر﴾ فرس ﴿الرسول﴾ وكذا قرأ عبد الله ، والأثر التراب الذي تحت حافره ﴿فنبذتها﴾ أي ألقيتها على الحلي الذي تصور منه العجل فكان منها ما رأيت. وقال الأكثرون رأى السامري جبريل يوم فلق البحر ، وعن علي رآه حين ذهب موسى إلى الطور وجاءه جبريل فأبصره دون الناس.

جزء : ٦ رقم الصفحة : ٢٧٠

وقال الزمخشري : فإن قلت : لم سماه ﴿الرسول﴾ دون جبريل وروح القدس ؟ قلت : حين حل ميعاد الذهاب إلى الطور أرسل الله إلى موسى جبريل راكب حيزوم فرس الحياة ليذهب به ، فأبصره السامري فقال : إن لهذا لشأنا فقبض القبضة من تربة موطئه ، فلما سأله موسى عن قصته قال قبضت من أثر فرس المرسل إليك يوم حلول الميعاد ، ولعله لم يعرف أنه جبريل انتهى. وهو قول علي مع زيادة.

(١) ".

"﴿لولا إذ سمعتموه﴾ هذا تحريض على ظن الخير وزجر وأدب ، والظاهر أن الخطاب للمؤمنين حاشا من تولى كبره. قيل : ويحتمل دخولهم في الخطاب وفيه **عتاب** ، أي كان الإنكار واجبا عليهم ، وعدل بعد الخطاب إلى الغيبة وعن الضمير إلى الظاهر فلم يجيء التركيب ظننتم بأنفسكم ﴿خيرا ﴾ وقلتم ليبالغ في التوبيخ بطريقة الالتفات وليصرح بلفظ الإيمان دلالة على أن الاشتراك فيه مقتض أن لا يصدق مؤمن على أخيه قول عائب ولا طاعن ، وفيه تنبيه على أن حق المؤمن إذا سمع قالة في أخيه أن يبني الأمر فيه على ظن الخير ، وأن يقول بناء على ظنه ﴿هاذآ إفك مبين﴾ هكذا باللفظ الصريح ببراءة أخيه كما يقول المستيقن المطلع على حقيقة الحال ، وهذا من الأدب الحسن ومعنى ﴿بأنفسهم﴾ أي كان يقيس فضلاء المؤمنين والمؤمنات هذا الأمر على أنفسهم فإذا كان ذلك يبعد عليهم قضوا بأنه في حق من هو خير منهم أبعد. وقيل : معنى ﴿بأنفسهم﴾ بأمهاتهم. وقيل : بإخوانهم. وقيل : بأهل دينهم ، وقال ﴿ولا تلمزوا أنفسكم﴾ فسلموا على أنفسكم أي لا يلمز بعضكم بعضا ، وليسلم

---

(١) تفسير البحر المحيط ـ موافق للمطبوع (دار الفكر)، ٦/١٩٩

بعضكم على بعض.
﴿لولا جآءو عليه بأربعة شهدآء﴾ جعل الله فصلا بين الرمي الكاذب والرمي الصادق ثبوت أربعة شهداء وانتفاؤها. ﴿فإذ لم يأتوا ﴾ فهم في حكم الله وشريعته كاذبون ، وهذا توبيخ وتعنيف للذين سمعوا الإفك ولم يجدوا في دفعه وإنكاره واحتجاج عليهم بما هو ظاهر مكشوف في الشرع من وجوب تكذيب القاذف بغير بينة والتنكيل.
﴿ولولا فضل الله﴾ أي في الدنيا بالنعم التي منها الإمهال للتوبة ﴿ورحمته﴾ عليكم في الآخرة بالعفو والمغفرة. ﴿لمسكم﴾ العذاب فيما خضتم فيه من حديث الإفك يقال : أفاض في الحديث واندفع وهضب وخاض. ﴿إذ تلقونه﴾ لعامل في ﴿إذا﴾ ﴿لمسكم﴾ وقرأ الجمهور ﴿تلقونه﴾ بفتح الثلاث وشد القاف وشد التاء البزي وأدغم ذال ﴿إذ﴾ في التاء النحوين وحمزة أي يأخذه بعضكم من بعض ، يقال : تلقى القول وتلقنه وتلقفه والأصل تتلقونه وهي قراءة أبي. وقرأ ابن السميفع ﴿تلقونه﴾ بضم التاء والقاف وسكون اللام مضارع ألقى وعنه ﴿تلقونه﴾ بفتح التاء والقاف وسكون اللام مضارع لقي. وقرأت عائشة وابن عباس وعيسى وابن يعمر وزيد بن علي بفتح التاء وكسر اللام وضم القاف من قول العرب : ولق الرجل كذب ، حكاه أهل اللغة. وقال ابن سيده ، جاؤوا بالمتعدي شاهد على غير المتعدي ، وعندي أنه أراد يلقون فيه فحذف الحرف ووصل الفعل للضمير. وحكى الطبري وغيره أن هذه اللفظة مأخوذة من الولق الذي هو الإسراع بالشيء بعد الشيء كعدد في أثر عدد ، وكلام في أثر كلام ، يقال : ولق في سيره إذا أسرع قال :
جزء : ٦ رقم الصفحة : ٤٣٥
جاءت به عيسى من الشام يلق
وقرأ ابن أسلم وأبو جعفر تألقونه بفتح التاء وهمزة ساكنة بعدها لام مكسورة من الألق وهو الكذب. وقرأ يعقوب في رواية المازني تيلقونه بتاء مكسورة بعدها ياء ولام مفتوحة كأنه مضارع ولق بكسر اللام كما قالوا : تيجل مضارع وجلت. وقال سفيان : سمعت أمي تقرأ إذ تثقفونه يعني مضارع ثقف قال : وكان أبوها يقرأ بحرف ابن مسعود. ومعنى ﴿بأفواهكم﴾ وتديرونه فيها من غير علم لأن الشيء المعلوم يكون في القلب ثم يعبر عنه اللسان ، وهذا الإفك ليس محله إلا الأفواه كما قال ﴿يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم﴾ .
﴿وتحسبونه هينا﴾ أي ذنبا صغيرا ﴿وهو عند الله﴾ من الكبائر وعلق مس العذاب بثلاثة آثام تلقى الإفك والتكلم به واستصغاره ثم أخذ يوبخهم على التكلم به ، وكان الواجب عليهم إذ سمعوه أن لا يفوهوا به.
وقال الزمخشري : فإن قلت : كيف جاز الفصل بين ﴿لولا﴾ و﴿قلتم﴾ ؟ قلت : للظروف شأن وهو تنزلها من الأشياء منزلة نفسها لوقوعها فيها ، وأنها لا تنفك عنها فلذلك يتسع فيها ما لايتسع في غيرها انتهى. وما ذكره من أدوات التحضض يوهم أن ذلك مختص بالظرف وليس كذلك ، بل يجوز تقديم المفعول به على الفعل فتقول : لو لا زيدا ضربت وهلا عمرا قتلت.
قال الزمخشري : فإن قلت : فأي فائدة في تقديم الظرف حتى أوقع فاصلا ؟ قلت : الفائدة بيان أنه كان الواجب عليهم أن ينقادوا حال ما سمعوه بالإفك عن التكلم به ، فلما كان ذكر الوقت أهم وجب التقديم.

فإن قلت : ما معنى ﴿يكون﴾ والكلام بدونه متلئب لو قيل ما لنا أن نتكلم بهذا قلت : معناه ما ينبغي ويصح أي ما ينبغي ﴿لنآ أن نتكلم بهاذا﴾ ولا يصح لنا ونحوه ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق تعجب من عظم الأمر.
فإن قلت : ما معنى التعجب في كلمة التسبيح ؟ قلت : الأصل في ذلك أن تسبيح الله عند رؤية المتعجب من صنائعه ثم كثر حتى استعمل في كل متعجب منه ، أو لتنزيه الله عن أن تكون حرمة نبيه صلى الله عليه وسلم كما قيل فيها انتهى.
." (١)

"الأعصار من وجود ﴿الايامى ﴾ ولم ينكر ذلك ولا أمر الأولياء بالنكاح.
وقال الزمخشري : ﴿الايامى ﴾ واليتامى أصلهما أيائم ويتائم فقلبا انتهى. وفي التحرير قال أبو عمر : وأيامى مقلوب أيائم ، وغيره من النحويين ذكر أن أيما ويتيما جمعا على أيامي ويتامى شذوذا يحفظ ووزنه فعالى ، وهو ظاهر كلام سيبويه. قال سيبويه في أواخر هذا باب تكسير ما كان من الصفات. وقالوا : وج ووجيا كما قالوا : زمن وزمنى فأجروه على المعنى كما قالوا : يتيم ويتامى وأيم وأيامى فأجروه مجرى رجاعي انتهى. وتقدم في المفردات الأيم من لا زوج له من ذكر أو أنثى. وفي شرح كتاب سيبويه لأبي بكر الخفاف : الأيم التي لا زوج لها ، وأصله في التي كانت متزوجة ففقدت زوجها برزء طرأ عليها فهو من البلايا ، ثم قبل في البكر مجازا لأنها لا زوج لها انتهى.
جزء : ٦ رقم الصفحة : ٤٥٠
﴿منكم﴾ خطاب للمؤمنين ، أمر تعالى بإنكاح من تأيم من الأحرار والحرائر ومن فيه صلاح من العبيد والإماء ، واندرج المؤنث في المذكر في قوله ﴿والصالحين﴾ وخص الصالحين ليحصن لهم دينهم ويحفظ عليهم صلاحهم ، ولأن ﴿الصالحين﴾ من الأرقاء هم الذين يشفق مواليهم عليهم وينزلونهم منزلة الأولاد في الأثرة والمودة ، فكانوا مظنة للاهتمام بشأنهم وتقبل الوصية فيهم ، والمفسدون منهم حالهم عند مواليهم على عكس ذلك. وقيل : معنى ﴿والصالحين﴾ أي للنكاح والقيام بحقوقه. وقرأ مجاهد والحسن من عبيدكم بالياء مكان الألف وفتح العين وأكثر استعماله في المماليك.
و ﴿إن يكونوا فقرآء يغنهم الله من فضلها﴾ هذا مشروط بالمشيئة المذكورة في قوله : ﴿وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضلها إن شآء﴾ . ﴿والله واسع﴾ أي ذو غنى وسعة ، يبسط الله لمن يشاء ﴿عليهم﴾ بحاجات الناس ، فيجري عليهم ما قدر من الرزق. ﴿وليستعفف﴾ أي ليجتهد في العفة وصون النفس وهو استفعل بمعنى طلب العفة من نفسه وحملها عليها ، وجاء الفك على لغة الحجاز ولا يعلم أحد قرأ وليستعف بالإدغام ﴿الذين لا يجدون نكاحا﴾ . قيل النكاح هنا اسم ما يمهر وينفق في الزواج كاللحاف واللباس لما يلتحف به ويلبس ، ويؤيده قوله ﴿حتى يغنيهم الله من فضلها﴾ فالمأمور بالاستعفاف هو من عدم المال الذي يتزوج به ويقوم بمصالح الزوجية. والظاهر أنه أمر ندب لقوله قبل ﴿إن يكونوا فقرآء يغنهم الله من فضلها﴾ .
ومعنى ﴿لا يجدون نكاحا﴾ أي لا يتمكنون من الوصول إليه ، فالمعنى أنه أمر بالاستعفاف كل من تعذر عليه النكاح

---

(١) تفسير البحر المحيط ـ موافق للمطبوع (دار الفكر)، ٦/٣٢٠

ولا يجده بأي وجه تعذر ، ثم أغلب الموانع عن النكاح عدم المال و﴿حتى يغنيهم﴾ ترجئة للمستعففين وتقدمة للوعد بالتفضل عليهم ، فالمعنى ليكون انتظار ذلك وتأميله لطفا في استعفافهم وربطا على قلوبهم ، وما أحسن ما ترتبت هذه الأوامر حيث أمر أولا بما يعصم عن الفتنة ويبعد عن مواقعة المعصية وهو غض البصر ، ثم بالنكاح الذي يحصن به الدين ويقع به الاستغناء بالحلال عن الحرام ، ثم بالحمل على النفس الأمارة بالسوء وعزفها عن الطموح إلى الشهوة عند العجز عن النكاح إلى أن يرزق القدرة عليه انتهى. وهو من كلام الزمخشري وهو حسن ، ولما بعث السيد على تزويج الصالحين من العبيد والإماء رغبهم في أن يكاتبوهم إذا طلبوا ذلك ليصيروا أحرارا فيتصرفون في أنفسهم.

جزء : ٦ رقم الصفحة : ٤٥٠

﴿والذين يبتغون الكتاب﴾ أي المكاتبة كالعتاب والمعاتبة. ﴿مما ملكت﴾ يعم المماليك الذكور والإناث. و﴿الذين﴾ يحتمل أن يكون مبتدأ وخبره الجملة ، والفاء دخلت في الخبر لما تضمن الموصول من معنى اسم الشرط ، ويحتمل أن يكون منصوبا كما تقول : زيدا فاضربه لأنه يجوز أن تقول زيدا فاضرب ، وزيدا اضرب ، فإذا دخلت الفاء كان التقدير بنية فاضرب زيدا فالفاء في جواب أمر محذوف ، وهذا يوضح في النحو بأكثر من هذا. قال الأزهري : وسمي هذا العقد مكاتبة لما يكتب للعبد على السيد من العتق إذا أدى ما تراضيا عليه من المال ،

٤٥١

وما يكتب للسيد على العبد من النجوم التي يؤديها ، والظاهر وجوب المكاتبة لقوله ﴿فكاتبوهم﴾ وهذا مذهب عطاء وعمرو بن دينار والضحاك وابن سيرين وداود ، وظاهر قول عمر لأنه قال لأنس حين سأل سيرين الكتابة فتلكأ أنس كاتبه ، أو لأضربنك بالدرة ، وذهب مالك وجماعة إلى أنه أمر ندب وصيغتها كاتبتك على كذا ، ويعين ما كاتبه عليه ، وظاهر الأمر يقتضي أنه لا يشترط تنجيم ولا حلول بل يكون حالا ومؤجلا ومنجما وغير منجم ، وهذا مذهب أبي حنيفة.

". (١)

"قال المبرد : ليس إلا الطيب المسك. انتهى. واحتاج إلى هذا التقدير كون المسك مرفوعا بعد إلا وأنت إذا قلت : ما كان زيد إلا فاضلا نصبت ، فلما وقع بعد إلا ما يظهر أنه خبر ليس ، احتاج أن يزحزح إلا عن موضعها ، ويجعل في ليس ضمير الشأن ، ويرفع إلا الطيب المسك على الابتداء والخبر ، فيصير كالملفوظ به ، في نحو : ما كان إلا زيد قائم. ولم يعرف المبرد أن ليس في مثل هذا التركيب عاملتها بنو تميم معاملة ما ، فلم يعملوها إلا باقية مكانها ، وليس غير عامله. وليس في الأرض حجازي إلا وهو ينصب في نحو ليس الطيب إلا المسك ، ولا تميمي إلا وهو يرفع. في ذلك حكاية جرت بين عيسى بن عمر وأبي عمرو بن العلاء ، ذكرناها فيما كتبناه من علم النحو. ونظير ﴿إن نظن إلا ظنا﴾ قول الأعشى :

٥١

وجد به الشيب أثقالهوما اغتره الشيب إلا اغترارا

---

(١) تفسير البحر المحيط ـ موافق للمطبوع (دار الفكر)، ٦/٣٢٨

أي اغترارا بينا. وقال الزمخشري : فإن قلت : ما معنى ﴿إن نظن إلا ظنا﴾ ؟ قلت ؛ أصله نظن ظنا ، ومعناه إثبات الظن مع نفي ما سواه ، وزيد نفي ما سوى الظن توكيدا بقوله : ﴿وما نحن بمستيقنين﴾ . انتهى. وهذا الكلام ممن لا شعور له بالقاعدة النحوية ، من أن التفريغ يكون في جميع المعمولات من فاعل ومفعول وغيره ، إلا المصدر المؤكد فإنه لا يكون فيه. وقدره بعضهم : إن نظن إلا أنكم تظنون ظنا ، قال : وإنما احتيج إلى هذا التقدير لأنه لا يجوز في الكلام : ما ضربت إلا ضربا ، فاهتدى إلى هذه القاعدة النحوية ، وأخطأ في التخريج ، وهو محكي عن المبرد ، ولعله لا يصح. وقولهم : إن نظن ، دليل على أن الكفار قد أخبروا بأنهم ظنوا البعث واقعا ، ودل قولهم قبل قوله : ﴿إن هي إلا حياتنا الدنيا﴾ ، على أنهم منكرون البعث ، فهم ، والله أعلم ، فرقتان ، أو اضطربوا ، فتارة أنكروا ، وتارة ظنوا ، وقالوا : ﴿إن نظن إلا ظنا﴾ على سبيل الهزء.

﴿وبدا لهم سيات ما عملوا ﴾ : أي قبائح أعمالهم ، أو عقوبات أعمالهم السيئات ؛ وأطلق على العقوبة سيئة ، كما قال : ﴿وجزا ؤا سيئة سيئة مثلها ﴾ . ﴿وحاق بهم﴾ أي أحاط ، ولا يستعمل حاق إلا في المكروه. ﴿ننسا كم﴾ : نترككم في العذاب ، أو نجعلكم كالشيء المنسي الملقى غير المبالى بهم. ﴿كما نسيتم لقآء يومكم﴾ : أي لقاء جزاء الله على أعمالكم ، ولم تخطروه على بال بعد ما ذكرتم به وتقدم إليكم بوقوعه. وأضاف اللقاء لليوم توسعا كقوله : ﴿بل مكر اليل والنهار﴾ . وقرأ الجمهور : ﴿لا يخرجون﴾ ، مبنيا للمفعول ؛ والحسن ، وابن وثاب ، وحمزة ، والكسائي : مبنيا للفاعل. ﴿منها﴾ : أي من النار. ﴿ولا هم يستعتبون﴾ أي بطلب مراجعة إلى عمل صالح. وتقدم الكلام في **الاستعتاب**. وقرأ الجمهور : ﴿رب﴾ ، بالجر في الثلاثة على الصفة ، وابن محيصن : بالرفع فيهما على إضمار هو.

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٤١

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٥٢." (١)

"﴿والفجر * وليال عشر * والشفع والوتر * واليل إذا يسر * هل فى ذالك قسم لذى حجر * ألم تر كيف فعل ربك بعاد * إرم ذات العماد * التى لم يخلق مثلها فى البلاد * وثمود الذين جابوا الصخر بالواد * وفرعون ذى الاوتاد * الذين طغوا فى البلاد * فأكثروا فيها الفساد * فصب عليهم ربك سوط عذاب * إن ربك لبالمرصاد * فأما الانسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربى أكرمن * وأمآ إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربى أهانن *كلا بل لا تكرمون اليتيم * ولا تحا ضون على طعام المسكين * وتأكلون التراث أكلا لما * وتحبون المال حبا جما *كلا إذا دكت الارض دكا دكا * وجآء ربك والملك صفا صفا * وجا ى ء يومئذ بجهنما يومئذ يتذكر الانسان وأنى له الذكرى * يقول ياليتنا قدمت لحياتى * فيوماذ لا يعذب عذابها أحد * ولا يوثق وثاقها أحد * يا أيتها النفس المطمانة * ارجعى إلى ربك راضية مرضية * فادخلى فى عبادى﴾ .

---

(١) تفسير البحر المحيط ـ موافق لل مطبوع (دار الفكر)، ٤١/٨

هذه السورة مكية في قول الجمهور. وقال علي بن أبي طلحة : مدنية. ولما ذكر فيما قبلها ﴿وجوه يومئذ خاشعة﴾ ، و﴿وجوه يومئذ ناعمة﴾ ، أتبعها بذكر الطوائف المتكبرين المكذبين المتجبرين الذين وجوههم خاشعة ، وأشار إلى الصنف الآخر الذين وجوههم ناعمة بقوله : ﴿أحد * يا أيتها النفس المطمانة﴾ . وأيضا لما قال : ﴿إلا من تولى وكفر﴾ ، قال هنا : ﴿إن ربك لبالمرصاد﴾ ، تهديدا لمن كفر وتولى. وقرأ أبو الدينار الأعرابي : والفجر ، والوتر ، ويسر بالتنوين في الثلاثة. قال ابن خالويه : هذا كما روي عن بعض العرب أنه وقف على آخر القوافي بالتنوين ، وإن كان فعلا ، وإن كان فيه ألف ولام. قال الشاعر :

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٤٦٥

أقلي اللوم عاذل **والعتاباوقولي** إن أصبت لقد أصابا

انتهى. وهذا ذكره النحويون في القوافي المطلقة إذا لم يترنم الشاعر ، وهو أحد الوجهين اللذين للعرب إذا وقفوا على الكلم في الكلام لا في الشعر ، وهذا الأعرابي أجرى الفواصل مجرى القوافي. وقرأ الجمهور : ﴿وليال عشر﴾ بالتنوين ؛ وابن عباس : بالإضافة ، فضبطه بعضهم. ﴿وليال عشر﴾ بلام دون ياء ، وبعضهم وليالي عشر بالياء ، ويريد : وليالي أيام عشر. ولما حذف الموصوف المعدود ، وهو مذكر ، جاء في عدده حذف التاء من عشر. والجمهور : ﴿والوتر﴾ بفتح الواو وسكون التاء ، وهي لغة قريش. والأغر عن ابن عباس ، وأبو رجاء وابن وثاب وقتادة وطلحة والأعمش والحسن : بخلاف عنه ؛ والأخوان : بكسر الواو ، وهي لغة تميم ، واللغتان في الفرد ، فأما في الرحل فالكسر لا غير. وحكى الأصمعي :

٤٦٧

". (١)

٤٤٥"

وروى ابن أبي مليكة عن عبد الله بن عباس قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم شرب من شراب عند سودة من العسل فدخل على عائشة فقالت له إني أجد منك ريحا

ثم دخل على حفصة فقالت إني أجد منك ريحا

قال أراه من شراب شربته عند سودة والله لا أشربه فنزل " يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك "

ثم قال " قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم " يعني أوجب عليكم كفارة أيمانكم

" والله مولاكم " يعني ناصركم وحافظكم " وهو العليم " بما قالت حفصة لعائشة في أمر مارية

" الحكيم " حكم بكفارة اليمين

---

(١) تفسير البحر المحيط ـ موافق للمطبوع (دار الفكر)، ٨/٣٥٠

سورة التحريم ٣ - ٥

ثم قال عز وجل " وإذ أسر النبي " يعني أخفى النبي " إلى بعض أزواجه حديثا " يعني كلاما

" فلما نبأت به " يعني أخبرت بذلك الخبر حفصة عائشة " وأظهره الله عليه " يعني أظهر الله قولها لرسوله الله صلى الله عليه وسلم فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم حفصة فأخبرها ببعض ما أخبرت عائشة ولم يخبرها عن الجميع فذلك قوله " عرف بعضه وأعرض عن بعض " يعني سكت عن بعض

ومن هذا قيل إن الكريم لا يبالغ في **العتاب**

قرأ الكسائي " عرف " بالتخفيف يعني جازاها ببعضه والباقون " عرف " بالتشديد يعني عرف حفصة

" فلما نبأها به " يعني لما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم بذلك الخبر حفصة " قالت من أنبأك هذا " يعني من أخبرك بهذا

" قال نبأني " يعني أخبرني " العليم الخبير "

قوله عز وجل " إن تتوبا إلى الله " يعني عائشة وحفصة " فقد صغت قلوبكما " يعني مالت قلوبكما عن الحق

وذكر عن الفراء أنه قال معناه إن لا تتوبا إلى الله " فقد صغت قلوبكما " عن الحق ويقال فيه مضمر ومعناه إن تتوبا إلى الله تعالى يقبل الله توبتكما ويقال معناه إن تتوبا إلى الله " فقد صغت قلوبكما " يعني مالت إلى الحق

وروى الزهري عن عبد الله بن عباس قال كنت مع عمر حين حج فلما كنا في بعض الطريق نزل في موضع فقلت يا أمير المؤمنين من المرأتان اللتان قال الله تعالى " إن تتوبا إلى الله " فقال عمر رضي الله عنه واعجبا لك يا ابن عباس

قال الزهري كأنه كره ما سأله عنه ولم يكتمه

قال هي حفصة وعائشة ثم قال كنا معشر قريش قوما نغلب النساء فلما قدمنا المدينة وجدنا قوما تغلبهم نساؤهم فطفقن نساؤنا يتعلمن من نسائهم

فغضبت يوما على امرأتي فإذا هي." (١)

"ص : ١٣

بأرعن مثل الطّود تحسب أنهم وقوف لحاج والرّكاب تهملج

وفي قوله جلّ ذكره : وَلَكُمْ فِي الْقِصاصِ حَياةٌ يا أُولِي الْأَلْبابِ [البقرة : ١٧٩] يريد أن سافك الدّم إذا أقيد منه ارتدع من كان يهمّ بالقتل ، فكان في القصاص له حياة وهو قتل.

وأخذه الشاعر فقال «١» :

أبلغ أبا مالك عنّي مغلغلة وفي **العتاب** حياة بين أقوام

يريد أنهم إذا تعاتبوا أصلح ما بينهم **العتاب** فكفّوا عن القتل ، فكان في ذلك حياة.

وأخذه المتمثّلون فقالوا : «بعض القتل إحياء للجميع» «٢».

---

(١) بحر العلوم ـ موافق للمطبوع، ٣/٤٤٥

وقالوا : «القتل أقلّ للقتل» «٣».

وتبيّن قوله في وصف خمر أهل الجنة : لا يُصَدَّعُونَ عَنْها وَلا يُنْزِفُونَ (١٩) [الواقعة : ١٩] كيف نفى عنها بهذين اللفظين جميع عيوب الخمر ، وجمع بقوله : (و لا ينزفون) عدم العقل ، وذهاب المال ، ونفاد الشراب.

وقوله : وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كانُوا لا يَعْقِلُونَ (٤٢) وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كانُوا لا يُبْصِرُونَ (٤٣) [يونس : ٤٢ ، ٤٣] كيف دلّ على فضل السّمع على البصر ، حين جعل مع الصمم فقدان العقل ، ولم يجعل مع العمى إلا فقدان النظر.

وقوله : إِنَّ الْمُنافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً (١٤٥) إِلَّا الَّذِينَ تابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ [النساء : ١٤٥ ، ١٤٦] فدلّ على أن المنافقين شرّ من كفر به ، وأولاهم بمقته ، وأبعدهم من الإنابة إليه ، لأنه شرط عليهم في التوبة : الإصلاح والاعتصام ، ولم يشرط ذلك على غيرهم.

ثم شرط الإخلاص ، لأن النّفاق ذنب القلب ، والإخلاص توبة القلب.

---

(١) البيت من البسيط ، وهو لهمام الرقاشي في مقاييس اللغة ٤/ ٣٧٧ ، والبيان والتبيين ٢/ ٣١٦ ، ٣/ ٢٠٢ ، ٤/ ٨٥ ، والخزانة ٣/ ٣٤٥ ، ولعصام بن عبيد الزماني في تاج العروس (غلل) ، ولأبي القمقام الأسدي في عيون الأخبار ١/ ٩١ ، ولهشام الرقاشي في العقد الفريد ١/ ٨٠ ، وبلا نسبة في لسان العرب (غلل).

(٢) انظر البيان والتبيين ٢/ ٣١٦ ، وفيه بلفظ : وقال بعض الحكماء : قتل البعض إحياء للجميع.

(٣) انظر كتاب الصناعتين ، وفيه بلفظ : القتل أنفى للقتل.." (١)

"" صفحة رقم ٤٠٢ "

وبكسرها بغير وصل وبسكونها

وقرأ يحيى بن وثاب (تئمنه) بكسر التاء ودمت بكسر الدال من دام يدام

) ذلك (

إشارة إلى ترك الاداء الذي دل عليه لم يؤده أي تركهم أداء الحقوق بسبب قولهم

) ليس علينا في الأميين سبيل (

أي لا يتطرق علينا **عتاب** وذم في شأن الأميين يعنون الذين ليسوا من أهل الكتاب وما فعلنا بهم من حبس اموالهم والاضرار بهم لأنهم ليسوا على ديننا وكانوا يستحلون ظلم من خالفهم ويقولون لم يجعل لهم في كتابنا حرمة

وقيل بايع اليهود رجالا من قريش فلما أسلموا تقاضوهم فقالوا ليس لكم علينا حق حيث تركتم دينكم وادعوا انهم وجدوا ذلك في كتابهم

---

(١) تأويل مشكل القرآن، ص/١٣

وعن النبي (صلى الله عليه وسلم) انه قال عند نزولها
١٧٤ (كذب اعداء الله ما من شيء في الجاهلية الا وهو تحت قدمي الا الأمانة فإنها مؤداة إلى البر والفاجر)
وعن ابن عباس أنه سأله رجل فقال إنا نصيب في الغزو من اموال أهل الذمة الدجاجة والشاة قال فتقولون ماذا قال نقول ليس علينا في ذلك بأس قال هذا كما قال اهل الكتاب ليس علينا في الأميين سبيل
إنهم اذا أدوا الجزية لم يحل لكم أكل اموالهم الا بطيبة انفسهم
) ويقولون على الله الكذب (
بادعائهم أن ذلك في كتابهم
) وهم يعلمون (
أنهم كاذبون
) بلي (
إثبات لما نفوه من السبيل عليهم في الأميين أي بلى عليهم سبيل فيهم وقوله
) من أوفى بعهده (
جملة مستأنفة مقررة للجملة التى سدت بلى مسدها والضمير في بعهده راجع إلى من اوفى على أن كل من اوفى بما عاهد عليه واتقى الله في ترك الخيانة والغدر فإن الله يحبه
فإن قلت فهذا عام يخيل أنه لو وفي اهل الكتاب بعهودهم وتركوا الخيانة لكسبوا محبة الله قلت أجل لأنهم اذا وفوا بالعهود وفوا اول شيء بالعهد الأعظم وهو ما أخذ عليهم في كتابهم من الإيمان برسول مصدق لما معهم ولو اتقوا الله في ترك الخيانة لاتقوه في ترك الكذب على الله وتحريف كلمه
ويجوز ان يرجع الضمير إلى الله تعالى على ان كل من وفى بعهد الله واتقاه فإن الله يحبه ويدخل في ذلك الايمان وغيره من الصالحات وما وجب اتقاؤه من الكفر وأعمال السوء
فإن قلت فأين الضمير الراجع من الجزاء إلى من قلت عموم المتقين قام مقام رجوع الضمير وعن ابن عباس نزلت في عبد الله بن سلام وبحيرا الراهب ونظرائهما من مسلمة اهل الكتاب." (١)

"" صفحة رقم ٥١٥ "
عذاب الله من شيء قالوا لو هدانا الله لهديناكم سوآء علينآ أجزعنآ أم صبرنا ما لنا من محيص (
إبراهيم : (٢١) وبرزوا لله جميعا . . . . .

---

(١) تفسير الكشاف . موافق للمطبوع، ٤٠٢/١

) وبرزوا لله (ويبرزون يوم القيامة . وإنما جيء به بلفظ الماضي ، لأن ما أخبر به عز وعلا لصدقه كأنه قد كان ووجد ، ونحوه :) ونادى أصحاب الجنة ((الأعراف : ٤٤) ،) ونادى أصحاب النار الاعراف (بواو قبل الهمزة ؟ قلت : كتب على لفظ من يفخم الألف قبل الهمزة فيميلها إلى الواو . ونظيره) معى بنى إسراءيل ((الشعراء : ١٩٧) والضعفاء : الأتباع والعوام والذين استكبروا : ساداتهم وكبراؤهم ، الذين استتبعوهم واستغووهم وصدوهم عن الاستماع إلى الأنبياء وأتباعهم) تبعا (تابعين : جمع تابع على تبع ، كقولهم : خادم وخدم وغائب وغيب أو ذوي تبع . والتبع : الأتباع ، يقال : تبعه تبعا . فإن قلت : أي فرق بين من في) من عذاب الله (وبينه في) من شيء (؟ قلت : الأولى للتبيين ، والثانية للتبعيض ، كأنه قيل : هل أنتم مغنون عنا بعض الشيء الذي هو عذاب الله . ويجوز أن تكونا للتبعيض معا ، بمعنى هل أنتم مغنون عنا بعض شيء هو بعض عذاب الله ، أي : بعض بعض عذاب الله فإن قلت : فما معنى قوله :) لو هدانا الله لهديناكم (؟ قلت : الذي قال لهم الضعفاء كان توبيخا لهم **وعتابا** على استتباعهم واستغوائهم . وقولهم :) فهل أنتم مغنون عنا (من باب التبكيت ؛ لأنهم قد علموا أنهم لا يقدرون على الإغناء عنهم ،." (١)

"" صفحة رقم ٥١٦ "

فأجابوهم معتذرين عما كان منهم إليهم : بأن الله لو هداهم إلى الإيمان لهدوهم ولم يضلوهم ، إما موكورين الذنب في ضلالهم وإضلالهم على الله ، كما حكى الله عنهم وقالوا) لو شاء الله ما أشركنا ولا اباؤنا ((الأنعام : ١٤٨) ،) لو شآء الله ما عبدنا من دونه من شيء ((النحل : ٣٥) يقولون ذلك في الآخرة كما كانوا يقولونه في الدنيا . ويدل عليه قوله حكاية عن المنافقين) يوم يبعثهم الله جميعا فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شيء ((المجادلة : ١٨) . وإما أن يكون المعنى : لو كنا من أهل اللطف فلطف بنا ربنا واهتدينا لهديناكم إلى الإيمان . وقيل : معناه لو هدانا الله طريق النجاة من العذاب لهديناكم ، أي : لأغنينا عنكم وسلكنا بكم طريق النجاة كما سلكنا بكم طريق الهلكة) سواء علينا أجزعنا أم صبرنا (وروي أنهم يقولون : تعالوا نجزع ، فيجزعون خمسمائة ع ا م فلا ينفعهم ، فيقولون : تعالوا نصبر ، فيصبرون كذلك ثم يقولون : سواء علينا . فإن قلت : كيف اتصل قوله سواء علينا بما قبله ؟ قلت اتصاله من حيث أن **عتابهم** لهم كان جزعا مما هم فيه ، فقالوا : سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ، يريدون أنفسهم وإياهم ، لاجتماعهم في عقاب الضلالة التي كانوا مجتمعين فيها ، يقولون : ما هذا الجزع والتوبيخ ؟ ولا فائدة في الجزع كما لا فائدة في الصبر والأمر من ذلك أطم . أو لما قالوا لو هدانا الله طريق النجاة لأغنينا عنكم وأنجيناكم ، أتبعوه الإقناط من النجاة فقالوا :) ما لنا من محيص (أي منجى ومهرب ، جزعنا أم صبرنا ، ويجوز أن يكون من كلام الضعفاء والمستكبرين جميعا ، كأنه قيل : قالوا جميعا سواء علينا ، كقوله :) ذالك ليعلم أنى لم ((يوسف : ٥٢) والمحيص يكون مصدرا كالمغيب والمشيب . ومكانا كالمبيت والمصيف . ويقال : حاص عنه وجاض ، بمعنى واحد .

) وقال الشيطان لما قضى الا مر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلومونى ولوموا أنفسكم مآ أنا بمصرخكم ومآ أنتم بمصرخى إنى كفرت بمآ أشركتمون من قبل

---

(١) تفسير الكشاف ـ موافق للمطبوع، ٢/٥١٥

إن الظالمين لهم عذاب أليم (

إبراهيم : (٢٢) وقال الشيطان لما . . . . .

) لما قضى الامر (لما قطع الأمر وفرغ منه ، وهو الحساب ، وتصادر الفريقين ودخول أحدهما الجنة ودخول الآخر النار . وروي أن الشيطان يقوم عند ذلك خطيبا في الأشقياء." (١)

"" صفحة رقم ٥٧٦ "

والثاني : أن يجمع بين **العتاب** والمنة . وقيل : السكر النبيذ . وهو عصير العنب والزبيب والتمر إذا طبخ حتى يذهب ثلثاه ، ثم يترك حتى يشتد ، وهو حلال عند أبي حنيفة إلى حد السكر ويحتج بهذه الآية وبقوله (صلى الله عليه وسلم) .

(٥٨٦) (الخمر حرام لعينها والسكر من كل شراب) وبأخبار جمة . ولقد صنف شيخنا أبو علي الجبائي قدس الله روحه غير كتاب في تحليل النبيذ ، فلما شيخ وأخذت منه السن العالية قيل له : لو شربت منه ما تتقوى به ، فأبى . فقيل له : فقد صنفت في تحليله ، فقال : تناولته الدعارة فسمج في المروءة . وقيل : السكر الطعم وأنشد : جعلت أعراض الكرام سكرا ؛

أي تنقلت بأعراضهم . وقيل هو من الخمر ، وإنه إذا ابترك في أعراض الناس ، فكأنه تخمر بها . والرزق الحسن : الخل والرب والتمر والزبيب وغير ذلك . ويجوز أن يجعل السكر رزقا حسنا ، كأنه قيل : تتخذون منه ما ه و سكر ورزق حسن .

) وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفآء للناس إن فى ذالك لآية لقوم يتفكرون (

النحل : (٦٨) وأوحى ربك إلى . . . . .

الإيحاء إلى النحل : إلهامها والقذف في قلوبها وتعليمها على وجه هو أعلم به ، لا سبيل لأحد إلى الوقوف عليه ، وإلا فنيقتها في صنعتها ، ولطفها في تدبير أمرها ، وإصابتها فيما يصلحها ، دلائل بينة شاهدة على أن الله أودعها علما بذلك وفطنها ، كما أولى أولي العقول عقولهم . وقرأ يحيى بن وثاب) إلى النحل (بفتحتين . وهو مذكر كالنحل ، وتأنيثه على المعنى) أن اتخذى (هي أن المفسرة ؛ لأن الإيحاء فيه معنى القول . وقرىء : (بيوتا) بكسر الباء لأجل الياء . و) يعرشون (بكسر الراء وضمها : يرفعون من سقوف." (٢)

---

(١) تفسير الكشاف . موافق للمطبوع، ٥١٦/٢

(٢) تفسير الكشاف . موافق للمطبوع، ٥٧٦/٢

"" صفحة رقم ٨٢ "

وتنجز موعدك . وقوله :) هم أولاء على أثرى (كما ترى غير منطبق عليه . قلت : قد تضمن ما واجهه به رب العزة شيئين ، أحدهما : إنكار العجلة في نفسها . والثاني : السؤال عن سبب المستنكر والحامل عليه ، فكان أهم الأمرين إلى موسى بسط العذر وتمهيد العلة في نفس ما أنكر عليه ، فاعتل بأنه لم يوجد مني إلا تقدم يسير ، مثله لا يعتد به في العادة ولا يحتفل به . وليس بيني وبين من سبقته إلا مسافة قريبة يتقدم بمثلها الوفد رأسهم ومقدمهم ، ثم عقبه بجواب السؤال عن السبب فقال :) وعجلت إليك رب لترضى (ولقائل أن يقول : حار لما ورد عليه من التهيب **لعتاب** الله ، فأذهله ذلك عن الجواب المنطبق المرتب على حدود الكلام .

) قال فإنا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامرى (

طه : (٨٥) قال فإنا قد . . . . . .

أراد بالقوم المفتونين : الذين خلفهم مع هارون وكانوا ستمائة ألف مانجا من عبادة العجل منهم إلا اثنا عشر ألفا . فإن قلت : في القصة أنهم أقاموا بعد مفارقته عشرين ليلة ، وحسبوها أربعين مع أيامها ، وقالوا : قد أكملنا العدة ، ثم كان أمر العجل بعد ذلك ، فكيف التوفيق بين هذا وبين قوله تعالى لموسى عند مقدمه) إنا قد فتنا قومك (؟ قلت : قد أخبر الله تعالى عن الفتنة المترقبة . بلفظ الموجودة الكائنة على عادته . أو افترص السامري غيبته فعزم على إضلالهم غب انطلاقه ، وأخذ في تدبير ذلك . فكان بدء الفتنة موجودا . قرىء : (وأضلهم السامري) أي هو أشدهم ضلالا : لأنه ضال مضل ، وهو منسوب إلى قبيلة من بني إسرائيل يقال لها السامرة . وقيل : السامرة قوم من اليهود يخالفونهم في بعض دينهم : وقيل كان من أهل باجرما . وقيل : كان علجا من كرمان . واسمه موسى بن ظفر ، وكان منافقا قد أظهر الإسلام ، وكان من قوم يعبدون البقر .

) فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفا قال ياقوم ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدى قالوا مآ أخلفنا موعدك بملكنا ولاكنا حملنآ أوزارا من زينة القوم فقذفناها فكذلك ألقى السامرى فأخرج لهم عجلا جسدا له خوار فقالوا هاذآ إلاهكم وإلاه موسى فنسى (

طه : (٨٦) فرجع موسى إلى . . . . . .

الأسف : الشديد الغضب . ومنه قوله عليه السلام في موت الفجأة .

(٦٨٦) (رحمة للمؤمن وأخذة أسف للكافر) وقيل : الحزين . فإن قلت : متى رجع." (١)

"" صفحة رقم ٨٥ "

لتفرقوا وتفانوا ، فاستأنيتك أن تكون أنت المدارك بنفسك ، المتلافي برأيك ؛ وخشيت **عتابك** على إطراح ما وصيتني به من ضم النشر وحفظ الدهماء ولم يكن لي بد من رقبة وصيتك والعمل على موجبها .

) قال فما خطبك ياسامري قال بصرت بما لم يبصروا به فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها وكذالك سولت لى نفسى

---

(١) تفسير الكشاف ـ موافق للمطبوع، ٨٢/٣

(
طه : (٩٥) قال فما خطبك . . . . .
الخطب : مصدر خطب الأمر إذا طلبه ، فإذا قيل لمن يفعل شيئا : ما خطبك ؟ فمعناه : ما طلبك له ؟ قرىء :) بصرت بما لم يبصروا به (بالكسر ، والمعنى : علمت ما لم تعلموه ، وفطنت ما لم تفطنوا له . قرأ الحسن) قبضة (بضم القاف وهي اسم المقبوض ، كالغرفة والمضغة . وأما القبضة فالمرة من القبض ، وإطلاقها على المقبوض من تسمية المفعول بالمصدر ، كضرب الأمير . وقرأ أيضا : فقبصت قبصة ، بالصاد المهملة الضاد : بجميع الكف والصاد : بأطراف الأصابع . ونحوهما : الخضم ، والقضم : الخاء بجميع الفم ؛ والقاف بمقدمه : قرأ ابن مسعود : (من أثر فرس الرسول) فإن قلت : لم سماه الرسول دون جبريل وروح القدس ؟ قلت : حين حل ميعاد الذهاب إلى الطور أرسل الله إلى موسى جبريل راكب حيزوم فرس الحياة ليذهب به ، فأبصره السامري فقال : إن لهذا شأنا ، فقبض قبضة من تربة موطئه ، فلما سأله موسى عن قصته قال : قبضت من أثر فرس المرسل إليك يوم حلول الميعاد . ولعله لم يعرف أنه جبريل .
) قال فاذهب فإن لك فى الحيواة أن تقول لا مساس وإن لك موعدا لن تخلفه وانظر إلى إلاهك الذى ظلت عليه عاكفا لنحرقنه ثم لننسفنه فى اليم نسفا (
طه : (٩٧) قال فاذهب فإن . . . . .
عوقب في الدنيا بعقوبة لا شيء أطم منها وأوحش ، وذلك أنه منع من مخالطة الناس منعا كليا ، وحرم عليهم ملاقاته ومكالمته ومبايعته ومواجهته وكل ما يعايش به الناس بعضهم بعضا ، وإذا اتفق أن يماس أحدا رجلا أو امرأة ، حم الماس والممسوس ، فتحامى الناس وتحاموه ، وكان يصيح : لا مساس ، وعاد في الناس أوحش من القاتل اللاجىء إلى الحرم ، ومن الوحشي النافر في البرية . ويقال : إن قومه باق فيهم ذلك إلى اليوم . وقرىء :) لا مساس (بوزن فجار . ونحوه قولهم في الظباء . إذا وردت الماء فلا عباب ، وإن فقدته فلا أباب : وهي أعلام للمسة والعبة والأبة ، وهي المرة من الأب وهو." (١)
"" صفحة رقم ٢٢٧ "
له لي ، ورجع إلى مسطح نفقته وقال : والله لا أنزعها أبدا . وقرأ أبو حيوة وابن قطيب : (أن تؤتوا) ، بالتاء على الالتفات . ويعضده قوله :) ألا تحبون أن يغفر الله لكم (.
) إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا فى الدنيا والا خرة ولهم عذاب عظيم (
النور : (٢٣) إن الذين يرمون . . . . .
) الغافلات (السليمات الصدور ، النقيات القلوب ، اللاتي ليس فيهن دهاء ، ولا مكر ، لأنهن لم يجربن الأمور ولم يرزن الأحوال ، فلا يفطن لما تفطن له المجربات العارفات . قال : ولقد لهوت بطفلة ميالة

---

(١) تفسير الكشاف . موافق للمطبوع، ٨٥/٣

بلهاء تطلعني على أسرارها

وكذلك البله من الرجال في قوله عليه الصلاة والسلام :

(٧٤١) (أكثر أهل الجنة البله) .

) يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين (

النور : (٢٤) يوم تشهد عليهم . . . . .

وقرىء : (يشهد) بالياء . والحق : بالنصب صفة للدين وهو الجزاء ، وبالرفع صفة لله ، ولو فليت القرآن كله وفتشت عما أوعد به من العصاة لم تر الله تعالى قد غلظ في شيء تغليظه في إفك عائشة رضوان الله عليها ، ولا أنزل من الآيات القوارع ، المشحونة بالوعيد الشديد والعتاب البليغ والزجر العنيف ، واستعظام ما ركب من ذلك ، واستفظاع ما أقدم عليه ، ما أنزل فيه على طرق مختلفة وأساليب مفتنة . كل واحد منها كاف في." (١)

"" صفحة رقم ٢٤٣ "

بالنكاح الذي يحصن به الدين ويقع به الاستغناء بالحلال عن الحرام ، ثم بالحمل على النفس الأمارة بالسوء وعزفها عن الطموح إلى الشهوة عند العجز عن النكاح إلى أن يرزق القدرة عليه) والذين يبتغون (مرفوع على الابتداء . أو منصوب بفعل مضمر يفسره) فكاتبوهم (كقولك : زيدا فاضربه ، ودخلت الفاء لتضمن معنى الشرط . والكتاب والمكاتبة ، كالعتاب والمعاتبة : وهو أن يقول الرجل لمملوكه : كاتبتك على ألف درهم ، فإن أداها عتق . ومعناه : كتبت لك على نفسي أن تعتق مني إذا وفيت بالمال ، وكتبت لي على نفسك أن تفي بذلك . أو كتبت عليك الوفاء بالمال وكتبت علي العتق . ويجوز عند أبي حنيفة رضي الله عنه حالا ومؤجلا ، ومنجما وغير منجم ؛ لأن الله تعالى لم يذكر التنجيم ، وقياسا على سائر العقود . وعند الشافعي رضي الله عنه : لا يجوز إلا مؤجلا منجما . لا يجوز عنده بنجم واحد ؛ لأن العبد لا يملك شيئا ، فعقده حالا منع من حصول الغرض ، لأنه لا يقدر على أداء البدل عاجلا ، ويجوز عقده على مال قليل وكثير ، وعلى خدمة في مدة معلومة ، وعلى عمل معلوم مؤقت : مثل حفر بئر في مكان بعينه معلومة الطول والعرض وبناء دار قد أراه آجرها وجصها وما يبنى به . وإن كاتبه على قيمته لم يجز . فإن أداها عتق ، وإن كاتبه على وصيف ، جاز ، لقلة الجهالة ووجب الوسط ، وليس له أن يطأ المكاتبة ، وإذا أدى عتق ، وكان ولاؤه لمولاه ؛ لأنه جاد عليه بالكسب الذي هو في الأصل له ، وهذا الأمر للندب عند عامة العلماء . وعن الحسن رضي الله عنه : ليس ذلك بعزم ، إن شاء كاتب وإن شاء لم يكاتب . وعن عمر رضي الله عنه : هي عزمة من عزمات الله . وعن ابن سيرين مثله وهو مذهب داود) خيرا (قدرة على أداء ما يفارقون عليه . وقيل : أمانة وتكسبا . وعن سلمان رضي الله عنه أن مملوكا له ابتغى أن يكاتبه فقال : أعندك مال ؟ قال : لا ، قال : أفتأمرني أن آكل غسالة أيدي الناس) وءاتوهم (أمر المسلمين على وجه الوجوب بإعانة المكاتبين وإعطائهم سهمهم الذي جعل الله لهم من بيت المال ، كقوله تعالى :) وفي الرقاب

---

(١) تفسير الكشاف . موافق للمطبوع، ٣/٢٢٧

((البقرة : ١٧٧) ، (التوبة : ٦٠) عند أبي حنيفة وأصحابه رضي الله عنهم . فإن قلت : هل يحل لمولاه إذا كان غنيا أن يأخذ ما تصدق به عليه ؟ قلت : نعم . وكذلك إذا لم تف الصدقة بجميع البدل وعجز عن أداء الباقي طاب للمولى ما أخذه ؛ لأنه لم يأخذه بسبب الصدقة ، ولكن بسبب عقد المكاتبة كمن اشترى الصدقة من الفقير أو ورثها أو وهبت له ، ومنه قوله (صلى الله عليه وسلم) في حديث بريرة :." (١)

"" صفحة رقم ٢٧٣ "

والشهوة ، وأن لا تنغص ، وكذلك العقاب يتضاعف بغثاثة الموضع وضيقه وظلمته وجمعه لأسباب الاجتواء والكراهة ، فلذلك ذكر المصير مع ذكر الجزاء . والضمير في) كان (لما يشاؤون . والوعد : الموعود ، أي : كان ذلك موعودا واجبا على ربك إنجازه ، حقيقا أن يسئل ويطلب ، لأنه جزاء وأجر مستحق . وقيل : قد سأله الناس والملائكة في دعواتهم :) ربنا وءاتنا ما وعدتنا على رسلك ((آل عمران : ١٩٤) ،) ربنا ءاتنا فى الدنيا حسنة وفي الاخرة حسنة ((البقرة : ٢٠١) ،) ربنا وأدخلهم جنات عدن التى وعدتهم ((غافر : ٨) .

) ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول أءنتم أضللتم عبادى هاؤلاء أم هم ضلوا السبيل قالوا سبحانك ما كان ينبغى لنآ أن نتخذ من دونك من أوليآء ولاكن متعتهم وءابآءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوما بورا (

الفرقان : (١٧) ويوم يحشرهم وما . . . . .

يحشرهم . فيقول : كلاهما بالنون والياء ، وقرىء : (يحشرهم) ، بكسر الشين ،) وما يعبدون (يريد : المعبودين من الملائكة والمسيح وعزير . وعن الكلبي : الأصنام ينطقها الله . ويجوز أن يكون عاما لهم جميعا . فإن قلت : كيف صح استعمال) ما كان ينبغى لنآ أن نتخذ من دونك من أوليآء ولاكن متعتهم وءابآءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوما بورا (في العقلاء ؟ قلت : هو موضوع على العموم للعقلاء وغيرهم ، بدليل قولك إذا رأيت شبحا من بعيد : ما هو ؟ فإذا قيل لك : إنسان ، قلت حينئذ : من هو ؟ ويدلك قولهم (من) لما يعقل . أو أريد به الوصف ، كأنه قيل : ومعبوديهم ، ألا تراك تقول إذا أردت السؤال عن صفة زيد ؟ ما زيد : تعني : أطويل أم قصير ؟ أفقيه أم طبيب ؟ فإن قلت : ما فائدة أنتم وهم ؟ وهلا قيل أضللتم عبادي هؤلاء ، أم هم ضلوا السبيل ؟ قلت : ليس السؤال عن الفعل ووجوده ، لأنه لولا وجوده لما توجه هذا **العتاب** ، وإنما هو عن متوليه ، فلا بد من ذكره وإيلائه حرف الاستفهام ، حتى يعلم أنه المسؤول عنه ، فإن قلت : فالله سبحانه قد سبق علمه بالمسؤول عنه ، فما فائدة هذا السؤال ؟ قلت : فائدته أن يجيبوا بما أجابوا به ، حتى يبكت عبدتهم بتكذيبهم إياهم ، فيبهتوا وينخذلوا وتزيد حسرتهم ، ويكون ذلك نوعا مما يلحقهم من غضب الله وعذابه ، ويغتبط المؤمنون ويفرحوا بحالهم ونجاتهم من فضيحة أولئك ، وليكون حكاية ذلك في القرآن لطفا للمكلفين . وفيه كسر بين لقول من يزعم." (٢)

---

(١) تفسير الكشاف ـ موافق للمطبوع، ٢٤٣/٣

(٢) تفسير الكشاف ـ موافق للمطبوع، ٢٧٣/٣

"" صفحة رقم ٤٩٥ "
) ولقد ضربنا للناس فى هاذا القرءان من كل مثل ولئن جئتهم بأاية ليقولن الذين كفروا إن أنتم إلا مبطلون كذالك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون (
الروم : (٥٨) ولقد ضربنا للناس . . . . .
) ولقد (وصفنا لهم كل صفة كأنها مثل في غرابتها ، وقصصنا عليهم كل قصة عجيبة الشأن ، كصفة المبعوثين يوم القيامة ، وقصتهم ، وما يقولون وما يقال لهم ، وما لا ينفع من اعتذارهم ولا يسمع من **استعتابهم** ، ولكنهم لقسوة قلوبهم ومج أسماعهم حديث الآخرة إذا جئتهم بآية من آيات القرآن ، قالوا : جئتنا بزور وباطل ، ثم قال : مثل ذلك الطبع يطبع الله على قلوب الجهلة . ومعنى طبع الله : منع الألطاف التي ينشرح لها الصدور حتى تقبل الحق ، وإنما يمنعها من علم أنها لا تجدي عليه ولا تغني عنه ، كما يمنع الواعظ والموعظة من يتبين له أن الموعظة تلغو ولا تنجع فيه ، فوقع ذلك كناية عن قسوة قلوبهم وركوب الصدأ والرين إياها ، فكأنه قال : كذلك تقسو وتصدأ قلوب الجهلة ، حتى يسموا المحقين مبطلين ، وهم أعرق خلق الله في تلك الصفة) فاصبر (على عداوتهم) إن وعد الله (بنصرتك وإظهار دينك على الدين كله) حق (لا بد من إنجازه والوفاء به ، ولا يحملنك على الخفة والقلق جزعا مما يقولون ويفعلون فإنهم قوم شاكرون ضالون لا يستبدع منهم ذلك . وقرىء بتخفيف النون . وقرأ ابن أبي إسحاق ويعقوب : (ولا يستحقنك) ، أي : لا يفتننك فيملكوك ويكونوا أحق بك من المؤمنين .
عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) :
(٨٥٠) (من قرأ سورة الروم كان له من الأجر عشر حسنات بعدد كل ملك سبح الله بين السماء والأرض وأدرك ما ضيع في يومه وليلته) .." (١)
"" صفحة رقم ٥٣٥ "
حيرة وشخوصا . وقيل : عدلت عن كل شيء فلم تلتفت إلا إلى عدوها لشدة الروع . الحنجرة : رأس الغلصمة وهي منتهى الحلقوم . والحلقوم : مدخل الطعام والشراب ، قالوا : إذا انتفخت الرئة من شدة الفزع أو الغضب أو الغم الشديد : ربت وارتفع القلب بارتفاعها إلى رأس الحنجرة ، ومن ثمة قيل للجبان : انتفخ سحره . ويجوز أن يكون ذلك مثلا في اضطراب القلوب ووجيبها وإن لم تبلغ الحناجر حقيقة) وتظنون بالله الظنونا (خطاب للذين آمنوا . ومنهم الثبت القلوب والأقدام ، والضعاف القلوب : الذين هم على حرف ، والمنافقون : الذين لم يوجد منهم الإيمان إلا بألسنتهم فظن الأولون بالله أنه يبتليهم ويفتنهم فخافوا الزلل وضعف الاحتمال ، وأما الآخرون فظنوا بالله ما حكى عنهم . وعن الحسن : ظنوا ظنونا مختلفة : ظن المنافقون أن المسلمين يستأصلون ، وظن المؤمنون أنهم يبتلون . وقرىء (الظنون) بغير ألف في الوصل والوقف وهو القياس ، وبزيادة ألف في الوقف زادوها في الفاصلة ، كما زادها في القافية من قال : أقلي اللوم عاذل **والعتابا** ؛

---

(١) تفسير الكشاف . موافق للمطبوع، ٣/٤٩٥

وكذلك الرسولا والسبيلا . وقرىء بزيادتها في الوصل أيضا ، إجراء له مجرى الوقف . قال أبو عبيد : وهن كلهن في الإمام بألف . وعن أبي عمرو إشمام زاي زلزلوا . وقرىء : (زلزالا) بالفتح . والمعنى : أن الخوف أزعجهم أشد الإزعاج .

) وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا وإذ قالت طآئفة منهم ياأهل . يثرب لا مقام لكم فارجعوا ويستأذن فريق منهم النبى يقولون إن بيوتنا عورة وما هى بعورة إن يريدون إلا فرارا ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لاتوها وما تلبثوا بهآ إلا يسيرا (
الأحزاب : (١٢) وإذ يقول المنافقون . . . . .

) إلا غرورا (قيل قائله : معتب بن قشير حين رأى الأحزاب قال : يعدنا محمد فتح فارس والروم ، وأحدنا لا يقدر أن يتبرز فرقا ، ما هذا إلا وعد غرور) طائفة منهم (هم أوس بن قيظي ومن وافقه على رأيه . وعن السدي عبد الله بن أبي وأصحابه . ويثرب : اسم المدينة . وقيل : أرض وقعت المدينة في ناحية منها) لا مقام لكم (قرىء بضم الميم." (١)

"وقال بعضهم بما حدثني به، يونس، قال: أنبأنا ابن وهب، قال: قال ابن زيد: " في قول الله تعالى: ﴿ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين﴾ [غافر: ١١] قال: خلقهم من ظهر آدم حين أخذ عليهم الميثاق. وقرأ: ﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم﴾ [الأعراف: ١٧٢] حتى بلغ: ﴿أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون﴾ [الأعراف: ١٧٣] قال: فكسبهم العقل وأخذ عليهم الميثاق. قال: وانتزع ضلعا من أضلاع آدم القصيرى، فخلق منه حواء، ذكره عن النبي صلى الله عليه وسلم. قال: وذلك قول الله تعالى: ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء﴾ [النساء: ١] قال: وبث منهما بعد ذلك في الأرحام خلقا كثيرا، وقرأ: ﴿يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق﴾ [الزمر: ٦] قال: خلقا بعد ذلك. قال: فلما أخذ عليهم الميثاق أماتهم ثم خلقهم في الأرحام، ثم أماتهم ثم أحياهم يوم القيامة، فذلك قول الله: ﴿ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا -[٤٤٧]- اثنتين فاعترفنا بذنوبنا﴾ [غافر: ١١] وقرأ قول الله: ﴿وأخذنا منهم ميثاقا غليظا﴾ [النساء: ١٥٤] قال: يومئذ. قال: وقرأ قول الله: ﴿واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذي واثقكم به إذ قلتم سمعنا وأطعنا﴾ [المائدة: ٧] ". قال أبو جعفر: ولكل قول من هذه الأقوال التي حكيناها عمن رويناها عنه وجه ومذهب من التأويل. فأما وجه تأويل من تأول قوله: ﴿كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم﴾ [البقرة: ٢٨] أي لم تكونوا شيئا، فإنه ذهب إلى نحو قول العرب للشيء الدارس والأمر الخامل الذكر: هذا شيء ميت، وهذا أمر ميت؛ يراد بوصفه بالموت خمول ذكره ودروس أثره من الناس. وكذلك يقال في ضد ذلك وخلافه: هذا أمر حي، وذكر حي؛ يراد بوصفه بذلك أنه نابه متعالم في الناس كما قال أبو نخيلة السعدي:
[البحر الطويل]

---

(١) تفسير الكشاف . موافق للمطبوع، ٥٣٥/٣

فأحييت لي ذكري وما كنت خاملا ... ولكن بعض الذكر أنبه من بعض

يريد بقوله: فأحييت لي ذكري: أي رفعته وشهرته في الناس حتى نبه فصار مذكورا حيا بعد أن كان خاملا ميتا. فكذلك تأويل قول من قال في قوله: ﴿وكنتم أمواتا﴾ [البقرة: ٢٨] لم تكونوا شيئا: أي كنتم خمولا لا ذكر لكم، وذلك كان موتكم، فأحياكم فجعلكم -[٤٤٨]- بشرا أحياء تذكرون وتعرفون، ثم يميتكم بقبض أرواحكم وإعادتكم كالذي كنتم قبل أن يحييكم من دروس ذكركم، وتعفي آثاركم، وخمول أموركم؛ ثم يحييكم بإعادة أجسامكم إلى هيئاتها ونفخ الروح فيها وتصييركم بشرا كالذي كنتم قبل الإماتة لتعارفوا في بعثكم وعند حشركم. وأما وجه تأويل من تأول ذلك أنه الإماتة التي هي خروج الروح من الجسد، فإنه ينبغي أن يكون ذهب بقوله: ﴿وكنتم أمواتا﴾ [البقرة: ٢٨] إلى أنه خطاب لأهل القبور بعد إحيائهم في قبورهم. وذلك معنى بعيد، لأن التوبيخ هنالك إنما هو توبيخ على ما سلف وفرط من إجرامهم لا استعتاب واسترجاع وقوله جل ذكره: ﴿كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا﴾ [البقرة: ٢٨] توبيخ مستعتب عباده، وتأنيب مسترجع خلقه من المعاصي إلى الطاعة ومن الضلالة إلى الإنابة، ولا إنابة في القبور بعد الممات ولا توبة فيها بعد الوفاة. وأما وجه تأويل قول قتادة ذلك: أنهم كانوا أمواتا في أصلاب آبائهم. فإنه عنى بذلك أنهم كانوا نطفا لا أرواح فيها، فكانت بمعنى سائر الأشياء الموات التي لا أرواح فيها. وإحياؤه إياها تعالى ذكره: نفخه الأرواح فيها وإماتته إياهم بعد ذلك قبضه أرواحهم، وإحياؤه إياهم بعد ذلك: نفخ الأرواح في أجسامهم يوم ينفخ في الصور ويبعث الخلق للموعود. وأما ابن زيد فقد أبان عن نفسه ما قصد بتأويله ذلك، وأن الإماتة الأولى -[٤٤٩]- عند إعادة الله جل ثناؤه عباده في أصلاب آبائهم بعد ما أخذهم من صلب آدم، وأن الإحياء الآخر: هو نفخ الأرواح فيهم في بطون أمهاتهم، وأن الإماتة الثانية هي قبض أرواحهم للعود إلى التراب والمصير في البرزخ إلى اليوم البعث، وأن الإحياء الثالث: هو نفخ الأرواح فيهم لبعث الساعة ونشر القيامة. وهذا تأويل إذا تدبره المتدبر وجده خلافا لظاهر قول الله الذي زعم مفسره أن الذي وصفنا من قوله تفسيره. وذلك أن الله جل ثناؤه أخبر في كتابه عن الذين أخبر عنهم من خلقه أنهم قالوا: ﴿ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين﴾ [غافر: ١١] وزعم ابن زيد في تفسيره أن الله أحياهم ثلاث إحياءات، وأماتهم ثلاث إماتات. والأمر عندنا وإن كان فيما وصف من استخراج الله جل ذكره من صلب آدم ذريته، وأخذه ميثاقه عليهم كما وصف، فليس ذلك من تأويل هاتين الآيتين، أعني قوله: ﴿كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا﴾ [البقرة: ٢٨] الآية، وقوله: ﴿ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين﴾ [غافر: ١١] في شيء؛ لأن أحدا لم يدع أن الله أمات من ذرأ يومئذ غير الإماتة التي صار بها في البرزخ إلى يوم البعث، فيكون جائزا أن يوجه تأويل الآية إلى ما وجهه إليه ابن زيد. وقال بعضهم: الموتة الأولى: مفارقة نطفة الرجل جسده إلى رحم المرأة، فهي ميتة من لدن فراقها جسده إلى نفخ الروح فيها، ثم يحييها الله بنفخ الروح فيها فيجعلها بشرا سويا بعد تارات تأتي عليها، ثم يميته الميتة الثانية بقبض الروح منه. فهو في البرزخ ميت إلى يوم ينفخ في الصور فيرد في جسده روحه، فيعود حيا سويا لبعث القيامة؛ فذلك موتتان وحياتان. -[٤٥٠]- وإنما دعا هؤلاء إلى هذا القول لأنهم قالوا: موت ذي الروح مفارقة الروح إياه، فزعموا أن كل شيء من ابن آدم حي ما لم يفارق جسده الحي ذا الروح، فكل ما فارق جسده الحي ذا الروح فارقته الحياة فصار ميتا، كالعضو من أعضائه مثل اليد من يديه، والرجل

من رجليه لو قطعت وأبينت، والمقطوع ذلك منه حي، كان الذي بان من جسده ميتا لا روح فيه بفراقه سائر جسده الذي فيه الروح. قالوا: فكذلك نطفته حية بحياته ما لم تفارق جسده ذا الروح، فإذا فارقته مباينة له صارت ميتة، نظير ما وصفنا من حكم اليد والرجل وسائر أعضائه، وهذا قول ووجه من التأويل لو كان به قائل من أهل القدوة الذين يرتضى للقرآن تأويلهم. وأولى ما ذكرنا من الأقوال التي بينا بتأويل قول الله جل ذكره: ﴿كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم﴾ [البقرة: ٢٨] الآية، القول الذي ذكرناه عن ابن مسعود، وعن ابن عباس، من أن معنى قوله: ﴿وكنتم أمواتا﴾ [البقرة: ٢٨] أموات الذكر خمولا في أصلاب آبائكم نطفا لا تعرفون ولا تذكرون، فأحياكم بإنشائكم بشرا سويا، حتى ذكرتم وعرفتم وحييتم، ثم يميتكم بقبض أرواحكم وإعادتكم رفاتا لا تعرفون ولا تذكرون في البرزخ إلى يوم تبعثون، ثم يحييكم بعد ذلك بنفخ الأرواح فيكم لبعث الساعة وصيحة القيامة، ثم إلى الله ترجعون بعد ذلك، كما قال: ﴿ثم إليه ترجعون﴾ [البقرة: ٢٨] لأن الله جل ثناؤه يحييهم في قبورهم قبل حشرهم، ثم يحشرهم لموقف الحساب، كما قال جل ذكره: ﴿يوم يخرجون من الأجداث سراعا كأنهم إلى نصب يوفضون﴾ [المعارج: ٤٣] وقال: ﴿ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون﴾ [يس: ٥١] والعلة التي من أجلها اخترنا هذا التأويل، ما قد قدمنا ذكره للقائلين به -[٤٥١]- وفساد ما خالفه بما قد أوضحناه قبل. وهذه الآية توبيخ من الله جل ثناؤه للقائلين: ﴿آمنا بالله وباليوم الآخر﴾ [البقرة: ٨] الذين أخبر الله عنهم أنهم مع قيلهم ذلك بأفواههم غير مؤمنين به وأنهم إنما يقولون ذلك خداعا لله وللمؤمنين. فعذلهم الله بقوله: ﴿كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم﴾ [البقرة: ٢٨] ووبخهم واحتج عليهم في نكيرهم ما أنكروا من ذلك، وجحودهم ما جحدوا بقلوبهم المريضة فقال: كيف تكفرون بالله فتجحدون قدرته على إحيائكم بعد إماتتكم وإعادتكم بعد إفنائكم وحشركم إليه لمجازاتكم بأعمالكم. ثم عدد ربنا عليهم وعلى أوليائهم من أحبار اليهود الذين جمع بين قصصهم وقصص المنافقين في كثير من آي هذه السورة التي افتتح الخبر -[٤٥٢]- عنهم فيها بقوله: ﴿إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون﴾ [البقرة: ٦] نعمه التي سلفت منه إليهم وإلى آبائهم التي عظمت منهم مواقعها، ثم سلب كثيرا منهم كثيرا منها بما ركبوا من الآثام واجترموا من الإجرام وخالفوا من الطاعة إلى المعصية، يحذرهم بذلك تعجيل العقوبة لهم كالتي عجلها للأسلاف والأفراط قبلهم، ويخوفهم حلول مثلاته بساحتهم كالذي أحل بأوليهم، ويعرفهم ما لهم من النجاة في سرعة الأوبة إليه وتعجيل التوبة من الخلاص لهم يوم القيامة من العقاب. فبدأ بعد تعديده عليهم ما عدد من نعمه التي هم فيها مقيمون بذكر أبينا وأبيهم آدم أبي البشر، صلوات الله عليه، وما سلف منه من كرامته إليه وآلائه لديه، وما أحل به وبعدوه إبليس من عاجل عقوبته بمعصيتهما التي كانت منهما، ومخالفتهما أمره الذي أمرهما به وما كان من تغمده آدم برحمته إذ تاب وأناب إليه، وما كان من إحلاله بإبليس من لعنته في العاجل، وإعداده له ما أعد له من العذاب المقيم في الآجل إذ استكبر وأبى التوبة إليه والإنابة، منبها لهم على حكمه في المنيبين إليه بالتوبة، وقضائه في المستكبرين عن الإنابة، إعذارا من الله بذلك إليهم وإنذارا لهم، ليتدبروا آياته وليتذكر منهم أولو الألباب. وخاصا أهل الكتاب بما ذكر من قصص آدم وسائر القصص التي ذكرها معها وبعدها مما علمه أهل الكتاب وجهلته الأمة الأمية من مشركي عبدة الأوثان، بالاحتجاج عليهم دون غيرهم من سائر أصناف الأمم الذين لا علم عندهم بذلك لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم، ليعلموا بإخباره إياهم بذلك، أنه لله رسول مبعوث،

وأن ما جاءهم به فمن عنده، إذ كان م ا اقتص عليهم من هذه القصص من مكنون -[٤٥٣]- علومهم، ومصون ما في كتبهم، وخفي أمورهم التي لم يكن يدعي معرفة علمها غيرهم وغير من أخذ عنهم وقرأ كتبهم. وكان معلوما من محمد صلى الله عليه وسلم أنه لم يكن قط كاتبا ولا لأسفارهم تاليا، ولا لأحد منهم مصاحبا ولا مجالسا، فيمكنهم أن يدعوا أنه أخذ ذلك من كتبهم أو عن بعضهم، فقال جل ذكره في تعديده عليهم ما هم فيه مقيمون من نعمه مع كفرهم به وتركهم شكره عليها مما يجب له عليهم من طاعته: ﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شيء عليم﴾ فأخبرهم جل ذكره أنه خلق لهم ما في الأرض جميعا، لأن الأرض وجميع ما فيها لبني آدم منافع. أما في الدين فدليل على وحدانية ربهم، وأما في الدنيا فمعاش وبلاغ لهم إلى طاعته وأداء فرائضه؛ فلذلك قال جل ذكره: ﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا﴾ [البقرة: ٢٩] وقوله: هو مكني من اسم الله جل ذكره، عائد على اسمه في قوله: ﴿كيف تكفرون بالله﴾ [البقرة: ٢٨] ومعنى خلقه ما خلق جل ثناؤه: إنشاؤه عينه، وإخراجه من حال العدم إلى الوجود. وما بمعنى الذي. فمعنى الكلام إذا: كيف تكفرون بالله وقد كنتم نطفا في أصلاب آبائكم، فجعلكم بشرا أحياء، ثم يميتكم، ثم هو محييكم بعد ذلك، وباعثكم يوم الحشر للثواب -[٤٥٤]- والعقاب، وهو المنعم عليكم بما خلق لكم في الأرض من معايشكم وأدلتكم على وحدانية ربكم. وكيف بمعنى التعجب والتوبيخ لا بمعنى الاستفهام، كأنه قال: ويحكم كيف تكفرون بالله، كما قال: ﴿فأين تذهبون﴾ [التكوير: ٢٦] وحل قوله: ﴿وكنتم أمواتا فأحياكم﴾ [البقرة: ٢٨] محل الحال، وفيه إضمار قد، ولكنها حذفت لما في الكلام من الدليل عليها. وذلك أن فعل إذا حلت محل الحال كان معلوما أنها مقتضية قد، كما قال جل ثناؤه: ﴿أو جاءوكم حصرت صدورهم﴾ بمعنى: قد حصرت صدورهم وكما تقول للرجل: أصبحت كثرت ماشيتك، تريد: قد كثرت ماشيتك. وبنحو الذي قلنا ﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا﴾ [البقرة: ٢٩] في قوله: ﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا﴾ [البقرة: ٢٩] كان قتادة يقول." (١)

"عقوبته؛ ومعرفهم ما كان منه من تعطفه على التائب منهم **استعتابا** منه لهم. فكان مما عدد من نعمه عليهم، أنه خلق لهم ما في الأرض جميعا، وسخر لهم ما في السموات من شمسها وقمرها ونجومها وغير ذلك من منافعها التي جعلها لهم ولسائر بني آدم معهم منافع، فكان في قوله: ﴿كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون﴾ [البقرة: ٢٨] معنى: اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم، إذ خلقتكم ولم تكونوا شيئا، وخلقت لكم ما في الأرض جميعا، وسويت لكم ما في السماء. ثم عطف بقوله: ﴿وإذ قال ربك للملائكة﴾ [البقرة: ٣٠] على المعنى المقتضى بقوله: ﴿كيف تكفرون بالله﴾ [البقرة: ٢٨] إذ كان مقتضيا ما وصفت من قوله: اذكروا نعمتي إذ فعلت بكم وفعلت، واذكروا فعلي بأبيكم آدم، إذ قلت للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة. فإن قال قائل: فهل لذلك من نظير في كلام العرب نعلم به صحة ما قلت؟ قيل: نعم، أكثر من أن يحصى، من ذلك قول الشاعر:

---

(١) تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر الطبري، أبو جعفر ٤٤٦/١

[البحر الوافر]

أجدك لن ترى بثعيلبات ... ولا بيدان ناجية ذمولا." (١)

"موجودون ترونهم وتعاينونهم، وعلمه غيركم بتعليمي إياه، فأنتم بما هو غير موجود من الأمور الكائنة التي لم توجد بعد، وبما هو مستتر من الأمور التي هي موجودة عن أعينكم أحرى أن تكونوا غير عالمين، فلا تسألوني ما ليس لكم به علم، فإني أعلم بما يصلحكم ويصلح خلقي. وهذا الفعل من الله جل ثناؤه بملائكته الذين قالوا له: ﴿أتجعل فيها من يفسد فيها﴾ [البقرة: ٣٠] من جهة **عتابه** جل ذكره إياهم، نظير قوله جل جلاله لنبيه نوح صلوات الله عليه، إذ قال: ﴿رب إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين﴾ [هود: ٤٥] لا تسألن ما ليس لك به علم إني أعظك أن تكون من الجاهلين. فكذلك الملائكة سألت ربها أن تكون خلفاءه في الأرض يسبحوه ويقدسوه فيها، إذ كان ذرية من أخبرهم أنه جاعله في الأرض خليفة، يفسدون فيها، ويسفكون الدماء، فقال لهم جل ذكره: ﴿إني أعلم ما لا تعلمون﴾ [البقرة: ٣٠] يعني بذلك إني أعلم أن بعضكم فاتح المعاصي وخاتمها، وهو إبليس، منكرا بذلك تعالى ذكره قولهم. ثم عرفهم موضع هفوتهم في قيلهم ما قالوا من ذلك، بتعريفهم قصور علمهم عما هم له شاهدون عيانا، فكيف بما لم يروه ولم يخبروا عنه بعرضه ما عرض عليهم من خلقه الموجودين يومئذ، وقيله لهم: ﴿أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين﴾ [البقرة: ٣١] أنكم إن استخلفتكم في أرضي سبحتموني وقدستموني، وإن استخلفت فيها غيركم عصاني ذريته، وأفسدوا وسفكوا الدماء. فلما اتضح لهم موضع خطأ قيلهم، وبدت لهم هفوة زلتهم أنابوا إلى الله بالتوبة فقالوا: ﴿سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا﴾ [البقرة: ٣٢] فسارعوا الرجعة من." (٢)

"قيل: ﴿لا يعلمون الكتاب إلا أماني﴾ [البقرة: ٧٨] والأماني من غير نوع الكتاب، كما قال ربنا جل ثناؤه: ﴿ما لهم به من علم إلا اتباع الظن﴾ [النساء: ١٥٧] والظن من العلم بمعزل، وكما قال: ﴿وما لأحد عنده من نعمة تجزى إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى﴾ [الليل: ٢٠] وكما قال الشاعر:

[البحر الخفيف]

ليس بيني وبين قيس **عتاب** ... غير طعن الكلى وضرب الرقاب

وكما قال نابغة بني ذبيان:

[البحر الطويل]

حلفت يمينا غير ذي مثنوية ... ولا علم إلا حسن ظن بغائب

في نظائر لما ذكرنا يطول بإحصائها الكتاب. ويخرج بإلا ما بعدها من معنى ما قبلها، ومن صفته، وإن كان كل واحد منهما من غير شكل الآخر ومن غير نوعه، ويسمي ذلك بعض أهل العربية استثناء منقطعا لانقطاع الكلام الذي يأتي بعد إلا عن معنى ما قبلها. وإنما يكون ذلك كذلك في كل موضع حسن أن يوضع فيه مكان إلا لكن، فيعلم حينئذ

---

(١) تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر الطبري، أبو جعفر ٤٧٠/١

(٢) تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر الطبري، أبو جعفر ٥٢٤/١

انقطاع معنى الثاني عن معنى الأول، ألا ترى أنك إذا قلت: ﴿ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني﴾ [البقرة: ٧٨] ثم أردت وضع لكن مكان إلا وحذف." (١)

"ذكر من قال ذلك حدثني المثنى، قال: ثنا إسحاق، قال: ثنا ابن أبي جعفر، عن أبيه، عن أبي العالية: " ﴿ومن يتبدل الكفر بالإيمان﴾ [البقرة: ١٠٨] يقول: يتبدل -[٤١٥]- الشدة بالرخاء " حدثنا القاسم، قال: ثنا الحسين قال: حدثني حجاج، عن ابن أبي جعفر، عن الربيع، عن أبي العالية بمثله وفي قوله: ﴿ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل﴾ [البقرة: ١٠٨] دليل واضح على ما قلنا من أن هذه الآيات من قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا﴾ [البقرة: ١٠٤] خطاب من الله جل ثناؤه المؤمنين به من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم **وعتاب** منه لهم على أمر سلف منهم مما سر به اليهود وكرهه رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم، فكرهه الله لهم. فعاتبهم على ذلك، وأعلمهم أن اليهود أهل غش لهم وحسد وبغي، وأنهم يتمنون لهم المكاره ويبغونهم الغوائل، ونهاهم أن ينتصحوهم، وأخبرهم أن من ارتد منهم عن دينه فاستبدل بإيمانه كفرا فقد أخطأ قصد السبيل." (٢)

"القول في تأويل قوله تعالى: ﴿ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره إن الله على كل شيء قدير﴾ [البقرة: ١٠٩] قال أبو جعفر: وقد صرح هذا القول من قول الله جل ثناؤه، بأن خطابه بجميع هذه الآيات من قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا﴾ [البقرة: ١٠٤] وإن صرف في نفسه الكلام إلى خطاب النبي صلى الله عليه وسلم، إنما هو خطاب منه للمؤمنين وأصحابه، **وعتاب** منه لهم، ونهي عن انتصاح اليهود ونظرائهم من أهل الشرك وقبول آرائهم في شيء من أمور دينهم، ودليل على أنهم كانوا استعملوا، أو من استعمل منهم في خطابه ومسألته رسول الله صلى الله عليه وسلم الجفاء، وما لم يكن له استعماله معه، تأسيا باليهود في ذلك أو ببعضهم. فقال لهم ربهم ناهيا عن استعمال ذلك: لا تقولوا لنبيكم صلى الله عليه وسلم كما تقول له اليهود: «راعنا» تأسيا منكم بهم، ولكن قولوا: «انظرنا واسمعوا» فإن أذى رسول الله صلى الله عليه وسلم كفر بي وجحود لحقي الواجب لي عليكم في تعظيمه وتوقيره، ولمن كفر بي عذاب أليم؛ فإن اليهود والمشركين ما يودون أن ينزل عليكم من خير من ربكم، ولكن كثيرا منهم ودوا أنهم." (٣)

---

(١) تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر الطبري، أبو جعفر ٢/١٥٩

(٢) تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر الطبري، أبو جعفر ٢/٤١٤

(٣) تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر الطبري، أبو جعفر ٢/٤١٨

"من الله في أهل الإسلام دون أهل الحرب من المشركين؟ قيل: جاز أن يكون ذلك كذلك ، لأن حكم من حارب الله ورسوله وسعى في الأرض فسادا من أهل ذمتنا وملتنا واحد ، والذين عنوا بالآية كانوا أهل عهد وذمة ، وإن كان داخلا في حكمها كل ذمي وملي ، وليس يبطل بدخول من دخل في حكم الآية من الناس أن يكون صحيحا نزولها فيمن نزلت فيه. وقد اختلف أهل العلم في نسخ حكم النبي صلى الله عليه وسلم في العرنيين ، فقال بعضهم: ذلك حكم منسوخ ، نسخه نهيه عن المثلة بهذه الآية ، أعني بقوله: ﴿إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا﴾ [المائدة: ٣٣] الآية ، وقالوا: أنزلت هذه الآية **عتابا** لرسول الله صلى الله عليه وسلم فيما فعل بالعرنيين. وقال بعضهم: بل فعل النبي صلى الله عليه وسلم بالعرنيين حكم ثابت في نظرائهم أبدا ، لم ينسخ ولم يبدل. وقوله: ﴿إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله﴾ [المائدة: ٣٣] الآية ، حكم من الله فيمن حارب وسعى في الأرض فسادا بالحرابة. قالوا: والعرنيون ارتدوا وقتلوا وسرقوا وحاربوا الله ورسوله ، فحكمهم غير حكم المحارب الساعي في الأرض بالفساد من أهل الإسلام والذمة وقال آخرون: لم يسمل النبي صلى الله عليه وسلم أعين العرنيين ، ولكنه كان أراد أن يسمل ، فأنزل الله جل وعز هذه الآية على نبيه يعرفه الحكم فيهم ونهاه عن سمل أعينهم." (١)

"حدثنا ابن حميد، قال: ثنا سلمة، عن ابن إسحاق: " ﴿والله يعلم إنهم لكاذبون﴾ [التوبة: ٤٢] أي: إنهم يستطيعون " ذكر من قال ذلك: ﴿عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين﴾ [التوبة: ٤٣] وهذا **عتاب** من الله تعالى ذكره عاتب به نبيه صلى الله عليه وسلم في إذنه لمن أذن له في التخلف عنه حين شخص إلى تبوك لغزو الروم من المنافقين. -[٤٧٨]- يقول جل ثناؤه: ﴿عفا الله عنك﴾ [التوبة: ٤٣] يا محمد ما كان منك في إذنك لهؤلاء المنافقين الذي استأذنوك في ترك الخروج معك، وفي التخلف عنك من قبل أن تعلم صدقه من كذبه. ﴿لم أذنت لهم﴾ [التوبة: ٤٣] لأي شيء أذنت لهم. ﴿حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين﴾ [التوبة: ٤٣] يقول: ما كان ينبغي لك أن تأذن لهم في التخلف عنك؛ إذ قالوا لك: لو استطعنا لخرجنا معك، حتى تعرف من

---

(١) تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر الطبري، أبو جعفر ٣٦٨/٨

له العذر منهم في تخلفه ومن لا عذر له منهم، فيكون إذنك لمن أذنت له منهم على علم منك بعذره، وتعلم من الكاذب منهم المتخلف نفاقا وشكا في دين الله. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل." (١)

"القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وإذا رأى الذين ظلموا العذاب فلا يخفف عنهم ولا هم ينظرون﴾ [النحل: ٨٥] يقول تعالى ذكره: وإذا عاين الذين كذبوك يا محمد وجحدوا نبوتك والأمم الذين كانوا على منهاج مشركي قومك عذاب الله، فلا ينجيهم من عذاب الله شيء، لأنهم لا يؤذن لهم فيعتذرون فيخفف عنهم العذاب بالعذر الذي يدعونه، ﴿ولا هم ينظرون﴾ [البقرة: ١٦٢] يقول: ولا يرجئون بالعقاب، لأن وقت التوبة والإنابة قد فات، فليس ذلك وقتا لهما، وإنما هو وقت للجزاء على الأعمال، فلا ينظر **بالعتاب** ليعتب بالتوبة." (٢)

"حدثنا ابن حميد، قال: ثنا سلمة، عن ابن إسحاق، عن أبي **عتاب**، رجل من تغلب كان نصرانيا عمرا من دهره، ثم أسلم بعد، فقرأ القرآن، وفقه في الدين، وكان فيما ذكر أنه كان نصرانيا أربعين سنة، ثم عمر في الإسلام أربعين سنة قال: كان آخر أنبياء بني إسرائيل نبيا بعثه الله إليهم، فقال لهم: يا بني إسرائيل إن الله يقول لكم: إني قد سلبت أصواتكم، وأبغضتكم بكثرة أحداثكم، فهموا به ليقتلوه، فقال الله تبارك وتعالى له: ائتهم واضرب لي ولهم مثلا، فقل لهم: إن الله تبارك وتعالى يقول لكم: اقضوا بيني وبين كرمي ألم اختر له البلاد، وطيبت له المدرة، وحظرته بالسياج، وعرشته السويق والشوك والسياج والعوسج، وأحطته بردائي، ومنعته من العالم وفضلته، فلقيني بالشوك والجذوع، وكل شجرة لا تؤكل؟ ما لهذا اخترت البلدة، ولا طيبت المدرة، ولا حظرته بالسياج، ولا عرشته السويق، ولأحطته بردائي، ولا منعته من العالم فضلتكم وأتممت عليكم نعمتي، ثم استقبلتموني بكل." (٣)

"حدثنا ابن حميد، قال: ثنا يعقوب القمي، عن هارون بن عنترة، عن شيخ، من بني فزارة، في قوله: ﴿وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض﴾ [الكهف: ٩٩] قال: إذا ماج الجن والإنس، قال إبليس: فأنا أعلم لكم علم هذا الأمر، فيظعن إلى المشرق، فيجد الملائكة قد قطعوا الأرض، ثم يظعن إلى المغرب، فيجد الملائكة قد قطعوا الأرض، ثم يصعد يمينا وشمالا إلى أقصى الأرض، فيجد الملائكة قطعوا الأرض، فيقول: ما من محيص، فبينا هو كذلك، إذ عرض له طريق كالشراك، فأخذ عليه هو وذريته، فبينما هم عليه، إذ هجموا على النار، فأخرج الله خازنا من خزان النار، قال: يا إبليس ألم تكن لك المنزلة عند ربك، ألم تكن في الجنان؟ فيقول: ليس هذا يوم **عتاب**، لو أن الله فرض علي فريضة

(١) تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر الطبري، أبو جعفر ٤٧٧/١١
(٢) تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر الطبري، أبو جعفر ٣٢٨/١٤
(٣) تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر الطبري، أبو جعفر ٥٠٢/١٤

لعبدته فيها عبادة لم يعبده مثلها أحد من خلقه، فيقول: فإن الله قد فرض عليك فريضة، فيقول: ما هي؟ فيقول: يأمرك أن تدخل النار، فيتلكأ عليه، فيقول به وبذريته بجناحيه، فيقذفهم." (١)

"حدثنا ابن المثنى، قال: ثنا سهل بن حماد أبو **عتاب**، قال: ثنا شعبة، عن النعمان بن سالم، قالا: سمعت نافع بن جبير بن مطعم، يقول: قال عبد الله بن عمرو: «يأجوج ومأجوج لهم أنهار يلقمون ما شاءوا، ونساء يجامعون ما شاءوا، وشجر -[٤٠٠]- يلقمون ما شاءوا، ولا يموت رجل إلا ترك من ذريته ألفا فصاعدا»." (٢)

"القول في تأويل قوله تعالى: ﴿لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم -[٢١٢]- خيرا وقالوا هذا إفك مبين﴾ [النور: ١٢] وهذا **عتاب** من الله تعالى ذكره أهل الإيمان به فيما وقع في أنفسهم من إرجاف من أرجف في أمر عائشة بما أرجف به. يقول لهم تعالى ذكره: هلا أيها الناس إذ سمعتم ما قال أهل الإفك في عائشة ظن المؤمنون منكم والمؤمنات بأنفسهم خيرا يقول: ظننتم بمن قرف بذلك منكم خيرا، ولم تظنوا به أنه أتى الفاحشة. وقال ﴿بأنفسهم﴾ [الأنعام: ١٢٣] لأن أهل الإسلام كلهم بمنزلة نفس واحدة، لأنهم أهل ملة واحدة. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل." (٣)

"القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا وكان أمر الله مفعولا﴾ [الأحزاب: ٣٧] يقول تعالى ذكره لنبيه صلى الله عليه وسلم **عتابا** من الله له واذكر يا محمد ﴿إذ تقول للذي." (٤)

"ذكر من قال ذلك: حدثنا محمد، قال: ثنا أحمد، قال: ثنا أسباط، عن السدي، ﴿وجعل لله أندادا﴾ [الزمر: ٨] قال: " الأنداد من الرجال: يطيعونهم في معاصي الله " وقال آخرون: عنى بذلك أنه عبد الأوثان، فجعلها لله أندادا في عبادتهم إياها وأولى القولين في ذلك بالصواب قول من قال: عنى به أنه أطاع الشيطان في عبادة الأوثان، فجعل له الأوثان أندادا، لأن ذلك في سياق **عتاب** الله إياهم له على عبادتها." (٥)

---

(١) تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر الطبري، أبو جعفر ٤١٥/١٥

(٢) تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر الطبري، أبو جعفر ٣٩٩/١٦

(٣) تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر الطبري، أبو جعفر ٢١١/١٧

(٤) تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر الطبري، أبو جعفر ١١٤/١٩

(٥) تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر الطبري، أبو جعفر ١٧٣/٢٠

"﴿ولو ترى إذ المجرمون ناكسو رءوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا﴾ الآية، استعتب المساكين في غير حين **الاستعتاب** وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل." (١)

"وقوله: ﴿فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم﴾ [محمد: ١٨] يقول تعالى ذكره: فمن أي وجه لهؤلاء المكذبين بآيات الله ذكرى ما قد ضيعوا وفرطوا فيه من طاعة الله إذا جاءتهم الساعة، يقول: ليس ذلك بوقت ينفعهم التذكر والندم، لأنه وقت مجازاة لا -[٢٠٨]- وقت **استعتاب** ولا استعمال وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل." (٢)

"وفرحا وغرتهم الحياة الدنيا وذلك أن الله تعالى جعل لكم قوم عيدا يعظمونه ويصلون فيه فكان قوم اتخذوا عيدهم لهوا ولعبا إلا أمة محمد صلى الله عليه وسلم فإنهم اتخذوا عيدهم صلاة لله.

وذكرا مثل الجمعة والفطر والنحر وذكر به وعظ بالقرآن أن تبسل نفس بما كسبت يعني أن لا تبسل كقوله تعالى يبين الله لكم أن تضلوا. ومعنى الآية ذكرهم ليؤمنوا فلا تبسل نفس بما كسبت.

قال ابن عباس: تهلك، قتادة: تحبس.

الحسن، ومجاهد، وعكرمة، والسدي: تسلم للهلكة. علي ابن أبي طلحة عن ابن عباس:

تفضح.

الضحاك: تفضح وتحرق. والمؤرخ، وابن زيد: تؤخذ.

قال الشاعر:

وإبسالي بني بغير جرم ... بعونها ولا بدم مراق «١»

العوف بن الأحوض: وكان رهن بيته وحمل عن غنى لبني قشير دم السحقية. فقالوا: لا نرضى بك، فدفعهم رهنا، وقوله بعونا أي جنينا، والبعو الجناية.

وقال الأخفش: تبسل أي تجزى. وقال الفراء: ترتهن.

وأنشد النابغة ال‍جعدي:

ونحن رهنا بالإفاقة عامرا ... بما كان في الدرداء رهنا فأبسلا «٢»

---

(١) تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر الطبري، أبو جعفر ٥٣٠/٢٠

(٢) تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر الطبري، أبو جعفر ٢٠٧/٢١

وقال عطية العوفي: يسلم في خزية جهنم.

وقال أهل اللغة: أصل الإبسال التحريم، يقال: أبسلت الشيء إذا حرمته، والبسل الحرام.

قال الشاعر:

بكرت تلومك بعد وهن في الندى ... بسل عليك ملامتي **وعتابي** «٣»

فقال: أنشدنا بسل أي شجاع لا يقدر موته كأنه قد حرم نفسه ثم جعل ذلك نعتا لكل شديد. يترك، ويبقى. ويقال: شراب بسل أي متروك.

قال الشنفري:

---

(١) الصحاح: ٤/ ١٦٣٤

. (٢) الصحاح: ٢/ ٤٧٠

. (٣) لسان العرب: ١١/ ٥٥

.." (١)

"فعلها عبادة ومن أجلها، وذلك فعل الوارعين.

ثم قال: ﴿ومن يضلل الله فما له من ولي من بعده﴾، أي: ومن يخذله الله فلا يوفقه إلى الهدى فليس من ولي يوليه فيهديه من بعد إضلال الله له.

ثم قال: ﴿وترى الظالمين لما رأوا العذاب يقولون هل إلى مرد من سبيل﴾، هذا مثل قوله:

﴿ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رءوسهم عند ربهم ربنآ أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا﴾ [السجدة: ١٢] استعتبوا في غير حين **استعتاب**، وسألوا الرجوع إلى الدنيا حين لا يقبل منهم، وبادروا إلى التوبة حين لا تنفعهم.

" ومن " في قوله: ﴿ولمن صبر﴾ مبتدأ، والخبر: " إن ذلك لمن عزم الأمور. . . " الجملة. وثم محذوف، فيه ضمير

---

(١) تفسير الثعلبي = الكشف والبيان عن تفسير القرآن الثعلبي ٤/١٥٨

يعود على المبتدأ والتقدير: إن ذلك منه لمن عزم الأمور. (ومثل هذا) قول العرب: " البرقفيزان بدرهم "، أي: قفيزان منه." (١)

"وآياتها.

قال الحسن: موت النبي عليه السلام من علاماتها، وقال غيره: بعث النبي من علاماتها، لأنه نبي بعث لا نبي بعده، وقد قال A: " بعثت أنا والساعة كفرسي رهان " (وقال أيضا): " بعثت أنا والساعة كهاتين " وأشار بالسبابة والوسطى.

ثم قال: ﴿فأنى لهم إذا جآءتهم ذكراهم﴾ أي: فمن أي وجه لهؤلاء الكفار تقع الذكرى إذ جاءتهم الساعة بغتة، أي: ليس ينفعهم ذلك الوقت تذكر ولا ندم، إذ ليس هو وقت عمل ولا **استعتاب** ولا تأخر، فالتقدير: من أين لهم منفعة التذكر والازدجار عن الكفر إذا جاءت الساعة وانقطعت التوبة.." (٢)

"بسم الله الرحمن الرحيم

سورة عبس

مكية

- قوله تعالى: ﴿عبس وتولى﴾، إلى قوله: ﴿ولأنعامكم﴾.

هذا **عتاب** من الله جل ذكره لنبيه A. قالت عائشة: أتى النبي A ابن أم مكتوم وعند النبي عظماء قريش، فجعل (ابن) أم مكتوم [يقول]: أرشدني، فجعل النبي A يعرض عنه [ويقبل] على الآخرين يقول لهم: أترون بما أقول." (٣)

"كانت في قتل النبي A قال ناس: لو كان نبيا ما قتل.

وقال ناس من عليه أصحاب النبي A: قاتلوا على ما قاتل عليه نبيكم حتى يفتح الله، أو تلحقوا به، فأنزل الله تبارك وتعالى في **عتاب** من قال: لو كان نبيا ما قتل ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل﴾.

وذكر الربيع أن رجلا من المهاجرين مر على رجل من الأنصار وهو يتشحط في دمه، فقال: يا فلان أشعرت أن محمدا A قد قتل؟ فقال الأنصاري: وإن كان محمد A قد قتل فقد بلغ، فقاتلوا عن دينكم.

قال السدي: " لما برز رسول الله A إليهم يوم أحد بعد صلاة لجمعة يوم الجمعة، أمر الرماة فقاموا في أصل الجبل في وجوه خيل المشركين. وقال لهم: لا تبرحوا مكانكم إن رأيتمونا قد هزمناهم، فإنا لن نزال غالبين ما ثبتم مكانكم، وأمر عليهم عبد الله بن جبير أخا خوات، ثم شد الزبير بن العوام والمقداد بن لأسود على المشركين فهزموهم وحمل A وأصحابه فهزموهم وهزموا أبا سفيان.." (٤)

---

(١) الهداية الى بلوغ النهاية مكي بن أبي طالب ٦٦١٠/١٠

(٢) الهداية الى بلوغ النهاية مكي بن أبي طالب ٦٩٠٥/١١

(٣) الهداية الى بلوغ النهاية مكي بن أبي طالب ٨٠٤٩/١٢

(٤) الهداية الى بلوغ النهاية مكي بن أبي طالب ١١٤١/٢

"قال ابن عباس: ربيون جموع كثيرة.

وقال ابن جبير: علماء كثير.

وقال الحسن: فقهاء وعلماء.

وقال ابن المبارك: أتقياء صبر.

وقال ابن زيد: الربانيون الأتباع، والربانيون الولاة.

وقيل الربانيون: منسوب إلى الرب أيضا واحد ربي وزيدت الألف والنون للمبالغة كالنسبة إلى الجهة: جهاتي ثم جمع بعد الزيادة وقد مضى ذكره.

وقال ابن زيد: هذا **عتاب** من الله D لأصحاب النبي عليه السلام حين صاح إليهم الشيطان يوم أحد أن محمدا قد قتل، فارجعوا إلى عشائركم يؤمنوكم. وقرأ الحسن وعكرمة وأبو رجاء: رقبيون بضم الراء غير أوله بالضم كما قالوا في النسب إلى الدهر دهري.

قوله: ﴿فما وهنوا﴾ أي: ما ضعفوا، ولا عجزوا لما أصابهم من آلام الجراح، وقتل أصحابهم: وقيل: لم يعجزوا لما أصابهم من قتل نبيهم A ولا آلام جراحهم، ولم يعجزوا عن القتال في سبيل الله تعالى بعد نبيهم A.." (١)

"﴿يهلكون أنفسهم﴾.

أي: يوجبون لها بالتخلف والكذب، والهلاك والغضب في الآخرة.

﴿والله يعلم إنهم لكاذبون﴾.

في أعتذارهم.

قوله: ﴿عفا الله عنك﴾، إلى قوله: ﴿بالمتقين﴾.

" النون " من: ﴿عنك﴾، وحيث ما سكنت مع " الكاف " وأخواتها خرجت بغنة من الخياشيم.

والمعنى: ﴿عفا الله عنك﴾، يا محمد، ما كان من ذنبك في أن أذنت لهم.

وقيل المعنى: إنه افتتاح كلام بمنزلة: " أصلحك الله " و " أعزك الله ".

وقال الطبري: هذا **عتاب** من الله، D لنبيه عليه السلام، في إذنه لمن أذن لهه من المنافقين في التخلف عنه في غزوة تبوك، حتى يعلم الصادق منهم من الكاذب في." (٢)

"قولهم: ﴿لو استطعنا لخرجنا معكم﴾، فيعلم من له عذر ومن لا عذر له، فيتبين لك الصادق من الكاذب، ويكون إذنك على علم بهم.

ثم أرخص الله، D، له الإذن في سورة " النور " فقال: ﴿فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم﴾ [النور: ٦٢].

---

(١) الهداية الى بلوغ النهاية مكي بن أبي طالب ١١٤٨/٢

(٢) الهداية الى بلوغ النهاية مكي بن أبي طالب ٣٠١١/٤

قال بعض المفسرين: اثنين فعل رسول الله عليه السلام، لم يؤمر فيهما بشيء: إذنه للمنافقين في التخلف عن غزوة تبوك، وأخذه من الأسارى الفداء.

ومن قال هو افتتاح كلام، وقف على: ﴿عفا الله عنك﴾.

ومن قال هو **عتاب**، لم يقف عليه.." (١)

"بهذا الكتاب ﴿أسفا﴾ وقال: قتادة: " أسفا " غضبا وقال: مجاهد: " حزنا ".

فهذا **عتاب** للنبي A من الله [D] على حزنه على قومه إذ لم يؤمنوا. فمعنى أسفا حزنا. وقيل معناه: جزعا، قال مجاهد. وقال: قتادة: معناه غضبا، ومنه قوله: ﴿فلمآ آسفونا﴾ [الزخرف: ٥٥].

قال: ﴿إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها﴾.

يعني: من الشجر والثمر والمال زين الأرض بذلك.

﴿لنبلوهم﴾.

أي: لنختبرهم من هو أحسن عملا من غيره. قال سفيان الثوري: أيكم." (٢)

"قوله تعالى ذكره: ﴿لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات﴾.

هذه الآية **عتاب** " من الله تعالى لأهل الإيمان فيما وقع في أنفسهم من أمر عائشة، فالمعنى: هلا إذ سمعتم أيها المؤمنون ما قال أهل الإفك في عائشة، ظننتم خيرا بمن قذف، ولا تظنوا الفاحشة.

قال ابن زيد معناه: هلا ظن المؤمن أن المؤمن لم يكن يفجر بأمه.

ثم قال: ﴿هاذآ إفك مبين﴾،، أي وقال المؤمنون: هذا الذي جاء به هؤلاء كذب ظاهر.

ثم قال تعالى: ﴿لولا جآءوا عليه بأربعة شهدآء﴾، أي هلا جاء هؤلاء المبطلون القائلون في عائشة الكذب بأربعة شهداء على تصحيح قولهم فيها، فإذ لم يأتوا بالشهداء على ما رموها به فأولئك عند الله هم الكاذبون فيما جاءوا به من الإفك.

ثم قال: ﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته﴾، يعني الخائضين في الإفك.

﴿لمسكم في مآ أفضتم فيه عذاب عظيم﴾، أي لعجل عليكم بالعقوبة، ولكن تفضل عليكم بتأخيرها، ورحمكم فقبل توبتكم من ذلك.

ثم قال تعالى: ﴿إذ تلقونه بألسنتكم﴾، أي لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم." (٣)

"ثم قال تعالى: ﴿ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلا﴾ أي: لو كانوا معكم لم يقاتلوا معكم إلا تعذيرا لكم لأنهم لا يحتسبون في ذلك ثوابا ولا جزاء.

ثم قال تعالى: ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة﴾ هذا **عتاب** من الله للمستخفين عن رسول الله A بالمدينة

---

(١) الهداية الى بلوغ النهاية مكي بن أبي طالب ٣٠١٢/٤

(٢) الهداية الى بلوغ النهاية مكي بن أبي طالب ٤٣٢٤/٦

(٣) الهداية الى بلوغ النهاية مكي بن أبي طالب ٥٠٤٥/٨

من المؤمنين، أي: كان لكم أن تتأسوا به، وتكونوا معه حيث كان ولا تتخلفوا عنه.

ثم قال: ﴿لمن كان يرجوا الله﴾ / أي: ثواب الله في الآخرة.

﴿واليوم الآخر﴾ أي: ويرجوا عاقبة اليوم الآخر.

﴿وذكر الله كثيرا﴾ أي: وأكثر ذكر الله في الخوف والشدة والرخاء.

قوله تعالى ذكره: ﴿ولما رأى المؤمنون الأحزاب﴾ إلى قوله: ﴿غفورا رحيما﴾.

أي: ولما عاين المؤمنون جماعة من الكفار، وقالوا تسليما منهم لأمر الله وتصديقا بكتابه: ﴿هذا ما وعدنا الله ورسوله﴾ يعنون قوله تعالى ذكره: ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم﴾ [البقرة: ٢١٤].

ثم قال: ﴿وما زادهم إلا إيمانا وتسليما﴾ أي: ما زادتهم الرؤية لذلك إلا إيمانا بالله وتسليما لأمره، وإنما ذكر " زادهم " لأن تأنيث الرؤية غير حقيقي. ودل " رأي " على الرؤية، هذا قول الفراء وعلي بن سليمان.." (١)

"شيئا حتى أؤمر ربي فقامت إلى مسجدها وصلت، ونزل القرآن على رسوله: ﴿فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها﴾ الآيتان. فجاء إليها رسول الله A حتى دخل عليها بغير إذنها ".

وروي أنها كانت تقول لرسول الله: لست كأحد من النساء لأن الله زوجنيك.

ثم قال تعالى: ﴿وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله﴾، هذا **عتاب** من الله للنبي A، أي: واذكر يا محمد إذ تقول للذي أنعم الله عليه بالإسلام، وأنعمت عليه بالعتق - وهو زيد بن حارثة مولى رسول الله A - أمسك عليك زوجك واتق الله في مفارقتها للفرار.

روي أن النبي A رأى زينب بنت جحش وهي ابنة عمته بعد أن تزوجها زيد فأعجبته، فألقى الله نفس زيد كراهتها لما علم ما وقع في نفس النبي منها، فأراد زيد فراقها فذكر ذلك للنبي A، فقال له النبي: " ﴿أمسك عليك زوجك واتق الله﴾ فيما عليك لها " وهو يحب لو قد بانت منه لينكحها، وهو الذي أخفى غي نفسه، فقد أبداه الله كما ذكره.

ثم قال تعالى: ﴿وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه﴾ أي: وتخاف أن يقول الناس أمر رجلا." (٢)

"توجيه رأيه بالأسباب، فمثلا عند قوله تعالى في الآية (٨١) من سورة الأنبياء ﴿ولسليمان الريح عاصفة﴾ يذكر أن عامة قراء الأمصار قرؤوا (الريح) بالنصب على أنها مفعول لسخرنا المحذوف، وأن عبد الرحمن الأعرج قرأ (الريح) بالرفع على أنها مبتدأ ثم يقول: والقراءة التي لا أستجيز القراءة بغيرها في ذلك ما عليه قراء الأمصار لإجماع الحجة من القراء عليه.

ولقد يرجع السبب في عناية ابن جرير بالقراءات وتوجيهها إلى أنه كان من علماء القراءات المشهورين، حتا إنهم ليقولون عنه: إنه ألف فيها مؤلفا خاصا في ثمانية عشر مجلدا، ذكر فيه جميع القراءات من المشهور والشواذ وعلل ذلك وشرحه، واختار منها قراءة لم يخرج بها عن المشهور (١)، وإن كان هذا الكتاب قد ضاع بمرور الزمن ولم يصل إلى أيدينا، شأن

---

(١) الهداية الى بلوغ النهاية مكي بن أبي طالب ٥٨١٤/٩

(٢) الهداية الى بلوغ النهاية مكي بن أبي طالب ٥٨٤٠/٩

الكثير من مؤلفاته.

موقفه من الإسرائيليات:

ثم إننا نجد ابن جرير يأتي في تفسيره بأخبار مأخوذة من القصص الإسرائيلي، يرويها بإسناده إلى كعب الأحبار، ووهب بن منبه، وابن جريج والسدي، وغيرهم، ونراه ينقل عن محمد بن إسحاق كثيرا مما رواه عن مسلمة النصارى. ومن الأسانيد التي تسترعي النظر هذا الإسناد: حدثني ابن حميد قال: حدثنا سلمة عن ابن إسحاق عن أبي **عتاب** ... رجل من تغلب كان نصرانيا عمرا من دهره ثم أسلم بعد فقرأ القرآن وفقه في الدين، وكان فيما ذكر، أنه كان نصرانيا أربعين سنة ثم عمر في الإسلام أربعين سنة.

يذكر ابن جرير هذا الإسناد، ويروي لهذا الرجل النصراني الأصل

---

(١) "معجم الأدباء" ج ١٨، ص ٤٥.." (١)

". . . . .

= الأحاديث في أمر أسارى بدر أن أخذ الفداء كان رأيا رأوه فعوتبوا عليه، ولو كان هناك تخيير بوحي سماوي لم تتوجه المعاتبة عليه، وقد قال الله تعالى: ﴿ما كان لنبي أن يكون له أسرى﴾ إلى قوله: ﴿لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم﴾ وأظهر لهم شأن العاقبة بقتل سبعين منهم بعد غزوة أحد عند نزول قوله تعالى: ﴿أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها﴾ [آل عمران: ١٦٥]، وممن نقل عنه هذا التأويل من الصحابة علي –رضي الله عنه– فلعل عليا ذكر هبوط جبريل في شأن نزول هذه الآية وبيانها، فاشتبه الأمر فيه على بعض الرواة، ومما جرأنا على هذا التقدير سوى ما ذكرناه هو أن الحديث تفرد به يحيى بن زكريا بن أبي زائدة عن سفيان، من بين أصحابه، فلم يروه غيره، والسمع قد يخطئ، والنسيان كثيرا يطرأ على الإنسان، ثم إن الحديث روي عنه متصلا وروي عن غيره مرسلا، فكان ذلك بما يمنع القول بظاهره.

وقال الطيبي: أقول –وبالله التوفيق–: لا منافاة بين الحديث والآية؛ وذلك أن التخيير في الحديث وارد على سبيل الاختبار والامتحان، ولله أن يمتحن عباده لما شاء، امتحن الله تعالى أزواج النبي –صلى الله عليه وسلم– بقوله تعالى: ﴿يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن﴾ الآيتين [الأحزاب: ٢٨، ٢٩]، وامتحن الناس بتعليم السحر في قوله تعالى: ﴿وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر﴾ [البقرة: ١٠٢]، وامتحن الناس بالملكين، وجعل المحنة في الكفر والإيمان بأن يقبل العامل تعلم السحر فيكفر، ويؤمن بترك تعلمه، ولعل الله تعالى امتحن النبي –صلى الله عليه وسلم– وأصحابه بين أمرين: القتل، والفداء، وأنزل جبريل–عليه السلام– بذلك هل هم يختارون ما فيه رضا الله تعالى من قتل أعدائه، أم يؤثرون العاجلة من قبول الفدية، فلما اختاروا الثاني عوتبوا بقوله

---

(١) التفسير البسيط الواحدي ١٧٢/١

تعالى: ﴿ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض﴾.

قلت -بعون الله- (القائل علي القاري): إن هذا الجواب غير مقبول؛ لأنه معلول ومدخول؛ فإنه إذا صح التخيير، لم يجز **العتاب** والتعيير، فضلا عن العذاب والتعزير، وأما ما ذكره من تخيير أمهات المؤمنين، فليس فيه أنهن لو اخترن الدنيا لعذبن في العقبى ولا في الدنيا، وغايته أنهن يحرمن من مصاحبة المصطفى، لفساد اختيارهن الأدنى بالأعلى، وأما قضية الملكين وقضية تعلم السحر، فنعم امتحان من الله وابتلاء، لكن ليس فيه تخيير لأحد؛ ولهذا قال المفسرون في قوله تعالى: =." (١)

"الجهاد (١)، قال عكرمة والحسن: هذه الآية منسوخة بقوله: ﴿وما كان المؤمنون لينفروا كافة﴾ [التوبة: ١٢٢] (٢)، قال المفسرون: الصحيح أن هذه الآية خاصة فيمن استنفره رسول الله -صلى الله عليه وسلم- (٣).

وقوله تعالى: ﴿ويستبدل قوما غيركم﴾، قال ابن عباس: يريد: من التابعين بإحسان (٤)، وهذا **كالاستعتاب** من الله تعالى لأولئك القوم، والتوعد لهم أنهم إن تركوا الغزو مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، أتى الله بقوم آخرين ينصر بهم الدين، وهم التابعون في قول ابن عباس (٥)، وقال سعيد بن

= الذهبي، ورواه أيضا البيهقي في "السنن الكبرى"، كتاب: الجهاد، باب: النفير، رقم (١٧٩٤٣) ٩/ ٨٣، ورواه مختصرا أبو داود (٢٥٠٦)، كتاب: الجهاد، باب: في نسخ نفير العامة بالخاصة.

(١) "معاني القرآن وإعرابه" ٢/ ٤٤٨.

(٢) رواه عنهما ابن جرير ١٠/ ١٣٥، وابن أبي حاتم ٦/ ١٧٩٧ - ١٧٩٨، والصواب أن هذه الآية، وكذلك الآية التالية ﴿انفروا خفافا وثقالا﴾ محكمتان غير منسوختين؛ لأنه لا تنافي بينهم وبين الآية المدعى أنها ناسخة، وذلك لإمكان توجيه كل آية لحالة غير التي للأخرى، فالآيتان الأوليان لبيان حكم النفير حالة كون الجهاد فرض عين كحالة غلبة العدو على بلاد الإسلام، أو استنفار الإمام قوما معينين، أو احتيج للجميع، أو كان النبي -صلى الله عليه وسلم- خارجا للجهاد.

أما قوله تعالى: ﴿وما كان المؤمنون لينفروا كافة﴾ فهي لبيان حكم النفير حالة كون الجهاد فرض كفاية، فالآية تبين أن النفر في هذه الحالة واجب على بعضهم دون بعض. انظر: "الناسخ والمنسوخ" للنحاس ٢/ ٤٣٦، و"الناسخ والمنسوخ" لابن العربي ٢/ ٢٤٩، و"الإيضاح لناسخ القرآن ومنسوخه" لمكي بن أبي طالب ص ٢٧٣، و"زاد المسير" ٣/ ٤٣٨، و"تفسير ابن كثير" ٢/ ٣٩٥.

(٣) انظر: "تفسير ابن جرير" ١٠/ ١٣٥، وابن الجوزي ٣/ ٤٣٨، والرازي ١٦/ 95.

---

(١) التفسير البسيط الواحدي ٢٥١/١٠

(٤) انظر: "تفسير الرازي" ١٦/ ٦١.

(٥) سبق ذكره وتخريجه.." (١)

"[الأنفال: ٣٠] الآية، وأضاف إخراجه إلى الكفار لأنهم لما هموا بقتله صعب عليه المقام، واحتاج (١) إلى الخروج من مكة، فأضيف الإخراج إليهم لما كانوا السبب في خروجه، قال ابن عباس في قوله: ﴿إذ أخرجه الذين كفروا﴾: يريد: من مكة هاربا منهم (٢)، وأما قوله: ﴿كما أخرجك ربك من بيتك﴾ [الأنفال: ٥] يريد: أمره إياه بالخروج (٣).
وقوله تعالى: ﴿ثاني اثنين﴾ أي واحد اثنين، قال الزجاج: وهو نصب على الحال، المعنى: فقد نصره الله أحد اثنين أي نصره منفردا (٤) إلا من أبي بكر (٥) (٦)، وهذا معنى قول الشعبي: عاتب الله -عز وجل- أهل الأرض جميعا في هذه الآية غير أبي بكر (٧)، قال ابن عباس: والجمع في قوله:

---

(١) في (ج): (فاحتاج).

(٢) "تنوير المقباس" ص ١٩٣ بمعناه.

(٣) عبارة المؤلف توحي بأنه يرى أن الإخراج المذكور في الآيتين واحد، وهو الإخراج من مكة، ومن ثم جمع بين الآيتين، والصحيح أن الإخراج المذكور في آية الأنفال إنما هو من المدينة إلى بدر. انظر: "تفسير ابن جرير" ٩/ ١٨٢.

(٤) في (ي): (مفردا)، وما أثبته موافق لما في "معاني القرآن وإعرابه".

(٥) في (ي): (هو أبو بكر)، وهو خطأ.

(٦) اهـ. كلام الزجاج، انظر: "معاني القرآن وإعرابه" ٢/ ٤٤٩.

(٧) رواه الثعلبي ٦/ ١١٠ أ، وابن المنذر كما في "الدر المنثور" ٣/ ٤٣٥، وفي سند الثعلبي داود بن المحبر وهو متروك، كما في "تقريب التهذيب" ٢٠٠ (١٨١١)، كما أن في متن هذا الأثر نظرا من ثلاثة أوجه:
أحدها: أن الله تعالى هو الذي كف أيدي أصحاب نبيه - صلى الله عليه وسلم - عن نصرته في مكة كما أفاد ذلك قوله تعالى: ﴿ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم﴾ [النساء: ٧٧].
الثاني: أنه ليس في الآية ما يفيد أن الصحابة -رضي الله عنهم- كلفوا بنصرة نبيهم بمكة فتخلوا عنه حتى تكون **عتابا**، أما قوله تعالى: ﴿إلا تنصروه﴾ فهو إخبار عن مستقبل، وقد قام الصحابة بذلك خير قيام وفدوه بالنفس والمال، ويكفي شاهدا على ذلك أنه لم =." (٢)

"الكسر في (إذ) فلالتقاء الساكنين؛ وذلك أن (إذ) من حكمها أن تضاف إلى الجملة من المبتدأ (١) والخبر، فلما اقتطعت عنها الإضافة نونت، ليدل التنوين على أن المضاف [إليه قد حذف، فصار التنوين هنا يدل على قطع الإضافة من المضاف] (٢)، كما صار يدل على انقضاء البيت في قول من نون في الإسناد أواخر البيت فقال (٣):

---

(١) التفسير البسيط الواحدي ١٠/٤٣٤

(٢) التفسير البسيط الواحدي ١٠/٤٣٦

يا صاح ما هاج الدموع الذرفن

أقلي اللوم عاذل والعتابن

يا أبتا علك أو عساكن

---

(١) في (ج): (الابتداء).

(٢) ما بين المعقوفين ساقط من (ج).

(٣) هذه أبيات مختلفة، فالأول: مطلع أرجوزة للعجاج وبعده:

من طلل أمسى تخال المصحفا

وهو في "ديوانه" ٢/ ٢١٩، "خزانة الأدب" ٣/ ٤٤٣، سيبويه ٢/ ٢٩٩، "شرح الأشموني" لألفيه ابن مالك ٤/ ٢٢٠، "الكتاب" ٤/ ٢٠٧، "المقاصد النحوية" ١/ ٢٦.

والثاني: صدر بيت لجرير. وعجزه:

وقولي إن أصبت لقد أصابن

"ديوانه" ٥٨، ويروى (العتابا) (أصابا). "خزانة الأدب" ١/ ٦٩، "الخصائص" ٢/ ٦٠، الدرر ٥/ ١٧٦، "شرح أبيات سيبويه" ٢/ ٣٤٩، سر صناعة الإعراب ٢/ ٤٨١، "شرح شواهد المغني" ٢/ ٧٦٢، "شرح المفصل" ٩/ ٢٩، "الكتاب" ٤/ ٢٠٥.

والثالث: عجز بيت لرؤبة وصدره:

تقول بنتي قد أنى أناكا

وهو في "ديوانه" ص ١٨١، سيبويه ١/ ٣٨٨، "الخصائص" ٢/ ٩٦، "المقتضب" ٣/ ٧١، "الإنصاف" ١٨١، "الخزانة" ٢/ ٤٤١.." (١)

"الآخرة ما يقدمون عليه من عذاب الله، وقوله تعالى ﴿ويوم القيامة﴾، وذكر أبو علي (١) في انتصابه وجهين (٢) أحدهما: أن يكون التقدير: ولعنة (٣) يوم القيامة، فحذف المصدر وأقيم اليوم مقامه فانتصب انتصاب المفعول به، والآخر: أن يكون ﴿ويوم القيامة﴾ محمولا على موضع في ﴿هذه﴾ كما قال (٤):

إذا ما تلاقينا من اليوم أو غدا

ومثل هذه الآية قوله تعالى في القصص: ﴿وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين﴾ [القصص: ٤٢] ونذكرها في موضعها إن شاء الله.

وقوله تعالى: ﴿بئس الرفد المرفود﴾، الرفد معناه في اللغة (٥): العطاء والمعونة، وكل شيء أعنت به غيرك فهو رفد، يقال: [رفد يرفده] (٦) رفدا ورفدا بفتح الراء وكسرها، ويقال: الرفد بالكسر اسم وبالفتح مصدر، وسميت اللعنة هاهنا

---

(١) التفسير البسيط الواحدي ٤٦٣/١١

رفدا؛ لأنه جعل بدلا منها، كما يقال **عتابك** السيف وتحيتك الشتم، يذهب إلى أنه بدل منه وواقع موقعه.

قال أبو عبيدة (٧) في قوله ﴿بئس الرفد المرفود﴾: بئس العون المعان.

---

(١) "الحجة" ١/ ٢٧، ٢٨.

(٢) في (ي): (على وجهين).

(٣) في (ي): ولكنه.

(٤) سبق تخريجه.

(٥) انظر: "تهذيب اللغة" (رفد) ٣/ ١٤٣٧.

(٦) ما بين المعقوفين ساقط من (ب).

(٧) "مجاز القرآن" ١/ ٢٩٨.." [1]

"وقوله تعالى: ﴿ويلههم الأمل﴾ يقال: لهيت عن (١) الشيء ألهى لهيا (٢)، وجاء في الحديث: "إن ابن الزبير كان إذا سمع صوت الرعد لهي عن (٣) حديثه" (٤) قال الكسائي والأصمعي: أي تركه وأعرض عنه، وكل شيء تركته فقد لهيت عنه (٥)، وأنشد ابن الأعرابي:

صرمت حبالك فاله عنها زينب ... ولقد أطلت **عتابها** لو تعتب (٦)

ويقال: ألهاه الشيء، أي: شغله وأنساه وحمله على الترك والإعراض، قال المفسرون في قوله: ﴿ويلههم الأمل﴾ شغلهم الأمل عن الأخذ بحظهم من الإيمان والطاعة (٧)، ﴿فسوف يعلمون﴾ وعيد وتهديد، أي فسوف يعلمون إذا وردوا القيامة وبال ما صنعوا.

٤ - قوله تعالى: ﴿وما أهلكنا من قرية﴾ قال ابن عباس: يريد من أهل قرية (٨)، ﴿إلا ولها كتاب معلوم﴾ يريد أجل ينتهون إليه، يعني: أن لأهل

---

(١) في جميع النسخ (من) والمثبت هو الصحيح وموافق لجميع المصادر.

(٢) "جمهرة اللغة" ٢/ ٩٩١، "تهذيب اللغة" (لهى) ٤/ ٣٣٠٤ "الصحاح" (لها) ٦/ ٢٤٨٨، "تفسير الفخر الرازي" ١٩/ ١٥٤.

(٣) في جميع النسخ: (من)، والمثبت هو الصحيح وموافق لجميع المصادر.

(٤) لم أجده في كتب السنة، وورد في "تهذيب اللغة" (لهى) ٤/ ٣٣٠٤ بنصه، "الصحاح" (لها) ٦/ ٢٤٨٨، "تفسير الفخر الرازي" ١٩/ ١٥٥.

---

(١) التفسير البسيط الواحدي ٥٤٤/١١

(٥) المصادر السابقة.

(٦) ورد غير منسوب في "تهذيب اللغة" (لهى) ٤/ ٣٣٠٤، "تفسير الفخر الرازي" ١٩/ ١٥٥.

(٧) ورد في "تفسير الطبري" ١٤/ ٥ بنحوه، والثعلبي ٢/ ١٤٥ ب بنصه، و"تفسير البغوي" ٤/ ٣٦٨، وابن الجوزي ٤/ ٣٨٢، والفخرالرازي ١٩/ ١٥٥، والخازن ٣/ ٨٨.

(٨) ورد في تفسيره "الوسيط" تحقيق: سيسي ٢/ ٣٤٤ بنصه، "تنوير المقباس" ص ٢٧٦، وورد بلا نسبة في "تفسير البغوي" ٤/ ٣٦٩، وابن الجوزي ٤/ ٣٨٢.." (١)

"٨٤ - قوله تعالى: ﴿ويوم نبعث من كل أمة شهيدا﴾، أي: وذكرهم يوم نبعث أو وأنذرهم يوم نبعث، قال ابن عباس: يريد يوم القيامة (١)، ﴿من كل أمة شهيدا﴾ يريد الأنبياء يشهدون على الأمم بما فعلوا من التصديق والتكذيب.

وقوله تعالى: ﴿ثم لا يؤذن للذين كفروا﴾ قال الكلبي: لا يؤذن لهم في الكلام والاعتذار (٢)؛ كقوله: ﴿ولا يؤذن لهم فيعتذرون﴾ [المرسلات: ٣٦].

وقوله تعالى: ﴿ولا هم يستعتبون﴾ استعتب فلان إذا طلب أن يعتب، أي: يرضى (٣)، واستعتبت فلانا إذا طلبت منه أن يرجع إلى رضا صاحبه (٤)، فمعنى قوله: ﴿ولا هم يستعتبون﴾ أي لا يطلب منهم أن (٥) يرجعوا إلى ما يرضي الله؛ لأن الآخرة ليست بدار تكليف، كما قال ابن عباس في هذه الآية، قال: يريد انقطع **العتاب** وانقطعت المعذرة وحل بهم الخزي، تلخيص معنى الآية: أنهم لا يمكنون من عذر فيتكلمون به، ولا يكلمون أيضا في الرجوع في العتبى، وأصل هذا الحرف من العتب وهو الموجدة، يقال: عتب عليه إذا وجد عليه، وأعتبه إذا زال عنه عتبه؛ بأن

---

(١) انظر: "تفسير الفخر الرازي" ٢٠/ ٩٥، والخازن ٣/ ١٣٠، بلا نسبة فيهما.

(٢) انظر: "تفسير الفخر الرازي" ٢٠/ ٩٥، و"تفسير القرطبي" ١٠/ ١٦٢، والخازن ٣/ ١٣٠، كلها بلا نسبة.

(٣) ورد في "تهذيب اللغة" (عتب) ٣/ ٢٣١٤، بنصه، وهو قول الليث.

(٤) انظر: (عتب) في "تهذيب اللغة" ٣/ ٢٣١٤، و"مقاييس اللغة" ٤/ ٢٢٦، و"اللسان" ٥/ ٢٧٩١.

(٥) (أن) ساقطة من (أ)، (د) وفي (ع): (أي).." (٢)

"ترك ما كان يعتب عليه من أجله، واستعتبه إذا طلب منه **الإعتاب** (١).

٨٥ - قوله تعالى: ﴿وإذا رأى الذين ظلموا﴾ قال ابن عباس: يريد أشركوا (٢)، ﴿العذاب﴾ يريد النار، ﴿فلا يخفف عنهم﴾، أي: العذاب، ﴿ولا هم ينظرون﴾، أي: لا يؤخرون ولا يمهلون؛ لأن التوبة هناك غير مرجوة؛ لانقضاء الأمد المضروب لقبول التوبة ودخول وقت العذاب، وهذه الآية تأكيد لما قبلها؛ يريد أنهم يعجل لهم العقوبة في الآخرة من

---

(١) التفسير البسيط الواحدي ١٢/٥٤٠

(٢) التفسير البسيط الواحدي ١٣/١٦٥

غير إنصات (٣) لعذر منهم أو **عتاب** معهم.

٨٦ - قوله تعالى: ﴿وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم﴾ قال ابن عباس: يريد الذين اتخذوهم (٤) من دون الله آلهة (٥)، وذلك أن الله يبعث كل من كان يعبدون من دون الله، فيتبعوهم حتى يوردوهم النار، ووصفوا بأنهم شركاؤهم: لأنهم جعلوا لهم نصيبا في أموالهم، ولأنهم جعلوهم شركاء في العبادة (٦)، ﴿قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعو من دونك﴾، أي:

---

(1) انظر: (عتب) في "تهذيب اللغة" ٣/ ٢٣١٤، و"المحيط في اللغة" ١/ ٤٤٦، و"مقاييس اللغة" ٤/ ٢٢٦، و"اللسان" ٥/ ٢٧٩١.

(٢) انظر: "تنوير المقباس" ص٢٩١، ورد بنحوه غير منسوب في "تفسير هود الهواري" ٢/ ٣٨٢، والثعلبي ٢/ ١٦١ب، والبغوي ٥/ ٣٧، وابن الجوزي ٤/ ٤٨٠، والفخر الرازي ٢٠/ ٩٦، و"تفسير القرطبي" ١٠/ ١٦٢، والخازن ٣/ ١٣٠.

(٣) في جميع النسخ: (أنصار) والصواب ما أثبته، ويدل عليه ما بعده، ولعلها تصحفت.

(٤) في (أ)، (د): (اتخذو لهم)، وفي (ش)، (ع): (اتخذوا لهم)، والمثبت هو الصحيح وينسجم مع السياق.

(٥) انظر: "تفسير أبي حيان" ٥/ ٥٢٦، و"تفسير الألوسي" ١٤/ ٢٠٨، بنحوه غير منسوب.

(٦) ورد في "تفسير الطوسي" ٦/ ٤١٦، بنصه.." (١)

"يعني من بعد قوة للغزل؛ بإمرارها (١) وفتلها.

وقوله تعالى: ﴿أنكاثا﴾ قال: واحدها نكث، وهو الغزل من الصوف والشعر؛ يبرم وينسج، فإذا أخلقت النسيجة، قطعت ونكثت خيوطها المبرمة وخلطت بالصوف وميشت (٢)، ثم غزل ثانية، والنكث المصدر، ومن هذا قيل: نكث فلان عهده إذا نقضه بعد إحكامه؛ كما ينكث خيط الصوف بعد إبرامه (٣)، وأنشد أبو عبيدة (٤) للمسيب بن علس (٥):

عن غير مقلية وأن حبالها ... ليست بأنكاث ولا أقطاع (٦)

---

(١) في (ش)، (ع): (بإمرارها)، والمعنى واحد كما سبق.

(٢) في (ش)، (ع): (ونفشت)، ومعنى (الميش): خلط الصوف والشعر. "المحيط في اللغة" (ميش) ٧/ ٤٠٠.

(٣) ورد في "تهذيب اللغة" (نكث) ٤/ ٣٦٥٨، بنحوه، وانظر: (نكث) في "اللسان" ٨/ ٤٥٣٦، و"التاج" ٣/ ٢٧٣.

(٤) في جميع النسخ: أبو عبيد، والصحيح المثبت.

(٥) زهير بن علس، ولقبه المسيب، وهو خال الأعشى، وكان الأعشى راويته، وهو جاهلي ولم يدرك الإسلام، عده الجمحي في الطبقة السابعة من فحول شعراء الجاهية، وكان من المقلين. انظر: "طبقات فحول الشعراء" ١/ ٢١، و"الشعر والشعراء" ص٩٥، و"شرح اختيار المفضل" ١/ ٣٠٢، و"الخزانة" ٣/ ٢٤٠.

---

(١) التفسير البسيط الواحدي ١٦٦/١٣

(٦) "مجاز القرآن" ١/ ٣٦٧، وورد برواية: (بأرمام) بدل (بأنكاث)، في "المفضليات" ص٦١، و"أمالي القالي" ٣/ ١٣٠، و"شرح اختيارات المفضل" ١/ ٣٠٤، وفي كل المصادر -ما عدا- الأمالي: (من) بدل (عن)، (المقلية): البغض، (حبالها): ما احتلبته من مودة، حبل أرمام، وحبل أقطاع: إذا كان قطعا موصلة. والشاعر. يخاطب نفسه معاتبا إياها على الرحيل من أرض سلمى وديارها ولما يستمتع بما أو يرى منها مكروها، ويواصل **عتابه** في هذا البيت قائلا: أثرت ذلك، وهوى النفس كما كان لم يتسلط عليه تحيف، وحبل الوصل برمته لم يضعف.." (١)

"والمخرج الثاني: ذكره (١)، وهو ما ذكر الفراء، وذكره ابن قتيبة أيضا وأنشد (٢):

ولو ولدت قفيره جرو كلب ... لسب بذلك الجرو الكلابا (٣)

نصب الكلاب على إضمار المصدر (٤).

---

(١) يعني ذكره أبو عبيد.

(٢) في "مشكل القرآن" لابن قتيبة ص ٥٥: (وأنشدني بعض النحويين. ثم ساق البيت. وقد نسب البغدادي في "خزانة الأدب" ١/ ١٦٣ هذا البيت لجرير، وتبعه في ذلك الشنقيطي في "الدرر اللوامع" ١/ ٤٤. والبيت بلا نسبة في "الحجة" للفارسي ٥/ ٢٦٠، و"الخائص" لابن جني ١/ ٣٧٩، وأمالي ابن الشجري ٢/ ٢١٥، و"همع الهوامع" للسيوطي ١/ ١٦٢. قال البغدادي في "الخزانة" ١/ ١٦٣: قفيرة -بتقديم القاف والفاء والراء المهملة: اسم أم الفرزدق، والجرو - مثلث الجيم- ولد السباع. وهذا البيت من قصيدة لجرير يهجو بها الفرزدق مطلعها:

أقلي اللوم عاذل **والعتابا** ... وقولي إن أصبت: لقد أصابا

ولم أجد هذا البيت في ديوانه المطبوع.

(٣) "مشكل القرآن" لابن قتيبة ص ٥٥ - ٥٦.

(٤) ذكر الواحدي وجهين في توجيه هذه القراءة، وهناك وجهان آخران: الوجه الأول: وهو أصح الأقوال -ما ذكره أبو جعفر النحاس في "إعراب القرآن" ٣/ ٧٨ قال: ولم أسمع في هذا -يعني توجيه هذه القراءة- أحسن شيء سمعته من علي بن سليمان -يعني الأخفش الأصغر- قال: الأصل (ننجي) فحذف إحدى النونين لاجتماعهما، كما يحذف إحدى التائين لاجتماعهما نحو قول الله: ﴿ولا تفرقوا﴾ [آل عمران: ١٠٣] الأصل: تتفرقوا. قال النحاس: والدليل على صحة ما قال أن عاصما يقرأ (نجي) بإسكان الياء، ولو كان على ما تأوله من ذكرناه -بعد الوجهين الذين ذكرهما- لكان مفتوحا. انتهى كلامه. وعلى هذا الوجه خرج أبو الفتح عثمان بن جني هذه القراءة فقال في كتابه "الخصائص" ١/

---

(١) التفسير البسيط الواحدي ١٣/ ١٨٠

٣٩٨: وأما قراءة من قرأ: ﴿وكذلك ننجي المؤمنين﴾ فليس على إقامة المصدر مقام الفاعل ونصب المفعول الصريح، لأنه عندنا على حذف إحدى نوني (ننجي) كما حذف ما بعد =." (١)

"فاستثنى ما ليس بعيب من جملة العيب، وهو ضرب من المبالغة في الكلام، والمعنى على أنهم لا يعابون إلا بما ليس بعيب، كذلك هؤلاء ما أخرجوا من ديارهم إلا بما لا يوجب الإخراج.

وقوله: ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض﴾ وقرئ: "ولولا دفاع الله" (١).

ومضى الكلام في هذا في الآية السابقة.

قال أبو علي: ويجوز أن يكون الدفاع من دفع، كالكتاب من كتب، ولا يراد به مصدر فاعل، ولكن مصدر الثلاثة مثل: الكتاب والقيام والغياث (٢) (٣).

وقوله: ﴿لهدمت﴾ الهدم: مصدر هدمت البناء، إذا نقضته. يقال: هدمته فانهدم. والهدم: المهدوم (٤).

= جمع فل، وهو الثلم الذي يكون في السيف. والمعنى: أنهم يغزون كثيرا ويضاربون الأقران، فسيوفهم قد تفللت. والقراع والمقارعة: المضاربة بالسيوف، وقوله "ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم مفللة هو بمنزلة: ليس فيهم عيب على وجه، لأنه إذا كان تفليل سيوفهم هو عيبهم -وهذا المعنى يمدح به- فلا عيب فيه على وجه. وهذا يقوله الناس على طريقة المبالغة في المدح.

(١) قرأ نافع: "ولولا دفاع الله" بالألف وكسر الدال، وقرأ الباقون "ولولا دفع الله" بغير ألف وفتح الدال. "السبعة" ص ٤٣٧، "المبسوط" لابن مهران ص ٢٥٨.

(٢) في "الحجة": **العتاب**.

(٣) "الحجة" للفارسي ٥/ ٢٧٨.

(٤) انظر: (هدم) في "تهذيب اللغة" للأزهري ٦/ ٢٢٢، "الصحاح" للجوهري ٥/ ٢٠٥٧، "لسان العرب" ١٢/ ٦٠٣.." (٢)

"٢٠٣ - ﴿فيقولوا هل نحن منظرون﴾ أي: لنعتب (١) ونراجع، قاله مقاتل (٢).

وقال ابن عباس: إنهم يسألون تأخير العذاب فلا يجابون ولا يصرف عنهم (٣).

قال مقاتل: فلما أوعدهم النبي -صلى الله عليه وسلم- بالعذاب قالوا: فمتى العذاب تكذيبا به (٤)، فقال الله تعالى:

٢٠٤، ٢٠٥ - ﴿أفبعذابنا يستعجلون (٢٠٤) أفرأيت إن متعناهم سنين﴾ [قال ابن عباس:] (٥) ﴿أفرءيت﴾ يا محمد إن متعنا كفار مكة ﴿سنين﴾ قال: يريد منذ خلق الله الدنيا إلى أن تنقضي في النعيم والسرور والنضارة (٦).

---

(١) التفسير البسيط الواحدي ١٧٢/١٥

(٢) التفسير البسيط الواحدي ٤٢٩/١٥

وقال الكلبي: يعني عمرهم؛ وهو معنى قول مقاتل: ﴿سنين﴾ في الدنيا (٧).

قال صاحب النظم: قوله: ﴿أفرءيت﴾ غير متعد إلى شيء؛ إنما هو سؤال واستخبار عن معنى بلفظ الاستفهام، كقوله تعالى: ﴿أرأيت إذ أوينا

---

(١) الإعتاب والعتبى: رجوع المعتوب عليه إلى ما يرضي العاتب. "تهذيب اللغة" ٢/ ٢٧٨ (عتب).

(٢) "تفسير مقاتل" ٥٥ أ. بلفظ: "فنعتب، ونراجع". وفي "تفسير ابن جرير" ١٩/ ١١٦: "لنثوب، وننيب".

(٣) "تنوير المقباس" ٣١٤، بلفظ: مؤجلون من العذاب.

(٤) "تفسير مقاتل" ٥٥ أ.

(٥) ما بين المعقوفين، ساقط من نسخة (ج).

(٦) النضارة: نعيم الوجه، ومنه قوله تعالى: ﴿وجوه يومئذ ناضرة﴾ [القيامة: ٢٢]. "تهذيب اللغة" ٩/ ١٢ (نضر).

(٧) "تفسير مقاتل" ٥٥ أ.." (١)

"وقال الزجاج: في علم الله المثبت في اللوح المحفوظ (١).

وقال صاحب النظم: في حكم الله الذي حكم به في قوله: ﴿ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون﴾. وأما المفسرون فإنهم يقولون: هذا على التقديم؛ على تقدير: ﴿وقال الذين أوتوا العلم﴾ ﴿في كتاب الله﴾ وهو قول الكلبي وقتادة (٢). وهذا يحتمل تأويلين؛ أحدهما: الذين يعلمون كتاب الله فلهم فيه علم. والثاني: الذين حكم لهم في كتاب الله بالعلم، وأخبر في الكتاب عن علمهم.

قوله تعالى: ﴿فهذا يوم البعث﴾ أي: اليوم الذي كنتم تنكرونه في الدنيا، وتكذبون به. ﴿ولكنكم كنتم لا تعلمون﴾ وقوعه في الدنيا فلا ينفعكم العلم به الآن؛ يدل على هذا المعنى قوله تعالى:

٥٧ - ﴿فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم ولا هم يستعتبون﴾ قال ابن عباس: يريد: لا يقبل من الذين أشركوا عذر، ولا عتاب، ولا توبة ذلك اليوم. وقرئ ﴿لا ينفع﴾ بالياء (٣)؛ لأن التأنيث ليس بحقيقي، وقد

---

(١) "معاني القرآن" للزجاج ٤/ ١٩٢.

(٢) ذكره السيوطي عن قتادة، وعزاه لابن أبي حاتم، وعبد بن حميد. "الدر المنثور" ٦/ ٥٠٢. وقد وقع خطأ في كتابة قول قتادة في تفسير ابن جرير ٢١/ ٥٧، حيث كتب: هذا من مقاديم الكلام، وتأويلها: وقال الذين أوتوا الإيمان والعلم: لقد لبثتم في كتاب الله. والصواب ما ذكره السيوطي في الدر، ونسبه أيضا لابن جرير. وقال بقول قتادة: مقاتل ٨١ أ. ونسبه لقتادة ومقاتل الثعلبي ٨/ ١٧١ أ.

---

(١) التفسير البسيط الواحدي ١٧/١٣٤

(٣) قرأ ابن كثير وأبو عمرو ونافع وابن عامر: ﴿لا تنفع﴾ بالتاء، وقرأ عاصم وحمزة والكسائي: ﴿لا ينفع﴾ بالياء. "السبعة في القراءات" ص ٥٠٩، و"الحجة للقراء السبعة" ٥/ ٤٥٠، و"النشر في القراءات العشر" ٢/ ٣٤٦.." (١)

"أقلي اللوم عاذل **والعتابا** ... وقولي إن أصبت لقد أصابا (١)

قال أبو الفتح الموصلي: هذه الألف لإشباع الفتحة للقافية، وكذلك الواو لإشباع الضمة في القافية، والياء لإشباع الكسرة (٢).

فمن أثبت في الوقف دون الوصل، وهو اختيار أبي عبيد (٣) قال: العرب تثبت هذه الألفات في قوافي أشعارهم ومصاريفها؛ لأنها مواضع قطع وسكت، فتعمد الوقوف على هذه الألفات موافقة للخط، وإذا وصلت حذفت كما تحذف (٤) غيرها مما يثبت في الوقف، نحو التشديد الذي يلحق الحرف الموقوف عليه، قال أبو عبيد: وأكره أن يثبتها مع إدماج القراءة؛ لأنه خروج من العربية (٥) لما يعد هذا عندهم جائزا في اضطرار ولا غيره، وأما من أثبت في الوصل فوجهه أنها في المصحف ثابتة، وإذا أثبتت (٦) في الخط فينبغي (٧) ألا تحذف كما لا تحذف هاء الوقف من (حسابيه) (وكتابيه)

---

(١) البيت من الوافر، مطلع قصيدة لجرير في "ديوانه" ٢/ ٨١٣، "خزانة الأدب" ١/ ٦٩، "الخصائص" ٢/ ١٠٦، "الكتاب" ٤/ ٢٠٥.

والشاهد فيه: إجراء المنصوب المقرون بالألف واللام مجرى غير المقرون بها في ثبات الألف لوصل القافية؛ لأن المنون وغير المنون في القوافي سواء.

(٢) انظر: "سر صناعة الإعراب" ٢/ ٤٧١، ٦٧٧، ٧٢٦.

(٣) انظر: "البحر المحيط" ٨/ ٤٥٩، "تفسير القرطبي" ١٤/ ١٤٥. تقدم في سورة الأنفال.

(٤) في (أ) جاء الكلام هكذا: كما تحذف [الكسر، فمن أثبت في الوقف دون الوصل دون الوصل] غيرها مما يثبت وهي زيادة خطأ.

(٥) انظر: "تفسير القرطبي" ١٤/ ١٤٥.

(٦) في (ب): (أثبت).

(٧) في (ب): (ينبغي).." (٢)

"وأن يجري مجرى الموقوف عليها كما يثبت ذلك في القوافي في الوصل، وهي لغة أهل الحجاز فيما حكاه أبو الحسن) (١). قال (٢): إنهم يثبتون الألف والواو والياء التي تلحق القوافي في الوصل، ولا ينونون كما ينونون من وصل: أقلي اللوم عاذلي **والعتابن**.

---

(١) التفسير البسيط الواحدي ٨٦/١٨

(٢) التفسير البسيط الواحدي ١٩٠/١٨

وإذا كان كذلك فثباتها في الفواصل كما ثبتت في القوافي حسن، وأما من طرحها في الحالين فإنه لم يعتد بها ولم يشبه [المنثور بالمنظوم] (٣) وفيه مخالفة لخط المصحف (٤).

١١ - قوله تعالى: ﴿هنالك﴾ يقال: هنا للقريب من المكان، وهنالك للبعيد، وهناك للوسيط بين القريب والبعيد، وسبيله سبيل ذا وذلك وذاك، وذكرنا فيما تقدم (٥) أن هنالك يجوز أن يشار به إلى المكان وإلى الوقت، والمراد بقوله (هنالك) في هذا الموضع الإشارة إلى الوقت الذي تقدم ذكره، وهو قوله: ﴿إذ جاءوكم﴾ ﴿وإذ زاغت الأبصار﴾. قال مقاتل: يعني عند ذلك (٦). وقال أبو إسحاق: أي في ذلك المكان (٧).

وقوله: ﴿ابتلي المؤمنون﴾ قال الفراء والزجاج: اختبروا (٨). وقال

---

(١) إلى هنا من "الحجة" ٥/ ٤٧٠.

(٢) انظر قول الأخفش في: "الخصائص" ٢/ ٩٧، ولم أقف عليه في "معانيه".

(٣) ما بين المعقوفين طمس في (ب).

(٤) انظر: "تفسير الطبري" ٢١/ ١٣٢، "الحجة" ٥/ ٤٦٨، "الحجة في القراءات السبع" ص ٢٨٩، "البحر المحيط" ٨/ ٤٥٨، "الدر المصون" ٩/ ٩٨.

(٥) عند قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء (٣٨)﴾. آية ٣٨.

(٦) "تفسير مقاتل" ٨٨ ب.

(٧) "معاني القرآن وإعرابه" ٤/ ٢١٩ مع اختلاف في العبارة.

(٨) "معاني القرآن" ٢/ ٣٣٦، "معاني القرآن وإعرابه للزجاج" ٤/ ٢١٩.." (١)

"يدخلونها، لأن الكافرين يخلدون فيها دون المؤمنين، وكأن النار ليست للمؤمنين لقلة كونهم فيها إذا قيس بالخلود (١). وإنما لم يقل: (أعدت لكم) وإن كان المخاطبون كفارا، لأنه علم أن فيهم من يؤمن.

ولما ذكر جزاء الكافرين لتكذيبهم (٢) ذكر جزاء المؤمنين لتصديقهم فقال عز من قائل:

٢٥ - ﴿وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ الآية. و (التبشير) إيراد الخبر السار الذي يظهر (٣) السرور في بشرة المخبر، ثم كثر استعماله حتى صار بمنزلة الإخبار، واستعمل في نقيضه كقوله: ﴿فبشره بعذاب أليم﴾ (٤) إلا أنه (٥) فيما يسر أكثر (٦)، ونظيره قول الشاعر:

بكرت تلومك بعد وهن في الندى ... بسل عليك ملامتي **وعتابي** (٧)

---

(١) التفسير البسيط الواحدي ١٩١/١٨

(١) انظر. "تفسير ابن عطية" ١/ ٢٠٤ - ٢٠٥. "القرطبي" ١/ ٢٠٣. "البحر" ١/ ١٠٩.

(٢) قوله: (ذكر جزاء الكافرين لتكذيبهم) مكرر في (أ).

(٣) في (ب) (يظهر أثر السرور).

(٤) طرف من آية في آل عمران: ٢١، والتوبة: ٣٤، والانشقاق: ٢٤.

(٥) (إلا أنه) ساقط من (ب).

(٦) انظر "تفسير الطبري" ١/ ١٦٩، "الزاهر" ٢/ ١٣٥، "تهذيب اللغة" (بشر) ١/ ٣٣٨، "تفسير ابن عطية" ١/ ٢٠٦، "زاد المسير" ١/ ٥٢، "القرطبي" ١/ ٢٠٤، "مفردات الراغب": ص ٤٧ - ٤٨.

(٧) البيت لضمرة بن ضمرة مع أبيات أخرى قالها يخاطب امرأته لما لامته على البذل، بكرت: عجلت، بعد وهن: بعد النوم، الندى: السخاء، بسل عليك: حرام عليك. ورد البيت في "النوادر" لأبي زيد: ص ١٤٣، "أمالي القالي" ٢/ ٢٧٩، "الزاهر" =." (١)

"وقوله تعالى: ﴿فقال أنبئوني﴾. أمر تعجيز (١)، كقوله: ﴿فأتوا بسورة من مثله﴾ [البقرة: ٢٣] أراد الله تعالى أن يبين عجزهم (٢)، وذلك أن الملائكة أخبروا عن شيء لم يخلق لهم العلم به، وقالوا شيئا بظن (٣) منهم وحسبان، فخلق سبحانه لآدم (٤) العلم بالأسماء (٥) دونهم تفضيلا له، ثم استخبرهم عن ذلك، أراد كيف تدعون علم ما لم يكن بعد، وأنتم لا تعلمون ما ترون وتعاينون (٦).

وقوله تعالى: ﴿إن كنتم صادقين﴾. أي: إن صدقتم أن الخليفة الذي أجعله في الأرض يفسد فيها ويسفك الدماء قاله ابن عباس، [وناس من الصحابة] (٧).

---

(١) ذكره الثعلبي في "تفسيره" ١/ ٦٢ أ، والخازن ١/ ١٠٢، وأكثر المفسرين على أنه للتقرير والتوقيف، كما قال الطبري: إنه مثل عتاب الله لنبيه نوح. انظر: "تفسير الطبري" ١/ ٢١٩، "ابن عطية" ١/ ٢٣٦، "القرطبي" ١/ ٢٤٣.

(٢) قال الطبري: (وقد زعم بعض نحويي أهل البصرة أن قوله: ﴿أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين﴾ لم يكن ذلك لأن الملائكة ادعوا شيئا، إنما أخبر الله عن جهلهم بعلم الغيب ... كما يقول الرجل للرجل: (أنبئني بهذا إذ كنت تعلم وهو يعلم أنه لا يعلم ...) ثم أخذ يرد عليه. "تفسير الطبري" ١/ ٢١٩.

(٣) في (أ): (يظن)، وفي (ب): (نظن) وأثبت ما في (ج)، لأنه أصح.

(٤) في (ج): (العد لادم).

(٥) انظر التعليق السابق على ما ذكر الواحدي في معنى تعليم الله آدم، وأنه بمعنى خلق به العلم بذلك: ص ٣٤٨.

(٦) انظرت "تفسير الطبري" ١/ ٢١٨، و"تفسير ابن كثير" ١/ ٧٩.

---

(١) التفسير البسيط الواحدي ٢/٢٥٩

(٧) ما بين المعقوفين ساقط من (ب). والرواية عن ابن عباس، وعن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة أخرجها الطبري بسنده، انظر: "تفسير الطبري" ١/ ٢١٨، وانظر: "تفسير الثعلبي" ١/ ٦٢ أ، و"تفسير ابن كثير" ١/ ٧٩، "الدر" ١/ ١٠١.." (١)

"٣٤ - ﴿وقيل﴾ يعني: الكفار ﴿اليوم ننساكم﴾ نترككم في النار، قاله ابن عباس ومقاتل (١) ﴿كما نسيتم لقاء يومكم هذا﴾ قال الفراء: كما تركتم العمل للقاء يومكم هذا (٢).

وقال الزجاج: كما تركتم الإيمان والعمل ليومكم (٣) هذا، وقد فسرنا هذا القول في سورة ﴿الم (١) تنزيل﴾ [السجدة: ٢].

٣٥ - قوله: ﴿ولا هم يستعتبون﴾ قال ابن عباس: لا يقبل الله منهم توبة ولا عذرا، وروي عنه: لا يعاتبون بعد ذلك، انقطعت المعاتبة (٤)

قال الفراء: لا يراجعون الكلام بعد دخولهم النار (٥).

وقال أبو إسحاق: لا يلتمس منهم عمل ولا طاعة (٦).

وذكرنا معنى **الاستعتاب** فيما تقدم [فصلت: ٢٤].

تمت.

---

(١) أخرج ذلك الطبري عن ابن عباس. انظر: تفسيره ١٣/ ١٥٨، و"تفسير مقاتل" ٣/ ٨٤٢.

(٢) انظر: "معاني القرآن" للفراء ٣/ ٤٩.

(٣) انظر: "معاني القرآن" للزجاج ٤/ ٤٣٦.

(٤) ذكر ذلك البغوي في تفسيره، ولم ينسبه ٧/ ٢٤٨، وكذلك ذكره ابن الجوزي ولم ينسبه ٧/ ٣٦٦.

(٥) انظر: "معاني القرآن" للفراء ٣/ ٤٩.

(٦) انظر: "معاني القرآن" للزجاج ٤/ ٤٣٦.." (٢)

"الموالي، ومن ترك الصرف فإنه جعله كقوله تعالى: ﴿لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد﴾ [الحج: ٤٠].

وأما إلحاق (الألف) في الوقف فهو كإلحاقها في قوله (١): (الظنونا) (٢)، و (الرسولا) (٣)، و (السبيلا) (٤) أشبه (٥) ذلك بالإطلاق في القوافي (٦) (٧).

وقوله تعالى: ﴿وأغلالا﴾ يعني في أيديهم تغل (٨) أعناقهم ﴿وسعيرا﴾ وقودا لا توصف شدته، قاله ابن عباس (٩)، ومقاتل (١٠).

---

(١) التفسير البسيط الواحدي ٢/٣٥٠

(٢) التفسير البسيط الواحدي ٢٠/١٥٦

ثم ذكر ما أعد (١١) للشاكرين الموحدين فقال: ﴿إن الأبرار﴾ قال

---

(١) غير مقروءة لسواد في النسخة (أ).

(٢) الأحزاب: ١٠.

(٣) الأحزاب: ٦٦.

(٤) الأحزاب: ٦٧.

(٥) في (ع): شبه.

(٦) والشبه من حيث كانت مثلها في أنها كلام تام نحو: * أقلي اللوم عاذل **والعتابا** * انظر الحجة: ٦/ ٣٥١.

(٧) ما ذكره المؤلف هنا من القراءات وتوجيهها نقله عن أبي علي من الحجة باختصار شديد: ٦/ ٣٤٨ - ٣٥١.

(٨) الغل: مختص بما يقيد بهـ، فيجعل الأعضاء وسطه، وجمعه أغلال، وغل فلان: قيد به. انظر المفردات في غريب القرآن: ٣٦٣.

(٩) أعثر على مصدر لقوله، وقد ورد بنحوه في: الوسيط من غير عزو: ٤/ ٣٩٩.

(١٠) لم أعثر على مصدر لقوله، والذي ورد عنه في تفسيره: ٢١٩/ ب، قال: "وقودا لا يطفأ".

(١١) في (أ): وأما.." [(١)]

"المؤمنين (١).

١٧٩ - قوله تعالى: ﴿ولكم في القصاص حياة﴾ قال عظم أهل التأويل (٢): معناه: أن سافك الدم إذا أقيد منه ارتدع من كان يهم بالقتل، فكان في القصاص بقاء؛ لأنه إذا علم أنه إن قتل قتل أمسك وارتدع عن القتل، ففيه حياة للذي هم بقتله، وحياة للهام أيضا، وقد أخذ الشاعر هذا المعنى ونقله عن القصاص إلى **العتاب** فقال:

أبلغ أبا مالك عنى مغلغلة ... وفي **العتاب** حياة بين أقوام (٣)

يريد: أنهم إذا تعاتبوا أصلح ما بينهم **العتاب**، وكفوا عن القتل، فكان (٤) في ذلك حياة. أخذه المتمثلون فقالوا: بعض القتل أحيا للجميع، وقالوا: القتل أقل للقتل (٥).

---

(١) ذكر هذا الثعلبي في "تفسيره" ٢/ ١٩١ في مقام الاستدلال على أن القاتل لا يصير كافرا، ولا يخلد في النار، وينظر: "تفسير البغوي" ١/ ١٩١.

(٢) ينظر في بيان كون القصاص حياة: "تفسير الطبري" ٢/ ١١٤، ١١٥، "تفسير ابن أبي حاتم" ١/ ٢٩٧، "تفسير الثعلبي" ٢/ ١٩١، "تفسير البغوي" ١/ ١٩١، "المحرر الوجيز" ٢/ ٩١، "التفسير الكبير" ١/ ٥٦، "تفسير القرطبي"

---

(١) التفسير البسيط الواحدي ٢١/٢٣

٢/ ٢٣٧ - ٢٣٨، "البحر المحيط" ٢/ ١٥.

(٣) البيت لهمام الرقاشي في "مقاييس اللغة" ٤/ ٣٧٧، ولعصام بن عبيد الزماني في "تاج العروس"، وبلا نسبة في "لسان العرب" ٦/ ٣٢٨٩ (غلل).

(٤) في (ش): (فكفوا عن القتل وكان).

(٥) ينظر: "تأويل مشكل القرآن" ص ٦٦/ ٦٧، "أحكام القرآن" للجصاص ١/ ١٥٩، ويروى المثل بلفظ: القتل أنفى للقتل، وأوفى للقتل، وأكف للقتل. ينظر: "الصناعتين" لأبي هلال العسكري ص ١٨١، "تفسير الثعلبي" ٢/ ١٩١، "التفسير الكبير" ٥/ ٥٦، "الدر المصون" ٢/ ٣٥٧، وعزاه ابن كثير ١/ ٢٢٣ - ٢٢٤ لبعض الكتب المتقدمة.." [1]

"مواقيت للحج؛ لأنها مقادير ينتهى (١) إليها (٢). ولا يصرف مواقيت؛ لأنها غاية للجموع، فصار كأن الجمع تكرر فيها. فإن قيل: لم صرفت ﴿قوارير﴾ [الإنسان: ١٥]؟ قيل: لأنها فاصلة وقعت في رأس آية، فنون ليجري على طريقة الآيات كما ينون القوافي في مثل:

أقلي اللوم عاذل **والعتابا** (٣)

فالألف بدل من التنوين، وليس هو تنوين الصرف الذي يدل على تمكن الاسم، وإنما هو للفاصلة (٤).

وقوله تعالى: ﴿وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها﴾ قال عامة أهل التفسير: كان أهل الجاهلية وفي أول الإسلام إذا أحرم الرجل منهم نقب في بيته نقبا من مؤخره يخرج منه ويدخل، إلا قريشا ومن دانوا بدينهم، فبينما رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو (٥) محرم، ورجل محرم فرآه دخل من باب حائط، فاتبعه ذلك الرجل، فقال له: تنح عنى، قال: ولم؟ قال: دخلت من الباب وأنت محرم! فوقف ذلك الرجل فقال: إني رضيت بسنتك وهديك، وقد

---

(١) في (ش): (تنتهى).

(٢) ينظر في المواقيت: "تفسير الثعلبي" ٢/ ٣٩٢، "المفردات" ٥٤٤، "البحر المحيط" ٢/ ٥٩، "اللسان" ٨/ ٤٦٩٠ (هلل).

(٣) عجز البيت:

وقولي إن أصبت لقد أصابا

مطلع قصيدة لجرير يهجو فيها عبيدا الراعي والفرزدق في "ديوانه" ص ٨١٣، "أوضح المسالك" ١/ ١٤. وقوله: عاذل: هو مرخم عاذلة، وهو اسم فاعل مؤنث من العذل، وهو اللوم والتوبيخ.

(٤) ينظر: "البحر المحيط" ٨/ ٣٩٧، "أوضح المسالك" ١/ ١٤.

(٥) ساقطة من (ش).." [2]

---

(١) التفسير البسيط الواحدي ٥٤١/٣

(٢) التفسير البسيط الواحدي ٦١٨/٣

"وفي الآية محذوف، لأن المعنى: (فقد رأيتموه، وأنتم تنظرون، فلم انهزمتم)؟ وهذا موضع **العتاب**. وهو قول ابن عباس (١).

١٤٤ - وقوله (٢) تعالى: ﴿وما محمد إلا رسول﴾ الآية.

قال أهل التفسير (٣): لما نعي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يوم أحد، وأشيع أنه قد قتل، قال بعض المسلمين: ليت لنا رسولا إلى عبد الله بن أبي، فيأخذ لنا أمانا من أبي سفيان!

وقال أناس من أهل النفاق: إن كان محمد قد قتل، فالحقوا بدينكم (٤) الأول؛ فأنزل الله هذه الآية (٥).

و (محمد) (٦) هو المستغرق لجميع المحامد؛ لأن الحمد لا يستوجبه إلا الكامل. و (التحميد) فوق (٧) (الحمد) (٨)، فلا يستحقه إلا المستولي على

---

(١) لم أقف على مصدر قوله.

(٢) في (ج): (قوله) -بدون واو-.

(٣) ممن قال بذلك: السدي، وقد ورد معناه عن ابن عباس، من رواية عطية العوفي. انظر: "تفسير الطبري" ٤/ ١١٣، و"تاريخ الطبري" ٢/ ٥٢٠، و"تفسير ابن أبي حاتم" ٣/ ٧٧٧، و"أسباب النزول" للواحدي ١٢٩.

(٤) في (ج): (لدينكم).

(٥) ورد ذلك عن الضحاك، وابن جريج. انظر: "تفسير الطبري" ٤/ ١١٣، ١١٤، و"تفسير الثعلبي" ٣/ ١٢٥ ب.

(٦) من قوله: (ومحمد) إلى (في الكمال): نقله بنصه عن "تفسير الثعلبي" ٣/ ١٢٦ أ.

(٧) في "تفسير الثعلبي" (قول). وما أثبته موجود -كذلك- في "تفسير البغوي" ٢/ ١١٥ حيث نقل هذا النص.

(٨) لأن التحميد أبلغ من الحمد؛ يقال: (فلان محمود: إذا حمد، ومحمد: إذا كثرت خصاله المحمودة). انظر: "مفردات ألفاظ القرآن" ٢٥٦ (حمد).

قال ابن فارس: (فإذا بلغ النهاية في ذلك، وتكاملت فيه المحاسن والمناقب، =." (١)

"[القوة و] (١) المعونة التي تقوى (٢) بها قلوبهم على جهاد عدوهم، حتى يقع معها ثبوت (٣) أقدامهم (٤).

وقال (٥) أبو إسحاق (٦): معنى ﴿وثبت أقدامنا﴾ أي: ثبتنا على دينك. قال: فإذا (٧) ثبتهم على دينهم، ثبتوا في

---

(١) التفسير البسيط الواحدي ٣٧/٦

حربهم. واحتج بقوله: ﴿فتزل قدم بعد ثبوتها﴾ [النحل: ٩٤]، قال: المعنى: تزل عن الدين.
وهذا تعليم لدعاء الاستفتاح والاستنصار على الكفار، وتعريض **بالعتاب** معهم، حين أخبر عن غيرهم من الأمم بهذا.

١٤٨ - قوله تعالى: ﴿فآتاهم الله ثواب الدنيا﴾ قال ابن عباس (٨): يريد: النصر (٩) والظفر والغنيمة.
﴿وحسن ثواب الآخرة﴾ يعنى: الأجر والمغفرة، وما يلقونه من النعيم.

١٤٩ - قوله تعالى: ﴿إن تطيعوا الذين كفروا﴾ يعني: اليهود؛

---

(١) ما بين المعقوفين زيادة من (ب).
(٢) في (ب): (تقوي).
(٣) في (ب): (ثبات).
(٤) انظر: "تفسير مقاتل" ١/ ٣٠٧، و"تفسير الطبري" ٤/ ١٢١، و"تفسير الثعلبي" ٣/ ١٣٠ ب. وهو قول ابن عباس؛ كما في: "زاد المسير" ١/ ٤٧٣.
(٥) في (ج): (قال).
(٦) في "معاني القرآن" له ١/ ٤٧٧.
(٧) في (ج): (وإذا).
(٨) لم أقف على مصدر قوله. وهو قول: الحسن، وقتادة، والربيع، وابن جريج، وابن إسحاق. انظر: "تفسير الطبري" ٤/ ١٢٢، و"تفسير ابن أبي حاتم" ٣/ ٧٨٣ - ٧٨٤.
(٩) في (ب): (بالنصر).." (١)
"طرب الواله أو كالمختبل (١)
إلا أنه كثر استعماله في خفة الفرح، ونشاط السرور (٢).
وقال أصحاب المعاني (٣): معنى قوله: ﴿فأثابكم غما بغم﴾؛ أي: جعل مكان ما ترجون من الثواب، الغم؛ كما تقول: (تحيتك الضرب)، و (**عتابك** السيف) (٤)؛ أي: تجعل هذا مكان ذاك. قال عمرو بن معد يكرب (٥):
وخيل قد دلفت لها بخيل ... تحية بينهم ضرب وجيع (٦)

---

(١) شطر بيت للنابغة الجعدي. وصدره:
وأراني طربا في إثرهم

---

(١) التفسير البسيط الواحدي ٥٩/٦

وقد ورد في: شعره: ٩٣. وورد منسوبا له في: "أدب الكاتب" ١٨، و"تهذيب اللغة" ٣/ ٢١٧٤ (طرب)، و"الاقتضاب" ٣/ ١٤، و"اللسان" ٥/ ٢٦٤٩ (طرب). وروايته في شعره: (فأراني ..).

(الواله): الذي ذهب عقله، أو قارب الذهاب؛ لفقد حبيبه، أو ولده، وهو (الثاكل).

و (المختبل): الذي خبله الحزن فجننه وأفقده عقله، أو هو الذي قطع عضو من أعضائه. وهذا التفسير الثاني، قال في: "الاقتضاب" إنه (أجود في هذا الموضع؛ ليختلف المعنيان).

انظر: "الاقتضاب" ٤/ ١٣٤، و"القاموس" ٩٧٢ (ثكل)، ٩٩٠ (خبل).

(٢) انظر: (مادة: طرب) في المصادر السابقة

(٣) انظر: "تفسير الطبري" ٤/ ١٣٤، و"معاني القرآن" للنحاس ١/ ٤٩٧، و"بحر العلوم" ١/ ٣٠٨، و"تفسير الثعلبي" ٣/ ١٣٣ ب.

(٤) وهذا من كلام العرب السائر. كما يقول أبو زيد في: النوادر: ١٤٩.

(٥) أبو ثور الزبيدي، تقدم.

(٦) ورد البيت في: شعره ١٤٩. وقد ورد منسوبا له في:

"كتاب سيبويه" ٣/ ٥٠، و"النوادر" لأبي زيد ١٥٠، و"العمدة" لابن رشيق ٢/ ١٠٥٦، و"الممتع في صنعة الشعر" ١٥٩. =." (١)

"أنهم لم يلبثوا في قبورهم إلا ساعة.

وقال ابن قتيبة: أي كذبوا في هذا الوقت كما كانوا يكذبون من قبل.

والمعنى: أراد الله تعالى أن بعضهم خلقوا على شيء يتبين لأهل الجمع من المؤمنين أنهم كاذبون في ذلك، ويستدلون بكذبهم هناك على كذبهم في الدنيا، وكان ذلك من قضاء الله وقدره، بدليل قوله: يؤفكون أي يصرفون، يعني: كما صرفوا عن الصدق في خلقهم حين حلفوا كاذبين صرفوا في الدنيا عن الإيمان.

ثم ذكر إنكار المؤمنين عليهم كذبهم بقوله: ﴿وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث﴾ [الروم: ٥٦] أي: لبثتم في القبور فيما كتب الله لكم من اللبث إلى يوم البعث، وقال الزجاج: في علم الله المثبت في اللوح المحفوظ.

---

(١) التفسير البسيط الواحدي ٨١/٦

والمفسرون حملوا هذا على التقديم على تقدير قال الذين أوتوا العلم في كتاب الله وهم الذين يعلمون كتاب الله، وقرأ قوله: ﴿ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون﴾ [المؤمنون: ١٠٠] وقوله: ﴿فهذا يوم البعث﴾ [الروم: ٥٦] أي: اليوم الذي كنتم تنكرونه في الدنيا وتكذبون به، ﴿ولكنكم كنتم لا تعلمون﴾ [الروم: ٥٦] وقوعه في الدنيا، فلا ينفعكم العلم به الآن، يدل على هذا المعنى قوله: ﴿فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم﴾ [الروم: ٥٧] قال ابن عباس: لا يقبل من الذين أشركوا عذر، ولا **عتاب**، ولا توبة ذلك اليوم، وقرئ لا ينفع بالياء، لأن التأنيث ليس بحقيقي في المعذرة، وقد وقع الفصل بين الفاعل وفعله فقوي التذكير، وقوله: ﴿ولا هم يستعتبون﴾ [الروم: ٥٧] لا يطلب منهم العتبى والرجوع في الآخرة.

﴿ولقد ضربنا للناس في هذا القرءان من كل مثل ولئن جئتهم بآية ليقولن الذين كفروا إن أنتم إلا مبطلون ﴿٥٨﴾ كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون ﴿٥٩﴾ فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون ﴿٦٠﴾ ﴾ [الروم: ٥٨-٦٠] ﴿ولقد ضربنا للناس في هذا القرءان من كل مثل﴾ [الروم: ٥٨] احتجاجا عليهم وتنبيها لهم، ﴿ولئن جئتهم بآية﴾ [الروم: ٥٨] مثل العصا واليد، ﴿ليقولن الذين كفروا إن أنتم﴾ [الروم: ٥٨] ما أنتم يا محمد وأصحابك، إلا مبطلون أصحاب أباطيل، وهذا إخبار عن عنادهم وتكذيبهم.

ثم ذكر سبب ذلك، فقال: ﴿كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون﴾ [الروم: ٥٩] أي: كالذي طبع على قلوبهم حتى لا يصدقون بآية يختم الله على قلوب الذين لا يعلمون توحيد الله، فكل من لم يعلم توحيد الله فذلك لأجل طبع الله على قلبه.

ثم أمر نبيه بالصبر إلى وقت النصر بقوله: ﴿فاصبر إن وعد الله﴾ [الروم: ٦٠] بنصر دينك وإظهارك على عدوك، ﴿حق ولا يستخفنك﴾ [الروم: ٦٠] الذين لا يؤمنون، يقال: استخف فلان فلانا إذا استجهله فحمله على اتباعه في غيه، والمفسرون يقولون: لا يستخفن رأيك وعلمك.

﴿الذين لا يوقنون﴾ [الروم: ٦٠] بالبعث والحساب، أي هم ضلال شاكون.." (١)

"الموضع الثاني: ﴿واسمعوا قالوا سمعنا وعصينا﴾ [البقرة:٩٣]، وكل واحدة من الآيتين تتضمن من المعنى [ما] (١) لا تتضمنه الأخرى لا محالة (٢).

والثالث: وصف الجنة والنار، وفائدة (٢٢ ظ) التكرار (٣) تجديد الحث والإنذار (٤).

وما لا يتصل بفائدة نوع واحد، وهو ما يوجد في سورتين.

والوجه في الأنواع الثلاثة أن تضمن (٥) الفوائد كلها لا يجب في قصة واحدة، ثم إذا وقعت (٦) الحاجة إلى ذكر فائدة لم تذكر في القصة فالأحسن تكرار القصة لاستدراك ذكر الفائدة في محلها، وربما لا يتصور غير ذلك.

---

(١) التفسير الوسيط للواحدي الواحدي ٤٣٩/3

والوجه في هذا النوع الواحد أن السورتين بمنزلة كتابين، والله يقول: ﴿فيها كتب قيمة﴾ [البينة:٣]، ووجود قصة واحدة في كتابين معروف واجب، وذلك لا يسمى تكرارا (٧) إذ كل كتاب في الحاجة إليها كمثله، وكذلك تضمين قصة واحدة في قصيدتين أو خطبتين. وقيل:

الفائدة في هذا النوع موجودة، وهي شهود قوم نزول الثانية لم يشهدوا نزول الأولى.

٩٣ - وتكرار قوله: ﴿وإذ أخذنا ميثاقكم﴾ أيضا على وجه اللوم والتكذيب (٨)، ألا ترى أنه أعاد قوله: ﴿إن كنتم مؤمنين.﴾

و (السمع) (٩): الإجابة، ومنه قول المصلي: سمع الله (١٠) لمن حمده، وقال الشاعر (١١): [من الوافر]

دعوت الله حتى خفت ألا ... يكون الله يسمع ما أقول

واختلف في قوله: ﴿سمعنا وعصينا،﴾ فحمله بعض المفسرين على الاعتراف **والاستعتاب**. وبعضهم جعل (١٢) ﴿(سمعنا)﴾ من إدراك المسموع لا من (١٣) الإجابة، وقوله:

---

(١) من ع.

(٢) ينظر: الكشاف ١/ ١٦٦، ومجمع البيان ١/ ٣٠٧، والبحر المحيط ١/ ٤٧٥ - ٤٧٦.

(٣) ساقطة من ع.

(٤) في ب: والأقدار، وهو تحريف.

(٥) في ب: البلدان تتضمن، بدل (الثلاثة أن تضمن).

(٦) في ب: رفعت، وهو تحريف.

(٧) في ع: تكرار، وهو خطأ.

(٨) ينظر: البحر المحيط ١/ ٤٧٥ - ٤٧٦.

(٩) الآية نفسها: قالوا سمعنا وعصينا.

(١٠) ليس في ع. وينظر: تفسير أسماء الله الحسنى ٤٢، ومجمع البيان ١/ ٣٠٦، والبحر المحيط ١/ ٤٧٦.

(١١) شمير بن الحارث الضبي، الفائق في غريب الحديث ٢/ ١٩٧. وهو بلا عزو في تفسير أسماء الله الحسنى ٤٢، وتفسير القرطبي ٢/ ٣١.

(١٢) ساقطة من ب.

(١٣) في ك: لأمر، بدل (لا من).." (١)

---

(١) درج الدرر في تفسير الآي والسور ط الفكر الجرجاني، عبد القاهر ١/١٩٩

"و (١) ذكر (٢) الشيطان؛ لأنه كان يعلم أنهم يفهمون (٣) التأويل؛ لأن البيت كان بيت النبوة والعلم، فيتخوف على يوسف من البوائق، وعلى إخوته البغي من وسوسة الشيطان. وعن وهب (٤): رأى هذه الرؤيا وهو ابن اثنتي عشرة سنة، وكان رأى قبل ذلك، وهو ابن سبع سنين:
إحدى (٥) عشرة عصا طوالا مركوزة في الأرض كهيئة الدائرة، وإذا عصا صغيرة تثب على هذه العصي، فتغلبها، وتفوقها. (٦)

٦ - ﴿وكذلك:﴾ إشارة إلى السجود والاختصاص بالرؤيا.
فإنما بشره بالاجتباء لرؤياه، فإن الرؤيا من الله، والحلم من الشيطان، وبشره بعلم التأويل؛ (٧) لافتتاح أمره بخصلة نبوته، وهي الرؤيا، وبشره بإتمام النعمة عليه؛ لأن الله متم نوره، وعلم بذلك لوقوع أمثلتهم في الرؤيا: كواكب (٨)، والكواكب نور يقتدى.

٨ - ﴿إذ قالوا:﴾ (١٦٤ و) فيما بينهم.
﴿وأخوه:﴾ لأمه. (٩)
﴿عصبة:﴾ ما بين العشرة إلى الأربعين. (١٠)
وضللوا أباهم في التدبير الدنياوي؛ لكون يوسف وأخيه غلامين ضعيفين، وكونهم عصبة أقوياء على الحماية، والانتصار من العدو، ولم يقصدوا ذم أبيهم، وإنما قصدوا **العتاب**. (١١)

٩ - ﴿اقتلوا يوسف:﴾ بغير حق؛ لأنهم لم يكونوا بلغوا رتبة النبوة، (١٢) ولا يوسف بعد، وقتل غير النبي ليس بكفر، والكبائر قبل النبوة ممكنة. (١٣) ويحتمل: أنهم قالوا نصيحة

---

(١) الأصل وك وأ: أو.
(٢) أ: كتبت (ذ) وحذف بقية الكلمة.
(٣) ع: يعلمون.
(٤) أبو عبد الله ابن منبه بن كامل بن سيج بن ذي كبار، العلامة الإخباري القصصي، مات سنة (١١٤ هـ)، وقيل غير ذلك. ينظر: التاريخ الأوسط للبخاري ١/ ٢٧٤، ورجال صحيح البخاري ٢/ ٧٦٠، وسير أعلام النبلاء ٤/ ٥٤٤.

(٥) ع: أحد.

(٦) ينظر: معاني القرآن للزجاج ٣/ ٩١، وتفسير الوسيط ٢/ ٦٠٠، والتفسير الكبير ٦/ ٤١٨، واللباب في علوم الكتاب ١١/ ١٣.

(٧) (فإنما بشره. . . بعلم التأويل)، ساقطة من ع.

(٨) ساقطة من ع.

(٩) ينظر: تفسير الطبري ٧/ ١٥٢، وتفسير الماوردي ٣/ ٩، وتفسير البغوي ٤/ ٢١٦.

(١٠) ينظر: تفسير غريب القرآن ٢١٢، والنهاية في غريب الحديث ٣/ ٢٤٣، والاحتجاج ١/ ٢٥٨، وتحفة الأحوذي ٧/ ٣٠.

(١١) ينظر: التفسير الكبير ٦/ ٤٢٤، وتفسير ابن كثير ٤/ ٣٧٢، وفتح القدير ٣/ ١١، وفتح البيان ٦/ ٢٩٣.

(١٢) يقول ابن كثير في تفسيره ٤/ ٣٧٢: واعلم أنه لم يقم دليل على نبوة إخوة يوسف،. . . ومنهم من يزعم أنهم أوحي إليهم بعد هذا، وفي هذا نظر، ويحتاج مدعي ذلك إلى دليل. وينظر: التفسير الكبير ٦/ ٤٢٤.

(١٣) ينظر: التفسير الكبير ٦/ ٤٢٤، واللباب في علوم الكتاب ١١/ ٢٦.." (١)

"كانت محرمة على آل يعقوب لكانت محرمة على [بني] (١) إسرائيل اليوم. (٢)

٨٩ - ﴿هل علمتم:﴾ على (١٧٠ ظ) سبيل **العتاب**؛ لئلا يعتقدوا أن لا ملام عليهم في الحقيقة، أو ليفيدهم طهارة بالندامة والخجل عند **العتاب**، وإنما ذكر جهلهم ليمهد لهم عذرا، فلا يخافوا كل الخوف، كقوله: ﴿يعملون السوء بجهالة﴾ [النساء:١٧]، وأراد: علمتم قبح صنيعكم (٣)، فكأنه يقول: هل تبين؟ هل وضح لكم قبح ما صنعتم بيوسف وأخيه إذ (٤) كنتم جاهلين؟ فالعامل في إذ صنيعهم (٥). أما صنيعهم بيوسف فظاهر، وصنيعهم بأخيه: سلبهم أخاه، وتركه فردا وحيدا (٦)، وتركهم إياه عند يوسف متهما بالسرقة من غير بينة واعتراف، إذ أبيتم أن تقولوا: أنت أمرت بدس الصاع في رحله، كما أمرت بدس بضاعتنا في رحالنا أول مرة.

﴿أنا يوسف وهذا أخي:﴾ زاد الجواب؛ لئلا يفرد نفسه بالثناء عليها، فيتداخله العجب، فيرده من حيز الشكر إلى حيز الفقر.

٩١ - ﴿ آثرك:﴾ اختارك.

﴿لخاطئين:﴾ آثمين، من الخطأ، والخطيئة: الإثم وتعمد الخطأ.

---

(١) درج الدرر في تفسير الآي والسور ط الفكر الجرجاني، عبد القاهر ١٢١/٢

٩٢ - ﴿لا تثريب:﴾ لا تقريع وتعذير الذنوب.

٩٣ - ﴿اذهبوا بقميصي:﴾ قيل: كان القميص من كسوة الجنة، كساه الله إبراهيم، وإبراهيم إسحق، وإسحاق يعقوب، ثم طيه في قصبة، وعلقها (٧) من يوسف عليه السلام. (٨)
وقيل: هذا القميص الذي قد من دبر جعله الله آية له، ومعجزة على صدق دعواه.
﴿يأت بصيرا:﴾ يعود كما كان لا بياض في مقلته.

٩٤ - ﴿إني لأجد ريح يوسف:﴾ إنما وجد لرفع الله الابتلاء، وكشفه حجب الفراق، وتعويضه منها أسباب الوصال. قال النبي عليه السلام: «إن لربكم نفحات في أيام دهركم، فتعرضوا لها، فعسى أن تدرككم، فلا تشقون (٩) أبدا». (١٠)

---

(١) سواد في الأصل.
(٢) ينظر: الكشاف ٢/ ٤٧١، والمحرر الوجيز ٨/ ٦٣، وعزاه لسفيان بن عيينة.
(٣) الأصل وك وأ: صنيعهم.
(٤) أ: إن.
(٥) ك: صنعهم.
(٦) ك: وحيد.
(٧) أ: كساه الله إبراهيم وإسحاق ويعقوب، ثم طيه وعلقها.
(٨) ينظر: تفسير الخازن ٢/ ٥٥٤، وتفسير البغوي ٣/ ٤١٣، والبحر المديد ٣/ ٣٠٤ - ٣٠٥، وتفسير النسفي ٢/ ١٣٣.
(٩) الأصول المخطوطة: تشقوا.
(١٠) أخرجه من رواية محمد بن مسلمة الطبراني في الكبير ١٩/ (٥١٩)، وفي الأوسط (٢٨٥٦) و (٦٢٤٣)، وفي مجمع الزوائد (١٧٧١٣) قال الهيثمي: فيه من لم أعرفه. وهو حديث ضعيف كما قال المحقق.." (١)
"﴿ظعنكم:﴾ ارتحالكم.
و ﴿إقامتكم:﴾ لبثكم في المنازل.
﴿أصوافها:﴾ شعر الغنم.
﴿وأوبارها﴾ (١): شعر الإبل.

---

(١) درج الدرر في تفسير الآي والسور ط الفكر الجرجاني، عبد القاهر ٢/١٤٤

﴿وأشعارها:﴾ ما لا يتلبد.

و (الأثاث): أمتعة البيت حين زمان الخلوقة والبلى.

٨١ - ﴿ظلالا:﴾ هي ظلال الغيوم، والأشجار والأخبية، ونحوها.

﴿سرابيل:﴾ قمص، وهذا مقتصر على أحد طرفي الكلام.

﴿وسرابيل تقيكم بأسكم:﴾ وهو الدروع والجواشن (٢) والجباب (٣) المحشوة من القر (٤)، ونحوه.

٨٣ - ﴿يعرفون نعمت الله:﴾ بأنها منه.

﴿ثم ينكرونها:﴾ ويسندون اتصالها إلى الأصنام.

٨٤ - ﴿يوم:﴾ واذكر يوم.

﴿شهيدا:﴾ الأنبياء والأئمة.

﴿لا يؤذن:﴾ حالة الختم على الأفواه، كقوله: ﴿اليوم نختم على أفواههم﴾ [يس:٦٥].

و (**الاستعتاب**): طلب العتبى، وهو الرضى.

٨٧ - (إلقاء القول): صرفه.

﴿السلم:﴾ الاستسلام والخضوع.

٨٨ - ﴿زدناهم عذابا فوق العذاب:﴾ أي: فوق ما هم فيه.

٩٠ - ﴿إن الله يأمر بالعدل:﴾ شهادة أن لا إله إلا الله.

﴿والإحسان:﴾ القيام بالفرائض.

﴿وإيتاء ذي القربى:﴾ صلتهم.

---

(١) الأصل وأ: أبوارها.

(٢) جمع جوشن، وهو الدرع. لسان العرب ١٣/ ٨٨.

(٣) الجباب: جمع جبة، وهي اسم من أسماء الدرع. ينظر: لسان العرب ١/ ٢٤٩.

(٤) القر: البرد عامة. ينظر: النهاية في غريب الأثر ٤/ ٣٨، ولسان العرب ٥/ ٨٢.." (١)

---

(١) درج الدرر في تفسير الآي والسور ط الفكر الجرجاني، عبد القاهر ٢/١٩٢

"﴿وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين (٢٣) فإن يصبروا فالنار مثوى لهم وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين (٢٤) وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم وحق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس إنهم كانوا خاسرين (٢٥) وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون (٢٦) فلنذيقن الذين كفروا عذابا شديدا ولنجزينهم أسوأ الذي كانوا يعملون (٢٧) ﴾

قوله تعالى: ﴿وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم﴾ أهلككم، أي: ظنكم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون، أرداكم. قال ابن عباس: طرحكم في النار، ﴿فأصبحتم من الخاسرين﴾ . ثم أخبر عن حالهم فقال:

﴿فإن يصبروا فالنار مثوى لهم﴾ مسكن لهم، ﴿وإن يستعتبوا﴾ يسترضوا ويطلبوا العتبى، ﴿فما هم من المعتبين﴾ المرضين، والمعتب الذي قبل **عتابه** وأجيب إلى ما سأل، يقال: أعتبني فلان، أي: أرضاني بعد إسخاطه إياي، واستعتبته: طلبت منه أن يعتب، أي: يرضى.

﴿وقيضنا لهم﴾ أي: بعثنا ووكلنا، وقال مقاتل: هيأنا. وقال الزجاج: سببنا لهم. ﴿قرناء﴾ نظراء من الشياطين حتى أضلوهم، ﴿فزينوا لهم ما بين أيديهم﴾ من أمر الدنيا حتى آثروه على الآخرة، ﴿وما خلفهم﴾ من أمر الآخرة فدعوهم إلى التكذيب به وإنكار البعث، ﴿وحق عليهم القول في أمم﴾ [مع أمم] (١) . ﴿قد خلت من قبلهم من الجن والإنس إنهم كانوا خاسرين﴾ .

﴿وقال الذين كفروا﴾ من مشركي قريش، ﴿لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه﴾ قال ابن عباس: يعني الغطوا فيه، وكان بعضهم يوصي إلى بعض إذا رأيتم محمدا يقرأ فعارضوه بالرجز والشعر واللغو. قال مجاهد: والغوا فيه بالمكاء والصفير. وقال الضحاك: أكثروا الكلام فيختلط عليه ما يقول (٢) . وقال السدي: صيحوا في وجهه. ﴿لعلكم تغلبون﴾ محمدا على قراءته.

﴿فلنذيقن الذين كفروا عذابا شديدا ولنجزينهم أسوأ الذي﴾ يعني بأسوء الذي، أي: بأقبح الذي، ﴿كانوا يعملون﴾ في الدنيا وهو الشرك بالله.

---

(١) زيادة من "ب".

(٢) أخرج الطبري: ٢٤ / ١١٢ قول مجاهد، وذكر القرطبي أكثر الأقوال الأخري: ١٥ / ٣٥٦.." (١)

---

(١) تفسير البغوي - طيبة البغوي ، أبو محمد ١٧١/٧

"فأعتبوا بالصيلم «١»
والصالحة نحو الحسنة في جريها مجرى الاسم. قال الحطيئة:
كيف الهجاء وما تنفك صالحة ... من آل لأم بظهر الغيب تأتينى «٢»
والصالحات: كل ما استقام من الأعمال بدليل العقل والكتاب والسنة، واللام للجنس.
فإن قلت: أى فرق بين لام الجنس داخلة على المفرد، وبينها داخلة على المجموع؟ قلت: إذا دخلت على المفرد كان صالحا لأن يراد به الجنس إلى أن يحاط به، وأن يراد به بعضه إلى الواحد منه. وإذا دخلت على المجموع، صلح أن يراد به جميع الجنس، وأن يراد به بعضه لا إلى الواحد منه لأن وزانه في تناول الجمعية في الجنس وزان المفرد في تناول الجنسية، والجمعية في جمل الجنس لا في وحدانه. فإن قلت: فما المراد بهذا المجموع مع اللام؟ قلت:
الجملة من الأعمال الصحيحة المستقيمة في الدين على حسب حال المؤمن في مواجب التكليف.
والجنة: البستان من النخل والشجر المتكاثف المظلل بالتفاف أغصانه. قال زهير
تسقى جنة سحقا «٣»

---

(١) .
غضبت تميم أن نقتل عامرا ... يوم النسار فأعتبوا بالصيلم
لبشر بن أبى حازم الأسدى. وتميم، وعامر: قبيلتان. وهل: استفهام إنكارى. أى ليس المجرب للأمور مثلهما كمن لم يجربها. ويجوز أنه أمره بالسؤال لأن الذي يسأل ويعلم ليس كمن لم يعلم. وأن نقتل: أى من أن نقتل.
وروى: تقتل عامر، بالباء للمجهول. والنسار اسم ماء لبنى عامر، أى غضبت علينا تميم من قتل حلفائهم فكأنها عتبت علينا لضعفها. فأعتبناهم، أى أزلنا عتابهم بالصيلم: وهو السيف الكثير القطع، من صلمه إذا قطعه. وشبه إجابتهم بالمحاربة بالسيف باجابة من يزيل العتاب على سبيل التصريحية التهكمية. لأن الأول مكروه والثاني محبوب.
(٢) . للحطيئة واسمه جرول بن أوس بن حومة بن مخذوم بن مالك الغطفاني، حين وفدت العرب على النعمان بن المنذر فأحضر حللا عظيمة وقال: إنى ملبسها غدا لمن شئت، فلما كان الغد تخلف ابن سعدى خوف إلباسها غيره وهو حاضر فطلبه الملك وألبسه الحلل، فحسدته سادات العرب من قومه، وضمنوا للحطيئة مائة بعير لو هجاه، فقال:
كيف الهجاء له، والحال أن لا تنفك فعلة صالحة تأتينى من آل لأم حال كوني ملتبسا بظهر الغيب، أو حال كونهم ملتبسين بظهر الغيب. وأقحم الظهر لأن الغائب كأنه وراء الظهر، أو لتقوية الغيب، لأنهم إذا أرادوا تقوية شيء أسندوا له الظهر لقوته، وكثيرا ما يجرون الصفة مجرى الاسم، إما لعدم الاحتياج إلى ذكره كما في صالحة، أو لأنها كافية في تعيين الموصوف إن احتيج إليه.
(٣) .

إن الخليط أجدوا البين فافترقا ... وعلق القلب من أسماء ما علقا
وفارقتك برهن لا فكاك له ... يوم الوداع فأمسى الرهن قد غلقا
كأن عينى في غربي مقتلة ... من النواضح تسقى جنة سحقا

لزهير بن أبى سلمى. والخليط المعاشر. والبين: الانفصال والبعد، وأسماء: اسم محبوبته. وأصله من الوسامة وهي علامة الحسن. وقيل أصله جمع اسم. وعلق: مبنى للمجهول. والقلب: نائب فاعل. وما علق- بالتخفيف-:

مفعوله، أى ما تعلق به منها وهو الحب والتحسر والتحزن على سفرها. ولم يعينه دلالة على التكثير والتهويل ولما اشتغل قلبه بها، فكأنها أخذته معها ولذلك ادعى أنها أخذته رهنا على سبيل الاستعارة المصرحة، ورشحها بقوله:

لا فكاك له: وغلق الرهن- بالكسر-: إذا امتلكه الدائن ويأس صاحبه من رجوعه إليه، ثم قال: كأن عينى من شدة البكاء وكثرة الدموع عينان في دلوين عظيمتين ممتلئتين ماء، تحملهما ناقة مقتلة مذللة معتادة على العمل من الإبل النواضح التي يستقى عليها، تسقى تلك الناقة جنة «سحقا» بضمتين: جمع سحوق، أى نخلا طوالا جهة السماء، أو بعيدة عن محل الماء، فهي دائمة ذاهبة آئبة. ولقد خاطب نفسه أولا كأنه يخبرها بسفر أسماء لفرط جزعه، ثم التفت كأنه يشتكى للناس في قوله: كأن عينى.." (١)

"من قريش دينارا فجحده وخانه. وقيل: المأمونون على الكثير النصارى، لغلبة الأمانة عليهم.

والخائنون في القليل اليهود، لغلبة الخيانة عليهم إلا ما دمت عليه قائما إلا مدة دوامك عليه يا صاحب الحق قائما على رأسه متوكلا عليه بالمطالبة والتعنيف، أو بالرفع إلى الحاكم وإقامة البينة عليه. وقرئ (يؤده) بكسر الهاء والوصل، وبكسرها بغير وصل، وبسكونها. وقرأ يحيى بن وثاب:

تئمنه، بكسر التاء. ودمت بكسر الدال من دام يدام ذلك إشارة إلى ترك الأداء الذي دل عليه لم يؤده، أى تركهم أداء الحقوق بسبب قولهم ليس علينا في الأميين سبيل أى لا يتطرق علينا عتاب وذم في شأن الأميين، يعنون الذين ليسوا من أهل الكتاب، وما فعلنا بهم من حبس أموالهم والإضرار بهم، لأنهم ليسوا على ديننا، وكانوا يستحلون ظلم من خالفهم ويقولون:

لم يجعل لهم في كتابنا حرمة. وقيل: بايع اليهود رجالا من قريش، فلما أسلموا تقاضوهم فقالوا:

ليس لكم علينا حق حيث تركتم دينكم، وادعوا أنهم وجدوا ذلك في كتابهم. وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال عند نزولها «كذب أعداء الله ما من شيء في الجاهلية إلا وهو تحت قدمى، إلا الأمانة فإنها مؤداة إلى البر والفاجر» «١» وعن ابن عباس أنه سأله رجل فقال: إنا نصيب في الغزو من أموال أهل الذمة الدجاجة والشاة. قال: فتقولون ماذا؟ قال: نقول ليس علينا في ذلك بأس. قال: هذا كما قال أهل الكتاب: ليس علينا في الأميين سبيل. إنهم إذا أدوا الجزية لم يحل لكم أكل أموالهم إلا بطيبة أنفسهم «٢» . ويقولون على الله الكذب بادعائهم أن ذلك في كتابهم وهم يعلمون أنهم كاذبون بلى إثبات لما نفوه من السبيل عليهم في الأميين، أى بلى عليهم سبيل فيهم. وقوله من أوفى بعهده جملة

---

(١) تفسير الزمخ شري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل الزمخشري ١٠٥/١

مستأنفة مقررة للجملة التي سدت بلى مسدها، والضمير في بعهده راجع إلى من أوفى، على أن كل من أوفى بما عاهد عليه واتقى الله في ترك الخيانة والغدر، فإن الله يحبه. فإن قلت، فهذا عام يخيل أنه لو وفي أهل الكتاب بعهودهم وتركوا الخيانة لكسبوا محبة الله. قلت: أجل، لأنهم إذا وفوا بالعهود وفوا أول شيء بالعهد الأعظم، وهو ما أخذ عليهم في كتابهم من الإيمان برسول مصدق لما معهم، ولو اتقوا الله في ترك الخيانة لاتقوه في ترك الكذب على الله وتحريف كلمه. ويجوز أن يرجع الضمير إلى الله تعالى، على أن كل من وفى بعهد الله واتقاه فإن الله يحبه، ويدخل في ذلك الإيمان وغيره من الصالحات وما وجب اتقاؤه من الكفر وأعمال السوء. فإن قلت: فأين الضمير الراجع من الجزاء إلى من؟ قلت:

---

(١) . أخرجه الطبري وابن أبى حاتم من طريق يعقوب بن النعمان القمي عن جعفر عن سعيد بن جبير به مرسلا.

(٢) . أخرجه عبد الرزاق والطبري من طريق أبى إسحاق عن صعصعة بن معاوية أنه سأل ابن عباس- فذكره.." (١)

"عهد إلينا أمرنا في التوراة وأوصانا بأن لا نؤمن لرسول حتى يأتينا بهذه الآية الخاصة، وهو أن يرينا قربانا تنزل نار من السماء فتأكله، كما كان أنبياء بنى إسرائيل تلك آيتهم، كان يقرب بالقربان، فيقوم النبي فيدعو، فتنزل نار من السماء فتأكله، وهذه دعوى باطلة وافتراء على الله، لأن أكل النار القربان لم يوجب الإيمان للرسول الآتي به إلا لكونه آية ومعجزة فهو إذن وسائر الآيات سواء فلا يجوز أن يعينه الله تعالى من بين الآيات. وقد ألزمهم الله أن أنبياءهم جاءوهم بالبينات الكثيرة التي أوجبت عليهم التصديق، وجاءوهم أيضا بهذه الآية التي اقترحوها فلم قتلوهم إن كانوا صادقين أن الإيمان يلزمهم بإتيانها وقرئ (بقربان) بضمتين. ونظيره السلطان. فإن قلت:

ما معنى قوله وبالذي قلتم؟ قلت: معناه، وبمعنى الذي قلتموه من قولكم: قربان تأكله النار.

ومؤداه كقوله: (ثم يعودون لما قالوا) أى لمعنى ما قالوا. في مصاحف أهل الشام: وبالزبر وهي الصحف والكتاب المنير التوراة والإنجيل والزبور. وهذه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم من تكذيب قومه وتكذيب اليهود.

[سورة آل عمران (٣) : آية ١٨٥]

كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور (١٨٥)

وقرأ اليزيدي ذائقة الموت على الأصل. وقرأ الأعمش (ذائقة الموت) بطرح التنوين مع النصب كقوله:

ولا ذاكر الله إلا قليلا «١»

فإن قلت: كيف اتصل به قوله وإنما توفون أجوركم؟ قلت: اتصاله به على أن كلكم تموتون ولا بد لكم من الموت ولا توفون أجوركم على طاعاتكم ومعاصيكم عقيب موتكم، وإنما توفونها يوم قيامكم من القبور. فإن قلت فهذا يوهم نفى ما

---

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل الزمخشري ٣٧٥/١

يروى أن القبر روضة من رياض الجنة

. (١)

فذكرته ثم عاتبته ... عتابا رقيقا وقولا جميلا

فألقيته غير مستعتب ... ولا ذاكر الله إلا قليلا

لأبى الأسود الدؤلي، كان يجلس إلى فناء امرأة جميلة بالبصرة فقالت له: هل لك أن أتزوج بك؟ فانى حميدة الخصال وكيت وكيت. فقال: نعم وتزوجها من أهلها، فوجدها بضد ما قالت، فعاتبها وخاطب أهلها بشعر منه ذلك، ثم طلقها أمامهم. وكنى بضمير المذكر عنها استحياء. أى فذكرتها بما قالت وعاتبتها على ما فعلت عتابا حسنا، فوجدتها غير قابلة منى عتابا. ولفظ الجلالة نصب بذاكر، وحذف تنوينه مع أنه غير مضاف تشبيها بحذف نون التوكيد الخفيفة لملاقاة الساكن. أو بتنوين العلم الموصوف بابن مضافا إلى علم. وذاكر: عطف على مستعتب.

و «لا» زائدة لتوكيد النفي، ولم يضف ذاكر إلى الله ليتمحض للتنكير كالذي قبله، وليكون أبلغ في النفي لأن الاضافة قد تفيد أن شأنه الذكر، فيتوهم أن النفي هو الشأنية لا أصل الذكر.." (١)

"[سورة التوبة (٩) : آية ٨٣]

فإن رجعك الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معي أبدا ولن تقاتلوا معي عدوا إنكم رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا مع الخالفين (٨٣)

وإنما قال إلى طائفة منهم لأن منهم من تاب عن النفاق وندم على التخلف، أو اعتذر بعذر صحيح. وقيل: لم يكن المخلفون كلهم منافقين، فأراد بالطائفة: المنافقين منهم فاستأذنوك للخروج يعنى إلى غزوة بعد غزوة تبوك. وأول مرة هي الخروج إلى غزوة تبوك، وكان إسقاطهم عن ديوان الغزاة عقوبة لهم على تخلفهم الذي علم الله أنه لم يدعهم إليه إلا النفاق، بخلاف غيرهم من المتخلفين مع الخالفين قد مر تفسيره. قرأ مالك بن دينار رحمه الله. مع الخلفين، على قصر الخالفين. فإن قلت مرة نكرة وضعت موضع المرات للتفضيل، فلم ذكر اسم التفضيل المضاف إليها وهو دال على واحدة من المرات؟ قلت: أكثر اللغتين: هند أكبر النساء، وهي أكبرهن. ثم إن قولك: هي كبرى امرأة، لا تكاد تعثر عليه. ولكن هي أكبر امرأة، وأول مرة، وآخر مرة. وعن قتادة: ذكر لنا أنهم كانوا اثنى عشر رجلا قيل فيهم ما قيل.

[سورة التوبة (٩) : الآيات ٨٤ الى ٨٥]

---

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل الزمخشري ٤٤٨/١

ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون (٨٤) ولا تعجبك أموالهم وأولادهم إنما يريد الله أن يعذبهم بها في الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون (٨٥)

روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقوم على قبور المنافقين ويدعو لهم «١» فلما

---

(١) . لم أجده هكذا فأما أوله وهو «كان يقوم، إلى آخره» وأما قصة عبد الله ففي الجائز من المستدرك من طريق ابن إسحاق حدثني الزهري عن عروة عن أسامة بن زيد قال «دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على عبد الله ابن أبى ليعوده في مرضه الذي مات فيه. فلما عرف فيه الموت قال له: أما والله إن كنت لأنهاك عن حب يهود فقال: قد أبغضتهم، أسعد بن زرارة. فما نفعه، فلما مات أتاه ابنه فقال: قد مات فأعطنى قميصك أكفنه فيه فنزع عليه الصلاة والسلام قميصه فأعطاه إياه» وأما قوله «بعثت إليك لتستغفر لي لا لتوبخنى» فزاده الطيراني من طريق معمر عن قتادة قال «أرسل عبد الله ابن أبى وهو مريض إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فلما دخل عليه قال له النبي صلى الله عليه وسلم: أهلكك حب يهود. قال: يا رسول الله، أرسالات إليك لتستغفر لي ولم أرسل إليك لتوبخنى، وسأله قميصه أن يكفن فيه، فأعطاه إياه فاستغفر له ومات فكفنه في قميصه، ونفث في جلده ودلاه في قبره، فأنزل الله تعالى ولا تصل على أحد منهم مات أبدا وفي الدلائل البيهقي من طريق الواقدي بإسناده في هذه القصة قال:

فقال «ليس هذا بحين عتاب، هو الموت، فان مت فاحضر غسلي وأعطنى قميصك أكفن فيه فأعطاه ثم قال: وصل على واستغفر لي» وفي رواية له فقال له ابنه– وكان يقال له الحباب، فسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله يا رسول الله أعطه قميصك الذي يلي جلدك» وأما قوله الحباب اسم شيطان فرواه ابن سعد والطبري من طريق عروة وغيره قال «لما ثقل عبد الله بن أبى انطلق ابنه فقال: إن أبى احتضر وأحب أن تشهده وتصلى عليه، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: ما اسمك؟ قال: الحباب بن عبد الله قال: بلى، أنت عبد الله، إن الحباب اسم شيطان، قال: فانطلق معه حتى شهده وألبسه قميصه وصلى عليه وأما قول عمر فقد قدمنا أنه في الصحيحين.." (١)

"يكون قوله قلت لا أجد استئنافا مثله، كأنه قيل: إذا ما أتوك لتحملهم تولوا، فقيل: ما لهم تولوا باكين؟ فقيل: قلت لا أجد ما أحملكم عليه. إلا أنه وسط بين الشرط والجزاء كالاعتراض «قلت» نعم ويحسن لن نؤمن لكم علة للنهى عن الاعتذار، لأن غرض المعتذر أن يصدق فيما يعتذر به، فإذا علم أنه مكذب وجب عليه الإخلال «١» وقوله قد نبأنا الله من أخباركم علة لانتفاء تصديقهم لأن الله عز وجل إذا أوحى إلى رسوله الإعلام بأخبارهم وما في ضمائرهم من الشر والفساد، لم يستقم مع ذلك تصديقهم في معاذيرهم وسيرى الله عملكم أتنيبون أم تثبتون على كفركم ثم تردون إليه وهو عالم كل غيب وشهادة وسر وعلانية، فيجازيكم على حسب ذلك.

[سورة التوبة (٩) : آية ٩٥]

---

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل الزمخشري ٢٩٧/٢

سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم فأعرضوا عنهم إنهم رجس ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون (٩٥) لتعرضوا عنهم فلا توبخوهم ولا تعاتبوهم فأعرضوا عنهم فأعطوهم طلبتهم إنهم رجس تعليل لترك معاتبتهم، يعنى أن المعاتبة لا تنفع فيهم ولا تصلحهم، إنما يعاتب الأديب ذو البشرة. والمؤمن يوبخ على زلة تفرط منه، ليطهره التوبيخ بالحمل على التوبة والاستغفار.

وأما هؤلاء فأرجاس لا سبيل إلى تطهيرهم ومأواهم جهنم يعنى وكفتهم النار **عتابا** وتوبيخا، فلا تتكلفوا **عتابهم**.

[سورة التوبة (٩) : آية ٩٦]

يحلفون لكم لترضوا عنهم فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين (٩٦)

لترضوا عنهم أى غرضهم في الحلف بالله طلب رضاهم لينفعهم ذلك في دنياهم فإن ترضوا عنهم فإن رضاكم وحدكم لا ينفعهم إذا كان الله ساخطا عليهم وكانوا عرضة لعاجل عقوبته وآجلها. وقيل إنما قيل ذلك لئلا يتوهم متوهم أن رضا المؤمنين يقتضى رضا الله عنهم.

قيل: هم جد بن قيس ومعتب بن قشير وأصحابهما، وكانوا ثمانين رجلا منافقين فقال النبي صلى الله عليه وسلم حين قدم المدينة، لا تجالسوهم ولا تكلموهم. وقيل: جاء عبد الله ابن أبى يحلف أن لا يتخلف عنه أبدا.

---

(١) . قوله «وجب عليه الإخلال» أى الترك. يقال: أخل الرجل بمركزه، إذا تركه. (ع)." [1]

"يقين أنه على بينة، لأن خطابه للجاحدين، فكأنه قال: قدروا أني على بينة من ربى، وأنى نبى على الحقيقة، وانظروا إن تابعتكم وعصيت ربى في أوامره، فمن يمنعني من عذاب الله؟ فما تزيدونني إذن حينئذ «١» غير تخسير يعنى تخسرون أعمالى وتبطلونها. أو فما تزيدونني بما تقولون لي وتحملوننى عليه غير أن أخسركم، أى أنسبكم إلى الخسران وأقول لكم إنكم خاسرون آية نصب على الحال قد عمل فيها ما دل عليه اسم الإشارة من معنى الفعل. فإن قلت: فبم يتعلق لكم قلت: بآية حالا منها متقدمة، لأنها لو تأخرت لكانت صفة لها، فلما تقدمت انتصبت على الحال عذاب قريب عاجل لا يستأجر عن مسكم لها بسوء إلا يسيرا، وذلك ثلاثة أيام ثم يقع عليكم تمتعوا استمتعوا بالعيش في داركم في بلدكم. وتسمى البلاد الديار، لأنه يدار فيها أى يتصرف. يقال: ديار بكر، لبلادهم. وتقول العرب الذين حوالى مكة: نحن من عرب الدار، يريدون من عرب البلد. وقيل: في دار الدنيا. وقيل: عقروها يوم الأربعاء وهلكوا يوم السبت غير مكذوب غير مكذوب فيه، فاتسع في الظرف بحذف الحرف وإجرائه مجرى المفعول به، كقولك: يوم مشهود، من قوله:

ويوم شهدناه. «٢» ....

أو على المجاز، كأنه قيل للوعد: نفى بك، فإذا وفي به فقد صدق ولم يكذب. أو وعد غير كذب، على أن المكذوب

---

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل الزمخشري ٣٠٢/٢

مصدر كالمجلود والمعقول، وكالمصدوقة بمعنى الصدق ومن خزي يومئذ قرئ مفتوح الميم لأنه مضاف إلى إذ، وهو غير متمكن، كقوله:

على حين عاتبت المشيب على الصبا «٣»

---

(١) . قوله «إذن حينئذ» لعل إحداهما مزيدة. (ع)

(٢) .

ويوم شهدناه سليما وعامرا ... قليل سوى الطعن النهال نوافله

يقول: ورب يوم شهدنا فيه، فحذف الجار وأوصل الضمير بالفعل، فصار الفعل كأنه متعد لمفعولين: الأول الضمير، والثاني: سليما، أى قبيلتيهما «قليل» صفة ليوم. و «نوافله» فاعل به، وقلة الغنائم لأن قومه لا تراعى حيازتها. أو المعنى أن أعداءه لا ينالون من قومه إلا الطعن، تهكما بهم، فالاستثناء متصل. ويجوز أنه منقطع.

ووصف المفرد بالجمع باعتبار أنواعه أو مراته، فهو متعدد أيضا. والنهال: جمع ناهل، أى ريان أو عطشان على التشبيه هنا، فهو من الأضداد، ووصف الطعن بأنه ناهل مجاز عقلى، لأن الذي يوصف به الرمح أو الفارس.

والمعنى: أنهم يتشفون من غيظ قلوبهم بذلك الطعن.

(٣) .

على حين عاتبت المشيب على الصبا ... فقلت ألما أصح والشيب وازع

النابغة الذبياني، وبنى حين على الفتح لاضافته إلى مبنى، وشبه المشيب بمن يصح معه **العتاب** على طريق المكنية **والعتاب** تخييل، ويحتمل أن إيقاع **العتاب** على المشيب مجاز عقلى. والمعنى: عاتبت نفسي زمن الشيب على الصبا، أى الميل إلى الهوى كما يفعل الشبان. وقوله «فقلت» بيان **العتاب**، أى: إلى الآن لم أفق من سكرة الصبا، والحال أن الشيب زاجرا لي عن موجب **العتاب**، والاستفهام توبيخي: أى لا ينبغي ذلك، ووزعته فاتزع: كففته فامتنع، فالوازع الذي يصلح الصف ويمنعه عن الاعوجاج، وأوزعنى: ألهمنى ما يصلح شأنى.." (١)

"فإن قلت: فما معنى قوله لو هدانا الله لهديناكم؟ قلت الذي قال لهم الضعفاء كان توبيخا لهم «١» **وعتابا** على استتباعهم واستغوائهم. وقولهم فهل أنتم مغنون عنا من باب التبكيت، لأنهم قد علموا أنهم لا يقدرون على الإغناء عنهم، فأجابوهم معتذرين عما كان منهم إليهم: بأن الله لو هداهم إلى الإيمان لهدوهم ولم يضلوهم، إما موركين الذنب «٢» في ضلالهم وإضلالهم على الله، كما حكى الله عنهم وقالوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا، لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء يقولون ذلك في الآخرة كما كانوا يقولونه في الدنيا. ويدل عليه قوله حكاية عن المنافقين يوم يبعثهم الله جميعا فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شيء. وإما أن يكون المعنى: لو كنا من أهل اللطف فلطف بنا ربنا واهتدينا لهديناكم إلى الإيمان. وقيل: معناه لو هدانا الله طريق النجاة من العذاب لهديناكم، أى: لأغنينا عنكم

---

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل الزمخشري ٢/٤٠٨

وسلكنا بكم طريق النجاة كما سلكنا بكم طريق الهلكة سواء علينا أجزعنا أم صبرنا مستويان علينا الجزع والصبر. والهمزة وأم للتسوية. ونحوه:

فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم وروى أنهم يقولون: تعالوا نجزع، فيجزعون خمسمائة عام فلا ينفعهم، فيقولون: تعالوا نصبر، فيصبرون كذلك ثم يقولون: سواء علينا. فإن قلت: كيف اتصل قوله سواء علينا بما قبله؟ قلت: اتصاله به من حيث أن **عتابهم** لهم كان جزعا مما هم فيه، فقالوا: سواء علينا أجزعنا أم صبرنا، يريدون أنفسهم وإياهم، لاجتماعهم في عقاب الضلالة التي كانوا مجتمعين فيها، يقولون: ما هذا الجزع والتوبيخ، ولا فائدة في الجزع كما لا فائدة في الصبر والأمر من ذلك أطم. أو لما قالوا لو هدانا الله طريق النجاة لأغنينا عنكم وأنجيناكم، أتبعوه الإقناط من النجاة فقالوا ما لنا من محيص أى منجى ومهرب، جزعنا أم صبرنا. ويجوز أن يكون من كلام الضعفاء والمستكبرين جميعا، كأنه قيل: قالوا جميعا سواء علينا، كقوله ذلك ليعلم أني لم أخنه

---

(١) . قال محمود: «الذي قال لهم الضعفاء كان توبيخا لهم ... الخ» قال أحمد: لما استشعر دلالة الآية لعقيدة السنة المشتملة على أن الله تعالى مهما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأن هد آية المشركين مما لم يشأه، ولو شاءها لاهتدوا. وإنما تنشأ هذه الدلالة من إيراد هذا الكلام عن الكفار في دار الحق حين حقت لهم الحقائق وانكشف الغطاء. والمقصود من اقتصاصه: إنذار أمثالهم في الدنيا، وتحذيرهم من الحسرة والندم في الآخرة إذا حق عليهم العذاب واعترفوا بالحق وقالوا القول المذكور، وهذا يرشد إلى أنه كلام صحيح المعنى، فلما فطن الزمخشري لذلك شرع في تقرير تخطئتهم في هذا القول في الآخرة كما خطأهم في الدنيا، ليتم له اعتقاد أن الله يشاء ما لا يكون ويكون ما لا يشاء، ومن ذلك هد آية الكفار فان الله تعالى يشاؤها في الدنيا، لكنها لم تكن. وأنى له ذلك، وسياق الآية يصوب الكلام المذكور وينذر الغافلين عنه في الدنيا، ويحذرهم من التورط فيما يؤدى إلى هذا الندم، حيث لا ينفع ويجر إلى هذه الحسرة، إذ لا ينجع، كما أورد كلام الشيطان عقيب ذلك حين يعترف بالحق في دار الحق، وحيث لا ينفعه إيمانه، فيقول: إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم ... الخ. وإنما سيق تحذيرا وإنذارا اتفاقا، والله الموفق.

(٢) . قوله «موركين الذنب» في الصحاح: ورك فلان ذنبه على غيره، أى: قرفه به اه، أى: اتهمه به. (ع)." (١)

"تقديره: ومن ثمرات النخيل والأعناب ثمر تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا، لأنهم يأكلون بعضها ويتخذون من بعضها السكر. فإن قلت: فإلام يرجع الضمير في منه إذا جعلته ظرفا مكررا؟

قلت: إلى المضاف المحذوف الذي هو العصير كما رجع في قوله تعالى أو هم قائلون إلى الأهل المحذوف، والسكر: الخمر، سميت بالمصدر من سكر سكرا وسكرا. نحو رشد رشدا ورشدا. قال:

وجاؤنا بهم سكر علينا ... فأجلى اليوم والسكران صاحى «١»

وفيه وجهان: أحدهما أن تكون منسوخة. وممن قال بنسخها: الشعبي والنخعي. والثاني أن يجمع بين **العتاب** والمنة.

---

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل الزمخشري ٥٤٩/٢

وقيل: السكر النبيذ، وهو عصير العنب والزبيب والتمر إذا طبخ حتى يذهب ثلثاه، ثم يترك حتى يشتد، وهو حلال عند أبى حنيفة إلى حد السكر ويحتج بهذه الآية وبقوله صلى الله عليه وسلم «الخمر حرام لعينها والسكر من كل شراب» «٢» وبأخبار جمة. ولقد صنف شيخنا أبو على الجبائي قدس الله روحه غير كتاب في تحليل النبيذ، فلما شيخ «٣» وأخذت منه السن العالية قيل له: لو شربت منه ما تتقوى به، فأبى. فقيل له: فقد صنفت في تحليله، فقال:
تناولته الدعارة «٤» فسمج في المروءة. وقيل: السكر الطعم «٥» وأنشد:
جعلت أعراض الكرام سكرا
أى تنقلت بأعراضهم «٦» . وقيل هو من الخمر، وإنه إذا ابترك «٧» في أعراض الناس، فكأنه تخمر بها. والرزق الحسن: الخل والرب والتمر والزبيب وغير ذلك. ويجوز أن يجعل السكر رزقا حسنا، كأنه قيل: تتخذون منه ما هو سكر ورزق حسن.

---

(١) . تقدم شرح هذا الشاهد بهذا الجزء ص ٣٩٥ فراجعه إن شئت اه مصححه.
(٢) . أخرجه النسائي من حديث ابن عباس رضى الله عنهما مرفوعا. ورواه العقيلي من وجه آخر عن على مرفوعا. وفيه محمد بن الفرات الكوفي، وهو منكر الحديث.
(٣) . قوله «فلما شيخ وأخذت منه السن العالية» في الصحاح: شاخ الرجل يشيخ شيخا بالتحريك، وشيخ تشييخا: أى شاخ. (ع)
(4) . قوله «فقال تناولته الدعارة» في الصحاح: الدعارة الفسق والخبث. (ع) [.....]
(٥) . قوله «وقيل السكر الطعم» في الصحاح: الطعم بالضم: الطعام. (ع)
(٦) . قوله «أى تنقلت بأعراضهم» في الصحاح: النقل بالضم ما ينتقل به على الشراب. (ع)
(٧) . قوله «وإنه إذا ابترك» في الصحاح: ابترك، أى أسرع في العدو وجد. (ع)." (١)

"سؤال عن سبب العجلة «١» فكان الذي ينطبق عليه من الجواب أن يقال: طلب زيادة رضاك أو الشوق إلى كلامك وتنجز موعدك. وقوله هم أولاء على أثري كما ترى غير منطبق عليه.
قلت: قد تضمن ما واجهه به رب العزة شيئين، أحدهما: إنكار العجلة في نفسها. والثاني:
السؤال عن سبب المستنكر والحامل عليه، فكان أهم الأمرين إلى موسى بسط العذر وتمهيد العلة في نفس ما أنكر عليه، فاعتل بأنه لم يوجد منى إلا تقدم يسير، مثله لا يعتد به في العادة ولا يحتفل به. وليس بيني وبين من سبقته إلا مسافة قريبة يتقدم بمثلها الوفد رأسهم ومقدمهم، ثم عقبه بجواب السؤال عن السبب فقال وعجلت إليك رب لترضى

---

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل الزمخشري ٢/٦١٧

ولقائل أن يقول: حار لما ورد عليه من التهيب **لعتاب** الله، فأذهله ذلك عن الجواب المنطبق المرتب على حدود الكلام.

[سورة طه (٢٠) : آية ٨٥]

قال فإنا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامري (٨٥)

أراد بالقوم المفتونين: الذين خلفهم مع هرون وكانوا ستمائة ألف ما نجا من عبادة العجل منهم إلا اثنا عشر ألفا. فإن قلت: في القصة أنهم أقاموا بعد مفارقته عشرين ليلة، وحسبوها أربعين مع أيامها، وقالوا: قد أكملنا العدة، ثم كان أمر العجل بعد ذلك، فكيف التوفيق بين هذا وبين قوله تعالى لموسى عند مقدمه فإنا قد فتنا قومك؟ قلت: قد أخبر الله تعالى عن الفتنة المترقبة، بلفظ الموجودة الكائنة على عادته. أو افترص السامري غيبته فعزم على إضلالهم غب انطلاقه، وأخذ في تدبير ذلك. فكان بدء الفتنة موجودا. قرئ وأضلهم السامري أى وهو أشدهم ضلالا: لأنه ضال مضل، وهو منسوب إلى قبيلة من بنى إسرائيل يقال لها السامرة. وقيل: السامرة قوم من اليهود يخالفونهم في بعض دينهم: وقيل: كان من أهل باجرما.

وقيل: كان علجا من كرمان، واسمه موسى بن ظفر، وكان منافقا قد أظهر الإسلام، وكان من قوم يعبدون البقر.

[سورة طه (٢٠) : الآيات ٨٦ الى ٨٨]

فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفا قال يا قوم ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدي (٨٦) قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا ولكنا حملنا أوزارا من زينة القوم فقذفناها فكذلك ألقى السامري (٨٧) فأخرج لهم عجلا جسدا له خوار فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسي (٨٨)

---

(١) . قال محمود: «إن قلت: سئل عن سبب العجلة ... الخ» قال أحمد: وإنما أراد الله تعالى بسؤاله عن سبب العجلة وهو أعلم: أن يعلم موسى أدب السفر، وهو أنه ينبغي تأخير رئيس القوم عنهم في المسير ليكون نظره محيطا بطائفته ونافذا فيهم ومهيمنا عليهم. وهذا المعنى لا يحصل في تقدمه عليهم، ألا ترى الله عز وجل كيف علم هذا الأدب لوطا فقال: واتبع أدبارهم فأمره أن يكون أخيرهم. على أن موسى عليه السلام إنما أغفل هذا الأمر مبادرة إلى رضا الله عز وجل، ومسارعة إلى الميعاد، وذلك شأن الموعود بما يسره، يود لو ركب إليه أجنحة الطير، ولا أسر من مواعدة الله تعالى له صلى الله عليه وسلم.." (١)

"قرئ لحيتي

بفتح اللام «١» وهي لغة أهل الحجاز، كان موسى صلوات الله عليه رجلا حديدا مجبولا على الحدة والخشونة والتصلب في كل شيء، شديد الغضب لله ولدينه، فلم يتمالك حين رأى قومه يعبدون عجلا من دون الله بعد ما رأوا من الآيات

---

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل الزمخشري ٨١/٣

العظام، أن ألقى ألواح التوراة لما غلب ذهنه من الدهشة العظيمة، غضبا لله واستنكافا وحمية، وعنف بأخيه وخليفته على قومه، فأقبل عليه إقبال العدو المكاشف قابضا على شعر رأسه- وكان أفرع «٢» - وعلى شعر وجهه يجره إليه. أى: لو قاتلت بعضهم ببعض لتفرقوا وتفانوا، فاستأنيتك أن تكون أنت المتدارك بنفسك، المتلافى برأيك وخشيت **عتابك** على إطراح ما وصيتنى به من ضم النشر وحفظ الدهماء «٣» ، ولم يكن لي بد من رقبة وصيتك والعمل على موجبها.

[سورة طه (٢٠) : الآيات ٩٥ الى ٩٦]

قال فما خطبك يا سامري (٩٥) قال بصرت بما لم يبصروا به فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها وكذلك سولت لي نفسي (٩٦)

الخطب: مصدر خطب الأمر إذا طلبه، فإذا قيل لمن يفعل شيئا: ما خطبك؟ فمعناه:

ما طلبك له؟ قرئ بصرت بما لم يبصروا به بالكسر «٤» ، والمعنى: علمت ما لم تعلموه، وفطنت ما لم تفطنوا له. قرأ الحسن قبضة بضم القاف وهي اسم المقبوض، كالغرفة والمضغة.

وأما القبضة فالمرة من القبض، وإطلاقها على المقبوض من تسمية المفعول بالمصدر، كضرب الأمير. وقرأ أيضا: فقبصت قبصة، بالصاد المهملة. الضاد: بجميع الكف. والصاد: بأطراف الأصابع. ونحوهما: الخضم، والقضم: الخاء بجميع الفم، والقاف بمقدمه: قرأ ابن مسعود:

من أثر فرس الرسول. فإن قلت: لم سماه الرسول دون جبريل وروح القدس؟ قلت: حين حل ميعاد الذهاب إلى الطور أرسل الله إلى موسى جبريل راكب حيزوم فرس الحياة ليذهب به، فأبصره السامري فقال: إن لهذا شأنا، فقبض قبضة من تربة موطئه، فلما سأله موسى عن قصته قال: قبضت من أثر فرس المرسل إليك يوم حلول الميعاد، ولعله لم يعرف أنه جبريل.

[سورة طه (٢٠) : آية ٩٧]

قال فاذهب فإن لك في الحياة أن تقول لا مساس وإن لك موعدا لن تخلفه وانظر إلى إلهك الذي ظلت عليه عاكفا لنحرقنه ثم لننسفنه في اليم نسفا (٩٧)

---

(١) . قوله «قرئ بلحيتي بفتح اللام» والقراءة المشهورة: بالكسر. (ع)

(٢) . قوله «وكان أفرع» أى تام الشعر. أفاده الصحاح. (ع)

(٣) . قوله «وحفظ الدهماء» أى الجماعة، أفاده الصحاح. (ع)

(٤) . قوله «وقرئ بصرت بما لم يبصروا به بالكسر» والقراءة المشهورة بالضم. وقرئ: تبصروا به.

بالتاء: وعبارة النسفي: وبالتاء حمزة وعلى، ولعلها سقطت هنا سهوا من الناسخ، فليحرر. (ع)." (١)

"لأنهن لم يجربن الأمور ولم يرزن الأحوال، فلا يفطن لما تفطن له المجربات العرافات. قال:

ولقد لهوت بطفلة ميالة ... بلهاء تطلعني على أسرارها «١»

وكذلك البله من الرجال في قوله عليه الصلاة والسلام «أكثر أهل الجنة البله» .

[سورة النور (٢٤) : الآيات ٢٤ الى ٢٥]

يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون (٢٤) يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين (٢٥)

وقرئ: يشهد، بالياء. والحق: بالنصب صفة للدين وهو الجزاء، وبالرفع صفة لله، ولو فليت القرآن كله وفتشت عما أوعد به من العصاة لم تر الله تعالى قد غلظ في شيء تغليظه في إفك عائشة رضوان الله عليها، ولا أنزل من الآيات القوارع، المشحونة بالوعيد الشديد **والعتاب** البليغ والزجر العنيف. واستعظام ما ركب من ذلك، واستفظاع ما أقدم عليه، ما أنزل فيه على طرق مختلفة وأساليب مفتنة. كل واحد منها كاف في بابه، ولو لم ينزل إلا هذه الثلاث لكفى بها، حيث جعل القذفة ملعونين في الدارين جميعا، وتوعدهم بالعذاب العظيم في الآخرة، وبأن ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم تشهد عليهم بما أفكوا وبهتوا، وأنه يوفيهم جزاءهم الحق الواجب الذي هم أهله، حتى يعلموا عند ذلك أن الله هو الحق المبين فأوجز في ذلك وأشبع، وفصل وأجمل، وأكد وكرر، وجاء بما لم يقع في وعيد المشركين عبدة الأوثان إلا ما هو دونه في الفظاعة، وما ذاك إلا لأمر. وعن ابن عباس رضى الله عنهما: أنه كان بالبصرة يوم عرفة، وكان يسأل عن تفسير القرآن، حتى سئل عن هذه الآيات فقال: من أذنب ذنبا ثم تاب منه قبلت توبته إلا من خاض في أمر عائشة، وهذه منه مبالغة وتعظيم لأمر الإفك.

ولقد برأ الله تعالى أربعة بأربعة: برأ يوسف بلسان الشاهد وشهد شاهد من أهلها. وبرأ موسى من قول اليهود فيه بالحجر الذي ذهب بثوبه. وبرأ مريم بإنطاق ولدها حين نادى من حجرها: إنى عبد الله. وبرأ عائشة بهذه الآيات العظام في كتابه المعجز المتلو على وجه الدهر، مثل هذه التبرئة بهذه المبالغات. فانظر، كم بينها وبين تبرئة أولئك؟ وما ذاك إلا لإظهار علو منزلة رسول الله صلى الله عليه وسلم، والتنبيه على إناقة محل سيد ولد آدم، وخيرة الأولين والآخرين، وحجة الله على العالمين. ومن أراد أن يتحقق عظمة شأنه صلى الله عليه وسلم وتقدم قدمه وإحرازه لقصب السبق دون كل سابق، فليتلق ذلك من آيات الإفك، وليتأمل كيف

---

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل الزمخشري ٨٤/٣

(١) . لهوت: تلاهيت ولعبت، بطفلة- بالفتح- أى: امرأة ناعمة لينة، يقال: امرأة طفلة الأنامل، أى: رخصتها لينتها، ميالة: مختالة، بلهاء: غافلة لا مكر عندها ولا دهاء، فلذلك تطلعني على ضمائرها.." (١)

"ما ينكح به من المال حتى يغنيهم الله ترجية للمستعفين وتقدمة وعد بالتفضل عليهم بالغنى، ليكون انتظار ذلك وتأميله لطفا لهم في استعفافهم، وربطا على قلوبهم، وليظهر بذلك أن فضله أولى بالإعفاء وأدنى من الصلحاء. وما أحسن ما رتب هذه الأوامر: حيث أمر أولا بما يعصم من الفتنة ويبعد من مواقعة المعصية وهو غض البصر، ثم بالنكاح الذي يحصن به الدين ويقع به الاستغناء بالحلال عن الحرام، ثم بالحمل على النفس الأمارة بالسوء وعزفها «١» عن الطموح إلى الشهوة عند العجز عن النكاح إلى أن يرزق القدرة عليه والذين يبتغون مرفوع على الابتداء. أو منصوب بفعل مضمر يفسره فكاتبوهم كقولك: زيدا فاضربه، ودخلت الفاء لتضمن معنى الشرط. والكتاب والمكاتبة، **كالعتاب** والمعاتبة: وهو أن يقول الرجل لمملوكه: كاتبتك على ألف درهم، فإن أداها عتق. ومعناه: كتبت لك على نفسي أن تعتق منى إذا وفيت بالمال، وكتبت لي على نفسك أن تفي بذلك. أو كتبت عليك الوفاء بالمال وكتبت على العتق. ويجوز عند أبى حنيفة رضى الله عنه حالا ومؤجلا. ومنجما وغير منجم لأن الله تعالى لم يذكر التنجيم، وقياسا على سائر العقود. وعند الشافعي رضى الله عنه: لا يجوز إلا مؤجلا منجما. ولا يجوز عنده بنجم واحد لأن العبد لا يملك شيئا، فعقده حالا منع من حصول الغرض، لأنه لا يقدر على أداء البدل عاجلا. ويجوز عقده على مال قليل وكثير، وعلى خدمة في مدة معلومة، وعلى عمل معلوم مؤقت: مثل حفر بئر في مكان بعينه معلومة الطول والعرض وبناء دار قد أراه آجرها وجصها وما يبنى به. وإن كاتبه على قيمته لم يجز. فإن أداها عتق.

وإن كاتبه على وصيف «٢» ، جاز، لقلة الجهالة ووجب الوسط، وليس له أن يطأ المكاتبة، وإذا أدى عتق، وكان ولاؤه لمولاه، لأنه جاد عليه بالكسب الذي هو في الأصل له، وهذا الأمر للندب عند عامة العلماء. وعن الحسن رضى الله عنه: ليس ذلك بعزم، إن شاء كاتب وإن شاء لم يكاتب. وعن عمر رضى الله عنه: هي عزمة من عزمات الله. وعن ابن سيرين مثله وهو مذهب داود خيرا قدرة على أداء ما يفارقون عليه. وقيل: أمانة وتكسبا. وعن سلمان رضى الله عنه أن مملوكا له ابتغى أن يكاتبه فقال: أعندك مال؟ قال: لا، قال: أفتأمرنى أن آكل غسالة أيدى الناس وآتوهم أمر للمسلمين على وجه الوجوب بإعانة المكاتبين وإعطائهم سهمهم الذي جعل الله لهم من بيت المال، كقوله تعالى وفي الرقاب عند أبى حنيفة وأصحابه رضى الله عنهم. فإن قلت: هل يحل لمولاه إذا كان غنيا أن يأخذ ما تصدق

---

(١) . قوله «وعزفها عن الطموح إلى الشهوة» في الصحاح: عزفت نفسي عن الشيء: زهدت فيه وانصرفت عنه. (ع)

(٢) . قوله «على وصيف» الوصيف: الخادم، غلاما كان أو جارية، كذا في الصحاح. (ع)." (٢)

---

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل الزمخشري ٣/٢٢٣

(٢) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل الزمخشري ٣/٢٣٨

"متطاولة: أن الجنة جزاؤهم ومصيرهم. فإن قلت: ما معنى قوله كانت لهم جزاء ومصيرا؟

قلت: هو كقوله: نعم الثواب وحسنت مرتفقا فمدح الثواب ومكانه، كما قال: بئس الشراب وساءت مرتفقا فذم العقاب ومكانه لأن النعيم لا يتم للمتنعم إلا بطيب المكان وسعته وموافقته للمراد والشهوة، وأن لا تنغص، وكذلك العقاب يتضاعف بغثاثة الموضع «١» وضيقه وظلمته وجمعه لأسباب الاجتواء والكراهة، فلذلك ذكر المصير مع ذكر الجزاء. والضمير في كان لما يشاءون. والوعد: الموعود، أى: كان ذلك موعودا واجبا على ربك إنجازه، حقيقا أن يسئل ويطلب، لأنه جزاء وأجر مستحق وقيل: قد سأله الناس والملائكة في دعواتهم:

ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك، ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة، ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم.

[سورة الفرقان (٢٥) : الآيات ١٧ الى ١٨]

ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول أأنتم أضللتم عبادي ہؤلاء أم هم ضلوا السبيل (١٧) قالوا سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوما بورا (١٨)

يحشرهم. فيقول. كلاهما بالنون والياء، وقرئ: يحشرهم، بكسر الشين وما يعبدون يريد: المعبودين من الملائكة والمسيح وعزير. وعن الكلبي: الأصنام ينطقها الله. ويجوز أن يكون عاما لهم جميعا. فإن قلت: كيف صح استعمال ما في العقلاء؟ قلت: هو موضوع على العموم للعقلاء وغيرهم، بدليل قولك- إذا رأيت شبحا من بعيد-: ما هو؟ فإذا قيل لك: إنسان، قلت حينئذ: من هو؟ ويدلك قولهم «من» لما يعقل. أو أريد به الوصف، كأنه قيل: ومعبوديهم.

ألا تراك تقول إذا أردت السؤال عن صفة زيد: ما زيد؟ تعنى: أطويل أم قصير؟ أفقيه أم طبيب؟ فإن قلت: ما فائدة أنتم وهم؟ وهلا قيل أضللتم عبادي هؤلاء، أم هم «٢» ضلوا السبيل؟

قلت. ليس السؤال عن الفعل ووجوده، لأنه لولا وجوده لما تۏجه هذا **العتاب**، وإنما هو عن متوليه، فلا بد من ذكره وإيلائه حرف الاستفهام، حتى يعلم أنه المسئول عنه. فإن قلت:

فالله سبحانه قد سبق علمه بالمسؤول عنه، فما فائدة هذا السؤال؟ قلت: فائدته أن يجيبوا بما

---

(١) . قوله «بغثاثة الموضع» أى فساده ورداءته. والاجتواء: كراهة المقام بالمكان. أفاده الصحاح. (ع)

(٢) . قوله «أم هم ضلوا» لعله أم ضلوا، كعبارة النسفي. (ع)." (١)

"كيف جعلهم غضابا، ثم قال: فأعتبوا، أى: أزيل غضبهم. والغضب في معنى العتب. والمعنى:

لا يقال لهم أرضوا ربكم بتوبة وطاعة، ومثله قوله تعالى لا يخرجون منها، ولا هم يستعتبون.

فإن قلت: كيف جعلوا غير مستعتبين في بعض الآيات، وغير معتبين في بعضها، وهو قوله وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين؟ قلت: أما كونهم غير مستعتبين: فهذا معناه. وأما كونهم غير معتبين، فمعناه: أنهم غير راضين بما هم فيه،

---

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل الزمخشري ٢٦٨/٣

فشبهت حالهم بحال قوم جنى عليهم، فهم عاتبون على الجاني غير راضين عنه، فإن يستعتبوا الله: أى يسألوه إزالة ما هم فيه، فما هم من المجابين إلى إزالته.

[سورة الروم (٣٠) : الآيات ٥٨ الى ٦٠]

ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل ولئن جئتهم بآية ليقولن الذين كفروا إن أنتم إلا مبطلون (٥٨) كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون (٥٩) فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون (٦٠)

ولقد وصفنا لهم كل صفة كأنها مثل في غرابتها، وقصصنا عليهم كل قصة عجيبة الشأن، كصفة المبعوثين يوم القيامة، وقصتهم، وما يقولون وما يقال لهم، وما لا ينفع من اعتذارهم ولا يسمع من **استعتابهم**، ولكنهم- لقسوة قلوبهم ومج أسماعهم حديث الآخرة- إذا جئتهم بآية من آيات القرآن، قالوا: جئتنا بزور وباطل، ثم قال: مثل ذلك الطبع يطبع الله على قلوب الجهلة. ومعنى طبع الله: منع الألطاف «١» التي ينشرح لها الصدور حتى تقبل الحق، وإنما يمنعها من علم أنها لا تجدى عليه ولا تغنى عنه، كما يمنع الواعظ الموعظة من يتبين له أن الموعظة تلغو ولا تنجع فيه، فوقع ذلك كناية عن قسوة قلوبهم وركوب الصدإ والرين إياها، فكأنه قال: كذلك تقسو وتصدأ قلوب الجهلة، حتى يسموا المحقين مبطلين، وهم أعرق خلق الله «٢» في تلك الصفة فاصبر على عداوتهم إن وعد الله بنصرتك وإظهار دينك على الدين كله حق لا بد من إنجازه والوفاء به، ولا يحملنك على الخفة والقلق جزعا مما يقولون ويفعلون فإنهم قوم شاكون ضالون لا يستبدع منهم ذلك. وقرئ بتخفيف النون. وقرأ ابن أبى إسحاق

---

(١) . قوله «ومعنى طبع الله منع الألطاف» أوله بذلك بناء على أنه تعالى لا يخلق الشر وهو مذهب المعتزلة. وذهب أهل السنة إلى أنه يخلقه كالخير، فالآية على ظاهرها. (ع)

(٢) . قوله «وهم أعرق خلق الله» في الصحاح: أعرق الرجل، أى: صار عريقا، وهو الذي له عرق في الكرم. (ع)."

(١)

"والضعاف القلوب: الذين هم على حرف، والمنافقون: الذين لم يوجد منهم الإيمان إلا بألسنتهم فظن الأولون بالله أنه يبتليهم ويفتنهم فخافوا الزلل وضعف الاحتمال، وأما الآخرون فظنوا بالله ما حكى عنهم. وعن الحسن: ظنوا ظنونا مختلفة: ظن المنافقون أن المسلمين يستأصلون، وظن المؤمنون أنهم يبتلون. وقرئ: الظنون، بغير ألف في الوصل والوقف وهو القياس، وبزيادة ألف في الوقف زادوها في الفاصلة، كما زادها في القافية من قال:

أقلى اللوم عاذل **والعتابا** «١»

وكذلك الرسولا والسبيلا. وقرئ بزيادتها في الوصل أيضا، إجراء له مجرى الوقف. قال أبو عبيد: وهن كلهن في الإمام بألف. وعن أبى عمرو إشمام زاى زلزلوا. وقرئ زلزالا بالفتح. والمعنى: أن الخوف أزعجهم أشد الإزعاج

---

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل الزمخشري ٤٨٨/٣

[سورة الأحزاب (٣٣) : الآيات ١٢ الى ١٤]

وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا (١٢) وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ويستأذن فريق منهم النبي يقولون إن بيوتنا عورة وما هي بعورة إن يريدون إلا فرارا (١٣) ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لآتوها وما تلبثوا بها إلا يسيرا (١٤)

إلا غرورا قيل قائله: معتب بن قشير حين رأى الأحزاب قال: يعدنا محمد فتح فارس والروم، وأحدنا لا يقدر أن يتبرز فرقا «٢» ، ما هذا إلا وعد غرور طائفة منهم هم أوس بن قيظى ومن وافقه على رأيه. وعن السدى عبد الله بن أبى وأصحابه. ويثرب: اسم

---

(١) .

أقلى اللوم عاذل والعتابا ... وقولي إن أصبت لقد أصابا

إذا غضبت على بنو تميم ... وجدت الناس كلهم غضابا

لجرير، وزاد الألف في القافية للإطلاق، وبنو تميم ينشدون مثل ذلك بتنوين الترنم بدل حرف الإطلاق. قال الزمخشري: إذا وصل المنشد ولم يقف، وظاهر كلام النحويين: أنه إنما يجيء في الوقف. وعاذل: منادى، مرخم عاذلة. يقول: اتركي ملامى وعتابى، وإن فعلت صوابا فاعترفى به، ويروى بكسر التاء، فالمعنى: أن لومك خطأ فإذا أردت الصواب فقولي: لقد أصاب، وجعل غضب بنى تميم غضب كل الناس، لأن ما عداهم تبع. أو كالمعدوم.

ويروى: إذا غضبت عليك، والخطاب لكل سامع.

(٢) . قوله «فرقا» أى خوفا. (ع)." (١)

"وقرئ: يتربص به ريب المنون، على البناء للمفعول. وريب المنون. ما يقلق النفوس ويشخص بها من حوادث الدهر. قال:

أمن المنون وريبه أتوجع «١»

وقيل: المنون الموت، وهو في الأصل فعول، من منه إذا قطعه، لأن الموت قطوع، ولذلك سميت شعوب. قالوا: ننتظر به نوائب الزمان فيهلك كما هلك من قبله من الشعراء: زهير والنابغة من المتربصين أتربص هلاككم كما تتربصون هلاكى أحلامهم عقولهم وألبابهم.

ومنه قولهم: أحلام عاد. والمعنى: أتأمرهم أحلامهم بهذا التناقض في القول، وهو قولهم:

---

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل الزمخشري ٣/٥٢٧

كاهن وشاعر، مع قولهم مجنون. وكانت قريش يدعون أهل الأحلام والنهى أم هم قوم طاغون مجاوزون الحد في العناد مع ظهور الحق لهم. فإن قلت: ما معنى كون الأحلام آمرة؟ قلت:

---

(١).

أمن المنون وريبه أتوجع ... والدهر ليس بمعتب من يجزع

لأبى ذويب مطلع مرثية بنيه، والاستفهام للإنكار. وريب المنون: ما يقلق النفوس ويدهشها من حوادث الدهر.

والمنون: الموت، كالمنية، لأنه مقدر، فهو من منى إذا قدر. وقوله «والدهر ... الخ» جملة حالية. ويقال:

أعتبه، إذا قبل **عتابه** وأزال شكواه، فشبه الدهر بإنسان مسيء على طريق المكنية، وإسناد **الاعتاب** تخييل.

والجزع: شدة الحزن.." (١)

"من طيبات ما كسبتم يحتمل أن لا يقصد به لا الجيد ولا الحلال، لكن يكون المعنى كأنه قال: أنفقوا مما كسبتم، فهو حض على الإنفاق فقط. ثم دخل ذكر الطيب تبيينا لصفة حسنة في المكسوب عاما وتعديدا للنعمة كما تقول: أطعمت فلانا من مشبع الخبز وسقيته من مروي الماء، والطيب على هذا الوجه يعم الجود والحل، ويؤيد هذا الاحتمال أن عبد الله بن مغفل قال: ليس في مال المؤمن خبيث، وكسبتم معناه كانت لكم فيه سعاية، إما بتعب بدن أو مقاولة في تجارة، والموروث داخل في هذا لأن غير الوارث قد كسبه، إذ الضمير في كسبتم إنما هو لنوع الإنسان أو المؤمنين، ومما أخرجنا لكم من الأرض النباتات والمعادن والركاز وما ضارع ذلك، وتيمموا معناه تعمدوا وتقصدوا، يقال تيمم الرجل كذا وكذا إذا قصده، ومنه قول امرئ القيس: [الطويل]

تيممت العين التي عند ضارج ... يفيء عليها الظل عرمضها طام

ومنه قول الأعشى: [المتقارب]

تيممت قيسا وكم دونه ... من الأرض من مهمه ذي شزن

ومنه التيم الذي هو البدل من الوضوء عند عدم الماء، وهكذا قرأ جمهور الناس وروى البزي عن ابن كثير تشديد التاء في أحد وثلاثين موضعا أولها هذا الحرف، وحكى الطبري أن في قراءة عبد الله بن مسعود «ولا تؤموا الخبيث» من أممت إذا قصدت، ومنه إمام البناء، والمعنى في القراءتين واحد، وقرأ الزهري ومسلم بن جندب «ولا تيمموا» بضم التاء وكسر الميم، وهذا على لغة من قال: يممت الشيء بمعنى قصدته، وفي اللفظ لغات، منها أممت الشيء خفيفة الميم الأولى وأممته بشدها ويممته وتيممته، وحكى أبو عمرو أن ابن مسعود قرأ «ولا تؤمموا» بهمزة بعد التاء، وهذه على لغة من قال أممت مثقلة الميم، وقد مضى القول في معنى الخبيث وقال الجرجاني في كتاب نظم القرآن: قال فريق من الناس:

---

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل الزمخشري ٤١٣/٤

إن الكلام تم في قوله: الخبيث ثم ابتدأ خبرا آخر في وصف الخبيث فقال: تنفقون منه وأنتم ل ا تأخذونه إلا إذا أغمضتم أي ساهلتم.

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: كأن هذا المعنى **عتاب** للناس وتقريع، والضمير في منه عائد على الخبيث. قال الجرجاني وقال فريق آخر: بل الكلام متصل إلى قوله فيه.

قال القاضي أبو محمد: فالضمير في منه عائد على ما كسبتم، ويجيء تنفقون كأنه في موضع نصب على الحال، وهو كقولك: إنما أخرج أجاهد في سبيل الله، واختلف المتأولون في معنى قوله تعالى: ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه فقال البراء بن عازب وابن عباس والضحاك وغيرهم: معناه ولستم بآخذيه في ديونكم وحقوقكم عند الناس إلا بأن تساهلوا في ذلك، وتتركون من حقوقكم وتكرهونه ولا ترضونه، أي فلا تفعلوا مع الله ما لا ترضونه لأنفسكم، وقال الحسن بن أبي الحسن معنى الآية: لستم بآخذيه لو وجدتموه في السوق يباع، إلا أن يهضم لكم من ثمنه، وروي نحوه عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذان القولان يشبهان كون الآية في الزكاة الواجبة وقال البراء بن." (١)

"صلى الله عليه وسلم بالعرنيين ووقفت الأمر على هذه الحدود، وقال بعضهم وجعلها الله **عتابا** لنبيه صلى الله عليه وسلم على سمل الأعين، وحكي عن جماعة من أهل العلم أن هذه الآية ليست بناسخة لذلك الفعل لأن ذلك وقع في المرتدين.

قال القاضي أبو محمد: لا سيما وفي بعض الطرق أنهم سملوا أعين الرعاة قالوا، وهذه الآية هي في المحارب المؤمن، وحكى الطبري عن السدي أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يسمل أعين العرنيين وإنما أراد ذلك فنزلت الآية ناهية عن ذلك.

قال القاضي أبو محمد: وهذا قول ضعيف تخالفه الروايات المتظاهرة، ولا خلاف بين أهل العلم أن حكم هذه الآية مترتب في المحاربين من أهل الإسلام، واختلفوا فيمن هو الذي يستحق اسم الحرابة، فقال مالك بن أنس رحمه الله، المحارب عندنا من حمل على الناس السلاح في مصر أو برية فكابرهم عن أنفسهم وأموالهم دون نائرة ولا ذحل ولا عداوة، وقال بهذا القول جم ا عة من أهل العلم، وقال أبو حنيفة وأصحابه وجماعة من أهل العلم، لا يكون المحارب إلا القاطع على الناس في خارج الأمصار، فأما في المصر فلا.

قال القاضي أبو محمد: يريدون أن القاطع في المصر يلزمه حد ما اجترح من قتل أو سرقة أو غصب ونحو ذلك. والحرابة رتب أدناها إخافة الطريق فقط لكنها توجب صفة الحرابة، ثم بعد ذلك أن يأخذ المال مع الإخافة ثم بعد ذلك أن يقتل مع الإخافة ثم بعد ذلك أن يجمع ذلك كله، فقال مالك رحمه الله وجماعة من العلماء: في أي رتبة كان المحارب من

---

(١) تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ابن عطية ٣٦٢/١

هذه الرتب فالإمام مخير فيه في أن يعاقبه بما رأى من هذه العقوبات، واستحسن أن يأخذ في الذي لم يقتل بأيسر العقوبات.

قال القاضي أبو محمد: لا سيما إن كانت زلة ولم يكن صاحب شرور معروفة، وأما إن قتل فلا بد من قتله، وقال ابن عباس رضي الله عنه والحسن وأبو مجلز وقتادة وغيرهم من العلماء بل لكل رتبة من الحرابة رتبة من العقاب، فمن أخاف الطرق فقط فعقوبته النفي، ومن أخذ المال ولم يقتل فعقوبته القطع من خلاف. ومن قتل دون أخذ مال فعقوبته القتل، ومن جمع الكل قتل وصلب، وحجة هذا القول أن الحرابة لا تخرج عن الإيمان ودم المؤمن حرام إلا بإحدى ثلاث: ارتداد أو زنى بعد إحصان أو قتل نفس، فالمحارب إذا لم يقتل فلا سبيل إلى قتله، وقد روي عن ابن عباس والحسن أيضا وسعيد بن المسيب وغيرهم مثل قول مالك: إن الإمام مخير، ومن حجة هذا القول أن ما كان في القرآن «أو. أو» ، فإنه للتخيير، كقوله تعالى: ففدية من صيام أو صدقة أو نسك [البقرة: ١٩٦] وكآية كفارة اليمين وآية جزاء الصيد.

قال القاضي أبو محمد: ورجح الطبري القول الآخر وهو أحوط للمفتي ولدم المحارب وقول مالك أسد للذريعة وأحفظ للناس والطرق، والمخيف في حكم القاتل ومع ذلك فمالك يرى فيه الأخذ بأيسر العقوبات استحسانا، وذكر الطبري عن أنس بن مالك أنه قال سأل رسول الله جبريل عليهما السلام عن الحكم في المحارب، فقال: من أخاف السبيل وأخذ المال فاقطع يده للأخذ، ورجله للإخافة ومن قتل فاقتله، ومن جمع ذلك فاصلبه.." (١)

"يجوز أن يقال عسى الله أن يقول المؤمنون. وهكذا قوله تعالى: لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن [المنافقون: ١٠] لما كان المعنى «أخرني إلى أجل قريب» أصدق وحمل أكن على الجزم الذي يقتضيه المعنى في قوله فأصدق، والوجه الثاني أن يكون قوله أن يأتي بالفتح [المائدة: ٥٢] بدلا من اسم الله عز وجل كما أبدل من الضمير في قوله تعالى: وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره [الكهف: ٦٣] ثم يعطف ويقول على أن يأتي لأنه حينئذ كأنك قلت عسى أن يأتي، والوجه الثالث أن يعطف قوله ويقول على فيصبحوا [المائدة: ٥٢] إذ هو فعل منصوب بالفاء في جواب التمني، إذ قوله عسى الله تمن وترج في حق البشر، وفي هذا الوجه نظر وكذلك عندي في منعهم جواز عسى الله أن يقول المؤمنون نظر، إذ الله تعالى يصيرهم يقولون بنصره وإظهار دينه، فينبغي أن يجوز ذلك اعتمادا على المعنى وقوله تعالى: جهد أيمانهم نصب جهد على المصدر المؤكد والمعنى أهؤلاء هم المقسمون باجتهاد منهم في الأيمان إنهم لمعكم ثم قد ظهر الآن منهم من موالاة اليهود وخذل الشريعة ما يكذب إيمانهم، ويحتمل قوله تعالى: حبطت أعمالهم أن يكون إخبارا من الله تعالى، ويحتمل أن يكون من قول المؤمنين على جهة الإخبار بما حصل في اعتقادهم إذ رأوا المنافقين في هذه الأحوال، ويحتمل أن يكون قوله حبطت أعمالهم على جهة الدعاء إما من الله تعالى عليهم وإما من المؤمنين، وحبط العمل إذا بطل بعد أن كان حاصلا، وقد يقال حبط في عمل الكفار وإن كان لم يتحصل على جهة التشبيه، وقرأ جمهور الناس «حبطت بكسر الباء وقرأ أبو واقد والجراح «حبطت» بفتح الباء وهي لغة.

وقوله تعالى: يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه الآية قال فيها الحسن بن أبي الحسن ومحمد بن كعب القرظي

---

(١) تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ابن عطية ١٨٤/٢

والضحاك وقتادة نزلت الآية خطابا للمؤمنين عامة إلى يوم القيامة، والإشارة بالقوم الذين يأتي الله بهم إلى أبي بكر الصديق وأصحابه الذين قاتلوا أهل الردة، وقال هذا القول ابن جريج وغيره.

قال القاضي أبو محمد: ومعنى الآية عندي أن الله وعد هذه الأمة من ارتد منها فإنه يجيء بقوم ينصرون الدين ويغنون عن المرتدين فكان أبو بكر وأصحابه ممن صدق فيهم الخبر في ذلك العصر، وكذلك هو عندي أمر علي مع الخوارج، وروى أبو موسى الأشعري أنه لما نزلت هذه الآية قرأها النبي صلى الله عليه وسلم وقال: هم قوم هذا يعني أبا موسى الأشعري وقال هذا القول عياض، وقال شريح بن عبيد: لما نزلت هذه الآية قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أنا وقومي هم يا رسول الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا ولكنهم قوم هذا، وأشار إلى أبي موسى، وقال مجاهد ومحمد بن كعب أيضا: الإشارة إلى أهل اليمن، وقاله شهر بن حوشب.

قال القاضي أبو محمد: وهذا كله عندي قول واحد، لأن أهل اليمن هم قوم أبي موسى، ومعنى الآية على هذا القول مخاطبة جميع من حضر عصر النبي صلى الله عليه وسلم على معنى التنبيه لهم **والعتاب** والتوعد، وقال السدي الإشارة بالقوم إلى الأنصار.." (١)

"قال القاضي أبو محمد: وهذا أسلوب معنى الآية، واسم كان يصح أن يكون الأمر والشأن وكبر عليك إعراضهم خبرها، ويصح أن يكون إعراضهم هو اسم كان ويقدر في كبر ضمير وتكون كبر في موضع الخبر، والأول من الوجهين أقيس، والنفق السرب في الأرض ومنه نافقاء اليربوع، والسلم الشيء الذي يصعد عليه ويرتقى، ويمكن أن يشتق اسمه من السلامة لأنه سببها وجمعه سلاليم، ومنه قول الشاعر [ابن مقبل] : [البسيط]

لا يحزن المرء أحجاء البلاد ولا ... تبنى له في السماوات السلاليم

وفتأتيهم بآية أي بعلامة، ويريد إما في فعلك ذلك أي تكون الآية نفس دخولك في الأرض أو ارتقائك في السماء، وإما أن «تأتيهم بالآية» من إحدى الجهتين، وحذف جواب الشرط قبل في قوله فإن استطعت إيجاز لفهم السامع به، تقديره فافعل أو فدونك كما تقدم، ولجمعهم يحتمل إما بأن يخلقهم مؤمنين، وإما بأن يكسبهم الإيمان بعد كفرهم بأن يشرح صدورهم، والهدى الإرشاد، وهذه الآية ترد على القدرية المفوضة الذين يقولون إن القدرة لا تقتضي أن يؤمن الكافر وإن ما يأتيه الإنسان من جميع أفعاله لا خلق لله فيه تعالى عن قولهم، ومن الجاهلين يحتمل في أن لا يعلم أن الله لو شاء الله لجمعهم ويحتمل في أن تهتم بوجود كفرهم الذي قدره وأراده، وتذهب به لنفسك إلى ما لم يقدر الله به، يظهر تباين ما بين قوله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم فلا تكونن من الجاهلين وبين قوله لنوح عليه السلام إني أعظك أن تكون من الجاهلين [هود: ٤٦] وقد تقرر أن محمدا صلى الله عليه وسلم أفضل الأنبياء، قال مكي والمهدي: والخطاب بقوله فلا تكونن من الجاهلين للنبي عليه السلام والمراد به أمته، وهذا ضعيف لا يقتضيه اللفظ، وقال قوم: وقر نوح لسنه وشيبته، وقال قوم: جاء الحمل أشد على محمد صلى الله عليه وسلم لقربه من الله تعالى ومكانته عنده كما يحمل العاقب على قريبه أكثر من حمله على الأجانب.

---

(١) تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ابن عطية ٢/٢٠٧

قال القاضي أبو محمد: والوجه القوي عندي في الآية هو أن ذلك لم يجيء بحسب النبيين وإنما جاء بحسب الأمرين اللذين وقع النهي عنهما **والعتاب** فيهما وبين أن الأمر الذي نهى عنه محمد صلى الله عليه وسلم أكبر قدرا وأخطر مواقعة من الأمر الذي واقعه نوح صلى الله عليه وسلم.

قوله عز وجل:

[سورة الأنعام (٦) : الآيات ٣٦ الى ٣٨]

إنما يستجيب الذين يسمعون والموتى يبعثهم الله ثم إليه يرجعون (٣٦) وقالوا لولا نزل عليه آية من ربه قل إن الله قادر على أن ينزل آية ولكن أكثرهم لا يعلمون (٣٧) وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون (٣٨)

هذا من النمط المتقدم في التسلية أي لا تحفل بمن أعرض فإنما يستجيب لداعي الإيمان الذين يقيمون الآيات ويتلقون البراهين بالقبول، فعبر عن ذلك كله ب يسمعون إذ هو طريق العلم بالنبوة والآيات." (١)

"غيرها، وذكرى على هذا القول يحتمل أن يكون ذكروهم ذكرى، ويحتمل ولكن أعرضوا متى أعرضتم في غير وقت العبادة ذكرى، وذكرى على كل قول يحتمل أن تكون في موضع نصب بإضمار فعل أو رفع بإضمار مبتدأ، وينبغي للمؤمن أن يمتثل حكم هذه الآية مع الملحدين وأهل الجدال والخوض فيه، وحكى الطبري عن أبي جعفر أنه قال لا تجالسوا أهل الخصومات فإنهم الذين يخوضون في آيات الله.

قوله عز وجل:

[سورة الأنعام (٦) : آية ٧٠]

وذر الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا وغرتهم الحياة الدنيا وذكر به أن تبسل نفس بما كسبت ليس لها من دون الله ولي ولا شفيع وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها أولئك الذين أبسلوا بما كسبوا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون (٧٠)

هذا أمر بالمشاركة وكان ذلك بحسب قلة أتباع الإسلام حينئذ، قال قتادة: ثم نسخ ذلك وما جرى مجراه بالقتال، وقال مجاهد: الآية إنما هي للتهديد والوعيد فهي كقوله تعالى: ذرني ومن خلقت وحيدا [المدثر: ١١] وليس فيها نسخ لأنها متضمنة خبرا وهو التهديد، وقوله: لعبا ولهوا يريد إذ يعتقدون أن لا بعث فهم يتصرفون بشهواتهم تصرف اللاعب اللاهي، وغرتهم الحياة الدنيا أي خدعتهم من الغرور وهو الإطماع بما لا يتحصل فاغتروا بنعم الله ورزقه وإمهاله وطمعهم ذلك فيما لا يتحصل من رحمته.

قال القاضي أبو محمد: ويتخرج في غرتهم هنا وجه آخر من الغرور بفتح الغين أي ملأت أفواههم وأشبعتهم، ومنه قول

---

(١) تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ابن عطية ٢٨٨/٢

الشاعر: [الطويل]

ولما التقينا بالحنية غرني ... بمعروفه حتى خرجت أفوق

ومنه غر الطائر فرخه، ولا يتجه هذا المعنى في تفسير «غر» في كل موضع وأضاف الدين إليهم على معنى أنهم جعلوا اللعب واللهو دينا، ويحتمل أن يكون المعنى اتخذوا دينهم الذي كان ينبغي لهم لعبا ولهوا، والضمير في به عائد على الدين، وقيل: على القرآن، وأن تبسل في موضع المفعول أي لئلا تبسل أو كراهية أن تبسل، ومعناه تسلم، قال الحسن وعكرمة، وقال قتادة: تحبس وترتهن، وقال ابن عباس: تفضي وقال الكلبي وابن زيد: تجزى، وهذه كلها متقاربة بالمعنى، ومنه قول الشنفري: [الطويل]

هنالك لا أرجو حياة تسرني ... سمير الليالي مبسلا بالجرائر

وقال بعض الناس هو مأخوذ من البسل أي من الحرام كما قال الشاعر [ضمرة النهشاني] : [الكامل]

بكرت تلومك بعد وهن في الندى ... بسل عليك ملامتي **وعتابي**

قال القاضي أبو محمد: وهذا بعيد، ونفس تدل على الجنس، ومعنى الآية وذكر بالقرآن والدين وادع إليه لئلا تبسل نفس التارك للإيمان بما كسبت من الكفر وآثرته من رفض الإسلام، وقوله تعالى: ليس." (١)

"تركوا الأولى من التحامل، فنزل ما سلف من الآيات في **عتاب** المؤمنين، ثم ابتدأ من هذه الآية ذكر المنافقين وكشف ضمائرهم، فيقول لو كان هذا الغزو لعرض أي لمال وغنيمة تنال قريبا بسفر قاصد يسير لبادروا إليه، لا لوجه الله ولا لظهور كلمته، ولكن بعدت عليهم الشقة في غزو الروم أي المسافة الطويلة، وذكر أبو عبيدة أن أعرابيا قدم البصرة وكان قد حمل حمالة فعجز عنها، وكان معه ابن له يسمى الأحوص فبادر الأحوص أباه بالقول، فقال إنا من تعلمون وابنا سبيل وجئنا من شقة ونطلب في حق وتنطوننا ويجزيكم الله فتهيأ أبوه ليخطب فقال له يا إياك إني قد كفيتك.

قال القاضي أبو محمد: يا تنبيه وإياك نهي، وقرأ عيسى ابن عمر «الشقة» بكسر الشين، وقرأ الأعرج «بعدت» بكسر العين، وحكى أبو حاتم أنها لغة بني تميم في اللفظتين، وقوله: سيحلفون بالله يريد المنافقين، وهذا إخبار بغيب، وقوله يهلكون أنفسهم يريد عند تخلفهم مجاهرة وكفرهم، فكأنهم يوجبون على أنفسهم الحتم بعذاب الله.

ثم أخبر أن الله الذي هو أعدل الشاهدين يعلم كذبهم وأنهم كانوا يستطيعون الخروج ولكنهم تركوه كفرا ونفاقا، وهذا كله في الجملة لا بتعيين شخص ولو عين لقتل بالشرع، وقرأ الأعمش على جهة التشبيه بواو ضمير الجماعة «لو استطعنا» بضم الواو، ذكره ابن جني، ومثله بقوله تعالى: لقد ابتغوا الفتنة [التوبة: ٤٨] فتمنوا الموت [البقرة: ٩٤] واشتروا الضلالة [البقرة ١٦- ١٧٥] .

قوله عز وجل:

---

(١) تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ابن عطية ٣٠٥/٢

[سورة التوبة (٩) : الآيات ٤٣ الى ٤٤]

عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين (٤٣) لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم والله عليم بالمتقين (٤٤)

هذه الآية في صنف مبالغ في النفاق واستأذنوا دون اعتذار، منهم عبد الله بن أبي والجد بن قيس ورفاعة بن التابوت ومن اتبعهم فقال بعضهم إيذن لي ولا تفتني وقال بعضهم إيذن لنا في الإقامة فأذن لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم استيفاء منه صلى الله عليه وسلم، وأخذا بالأسهل من الأمور وتوكلا على الله، وقال مجاهد إن بعضهم قال نستأذنه فإن أذن في القعود قعدنا وإلا قعدنا فنزلت الآية في ذلك.

وقالت فرقة: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أذن لهم دون أن يؤمر بذلك فعفي عنه ما يلحق من هذا، وقدم له ذكر العفو قبل **العتاب** إكراما له صلى الله عليه وسلم، وقال عمرو بن ميمون الأودي: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم، صدع برأيه في قصتين دون أن يؤمر فيهما بشيء.

هذه، وأمر أسارى بدر، فعاتبه الله فيهما، وقالت فرقة بل قوله في هذه الآية عفا الله عنك استفتاح كلام، كما تقول أصلحك الله وأعزك الله، ولم يكن منه صلى الله عليه وسلم، ذنب يعفى عنه لأن صورة الاستنفار قبول الإعذار مصروفة إلى اجتهاده، وأما قوله لم أذنت فهي على معنى التقرير، وقوله الذين." (١)

"وأنشد أبو علي في هذا المعنى: [الطويل]

قضيت أمورا ثم غادرت بعدها ... فوائح في أكمامها لم تفتق

وتعدى «قضى» في هذه الآية ب «إلى» لما كان بمعنى فرغ، وفرغ يتعدى بإلى ويتعدى باللام، فمن ذلك قول جرير:

ألان فقد فرغت إلى نمير ... فصرت على جماعتها عذابا

ومن الآخر قوله عز وجل سنفرغ لكم أيه الثقلان [الرحمن: ٣١] وقرأ الأعمش: «فنذر الذين لا يرجون لقاءنا» ، ويرجون في هذا الموضع على بابها والمراد الذين لا يؤمنون بالبعث فهم لا يرجون لقاء الله، والرجاء مقترن أبدا بخوف، «والطغيان» الغلو في الأمر وتجاوز الحد، و «العمه» الخبط في ضلال، فهذه الآية نزلت ذامة لخلق ذميم هو في الناس، يدعون في الخير فيريدون تعجيل الإجابة فيحملهم أحيانا سوء الخلق على الدعاء في الشر، فلو عجل لهم لهلكوا، وقوله تعالى: وإذا مس الإنسان الضر الآية، هذه الآية أيضا **عتاب** على سوء الخلق من بعض الناس، ومضمنه النهي عن مثل هذا والأمر بالتسليم إلى الله تعالى والضراعة إليه في كل حال والعلم بأن الخير والشر منه لا رب غيره، وقوله لجنبه في موضع حال كأنه قال: مضطجعا، ويجوز أن يكون حالا من الإنسان والعامل فيه مس، ويجوز أن يكون حالا من ضمير الفاعل في دعانا والعامل فيه دعا وهما معنيان متباينان، والضر لفظ لجميع الأمراض، والرزايا في النفس والمال والأحبة هذا قول اللغويين، وقيل هو مختص برزايا البدن: الهزال والمرض، وقوله مر يقتضي أن نزولها في الكفار ثم هي بعد تتناول كل من

---

(١) تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ابن عطية ٣٨/٣

دخل تحت معناها من كافر أو عاص، فمعنى الآية مر في إشراكه بالله وقلة توكله عليه، وقوله زين إن قدرناه من الله تعالى فهو خلقه الكفر لهم واختراعه في نفوسهم صحبة أعمالهم الفاسدة ومثابرتهم عليها، وإن قدرنا ذلك من الشيطان فهو بمعنى الوسوسة والمخادعة، ولفظة التزيين قد جاءت في القرآن بهذين المعنيين من فعل الله تعالى ومرة من فعل الشياطين.

قوله عز وجل:

[سورة يونس (١٠) : الآيات ١٣ الى ١٥]

ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا وجاءتهم رسلهم بالبينات وما كانوا ليؤمنوا كذلك نجزي القوم المجرمين (١٣) ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون (١٤) وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي إن أتبع إلا ما يوحى إلي إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم (١٥)

هذه الآية وعيد للكفار وضرب أمثال لهم، أي كما فعل هؤلاء فعلكم فكذلك يفعل بكم ما فعل بهم." (١)

"النفحات الرحمة والتذكير، وعلى هذا القدر وقع **عتابه**، ولذلك جاء بتلطف وترفيع في قوله: إني أعظك أن تكون من الجاهلين، وقد قال الله لمحمد صلى الله عليه وسلم: فلا تكونن [البقرة: ١٤٧، الأنعام: ٣٤- ١١٤، يونس: ٩٤] ، وذلك هنا بحسب الأمر الذي عوتب فيه وعظمته، فإنه لضيق صدره بتكاليف النبوة، وإلا فمتقرر أن محمدا صلى الله عليه وسلم أفضل البشر وأولاهم بلين المخاطبة ولكن هذا بحسب الأمرين لا بحسب النبيين. وقال قوم: إنما وقر نوح لسنه. وقال قوم: إنما حمل اللفظ على محمد صلى الله عليه وسلم كما يحمل الإنسان على المختص به الحبيب إليه.

قال القاضي أبو محمد: وهذا كله ضعيف، ويحتمل قوله: فلا تسئلن ما ليس لك به علم، أي لا تطلب مني أمرا لا تعلم المصلحة فيه علم يقين، ونحا إلى هذا أبو علي الفارسي، وقال: إن به يجوز أن يتعلق بلفظة علم كما قال الشاعر: [الرجز] كان جزائي بالعصا أن أجلدا ويجوز أن يكون به بمنزلة فيه، فتتعلق الباء بالمستقر.

قال القاضي أبو محمد: واختلاف هذين الوجهين إنما هو لفظي، والمعنى في الآية واحد، وروي أن هذا الابن إنما كان ربيبه وهذا ضعيف وحكى الطبري عن ابن زيد أن معنى قوله: إني أعظك أن تكون من الجاهلين في أن تعتقد أني لا أفي لك بوعد وعدتك به.

قال القاضي أبو محمد: وهذا تأويل بشع، وليس في الألفاظ ما يقتضي أن نوحا اعتقد هذا وعياذا بالله، وغاية ما وقع لنوح عليه السلام أن رأى ترك ابنه معارضا للوعد فذكر به، ودعا بحسب الشفقة ليكشف له الوجه الذي استوجب به ابنه الترك في الغرقى.

قوله عز وجل:

---

(١) تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ابن عطية ١٠٩/٣

[سورة هود (١١) : الآيات ٤٧ الى ٤٩]

قال رب إني أعوذ بك أن أسئلك ما ليس لي به علم وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين (٤٧) قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم (٤٨) تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك م اكنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين (٤٩)

هذه الآية فيها إنابة نوح وتسليمه لأمر الله تعالى واستغفاره بالسؤال الذي وقع النهي عليه والاستعاذة والاستغفار منه هو سؤال العزم الذي معه محاجة وطلبة ملحة فيما قد حجب وجه الحكمة فيه وأما السؤال في الأمور على جهة التعلم والاسترشاد فغير داخل في هذا.

وظاهر قوله: فلا تسئلن ما ليس لك به علم [هود: ٤٦] يعم النحويين من السؤال، فلذلك نبهت على أن المراد أحدهما دون الآخر، و «الخاسرون» هم المغبونون حظوظهم من الخير، وقوله تعالى: قيل." (١)

"شهيدا على كفرهم وإيمانهم، ف «شهيد» بمعنى، شاهد وذكر الطبري أن المعنى ثم ينكرونها اليوم ويوم نبعث من كل أمة شهيدا، أي ينكرون كفرهم فيكذبهم الشهيد وقوله ثم لا يؤذن أي لا يؤذن لهم في المعذرة، وهذا في موطن دون موطن، لأن في القرآن أن كل نفس تأتي تجادل عن نفسها [النحل: ١١١] ويترتب أن تجيء كل نفس تجادل فإذا استقرت أقوالهم بعث الله الشهود من الأمم فتكذب الكفار، فلم يؤذن للمكذبين بعد في معذرة، ويستعتبون معناه يعتبون، يقال أعتبت الرجل إذا كفيته ما عتب فيه، كما تقول أشكيته إذا كفيته ما شكا، فكأنه قال ولا هم يكفون ما يعتبون فيه ويشق عليهم والعرب تقول استفعل بمعنى أفعل، تقول أدنيت الرجل واستدنيته وقال قوم معناه لا يسألون أن يرجعوا عما كانوا عليه في الدنيا.

قال القاضي أبو محمد: فهذا **استعتاب** معناه طلب **عتابهم**، وقال الطبري معنى يستعتبون يعطون الرجوع إلى الدنيا فيقع منهم توبة عمل. وقوله وإذا رأى الذين ظلموا العذاب الآية، أخبر الله تعالى في هذه الآية أن هؤلاء الكفرة الظالمين في كفرهم إذا أراهم الله عذاب الله وشارفوها وتحققوا كنه شدتها، فإن ذلك الأمر الهائل الذي نزل بهم لا يخفف بوجه ولا يؤخر عنهم، وإنما مقصد الآية الفرق بين ما يحل بهم وبين رزايا الدنيا، فإن الإنسان لا يتوقع أمرا من خطوب الدنيا إلا وله طمع في أن يتأخر عنه وفي أن يجيئه في أخف ما يتوهم برجائه، وكذلك متى حل به كان طامعا في أن يخف، وقد يقع ذلك في خطوب الدنيا كثيرا، فأخبر الله تعالى أن عذاب الآخرة إذا عاينه الكافر لا طماعية فيه بتخفيف ولا بتأخير. قوله عز وجل:

[سورة النحل (١٦) : الآيات ٨٦ الى ٨٩]

وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعوا من دونك فألقوا إليهم القول إنكم لكاذبون (٨٦)

---

(١) تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ابن عطية ١٧٨/٣

وألقوا إلى الله يومئذ السلم وضل عنهم ما كانوا يفترون (٨٧) ا الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابا فوق العذاب بما كانوا يفسدون (٨٨) ويوم نبعث في كل أمة شهيدا عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيدا على هؤلاء ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين (٨٩)

أخبر الله تعالى في هذه الآية أن المشركين إذا رأوا يوم القيامة بأبصارهم الأوثان والأصنام وكل معبود من دون الله لأنها تحشر معهم توبيخا لهم على رؤوس الأشهاد أشاروا إليهم وقالوا هؤلاء كنا نعبد من دون الله، أرادوا بذلك تذنيب المعبودين وإدخالهم في المعصية، وأضافوا الشركاء إلى أنفسهم من حيث هم جعلوهم شركاء، وهذا كما يصف رجل آخر بأنه خير فتقول أنت ما فعل خيرك فأضفته إليه من حيث وصفه هو بتلك الصفة، والضمير في «أقول» عائد على الشركاء، فمن كان من المعبودين من البشر ألقى القول المعهود بلسانه، وما كان من الجمادات تكلمت بقدرة الله بتكذيب المشركين في وصفهم بأنهم آلهة و شركاء لله، ففي هذا وقع الكذب لا في العبادة وقال الطبري: المعنى إنكم لكاذبون، ما كنا ندعوكم إلى عبادتنا.." (١)

"وجه سبعون ألف لسان لكل لسان سبعون ألف لغة يسبح الله سبحانه بكل تلك اللغات يخلق من كل تسبيحة ملك يطير مع الملائكة إلى يوم القيامة» ، ذكره الطبري، وما أظن هذا القول يصح عن علي، وقالت فرقة الروح القرآن، وهذه كلها أقوال مفسرة، والأول أظهرها وأصوبها، وقوله من أمر ربي يحتمل تأويلين: أحدهما: أن يكون «الأمر» اسم جنس للأمور أي للروح من جملة أمور الله التي استأثر بعلمها، فهي إضافة خلق إلى خالق، والثاني أن يكون مصدرا من أمر يأمر أي الروح مما أمره أمرا بالكون فكان.

وقرأ ابن مسعود والأعمش «وما أوتوا» ، ورواها ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم وقرأ الجمهور «وما أوتيتم» ، واختلف فيمن خوطب بذلك، فقالت فرقة: السائلون فقط، ترجم الطبري بذلك ثم أدخل تحت الترجمة عن قتادة أنهم اليهود، وقال قوم: المراد اليهود بجملتهم، وعلى هذا هي قراءة ابن مسعود، وقالت فرقة: العالم كله، وهذا هو الصحيح لأن قول الله له قل الروح إنما هو أمر بالقول لجميع العالم إذ كذلك هي أقواله كلها وعلى ذلك تمت الآية من مخاطبة الكل، ويحتمل أيضا أن تكون مخاطبة من الله للنبي ولجميع الناس ويتصف ما عند جميع الناس من العلم بالقلة بإضافته إلى علم الله عز وجل الذي هو بهذه الأمور التي عندنا من علمها طرف يسير جدا، كما قال الخضر عليه السلام لموسى عليه السلام، «ما نقص علمي وعلمك وعلم الخلائق من علم الله إلا كما نقص هذا العصفور من البحر» ، وأراد الخضر علم الله تعالى بهذه الموجودات التي عند البشر من علمها طرف يسير نسبة إلى ما يخفى عليهم نسبة النقطة إلى البحر، وأما علم الله على الإطلاق فغير متناه، ويحتمل أن يكون التجوز في قول الخضر كما نقص هذا العصفور، أي إما لا ينقص علمنا شيئا من علم الله تعالى على الإطلاق ثم مثل بنقرة العصفور في عدم النقص، إذ نقصه غير محسوس، فكأنه معدوم، فهذا احتمال، ولكن فيه نظر، وقد قالت اليهود لرسول الله صلى الله عليه وسلم، كيف لم نؤت من العلم إلا قليلا؟ وقد أوتينا التوراة، وهي الحكمة ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا، فعارضهم رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ابن عطية ٤١٤/٣

بعلم الله، فغلبوا، وقد نص رسول الله صلى الله عليه وسلم، كيف لم نؤت من العلم إلا قليلا؟ وقد أوتينا التوراة، وهي الحكمة ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا، فعارضهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بعلم الله، فغلبوا، وقد نص رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله في بعض الأحاديث «كلا» يعني أن المراد ب أوتيتم جميع العالم، وذلك أن يهود قالت له: نحن عنيت أم قومك؟ فقال «كلا» ، وفي هذا المعنى نزلت ولو أنما في الأرض من شجرة أقلام [لقمان: ٢٧] ، حكى ذلك الطبري رحمه الله، وقوله تعالى: ولئن شئنا الآية فيها شدة على النبي صلى الله عليه وسلم، وهي عتاب على قوله غدا أعلمكم، فأمر بأن يقول إن الروح من أمر ربه فيذعن بالتسليم لله في أنه يعلم بما شاء، ويمسك عن عباده ما شاء، ثم قيل له وما أوتيتم أنت يا محمد وجميع الخلائق من العلم إلا قليلا، فالله يعلم من علمه بما شاء ويدع ما شاء، ولئن شاء لذهب بالوحي الذي أتاك، ثم لا ناصر لك منه، أي فليس بعظيم أن لا تجيء بتفسير في الروح الذي أردت أن تفسره للناس ووعدتهم بذلك، وروى ابن مسعود أنه ستخرج ريح حمراء من قبل الشام فتزيل القرآن من المصاحف ومن الصدور وتذهب به، ثم يتلو هذه الآية. أراد ابن مسعود بتلاوة الآية أن يبدي أن الأمر جائز الوقوع ليظهر مصداق خبره من كتاب الله تعالى. و «الوكيل» القائم بالأمر في الانتصار أو المخاصمة ونحو ذلك من وجود النفع، وقوله إلا رحمة استثناء منقطع، أي لكن رحمة من ربك تمسك ذلك عليك، وهذا الاستثناء المنقطع يخصص تخصيصا ما، وليس كالمتصل، لأن المتصل يخصص من الجنس أو الجملة، والمنقطع." (١)

"بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الكهف

هذه السورة مكية في قول جميع المفسرين، وروي عن فرقة أن أول السور نزل بالمدينة إلى قوله جرزا [الكهف: ٨] والأول أصح، وهي من أفضل سور القرآن، وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ألا أخبركم بسورة عظمها ما بين السماوات والأرض ولمن جاء بها من الأجر مثل ذلك؟ قالوا:

أي سورة هي يا رسول الله؟ قال: سورة الكهف، من قرأ بها يوم الجمعة غفر له ما بينه وبين الجمعة الأخرى وزيادة ثلاثة أيام، في رواية أنس، ومن قرأ بها أعطي نورا بين السماء والأرض ووقي بها فتنة القبر.

قوله عز وجل:

[سورة الكهف (١٨) : الآيات ١ الى ٥]

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا (١) قيما لينذر بأسا شديدا من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا حسنا (٢) ماكثين فيه أبدا (٣) وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا (٤)

---

(١) تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ابن عطية ٤٨٢/٣

م ١ لهم به من علم ولا لآبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا (٥)
كان حفص عن عاصم يسكت عند قوله عوجا سكتة خفيفة، وعند مرقدنا [ص: ٥٢] في سورة يس، وسبب هذه البدأة في هذه السورة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما سألته قريش عن المسائل الثلاث، الروح، والكهف، وذي القرنين، حسبما أمرتهم بهن يهود، قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم غدا أخبركم، بجواب سؤالكم، ولم يقل إن شاء الله، فعاتبه الله عز وجل بأن استمسك الوحي عنه خمسة عشر يوما، فأرجف به كفار قريش، وقالوا: إن محمدا قد تركه ربه الذي كان يأتيه من الجن، وقال بعضهم: قد عجز عن أكاذيبه إلى غير ذلك، فشق ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم وبلغ منه، فلما انقضى الأمد الذي أراد الله تعالى **عتاب** محمد إليه، جاءه الوحي من الله بجواب الأسئلة وغير ذلك، فافتتح الوحي بحمد الله الذي أنزل على عبده الكتاب أي بزعمكم أنتم يا قريش، وهذا كما تقول لرجل يحب مساءتك فلا يرى إلا نعمتك الحمد لله الذي أنعم علي وفعل بي كذا على جهة النقمة عليه، والكتاب هو القرآن، وقوله ولم يجعل له عوجا أي لم يزله عن طريق الاستقامة، و «العوج» فقد الاستقامة، وهو بكسر العين في الأمور والطرق وما لا يحس متنصبا شخصا، و «العوج» بفتح العين في الأشخاص كالعصا والحائط ونحوه، وقال ابن عباس: معناه ولم يجعله مخلوقا، وقوله ولم يجعل له." (١)

"يوالهم غيره بتلطف لهم، ولا اشترك معه أحد في هذا الحكم، ويحتمل أن يعود الضمير في لهم على معاصري رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكفار ومشاقيه، وتكون الآية اعتراضا بتهديد، وقرأ الجمهور «ولا يشرك في حكمه أحدا» بالياء من تحت على معنى الخبر عن الله تعالى، وقرأ ابن عامر والحسن وأبو رجاء وقتادة والجحدري «ولا تشرك» بالتاء من فوق، على جهة النهي للنبي عليه السلام، ويكون قوله «ولا تشرك» عطفا على أبصر وأسمع، وقرأ مجاهد «ولا يشرك» بالياء من تحت وبالجزم، قال يعقوب لا أعرف وجهه، وحكى الطبري عن الضحاك بن مزاحم أنه قال: نزلت هذه الآية: ولبثوا في كهفهم ثلاث مائة فقط، فقال الناس هي أشهر أم أيام أم أعوام؟ فنزلت سنين وازدادوا تسعا وأما هل دام أهل الكهف وبقيت أشخاصهم محفوظة بعد الموت؟ فاختلفت الروايات في ذلك، فروي عن ابن عباس أنه مر بالشام في بعض غزواته، مع ناس على موضع الكهف وجبله، فمشى الناس إليه، فوجدوا عظاما، فقالوا هذه عظام أصحاب الكهف، فقال لهم ابن عباس: أولئك قوم فنوا وعدموا منذ مدة طويلة فسمعه راهب، فقال ما كنت أحسب أن أحدا من العرب يعرف هذا، فقيل له هذا ابن عم نبينا فسكت، وروت فرقة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم: قال ليحجن عيسى ابن مريم ومعه أصحاب الكهف، فإنهم لم يحجوا بعد.

قال القاضي أبو محمد: وبالشام على ما سمعت من ناس كثير، كهف كان فيه موتى، يزعم محاويه أنهم أصحاب الكهف، وعليهم مسجد وبناء يسمى الرقيم، ومعهم كلب رمة، وبالأندلس في جهة غرناطة بقرب قرية تسمى لوشة، كهف فيه موتى ومعهم كلب رمة، وأكثرهم قد انجرد لحمه، وبعضهم متماسك، وقد مضت القرون السالفة ولم نجد من علم شأنهم إشارة، ويزعم ناس أنهم أصحاب الكهف، دخلت إليهم فرأيتهم سنة أربع وخمسمائة، وهم بهذه الحالة، وعليهم

---

(١) تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ابن عطية ٣/٤٩٤

مسجد، وقريب منهم بناء رومي يسمى الرقيم، كأنه قصر محلق قد بقي بعض جدرانه وهو في فلاة من الأرض حزنة وبأعلى حضرة غرناطة مما يلي القبلة آثار مدينة قديمة رومية يقال لها مدينة دقيوس، وجدنا في آثارها غرائب في قبور ونحوها.

قال القاضي أبو محمد: وإنما استسهلت ذكر هذا مع بعده لأنه عجب يتخلد ذكره ما شاء الله عز وجل، وقوله واتل ما أوحي إليك الآية، من قرأ «ولا تشرك» بالنهي، عطف قوله واتل عليه، ومن قرأ «ولا يشرك» ، جعل هذا أمرا بدىء به كلام آخر ليس من الأول، وكأن هذه الآية، في معنى **الإعتاب** للنبي عليه السلام، عقب **العتاب** الذي كان تركه الاستثناء، كأنه يقول هذه أجوبة الأسئلة فاتل وحي الله إليك، أي اتبع في أعمالك، وقيل اسرد بتلاوتك ما أوحي إليك من كتاب ربك، لا نقض في قوله، ولا مبدل لكلماته، وليس لك سواه جانب تميل إليه، وتستند، و «الملتحد» : الجانب الذي يمال إليه، ومعنى اللحد كأنه الميل في أحد شقي القبر، ومنه الإلحاد في الحق، وهو الميل عن الحق، ولا يفسر قوله لا مبدل لكلماته أمر النسخ لأن المعنى: إما أن يكون لا مبدل سواه فتبقى الكلمات على الإطلاق، وإما أن يكون أراد من «الكلمات» الخبر ونحوه، مما لا يدخله نسخ، والإجماع أن الذي لا يتبدل هو الكلام القائم بالذات الذي بحسبه يجري القدر. فأما الكتب المنزلة فمذهب ابن عباس أنها لا تبدل إلا بالتأويل.." (١)

"جمهور الناس «كبره» بكسر الكاف، وقرأ حميد والأعرج ويعقوب والزهري وأبو رجاء والأعمش وابن أبي عبلة «كبره» بضم الكاف وهما مصدران من كبر الشيء عظم، ولكن استعملت العرب ضم الكاف في السن تقول هذا كبر القوم أي كبيرهم سنا أو مكانة، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم في قصة حويصة ومحيصة «الكبر الكبر» ومن استعماله في المعنى الثاني قول ابن الحطيم: [المنسرح]

تنام عن كبر شأنها فإذا ... قامت رويدا تكاد تنقصف

قوله عز وجل:

[سورة النور (٢٤) : الآيات ١٢ الى ١٣]

لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا وقالوا هذا إفك مبين (١٢) لولا جاؤ عليه بأربعة شهداء فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون (١٣)

الخطاب بهاتين الآيتين لجميع المؤمنين حاشى من تولى الكبر ويحتمل دخولهم في الخطاب، وفي هذا **عتاب** للمؤمنين أي كان الإنكار واجبا عليهم، والمعنى أنه كان ينبغي أن يقيس فضلاء المؤمنين والمؤمنات الأمر على أنفسهم وإذا كان ذلك يبعد فيهم فكانوا يقضون بأنه من صفوان وعائشة أبعد لفضلهما، وروي أن هذا النظر السديد وقع من أبي أيوب الأنصاري وامرأته، وذلك أنه دخل عليها فقالت له يا أبا أيوب أسمعت ما قيل؟ فقال نعم وذلك الكذب أكنت أنت يا أم أيوب تفعلين ذلك؟ قالت لا والله، قال فعائشة والله أفضل منك، قالت أم أيوب نعم فهذا الفعل ونحوه هو الذي

---

(١) تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ابن عطية ٣/٥١١

عاتب الله المؤمنين إذ لم يفعله جميعهم، والضمير في قوله: جاؤ لأولئك الذين تولوا الكبر وإذا كانوا عند الله كذبة فهي الحقيقة فيهم وعند هذا حدوا، ولم يرو في شهير الدواوين أن عبد الله بن أبي حد، ويشبه ذلك لأنه لم تقم عليه بالمقالة بينة لنفاقه وتستره، وإنما كان يخوض فيه مع من يذيعه ولا يسأل عن شهادته كما قال عروة أخبرت أنه كان يقره ويستمعه ويستوشيه.

قال الفقيه الإمام القاضي: ولكن النبي عليه السلام استعذر منه على المنبر ووقذه بالقول ووقع في أمره بين الأوس والخزرج ما هو مطول في مسلم في جملة حديث الإفك.

قوله عز وجل:

[سورة النور (٢٤) : الآيات ١٤ الى ١٨]

ولولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم (١٤) إذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم (١٥) ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم (١٦) يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا إن كنتم مؤمنين (١٧) ويبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم (١٨)

هذا **عتاب** من الله تعالى بليغ ذكر أن حالتهم التي وقع فيها جميعهم من تعاطيهم الحديث وإن لم." (١)

"يكن المخبر ولا المخبر مصدقين، ولكن نفس التعاطي والتلقي من لسان إلى لسان والإفاضة في الحديث هو الذي وقع **العتاب** فيه، وقرأ محمد بن السميفع «إذ تلقونه» بضم التاء وسكون اللام وضم القاف من لإلقاء، وهذه قراءة بينة وقرأ أبي بن كعب وابن مسعود «إذ تتلقونه» بضم التاء من التلقي بتاءين، وقرأ جمهور السبعة «إذ تلقونه» بحذف التاء الواحدة وإظهار الذال دون إدغام وهو أيضا من التلقي، وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي «إتلقونه» بإدغام الذال في التاء، وقرأ ابن كثير «إذ تلقونه» بإظهار الذال وإدغام التاء في التاء وهذه قراءة قلقة لأنها تقتضي اجتماع ساكنين وليس كالإدغام في قراءة من قرأ فلا «تناجوا ولا تنابزوا» لأن لدونة الألف الساكنة وكونها حرف لين حسنت هنالك ما لا يحسن مع سكون الدال، وقرأ ابن يعمر وعائشة رضي الله عنها وهي أعلم الناس بهذا الأمر «إذ تلقونه» بفتح التاء وكسر اللام وضم القاف، ومعنى هذه القراءة من قول العرب ولق الرجل ولقا إذا كذب قال ابن سيده في المحكم قرىء «إذ تلقونه» وحكى أهل اللغة أنها من ولق إذا كذب فجاؤوا بالمتعدي شاهدا على غير المتعدي وعندي أنه أراد إذ تلقون فيه فحذف حرف الجر ووصل بالضمير، وحكى الطبري وغيره أن هذه اللفظة مأخوذة من الولق الذي هو إسراعك بالشيء بعد الشيء كعدو في إثر عدو وكلام في إثر كلام يقال ولق في سيره إذا أسرع ومنه قول الشاعر:

«جاءت به عنس من الشام تلق»

وقوله تعالى: وتقولون بأفواهكم مبالغة وإلزام وتأكيد.

---

(١) تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ابن عطية ١٧٠/٤

والضمير في قوله وتحسبونه للحديث والخوض فيه والإذاعة له، وقوله تعالى: ولولا إذ سمعتموه إلى حكيم، **عتاب** لجميع المؤمنين أي كان ينبغي عليكم أن تنكروه ولا يتعاطاه بعضكم من بعض على جهة الحكاية والنقل وأن تنزهوا الله تعالى عن أن يقع هذا من زوج نبيه عليه السلام وأن تحكموا على هذه المقالة بأنها بهتان، وحقيقة البهتان أن يقال في الإنسان ما ليس فيه والغيبة أن يقال في الإنسان ما فيه. ثم وعظهم تعالى في العودة إلى مثل هذه الحالة وأن مفعول من أجله بتقدير «كراهية أن» ونحوه، وقوله: إن كنتم مؤمنين توقيف وتأكيد كما تقول ينبغي لك أن تفعل كذا وكذا إن كنت رجلا وسائر الآية بين وعليم حكيم صفتان تقتضيهما الآية.

قوله عز وجل:

[سورة النور (٢٤) : الآيات ١٩ الى ٢٠]

إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون (١٩) ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رؤف رحيم (٢٠)

قال مجاهد وابن زيد الإشارة بهذه الآية إلى المنافقين عبد الله بن أبي ومن أشبهه، وهي خاصة في أمر عائشة رضي الله عنها ع فحبهم شياع الفاحشة في المؤمنين متمكن على وجهه لعداوتهم في أهل الإيمان، و «عذابهم الأليم» في الدنيا الحدود، وفي الآخرة النار، وقالت فرقة وقولها الأظهر الآية عامة في كل قاذف منافقا كان أو مؤمنا ع فالقاذف المؤمن لا يتصف بحب شياع الفاحشة في المؤمنين." (١)

"نحوه. أو على الإغراء كأنه قال فعليه سنة الله، والذين خلوا هم الأنبياء بدليل وصفهم بعد بقوله الذين يبلغون رسالات الله، وأمر الله في الآية أي مأمورات الله والكائنات عن أمره فهي مقدورة، وقوله قدرا فيه حذف مضاف، أي ذا قدر، وقرأ ابن مسعود «الذين بلغوا رسالات الله، وقوله ولا يخشون أحدا إلا الله تعريض **بالعتاب** الأول في خشية النبي عليه السلام الناس، ثم رد الأمر كله إلى الله وأنه المحاسب على جميع الأعمال والمعتقدات وكفى به لا إله إلا هو، ويحتمل أن يكون حسيبا بمعنى محسب أي كافيا، وقوله تعالى: ما كان محمد أبا أحد من رجالكم إلى قوله تعالى: كريما أذهب الله تعالى في هذه الآية ما وقع في نفوس منافقين وغيرهم من نقد تزويج رسول الله صلى الله عليه وسلم زينب زوجة دعيه زيد بن حارثة لأنهم كانوا استعظموا أن تزوج زوجة ابنه، فنفى القرآن تلك البنوة وأعلم أن محمدا لم يكن في حقيقة أمره أبا أحد من رجال المعاصرين له، ولم يقصد بهذه الآية أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن له ولد فيحتاج إلى الاحتجاج بأمر بنيه بأنهم كانوا ماتوا، ولا في أمر الحسن والحسين بأنهما كانا طفلين ومن احتج بذلك فإنه تأول نفي البنوة عنه بهذه الآية على غير ما قصد بها، وقرأ ابن أبي عبلة وبعض الناس «ولكن رسول الله» بالرفع على معنى هو رسول الله، وقرأ نافع وأبو عمرو وعاصم والأعرج وعيسى «رسول الله» بالنصب على العطف على أبا، وهؤلاء قرؤوا «ولكن» بالتخفيف، وقرأت فرقة «ولكن» بشد النون ونصب «رسول» على أنه اسم «لكن» والخبر محذوف، وقرأ

---

(١) تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ابن عطية ١٧١/٤

عاصم وحده والحسن والشعبي والأعرج بخلاف «وخاتم» بفتح التاء بمعنى أنهم به ختموا فهو كالخاتم والطابع لهم، وقرأ الباقون والجمهور «خاتم» بكسر التاء بمعنى أنه ختمهم أي جاء آخرهم، وروت عائشة أنه عليه السلام قال: «أنا خاتم الأنبياء» بفتح التاء، وروي عنه عليه السلام أنه قال: «أنا خاتم ألف نبي» ، وهذه الألفاظ عند جماعة علماء الأمة خلفا وسلفا متلقاة على العموم التام مقتضية نصا أنه لا نبي بعده صلى الله عليه وسلم، وما ذكره القاضي ابن الطيب في كتابه المسمى بالهداية من تجويز الاحتمال في ألفاظ هذه الآية ضعيف، وما ذكره الغزالي في هذه الآية وهذا المعنى في كتابه الذي سماه بالاقتصاد إلحاد عندي وتطرق خبيث إلى تشويش عقيدة المسلمين في ختم محمد صلى الله عليه وسلم النبوءة، فالحذر الحذر منه والله الهادي برحمته، وقرأ ابن مسعود «من رجالكم ولكن نبينا ختم النبيين» ، قال الرماني ختم به عليه السلام الاستصلاح فمن لم يصلح به فميئوس من صلاحه، وقوله تعالى: وكان الله بكل شيء عليما والمقصد به هنا علمه تعالى بما رآه الأصلح بمحمد وبما قدره في الأمر كله، ثم أمر تعالى عباده بأن يذكروه ذكرا كثيرا، وجعل تعالى ذلك دون حد ولا تقدير لسهولته على العبد ولعظم الأجر فيه، قال ابن عباس لم يعذر أحد في ترك ذكر الله إلا من غلب على عقله، وقال الكثير أن لا تنساه أبدا، وروى أبو سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم «أكثروا ذكر الله حتى يقولوا مجنون» ، وقوله تعالى: وسبحوه بكرة وأصيلا أراد في كل الأوقات مجدد الزمان بطرفي نهاره وليله، وقال قتادة والطبري وغيره الإشارة إلى صلاة الغداة وصلاة العصر.

قال الفقيه الإمام القاضي: وهذه الآية مدنية فلا تعلق بها لمن زعم أن الصلاة إنما فرضت أولا صلاتين في طرفي النهار، والرواية بذلك ضعيفة، والأصيل من العصر إلى الليل، ثم عدد تعالى على عباده." (١)

"بكسر اللام وقطع الألف، وهذان المثلان اللذان للكفار والمؤمنين معناهما: أن من كفر لا يغني عنه شيء ولا ينفعه وزر ولو كان متعلقا بأقوى الأسباب، وأن من آمن لا يدفعه دافع عن رضوان الله تعالى ولو كان في أسوأ منشأ وأخسر حال. وقال بعض الناس: إن في المثلين عبرة لزوجات النبي محمد عليه السلام، حين تقدم عتابهن، وفي هذا بعد لأن النص أنه للكفار يبعد هذا.

واختلف الناس في خيانة هاتين المرأتين، فقال ابن عباس وغيره: خانتا في الكفر، وفي أن امرأة نوح كانت تقول للناس: إنه مجنون، وأن امرأة لوط كانت تنم إلى قومه متى ورده ضيف فتخبر به، وقال ابن عباس: وما بغت زوجة نبي قط، ولا ابتلي الأنبياء في نسائهم بهذا، وقال الحسن في كتاب النقاش:

خانتاهما بالكفر والزنا وغيره، وقرأ الجمهور: «يغنيا» بالياء، وقرأ مبشر بن عبيد: «تغنيا» بالتاء من فوق.

قوله عز وجل:

---

(١) تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ابن عطية ٣٨٨/٤

[سورة التحريم (٦٦) : الآيات ١١ الى ٢١]

وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأت فرعون إذ قالت رب ابن لي عندك بيتا في الجنة ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين (١١) ومريم ابنت عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين (١٢)

امرأت فرعون اسمها آسية وقولها: وعمله معناه وكفره، وما هو عليه من الضلالة، وهذا قول كافة المفسرين، وقال جمهور من المفسرين: معناه من ظلمه وعقابه وتعذيبه لي، وروي في هذا أن فرعون اتصل به إيمانها بموسى، وأنها تحب أن يغلب، فبعث إليها قوما، وقال: إن رأيتم منها ذلك فابطحوها في الأرض ووتدوا يديها ورجليها وألقوا عليها أعظم حجر، وإن لم تروا ذلك فهي امرأتي. قال، فذهب القوم فلما أحست بالشر منهم دعت بهذه الدعوات فقبض الله روحها وصنع أولئك أمر الحجر بشخص لا روح فيه، وروي في قصصها غير هذا مما يطول ذكره، فاختصرة لعدم صحته. وقال آخرون في كتاب النقاش:

وعمله كناية عن الوطء والمضاجعة. وهذا ضعيف.

واختلف الناس في الفرج الذي أحصنت مريم، فقال الجمهور: هو فرج الدرع الذي كان عليها، وأنها كانت صينة، وأن جبريل عليه السلام: نفخ فيها الروح من جيب الدرع، وقال قوم من المتأولين: هو الفرج الجارحة، فلفظة أحصنت: إذا كان فرج الجارحة متمكنا حقيقة، والإحصان: صونه، وفيه هي مستعملة، وإذا قدرنا فرج الدرع فلفظ أحصنت فيه مستعارة من حيث صانته، ومن حيث صار مسلكا لولدها، وقوله تعالى: فنفخنا عبارة عن فعل جبريل حقيقة، وإن ذهب ذاهب إلى أن النفخ فعل الله تعالى، فهو عبارة عن خلقه واختراعه الولد في بطنها، وشبه ذلك بالنفخ الذي من شأنه أن يسير في الشيء برفق ولطف. وقوله تعالى: من روحنا إضافة المخلوق إلى خالق ومملوك إلى مالك كما تقول: بيت الله وناقة الله، وكذلك الروح الجنس كله هو روح الله. وقرأ الجمهور: «وصدقت» بشد الدال، وقرأ أبو مجلز:." (١)

"جزى: كاذب: ١/ ٥٣٥ ولا عيب: الكتائب: ٢/ ٢١٠ إن: وتخضبي: ٢/ ١٨٦ لأصبح: الكائب: ٢/ ٤٦٢ بكرت: وعتابى: ٢/ ٣٠٥ تطود: والمذهب: ٢/ ١٠١ أذاعوا: بثقوب: ٢/ ٨٤ عيرانة: الخاضب: ٢/ ٥٧ فاليوم: عجب: ٢/ ٤ ذهب: الأجرب: ٢/ ٤٧٢ ويل: والرهب: ٢/ ٥٤٦ ندعو: الأنابيب: ٢/ ٥٤٢ وقد: بالإياب: ٥/ ١٦٧ أنا: بأصحابي: ٣/ ٤٧٠ وكنت: عصيب: ٣/ ٣٥٣ وكرنا: وتعقيب: ٣/ ٣٠١ إني: قريب: ٣/ ٣٠٠ إلى: يصبي: ٣/ ٢٤٢ فإنك: عصيب: ٣/ ١٩٤ يا قوم: غيب: ٣/ ١٨٤ يشم: بريب: ٣/ ١٨٤ أما: الأزاكيب: ٣/ ١٧٣ ولا عيب: الكتائب: ٣/ ٦٠ كأنه: منقضب: ٤/ ٢٦٠ حمى: الحبائب: ٤/ ٢٨٦ وبالشعب: بالجنوب: ٥/ ٣٠٢ لم يبق: الشيب: ٥/ ٩٩ جوانح: غالب: ٢/ ٥٤٧ فإتكما: جندب: ٣/ ٣٩١ وقد: بالإياب: ٢/ ٥٢٨ أحابيش: المتقرب: ٥/ ٤٢٥ سألت: تصب: ٥/ ٣٦٤ لا يبعدن: بذنوب: ٥/ ١٨٤ وفي: منسرب: ٥/ ٨٤ حرف التاء نشكو: أجحفت: ٣/ ٤٧٠ جهرا: فأضعفت: ٣/ ٤٧٠ واحتنكت: وجلفت: ٣/ ٤٧٠ تحف: تنوبت: ١/ ٣٤٢ بالخير: إلا أن تا: ١/ ٨٣

(١) تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ابن عطية ٥/٣٣٥

إن العراق: قعيتا: ٤/ ٢٢٥ ٣/ ٢٣٢ أبلغ: أتيتا: ٣/ ٢٣٢ قد: لهيتا: ٣/ ٢٢٣ أفي: متى: ٣/ ٩٩ ليت: ودعيت: ٢/ ٨٧ أإلى: مقيت: ٢/ ٨٧ ليس: هيت: ٣/ ٢٣٢ ربما: شمالات: ٣/ ٣٤٩ قالت: شواته: ٥/ ٣٩٧ إن: فوت: ٢/ ١٠٢ ولكنهم: البغت: ٢/ ٢٨٣ والأرض: فادهأمت: ١/ ٧٨ صفوحا: ملت: ٥/ ٤٦ فقالت: واصمتي: ٤/ ٢٥٧ بأيدي: سلت: ٣/ ١٤ أسيئي: تقلت: ٣/ ٦٤ وكنت: فشلت: ٣/ ٤٤٨ حرف الثاء وذي ضغن: مغيثا: ٢/ ٨٦ بعثتك: تغيث: ٣/ ٤١٢ إن: مباحث: ٢/ ١٨١ أهاجتك: الأثاث: ٣/ ٤١٢ حرف الجيم فجاء: يموج: ٥/ ٢٢٨ بأرعن: تهملج: ٤/ ٢٧٣ شربن: نئج: ٥/ ٥٢٨ أما النهار: الساج: ٣/ ١٣٠ فلثمت: الحشرج: ٣/ ٥٣٨ حتى: مهراج: ٥/ ٣٩٨." (١)

"[سورة البقرة (٢) : آية ١٧٩]

ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب لعلكم تتقون (١٧٩)

قوله تعالى: ولكم في القصاص حياة. قال الزجاج: إذا علم الرجل أنه إن قتل قتل أمسك عن القتل، وكان في ذلك حياة للذي هم بقتله ولنفسه، لأنه من أجل القصاص أمسك. وأخذ هذا المعنى الشاعر فقال:

أبلغ أبا مالك عني مغلغلة ... وفي **العتاب** حياة بين أقوام «١»

يريد: أنهم إذا تعاتبوا أصلح ما بينهم **العتاب**. والألباب: العقول، وإنما خصهم بهذا الخطاب وإن كان الخطاب عاما، لأنهم المنتفعون بالخطاب، لكونهم يأتمرون بأمره وينتهون بنهيه. وقوله تعالى: لعلكم تتقون، قال ابن عباس: لعلكم تتقون الدماء. وقال ابن زيد: لعلك تتقي أن يقتله فتقتل به.

فصل: نقل ابن منصور عن أحمد: إذا قتل رجل رجلا بعصا أو خنقه أو شدخ رأسه بحجر يقتل بمثل الذي قتل به. فظاهر هذا أن القصاص يكون بغير السيف، ويكون بمثل الآلة التي قتل بها، وهو قول مالك والشافعي. ونقل عنه حرب: إذا قتله بخشبة قتل بالسيف. ونقل أبو طالب: إذا خنقه قتل بالسيف. فظاهر هذا أنه لا يكون القصاص إلا بالسيف، وهو قول أبي حنيفة «٢» .

---

(١) في «اللسان» : المغلغلة: الرسالة. ورسالة مغلغلة: محمولة من بلد إلى بلد.

(٢) قال الإمام الموفق رحمه الله في «المغني» ١١/ ٥٠٨: اختلفت الرواية عن أحمد في كيفية الاستيفاء، فروي عنه، لا يستوفى إلا بالسيف في العنق. وبه قال عطاء، والثوري، وأبو يوسف، ومحمد، لما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لا قود إلا بالسيف» رواه ابن ماجة. ولأن القصاص أحد بدلي النفس، فدخل الطرف في حكم الجملة كالدية فإنه لو صار الأمر إلى الدية، لم تجب إلا دية النفس، ولأن القصد من القصاص في النفس تعطيل الكل، وإتلاف الجملة، وقد أمكن هذا بضرب العنق، فلا يجوز تعذيبه بإتلاف أطرافه، كما لو قتله بسيف كال، فإنه لا يقتل بمثله. والرواية الثانية عن أحمد قال: إنه لأهل أن يفعل به كما فعل. يعني أن للمستوفي أن يقطع أطرافه، ثم يقتله. وهذا مذهب عمر بن عبد

---

(١) تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ابن عطية ١٩٢/٦

العزيز ومالك، والشافعي، وأبي حنيفة، وأبي ثور. لقول الله تعالى: وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به وقوله سبحانه: فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم. ولأن النبي صلى الله عليه وسلم رضخ رأس يهودي لرضخه رأس جارية من الأنصار بين حجرين. ولأن الله تعالى قال: والعين بالعين. وهذا قد قلع عينه، فيجب أن تقلع عينه، للآية. وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «من حرق حرقناه، ومن أغرق غرقناه» . ولأن القصاص موضوع على المماثلة، ولفظه مشعر به، فوجب أن يستوفى منه مثل ما فعل، كما لو ضرب العنق آخر غيره. فأما حديث: «لا قود إلا بالسيف» .

فقال أحمد: ليس إسناده بجيد.." (١)

"قلنا: إن قوله: فاضربوا تكليف مختص بحالة الحرب عند اشتغال الكفار بالحرب، فأما بعد انقضاء الحرب فهذا التكليف ما كان متناولا له. والدليل القاطع عليه أنه عليه الصلاة والسلام استشار/ الصحابة في أنه بماذا يعاملهم؟ ولو كان ذلك النص متناولا لتلك الحالة، لكان مع قيام النص القاطع تاركا لحكمه وطالبا ذلك الحكم من مشاورة الصحابة، وذلك محال، وأيضا فقوله: فاضربوا فوق الأعناق أمر، والأمر لا يفيد إلا المرة الواحدة، وثبت بالإجماع أن هذا المعنى كان واجبا حال المحاربة فوجب أن يبقى عديم الدلالة على ما وراء وقت المحاربة، وهذا الجواب شاف.

والجواب عما ذكروه ثالثا، وهو قولهم: إنه عليه الصلاة والسلام حكم بأخذ الفداء، وأخذ الفداء محرم.

فنقول: لا نسلم أن أخذ الفداء محرم.

وأما قوله: تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة فنقول هذا لا يدل على قولكم، وبيانه من وجهين:

الأول: أن المراد من هذه الآية حصول **العتاب** على الأسر لغرض أخذ الفداء، وذلك لا يدل على أن أخذ الفداء محرم مطلقا. الثاني: أن أبا بكر رضي الله عنه قال الأولى: أن نأخذ الفداء لتقوى العسكر به على الجهاد، وذلك يدل على أنهم إنما طلبوا ذلك الفداء للتقوي به على الدين، وهذه الآية تدل على ذم من طلب الفداء لمحض عرض الدنيا ولا تعلق لأحد البابين بالثاني. وهذان الجوابان بعينهما هما الجوابان عن تمسكهم بقوله تعالى:

لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم.

والجواب عما ذكروه رابعا: أن بكاء الرسول عليه الصلاة والسلام يحتمل أن يكون لأجل أن بعض الصحابة لما خالف أمر الله في القتل، واشتغل بالأسر استوجب العذاب، فبكى الرسول عليه الصلاة والسلام خوفا من نزول العذاب عليهم،

---

(١) زاد المسير في علم التفسير ابن الجوزي ١٣٨/١

ويحتمل أيضا ما ذكرناه أنه عليه الصلاة والسلام اجتهد في أن القتل الذي حصل هل بلغ مبلغ الإثخان الذي أمره الله به في قوله: حتى يثخن في الأرض ووقع الخطأ في ذلك الاجتهاد، وحسنات الأبرار سيئات المقربين، فأقدم على البكاء لأجل هذا المعنى.

والجواب عما ذكروه خامسا: أن ذلك العذاب إنما نزل بسبب أن أولئك الأقوام خالفوا أمر الله بالقتل، وأقدموا على الأسر حال ما وجب عليهم الاشتغال بالقتل، فهذا تمام الكلام في هذه المسألة. والله أعلم.

المسألة الرابعة: في شرح الألفاظ المشكلة في هذه الآية.

أما قوله: ما كان لنبي أن يكون له أسرى فلقائل أن يقول: كيف حسن إدخال لفظة كان على لفظة تكون في هذه الآية.

والجواب: قوله ما كان معناه النفي والتنزيه، أي ما يجب وما ينبغي أن يكون له المعنى المذكور ونظيره ما كان لله أن يتخذ من ولد قال أبو عبيدة. يقول: لم يكن لنبي ذلك، فلا يكون لك، وأما/ من قرأ ما كان للنبي فمعناه: أن هذا الحكم ما كان ينبغي حصوله لهذا النبي، وهو محمد عليه الصلاة والسلام. قال الزجاج: (أسرى) جمع، و (أسارى) جمع الجمع. قال ولا أعلم أحدا قرأ (أسارى) وهي جائزة كما نقلنا عن صاحب «الكشاف» : أنه نقل أن بعضهم قرأ به وقوله: حتى يثخن في الأرض فيه بحثان:

البحث الأول: قال الواحدي: الإثخان في كل شيء عبارة عن قوته وشدته، يقال: قد أثخنه المرض إذا." (١)

"هذا العتاب والأمر بالاستغفار، ولا يدل على سابقة الذنب كما قال: إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا فسبح بحمد ربك واستغفره [النصر: ١- ٣] ومعلوم أن مجيء نصر الله والفتح ودخول الناس في دين الله أفواجا ليست بذنب يوجب الاستغفار وقال تعالى: واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات [محمد: ١٩] وليس جميعهم مذنبين، فدل ذلك على أن الاستغفار قد يكون بسبب ترك لأفضل.

المسألة الثانية: قرأ نافع برواية ورش وإسماعيل بتشديد النون وإثبات الياء تسألني وقرأ ابن عامر ونافع برواية قالون بتشديد النون وكسرها من غير إثبات الياء، وقرأ أبو عمرو بتخفيف/ النون وكسرها وحذف الياء تسألن أما التشديد فللتأكيد وأما إثبات الياء فعلى الأصل، وأما ترك التشديد والحذف فللتخفيف من غير إخلال.

[في قوله تعالى رب إني أعوذ بك أن أسئلك ما ليس لي به علم وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين] واعلم أنه تعالى لما نهاه عن ذلك السؤال حكى عنه أنه قال: رب إني أعوذ بك أن أسئلك ما ليس لي به علم وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين والمعنى أنه تعالى لما قال له: فلا تسئلن ما ليس لك به علم فقال عند ذلك قبلت يا رب هذا التكليف، ولا أعود إليه إلا أني لا أقدر على الاحتراز منه إلا بإعانتك وهدايتك، فلهذا بدأ أولا بقوله: إني أعوذ بك.

واعلم أن قوله: إني أعوذ بك أن أسئلك ما ليس لي به علم إخبار عما في المستقبل، أي لا أعود إلى هذا العمل، ثم

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١٥/ ٥١٠

اشتغل بالاعتذار عما مضى، فقال: وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين وحقيقة التوبة تقتضي أمرين: أحدهما: في المستقبل، وهو العزم على الترك وإليه الإشارة بقوله: إني أعوذ بك أن أسئلك ما ليس لي به علم والثاني: في الماضي وهو الندم على ما مضى وإليه الإشارة بقوله: وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين ونختم هذا الكلام بالبحث عن الزلة التي صدرت عن نوح عليه السلام في هذا المقام.

فنقول: إن أمة نوح عليه السلام كانوا على ثلاثة أقسام كافر يظهر كفره ومؤمن يعلم إيمانه وجمع من المنافقين، وقد كان حكم المؤمنين هو النجاة وحكم الكافرين هو الغرق، وكان ذلك معلوما، وأما أهل النفاق فبقي حكمهم مخفيا وكان ابن نوح منهم وكان يجوز فيه كونه مؤمنا، وكانت الشفقة المفرطة التي تكون من الأب في حق الابن تحمله على حمل أعماله وأفعاله لا على كونه كافرا، بل على الوجوه الصحيحة، فلما رآه بمعزل عن القوم طلب منه أن يدخل السفينة فقال: سآوي إلى جبل يعصمني من الماء وذلك لا يدل على كفره لجواز أن يكون قد ظن أن الصعود على الجبل يجري مجرى الركوب في السفينة في أنه يصونه عن الغرق، وقول نوح:

لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم لا يدل إلا على أنه عليه السلام كان يقرر عند ابنه أنه لا ينفعه إلا الإيمان والعمل الصالح، وهذا أيضا لا يدل على أنه علم من ابنه أنه كان كافرا فعند هذه الحالة كان قد بقي في قلبه ظن أن ذلك الابن مؤمن، فطلب من الله تعالى تخليصه بطريق من الطرق إما بأن يمكنه من الدخول في السفينة، وإما أن يحفظه على قلة جبل، فعند ذلك أخبره الله تعالى بأنه منافق وأنه ليس من أهل دينه، فالزلة الصادرة عن نوح عليه السلام هو أنه لم يستقص في تعريف ما يدل على نفاقه وكفره، بل اجتهد في ذلك وكان يظن أنه مؤمن، مع أنه أخطأ في ذلك الاجتهاد، لأنه كان كافرا فلم يصدر عنه إلا الخطأ في هذا الاجتهاد، كما قررنا ذلك في أن آدم عليه السلام لم تصدر عنه تلك الزلة إلا لأنه أخطأ في هذا الاجتهاد، فثبت بما ذكرنا أن الصادر عن نوح عليه السلام ما كان من باب الكبائر وإنما هو من باب الخطأ في الاجتهاد، والله أعلم.." (١)

"قلوبهم طلب الزيادات كما قال: ونزعنا ما في صدورهم من غل [الحجر: ٤٧] والله أعلم.

أما قوله تعالى: ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون ففيه مسائل:

المسألة الأولى: المعنى: دع الكفار يأخذوا حظوظهم من دنياهم فتلك أخلاقهم ولا خلاق لهم في الآخرة وقوله: ويلههم الأمل يقال: لهيت عن الشيء ألهى لهيا، وجاء في الحديث أن ابن/ الزبير كان إذا سمع صوت الرعد لهي عن حديثه. قال الكسائي والأصمعي: كل شيء تركته فقد لهيت عنه وأنشد:

صرمت حبالك فاله عنها زينب ... ولقد أطلت عتابها لو تعتب

فقوله فاله عنها أي اتركها وأعرض عنها. قال المفسرون: شغلهم الأمل عند الأخذ بحظهم عن الإيمان والطاعة فسوف يعلمون.

المسألة الثانية: احتج أصحابنا بهذه الآية على أنه تعالى قد يصد عن الإيمان ويفعل بالمكلف ما يكون له مفسدة في

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٣٥٩/١٨

الدين، والدليل عليه أنه تعالى قال لرسوله: ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأم ل فحكم بأن إقبالهم على التمتع واستغراقهم في طول الأمل يلهيهم عن الإيمان والطاعة ثم إنه تعالى أذن لهم فيها، وذلك يدل على المقصود. قالت المعتزلة: ليس هذا إذنا وتجويزا بل هذا تهديد ووعيد.

قلنا ظاهر قوله: ذرهم إذن أقصى ما في الباب أنه تعالى نبه على أن إقبالهم على هذه الأعمال يضرهم في دينهم، وهذا عين ما ذكرناه من أنه تعالى أذن في شيء مع أنه نص على كون ذلك الشيء مفسدة لهم في الدين.

المسألة الثالثة: دلت الآية على أن إيثار التلذذ والتنعم وما يؤدي إليه طول الأمل ليس من أخلاق المؤمنين، وعن بعضهم التمرغ في الدنيا من أخلاق الهالكين، والأخبار في ذم الأمل كثيرة فمنها ما

روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «يهرم ابن آدم ويشب فيه اثنان: الحرص على المال وطول الأمل»

وعنه صلى الله عليه وسلم أنه نقط ثلاث وقال: «هذا ابن آدم، وهذا الأمل، وهذا الأجل، ودون الأمل تسع وتسعون منية فإن أخذته إحداهن، وإلا فالهرم من ورائه»

وعن علي عليه السلام أنه قال: إنما أخشى عليكم اثنين: طول الأمل واتباع الهوى، فإن طول الأمل ينسي الآخرة، واتباع الهوى يصد عن الحق.

والله أعلم.

[سورة الحجر (١٥) : الآيات ٤ الى ٥]

وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم (٤) ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون (٥)

[في قوله تعالى وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم] وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أنه تعالى لما توعد من قبل من كذب الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله: ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون أتبعه بما يؤكد الزجر وهو قوله تعالى: وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم في الهلاك والعذاب وإنما يقع فيه التقديم والتأخير فالذين تقدموا كان وقت هلاكهم في الكتاب معجلا، والذين تأخروا كان وقت هلاكهم في الكتاب مؤخرا وذلك نهاية في الزجر والتحذير.." (١)

"ثلاثة. أحدها: المراد منه الاستمرار على تلك الطريقة إذا المهتدي في الحال لا يكفيه ذلك في الفوز بالنجاة حتى يستمر عليه في المستقبل ويموت عليه ويؤكده قوله تعالى: إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا [فصلت: ٣٠] وكلمة ثم للتراخي في هذه الآية وليست لتباين المرتبتين بل لتباين الوقتين فكأنه تعالى قال:

الإتيان بالتوبة والإيمان والعمل الصالح مما قد يتفق لكل أحد ولا صعوبة في ذلك إنما الصعوبة في المداومة على ذلك

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١١٩/١٩

والاستمرار عليه. وثانيها: المراد من قوله: ثم اهتدى أي علم أن ذلك بهداية الله وتوفيقه وبقي مستعينا بالله في إدامة ذلك من غير تقصير، عن ابن عباس. وثالثها: المراد من الإيمان الاعتقاد المبني على الدليل والعمل الصالح إشارة إلى أعمال الجوارح بقي بعد ذلك ما يتعلق بتطهير القلب من الأخلاق الذميمة وهو المسمى بالطريقة في لسان الصوفية، ثم انكشاف حقائق الأشياء له وهو المسمى بالحقيقة في/ لسان الصوفية فهاتان المرتبتان هما المرادتان بقوله: ثم اهتدى.

المسألة العاشرة: منهم من قال: تجب التوبة عن الكفر أولا ثم الإتيان بالإيمان ثانيا واحتج عليه بهذه الآية فإنه تعالى قدم التوبة على الإيمان، واحتج أصحابنا بهذه الآية على أن العمل الصالح غير داخل في الإيمان لأنه تعالى عطف العمل الصالح على الإيمان والمعطوف مغاير للمعطوف عليه.

[سورة طه (٢٠) : الآيات ٨٣ الى ٨٤]

وما أعجلك عن قومك يا موسى (٨٣) قال هم أولاء على أثري وعجلت إليك رب لترضى (٨٤)

اعلم أن في قوله: وما أعجلك عن قومك يا موسى دلالة على أنه قد تقدم قومه في المسير إلى المكان ويجب أن يكون المراد ما نبه عليه في قوله تعالى: وواعدناكم جانب الطور الأيمن [طه: ٨٠] في هذه السورة، وفي سائر السور كقوله: وواعدنا موسى ثلاثين ليلة [الأعراف: ١٤٢] يريد الميقات عند الطور وعلى الآية سؤالات:

السؤال الأول: قوله: وما أعجلك استفهام وهو على الله محال. الجواب: أنه إنكار في صيغة الاستفهام ولا امتناع فيه.

السؤال الثاني: أن موسى عليه السلام لا يخلو إما أن يقال إنه كان ممنوعا عن ذلك التقدم أو لم يكن ممنوعا عنه، فإن كان ممنوعا كان ذلك التقدم معصية فيلزم وقوع المعصية من الأنبياء، وإن قلنا إنه ما كان ممنوعا كان ذلك الإنكار غير جائز من الله تعالى. والجواب: لعله عليه السلام ما وجد نصا في ذلك إلا أنه باجتهاده تقدم فأخطأ في ذلك الاجتهاد فاستوجب **العتاب.**

السؤال الثالث: قال: وعجلت والعجلة مذمومة. والجواب: إنها ممدوحة في الدين. قال تعالى:

وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة [آل عمران: ١٣٣] .

السؤال الرابع: قوله: لترضى يدل على أنه عليه السلام إنما فعل ذلك لتحصيل الرضا لله تعالى وذلك باطل من وجهين. أحدهما: أنه يلزم تجدد صفة الله تعالى، والآخر أنه تعالى قبل حصول ذلك الرضا وجب أن يقال: إنه تعالى ما كان راضيا عن موسى لأن تحصيل الحاصل محال، ولما لم يكن راضيا عنه وجب أن يكون ساخطا عليه، وذلك لا يليق بحال الأنبياء عليهم السلام. الجواب: المراد تحصيل دوام الرضا كما أن قوله:." (١)

"ثم اهتدى المراد دوام الاهتداء.

السؤال الخامس: قوله: وعجلت إليك يدل على أنه ذهب إلى الميعاد قبل الوقت الذي/ عينه الله تعالى له، وإلا لم يكن ذلك تعجيلا ثم ظن أن مخالفة أمر الله تعالى سبب لتحصيل رضاه وذلك لا يليق بأجهل الناس فضلا عن كليم الله

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٨٥/٢٢

تعالى. والجواب: ما ذكرنا أن ذلك كان بالاجتهاد وأخطأ فيه.

السؤال السادس: قوله: إليك يقتضي كون الله في الجهة لأن إلى لانتهاء الغاية. الجواب: توافقنا على أن الله تعالى لم يكن في الجبل فالمراد إلى مكان وعدك.

السؤال السابع: ما أعجلك سؤال عن سبب العجلة فكان جوابه اللائق به أن يقول: طلبت زيادة رضاك والشوق إلى كلامك، وأما قوله: هم أولاء على أثري فغير منطبق عليه كما ترى والجواب من وجهين:

الأول: أن سؤال الله تعالى يتضمن شيئين: أحدهما: إنكار نفس العجلة. والثاني: السؤال عن سبب التقدم فكان أهم الأمرين عند موسى عليه السلام بالجواب هذا الثاني فقال: لم يوجد مني إلا تقدم يسير لا يحتفل به في العادة وليس بيني وبين من سبقته إلا تقدم يسير يتقدم بمثله الوفد عن قومهم ثم عقبه بجواب السؤال عن العجلة فقال: وعجلت إليك رب لترضى. الثاني: أنه عليه السلام لما ورد عليه من هيبة **عتاب** الله تعالى ما ورد ذهل عن الجواب المنطبق المترتب على حدود الكلام، واعلم أن في قوله: وما أعجلك عن قومك يا موسى دلالة على أنه تعالى أمره بحضور الميقات مع قوم مخصوصين، واختلفوا في المراد بالقوم فقال بعضهم: هم النقباء السبعون الذين قد اختارهم الله تعالى ليخرجوا معه إلى الطور فتقدمهم موسى عليه السلام شوقا إلى ربه.

وقال آخرون: القوم جملة بني إسرائيل وهم الذين خلفهم موسى مع هارون وأمره أن يقيم فيهم خليفة له إلى أن يرجع هو مع السبعين فقال: هم أولاء على أثري يعني بالقرب مني ينتظرونني، وعن أبي عمرو ويعقوب إثري بالكسر وعن عيسى بن عمر أثري بالضم، وعنه أيضا أولى بالقصر، والأثر أفصح من الأثر. وأما الأثر فمسموع في فرند السيف وهو بمعنى الأثر غريب.

[سورة طه (٢٠) : الآيات ٨٥ الى ٨٩]

قال فإنا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامري (٨٥) فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفا قال يا قوم ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدي (٨٦) قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا ولكنا حملنا أوزارا من زينة القوم فقذفناها فكذلك ألقى السامري (٨٧) فأخرج لهم عجلا جسدا له خوار فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسي (٨٨) أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولا ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا (٨٩)

اعلم أنه تعالى لما قال لموسى: وما أعجلك عن قومك [طه: ٨٣] وقال موسى في جوابه:

وعجلت إليك رب لترضى [طه: ٨٤] عرفه الله تعالى ما حدث من القوم بعد أن فارقهم مما كان يعد أن يحدث لو كان معهم فقال: فإنا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامري وهاهنا مسائل:

المسألة الأولى: قالت المعتزلة: لا يجوز أن يكون المراد أن الله تعالى خلق فيهم الكفر لوجهين، الوجه." (١)

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٨٦/٢٢

"الكل ولكنه لو وقع لوجب في حكمة الله تعالى أن يشرح الحال فيه كما في هذه الواقعة إزالة للتلبيس، قلنا لا يجب على الله إزالة الاحتمالات كما في المتشابهات وإذا لم يجب على الله ذلك تمكن الاحتمال من الكل الوجه الثالث: أن يقال المتكلم بذلك بعض شياطين الإنس وهم الكفرة فإنه عليه السلام لما انتهى في قراءة هذه السورة إلى هذا الموضع وذكر أسماء آلهتهم وقد علموا من عادته أنه يعيبها فقال بعض من حضر تلك الغرانيق العلى فاشتبه الأمر على القوم لكثرة لغط القوم وكثرة صياحهم وطلبهم تغليطه وإخفاء قراءته، ولعل ذلك كان في صلاته لأنهم كانوا يقربون منه في حال صلاته ويسمعون قراءته ويلغون فيها، وقيل إنه عليه السلام كان إذا تلا القرآن على قريش توقف في فصول الآيات فألقى بعض الحاضرين ذلك الكلام في تلك الوقفات فتوهم القوم أنه من قراءة الرسول صلى الله عليه وسلم ثم أضاف الله تعالى ذلك إلى الشيطان لأنه بوسوسته يحصل أولا ولأنه سبحانه جعل ذلك المتكلم في نفسه شيطانا وهذا أيضا ضعيف لوجهين: أحدهما: أنه لو كان كذلك لكان يجب على الرسول صلى الله عليه وسلم إزالة الشبهة وتصريح الحق وتبكيت ذلك القائل وإظهار أن هذه الكلمة منه صدرت وثانيهما: لو فعل ذلك لكان ذلك أولى بالنقل، فإن قيل إنما لم يفعل الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك لأنه كان قد أدى السورة بكمالها إلى الأمة من دون هذه الزيادة فلم يكن ذلك مؤديا إلى التلبيس كما يؤدي سهوه في الصلاة بعد أن وصفها إلى اللبس، قلنا إن القرآن لم يكن مستقرا على حالة واحدة في زمان

حياته لأنه كان تأتيه الآيات فيلحقها بالسور فلم يكن تأدية تلك السورة بدون هذه الزيادة سببا لزوال اللبس، وأيضا فلو كان كذلك لما استحق **العتاب** من الله تعالى على ما رواه القوم الوجه الرابع: هو أن المتكلم بهذا هو الرسول صلى الله عليه وسلم ثم هذا يحتمل ثلاثة أوجه فإنه إما أن يكون قال هذه الكلمة سهوا أو قسرا أو اختيارا أما الوجه الأول: وهو أنه عليه السلام قال هذه الكلمة سهوا فكما

يروى عن قتادة ومقاتل أنهما قالا إنه عليه السلام كان يصلي عند المقام فنعس وجرى على لسانه هاتان الكلمتان فلما فرغ من السورة سجد وسجد كل من في المسجد وفرح المشركون بما سمعوه وأتاه جبريل عليه السلام فاستقرأه، فلما انتهى إلى الغرانيق قال لم آتك بهذا، فحزن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أن نزلت هذه الآية

وهذا ضعيف أيضا لوجوه: أحدها: أنه لو جاز هذا السهو لجاز في سائر المواضع وحينئذ تزول الثقة عن الشرع وثانيها: أن الساهي لا يجوز أن يقع منه مثل هذه الألفاظ المطابقة لوزن السورة وطريقتها ومعناها، فإنا نعلم بالضرورة أن واحدا لو أنشد قصيدة لما جاز أن يسهو حتى يتفق منه بيت شعر في وزنها ومعناها وطريقتها وثالثها: هب أنه تكلم/ بذلك سهوا، فكيف لم ينبه لذلك حين قرأها على جبريل عليه السلام وذلك ظاهر أما الوجه الثاني: وهو أنه عليه السلام تكلم بذلك قسرا وهو الذي قال قوم إن الشيطان أجبر النبي صلى الله عليه وسلم على أن يتكلم بهذا فهذا أيضا فاسد لوجوه: أحدها: أن الشيطان لو قدر على ذلك في حق النبي عليه السلام لكان اقتداره علينا أكثر فوجب أن يزيل الشيطان الناس عن الدين ولجاز في أكثر ما يتكلم به الواحد منا أن يكون ذلك بإجبار الشياطين وثانيها: أن الشيطان لو قدر على هذا الإجبار لارتفع الأمان عن الوحي لقيام هذا الاحتمال وثالثها: أنه باطل بدلالة قوله تعالى حاكيا عن الشيطان وما كان

لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم [إبراهيم: ٢٢] وقال تعالى: إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون إنما سلطانه على الذين يتولونه [النحل: ٩٩، ١٠٠] وقال: إلا عبادك منهم المخلصين [الحجر: ٤٠] ولا شك أنه عليه السلام كان سيد المخلصين أما الوجه الثالث: وهو أنه عليه السلام تكلم بذلك اختيارا فههنا وجهان:

أحدهما: أن نقول إن هذه الكلمة باطلة والثاني: أن نقول إنها ليست كلمة باطلة أما على الوجه الأول فذكروا فيه." (١)

"قوله تعالى: وليستعفف الذين لا يجدون نكاحا حتى يغنيهم الله من فضله اعلم أنه سبحانه لما ذكر تزويج الحرائر والإماء، ذكر حال من يعجز عن ذلك، فقال: وليستعفف أي وليجتهد في العفة، كأن المستعفف طالب من نفسه العفاف وحاملها عليه.

وأما قوله: لا يجدون نكاحا فالمعنى لا يتمكنون من الوصول إليه، يقال لا يجد المرء الشيء إذا لم يتمكن منه، قال الله تعالى: فمن لم يجد فصيام شهرين [النساء: ٩٢] والمراد به بالإجماع من لم يتمكن، ويقال في أحدنا هو غير واجد للماء وإن كان موجودا، إذا لم يمكنه أن يشتريه، ويجوز أن يراد بالنكاح ما ينكح به من المال، فبين سبحانه وتعالى أن من لا يتمكن من ذلك فليطلب التعفف، ولينتظر أن يغنيه الله من فضله، ثم يصل إلى بغيته من النكاح، فإن قيل أفليس ملك اليمين يقوم مقام نفس النكاح؟ قلنا لكن من لم يجد المهر والنفقة، فبأن لا يجد ثمن الجارية أولى والله أعلم.

الحكم التاسع في الكتابة

قوله تعالى: والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيرا، وآتوهم من مال الله الذي آتاكم. اعلم أنه تعالى لما بعث السيد على تزويج الصالحين من العبيد والإماء مع الرق، رغبهم في أن يكاتبوهم إذا طلبوا ذلك، ليصيروا أحرارا فيتصرفوا في أنفسهم كالأحرار، فقال: والذين يبتغون الكتاب وهاهنا مسائل:

المسألة الأولى: قوله: والذين يبتغون مرفوع على الابتداء، أو منصوب بفعل مضمر يفسره فكاتبوهم، كقولك زيدا فاضربه، ودخلت الفاء لتضمن معنى الشرط.

المسألة الثانية: الكتاب والكتابة **كالعتاب والعتابة**، وفي اشتقاق لفظ الكتابة وجوه: أحدها: أن أصل الكلمة من الكتب وهو الضم والجمع ومنه الكتيبة سميت بذلك لأنها تضم النجوم بعضها إلى بعض وتضم ماله إلى ماله وثانيها: يحتمل أن يكون اللفظ مأخوذا من الكتاب ومعناه كتبت لك على نفسي أن تعتق مني إذا وفيت بالمال، وكتبت لي على نفسك أن تفي لي بذلك، أو كتبت لي كتابا عليك بالوفاء بالمال وكتبت على العتق، وهذا ما ذكره الأزهري وثالثها: إنما سمي بذلك لما يقع فيه من التأجيل بالمال المعقود عليه، لأنه لا يجوز أن يقع على مال هو في يد العبد حين يكاتب، لأن ذلك مال لسيده اكتسبه في حال ما كانت يد السيد غير/ مقبوضة عن كسبه، فلا يجوز لهذا المعنى أن يقع هذا العقد حالا ولكنه يقع مؤجلا ليكون متمكنا من الاكتساب وغيره حين ما انقبضت يد السيد عنه، ثم من آداب الشريعة أن

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٣/٢٣٩

يكتب على من عليه المال المؤجل كتاب، فسمى لهذا المعنى هذا العقد كتاب لما يقع فيه من الأجل، قال تعالى: لكل أجل كتاب [الرعد: ٣٨] .

المسألة الثالثة: قال محيي السنة: الكتابة أن يقول لمملوكه كاتبتك على كذا ويسمي مالا معلوما يؤديه في نجمين أو أكثر، ويبين عدد النجوم وما يؤدي في كل نجم، ويقول إذا أديت ذلك المال فأنت حر، أو ينوي ذلك بقلبه ويقول العبد قبلت، وفي هذا الضبط أبحاث.." (١)

"المسألة الثانية: ظاهر قوله: وما يعبدون أنها الأصنام، وظاهر قوله: فيقول أأنتم أضللتم عبادي أنه من عبد من الأحياء كالملائكة والمسيح وغيرهما، لأن الإضلال وخلافه منهم يصح فلأجل هذا اختلفوا، فمن الناس من حمله على الأوثان، فإن قيل لهم الوثن جماد فكيف خاطبه الله تعالى، وكيف قدر على الجواب؟

فعند ذلك ذكروا وجهين: أحدهما: أن الله تعالى يخلق فيهم الحياة، فعند ذلك يخاطبهم فيردون الجواب وثانيها: أن يكون ذلك الكلام لا بالقول اللساني بل على سبيل لسان الحال كما ذكر بعضهم في تسبيح الموات وكلام الأيدي والأرجل، وكما قيل: سل الأرض من شق أنهارك، وغرس أشجارك؟ فإن لم تجبك حوارا، أجابتك اعتبارا! وأما الأكثرون فزعموا أن المراد هو الملائكة وعيسى وعزير عليهم السلام، قالوا ويتأكد هذا القول بقوله تعالى: ويوم يحشرهم جميعا ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون [سبأ: ٤٠] وإذا قيل لهم: لفظة (ما) لا تستعمل في العقلاء أجابوا عنه من وجهين: الأول: لا نسلم أن كلمة (ما) لما لا يعقل بدليل أنهم قالوا (من) لما لا يعقل والثاني: أريد به الوصف كأنه قيل (ومعبودهم) «١» ، وقوله تعالى: والسماء وما بناها [الشمس: ٥] ولا أنتم عابدون ما أعبد [الكافرون: ٣] لا يستقيم إلا على أحد هذين الوجهين، وكيف كان فالسؤال ساقط.

المسألة الثالثة: حاصل الكلام أن الله تعالى يحشر المعبودين، ثم يقول لهم أأنتم أوقعتم عبادي في الضلال عن طريق الحق، أم هم ضلوا عنه بأنفسهم؟ قالت المعتزلة: وفيه كسر بين لقول من يقول إن الله يضل عباده في الحقيقة لأنه لو كان الأمر كذلك لكان الجواب الصحيح أن يقولوا إلهنا هاهنا قسم ثالث غيرهما هو الحق وهو أنك أنت أضللتهم، فلما لم يقولوا ذلك بل نسبوا إضلالهم إلى أنفسهم، علمنا أن الله تعالى لا يضل أحدا من عباده. فإن قيل لا نسلم أن المعبودين ما تعرضوا لهذا القسم بل ذكروه، فإنهم قالوا: ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وهذا تصريح بأن ضلالهم إنما حصل لأجل ما فعل الله بهم وهو أنه سبحانه وتعالى متعهم وآباءهم بنعيم الدنيا. قلنا: لو كان الأمر كذلك لكان يلزمهم أن يصير الله محجوبا في يد أولئك المعبودين، ومعلوم أنه ليس الغرض ذلك بل الغرض أن يصير الكافر محجوجا مفحما ملزما هذا تمام تقرير المعتزلة في الآية، أجاب أصحابنا بأن القدرة على الضلال إن لم تصلح للاهتداء فالإضلال من الله تعالى، وإن صحلت له لم تترجح مصدريتها للإضلال على مصدريتها للاهتداء إلا لمرجح من الله تعالى، وعند/ لذلك يعود السؤال، وأما ظاهر هذه الآية فهو وإن كان لهم لكنه معارض بسائر الظواهر المطابقة لقولنا.

المسألة الرابعة: ظاهر الآية يدل على أن هذا السؤال من الله تعالى وإن احتمل أن يكون ذلك من الملائكة بأمر الله

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٣٧٢/٢٣

تعالى. بقي على الآية سؤالات.

الأول: ما فائدة أنتم وهم؟ وهلا قيل أأضللتم عبادي هؤلاء أم ضلوا السبيل؟ الجواب: ليس السؤال عن الفعل ووجوده، لأنه لولا وجوده لما توجه هذا **العتاب**، وإنما هو عن فاعله فلا بد من ذكره وإيلائه حرف الاستفهام حتى يعلم أنه المسؤول عنه.

السؤال الثاني: أنه سبحانه كان عالما في الأزل بحال المسؤول عنه فما فائدة هذا السؤال؟ الجواب: هذا

---

(١) في الكشاف (ومعبوديهم) ٣/ ٨٤ ط. دار الفكر.." (١)

"على علم عندي

أي الله أعطاني ذلك مع كونه عالما بي وبأحوالي فلو لم يكن ذلك مصلحة لما فعل وقوله:

عندي أي عندي أن الأمر كذلك، كما يقول المفتي عندي أن الأمر كذلك أي مذهبي واعتقادي ذلك، ثم أجاب الله تعالى عن كلامه بقوله: أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا وفيه وجهان: الأول: يجوز أن يكون هذا إثباتا لعلمه بأن الله تعالى قد أهلك قبله من القرون من هو أقوى منه وأغنى لأنه قد قرأه في التوراة وأخبر به موسى عليه السلام وسمعه من حفاظ التواريخ كأنه قيل له: أو لم يعلم في جملة ما عنده من العلم هذا حتى لا يغتر بكثرة ماله وقوته: الثاني: يجوز أن يكون نفيا لعلمه بذلك كأنه لما قال أوتيته على علم عندي فتصلف بالعلم وتعظم به، قيل أعنده مثل ذلك العلم الذي ادعاه، ورأى نفسه به مستوجبة لكل نعمة، ولم يعلم هذا العلم النافع حتى يقي به نفسه مصارع الهالكين؟

أما قوله: وأكثر جمعا فالمعنى أكثر جمعا للمال أو أكثر جماعة وعددا، وحاصل الجواب أن اغتراره بماله وقوته وجموعه من الخطأ العظيم، وأنه تعالى إذا أراد إهلاكه لم ينفعه ذلك ولا ما يزيد عليه أضعافا.

فأما قوله: ولا يسئل عن ذنوبهم المجرمون فالمراد أن الله تعالى إذا عاقب المجرمين فلا حاجة به إلى أن يسألهم عن كيفية ذنوبهم وكميتها، لأنه تعالى عالم بكل المعلومات فلا حاجة به إلى السؤال، فإن قيل كيف الجمع بينه وبين قوله: فو ربك لنسئلنهم أجمعين [الحجر: ٩٢] قلنا يحمل ذلك على وقتين على ما قررناه، وذكر أبو مسلم وجها آخر فقال: السؤال قد يكون للمحاسبة، وقد يكون للتقرير والتبكيت، وقد يكون **للاستعتاب**، وأليق الوجوه بهذه الآية **الاستعتاب** لقوله: ثم لا يؤذن للذين كفروا ولا هم يستعتبون [النحل:

٨٤] هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون [المرسلات: ٣٥، ٣٦] .

[سورة القصص (٢٨) : الآيات ٧٩ الى ٨١]

فخرج على قومه في زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظ عظيم (٧٩) وقال

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٤/٤٤٢

الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ولا يلقاها إلا الصابرون (٨٠) فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين (٨١)
أما قوله: فخرج على قومه في زينته فيدل على أنه خرج بأظهر زينة وأكملها وليس في القرآن إلا هذا القدر، إلا أن الناس ذكروا وجوها مختلفة في كيفية تلك الزينة، قال مقاتل خرج على بغلة شهباء عليها سرج من ذهب ومعه أربعة آلاف فارس على الخيول وعليها الثياب الأرجوانية ومعه ثلاثمائة جارية بيض عليهن الحلي والثياب الحمر على البغال الشهب، وقال بعضهم: بل خرج في تسعين ألفا هكذا، وقال آخرون بل على ثلاثمائة. والأولى ترك هذه التقريرات لأنها متعارضة، ثم إن الناس لما رأوه على تلك الزينة قال من كا ن منهم يرغب في الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون من هذه الأمور والأموال، والراغبون يحتمل أن يكونوا من الكفار وأن يكونوا من المسلمين الذين يحبون الدنيا، وأما العلماء وأهل الدين فقالوا للذين تمنوا هذا ويلكم ثواب الله خير من هذه النعم، لأن للثواب منافع عظيمة وخالصة عن شوائب المضار ودائمة، وهذه النعم العاجلة." (١)

"قيل ما لبثوا في الدنيا غير ساعة. وقيل ما لبثوا في القبور، وقيل ما لبثوا من وقت فناء الدنيا إلى وقت النشور كذلك كانوا يؤفكون يصرفون من الحق إلى الباطل ومن الصدق إلى الكذب.

[سورة الروم (٣٠) : آية ٥٦]
وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون (٥٦)
قوله: وقال الذين أوتوا العلم والإيمان من الملائكة وغيرهم لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث ونحن نبين ما هو المعنى اللطيف في هاتين الآيتين، فنقول الموعود بوعد إذا ضرب له أجل يستكثر الأجل ويريد تعجيله، والموعد بوعيد إذا ضرب له أجل يستقل المدة ويريد تأخيرها، لكن المجرم إذا حشر علم أن مصيره إلى النار فيستقل مدة اللبث ويختار تأخير الحشر والإبقاء في القبر، والمؤمن إذا حشر علم أن مصيره إلى الجنة فيستكثر المدة ولا يريد التأخير فيختلف الفريقان ويقول أحدهما إن مدة لبثنا قليل وإليه الإشارة بقوله: يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة ويقول الآخر لبثنا مديدا وإليه الإشارة بقوله تعالى: وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث يعني كان في كاتب الله ضرب الأجل إلى يوم البعث ونحن صبرنا إلى يوم البعث فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون يعني طلبكم التأخير، لأنكم كنتم لا تعلمون البعث ولا تعترفون به، فصار مصيركم إلى النار فتطلبون التأخير. ثم قال تعالى:

[سورة الروم (٣٠) : آية ٥٧]
فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم ولا هم يستعتبون (٥٧)
أي لا يطلب منهم **الإعتاب** وهو إزالة العتب يعني التوبة التي تزيل آثار الجريمة لا تطلب منهم لأنها لا تقبل منهم. ثم

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١٦/٢٥

قال تعالى:

[سورة الروم (٣٠) : الآيات ٥٨ الى ٦٠]
ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل ولئن جئتهم بآية ليقولن الذين كفروا إن أنتم إلا مبطلون (٥٨) كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون (٥٩) فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون (٦٠)

قوله تعالى: ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل إشارة إلى إزالة الأعذار والإتيان بما فوق الكفاية من الإنذار، وإلى أنه لم يبق من جانب الرسول تقصير، فإن طلبوا شيئا آخر فذلك عناد ومن هان عليه تكذيب دليل لا يصعب عليه تكذيب الدلائل، بل لا يجوز للمستدل أن يشرع في دليل/ آخر بعد ما ذكر دليلا جيدا مستقيما ظاهرا لا غبار عليه وعانده الخصم، لأنه إما أن يعترف بورود سؤال الخصم عليه أو لا يعترف، فإن اعترف يكون انقطاعا وهو يقدح في الدليل أو المستدل، إما بأن الدليل فاسد، وإما بأن المستدل جاهل بوجه الدلالة والاستدلال، وكلاهما لا يجوز الاعتراف به من العالم فكيف من النبي عليه الصلاة والسلام، وإن لم يعترف يكون الشروع في غيره موهما أن الخصم ليس معاندا فيكون اجتراؤه على العناد في الثاني أكثر لأنه يقول العناد أفاد في الأول حيث التزم ذكر دليل آخر. فإن قيل فالأنبياء عليهم السلام ذكروا أنواعا من الدلائل، نقول." (١)

"به لقوله: لا يكلف الله نفسا إلا وسعها [البقرة: ٢٨٦] وأما من حيث النقل فلقوله عليه الصلاة والسلام «رفع القلم عن ثلاث» ، فلما عوتب عليه دل على أن ذلك لم يكن على سبيل النسيان. لأنا نقول: أما الجواب عن الأول فهو أنا لا نسلم أن آدم وحواء قبلا من إبليس ذلك الكلام ولا صدقاه فيه، لأنهما لو صدقاه لكانت معصيتهما في هذا التصديق أعظم من أكل الشجرة، لأن إبليس لما قال لهما: ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين. فقد ألقى إليهما سوء الظن بالله ودعاهما إلى ترك التسليم لأمره والرضا بحكمه وإلى أن يعتقدا فيه كون إبليس ناصحا لهما وأن الرب تعالى قد غشهما ولا شك أن هذه الأشياء أعظم من أكل الشجرة، فوجب أن تكون المعاتبة في ذلك أشد وأيضا كان آدم عليه السلام عالما بتمرد إبليس عن السجود وكونه مبغضا له وحاسدا له على ما آتاه الله من النعم، فكيف يجوز من العاقل أن يقبل قول عدوه مع هذه القرائن وليس في الآية أنهما أقدما على ذلك الفعل عند ذلك الكلام أو بعده، ويدل على أن آدم كان عالما بعداوته لقوله تعالى: إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى [طه: ١١٧] . وأما ما روي عن ابن عباس فهو أثر مروي بالآحاد، فكيف يعارض القرآن؟ وأما الجواب عن الثاني: فهو أن **العتاب** إنما حصل على ترك/ التحفظ من أسباب النسيان، وهذا الضرب من السهو موضوع عن المسلمين وقد كان يجوز أن يؤاخذوا به، وليس بموضوع عن الأنبياء لعظم خطرهم ومثلوه بقوله تعالى: يا نساء النبي لستن كأحد من النساء [الأحزاب: ٣٢] ، ثم قال: من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين [الأحزاب: ٣٠] .

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١١٢/٢٥

وقال عليه الصلاة والسلام: «أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأولياء ثم الأمثل فالأمثل» .

وقال أيضا: «إني أوعك كما يوعك الرجلان منكم» ،

فإن قيل كيف يجوز أن يؤثر عظم حالهم وعلو منزلتهم في حصول شرط في تكليفهم دون تكليف غيرهم؟ قلنا أما سمعت: «حسنات الأبرار سيئات المقربين» ، ولقد كان على النبي صلى الله عليه وسلم من التشديدات في التكليف ما لم يكن على غيره. فهذا في تقرير أنه صدر ذلك عن آدم عليه السلام على جهة السهو والنسيان. ورأيت في بعض التفاسير أن حواء سقته الخمر حتى سكر ثم في أثناء السكر فعل ذلك. قالوا: وهذا ليس ببعيد لأنه عليه السلام كان مأذونا له في تناول كل الأشياء سوى تلك الشجرة، فإذا حملنا الشجرة على البر، كان مأذونا في تناول الخمر، ولقائل أن يقول: إن خمر الجنة لا يسكر، لقوله تعالى في صفة خمر الجنة: لا فيها غول [الصافات: ٤٧] . أما القول الثاني: وهو أنه عليه السلام فعله عامدا فههنا أربعة أقوال: أحدها: أن ذلك النهي كان نهي تنزيه لا نهي تحريم، وقد تقدم الكلام في هذا القول وعلته.

الثاني: أنه كان ذلك عمدا من آدم عليه السلام وكان ذلك كبيرة مع أن آدم عليه السلام كان في ذلك الوقت نبيا، وقد عرفت فساد هذا القول. الثالث: أنه عليه السلام فعله عمدا، لكن كان معه من الوجل والفزع والإشفاق ما صير ذلك في حكم الصغيرة، وهذا القول أيضا باطل بالدلائل المتقدمة لأن المقدم على ترك الواجب أو فعل المنهي عمدا وإن فعله مع الخوف إلا أنه يكون مع ذلك عاصيا مستحقا للعن والذم والخلود في النار، ولا يصح وصف الأنبياء عليهم السلام بذلك، ولأنه تعالى وصفه بالنسيان في قوله: فنسي ولم نجد له عزما [طه: ١١٥] ، وذلك ينافي العمدية. القول الرابع: وهو اختيار أكثر المعتزلة: أنه عليه السلام أقدم على الأكل بسبب اجتهاد أخطأ فيه، وذلك لا يقتضي كون الذنب كبيرة، بيان الاجتهاد الخطأ أنه لما قيل له: ولا تقربا هذه الشجرة فلفظ هذه قد يشار به إلى الشخص، وقد يشار به إلى النوع، وروي أنه عليه السلام أخذ حريرا وذهبا بيده وقال: «هذان حل لإناث أمتي حرام على ذكورهم» ،

وأراد به نوعهما،

وروي أنه عليه الصلاة." (١)

"والسلام توضأ مرة مرة وقال: «هذا وضوء لا يقبل الله الصلاة إلا به»

وأراد نوعه، فلما سمع آدم عليه السلام قوله تعالى: ولا تقربا هذه الشجرة [البقرة: ٣٥] [الأعراف: ١٩] ظن أن النهي إنما يتناول تلك الشجرة المعينة، فتركها وتناول من شجرة أخرى من ذلك النوع، إلا أنه كان مخطئا في ذلك الاجتهاد لأن مراد الله تعالى من كلمة هذه كان النوع لا الشخص والاجتهاد في الفروع، إذا كان خطأ لا يوجب استحقاق العقاب واللعن لاحتمال كونه صغيرة مغفورة كما في شرعنا، فإن قيل: الكلام على هذا القول من وجوه: أحدها: أن كلمة هذا في أصل اللغة للإشارة إلى الشيء الحاضر. والشيء الحاضر لا يكون إلا شيئا معينا، فكلمة هذا في أصل اللغة للإشارة إلى الشيء/ المعين فأما أن يراد بها الإشارة إلى النوع، فذاك على خلاف الأصل، وأيضا فلأنه تعالى لا تجوز الإشارة عليه

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٤٦٠/٣

فوجب أن يكون أمر بعض الملائكة بالإشارة إلى ذلك الشخص، فكان ما عداه خارجا عن النهي لا محالة، إذا ثبت هذا فنقول: المجتهد مكلف بحمل اللفظ على حقيقته، فآدم عليه السلام لما حمل لفظ هذا على المعين كان قد فعل الواجب ولا يجوز له حمله على النوع، واعلم أن هذا الكلام متأيد بأمرين آخرين. أحدهما: أن قوله: وكلا منها رغدا حيث شئتما [البقرة: ٣٥] أفاد الإذن في تناول كل ما في الجنة إلا ما خصه الدليل. والثاني: أن العقل يقتضي حل الانتفاع بجميع المنافع إلا ما خصه الدليل، والدليل المخصص لم يدل إلا على ذلك المعين، فثبت أن آدم عليه السلام كان مأذونا له في الانتفاع بسائر الأشجار، وإذا ثبت هذا امتنع أن يستحق بسبب هذا **عتابا** وأن يحكم عليه بكونه مخطئا فثبت أن حمل القصة على هذا الوجه، يوجب أن يحكم عليه بأنه كان مصيبا لا مخطئا، وإذا كان كذلك ثبت فساد هذا التأويل. الوجه الثاني: في الاعتراض على هذا التأويل. هب أن لفظ هذا متردد بين الشخص والنوع، ولكن هل قرن الله تعالى بهذا اللفظ ما يدل على أن المراد منه النوع دون الشخص أو ما فعل ذلك؟ فإن كان الأول فإما أن يقال إن آدم عليه السلام قصر في معرفة ذلك البيان، فحينئذ يكون قد أتى بالذنب، وإن لم يقصر في معرفته بل عرفه فقد عرف حينئذ أن المراد هو النوع، فإقدامه على التناول من شجرة من ذلك النوع يكون إقداما على الذنب قصدا.

الوجه الثالث: أن الأنبياء عليهم السلام لا يجوز لهم الاجتهاد لأن الاجتهاد إقدام على العمل بالظن، وذلك إنما يجوز في حق من لا يتمكن من تحصيل العلم، أما الأنبياء فإنهم قادرون على تحصيل اليقين، فوجب أن لا يجوز لهم الاجتهاد لأن الاكتفاء بالظن مع القدرة على تحصيل اليقين غير جائز عقلا وشرعا، وإذا ثبت ذلك ثبت أن الإقدام على الاجتهاد معصية. الوجه الرابع: هذه المسألة إما أن تكون من المسائل القطعية أو الظنية، فإن كانت من القطعيات كان الخطأ فيها كبيرا وحينئذ يعود الإشكال، وإن كانت من الظنيات فإن قلنا إن كل مجتهد مصيب فلا يتحقق الخطأ فيها أصلا، وإن قلنا المصيب فيها واحد والمخطئ فيها معذور بالاتفاق فكيف صار هذا القدر من الخطأ سببا لأن نزع عن آدم عليه السلام لباسه وأخرج من الجنة وأهبط إلى الأرض؟

والجواب عن الأول: أن لفظ هذا وإن كان في الأصل للإشارة إلى الشخص لكنه قد يستعمل في الإشارة إلى النوع كما تقدم بيانه، وأنه سبحانه وتعالى كان قد قرن به ما دل على أن المراد هو النوع. والجواب عن الثاني:

هو أن آدم عليه السلام لعله قصر في معرفة ذلك الدليل لأنه ظن أنه لا يلزمه ذلك في الحال، أو يقال: إنه عرف ذلك لا دليل في وقت ما نهاه الله تعالى عن عين الشجرة، فلما طالت المدة غفل عنه لأن

في الخبر أن آدم عليه السلام بقي في الجنة الدهر الطويل ثم أخرج.

والجواب عن الثالث: أنه لا حاجة هاهنا إلى إثبات أن الأنبياء عليهم السلام تمسكوا بالاجتهاد، فإنا بينا أنه عليه السلام قصر في معرفة تلك الدلالة أو أنه كان قد عرفها/ لكنه." (١)

"البحث الأول: لم تحرم ما أحل الله لك يوهم أن هذا الخطاب بطريق **العتاب** وخطاب الوصف، وهو النبي ينافي ذلك لما فيه من التشريف والتعظيم فكيف هو؟ نقول: الظاهر أن هذا الخطاب ليس بطريق **العتاب** بل بطريق التنبيه على

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٤٦١/٣

أن ما صدر منه لم يكن كما ينبغي.
البحث الثاني: تحريم ما أحل الله تعالى غير ممكن، لما أن الإحلال ترجيح جانب الحل والتحريم ترجيح جانب الحرمة، ولا مجال للاجتماع بين الترجيحين فكيف يقال: لم تحرم ما أحل الله؟ نقول: المراد من هذا التحريم هو الامتناع عن الانتفاع بالأزواج لا اعتقاد كونه حراما بعد ما أحل الله تعالى فالنبي صلى الله عليه وسلم امتنع عن الانتفاع معها مع اعتقاده بكونه حلالا ومن اعتقد أن هذا التحريم هو تحريم ما أحله الله تعالى بعينه فقد كفر فكيف يضاف إلى الرسول صلى الله عليه وسلم مثل هذا.
البحث الثالث: إذا قيل: ما حكم تحريم الحلال؟ نقول: اختلفت الأئمة فيه فأبو حنيفة يراه يمينا في كل شيء، ويعتبر الانتفاع المقصود فيما يحرمه فإذا حرم طعاما فقد حلف على أكله أو أمة فعلى وطئها أو زوجة فعلى الإيلاء منها إذا لم يكن له نية وإن نوى الظهار فظهار، وإن نوى الطلاق فطلاق بائن وكذلك إن نوى اثنتين، وإن نوى ثلاثا فكما نوى، فإن قال: نويت الكذب دين فيما بنيه وبين ربه ولا يدين في القضاء بإبطال الإيلاء، وإن قال: كل حلال عليه حرام فعلى الطعام والشراب إذا لم ينو وإلا فعلى ما نوى ولا يراه الشافعي يمينا، ولكن سببا (في الكفارة) «١» في النساء وحدهن، وإن نوى الطلاق فهو رجعي عنده، وأما اختلاف الصحابة فيه فكما هو في «الكشاف» ، فلا حاجة بنا إلى ذكر ذلك.
ثم قال تعالى:

[سورة التحريم (٦٦) : الآيات ٢ الى ٣]
قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم والله مولاكم وهو العليم الحكيم (٢) وإذ أسر النبي إلى بعض أزواجه حديثا فلما نبأت به وأظهره الله عليه عرف بعضه وأعرض عن بعض فلما نبأها به قالت من أنبأك هذا قال نبأني العليم الخبير (٣)
قد فرض الله لكم. قال مقاتل: قد بين الله، كما في قوله تعالى: سورة أنزلناها وفرضناها [النور: ١] وقال الباقون: قد أوجب، قال صاحب «النظم» : إذا وصل بعلى لم يحتمل غير الإيجاب كما في قوله تعالى: قد علمنا ما فرضنا عليهم [الأحزاب: ٥٠] وإذا وصل باللام احتمل الوجهين، وقوله تعالى:
تحلة أيمانكم أي تحليلها بالكفارة وتحلة على وزن تفعلة وأصله تحللة وتحلة القسم على وجهين أحدهما:
تحليله بالكفارة كالذي في هذه الآية وثانيهما: أن يستعمل بمعنى الشيء القليل، وهذا هو الأكثر كما
روي في الحديث: «لن يلج النار إلا تحلة القسم»
يعني زمانا يسيرا، وقرئ (كفارة أيمانكم) ، ونقل جماعة من المفسرين أن النبي صلى الله عليه وسلم حلف أن لا يطأ جاريته فذكر الله له ما أوجب من كفارة اليمين، روى سعيد بن جبير عن ابن عباس أن الحرام يمين، يعني إذا قال: أنت علي حرام ولم ينو طلاقا ولا ظهارا كان هذا اللفظ موجبا لكفارة يمين والله مولاكم، أي وليكم وناصركم وهو العليم بخلقه الحكيم فيما فرض من حكمه، وقوله تعالى: وإذ أسر النبي إلى بعض أزواجه حديثا يعني ما أسر إلى حفصة من تحريم الجارية على نفسه واستكتمها ذلك وقيل لما رأى النبي صلى الله عليه وسلم الغيرة في وجه حفصة أراد أن يترضاها فأسر إليها بشيئين تحريم الأمة على نفسه والبشارة بأن

(١) ما بين الهلالين زيادة من الكشاف (٤/ ١٢٦ ط. دار الفكر) .." (١)

"الخلافة بعده في أبي بكر وأبيها عمر، قاله ابن عباس وقوله: فلما نبأت به أي أخبرت به عائشة وأظهره الله عليه أطلع نبيه على قول حفصة لعائشة فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم حفصة عند ذلك ببعض ما قالت وهو قوله تعالى: عرف بعضه حفصة: وأعرض عن بعض لم يخبرها أنك أخبرت عائشة على وجه التكرم والإغضاء، والذي أعرض عنه ذكر خلافة أبي بكر وعمر، وقرئ (عرف) مخففا أي جازى عليه من قولك للمسيء لأعرفن لك ذلك وقد عرفت ما صنعت قال تعالى: أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم [النساء: ٦٣] أي يجازيهم وهو يعلم ما في قلوب الخلق أجمعين وقوله تعالى: فلما نبأها به قالت حفصة: من أنبأك هذا قال نبأني العليم الخبير وصفه بكونه خبيرا بعد ما وصفه بكونه عليما لما أن في الخبير من المبالغة ما ليس في العليم، وفي الآية مباحث:

البحث الأول: كيف يناسب قوله: قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم إلى قوله لم تحرم ما أحل الله لك [التحريم: ١] ؟ نقول: يناسبه لما كان تحريم المرأة يمينا حتى إذا قال لامرأته: أنت علي حرام فهو يمين ويصير موليا بذكره من بعد ويكفر.

البحث الثاني: ظاهر قوله تعالى: قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم أنه كانت منه يمين/ فهل كفر النبي عليه الصلاة والسلام لذلك؟ نقول: عن الحسن أنه لم يكفر لأنه كان مغفورا له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وإنما هو تعليم للمؤمنين، وعن مقاتل أنه أعتق رقبة في تحريم مارية. ثم قال تعالى:

[سورة التحريم (٦٦) : الآيات ٤ الى ٥]

إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير (٤) عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وأبكارا (٥)

قوله: إن تتوبا إلى الله خطاب لعائشة وحفصة على طريقة الالتفات ليكون أبلغ في معاتبتهما والتوبة من التعاون على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالإيذاء فقد صغت قلوبكما أي عدلت ومالت عن الحق، وهو حق الرسول عليه الصلاة والسلام، وذلك حق عظيم يوجد فيه استحقاق **العتاب** بأدنى تقصير وجواب الشرط محذوف للعلم به على تقدير: كان خيرا لكما، والمراد بالجمع في قوله تعالى: قلوبكما التثنية، قال الفراء:

وإنما اختير الجمع على التثنية لأن أكثر ما يكون عليه الجوارح اثنان اثنان في الإنسان كاليدين والرجلين والعينين، فلما جرى أكثره على ذلك ذهب الواحد منه إذا أضيف إلى اثنين مذهب الاثنين، وقد مر هذا، وقوله تعالى: وإن تظاهرا عليه أي وإن تعاونا على النبي صلى الله عليه وسلم بالإيذاء فإن الله هو مولاه أي لم يضره ذلك التظاهر منكما ومولاه أي

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٥٦٩/٣٠

وليه وناصره وجبريل رأس الكروبيين، قرن ذكره بذكره مفردا له من الملائكة تعظيما له وإظهار لمكانته (عنده) «١» وصالح المؤمنين. قال ابن عباس: يريد أبا بكر وعمر موالِيين النبي صلى الله عليه وسلم على من عاداه، وناصرين له، وهو قول المقاتلين، وقال الضحاك خيار المؤمنين، وقيل من صلح من المؤمنين، أي كل من آمن وعمل صالحا، وقيل: من برىء منهم من النفاق، وقيل: الأنبياء كلهم، وقيل: الخلفاء وقيل:

---

(١) ما بين الهلالين زيادة من الكشاف (٤/ ١٢٧ ط. دار الفكر) .." (١)

"السؤال الثاني: أنه تعالى لما عاتبه على مجرد أنه عبس في وجهه، كان تعظيما عظيما من الله سبحانه لابن أم مكتوم، وإذا كان كذلك فكيف يليق بمثل هذا التعظيم أن يذكره باسم الأعمى مع أن ذكر الإنسان بهذا الوصف يقتضي تحقير شأنه جدا؟.

السؤال الثالث: الظاهر أنه عليه الصلاة والسلام كان مأذونا في أن يعامل أصحابه على حسب ما يراه مصلحة، وأنه عليه الصلاة والسلام كثيرا ما كان يؤدب أصحابه ويزجرهم عن أشياء، وكيف لا يكون كذلك وهو عليه الصلاة والسلام إنما بعث ليؤدبهم وليعلمهم محاسن الآداب، وإذا كان كذلك كان ذلك التعبيس داخلا في إذن الله تعالى إياه في تأديب أصحابه، وإذا كان ذلك مأذونا فيه، فكيف وقعت المعاتبة عليه؟ فهذا جملة ما يتعلق بهذا الموضع من الإشكالات والجواب عن السؤال الأول من وجهين الأول: أن الأمر وإن كان على ما ذكرتم إلا أن ظاهر الواقعة يوهم تقديم الأغنياء على الفقراء وانكسار قلوب الفقراء، فلهذا السبب حصلت المعاتبة، ونظيره قوله تعالى: ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي [الأنعام: ٥٢] ، والوجه الثاني:

لعل هذا **العتاب** لم يقع على ما صدر من الرسول عليه الصلاة والسلام من الفعل الظاهر، بل على ما كان منه في قلبه، وهو أن قلبه عليه الصلاة والسلام كان قد مال إليهم بسبب قرابتهم وشرفهم وعلو منصبهم، وكان ينفر طبعه عن الأعمى بسبب عماه وعدم قرابته وقلة شرفه، فلما وقع التعبيس والتولي لهذه الداعية وقعت المعاتبة، لا على التأديب بل على التأديب لأجل هذه الداعية والجواب عن السؤال الثاني أن ذكره بلفظ الأعمى ليس لتحقير شأنه، بل كأنه قيل: إنه بسبب عماه استحق مزيد الرفق والرأفة، فكيف يليق بك يا محمد أن تخصه بالغلظة والجواب عن السؤال الثالث أنه كان مأذونا في تأديب أصحابه لكن هاهنا لما أوهم تقديم الأغنياء على الفقراء، وكان ذلك مما يوهم ترجيح الدنيا على الدين، فلهذا السبب جاءت هذه المعاتبة.

المسألة الثانية: القائلون بصدور الذنب عن الأنبياء عليهم السلام تمسكوا بهذه الآية وقالوا: لما عاتبه الله في ذلك الفعل، دل على أن ذلك الفعل كان معصية، وهذا بعيد فإنا قد بينا أن ذلك كان هو الواجب المتعين لا بحسب هذا الاعتبار الواحد، وهو أنه يوهم تقديم الأغنياء على الفقراء، وذلك غير لائق بصلابة الرسول عليه الصلاة والسلام، وإذا كان كذلك، كان ذلك جاريا مجرى ترك الاحتياط، وترك الأفضل، فلم يكن ذلك ذنبا البتة.

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٣٠/٥٧٠

المسألة الثالثة: أجمع المفسرون على أن الذي عبس وتولى، هو الرسول عليه الصلاة والسلام، وأجمعوا [على] أن الأعمى هو ابن أم مكتوم، وقرئ عبس بالتشديد للمبالغة ونحوه كلح في/ كلح، أن جاءه منصوب بتولى أو بعبس على اختلاف المذهبين في إعمال الأقرب أو الأبعد ومعناه عبس، لأن جاءه الأعمى، وأعرض لذلك، وقرئ أن جاءه بهمزتين، وبألف بينهما وقف على عبس وتولى ثم ابتدأ على معنى ألأن جاءه الأعمى، والمراد منه الإنكار عليه، واعلم أن في الإخبار عما فرط من رسول الله ثم الإقبال عليه بالخطاب دليل على زيادة الإنكار، كمن يشكو إلى الناس جانيا جنى عليه، ثم يقبل على الجاني إذا حمي في الشكاية مواجها بالتوبيخ وإلزام الحجة.

[سورة عبس (٨٠) : الآيات ٣ الى ٤]

وما يدريك لعله يزكى (٣) أو يذكر فتنفعه الذكرى (٤)." (١)

"بسبب جهلهم، وأنت صاحب العلم، فهداهم على يدك، وهاهنا سؤالات.

السؤال الأول: ما الحكمة في أنه تعالى اختار له اليتم؟ قلنا فيه وجوه أحدها: أن يعرف قدر اليتامى فيقوم بحقهم وصلاح أمرهم، ومن ذلك كان يوسف عليه السلام لا يشبع. فقيل له في ذلك: فقال أخاف إن أشبع فأنسى الجياع وثانيها: ليكون اليتيم مشاركا له في الاسم فيكرم لأجل ذلك، ومن ذلك

قال عليه السلام: «إذا سميتم الولد محمدا فأكرموه، ووسعوا له في المجلس»

وثالثها: أن من كان له أب أو أم كان اعتماده عليهما، فسلب عنه الولدان حتى لا يعتمد من أول صباه إلى آخر عمره على أحد سوى الله، فيصير في طفوليته متشبها بإبراهيم عليه السلام في قوله: حسبي من سؤالي، علمه بحالي، وكجواب مريم: أنى لك هذا قالت هو من عند الله [آل عمران: ٣٧] . ورابعها: أن العادة جارية بأن اليتيم لا تخفى عيوبه بل تظهر، وربما زادوا على الموجود فاختار تعالى له اليتيم، ليتأمل كل أحد في أحواله، ثم لا يجدوا عليه عيبا فيتفقون على نزاهته، فإذا اختاره الله للرسالة لم يجدوا عليه مطعنا وخامسها: جعله يتيما ليعلم كل أحد أن فضيلته من الله ابتداء لأن الذي له أب، فإن أباه يسعى في تعليمه وتأديبه وسادسها: أن اليتم والفقر نقص في حق/ الخلق، فلما صار محمد عليه الصلاة والسلام، مع هذين الوصفين أكرم الخلق، كان ذلك قلبا للعادة، فكان من جنس المعجزات.

السؤال الثاني: ما الحكمة في أن الله ذكر هذه الأشياء؟ الجواب: الحكمة أن لا ينسى نفسه فيقع في العجب.

السؤال الثالث:

روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «سألت ربي مسألة وددت أني لم أسألها، قلت: اتخذت إبراهيم خليلا، وكلمت موسى تكليما، وسخرت مع داود الجبال، وأعطيت سليمان كذا وكذا، وأعطيت فلانا كذا وكذا، فقال: ألم أجدك يتيما فآويتك؟ ألم أجدك ضالا فهديتك؟ ألم أجدك عائلا فأغنيتك؟ قلت: بلى.

فقال: ألم أشرح لك صدرك؟ قلت: بلى، قال: ألم أرفع لك ذكرك؟ قلت: بلى! قال: ألم أصرف عنك وزرك؟

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٥٣/٣١

قلت: بلى، ألم أوتك ما لم أوت نبيا قبلك وهي خواتيم سورة البقرة؟ أم أتخذك خليلا كما اتخذت إبراهيم خليلا؟»
فهل يصح هذا الحديث قلنا: طعن القاضي في هذا الخبر فقال: إن الأنبياء عليهم السلام لا يسألون مثل ذلك إلا عن إذن، فكيف يصح أن يقع من الرسول مثل هذا السؤال. ويكون منه تعالى ما يجري مجرى المعاتبة.

[سورة الضحى (٩٣) : آية ٩]

فأما اليتيم فلا تقهر (٩)

وقرئ فلا تكهر، أي لا تعبس وجهك إليه، والمعنى عامله بمثل ما عاملتك به، ونظيره من وجه:

وأحسن كما أحسن الله إليك [القصص: ٧٧] ومنه

قوله عليه السلام: «الله الله فيمن ليس له إلا الله»

وروي: أنها نزلت حين صاح النبي صلى الله عليه وسلم على ولد خديجة

ومنه

حديث موسى عليه السلام حين: «قال: إلهي بم نلت ما نلت؟ قال: أتذكر حين هربت منك السخلة، فلما قدرت عليها قلت: أتعبت نفسك ثم حملتها، فلهذا السبب جعلتك وليا على الخلق،

فلما نال موسى عليه السلام النبوة بالإحسان إلى الشاة فكيف بالإحسان إلى اليتيم، وإذا كان هذا **العتاب** بمجرد الصياح أو العبوسية في الوجه، فكيف إذا أذله أو أكل ماله،

عن أنس عن النبي عليه الصلاة والسلام: «إذا بكى اليتيم وقعت دموعه في كف الرحمن، ويقول تعالى: من أبكى هذا اليتيم الذي واريت والده التراب، من أسكته فله الجنة» .

ثم قال تعالى:

[سورة الضحى (٩٣) : آية ١٠]

وأما السائل فلا تنهر (١٠)." (١)

"أيضا هكذا كنت تفعل فإنهم لما كسروا سنك قلت: «اللهم اهد قومي» ولما شغلوك يوم الخندق عن الصلاة قلت: «اللهم املأ بطونهم نارا» فههنا أيضا قدم حقي على حق نفسك وسواء كنت خائفا منهم، أو لست خائفا منهم فأظهر إنكار قولهم وقل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون الثالث والعشرون: كأنه تعالى يقول: قصة امرأة زيد واقعة حقيرة بالنسبة إلى هذه الواقعة، ثم إنني هناك ما رضيت منك أن تضمر في قلبك شيئا ولا تظهره بلسانك، بل قلت لك على سبيل **العتاب**: وتخفي في نفسك ما الله مبديه، وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه [الأحزاب: ٣٧] فإذا كنت لم أرض منك في تلك الواقعة الحقيرة إلا بالإظهار، وترك المبالاة بأقوال الناس فكيف أرضى منك في هذه المسألة،

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٠٠/٣١

وهي أعظم المسائل خطرا بالسكوت، قل بصريح لسانك يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون الرابع والعشرون: يا محمد ألست قلت لك: ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيرا [الفرقان: ٥١] ثم إني مع هذه القدرة راعيت جانبك وطيبت قلبك وناديت في العالمين بأني لا أجعل الرسالة مشتركة بينه وبين غيره، بل الرسالة له لا لغيره حيث قلت: ولكن رسول الله وخاتم النبيين [الأحزاب: ٤٠] / فأنت مع علمك بأنه يستحيل عقلا أن يشاركني غيري في المعبودية أولى أن تنادي في العالمين بنفي هذه الشركة. فقل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون الخامس والعشرون: كأنه تعالى يقول: القوم جاؤك وأطمعوك في متابعتهم لك ومتابعتك لدينهم فسكت عن الإنكار والرد، ألست أنا جعلت البيعة معك بيعة معي حيث قلت:

إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله [الفتح: ١٠] وجعلت متابعتك متابعة لي حيث قلت: قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله [آل عمران: ٣١] ثم إني ناديت في العالمين وقلت: أن الله بريء من المشركين ورسوله [التوبة: ٣] فصرح أنت أيضا بذلك وقل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون، السادس والعشرون: كأنه تعالى يقول: ألست أرأف بك من الولد بولده، ثم العري والجوع مع الوالد أحسن من الشبع مع الأجانب، كيف والجوع لهم لأن أصنامهم جائعة عن الحياة عارية عن الصفات وهم جائعون عن العلم عارون عن التقوى، فقد جربتني، ألم أجدك يتيما وضالا وعائلا، ألم نشرح لك صدرك، ألم أعطك بالصديق خزينة وبالفاروق هيبة وبعثمان معونة، وبعلي علما، ألم أكف أصحاب الفيل حين حاولوا تخريب بلدتك، ألم أكف أسلافك رحلة الشتاء والصيف، ألم أعطك الكوثر، ألم أضمن أن خصمك أبتر، ألم يقل جدك في هذه الأصنام بعد تخريبها: لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا

[مريم: ٤٢] فصرح بالبراءة عنها وقل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون السابع والعشرون: كأنه تعالى يقول: يا محمد ألست قد أنزلت عليك:

فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكرا [البقرة: ٢٠٠] ثم إن واحدا لو نسبك إلى والدين لغضبت ولأظهرت الإنكار ولبالغت فيه، حتى قلت: «ولدت من نكاح ولم أولد من سفاح» فإذا لم تسكت عند التشريك في الولادة، فكيف سكت عند التشريك في العبادة! بل أظهر الإنكار، وبالغ في التصريح به وقل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون، الثامن والعشرون: كأنه تعالى يقول يا محمد ألست قد أنزلت عليك: أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون [النحل: ١٧] فحكمت بأن من سوى بين الإله الخالق وبين الوثن الجماد في المعبودية لا يكون عاقلا بل يكون مجنونا، ثم إني أقسمت وقلت: ن والقلم وما يسطرون ما أنت بنعمة ربك بمجنون [القلم: ١، ٢] والكفار يقولون: إنك مجنون، فصرح برد مقالتهم فإنها تفيد براءتي عن عيب الشرك، وبراءتك عن عيب الجنون وقل يا أيها الكافرون، لا أعبد ما تعبدون، التاسع والعشرون: أن هؤلاء الكفار سموا الأوثان آلهة، والمشاركة في الاسم لا توجب المشاركة في المعنى، ألا ترى أن الرجل والمرأة." (١)

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٣٢٦/٣٢

"أما قوله تعالى: قل هي مواقيت للناس والحج مسألتان:

المسألة الأولى: المواقيت جمع الميقات بمعنى الوقت كالميعاد بمعنى الوعد، وقال بعضهم الميقات منتهى الوقت، قال الله تعالى: فتم ميقات ربه [الأعراف: ١٤٢] والهلال ميقات الشهر، ومواضع الإحرام مواقيت الحج لأنها مواضع ينتهى إليها، ولا تصرف مواقيت لأنها غاية المجموع، فصار كأن الجمع يكرر فيها فإن قيل: لم صرفت قوارير؟ قيل: لأنها فاصلة وقعت في رأس آية، فنون ليجري على طريقة/ الآيات، كما تنون القوافي، مثل قوله:

أقل اللوم عاذل **والعتابن**

المسألة الثانية: اعلم أنه سبحانه وتعالى جعل الزمان مقدرا من أربعة أوجه: السنة والشهر واليوم والساعة، أما السنة فهي عبارة عن الزمان الحاصل من حركة الشمس من نقطة معينة من الفلك بحركتها الحاصلة عن خلاف حركة الفلك إلى أن تعود إلى تلك النقطة بعينها، إلا أن القوم اصطلحوا على أن تلك النقطة نقطة الاعتدال الربيعي وهو أول الحمل، وأما الشهر فهو عبارة عن حركة القمر من نقطة معينة من فلكه الخاص به إلى أن يعود إلى تلك النقطة، ولما كان أشهر أحوال القمر وضعه مع الشمس، وأشهر أوضاعه من الشمس هو الهلال العربي، مع أن القمر في هذا الوقت يشبه الموجود بعد العدم والمولود الخارج من الظلم لا جرم جعلوا هذا الوقت منتهى للشهر، وأما اليوم بليلته فهو عبارة عن مفارقة نقطة من دائرة معدل النهار نقطة من دائرة الأفق، أو نقطة من دائرة نصف النهار وعودها إليها، فالزمان المقدر عبارة عن اليوم بليلته، ثم إن المنجمين اصطلحوا على تعيين دائرة نصف النهار مبدأ لليوم بليلته، أما أكثر الأمم فإنهم جعلوا مبادئ الأيام بلياليها من مفارقة الشمس أفق المشرق وعودها إليه من الغداة، واحتج من نصر مذهبهم بأن الشمس عند طلوعها كالموجود بعد العدم فجعله أولا أولى، فزمان النهار عبارة عن مدة كون الشمس فوق الأرض، وزمان الليل عبارة عن كونها تحت الأرض، وفي شريعة الإسلام يفتتحون النهار من أول وقت طلوع الفجر في وجوب الصلاة والصوم وغيرهما من الأحكام، وعند المنجمين مدة الصوم في الشرع هي زمان النهار كله مع زيادة من زمان الليل معلومة المقدار محدودة المبدأ، وأما الساعة فهي على قسمين: مستوية جزء من أربعة وعشرين من يوم وليلة، فهذا كلام مختصر في تعريف السنة والشهر واليوم والساعة.

فنقول: أما السنة فهي عبارة عن دورة الشمس فتحدث بسببها الفصول الأربعة، وذلك لأن الشمس إذا حصلت في الحمل فإذا تركت من هذا الموضع إلى جانب الشمال، أخذ الهواء في جانب الشمال شيئا من السخونة لقربها من مسامتة الرؤوس، ويتواتر الإسخان إلى أن تصل أول السرطان، وتشتد الحرارة ويزداد الحر ما دامت في السرطان والأسد لقربها من سمت الرؤوس، ويتواتر الإسخان، ثم ينعكس إلى أن يصل الميزان:

وحينئذ يطيب الهواء ويعتدل، ثم يأخذ الحر في النقصان والبرد في الزيادة، ولا يزال يزداد البرد إلى أن تصل الشمس إلى أول الجدي، ويشتد البرد حينئذ لبعدها عن سمت الرؤوس، ويتواتر البرد ثم إن الشمس تأخذ في الصعود إلى ناحية الشمال، وما دامت في الجدي والدلو، فالبرد أشد ما يكون إلى أن تنتهي إلى الحمل، فحينئذ يطيب الهواء ويعتدل،

وعادت الشمس إلى مبدأ حركتها وانتهى زمان السنة نهايته، وحصلت الفصول/ الأربعة التي هي الربيع والصيف والخريف والشتاء، ومنافع الفصول الأربعة وتعاقبا ظاهرة مشهورة في الكتب.." (١)

"الرجل بعد طول **العتاب** لصاحبه، وتعديده عليه ذنوبه بعد كثرة إحسانه إليه أمن قلة إحساني إليك أمن إهانتي لك؟

والمعنى أمن أجل هذا فعلت ما فعلت؟ ونظيره قوله تعالى: أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجوا رحمة ربه [الزمر: ٩] وهذا الوجه مروي عن مجاهد وعيسى بن عمر. أما قراءة من قرأ بقصر الألف من (أن) فقد يمكن أيضا حملها على معنى الاستفهام كما قرئ سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم [البقرة: ٦] بالمد والقصر، وكذا قوله أن كان ذا مال وبنين قرئ بالمد والقصر، وقال امرؤ القيس:

تروح من الحي أم تبتكر؟ ... وماذا عليك ولم تنتظر

أراد أروح من الحي؟ فحذف ألف الاستفهام، وإذا ثبت أن هذه القراءة محتملة لمعنى الاستفهام كان التقدير ما شرحناه في القراءة الأولى.

الوجه الثاني: أن أولئك لما قالوا لأتباعهم: لا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم إن الهدى هدى الله فلا تنكروا أن يؤتى أحد سواكم من الهدى مثل ما أوتيتموه أو يحاجوكم يعني هؤلاء المسلمين بذلك عند ربكم إن لم تقبلوا ذلك منهم، أقصى ما في الباب أنه يفتقر في هذا التأويل إلى إضمار قوله فلا تنكروا لأن عليه دليلا وهو قوله إن الهدى هدى الله فإنه لما كان الهدى الله كان له تعالى أن يؤتيه من يشاء من عباده ومتى كان كذلك لزم ترك الإنكار.

الوجه الثالث: أن الهدى اسم للبيان كقوله تعالى: وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى [فصلت: ١٧] فقوله إن الهدى مبتدأ وقوله هدى الله بدل منه وقوله أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم خبر بإضمار حرف لا، والتقدير: قل يا محمد لا شك أن بيان الله هو أن لا يؤتى أحد مثل ما أوتيتم، وهو دين الإسلام الذي هو أفضل الأديان وأن لا يحاجوكم يعني هؤلاء اليهود عند ربكم في الآخرة لأنه يظهر لهم في الآخرة أنكم محقون وأنهم مضلون، وهذا الت أويل ليس فيه إلا أنه لا بد من إضمار حرف (لا) وهو جائز كما في قوله تعالى:

أن تضلوا [النساء: ٤٤] أي أن لا تضلوا.

الوجه الرابع: الهدى اسم وهدى الله بدل منه وأن يؤتى أحد خبره والتقدير: إن هدى الله هو أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم، وعلى هذا التأويل فقوله أو يحاجوكم عند ربكم لا بد فيه من إضمار، والتقدير: أو يحاجوكم عند ربكم فيقضى لكم عليهم، والمعنى: أن الهدى هو ما هديتكم به من دين الإسلام الذي من حاجكم به عندي قضيت لكم عليه، وفي قوله عند ربكم ما يدل على هذا الإضمار ولأن حكمه بكونه ربا لهم يدل على كونه راضيا عنهم وذلك مشعر بأنه يحكم لهم ولا يحكم عليهم.

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٥/٢٨٢

والاحتمال الثاني: أن يكون قوله أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم من تتمة كلام اليهود، وفيه تقديم وتأخير، والتقدير: ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم، قل إن الهدى هدى الله، وإن الفضل بيد الله، قالوا، والمعنى لا تظهروا إيمانكم بأن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم إلا لأهل دينكم، وأسروا تصديقكم، بأن المسلمين قد أوتوا من كتب الله مثل ما أوتيتم، ولا تفشوه إلا إلى أشياعكم وحدهم دون المسلمين لئلا يزيدهم ثباتا ودون المشركين لئلا يدعوهم ذلك إلى الإسلام.

أما قوله أو يحاجوكم عند ربكم فهو عطف على أن يؤتى، والضمير في يحاجوكم لأحد، لأنه في معنى." (١)

"تعالى ثم قال: أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم وفيه مسائل:

المسألة الأولى: حرف الاستفهام دخل على الشرط وهو في الحقيقة داخل على الجزاء، والمعنى أتنقلبون على أعقابكم إن مات محمد أو قتل، ونظيره قوله: هل زيد قائم، فأنت إنما تستخبر عن قيامه، إلا أنك أدخلت هل على الاسم والله أعلم.

المسألة الثانية: أنه تعالى بين في آيات كثيرة أنه عليه السلام لا يقتل قال: إنك ميت وإنهم ميتون [الزمر: ٣٠] وقال: والله يعصمك من الناس [المائدة: ٦٧] وقال: ليظهره على الدين كله [الصف: ٩] فليس لقائل أن يقول: لما علم أنه لا يقتل فلم قال أو قتل؟ فإن الجواب عنه من وجوه:

الأول: أن صدق القضية الشرطية لا يقتضي صدق جزأيها، فإنك تقول: إن كانت الخمسة زوجا كانت منقسمة بمتساويين، فالشرطية صادقة وجزءاها كاذبان، وقال تعالى: لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا [الأنبياء: ٢٢] فهذا حق مع أنه ليس فيهما آلهة، وليس فيهما فساد، فكذا هاهنا. والثاني: أن هذا ورد على سبيل الإلزام، فإن موسى عليه السلام مات ولم ترجع أمته عن ذلك، والنصارى زعموا أن عيسى عليه السلام قتل وهم لا يرجعون عن دينه، فكذا هاهنا، والثالث: أن الموت لا يوجب رجوع الأمة عن دينه، فكذا القتل وجب أن لا يوجب الرجوع عن دينه، لأنه فارق بين الأمرين، فلما رجع إلى هذا المعنى كان المقصود منه الرد على أولئك الذين شكوا في صحة الدين وهموا بالارتداد.

المسألة الثالثة: قوله: انقلبتم على أعقابكم أي صرتم كفارا بعد إيمانكم، يقال لكل من عاد إلى ما كان عليه رجع وراءه وانقلب على عقبه ونكص على عقبيه، وذلك أن المنافقين قالوا لضعفة المسلمين: إن كان محمد قتل فالحقوا بدينكم، فقال بعض الأنصار: إن كان محمد قتل فإن رب محمد لم يقتل، فقاتلوا على ما قاتل عليه محمد. وحاصل الكلام أنه تعالى بين أنه قلته لا يوجب ضعفا في دينه بدليلين: الأول: بالقياس على موت سائر الأنبياء وقتلهم، والثاني: أن الحاجة إلى الرسول لتبليغ الدين وبعد ذلك فلا حاجة إليه، فلم يلزم من قتله فساد الدين والله أعلم.

المسألة الرابعة: ليس لقائل أن يقول: إن قوله: أفإن مات أو قتل شك وهو على الله تعالى لا يجوز، فإنا نقول: المراد أنه سواء وقع هذا أو ذاك فلا تأثير له في ضعف الدين ووجوب الارتداد.

ثم قال تعالى: ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا والغرض منه تأكيد الوعيد، لأن كل عاقل يعلم أن الله تعالى لا

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٦٠/٨

يضره كفر الكافرين، بل المراد أنه لا يضر إلا نفسه، وهذا كما إذا قال الرجل لولده عند **العتاب**: إن هذا الذي تأتي به من الأفعال لا يضر السماء والأرض، ويريد به أنه يعود ضرره عليه فكذا هاهنا، ثم أتبع الوعيد بالوعد فقال: وسيجزي الله الشاكرين فالمراد أنه لما وقعت الشبهة في قلوب بعضهم بسبب تلك الهزيمة ولم تقع الشبهة في قلوب العلماء الأقوياء من المؤمنين، فهم شكروا الله على ثباتهم على الإيمان وشدة تمسكهم به، فلا جرم مدحهم الله تعالى بقوله: وسيجزي الله الشاكرين

وروى محمد بن جرير الطبري عن علي رضي الله عنه أنه قال: المراد بقوله: وسيجزي الله الشاكرين أبو بكر وأصحابه، وروي عنه أنه قال أبو بكر من الشاكرين وهو من أحباء الله

والله أعلم بالصواب.

[سورة آل عمران (٣) : آية ١٤٥]

وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها وسنجزي الشاكرين (١٤٥)

[قوله تعالى وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله]." (١)

"وجعل أميرهم عبد الله بن جبير فلما ظهر المشركون أقبل الرماة عليهم بالرمي الكثير حتى انهزم المشركون، ثم إن الرماة رأوا نساء المشركين صعدن الجبل وكشفن عن سوقهن بحيث بدت خلاخيلهن، فقالوا الغنيمة الغنيمة، فقال عبد الله: عهد الرسول إلينا أن لا نبرح عن هذا المكان فأبوا عليه وذهبوا إلى طلب الغنيمة، وبقي عبد الله مع طائفة قليلة دون العشرة إلى أن قتلهم المشركون فهذا هو التنازع.

البحث الثاني: قوله: في الأمر فيه وجهان: الأول: أن الأمر هاهنا بمعنى الشأن والقصة، أي تنازعتم فيما كنتم فيه من الشأن. والثاني: أنه الأمر الذي يضاده النهي. والمعنى: وتنازعتم فيما أمركم/ الرسول به من ملازمة ذلك المكان. وثالثها: وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون، والمراد عصيتم بترك ملازمة ذلك المكان.

بقي في هذه الآية سؤالات: الأول: لم قدم ذكر الفشل على ذكر التنازع والمعصية؟

والجواب: أن القوم لما رأوا هزيمة الكفار وطمعوا في الغنيمة فشلوا في أنفسهم عن الثبات طمعا في الغنيمة، ثم تنازعوا بطريق القول في أنا: هل نذهب لطلب الغنيمة أم لا؟ ثم اشتغلوا بطلب الغنيمة.

السؤال الثاني: لما كانت المعصية بمفارقة تلك المواضع خاصة بالبعض فلم جاء هذا **العتاب** باللفظ العام؟

والجواب: هذا اللفظ وإن كان عاما إلا أنه جاء المخصص بعده، وهو قوله: منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة.

السؤال الثالث: ما الفائدة في قوله: من بعد ما أراكم ما تحبون.

والجواب عنه: أن المقصود منه التنبيه على عظم المعصية، لأنهم لما شاهدوا أن الله تعالى أكرمهم بإنجاز الوعد كان من

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٣٧٧/٩

حقهم أن يمتنعوا عن المعصية، فلما أقدموا عليها لا جرم سلبهم الله ذلك الإكرام وأذاقهم وبال أمرهم.
ثم قال تعالى: ثم صرفكم عنهم ليبتليكم وقد اختلف قول أصحابنا وقول المعتزلة في تفسير هذه الآية، وذلك لأن صرفهم عن الكفار معصية، فكيف أضافه إلى نفسه؟ أما أصحابنا فهذا الإشكال غير وارد عليهم، لأن مذهبهم أن الخير والشر بإرادة الله وتخليقه، فعلى هذا قالوا معنى هذا الصرف أن الله تعالى رد المسلمين عن الكفار، وألقى الهزيمة عليهم وسلط الكفار عليهم، وهذا قول جمهور المفسرين. قالت المعتزلة: هذا التأويل غير جائز ويدل عليه القرآن والعقل، أما القرآن فهو قوله تعالى: إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا [آل عمران: ١٥٥] فأضاف ما كان منهم إلى فعل الشيطان، فكيف يضيفه بعد هذا إلى نفسه؟ وأما المعقول فهو أنه تعالى عاتبهم على ذلك الانصراف، ولو كان ذلك بفعل الله لم يجز معاتبة القوم عليه، كما لا يجوز معاتبتهم على طولهم وقصرهم وصحتهم ومرضهم، ثم عند هذا ذكروا وجوها من التأويل: الأول: قال الجبائي: إن الرماة كانوا فريقين، بعضهم فارقوا المكان أولا لطلب الغنائم، وبعضهم بقوا هناك، ثم هؤلاء الذين بقوا أحاط بهم العدو، فلو استمروا على المكث هناك لقتلهم العدو من غير فائدة أصلا، فلهذا السبب جاز لهم أن يتنحوا عن ذلك الموضع إلى موضع يتحرزون فيه عن العدو، ألا ترى أن النبي/ صلى الله عليه وسلم ذهب إلى الجبل في جماعة من أصحابه وتحصنوا به ولم يكونوا عصاة بذلك، فلما كان ذلك الانصراف جائزا أضافه إلى نفسه بمعنى أنه كان بأمره وإذنه، ثم قال: ليبتليكم والمراد أنه تعالى لما صرفهم إلى ذلك المكان وتحصنوا به أمرهم هناك بالجهاد والذب عن بقية المسلمين، ولا شك أن." (١)

"فيه قولان:

أحدهما: أنه متعلق بما قبله، وعلى هذا التقدير ففيه وجوه: أحدها: كأنه قال وعفا عنكم إذ تصعدون، لأن عفوه عنهم لا بد وأن يتعلق بأمر اقترفوه، وذلك الأمر هو ما بينه بقوله: إذ تصعدون والمراد به ما صدر عنهم من مفارقة ذلك المكان والأخذ في الوادي كالمنهزمين لا يلوون على أحد وثانيها: التقدير: ثم صرفكم عنهم إذ تصعدون. وثالثها: التقدير: ليبتليكم إذ تصعدون.

والقول الثاني: أنه ابتداء كلام لا تعلق له بما قبله، والتقدير: اذكر إذ تصعدون وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: قال صاحب «الكشاف» : قرأ الحسن إذ تصعدون في الجبل، وقرأ أبي إذ تصعدون في الواد وقرأ أبو حيوة إذ تصعدون بفتح التاء وتشديد العين، من تصعد في السلم.

المسألة الثانية: الإصعاد: الذهاب في الأرض والإبعاد فيه، يقال صعد في الجبل، وأصعد في/ الأرض، ويقال أصعدنا من مكة إلى المدينة، قال أبو معاذ النحوي: كل شيء له أسفل وأعلى مثل الوادي والنهر والأزقة، فإنك تقول: صعد فلان يصعد في الوادي إذا أخذ من أسفله إلى أعلاه، وأما ما ارتفع كالسلم فإنه يقال صعدت.

المسألة الثالثة: ولا تلوون على أحد: أي لا تلتفتون إلى أحد من شدة الهرب، وأصله أن المعرج على الشيء يلوي إليه عنقه أو عنان دابته، فإذا مضى ولم يعرج قيل لم يلوه، ثم استعمل اللي في ترك التعريج على الشيء وترك الالتفات إلى

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٣٨٨/٩

الشيء، يقال: فلان لا يلوي على شيء، أي لا يعطف عليه ولا يبالي به.
ثم قال تعالى: والرسول يدعوكم كان يقول: «إلي عباد الله أنا رسول الله من كر فله الجنة» فيحتمل أن يكون المراد أنه عليه الصلاة والسلام كان يدعوهم إلى نفسه حتى يجتمعوا عنده، ولا يتفرقوا، ويحتمل أن يكون المراد أنه كان يدعوهم إلى المحاربة مع العدو.
ثم قال: في أخراكم أي آخركم، يقال: جئت في آخر الناس وأخراهم، كما يقال: في أولهم وأولاهم، ويقال: جاء فلان في أخريات الناس، أي آخرهم، والمعنى أنه عليه الصلاة والسلام كان يدعوهم وهو واقف في آخرهم، لأن القوم بسبب الهزيمة قد تقدموه.
ثم قال: فأثابكم غما بغم وفيه مسائل:
المسألة الأولى: لفظ الثواب لا يستعمل في الأغلب إلا في الخير، ويجوز أيضا استعماله في الشر، لأنه مأخوذ من قولهم: ثاب إليه عقله، أي رجع إليه، قال تعالى: وإذ جعلنا البيت مثابة للناس [البقرة: ١٢٥] والمرأة تسمى ثيبا لأن الواطئ عائد إليها، وأصل الثواب كل ما يعود إلى الفاعل من جزاء فعله سواء كان خيرا أو شرا، إلا أنه بحسب العرف اختص لفظ الثواب بالخير، فإن حملنا لفظ الثواب هاهنا على أصل اللغة استقام الكلام، وإن حملناه على مقتضى العرف كان ذلك واردا على سبيل التهكم، كما يقال: تحيتك الضرب، **وعتابك** السيف، أي جعل الغم مكان ما يرجون من الثواب قال تعالى: فبشرهم بعذاب أليم [التوبة: ٣٤] .." (١)
"فجحده. وقيل المأمونون على الكثير النصارى إذ الغالب فيهم الأمانة، والخائنون في القليل اليهود إذ الغالب عليهم الخيانة. وقرأ حمزة وأبو بكر وأبو عمرو يؤده إليك ولا يؤده إليك بإسكان الهاء وقالون باختلاس كسرة الهاء وكذا روي عن حفص والباقون بإشباع الكسرة. إلا ما دمت عليه قائما إلا مدة دوامك قائما على رأسه مبالغا في مطالبته بالتقاضي والترافع وإقامة البينة. ذلك إشارة إلى ترك الأداء المدلول عليه بقوله لا يؤده. بأنهم قالوا بسبب قولهم. ليس علينا في الأميين سبيل أي ليس علينا في شأن من ليسوا من أهل الكتاب، ولم يكونوا على ديننا، **عتاب** وذم. ويقولون على الله الكذب بادعائهم ذلك وهم يعلمون أنهم كاذبون، وذلك لأنهم استحلوا ظلم من خالفهم وقالوا: لم يجعل لهم في التوراة حرمة. وقيل عامل اليهود رجالا من قريش فلما أسلموا تقاضوهم فقالوا سقط حقكم حيث تركتم دينكم وزعموا أنه كذلك في كتابهم.
وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال عند نزولها «كذب أعداء الله ما من شيء في الجاهلية إلا وهو تحت قدمي إلا الأمانة فإنها مؤداة إلى البر والفاجر»
. [سورة آل عمران (٣) : آية ٧٦]
بلى من أوفى بعهده واتقى فإن الله يحب المتقين (٧٦)
بلى إثبات لما نفوه أي بلى عليهم فيهم سبيل. من أوفى بعهده واتقى فإن الله يحب المتقين استئناف مقرر للجملة التي

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٣٩٠/٩

سدت بلى مسدها، والضمير المجرور لمن أو لله وعموم المتقين ناب عن الراجع من الجزاء إلى من، وأشعر بأن التقوى ملاك الأمر وهو يعم الوفاء وغيره من أداء الواجبات والاجتناب عن المناهي.

[سورة آل عمران (٣) : آية ٧٧]
إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم (٧٧)
إن الذين يشترون يستبدلون. بعهد الله بما عاهدوا الله عليه من الإيمان بالرسول والوفاء بالأمانات. وأيمانهم وبما حلفوا به من قولهم والله لنؤمنن به ولننصرنه، ثمنا قليلا متاع الدنيا. أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله بما يسرهم أو بشيء أصلا، وأن الملائكة يسألونهم يوم القيامة، أو لا ينتفعون بكلمات الله وآياته، والظاهر أنه كناية عن غضبه عليهم لقوله: ولا ينظر إليهم يوم القيامة فإن من سخط على غيره واستهان به أعرض عنه وعن التكلم معه والالتفات نحوه، كما أن من اعتد بغيره يقاوله ويكثر النظر إليه. ولا يزكيهم ولا يثني عليهم ولهم عذاب أليم على ما فعلوه. قيل: إنها نزلت في أحبار حرفوا التوراة وبدلوا نعت محمد صلى الله عليه وسلم وحكم الأمانات وغيرهما وأخذوا على ذلك رشوة. وقيل: نزلت في رجل أقام سلعة في السوق فحلف لقد اشتراها بما لم يشترها به. وقيل: نزلت في ترافع كان بين الأشعث بن قيس ويهودي في بئر أو أرض وتوجه الحلف على اليهودي.

[سورة آل عمران (٣) : آية ٧٨]
وإن منهم لفريقا يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون (٧٨)
وإن منهم لفريقا يعني المحرفين ككعب ومالك وحيي بن أخطب. يلوون ألسنتهم بالكتاب يفتلونها بقراءته فيميلونها عن المنزل إلى المحرف، أو يعطفونها بشبه الكتاب. وقرئ «يلون» على قلب الواو المضمومة همزة ثم تخفيفها بحذفها وإلقاء حركتها على الساكن قبلها. لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب الضمير للمحرف المدلول عليه بقوله يلوون. وقرئ «ليحسبوه» بالياء والضمير أيضا للمسلمين.
ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله تأكيد لقوله: وما هو من الكتاب وتشنيع عليهم وبيان لأنهم." (١)

"للبيان وهي مع المجرور في محل النصب على التمييز وهو أبلغ من يفيض دمعها، لأنه يدل على أن العين صارت دمعا فياضا. حزنا نصب على العلة أو الحال أو المصدر لفعل دل عليه ما قبله. ألا يجدوا لئلا يجدوا متعلق ب حزنا أو ب تفيض. ما ينفقون في مغزاهم.

---

(١) تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل ناصر الدين البيضاوي ٢٤/٢

[سورة التوبة (٩) : الآيات ٩٣ الى ٩٤]

إنما السبيل على الذين يستأذنونك وهم أغنياء رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون (٩٣) يعتذرون إليكم إذا رجعتم إليهم قل لا تعتذروا لن نؤمن لكم قد نبأنا الله من أخباركم وسيرى الله عملكم ورسوله ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون (٩٤)

إنما السبيل بالمعاتبة. على الذين يستأذنونك وهم أغنياء واجدون الأهبة. رضوا بأن يكونوا مع الخوالف استئناف لبيان ما هو السبب لاستئذانهم من غير عذر وهو رضاهم بالدناءة والانتظام في جملة الخوالف إيثارا للدعة. وطبع الله على قلوبهم حتى غفلوا عن وخامة العاقبة. فهم لا يعلمون مغبته.

يعتذرون إليكم في التخلف. إذا رجعتم إليهم من هذه السفرة. قل لا تعتذروا بالمعاذير الكاذبة لأنه: لن نؤمن لكم لن نصدقكم لأنه: قد نبأنا الله من أخباركم أعلمنا بالوحي إلى نبيه بعض أخباركم وهو ما في ضمائركم من الشر والفساد. وسيرى الله عملكم ورسوله أتتوبون عن الكفر أم تثبتون عليه فكأنه استتابة وإمهال للتوبة. ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة أي إليه فوضع الوصف موضع الضمير للدلالة على أنه مطلع على سرهم وعلنهم لا يفوت عن علمه شيء من ضمائرهم وأعمالهم. فينبئكم بما كنتم تعملون بالتوبيخ والعقاب عليه.

[سورة التوبة (٩) : الآيات ٩٥ الى ٩٦]

سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم فأعرضوا عنهم إنهم رجس ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون (٩٥) يحلفون لكم لترضوا عنهم فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين (٩٦)

سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم فلا تعاتبوهم فأعرضوا عنهم ولا توبخوهم.

إنهم رجس لا ينفع فيهم التأنيب فإن المقصود منه التطهير بالحمل على الإنابة وهؤلاء أرجاس لا تقبل التطهير فهو علة لإعراض وترك المعاتبة. ومأواهم جهنم من تمام التعليل وكأنه قال: إنهم أرجاس من أهل النار لا ينفع فيهم التوبيخ فى الدنيا والآخرة، أو تعليل ثان والمعنى: أن النار كفتهم عتابا فلا تتكلفوا عتابهم.

جزاء بما كانوا يكسبون يجوز أن يكون مصدرا وأن يكون علة.

يحلفون لكم لترضوا عنهم بحلفهم فتستديموا عليهم ما كنتم تفعلون بهم. فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين أي فإن رضاكم لا يستلزم رضا الله ورضاكم وحدكم لا ينفعهم إذا كانوا في سخط الله وبصدد عقابه، وإن أمكنهم أن يلبسوا عليكم لا يمكنهم أن يلبسوا على الله فلا يهتك سترهم ولا ينزل الهوان بهم، والمقصود من الآية النهي عن الرضا عنهم والاغترار بمعاذيرهم بعد الأمر بالإعراض وعدم الالتفات نحوهم.

[سورة التوبة (٩) : الآيات ٩٧ الى ٩٨]

الأعراب أشد كفرا ونفاقا وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله والله عليم حكيم (٩٧) ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرما ويتربص بكم الدوائر عليهم دائرة السوء والله سميع عليم (٩٨)." (١)

"جمع ولذلك عده سيبويه في المفردات المبنية على أفعال كأخلاق وأكياس، ومن قال إنه جمع نعم جعل الضمير للبعض فإن اللبن لبعضها دون جميعها أو لواحده أو له على المعنى، فإن المراد به الجنس. وقرأ نافع وابن عامر وأبو بكر ويعقوب نسقيكم بالفتح هنا وفي «المؤمنين» . من بين فرث ودم لبنا فإنه يخلق من بعض أجزاء الدم المتولد من الأجزاء اللطيفة التي في الفرث، وهو الأشياء المأكولة المنهضمة بعض الانهضام في الكرش. وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أن البهيمة إذا اعتلفت وانطبخ العلف في كرشها كان أسفله فرثا وأوسطه لبنا وأعلاه دما، ولعله إن صح فالمراد أن أوسطه يكون مادة اللبن وأعلاه مادة الدم الذي يغذي البدن، لأنهما لا يتكونان في الكرش بل الكبد يجذب صفاوة الطعام المنهضم في الكرش، ويبقي ثفله وهو الفرث ثم يمسكها ريثما يهضمها هضما ثانيا فيحدث أخلاطا أربعة معها مائية، فتميز القوة المميزة تلك المائية بما زاد على قدر الحاجة من المرتين وتدفعها إلى الكلية والمرارة والطحال، ثم يوزع الباقي على الأعضاء بحسبها فيجري إلى كل حقه على ما يليق به بتقدير الحكيم العليم، ثم إن كان الحيوان أنثى زاد أخلاطها على قدر غذائها لاستيلاء البرد والرطوبة على مزاجها، فيندفع الزائد أولا إلى الرحم لأجل الجنين فإذا انفصل انصب ذلك الزائد أو بعضه إلى الضروع، فيبيض بمجاورة لحومها الغددية البيض فيصير لبنا، ومن تدبر صنع الله تعالى في إحداث الأخلاط والألبان وإعداد مقارها ومجاريها والأسباب المولدة لها والقوى المتصرفة فيها كل وقت على ما يليق به، اضطر إلى الإقرار بكمال حكمته وتناهي رحمته، ومن الأولى تبعيضية لأن اللبن بعض ما في بطونها والثانية ابتدائية كقولك: سقيت من الحوض، لأن بين الفرث والدم المحل الذي يبتدأ منه الإسقاء وهي متعلقة ب نسقيكم أو حال من لبنا قدم عليه لتنكيره وللتنبيه على أنه موضع العبرة. خالصا صافيا لا يستصحب لون الدم ولا رائحة الفرث، أو مصفى عما يصحبه من الأجزاء الكثيفة بتضييق مخرجه. سائغا للشاربين سهل المرور في حلقهم، وقرئ «سيغا» بالتشديد والتخفيف.

[سورة النحل (١٦) : آية ٦٧]

ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا إن في ذلك لآية لقوم يعقلون (٦٧)

ومن ثمرات النخيل والأعناب متعلق بمحذوف أي ونسقيكم من ثمرات النخيل والأعناب أي من عصيرهما، وقوله: تتخذون منه سكرا استئناف لبيان الإسقاء أو ب تتخذون، ومنه تكرير للظرف تأكيدا أو خبر لمحذوف صفته تتخذون، أي ومن ثمرات النخيل والأعناب ثمر تتخذون منه، وتذكير الضمير على الوجهين الأولين لأنه للمضاف المحذوف الذي هو العصير، أو لأن ال ثمرات بمعنى الثمر والسكر مصدر سمي به الخمر. ورزقا حسنا كالتمر والزبيب والدبس والخل، والآية إن كانت سابقة على تحريم الخمر فدالة على كراهتها و إلا فجامعة بين **العتاب** والمنة. وقيل السكر النبيذ وقيل

---

(١) تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل ناصر الدين البيضاوي ٣/٩٤

الطعم قال:
جعلت أعراض الكرام سكرا أي تنقلت بأعراضهم. وقيل ما يسد الجوع من السكر فيكون الرزق ما يحصل من أثمانه.
إن في ذلك لآية لقوم يعقلون يستعملون عقولهم بالنظر والتأمل في الآيات.

[سورة النحل (١٦) : الآيات ٦٨ الى ٦٩]
وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون (٦٨) ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون (٦٩)
وأوحى ربك إلى النحل ألهمها وقذف في قلوبها، وقرئ «إلى النحل» بفتحتين. أن اتخذي بأن اتخذي ويجوز أن تكون أن مفسرة لأن في الإيحاء معنى القول، وتأنيث الضمير على المعنى فإن النحل مذكر. من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون ذكر بحرف التبعيض لأنها لا تبني في كل جبل وكل." (١)
"الأول لذلك فإنها كانت صغيرة ولم تبلغ الحلم أو أنه لم يرها قد أذنبت ذنبا يقتضي قتلها، أو قتلت نفسا فتقاد بها، نبه به على أن القتل إنما يباح حدا أو قصاصا وكلا الأمرين منتف، ولعل تغيير النظم بأن جعل خرقها جزاء، واعتراض موسى عليه الصلاة والسلام مستأنفا في الأولى وفي الثانية قتله من جملة الشرط واعتراضه جزاء، لأن القتل أقبح والاعتراض عليه أدخل فكان جديرا بأن يجعل عمدة الكلام ولذلك فصله بقوله: لقد جئت شيئا نكرا أي منكرا، وقرأ نافع في رواية قالون وورش وابن عامر ويعقوب وأبو بكر نكرا بضمتين.

[سورة الكهف (١٨) : الآيات ٧٥ الى ٧٦]
قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبرا (٧٥) قال إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذرا (٧٦)
قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبرا زاد فيه لك مكافحة **بالعتاب** على رفض الوصية، ووسما بقلة الثبات والصبر لما تكرر منه الاشمئزاز والاستنكار ولم يرعو بالتذكير أول مرة حتى زاد في الاستنكار ثاني مرة.
قال إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني وإن سألت صحبتك، وعن يعقوب «فلا تصحبني» أي فلا تجعلني صاحبك. قد بلغت من لدني عذرا قد وجدت عذرا من قبلي لما خالفتك ثلاث مرات.
وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم «رحم الله أخي موسى استحيا فقال ذلك لو لبث مع صاحبه لأبصر أعجب الأعاجيب» .
وقرأ نافع من لدني بتحريك النون والاكتفاء بها عن نون الدعامة كقوله: قدني من نصر الحبيبين قدى. وأبو بكر لدني بتحريك النون وإسكان الضاد من عضد.

---

(١) تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار ا لتأويل ناصر الدين البيضاوي ٣/٢٣٢

[سورة الكهف (١٨) : آية ٧٧]
فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض فأقامه قال لو شئت لاتخذت عليه أجرا (٧٧)
فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية قرية أنطاكية وقيل أبلة البصرة. وقيل باجروان أرمينية. استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما وقرئ يضيفوهما من أضافه. يقال ضافه إذا نزل به ضيفا وأضافه وضيفه أنزله، وأصل التركيب للميل يقال ضاف السهم عن الغرض إذا مال. فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض يداني أن يسقط فاستعيرت الإرادة للمشارفة كما استعير لها الهم والعزم قال:
يريد الرمح صدر أبي براء ... ويعدل عن دماء بني عقيل
وقال:
إن دهرا يلم شملي بجمل ... لزمان يهم بالإحسان
وانقض انفعل من قضضته إذا كسرته، ومنه انقضاض الطير والكواكب لهويه، أو أفعل من النقض.
وقرئ «أن ينقض» و «أن ينقاص» بالصاد المهملة من انقاصت السن إذا انشقت طولا. فأقامه بعمارته أو بعمود عمده به، وقيل مسحه بيده فقام. وقيل نقضه وبناه. قال لو شئت لاتخذت عليه أجرا تحريضا على أخذ الجعل لينتعشا به، أو تعريضا بأنه فضول لما في لو من النفي كأنه لما رأى الحرمان ومساس الحاجة واشتغاله بما لا يعنيه لم يتمالك نفسه، واتخذ افتعل من تخذ كاتبع من تبع وليس من الأخذ عند البصريين، وقرأ ابن كثير والبصريان «لتخذت» أي لأخذت وأظهر ابن كثير ويعقوب وحفص الدال وأدغمه الباقون.

[سورة الكهف (١٨) : آية ٧٨]
قال هذا فراق بيني وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا (٧٨)
قال هذا فراق بيني وبينك الإشارة إلى الفراق الموعود بقوله فلا تصاحبني أو إلى الاعتراض." (١)
"[سورة مريم (١٩) : الآيات ٧٩ الى ٨٠]
كلا سنكتب ما يقول ونمد له من العذاب مدا (٧٩) ونرثه ما يقول ويأتينا فردا (٨٠)
كلا ردع وتنبيه على أنه مخطئ فيما تصوره لنفسه. سنكتب ما يقول سنظهر له أنا كتبنا قوله على طريقة قوله:
إذا ما انتسبنا لم تلدني لئيمة أي تبين أني لم تلدني لئيمة، أو سننتقم منه انتقام من كتب جريمة العدو وحفظها عليه فإن نفس الكتابة لا تتأخر عن القول لقوله تعالى: ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد. ونمد له من العذاب مدا ونطول له من العذاب ما يستأهله، أو نزيد عذابه ونضاعفه له لكفره وافترائه واستهزائه على الله جلت عظمته، ولذلك أكده بالمصدر

---

(١) تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل ناصر الدين البيضاوي ٢٨٩/٣

دلالة على فرط غضبه عليه. ونرثه بموته. ما يقول يعني المال والولد. ويأتينا يوم القيامة. فردا لا يصحبه مال ولا ولد كان له في الدنيا فضلا أن يؤتى ثم زائدا وقيل فردا رافضا لهذا القول منفردا عنه.

[سورة مريم (١٩) : الآيات ٨١ الى ٨٢]

واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا (٨١) كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا (٨٢)

واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا ليتعززوا بهم حيث يكونون لهم وصلة إلى الله وشفعاء عنده.

كلا ردع وإنكار لتعززهم بها. سيكفرون بعبادتهم ستجحد الآلهة عبادتهم ويقولون ما عبدتمونا لقوله تعالى: إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا أو سينكر الكفرة لسوء العاقبة أنهم عبدوها لقوله تعالى:

ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين. ويكونون عليهم ضدا يؤيد الأول إذا فسر الضد بضد العز، أي ويكونون عليهم ذلا، أو بضدهم على معنى أنها تكون معونة في عذابهم بأن توقد بها نيرانهم، أو جعل الواو للكفرة أي يكونون كافرين بهم بعد أن كانوا يعبدونها وتوحيده لوحدة المعنى الذي به مضادتهم، فإنهم بذلك كالشيء الواحد ونظيره قوله عليه الصلاة والسلام «وهم يد على من سواهم» .

وقرئ كلا بالتنوين على قلب الألف نونا في الوقف قلب ألف الإطلاق في قوله:

أقلي اللوم عاذل والعتابن أو على معنى كل هذا الرأي كلا وكلا على إضمار فعل يفسره ما بعده أي سيجحدون كلا سيكفرون بعبادتهم.

[سورة مريم (١٩) : الآيات ٨٣ الى ٨٤]

ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا (٨٣) فلا تعجل عليهم إنما نعد لهم عدا (٨٤)

ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين بأن سلطناهم عليهم أو قيضنا لهم قرناء. تؤزهم أزا تهزهم وتغريهم على المعاصي بالتسويلات وتحبيب الشهوات، والمراد تعجيب رسول الله صلى الله عليه وسلم من أقاويل الكفرة وتماديهم في الغي وتصميمهم على الكفر بعد وضوح الحق على ما نطقت به الآيات المتقدمة.

فلا تعجل عليهم بأن يهلكوا حتى تستريح أنت والمؤمنون من شرورهم وتطهر الأرض من فسادهم.

إنما نعد لهم أيام آجالهم. عدا والمعنى لا تعجل بهلاكهم فإنه لم يبق لهم إلا أيام محصورة وأنفاس معدودة.." (١)

"لتنكير المضاف كقول العجاج:

يوم ترى النفوس ما أعدت ... في سعي دنيا طالما قد مدت

كأنه قيل إنما صنعوا كيد سحري. حيث أتى حيث كان وأين أقبل.

---

(١) تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل ناصر الدين البيضاوي ١٩/٤

[سورة طه (٢٠) : آية ٧٠]

فألقي السحرة سجدا قالوا آمنا برب هارون وموسى (٧٠)

فألقي السحرة سجدا أي فألقى فتلقفت فتحقق عند السحرة أنه ليس بسحر وإنما هو آية من آيات الله ومعجزة من معجزاته، فألقاهم ذلك على وجوههم سجدا لله توبة عما صنعوا وإعتابا وتعظيما لما رأوا. قالوا آمنا برب هارون وموسى قدم هارون لكبر سنه أو لروي الآية، أو لأن فرعون ربى موسى في صغره فلو اقتصر على موسى أو قدم ذكره لربما توهم أن المراد فرعون وذكر هارون على الاستتباع. روي أنهم رأوا في سجودهم الجنة ومنازلهم فيها.

[سورة طه (٢٠) : آية ٧١]

قال آمنتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم الذي علمكم السحر فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم في جذوع النخل ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى (٧١)

قال آمنتم له أي لموسى واللام لتضمن الفعل معنى الاتباع. وقرأ قنبل وحفص آمنتم له على الخبر والباقون على الاستفهام. قبل أن آذن لكم في الإيمان له. إنه لكبيركم لعظيمكم في فنكم وأعلمكم به أو لأستاذكم. الذي علمكم السحر وأنتم تواطأتم على ما فعلتم. فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف اليد اليمنى والرجل اليسرى، ومن ابتدائية كأن القطع ابتدأ من مخالفة العضو العضو وهي مع المجرور بها في حيز النصب على الحال، أي لأقطعنها مختلفات وقرئ «لأقطعن» «ولأصلبن» بالتخفيف.

ولأصلبنكم في جذوع النخل شبه تمكن المصلوب بالجذع بتمكن المظروف بالظرف وهو أول من صلب.

ولتعلمن أينا يريد نفسه وموسى لقوله آمنتم له واللام مع الإيمان في كتاب الله لغير الله أراد به توضيع موسى والهزء به، فإنه لم يكن من التعذيب في شيء. وقيل رب موسى الذي آمنوا به. أشد عذابا وأبقى وأدوم عقابا.

[سورة طه (٢٠) : الآيات ٧٢ الى ٧٣]

قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا فاقض ما أنت قاض إنما تقضي هذه الحياة الدنيا (٧٢) إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى (٧٣)

قالوا لن نؤثرك لن نختارك. على ما جاءنا موسى به، ويجوز أن يكون الضمير فيه لما. من البينات المعجزات الواضحات. والذي فطرنا عطف على ما جاءنا أو قسم. فاقض ما أنت قاض ما أنت قاضيه أي صانعه أو حاكم به. إنما تقضي هذه الحياة الدنيا إنما تصنع ما تهواه، أو تحكم بما تراه في هذه الدنيا والآخرة خير وأبقى فهو كالتعليل لما قبله والتمهيد لما بعده. وقرئ «تقضى هذه الحياة الدنيا» كقولك: صيم يوم الجمعة.

إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا من الكفر والمعاصي. وما أكرهتنا عليه من السحر من معارضة المعجزة. روي أنهم قالوا لفرعون أرنا موسى نائما فوجدوه تحرسه العصا فقالوا ما هذا بسحر فإن الساحر إذا نام بطل سحره فأبى إلا أن يعارضوه. والله خير وأبقى جزاء أو خير ثوابا وأبقى عقابا.

[سورة طه (٢٠) : الآيات ٧٤ الى ٧٦]

إنه من يأت ربه مجرما فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى (٧٤) ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى (٧٥) جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء من تزكى (٧٦)." [١]

"لأنهم في مقابلتهم.

لهم فيها ما يشاؤن ما يشاءونه من النعيم، ولعله تقصر همم كل طائفة على ما يليق برتبته إذ الظاهر أن الناقص لا يدرك شأو الكامل بالتشهي، وفيه تنبيه على أن كل المرادات لا تحصل إلا في الجنة.

خالدين حال من أحد ضمائرهم. كان على ربك وعدا مسؤلا الضمير في كان ل ما يشاؤن والوعد الموعود أي: كان ذلك موعودا حقيقا بأن يسأل ويطلب، أو مسؤولا سأله الناس في دعائهم ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك. أو الملائكة بقولهم ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم، وما في على من معنى الوجوب لامتناع الخلف في وعده تعالى ولا يلزم منه الإلجاء إلى الإنجاز، فإن تعلق الإرادة بالوعود مقدم على الوعد الموجب للإنجاز.

[سورة الفرقان (٢٥) : آية ١٧]

ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلوا السبيل (١٧)

ويوم نحشرهم للجزاء، وقرئ بكسر الشين وقرأ ابن كثير ويعقوب وحفص بالياء. وما يعبدون من دون الله يعم كل معبود سواه تعالى، واستعمال ما إما لأن وضعه أعم ولذلك يطلق لكل شبح يرى ولا يعرف، أو لأنه أريد به الوصف كأنه قيل ومعبودهم أو لتغليب الأصنام تحقيرا أو اعتبار الغلبة عبادها، أو يخص الملائكة وعزيرا والمسيح بقرينة السؤال والجواب، أو الأصنام ينطقها الله أو تتكلم بلسان الحال كما قيل في كلام الأيدي والأرجل. فيقول أي للمعبودين وهو على تلوين الخطاب، وقرأ ابن عامر بالنون.

أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلوا السبيل لإخلالهم بالنظر الصحيح وإعراضهم عن المرشد النصيح، وهو استفهام تقريع وتبكيت للعبدة، وأصله أأضللتم أم ضلوا فغير النظم ليلي حرف الاستفهام المقصود بالسؤال وهو المتولي للفعل دونه لأنه لا شبهه فيه وإلا لما توجه **العتاب**، وحذف صلة الضل مبالغة.

[سورة الفرقان (٢٥) : الآيات ١٨ الى ١٩]

قالوا سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوما بورا (١٨) فقد كذبوكم بما تقولون فما تستطيعون صرفا ولا نصرا ومن يظلم منكم نذقه عذابا كبيرا (١٩)

قالوا سبحانك تعجبا مما قيل لهم لأنهم إما ملائكة أو أنبياء معصومون، أو جمادات لا تقدر على شيء أو إشعارا بأنهم

---

(١) تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل ناصر الدين البيضاوي ٣٣/٤

الموسومون بتسبيحه وتوحيده فكيف يليق بهم إضلال عبيده، أو تنزيها لله تعالى عن الأنداد. ما كان ينبغي لنا ما يصح لنا. أن نتخذ من دونك من أولياء للعصمة أو لعدم القدرة فكيف يصح لنا أن ندعو غيرنا أن يتولى أحدا دونك، وقرئ نتخذ على البناء للمفعول من اتخذ الذي له مفعولان كقوله تعالى: واتخذ الله إبراهيم خليلا ومفعوله الثاني من أولياء ومن للتبعيض وعلى الأول مزيدة لتأكيد النفي. ولكن متعتهم وآباءهم بأنواع النعم فاستغرقوا في الشهوات. حتى نسوا الذكر حتى غفلوا عن ذكرك أو التذكر لآلائك والتدبر في آياتك، وهو نسبة للضلال إليهم من حيث إنه بكسبهم وإسناد له إلى ما فعل الله بهم فحملهم عليه، وهو عين ما ذهبنا إليه فلا ينتهض حجة علينا للمعتزلة.

وكانوا في قضائك. قوما بورا هالكين مصدر وصف به ولذلك يستوي فيه الواحد والجمع، أو جمع بائر كعائذ وعوذ. فقد كذبوكم التفات إلى العبدة بالاحتجاج والإلزام على حذف القول والمعنى فقد كذبكم المعبودون. بما تقولون في قولكم إنهم آلهة أو هؤلاء أضلونا والباء بمعنى في، أو مع المجرور بدل من." (١)

"وصارت علما لها بالغلبة كالكوكب للزهرة. يقسم المجرمون ما لبثوا في الدنيا أو في القبور أو فيما بين فناء الدنيا والبعث وانقطاع عذابهم،

وفي الحديث «ما بين فناء الدنيا والبعث أربعون»

وهو محتمل للساعات والأيام والأعوام. غير ساعة استقلوا مدة لبثهم إضافة إلى مدة عذابهم في الآخرة أو نسيانا. كذلك مثل ذلك الصرف عن الصدق والتحقيق. كانوا يؤفكون يصرفون في الدنيا.

[سورة الروم (٣٠) : الآيات ٥٦ الى ٥٧]

وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون (٥٦) فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم ولا هم يستعتبون (٥٧)

وقال الذين أوتوا العلم والإيمان من الملائكة والإنس. لقد لبثتم في كتاب الله في علمه أو قضائه، أو ما كتبه لكم أي أوجبه أو اللوح أو القرآن وهو قوله: ومن ورائهم برزخ. إلى يوم البعث ردوا بذلك ما قالوه وحلفوا عليه. فهذا يوم البعث الذي أنكرتموه. ولكنكم كنتم لا تعلمون أنه حق لتفريطكم في النظر، والفاء لجواب شرط محذوف تقديره: إن كنتم منكرين البعث فهذا يومه، أي فقد تبين بطلان إنكاركم.

فيومئذ لا تنفع الذين ظلموا معذرتهم وقرأ الكوفيون بالياء لأن المعذرة بمعنى العذر، أو لأن تأنيثها غير حقيقي وقد فصل بينهما. ولا هم يستعتبون لا يدعون إلى ما يقتضي **إعتابهم** أي إزالة عتبهم من التوبة والطاعة كما دعوا إليه في الدنيا من قولهم استعتبني فلان فأعتبته أي استرضاني فأرضيته.

[سورة الروم (٣٠) : الآيات ٥٨ الى ٥٩]

---

(١) تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل ناصر الدين البيضاوي ١٢٠/٤

ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل ولئن جئتهم بآية ليقولن الذين كفروا إن أنتم إلا مبطلون (٥٨) كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون (٥٩)

ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل ولقد وصفناهم فيه بأنواع الصفات التي هي في الغرابة كالأمثال، مثل صفة المبعوثين يوم القيامة فيما يقول‌ون وما يقال لهم وما لا يكون لهم من الانتفاع بالمعذرة **والاستعتاب**، أو بينا لهم من كل مثل ينبههم على التوحيد والبعث وصدق الرسول. ولئن جئتهم بآية من آيات القرآن. ليقولن الذين كفروا من فرط عنادهم وقساوة قلوبهم. إن أنتم يعنون الرسول والمؤمنين.

إلا مبطلون مزورون.

كذلك مثل ذلك الطبع. يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون لا يطلبون العلم ويصرون على خرافات اعتقدوها فإن الجهل المركب يمنع إدراك الحق ويوجب تكذيب المحق.

[سورة الروم (٣٠) : آية ٦٠]

فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون (٦٠)

فاصبر على أذاهم. إن وعد الله بنصرتك وإظهار دينك على الدين كله. حق لا بد من إنجازه. ولا يستخفنك ولا يحملنك على الخفة والقلق. الذين لا يوقنون بتكذيبهم وإيذائهم فإنهم شاكون ضالون لا يستبدع منهم ذلك. وعن يعقوب بتخفيف النون، وقرئ «ولا يستحقنك» أي لا يزيغنك فيكونوا أحق بك مع المؤمنين.

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم «من قرأ سورة الروم كان له من الأجر عشر حسنات بعدد كل ملك سبح الله بين السماء والأرض وأدرك ما ضيع في يومه وليلته» .." (١)

"(٨٠) سورة عبس

مكية وآيها ثنتان وأربعون آية

[سورة عبس (٨٠) : الآيات ١ الى ٤]

بسم الله الرحمن الرحيم

عبس وتولى (١) أن جاءه الأعمى (٢) وما يدريك لعله يزكى (٣) أو يذكر فتنفعه الذكرى (٤)

عبس وتولى. أن جاءه الأعمى

روي: أن ابن أم مكتوم أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده صناديد قريش يدعوهم إلى الإسلام، فقال: يا رسول الله علمني مما علمك الله، وكرر ذلك ولم يعلم تشاغله بالقوم، فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم قطعه لكلامه وعبس وأعرض عنه فنزلت، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكرمه ويقول إذا رآه: مرحبا بمن عاتبني فيه ربي، واستخلفه

---

(١) تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل ناصر الدين البيضاوي ٢١١/٤

على المدينة مرتين.
وقرئ «عبس» بالتشديد للمبالغة وأن جاءه علة ل تولى، أو عبس على اختلاف المذهبين، وقرئ «ءأأن» بهمزتين وبألف بينهما بمعنى ألئن جاءه الأعمى فعل ذلك، وذكر الأعمى للإشعار بعذره في الإقدام على قطع كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقوم والدلالة على أنه أحق بالرأفة والرفق، أو لزيادة الإنكار كأنه قال: تولى لكونه أعمى كالالتفات في قوله:
وما يدريك لعله يزكى أي: وأي شيء يجعلك داريا بحاله لعله يتطهر من الآثام بما يتلقف منك.
وفيه إيماء بأن إعراضه كان لتزكية غيره.
أو يذكر فتنفعه الذكرى أو يتعظ فتنفعه موعظتك، وقيل الضمير في لعله للكافر أي أنك طمعت في تزكيه بالإسلام وتذكره بالموعظة ولذلك أعرضت عن غيره، فما يدريك أن ما طمعت فيه كائن، وقرأ عاصم فتنفعه بالنصب جوابا للعل.

[سورة عبس (٨٠) : الآيات ٥ الى ٧]
أما من استغنى (٥) فأنت له تصدى (٦) وما عليك ألا يزكى (٧)
أما من استغنى فأنت له تصدى تتعرض له بالإقبال عليه وأصله تتصدى، وقرأ ابن كثير ونافع تصدى بالإدغام وقرئ. تصدى أي تعرض وتدعى إلى التصدي.
وما عليك ألا يزكى وليس عليك بأس في أن لا يتزكى بالإسلام حتى يبعثك الحرص على إسلامه إلى الإعراض عمن أسلم إن عليك إلا البلاغ.

[سورة عبس (٨٠) : الآيات ٨ الى ١٠]
وأما من جاءك يسعى (٨) وهو يخشى (٩) فأنت عنه تلهى (١٠)
وأما من جاءك يسعى يسرع طالبا للخير.
وهو يخشى الله أو أذية الكفار في إتيانك، أو كبوة الطريق لأنه أعمى لا قائد له.
فأنت عنه تلهى تتشاغل، يقال لها عنه والتهى وتلهى، ولعل ذكر التصدي والتلهي للإشعار بأن **العتاب** على اهتمام قلبه بالغني وتلهيه عن الفقير، ومثله لا ينبغي له ذلك.

[سورة عبس (٨٠) : الآيات ١١ الى ١٦]
كلا إنها تذكرة (١١) فمن شاء ذكره (١٢) في صحف مكرمة (١٣) مرفوعة مطهرة (١٤) بأيدي سفرة (١٥) كرام بررة (١٦)." (١)

---

(١) تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل ناصر الدين البيضاوي ٢٨٦/٥

"كلا ردع عن المعاتب عليه أو عن معاودة مثله. إنها تذكرة.
فمن شاء ذكره حفظه أو اتعظ به والضميران للقرآن، أو **العتاب** المذكور وتأنيث الأول لتأنيث خبره.
في صحف مثبتة فيها صفة لتذكرة، أو خبر ثان أو خبر لمحذوف. مكرمة عند الله.
مرفوعة القدر. مطهرة منزهة عن أيدي الشياطين:
بأيدي سفرة كتبة من الملائكة أو الأنبياء ينتسخون الكتب من اللوح أو الوحي، أو سفراء يسفرون بالوحي بين الله تعالى ورسله، أو الأمة جمع سافر من السفر، أو السفارة والتركيب للكشف يقال سفرت المرأة إذا كشفت وجهها.
كرام أعزاء على الله أو متعطفين على المؤمنين يكلمونهم ويستغفرون لهم. بررة أتقياء.

[سورة عبس (٨٠) : الآيات ١٧ الى ١٩]
قتل الإنسان ما أكفره (١٧) من أي شيء خلقه (١٨) من نطفة خلقه فقدره (١٩)
قتل الإنسان ما أكفره دعاه عليه بأشنع الدعوات وتعجب من إفراطه في الكفران، وهو مع قصره يدل على سخط عظيم وذم بليغ.
من أي شيء خلقه بيان لما أنعم عليه خصوصا من مبدأ حدوثه، والاستفهام للتحقير ولذلك أجاب عنه بقوله:
من نطفة خلقه فقدره فهيأه لما يصلح له من الأعضاء والأشكال، أو فقدره أطوارا إلى أن تم خلقته.

[سورة عبس (٨٠) : الآيات ٢٠ الى ٢٢]
ثم السبيل يسره (٢٠) ثم أماته فأقبره (٢١) ثم إذا شاء أنشره (٢٢)
ثم السبيل يسره ثم سهل مخرجه من بطن أمه بأن فتح فوهة الرحم وألهمه أن ينتكس، أو ذلل له سبيل الخير والشر ونصب السبيل بفعل يفسره الظاهر للمبالغة في التيسير، وتعريفه باللام دون الإضافة للإشعار بأنه سبيل عام، وفيه على المعنى الأخير إيماء بأن الدنيا طريق والمقصد غيرها ولذلك عقبه بقوله:
ثم أماته فأقبره ثم إذا شاء أنشره وعد الإماتة والإقبار في النعم لأن الإماتة وصلة في الجملة إلى الحياة الأبدية واللذات الخالصة والأمر بالقبر تكرمة وصيانة عن السباع، وفي إذا شاء إشعار بأن وقت النشور غير متعين في نفسه، وإنما هو موكول إلى مشيئته تعالى.

[سورة عبس (٨٠) : الآيات ٢٣ الى ٢٥]
كلا لما يقض ما أمره (٢٣) فلينظر الإنسان إلى طعامه (٢٤) أنا صببنا الماء صبا (٢٥)
كلا ردع للإنسان بما هو عليه. لما يقض ما أمره لم يقض بعد من لدن آدم إلى هذه الغاية ما أمره الله بأسره، إذ لا يخلو أحد من تقصير ما.
فلينظر الإنسان إلى طعامه إتباع للنعم الذاتية بالنعم الخارجية.

أنا صببنا الماء صبا استئناف مبين لكيفية إحداث الطعام، وقرأ الكوفيون بالفتح على البدل منه بدل الاشتمال.

[سورة عبس (٨٠) : الآيات ٢٦ الى ٢٨]
ثم شققنا الأرض شقا (٢٦) فأنبتنا فيها حبا (٢٧) وعنبا وقضبا (٢٨)
.." (١)

"أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم في أنفسهم قولا بليغا (٦٣)
﴿أولئك الذين يعلم الله ما فى قلوبهم﴾ من النفاق ﴿فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم فى أنفسهم قولا بليغا﴾ فأعرض عن قبول الأعذار وعظ بالزجر والإنكار وبالغ في وعظهم بالتخويف والإنذار أو أعرض عن عقابهم وعظهم في **عتابهم** وبلغ كنه ما في ضميرك من الوعظ بارتكابهم والبلاغة أن يبلغ بلسانه كنه ما فى جنانه وفى أنفسهم يتعلق يقل لهم أي قل لهم في معنى أنفسهم الخبيثة وقلوبهم المطوية على." (٢)

"ايتانى لكم بالتوارة بعد أربعين ليلة وأصل العجلة طلب الشئ قبل حينه وقيل عجلتم بمعنى تركتم ﴿وألقى الألواح﴾ ضجرا عند استماعه حديث العجل غضبا لله كان فى نفسه شجديد الغضب وكان هرون أبين منه جانبا ولذلك كان أحب إلى بني إسرائيل من موسى فتكسرت فرفعت ستة أسباعها وبقي سبع واحد وكان فيما رفع تفصيل كل شيء وفيما بقي هدى ورحمة ﴿وأخذ برأس أخيه﴾ بشعر رأسه غضبا عليه حيث لم يمنعهم عن عبادة العجل ﴿يجره إليه﴾ **عتابا** عليه لاهونا به وهو حال من موسى ﴿قال ابن أم﴾ بني الابن مع الأم على الفتح كخمسة عشر وبكسر الميم حمزة وعلى الأعراف ١٤٢ ١٤٧ وشامى لأن أصله أمي فحذف الياء اجتزاء عنها بالكسرة وكان ابن أمه وأبيه وإنما ذكر الأم لأنها كانت مؤمنة ولأن ذكرها أدعى إلى العطف ﴿إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني﴾ أي إني لم آل جهدا في كفهم بالوعظ والإنذار ولكنهم استضعفوني وهموا بقتلي ﴿فلا تشمت بي الأعدآء﴾ الذين عبدوا العجل أي لا تفعل بى ما هو أمنيتهم من الاستهاة بي والإساءة إلي ﴿ولا تجعلني مع القوم الظالمين﴾ أي قرينا لهم بغضبك علي." (٣)
"﴿والله يريد الآخرة﴾ أي ما هو سبب الجنة من إعزاز الإسلام بالإثخان في القتل ﴿والله عزيز﴾ يقهر الأعداء ﴿حكيم﴾ في **عتاب** الاولياء." (٤)

---

(١) تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل ناصر الدين البيضاوي ٢٨٧/٥
(٢) تفسير النسفي = مدارك التنزيل وحقائق التأويل النسفي، أبو البركات ٣٦٩/١
(٣) تفسير النسفي = مدارك التنزيل وحقائق التأويل النسفي، أبو البركات ٦٠٧/١
(٤) تفسير النسفي = مدارك التنزيل وحقائق التأويل النسفي، أبو البركات ٦٥٧/١

"عن **العتاب** والعقاب من حل العقال وهو نصب على الحال من المغنوم أو صفة للمصدر أي أكلا حلالا ﴿طيبا﴾ لذيذا هنيئا أو حلالا بالشرع طيبا بالطبع ﴿واتقوا الله﴾ فلا تقدموا على شيء لم يعهد إليكم فيه ﴿إن الله غفور﴾ لما فعلتم من قبل ﴿رحيم﴾ بإحلال ما غنمتم." (١)

"ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله ما على المحسنين من سبيل والله غفور رحيم (٩١)

﴿ليس على الضعفاء﴾ الهرمى والزمنى ﴿ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون﴾ هم الفقراء من مزينة وجهينة وبني عذرة ﴿حرج﴾ إثم وضيق في التأخر ﴿إذا نصحوا لله ورسوله﴾ بأن آمنوا في السر والعلن وأطاعوا كما يفعل الناصح بصاحبه ﴿ما على المحسنين﴾ المعذورين الناصحين ﴿من سبيل﴾ أى لاجناح عليهم ولا طريق **للعتاب** عليهم ﴿والله غفور﴾ يغفر تخلفهم ﴿رحيم﴾ بهم." (٢)

"سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم فأعرضوا عنهم إنهم رجس ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون (٩٥)

﴿سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم﴾ لتتركوهم ولا توبخوهم ﴿فأعرضوا عنهم﴾ فأعطوهم طلبتهم ﴿إنهم رجس﴾ تعليل لترك معاتبتهم أي أن المعاتبة لا تنفع فيهم لا تصلحهم لأنهم أرجاس لا سبيل إلى تطهيرهم ﴿ومأواهم جهنم﴾ ومصيرهم النار يعني وكفتهم النار **عتابا** وتوبيخا فلا تتكلفوا **عتابهم** ﴿جزاء بما كانوا يكسبون﴾ أي يجزون جزاء كسبهم." (٣)

"الضعفاء﴾ في الرأي وهم السفلة والا تباع وكتب

إبراهيم (٢١ _ ٢٢)

الضعفاء بواو قبل الهمزة على لفظ من يفخم الألف قبل الهمزة فيميلها إلى الواو ﴿للذين استكبروا﴾ وهم السادة والرؤساء الذين استغووهم وصدوهم عن الاستماع إلى الأنبياء وأتباعهم ﴿إنا كنا لكم تبعا﴾ تابعين جمع تابع على تبع كخادم وخدم وغائب وغيب أو ذوى تبع والتبع والاتباع يقال تبعه تبعا ﴿فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء﴾ فهل تقدرون على دفع شيء مما نحن فيه ومن الأولى للتبين والثانية للتبعيض كأنه قيل فهل أنتم مغنون عنا بعض الشيء الذي هو عذاب الله أو هما للتبعيض أي فهل أنتم مغنون عنا بعض شيء هو بعض عذاب الله ولما كان قول الضعفاء توبيخا لهم **وعتابا** على استغوائهم لأنهم علموا أنهم لا يقدرون على الإغناء عنهم ﴿قالوا﴾ لهم مجيبين معتذرين ﴿لو هدانا الله

---

(١) تفسير النسفي = مدارك التنزيل وحقائق التأويل النسفي، أبو البركات ٦٥٨/١

(٢) تفسير النسفي = مدارك التنزيل وحقائق التأويل النسفي، أبو البركات ٧٠٢/١

(٣) تفسير النسفي = مدارك التنزيل وحقائق التأويل النسفي، أبو البركات ٧٠٣/١

لهديناكم﴾ أي لو هدانا الله إلى الإيمان في الدنيا لهديناكم إليه أي لو هدانا الله طريق النجاة من العذاب لهديناكم أي لأغنينا عنكم وسلكنا بكم طريق النجاة كما سلكنا بكم طريق الهلكة ﴿سواء علينا أجزعنا أم صبرنا﴾ مستويان علينا الجزع والصبر والهمزة وأم للتسوية روى أنهم يقولون في النار تعالوا نجزع فيجزعون خمسمائة عام فلا ينفعهم الجزع فيقولون تعالوا نصبر فيصبرون خمسمائة عام فلا ينفعهم الصبر ثم يقولون سواء علينا أجزعنا أم صبرنا واتصاله بما قبله من حيث إن **عتابهم** لهم كان جزعا مم هم فيه فقالوا لهم سواء علينا أجزعنا أم صبرنا يريدون أنفسهم وإياهم لاجتماعهم في اعقاب الصلالة التي كانوا مجتمعين فيها يقولون ما هذا الجزع والتوبيخ ولا فائدة في الجزع كما لا فائدة في الصبر ﴿ما لنا من محيص﴾ منجى ومهرب جزعنا أم صبرنا ويجوز أن يكون هذا من كلام الضعفاء والمستكبرين جميعا." (١)

"ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا إن في ذلك لآية لقوم يعقلون (٦٧)

﴿ومن ثمرات النخيل والأعناب﴾ بمحذوف تقديره ونسقيكم من ثمرات النخيل والأعناب أي من عصيرهما وحذف لدلالة نسقيكم قبله عليه وقوله ﴿تتخذون منه سكرا﴾ بيان وكشف عن كنه الإسقاء أو تتخذون ومنه من تكرير الظرف للتوكيد والضمير في منه يرجع إلى المضاف المحذوف الذي هو العصير والسكر الخمر سميت بالمصدر من سكر سكرا وسكرا نحو رشد رشدا ورشدا ثم فيه وجهان أحدهما أن الآية سابقة على تحريم الخمر فتكون منسوخة وثانيهما أن يجمع بين **العتاب** والمنة وقيل السكر النبيذ وهو عصير العنب والزبيب والتمر إذا طبخ حتى يذهب ثلثاه ثم يترك حتى يشتد وهو حلال عند أبي حنيفة وأبي يوسف رحمهما الله إلى حد السكر ويحتجان بهذه الآية وبقوله عليه السلام الخمر حرام لعينها والسكر من كل شراب وبأخبار جمة ﴿ورزقا حسنا﴾ هو الخل والرب و التمر والزبيب وغير ذلك ﴿إن في ذلك لآية لقوم يعقلون﴾." (٢)

"فأمر أولا بما يعصم من الفتنة ويبعد عن مواقعة المعصية وهو غض البصر ثم بالنكاح المحصن للدين المغنى عن الاحرام ثم بعزة النفس الأمارة بالسوء عن الطموح إلى الشهوة عند العجز عن النكاح إلى أن تقدر عليه ﴿والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم﴾ أي المماليك الذين يطلبون الكتابة فالذين مرفوع بالابتداء أو منصوب بفعل يفسره ﴿فكاتبوهم﴾ وهو للندب ودخلت الفاء لتضمنه معنى الشرط والكتاب والمكاتبة **كالعتاب** والمعاتبة وهو أن يقول لمملوكه كاتبتك على ألف درهم فإن أداها عتق ومعناه كتبت لك على نفسي أن تعتق مني إذا وفيت بالمال وكتبت لي على نفسك أن تفي بذلك أو كتبت عليك الوفاء بالمال وكتبت علي العتق ويجوز حالا ومؤجلا ومنجما وغير منجم لإطلاق الأمر ﴿إن علمتم فيهم خيرا﴾ قدرة على الكسب أو أمانة وديانة والندبية معلقة بهذا الشرط ﴿وآتوهم من مال الله الذي آتاكم﴾ أمر للمسلمين على وجه الوجوب بإعانة المكاتبين وإعطائهم سهمهم من الزكاة لقوله تعالى وفي الرقاب وعند الشافعي رحمه الله معناه حطوا من بدل الكتابة ربعا وهذا عندنا على وجه الندب والأول الوجه لأن الإيتاء هو التمليك فلا يقع على الحط سأل صبيح مولاه حويطبا أن يكاتبه فأبى فنزلت واعلم أن العبيد أربعة قن مقتنى للخدمة ومأذون فى

(١) تفسير النسفي = مدارك التنزيل وحقائق التأويل النسفي، أبو البركات ١٦٩/٢

(٢) تفسير النسفي = مدارك التنزيل وحقائق التأويل النسفي، أبو البركات ٢٢١/٢

التجارة وكاتب وآبق فمثال الأول ولي العزلة الذي حصل العزلة بإيثار الخلوة وترك العشرة والثاني ولي العشيرة فهو نجي الحضرة يخالط الناس للخبرة وينظر إليهم بالعبرة ويأمرهم بالعبرة فهو خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم يحكم بحكم الله ويأخذ لله ويعطي في الله ويفهم عن الله ويتكلم مع الله فالدنيا سوق تجارته والعقل رأس بضاعته والعدل في الغضب والرضا ميزانه والقصد في الفقر والغنى عنوانه والعلم مفزعه ومنحاه والقرآن كتاب الإذن من مولاه هو كائن فى الناس النور (٣٣)

بظواهره بائن منهم بسرائره فقد هجرهم فيما له عليم في الله باطنا ثم وصلهم فيما لهم عليه لله ظاهرا ...." (١)

"ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلوا السبيل (١٧)

﴿ويوم نحشرهم﴾ للبعث عند الجمهور وبالياء مكة ويزيد ويعقوب وحفص ﴿وما يعبدون من دون الله﴾ يريد المعبودين من الملائكة والمسبح وعزيز وعن الكلبي يعني الأصنام ينطقها الله وقيل عام وما يتناول العقلاء وغيرهم لأنه أريد به الوصف كأنه قيل ومعبوديهم ﴿فيقول﴾ وبالنون شامي ﴿أأنتم أضللتم عبادى هؤلاء أم هم ضلوا السبيل﴾ والقياس ضلوا عن السبيل إلا أنهم تركوا الجار كما تركوه فى هذا الطريق والأصل إلى الطريق أو للطريق وضل مطاوع أضله والمعنى أأنتم أو قعتموهم في الضلال عن طريق الحق بإدخال الشبه أم هم ضلوا عنه بأنفسهم وإنما لم يقل أأضللتم عبادي هؤلاء أم ضلوا السبيل وزد أنتم وهم لأن السؤال ليس عن الفعل ووجوده لأنه لولا وجوده لما توجه هذا **العتاب** وإنما هو عن متوليه فلا بد من ذكره وإيلائه حرف الاستفهام ليعلم أنه المسئول عنه وفائدة سؤالهم مع علمه تعالى بالمسئول عنه أن يجيبوا بما أجابوا به حتى يبكت عبدتهم بتكذيبهم إياهم فنزيد حسرتهم." (٢)

"ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل ولئن جئتهم بآية ليقولن الذين كفروا إن أنتم إلا مبطلون (٥٨)

﴿ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل ولئن جئتهم بآية ليقولن الذين كفروا إن أنتم إلا مبطلون﴾ أي ولقد وصفنا لهم كل صفة كأنها مثل في غرابتها وقصصنا عليهم كل قصة عجيبة الشأن كصفة المبعوثين يوم القيامة وقصتهم وما يقولون وما يقال لهم وما لا ينفع من اعتذارهم ولايسمع من **استعتابهم** ولكنهم لقسوة قلوبهم إذا جئتهم بآية من آيات القرآن قالوا جئتنا بزور وباطل." (٣)

"والجواب عن الوجه الثالث: وهو أن النبي صلى الله عليه وسلم حكم بأخذ الفداء وهو محرم فنقول لا نسلم أن أخذ الفداء كان محرما وأما قوله سبحانه وتعالى تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة ففيه **عتاب** لطيف على أخذ الفداء من الأسارى والمبادرة إليه ولا يدل على تحريم الفداء إذ لو كان حراما في علم الله لمنعهم من أخذه مطلقا.

---

(١) تفسير النسفي = مدارك التنزيل وحقائق التأويل النسفي، أبو البركات ٢/٥٠٣

(٢) تفسير النسفي = مدارك التنزيل وحقائق التأويل النسفي، أبو البركات ٢/٥٢٩

(٣) تفسير النسفي = مدارك التنزيل وحقائق التأويل النسفي، أبو البركات ٢/٧٠٨

والجواب عن الوجه الرابع: وهو أن النبي صلى الله عليه وسلم وأبا بكر قعدا يبكيان يحتمل أن يكون لأجل أن بعض الصحابة لما خالف الأمر بالقتل واشتغل بالأسر استوجب بذلك الفعل العذاب فبكى النبي صلى الله عليه وسلم خوفا وإشفاقا من نزول العذاب عليهم بسبب ذلك الفعل وهو الأسر وأخذ الفداء والله أعلم.

[سورة الأنفال (٨): الآيات ٦٨ الى ٦٩]

لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم (٦٨) فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا واتقوا الله إن الله غفور رحيم (٦٩)

قوله عز وجل: لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم قال ابن عباس: كانت الغنائم محرمة على الأنبياء والأمم فكانوا إذا أصابوا مغنما جعلوه للقربان فكانت النار تنزل من السماء فتأكله فلما كان يوم بدر أسرع المؤمنون في أخذ الغنائم والفداء فأنزل الله عز وجل: لولا كتاب من الله سبق يعني لولا قضاء من الله سبق في اللوح المحفوظ بأنه يحل لكم الغنائم. ثم لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم وقال الحسن ومجاهد وسعيد بن جبير: لولا كتاب من الله سبق أنه لا يعذب أحدا ممن شهد بدرا مع النبي صلى الله عليه وسلم. وقال ابن جريج: لولا كتاب من الله سبق أنه لا يضل قوما بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون وأنه لا يأخذ قوما فعلوا بجهالة لمسكم يعني لأصابكم بسبب ما أخذتم من الفداء قبل أن تؤمروا به عذاب عظيم قال محمد بن إسحاق: لم يكن من المؤمنين أحد ممن حضر بدرا إلا وأحب الغنائم إلا عمر بن الخطاب فإنه أشار على رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتل الأسرى وسعد بن معاذ فإنه قال: يا رسول الله صلى الله عليه وسلم كان الإثخان في القتل أحب إلي من استبقاء الرجال فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو نزل عذاب من السماء ما نجا منه غير عمر وسعد بن معاذ.

وقوله تعالى: فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا يعني قد أحلت لكم الغنائم وأخذ الفداء فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا.

روي أنه لما نزلت الآية الأولى كف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أيديهم عما أخذوا من الفداء فنزلت فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا فأحل الله الغنائم بهذه الآية لهذه الأمة وكانت قبل ذلك حراما على جميع الأمم الماضية صح من حديث جابر بن عبد الله أن النبي صلى الله عليه وسلم قال «وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي» (ق) عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ولم تحل الغنائم لأحد قبلنا ثم أحل الله لنا الغنائم وذلك بأن الله رأى ضعفنا وعجزنا فأحلها لنا.

وقوله سبحانه وتعالى: واتقوا الله إن الله غفور رحيم يعني وخافوا الله أن تعودوا وإن لم تفعلوا شيئا من قبل أنفسكم قبل أن تؤمروا به واعلموا أن الله قد غفر لكم ما أقدمتم عليه من هذا الذنب ورحمكم وقيل في قوله واتقوا الله إشارة إلى المستقبل وقوله إن الله غفور رحيم إشارة إلى الحالة الماضية.

[سورة الأنفال (٨): الآيات ٧٠ الى ٧١]

يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى إن يعلم الله في قلوبكم خيرا يؤتكم خيرا مما أخذ منكم ويغفر لكم والله

غفور رحيم (٧٠) وإن يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم والله عليم حكيم (٧١)
قوله سبحانه وتعالى: يا أيها النبي قل لمن في أيديكم نزلن في العباس بن عبد المطلب عم رسول الله." (١)

"لخرجنا معكم يعني إلى هذه الغزوة يهلكون أنفسهم يعني بسبب هذه الأيمان الكاذبة والنفاق وفيه دليل على أن الأيمان الكاذبة تهلك صاحبها والله يعلم إنهم لكاذبون يعني في أيمانهم وهو قولهم: لو استطعنا لخرجنا معكم لأنهم كانوا مستطيعين الخروج.

قوله عز وجل: عفا الله عنك لم أذنت لهم قال الطبري: هذا **عتاب** من الله عز وجل عاتب الله به نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم أي في إذنه لمن أذن له في التخلف عنه من المنافقين حين شخص إلى تبوك لغزو الروم. والمعنى:
عفا الله عنك يا محمد ما كان منك في إذنك لهؤلاء المنافقين الذين استأذنوك في ترك الخروج معك إلى تبوك.

قال عمرو بن ميمون الأودي: اثنان فعلهما رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يؤمر بشيء فيهما إذنه للمنافقين وأخذه الفداء من أسارى بدر فعاتبه الله كما تسمعون وقال سفيان بن عيينة: انظروا إلى هذا اللطف بدأه بالعفو قبل أن يعيره بالذنب.

((فصل)) استدل بهذه الآية من يرى جواز صدور الذنوب من الأنبياء وبيانه من وجهين: أحدهما، أنه سبحانه وتعالى. قال: عفا الله عنك والعفو يستدعي سابقة الذنب الوجه الثاني أنه سبحانه وتعالى قال لم أذنت لهم وهذا استفهام معناه الإنكار.

والجواب عن الأول: إنا لا نسلم أن قوله تعالى عفا الله عنك يوجب صدور الذنب بل نقول إن ذلك يدل على المبالغة في التعظيم والتوقير فهو كما يقول الرجل لغيره إذا كان معظما له عفا الله عنك ما صنعت في أمري رضي الله عنك ما جوابك عن كلامي وعافاك الله وغفر لك كل هذه الألفاظ في ابتداء الكلام وافتتاحه تدل على تعظيم المخاطب به قال علي بن الجهم يخاطب المتوكل:

عفا الله عنك إلا حرمة ... تعود بفضلك أن أبعدا

ألم تر عبدا عدا طوره ... ومولى عفا ورشيدا هدى

أقلني أقالك من لم يزل ... يقيل ويصرف عنك الردى

والجواب عن الثاني: أنه لا يجوز أن يكون المراد بقوله لم أذنت لهم ؛ لإنكار عليه وبيانه: إما أن يكون قد صدر عنه ذنب في هذه الواقعة أولا فإن كان قد صدر عنه ذنب فذكر الذنب بعد العفو لا يليق. فقوله: عفا الله عنك، يدل على حصول العفو وبعد حصول العفو، يستحيل أن يتوجه الإنكار عليه وإن لم يكن قد صدر عنه ذنب امتنع الإنكار عليه فثبت بهذا أن الإنكار يمتنع في حقه صلى الله عليه وسلم وقال القاضي عياض في كتابه الشفاء في الجواب عن قوله عفا الله عنك لم أذنت لهم: أنه أمر لم يتقدم للنبي صلى الله عليه وسلم فيه من الله تعالى نهي فيعد معصية ولا عده تعالى عليه معصية بل لم يعده أهل العلم معاتبة وغلطوا من ذهب إلى ذلك قال نفطويه: وقد حاشاه لله من ذلك بل كان

---

(١) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل الخازن ٣٢٨/٢

مخيرا في أمرين قالوا: وقد كان له أن يفعل ما يشاء فيما لم ينزل عليه فيه وحي فكيف وقد قال الله سبحانه وتعالى له فأذن لمن شئت منهم فلما أذن لهم أعلمه الله بما لم يطلع عليه من سرهم أنه لو لم يأذن لهم لقعدوا وأنه لا حرج عليه فيما فعل وليس عفا هنا بمعنى غفر بل كما قال النبي صلى الله عليه وسلم عفا الله لكم عن صدقة الخيل والرقيق ولم تجب عليهم قط أي يلزمكم ذلك ونحوه للقشيري. قال:

وإنما يقول العفو لا يكون إلا عن ذنب من لم يعرف كلام العرب قال ومعنى عفا الله عنك أي لم يلزمك ذنب.

قال الداودي: إنها تكرمة. وقال مكي: هو استفتاح كلام مثل أصلحك الله وأعزك وحكى السمرقندي أن معناه عفاك الله. وقيل معناه: أدام الله لك العفو لم أذنت لهم يعني في التخلف عنك وهذا يحمل على ترك الأولى." (١)

"بأسكم يعني الدروع والجواشن وسائر ما يلبس في الحرب من السلاح، والبأس الحرب يعني تقيكم في بأسكم السلاح أن يصيبكم. قال عطاء الخراساني: إنما نزل القرآن على قدر معرفتهم فقال تعالى وجعل لكم من الجبال أكنانا، وما جعل لهم من السهول أعظم وأكثر، ولكنهم كانوا أصحاب جبال كما قال ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها وما جعل لهم من القطن والكتان أكثر، ولكن كانوا أصحاب صوف ووبر وشعر، وكما قال تعالى وينزل من السماء من جبال فيها من برد وما أنزل من الثلج أكثر، ولكنهم كانوا لا يعرفون الثلج وقال تقيكم الحر وما جعل لهم مما يقي من البرد أكثر ولكنهم كانوا أصحاب حر. وقوله سبحانه وتعالى كذلك يعني كما أنعم عليكم بهذه النعم يتم نعمته عليكم يعني نعم الدنيا والدين لعلكم تسلمون يعني لعلكم يا أهل مكة تخلصون لله الوحدانية والربوبية والعبادة والطاعة وتعلمون، أنه لا يقدر على هذه الإنعامات إلا الله تعالى فإن تولوا يعني فإن أعرضوا عن الإيمان بك وتصديقك يا محمد وآثروا ما هم فيه من الكفر واللذات الدنيوية، فإنما وبال ذلك عليهم لا عليك فإنما عليك البلاغ المبين يعني ليس عليك في ذلك عتب، ولا سمة تقصير إنما عليك البلاغ، وقد فعلت ذلك ثم ذمهم الله تعالى بقوله يعرفون نعمت الله ثم ينكرونها قال السدي: نعمة الله يعني محمدا صلى الله عليه وسلم أنكروه وكذبوه. وقيل: نعمة الله هي الإسلام لأنه من أعظم النعم التي أنعم الله بها على عباده، ثم إن كفار مكة أنكروه وجحدوه، وقال مجاهد وقتادة: نعمة الله ما عدد عليهم في هذه السورة من النعم يقرون بأنها من الله، ثم إذا قيل لهم: صدقوا وامتثلوا أمر الله فيها ينكرونها ويقولون ورثناها عن آبائنا. وقال الكلبي: إنه لما ذكر هذه النعم قالوا: هذه نعم كلها من الله تعالى لكنها بشفاعة آلهتنا وقيل هو قول الرجل لولا فلان لكان كذا ولولا فلان لما كان كذا وقيل إنهم يعترفون بأن الله أنعم بهذه النعم، ولكنهم لا يستعملونها في طلب رضوانه ولا يشكرونه عليها وأكثرهم الكافرون إنما قال الله سبحانه وتعالى أكثرهم الكافرون مع أنهم كانوا كلهم كافرين، لأنه كان فيهم من لم يبلغ بعد حد التكليف فعبر بالأكثر عن البالغين، وقيل: أراد بالأكثر الكافرين الحاضرين المعاندين، وقد كان فيهم من ليس بمعاند وإن كان كافرا وقيل إنه عبر بالأكثر عن الكل لأنه قد يذكر الأكثر، ويراد به الجمع قوله سبحانه وتعالى ويوم نبعث من كل أمة شهيدا

لما ذكر الله سبحانه وتعالى نعمه على الكافرين وإنكارهم لها، وذكر أن أكثرهم كافرون، أتبعه بذكر الوعيد لهم في الآخرة

---

(١) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل الخازن ٣٦٧/٢

فقال تعالى: ويوم نبعث من كل أمة شهيدا يعني رسولا وذلك اليوم، هو يوم القيامة والمراد بالشهداء: الأنبياء يشهدون على أممهم بإنكار نعم الله عليهم وبالكفر ثم لا يؤذن للذين كفروا يعني في الاعتذار وقيل لا يؤذن لهم في الكلام أصلا.
وقيل: لا يؤذن لهم بالرجوع إلى
دار الدنيا فيعتذروا ويتوبوا وقيل: لا يؤذن لهم في معارضة الشهود بل يشهدون عليهم ويقرونهم على ذلك ولا هم يستعتبون **الاستعتاب**: طلب **العتاب**، والمعتبة: هي الغلظة والموجدة التي يجدها الإنسان في نفسه على غيره، والرجل إنما يطلب **العتاب** من خصمه ليزيل ما في نفسه عليه من الموجدة والغضب، ويرجع إلى الرضا عنه وإذا لم يطلب **العتاب** منه دل ذلك على أنه ثابت على غضبه عليه، ومعنى الآية: أنهم لا يكلفون أن يرضوا ربهم في ذلك اليوم، لأن الآخرة ليست دار غضبه عليه، ومعنى الآية أنهم لا يكلفون أن يرضوا ربهم في ذلك اليوم لأن الآخرة ليست دار تكليف ولا يرجعون إلى الدنيا فيتوبوا ويرجعوا يرضوا ربهم **فالاستعتاب**: التعرض لطلب الرضا، وهذا باب مسند على الكفار في الآخرة وإذا رأى الذين ظلموا يعني ظلموا أنفسهم بالكفر والمعاصي العذاب يعني عذاب جهنم فلا يخفف عنهم يعني العذاب ولا هم ينظرون يعني لا يؤخرون ولا يمهلون وإذا رأى الذين أشركوا يعني يوم القيامة شركاءهم يعني أصنامهم التي كانوا يعبدونها في الدنيا قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعوا من دونك يعني أربابا وكنا نعبدهم ونتخذهم آلهة فألقوا يعني الأصنام إليهم يعني إلى عابديها القول إنكم لكاذبون يعني أن الأصنام قالت للكفار: إنكم لكاذبون يعني في تسميتنا آلهة وما دعوناكم إلى عبادتنا. فإن." (١)

"[سورة فصلت (٤١): الآيات ١٨ الى ٢٤]

ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون (١٨) ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون (١٩) حتى إذا ما جاؤها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون (٢٠) وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون (٢١) وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون (٢٢)
وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين (٢٣) فإن يصبروا فالنار مثوى لهم وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين (٢٤)

ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون أي يتقون الشرك والأعمال الخبيثة وهم صالح ومن آمن معه من قومه.
قوله تعالى: ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون أي يساقون ويدفعون وقيل يحبس أولهم حتى يلحق آخرهم حتى إذا ما جاؤها يعني النار شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم أي بشراتهم وقيل فروجهم بما كانوا يعملون معناه أن الجوارح تنطق بما كتمت الألسن من عملهم (م) عن أنس رضي الله تعالى عنه قال «كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فضحك فقال: هل تدرون مم أضحك قلنا الله ورسوله أعلم قال من مخاطبة العبد ربه عز وجل يقول يا رب ألم تجرني من الظلم، قال فيقول بلى فيقول فإني لا أجيز اليوم على نفسي إلا شاهدا مني قال فيقول كفى بنفسك اليوم

---

(١) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل الخازن ٩٣/٣

عليك حسيبا وبالكرام الكاتبين عليك شهودا قال فيختم على فيه ويقال لأعضائه انطقي فتنطق بأعماله ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول بعدا لكن وسحقا فعنكن كنت أناضل» وقالوا يعني الكفار الذين يجرون إلى النار لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء معناه أن القادر الذي خلقكم أول مرة في الدنيا وأنطقكم ثم أعادكم بعد الموت قادر على إنطاق الأعضاء والجوارح وهو قوله تعالى: وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون وقيل تم الكلام عند قوله الذي أنطق كل شيء ثم ابتدأ بقوله وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون وقيل إنه ليس من جواب الجلود وما كنتم تستترون أي تستخفون وقيل معناه تظنون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم والمعنى أنكم لا تقدرون على الاستخفاء من جوارحكم ولا تظنون أنها تشهد عليكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان الكفار يقولون إن الله لا يعلم ما في أنفسنا ولكنه يعلم ما يظهر (ق). عن عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه قال «اجتمع عند البيت ثقفيان وقرشي أو قرشيان وثقفي كثير شحم بطونهم قليل فقه قلوبهم فقال أحدهم أترون أن الله تعالى يسمع ما نقول قال الآخر يسمع إذا جهرنا ولا يسمع إن أخفينا وقال الآخر إن كان يسمع إذا جهرنا فإنه يسمع إذا أخفينا فأنزل الله تعالى: وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ول ا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون

قيل الثقفي هو عبد ياليل وختناه القرشيان ربيعة وصفوان بن أمية.

قوله تعالى: وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أي ظنكم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون أرداكم أي أهلككم قال ابن عباس طرحكم في النار فأصبحتم من الخاسرين ثم أخبر عن حالهم بقوله تعالى فإن يصبروا فالنار مثوى لهم أي مسكن وإن يستعتبوا أي يسترضوا ويطلبوا العتبى والمعتب هو الذي قبل **عتابه** وأجيب إلى ما سأل فما هم من المعتبين أي المرضيين.." (١)

"أحد، وهذا لا يلزم، لأن معنى قوله لا تعلمونهم: لا تعرفونهم: أي لا تعرفون آحادهم وأعيانهم وقد يعرف صنفهم من الناس، ألا ترى أنه قال مثل ذلك في المنافقين

وإن جنحوا للسلم فاجنح لها السلم هنا المهادنة، والآية منسوخة بآية القتال في براءة، لأن مهادنة كفار العرب لا تجوز وألف بين قلوبهم قيل: المراد، بين قلوب الأوس والخزرج إذ كانت بينهما عداوة فذهبت بالإسلام، واللفظ عام ومن اتبعك من المؤمنين عطف على اسم الله، وقال الزمخشري مفعول معه، والواو بمعنى مع أي حسبك وحسب من اتبعك الله إن يكن منكم عشرون صابرون الآية: إخبار يتضمن وعدا بشرط الصبر ووجود ثبوت الواحد للعشرة ثم نسخ بثبوت الواحد للاثنين ذلك بأنهم قوم لا يفقهون أي: يقاتلون على غير دين ولا بصيرة فلا يثبتون ما كان لنبي أن يكون له أسرى لما

(١) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل الخازن ٨٦/٤

أخذ الأسرى يوم بدر أشار أبو بكر بحياتهم، وأشار عمر بقتلهم. فنزلت الآية **عتابا** على استبقائهم حتى يثخن في الأرض أي يبايع في القتال تريدون عرض الدنيا **عتاب** لمن رغب في فداء الأسرى لولا كتاب من الله سبق الكتاب ما قضاه الله في الأزل من العفو عنهم، وقيل: ما قضاه الله من تحليل الغنائم لهم فيما أخذتم يريد به الأسرى وفداؤهم، ولما نزلت الآية قال رسول الله صلى الله تعالى عليه واله وسلم: لو نزل عذاب ما نجا منه غيرك يا عمر فكلوا مما غنمتم إباحة للغنائم ولفداء الأسارى إن يعلم الله في قلوبكم خيرا أي إن علم في قلوبكم إيمانا جبر عليكم ما أخذ منكم من الفدية، قال العباس: في نزلت وكان قد افتدى يوم بدر، ثم أعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم من المال ما لا يقدر أن يحمله، فقال: قد أعطاني الله خيرا مما أخذ مني، وأنا أرجو أن يغفر لي وإن يريدوا خيانتك الآية تهديد لهم

إن الذين آمنوا إلى آخر السورة مقصدها: بيان منازل المهاجرين." (١)

"[جمع رشوة] على الأحكام وغير ذلك والذين يكنزون الذهب والفضة ورد في الحديث أن: «كل ما أديت زكاته فليس بكنز، وما لم تؤد زكاته فهو كنز» ، وقال أبو ذر وجماعة من الزهاد: كلما فضل عن حاجة الإنسان فهو كنز «١» ولا ينفقونها الضمير للأموال والكنوز التي يتضمنها المعنى، وقيل: هي الفضة، واكتفى في ذلك عن الذهب إذا الحكم فيهما واحد يوم يحمى العامل في الظرف أليم أو محذوف عليها الضمير يعود على ما يعود عليه ضمير ينفقونها.

اثنا عشر شهرا هي الأشهر المعروفة أولها المحرم وآخرها ذو الحجة، وكان الذي جعل المحرم أول شهر من العام عمر بن الخطاب رضي الله عنه في كتاب الله أي: في اللوح المحفوظ، وقيل: في القرآن والأول أرجح لقوله: يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم هي رجب وذو القعدة وذو الحجة والمحرم ذلك الدين القيم يعني أن تحريم الأشهر الحرم هو الدين المستقيم، دين إبراهيم وإسماعيل، وكانت العرب قد تمسكت به حتى غيره بعضهم فلا تظلموا فيهن أنفسكم الضمير في قوله: فيهن للأشهر الحرم، تعظيما لأمرها وتغليظ للذنوب فيها، وإن كان الظلم ممنوعا في غيرها، وقيل:

الضمير للاثني عشر شهرا، أو الزمان كله، والأول أظهر وقاتلوا المشركين كافة أي قاتلوهم في الأشهر الحرم، فهذا نسخ لتحريم القتال فيها، وكافة حال من الفاعل أو المفعول إنما النسيء وهو تأخير حرمة الشهر إلى الشهر الآخر، وذلك أن العرب كانوا أصحاب حروب وإغارات، وكانت محرمة عليهم في الأشهر الحرم، فيشق عليهم تركها فيجعلونها في شهر حرام ويحرمون شهرا آخر بدلا منه، وربما أحلوا المحرم وحرموا صفر حتى تكمل في العام أربعة أشهر محرمة يحلونه عاما ويحرمونه عاما أي تارة يحلون وتارة يحرمون، ولم يرد العام حقيقة ليواطؤا عدة ما حرم الله أي ليوافقوا عدد الأشهر الحرم وهي أربعة فيحلوا ما حرم الله يعني: إحلالهم القتال في الأشهر الحرم

ما لكم إذا قيل لكم انفروا **عتاب** لمن تخلف عن غزوة تبوك اثاقلتم إلى الأرض عبارة عن

---

(١) تفسير ابن جزي = التسهيل لعلوم التنزيل ا بن جزي الكلبي ١/٣٢٩

(١) . رواه الإمام الطبري في تفسيره بسنده إلى ابن عمر.." (١)

"تخلفهم، وأصل اثاقلتم تثاقلتم إلا تنفروا يعذبكم شرط وجزاء وهو العذاب في الدنيا والآخرة إلا تنصروه فقد نصره الله شرط وجواب، والضمير لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فإن قيل:

ارتبط هذا الشرط مع جوابه، فالجواب: أن المعنى إن لم تنصروه أنتم فسينصره الله الذي نصره حين كان ثاني اثنين، فدل بقوله نصره الله على نصره في المستقبل إذ أخرجه الذين كفروا يعني خروجه من مكة مهاجرا إلى المدينة، وأسند إخراجه إلى الكفار، لأنهم فعلوا معه من الأذى ما اقتضى خروجه ثاني اثنين هو أبو بكر الصديق إذ يقول لصاحبه لا تحزن يعني أبا بكر إن الله معنا يعني بالنصر واللطف فأنزل الله سكينته عليه الضمير للرسول صلى الله تعالى عليه وسلم، وقيل: لأبي بكر، لأن النبي صلى الله عليه وسلم نزل معه السكينة، ويضعف ذلك بأن الضمائر بعدها للرسول عليه السلام وأيده بجنود لم تروها يعني الملائكة يوم بدر وغيره وجعل كلمة الذين كفروا السفلى يريد إذلالها ودحضها.

وكلمة الله هي العليا قيل هي: لا إله إلا الله، وقيل: الدين كله.

انفروا خفافا وثقالا أمر بالنفير إلى الغزو، والخفة استعارة لمن يمكنه السفر بسهولة، والثقل من يمكنه بصعوبة، وقال بعض العلماء: الخفيف: الغني، والثقيل:

الفقير، وقيل: الخفيف الشاب، والثقيل الشيخ، وقيل: الخفيف النشيط، والثقيل الكسلان، وهذه الأقوال أمثلة في الثقل والخفة، وقيل: إن هذه الآية منسوخة بقوله: ليس على الضعفاء ولا على المرضى الآية لو كان عرضا قريبا الآية: نزلت هي وكثير مما بعدها في هذه السورة في المنافقين الذين تخلفوا عن غزوة تبوك، وذلك أنها كانت إلى أرض بعيدة وكانت في شدة الحر وطيب الثمار والظلال، فثقلت عليهم فأخبر الله في هذه الآية أن السفر لو كان لعرض من الدنيا، أو إلى مسافة قريبة لفعلوه بعدت عليهم الشقة أي الطريق والمسافة وسيحلفون بالله إخبار بغيب وهو أنهم يعتذرون بأعذار كاذبة ويحلفون يهلكون أنفسهم أي يوقعونها في الهلاك بحلفهم الكاذبة، أو تخلفهم عن الغزو

عفا الله عنك لم أذنت لهم الآية: كان بعض المنافقين قد استأذن النبي صلى الله عليه وسلم في التخلف عن غزوة تبوك فأذن لهم، فعاتبه الله تعالى على إذنه لهم، وقدم العفو على **العتاب** إكراما له." (٢)

"صلى الله عليه وسلم وقيل: إن قوله عفا الله عنك ليس لذنب ولا **عتاب**، ولكنه استفتاح كلام كما يقول:

أصلحك الله حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين كانوا قد قالوا: استأذنوه في القعود، فإن أذن لنا قعدنا، وإن لم يأذن لنا قعدنا، وإنما كان يظهر الصدق من الكذب لو لم يأذن لهم، فحينئذ كان يقعد العاصي والمنافق ويسافر المطيع لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله الآية: لا يستأذنك في التخلف عن الغزو لغير عذر من يؤمن بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم أي شكت، ونزلت الآية في عبد الله بن أبي بن سلول والجد بن قيس ولو أرادوا الخروج الآية. أي لو كانت لهم

---

(١) تفسير ابن جزي = التسهيل لعلوم التنزيل ابن جزي الكلبي ٣٣٧/١

(٢) تفسير ابن جزي = التسهيل لعلوم التنزيل ابن جزي الكلبي ٣٣٨/١

نية في الغزو والاستعداد له قبل أوانه:
انبعاثهم أي خروجهم فثبطهم أي كسر عزمهم وجعل في قلوبهم الكسل وقيل اقعدوا يحتمل أن يكون القائل لهم اقعدوا هو الله تعالى، وذلك عبارة عن قضائه عليهم بالقعود، ويحتمل أن يكون ذلك من قول بعضهم لبعض مع القاعدين أي مع النساء والصبيان وأهل الأعذار، وفي ذلك ذم لهم لاختلاطهم في القعود مع هؤلاء لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا أي شرا وفسادا ولأوضعوا أي أسرعوا السير، والإيضاع سرعة السير، والمعنى أنهم يسرعون للفساد والنميمة خلالكم أي بينكم يبغونكم الفتنة أي يحاولون أن يفتنوكم سماعون لهم وقيل: يسمعون أخبارهم وينقلونها إليهم لقد ابتغوا الفتنة من قبل أي طلبوا الفساد، وروى أنها نزلت في عبد الله بن أبي بن سلول وأصحابه من المنافقين وقلبوا لك الأمور أي دبروها من كل وجه، فأبطل الله سعيهم ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني لما دعا النبي صلى الله تعالى عليه واله وسلم إلى غزوة تبوك قال الجد بن قيس وكان من المنافقين: ائذن لي في القعود ولا تفتني برؤية بني الأصفر فإني لا أصبر عن النساء ألا في الفتنة سقطوا أي وقعوا في الفتنة التي فروا منها إن تصبك حسنة تسؤهم الحسنة هنا النصر والغنيمة وشبه ذلك يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل أي قد حذرنا وتأهبنا من قبل قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا أي ما قدر." (١)

"إنه يبدؤا الخلق ثم يعيده أي يبدؤه في الدنيا ويعيده بعد الموت في الآخرة، والبداءة دليل على العودة ليجزي تعليل للعودة وهي البعثة بالقسط أي بعدله في جزائهم أو بقسطهم في أعمالهم الصالحة هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وصف أفعال الله وقدرته وحكمته والضياء أعظم من النور وقدره منازل الضمير للقمر والمعنى قدر سيره في منازل والحساب يعني حساب الأوقات من الأشهر والأيام والليالي ما خلق الله ذلك إلا بالحق أي ما خلقه عبثا، والإشارة بذلك إلى ما تقدم من المخلوقات إن الذين لا يرجون لقاءنا قيل: معنى يرجون هنا يخافون، وقيل: لا يرجون حسن لقاءنا، فالرجاء على أصله، وقيل: لا يرجون: لا يتوقعون أصلا، ولا يخطر ببالهم ورضوا بالحياة الدنيا أي قنعوا أن تكون حظهم ونصيبهم واطمأنوا بها أي سكنت أنفسهم عن ذكر الانتقال عنها والذين هم عن آياتنا غافلون يحتمل أن تكون هي الفرقة الأولى، فيكون من عطف الصفات، أو تكون غيرها.
يهديهم ربهم بإيمانهم أي يسددهم بسبب إيمانهم إلى الاستقامة أو يهديهم في الآخرة إلى طريق الجنة، وهو أرجح لما بعده دعواهم فيها أي دعاؤهم ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضي إليهم أجلهم أي: لو يعجل الله للناس الشر كما يحبون تعجيل الخير لهلكوا سريعا، ونزلت الآية عند قوم: في دعاء الإنسان على نفسه وماله وولده، وقيل: نزلت في الذين قالوا: إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء [الأنفال: ٣٢] وإذا مس الإنسان

---

(١) تفسير ابن جزي = التسهيل لعلوم التنزيل ابن جزي الكلبي ٣٣٩/١

الضر دعانا **عتاب** في ضمنه نهي لمن يدعو الله عند الضر، ويغفل عنه عند العافية لجنبه أي مضطجعا، وروي أنها نزلت في أبي حذيفة بن المغيرة لمرض كان به ولقد أهلكنا القرون إخبار ضمنه وعيد للكفار لننظر معناه." (١)

"أضيافه لعمرك قسم والعمر الحياة، ففي ذلك كرامة للنبي صلى الله عليه وسلم، أن الله أقسم بحياته، أو قيل: هو من قول الملائكة للوط، وارتفاعه بالابتداء وخبره محذوف تقديره: لعمرك قسمي واللام للتوطئة إنهم لفي سكرتهم يعمهون الضمير لقوم لوط، وسكرتهم:

ضلالهم وجهلهم، ويعمهون: أي يتحيرون فأخذتهم الصيحة أي صيحة جبريل وهي أخذه لهم مشرقين أي داخلين في الشروق وهو وقت بزوغ الشمس، وقد تقدم تفسير ما بعد هذا من قصتهم في [هود: ٧٦] للمتوسمين أي للمتفرسين، ومنه فراسة المؤمن، وقيل: للمعتبرين، وحقيقة التوسم النظر إلى السيمة وإنها لبسبيل مقيم أي بطريق ثابت يراه الناس والضمير للمدينة المهلكة وإن كان أصحاب الأيكة لظالمين أصحاب الأيكة قوم شعيب والأيكة الغيضة من الشجر لما كفروا أضرمها الله عليهم نارا وإنهما لبإمام مبين الضمير في إنهما قيل: إنه لمدينة قوم لوط وقوم شعيب، فالإمام على هذا: ال طريق أي إنهما بطريق واضح يراه الناس، وقيل: الضمير للوط وشعيب، أي إنهما على طريق من الشرع واضح والأول أظهر أصحاب الحجر هم ثمود قوم صالح، الحجر واديهم هو بين المدينة والشام المرسلين ذكره بالجمع وإنما كذبوا واحدا منهم، وفي ذلك تأويلان أحدهما أن من كذب واحدا من الأنبياء لزمه تكذيب الجميع لأنهم جاءوا بأمر متفق من التوحيد، والثاني: أنه أراد الجنس كقولك: فلان يركب الخيل، وإن لم يركب إلا فرسا واحدا وآتيناهم آياتنا يعني الناقة، وما كان فيها من العجائب وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا النحت: النقر بالمعاويل وشبهها من الحجر والعود وشبه ذلك وكانوا ينقرون بيوتهم في الجبال آمنين يعني آمنين من تهدم بيوتهم لوثاقتها، وقيل: آمنين من عذاب الله إلا بالحق يعني أنها لم تخلق عبثا.

فاصفح الصفح الجميل قيل: إن الصفح الجميل هو الذي ليس معه عقاب ولا **عتاب**، وفي الآية مهادنة للكفار منسوخة ب ا لسيف ولقد آتيناك سبعا من المثاني يعني: أم القرآن لأنها سبع آيات، وقيل: يعني السور السبع الطوال، وهي البقرة وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، والأنفال مع براءة، والأول أرجح لوروده في." (٢)

"إنما تتخذ بيوتا في بعض الجبال، وبعض الشجر، وبعض الأماكن، وعرش معناه هيأ أو بنى، وأكثر ما يستعمل فيما يكون من الأغصان والخشب

ثم كلي من كل الثمرات عطف كلي على اتخذي، ومن للتبعض، وذلك إنها إنما تأكل النوار من الأشجار، وقيل: المعنى من كل الثمرات التي تشتهيها فاسلكي سبل ربك يعني الطرق في الطيران، وأضافها إلى الرب لأنها ملكه وخلقه ذللا أي مطيعة منقادة ويحتمل أن يكون حالا من السبل، قال مجاهد: لم يتوعر قط على النحل طريق، أو حالا من النحل أي منقادة لما أمرها الله به يخرج من بطونها شراب يعني العسل مختلف ألوانه أي منه أبيض وأصفر وأحمر فيه شفاء للناس

---

(١) تفسير ابن جزي = التسهيل لعلوم التنزيل ابن جزي الكلبي ٣٥٣/١

(٢) تفسير ابن جزي = التسهيل لعلوم التنزيل ابن جزي الكلبي ٤٢٠/١

الضمير للعسل، لأن أكثر الأدوية مستعملة من العسل، كالمعاجين والأشربة النافعة من الأمراض، وكان ابن عمر يتداوى به من كل شيء، فكأنه أخذه على العموم. وعلى ذلك الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أن رجلا جاء إليه، فقال إن أخي يشتكي بطنه، فقال اسقه عسلا، فذهب ثم رجع فقال قد سقيته فما نفع، قال فاذهب فاسقه عسلا فقد صدق الله وكذب بطن أخيك، فسقاه فبرأ «١» إلى أرذل العمر أي إلى أخسه وأحقره، وهو الهرم. وقيل: حده خمسة وسبعون عاما، وقيل: ثمانون، والصحيح أنه لا يحصر إلى مدة معينة، وأنه يختلف بحسب الناس لكي لا يعلم بعد علم شيئا اللام لام الصيرورة أي يصير إذا هرم لا يعلم شيئا بعد أن كان يعلم قبل الهرم، وليس المراد نفي العلم بالكلية، بل ذلك عبارة عن قلة العلم لغلبة النسيان، وقيل: المعنى لئلا يعلم زيادة على علمه شيئا.

والله فضل بعضكم على بعض في الرزق الآية في معناها قولان: أحدهما أنها احتجاج على الوحدانية، كأنه يقول أنتم لا تسوون بين أنفسكم وبين مماليككم في الرزق، ولا تجعلونهم شركاء لكم، فكيف تجعلون عبيدي شركاء لي، والآخر: أنها عتاب وذم لمن لا يحسن إلى مملوكه حتى يرد ما رزقه الله عليه كما جاء في الحديث: «أطعموهم مما تأكلون واكسوهم مما تلبسون» «٢» والأول أرجح أفبنعمة الله يجحدون الجحد هنا على المعنى الأول إشارة إلى الإشراك بالله، وعبادة غيره، وعلى المعنى الثاني إشارة إلى جنس المماليك فيما يجب لهم من الإنفاق

والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا يعني الزوجات،

---

(١) . رواه البخاري في كتاب الطب ج ٧ ص ١٣ عن أبي سعيد الخدري.

(٢) . أخرج أحمد عن أبي ذر بمعناه ج ٥ ص ٢٠٩ وأوله: إخوانكم خولكم. فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل.." (١)

"نفر الرجل إذا خرج مسرعا، أو جمع نفر إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم أحسنتم الأول بمعنى الحسنات، والثاني بمعنى الإحسان كقولك: أحسنت إلى فلان، ففيه تجنيس، واللام فيه بمعنى إلى، وكذلك اللام في قوله: وإن أسأتم فلها فإذا جاء وعد الآخرة ليسوؤا وجوهكم يعنى إذا أفسدوا في المرة الأخيرة، بعث الله عليهم أولئك العباد للانتقام منهم، فالآخرة صفة للمرة، ومعنى يسوؤا: يجعلونها تظهر فيها آثار الشر والسوء كقوله: سيئت وجوه الذين كفروا، واللام لام كي وهي تتعلق ببعثنا المحذوف لدلالة الأول عليه، وقيل:

هي لام الأمر وليدخلوا المسجد يعنى بيت المقدس وليتبروا من التبار، وهو الإهلاك وشدة الفساد ما علوا ما مفعول ليتبروا: أي يهلكوا ما غلبوا عليه من البلاد، وقيل إن ما ظرفية أي يفسدوا مدة علوهم.

عسى ربكم أن يرحمكم خطاب لبني إسرائيل ومعناه ترجية لهم بالرحمة إن تابوا بعد الرحمة الثانية وإن عدتم عدنا خطاب لبني إسرائيل: أي إن عدتم إلى الفساد عدنا إلى عقابكم، وقد عادوا فبعث الله عليهم محمدا صلى الله عليه وسلم وأمته يقتلونهم ويذلونهم إلى يوم القيامة. حصيرا أي سجنا وهو من الحصر، وقيل: أراد به ما يفرش ويبسط كالحصير المعروف

---

(١) تفسير ابن جزي = التسهيل لعلوم التنزيل ابن جزي الكلبي ٤٣١/١

يهدي للتي هي أقوم أي الطريقة والحالة التي هي أقوم، وقيل: يعنى لا إله إلا الله، واللفظ أعم من ذلك ويدع الإنسان بالشر دعاءه بالخير المعنى ذم، **وعتاب** لما يفعله الناس عند الغضب من الدعاء على أنفسهم وأموالهم وأولادهم، وأنهم يدعون بالشر في ذلك الوقت كما يدعون بالخير في وقت التثبت، وقيل: إن الآية نزلت في النضر بن الحارث حين قال: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك [الأنفال: ٣٢] الآية، وقد تقدم أن الصحيح في قائلها أنه أبو جهل وكان الإنسان عجولا الإنسان هنا وفي الذي قبله اسم جنس، وقيل: يعنى هنا آدم وهو بعيد.

فمحونا آية الليل فيه وجهان: أحدهما أن يراد أن الليل والنهار آيتان في أنفسهما، فتكون الإضافة في آية الليل وآية النهار كقولك: مسجد الجامع أي الآية التي هي الليل، والآية التي هي النهار ومحو آية الليل على هذا كونه مظلما. والوجه الثاني أن يراد بآية الليل القمر، وآية النهار الشمس، ومحو آية الليل على هذا كون القمر لم يجعل له ضوء الشمس وجعلنا آية النهار مبصرة يحتمل أن يريد النهار بنفسه أو الشمس، ومعنى مبصرة تبصر." (١)

"لرضاه، وأمر بني إسرائيل أن يسيروا بعده، واستخلف عليهم أخاه هارون، فأمرهم السامري حينئذ بعبادة العجل، فلما وصل موسى إلى الطور دون قومه قال الله تعالى: ما أعجلك عن قومك؟ وإنما سأل الله موسى عن سبب استعجاله دون قومه ليخبره موسى بأنهم يأتون على أثره، فيخبره الله بما صنعوا بعده من عبادة العجل، وقيل: سأله على وجه الإنكار لتقدمه وحده دون قومه فاعتذر موسى بعذرين: أحدهما أن قومه على أثره: أي قريب منه، فلم يتقدم عليهم بكثير فيوجب **العتاب**، والثاني أنه إنما تقدم طلبا لرضا الله

وأضلهم السامري كان السامري رجلا من بني إسرائيل يقال: إنه ابن خال موسى، وقيل: لم يكن منهم وهو منسوب إلى قرية بمصر يقال لها سامرة، وكان ساحرا منافقا فرجع موسى إلى قومه يعني رجع من الطور بعد إكمال الأربعين يوما التي كلمه الله بها أسفا ذكر في [الأعراف: ١٤٩] .

ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا يعني ما وعدهم من الوصول إلى الطور أفطال عليكم العهد يعني المدة وهذا الكلام توبيخ لهم بملكنا قرئ بالفتح والضم والكسر «١» ، ومعناه ما أخلفنا موعدك بأن ملكنا أمرنا، ولكن غلبنا بكيد السامري، فيحتمل أنهم اعتذروا بقلة قدرتهم وطاقتهم ويناسب هذا المعنى القراءة بضم الميم، واعتذروا بقلة ملكهم لأنفسهم في النظر وعدم توفيقهم للرأي السديد، ويناسب هذا المعنى القراءة بالفتح والكسر حملنا أوزارا من زينة القوم الأوزار هنا الأحمال سميت أوزارا لثقلها، أو لأنهم اكتسبوا بسببها الأوزار أي الذنوب، وزينة القوم هي: حلي القبط قوم فرعون كان بنو إسرائيل قد استعاروه منهم قبل هلاكهم، وقيل: أخذوه بعد هلاكهم فقال لهم السامري اجمعوا هذا الحلي في حفرة حتى يحكم الله فيه، ففعلوا ذلك وأوقد السامري نارا على الحلي وصاغ منه عجلا وقيل: بل خلق الله منه العجل من غير أن يصنعه السامري، ولذلك قال لموسى قد فتنا قومك من بعدك فقذفناها أي قذفنا أحمال الحلي في الحفرة فكذلك ألقى السامري كان السامري قد رأى جبريل عليه السلام، فأخذ من وطء فرسه قبضة من تراب، وألقى الله في نفسه أنه إذا جعلها على شيء مواتا صار حيوانا فألقاها على العجل فجار العجل أي: صاح صياح العجول. فالمعنى أنهم. قالوا

---

(١) تفسير ابن جزي = التسهيل لعلوم التنزيل ابن جزي الكلبي ٤٤٢/١

كما ألقينا الحلي في الحفرة ألقى السامري قبضة التراب

جسدا أي جسما بلا روح، والخوار صوت البقر فقالوا هذا إلهكم أي

---

(١) . قال من حجة القراآت: قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر: بملكنا بكسر الميم وقرأ عاصم ونافع بفتحها وحمزة والكسائي بالضم. [.....]." (١)

"وقد خرج حديث الإفك البخاري ومسلم وغيرهما، واختصاره أن عائشة خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة بني المصطلق، فضاع لها عقد فتأخرت على التماسه حتى رحل الناس، فجاء رجل يقال له صفوان بن المعطل، فرآها فنزل عن ناقته وتنحى عنها حتى ركبت عائشة، وأخذ يقودها حتى بلغ الجيش، فقال أهل الإفك في ذلك ما قالوا، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: ما بال رجال رموا أهلي والله ما علمت على أهلي إلا خيرا، ولقد ذكروا رجلا ما علمت عليه إلا خيرا، وسأل جارية عائشة، فقالت: والله ما علمت عليها إلا ما يعلم الصائغ على تبر الذهب الأحمر.

والعصبة الجماعة من العشرة إلى الأربعين، ولم يذكر في الحديث من أهل الإفك إلا أربعة، وهم: عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين، وحمنة بنت جحش، ومسطح بن أثاثة وحسان بن ثابت، وقيل: إن حسان لم يكن منهم وارتفاع عصبة لأنه خبر إن، واختار ابن عطية أن يكون عصبة بدلا من الضمير في جاءوا، ويكون الخبر لا تحسبوه شرا لكم على تقدير: إن حديث الذين جاءوا بالإفك، والأول أظهر بل هو خير لكم خطاب للمسلمين، والخير في ذلك من خمسة أوجه: تبرئة أم المؤمنين، وكرامة الله لها بإنزال الوحي في شأنها، والأجر الجزيل لها في الفرية عليها، وموعظة المؤمنين، والانتقام من المفترين والذي تولى كبره هو عبد الله بن أبي بن سلول المنافق، وقيل الذي بدأ بهذه الفرية غير معين، والعذاب العظيم هنا يحتمل أن يراد به الحد أو عذاب الآخرة.

لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا لولا هنا عرض، والمعنى أنه:

كان ينبغي للمؤمنين والمؤمنات أن يقيسوا ذلك الأمر على أنفسهم، فإن كان ذلك يبعد في حقهم، فهو في حق عائشة أبعد لفضلها، وروي أن هذا النظر وقع لأبي أيوب الأنصاري، فقال لزوجته:

أكنت أنت تفعلين ذلك، قالت: لا والله، قال فعائشة أفضل منك؟ قالت نعم. فإن قيل: لم قال:

سمعتموه بلفظ الخطاب، ثم عدل إلى لفظ الغيبة في قوله: ظن المؤمنون، ولم يقل ظننتم؟

فالجواب أن ذلك التفات، قصد به المبالغة والتصريح بالإيمان، الذي يوجب أن لا يصدق المؤمن على المؤمن شرا لولا جاؤ عليه بأربعة شهداء لولا هنا عرض، والضمير في جاءوا لأهل الإفك، ثم حكم الله بكذبهم إذ لم يأتوا بالشهداء أفضتم فيه يقال أفاض في الحديث وخاض فيه إذا أكثر الكلام فيه

إذ تلقونه بألسنتكم العامل في إذ قوله مسكم أو أفضتم، ومعنى تلقونه:

---

(١) تفسير ابن جزي = التسهيل لعلوم التنزيل ابن جزي الكلبي ١٢/٢

يأخذه بعضكم من بعض، وفي هذا الكلام وفي الذي قبله وبعده **عتاب** لهم على خوضهم في حديث الإفك، وإن كانوا لم يصدقوه، فإن الواجب كان الإغضاء عن ذكره والترك له بالكلية." (١)

"وقيل: إن الله كان أوحى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتزوج زينب بعد طلاق زيد، فالذي أخفاه رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما أعلمه الله به من ذلك فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها لم يذكر أحد من الصحابة في القرآن باسمه غير زيد بن حارثة، والوطر الحاجة، أي لما لم يبق لزيد فيها حاجة زوجها الله من نبيه صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم، وأسند الله تزويجها إليه تشريفا لها، ولذلك كانت زينب تفتخر على نساء النبي صلى الله عليه وسلم وتقول: إن الله زوجني نبيه من فوق سبع سموات، واستدل بعضهم بقوله: زوجناكها على أن الأولى أن يقال في كتاب الصداق: أنكحه إياها بتقديم ضمير الزوج على ضمير الزوجة كما في الآية لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم المعنى أن الله زوج زينب امرأة زيد من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ليعلم المؤمنين أن تزوج نساء أدعيائهم حلال لهم، فإن ال أدعياء ليسوا لهم بأبناء حقيقة.

ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له المعنى أن تزوج النبي صلى الله عليه وسلم لزينب بعد زيد حلال، لا حرج فيه ولا إثم ولا **عتاب**، وفي ذلك رد على من تكلم في ذلك من المنافقين. وفرض هنا بمعنى قسم له سنة الله في الذين خلوا من قبل أي عادة الله في الأنبياء المتقدمين أن ينالوا ما أحل الله لهم، وقيل: الإشارة بذلك إلى داود في تزوجه للمرأة التي جرى له فيها ما جرى، والعموم أحسن، ونصب سنة على المصدر، أو على إضمار فعل أو على الإغراء الذين يبلغون رسالات الله صفة للذين خلوا من قبل، وهم الأنبياء أو رفع على إضمار مبتدإ، أو نصب بإضمار فعل.

ما كان محمد أبا أحد من رجالكم هذا رد على من قال في زيد بن حارثة:

زيد بن محمد، فاعترض على النبي صلى الله عليه وسلم تزوج امرأة زيد، وعموم النفي في الآية لا يعارضه وجود الحسن والحسين، لأنه صلى الله عليه وسلم ليس أ با لهما في الحقيقة لأنهما ليسا من صلبه، وإنما كانا ابني بنته، وأما ذكور أولاده فماتوا صغارا فليسوا من الرجال وخاتم النبيين أي آخرهم فلا نبي بعده صلى الله عليه وسلم وقرئ «١» بكسر التاء بمعنى أنه ختمهم فهو خاتم، وبالفتح بأنهم ختموا به فهو كالخاتم والطابع لهم، فإن قيل: إن عيسى ينزل في آخر الزمان فيكون بعده عليه الصلاة والسلام، فالجواب أن النبوة أوتيت عيسى قبله عليه الصلاة والسلام، وأيضا فإن عيسى يكون إذا نزل على شريعته عليه الصلاة والسلام، فكأنه واحد من أمته.

---

(١) . قرأ جميع القراء بالكسر: خاتم ما عدا عاصم فقرأ: خاتم. [.....]." (٢)

"امرأته فأجابه داود عليه السلام بقوله: لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه، فقامت الحجة عليه بذلك، فتبسم الملكان عند ذلك وذهبا ولم يرهما، فشعر داود أن ذلك **عتاب** من الله له على ما وقع فيه.

---

(١) تفسير ابن جزي = التسهيل لعلوم التنزيل ابن جزي الكلبي ٦٣/٢

(٢) تفسير ابن جزي = التسهيل لعلوم التنزيل ابن جزي الكلبي ١٥٣/٢

فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب ولا تقتضي هذه القصة على هذه الرواية أن داود عليه السلام وقع فيما لا يجوز شرعا، وإنما عوتب على أمر جائز، كان ينبغي له أن يتنزه عنه لعلو مرتبته ومتانة دينه، فإنه قد يعاتب الفضلاء على ما لا يعاتب عليه غيرهم، كما قيل:

حسنات الأبرار سيئات المقربين، وأيضا فإنه كان له تسع وتسعون امرأة، فكان غنيا عن هذه المرأة فوقع **العتاب** على الاستكثار من النساء، وإن كان جائزا، وروي هذا الخبر على وجه آخر، وهو أن داود انفرد يوما في محرابه للتعبد، فدخل عليه طائر من كوة فوقع بين يديه فأعجبه، فمد يده ليأخذه فطار على الكوة فصعد داود ليأخذه، فرأى من الكوة امرأة تغتسل عريانة فأعجبته، ثم انصرف فسأل عنها فأخبر أنها امرأة رجل من جنده، وأنه خرج للجهاد مع الجند، فكتب داود إلى أمير تلك الحرب أن يقدم ذلك الرجل يقاتل عند التابوت، وهو موضع قل ما تخلص أحد منه، فقدم ذلك الرجل فقاتل حتى قتل شهيدا، فتزوج داود امرأته فعوتب على تعريضه ذلك الرجل للقتل، وتزوجه امرأته بعده مع أنه كان له تسع وتسعون امرأة سواها، وقيل: إن داود هم بذلك كله ولم يفعله، وإنما وقعت المعاتبة على همه بذلك، وروي أن السبب فيما جرى له مثل ذلك أنه أعجب بعلمه، وظهر منه ما يقتضي أنه لا يخاف الفتنة على نفسه ففتن بتلك القصة، وروي أيضا أن السبب في ذلك أنه تمنى منزلة آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب، والتزم أن يبتلى كما ابتلوا فابتلاه الله بما جرى له في تلك القصة؟ قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه سؤال مصدر مضاف إلى المفعول، وإنما تعدى بإلى لأنه تضمن معنى الإضافة كأنه قال: بسؤال نعجتك مضافة أو مضمومة إلى نعاجه، فإن قيل: كيف قال له داود: لقد ظلمك قبل أن يثبت عنده ذلك؟ فالجواب أنه روي أن الآخر اعترف بذلك وحذف ذكر اعترافه اختصارا، ويحتمل أن يكون قوله: لقد ظلمك على تقدير صحة قوله، وقد قيل: إن قوله لأحد الخصمين: لقد ظلمك قبل أن يسمع حجة الآخر كانت خطيئته التي استغفر منها وأناب وإن كثيرا من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض الخلطاء هم الشركاء في الأموال، ولكن الخلطة أعم من الشركة، ألا ترى أن الخلطة في المواشي ليست بشركة في رقابها، وقصد داود بهذا الكلام الوعظ للخصم الذي بغى، والتسلية بالتأسي للخصم الذي بغي عليه وقليل ما هم ما زائدة للتأكيد.

وظن داود أنما فتناه ظن هنا بمعنى شعر بالأمر، وقيل: بمعنى أيقن، وفتناه معناه اختبرناه وخر راكعا وأناب معنى خر: ألقى بنفسه إلى الأرض، وإنما حقيقة ذلك في." (١)

"منها زوجها بعد وحدتها الثاني: أن ثم لترتيب الأخبار لا لترتيب الوجود. الثالث: أنه يعني بقوله: خلقكم إخراج بني آدم من صلب أبيهم كالذر وذلك كان قبل خلقه حواء.

وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج يعني المذكورة في الأنعام من الضأن اثنين ومن المعز اثنين ومن البقر اثنين وسماها أزواجا لأن الذكر زوج الأنثى والأنثى زوج الذكر.

وأما أنزل ففيه ثلاثة أوجه: الأول أن الله خلق أول هذه الأزواج في السماء ثم أنزلها. الثاني أن معنى أنزل قضى وقسم، فالإنزال عبارة عن نزول أمره وقضائه. الثالث أنه أنزل المطر الذي ينبت به النبات الذي تعيش منه هذه الأنعام فعبر بإنزالها

---

(١) تفسير ابن جزي = التسهيل لعلوم التنزيل ابن جزي الكلبي ٢/٢٠٦

عن إنزال أرزاقها وهذا بعيد خلقا من بعد خلق يعني أن الإنسان يكون نطفة ثم علقة ثم مضغة إلى أن يتم خلقه، ثم ينفخ فيه الروح في ظلمات ثلاث هي البطن والرحم والمشيمة، وقيل: صلب الأب والرحم والمشيمة، والأول أرجح لقوله: بطون أمهاتكم ولم يذكر الصلب إن تكفروا فإن الله غني عنكم أي لا يضره كفركم.

ولا يرضى لعباده الكفر تأول الأشعرية هذه الآية على وجهين: أحدها أن الرضا بمعنى الإرادة، ويعني بعباده من قضى الله له بالإيمان والوفاة عليه. فهو كقوله: إن عبادي ليس لك عليهم سلطان، والآخر أن الرضا غير الإرادة، والعباد على هذا العموم أي لا يرضى الكفر لأحد من البشر، وإن كان قد أراد أن يقع من بعضهم فهو لم يرضه دينا ولا شرعا. وأراده وقوعا ووجودا أما المعتزلة فإن الرضا عندهم بمعنى الإرادة والعباد على هذا على العموم جريا على قاعدتهم في القدر وأفعال العباد وإن تشكروا يرضه لكم هذا عموم، والشكر الحقيقي يتضمن الإيمان «١» ولا تزر وازرة ذكر في الإسراء

وإذا مس الإنسان ضر الآية: يراد بالإنسان هنا الكافر بدليل قوله: وجعل له أندادا، والقصد بهذه الآية **عتاب** وإقامة حجة، **فالعتاب** على الكفر وترك دعاء الله، وإقامة الحجة على الإنسان بدعائه إلى الله، في الشدائد، فإن قيل: لم قال هنا وإذا مس بالواو وقال بعدها فإذا مس بالفاء؟ فالجواب: أن الذي بالفاء مسبب عن قوله: اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة فجاء بفاء السببية قاله الزمخشري وهو بعيد ثم إذا خوله نعمة منه خوله أعطاه والنعمة هنا يحتمل أن يريد بها كشف الضر المذكور، أو أي نعمة كانت نسي ما كان يدعوا إليه من قبل يحتمل أن تكون ما مصدرية

---

(١) . قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي: يرضهو لكم. وقرأ الباقون يرضه.." (١)

"سورة الممتحنة

مدنية وآياتها ١٣ نزلت بعد الأحزاب بسم الله الرحمن الرحيم (سورة الممتحنة)

لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء العدو يطلق على الواحد والجماعة، والمراد به هنا كفار قريش، وهذه الآية نزلت بسبب حاطب بن أبي بلتعة، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أراد الخروج إلى مكة عام الحديبية، فورى عن ذلك بخيبر. فشاع في الناس أنه خارج إلى خيبر، وأخبر هو جماعة من كبار أصحابه بقصده إلى مكة. منهم حاطب فكتب بذلك حاطب إلى قوم من أهل مكة، فجاء الخبر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من السماء. فبعث علي بن أبي طالب والزبير والمقداد وقال: انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها ظعينة «١» معها كتاب من حاطب إلى المشركين، فانطلقوا حتى وجدوا المرأة فقالوا لها: أخرجي الكتاب. فقالت: ما معي كتاب، ففتشوا جميع رحلها فما وجدوا شيئا فقال بعضهم: ما معها كتاب. فقال علي بن أبي طالب: ما كذب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا كذب الله، والله لتخرجن الكتاب أو لنجردنك قالت: أعرضوا عني، فأخرجته من قرون رأسها وضفائرها وقيل: أخرجته من حجزتها فجاؤوا به رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لحاطب: من كتب هذا؟ قال: أنا يا رسول الله. ولكن لا تعجل علي، فو الله ما فعلت ذلك ارتدادا عن ديني، ولا رغبة في الكفر، ولكني كنت أمرأ ملصقا في قريش، ولم أكن من أنفسها، فأحببت

---

(١) تفسير ابن جزي = التسهيل لعلوم التنزيل ابن جزي الكلبي ٢/٢١٧

أن تكون لي عندهم يد يرعونني بها في قرابتي، فقال عمر بن الخطاب: دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: صدق حاطب إنه من أهل بدر، وما يدريك يا عمر لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم. لا تقولوا لحاطب إلا خيرا «٢» . فنزلت الآية **عتابا** لحاطب وزجرا عن أن يفعل أحد مثل فعله، وفيها مع ذلك تشريف له، لأن الله شهد له بالإيمان في قوله يا أيها الذين آمنوا ا .

تلقون إليهم بالمودة عبارة عن إيصال المودة إليهم، وألقى يتعدى بحرف جر

---

(١) . المرأة التي تسافر على الجمل ضمن الهودج.

(٢) . انظر لمزيد تفصيل ما جاء في الطبري.." (١)

"سورة التحريم

مدنية وآياتها ١٢ نزلت بعد الحجرات بسم الله الرحمن الرحيم

(سورة التحريم) يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك في سبب نزولها روايتان أحدهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء يوما إلى بيت زوجه حفصة بنت عمر بن الخطاب، فوجدها قد خرجت لزيارة أبيها، فبعث إلى جاريته مارية فجامعها في البيت، فجاءت حفصة فقالت: يا رسول الله ما كان في نسائك أهون عليك مني. أتفعل هذا في بيتي وعلى فراشي؟ فقال لها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مترضيا لها: أيرضيك أن أحرمها قالت: نعم فقال: إني قد حرمتها، والرواية الأخرى أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يدخل على زوجه زينب بنت جحش فيشرب عندها عسلا فاتفقت عائشة وحفصة وسودة بنت زمعة على أن تقول من دنا منها: أكلت مغافير، والمغافير صمغ العرفط، وهو حلو كريه الريح، ففعلن ذلك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا ولكني شربت عسلا، فقلن له: جرست نحله العرفط فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا أشربه أبدا. وكان يكره أن توجد منه رائحة كريهة، فدخل بعد ذلك على زينب فقالت: ألا أسقيك من ذلك: فقال لا حاجة لي به، فنزلت الآية **عتابا** له على أن يضيق على نفسه بتحريم الجارية أو تحريم العسل، والرواية الأولى أشهر، وعليها تكلم الناس في فقه السورة، وقد خرج الرواية الثانية البخاري وغيره.

ولنتكلم على فقه التحريم، فأما تحريم الطعام والمال وسائر الأشياء ما عدا النساء، فلا يلزم، ولا شيء عليه عند مالك، وأوجب عليه أبو حنيفة الكفارة، وأما تحريم الأمة فإن نوى به العتق لزم، وإن لم ينو به ذلك لم يلزم. وكان حكمه ما ذكرنا في الطعام. وأما تحريم الزوجة فاختلف الناس فيه على أقوال كثيرة فقال أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وابن عباس وعائشة وغيرهم: إنما يلزم فيه كفارة يمين. وقال مالك في المشهور عنه:

ثلاث تطليقات في المدخول بها وينوي في غير المدخول بها فيحكم بما نوى من طلقة أو اثنتين أو ثلاث، وقال ابن الماجشون هي ثلاث في الوجهين، وروي عن مالك أنها طلقة بائنة، وقيل طلقة رجعية.." (٢)

---

(١) تفسير ابن جزي = التسهيل لعلوم التنزيل ابن جزي الكلبي ٣٦٤/٢

(٢) تفسير ابن جزي = التسهيل لعلوم التنزيل ابن جزي الكلبي ٣٨٩/٢

"تبتغي مرضات أزواجك أي تطلب رضا أزواجك بتحريم ما أحل الله لك يعني تحريمه للجارية ابتغاء رضا حفصة، وهذا يدل على أنها نزلت في تحريم الجارية، وأما تحريم العسل فلم يقصد فيه رضا أزواجه وإنما تركه لرائحته والله غفور رحيم في هذا إشارة إلى أن الله غفر له ما عاتبه عليه من التحريم، على أن **عتابه** في ذلك إنما كان كرامة له، وإنما وقع **العتاب** على تضييقه عليه السلام على نفسه، وامتناعه مما كان له فيه أرب، وبئس ما قال الزمخشري في أن هذا كان منه زلة لأنه حرم ما أحل الله، وذلك قلة أدب على منصب النبوة

قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم التحلة هي الكفارة وأحال تعالى هنا على ما ذكر في سورة المائدة [٨٩] من صفتها، واختلف في المراد بها هنا فأما على قول من قال: إن الآية نزلت في تحريم الجارية فاختلف في ذلك. فمن قال إن التحريم يلزم فيه كفارة يمين استدل بها، ومن قال: إن التحريم يلزم فيه طلاق ق ا ل: إن الكفارة هنا إنما هي لأن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حلف وقال: والله لا أطؤها أبدا. وأما على القول بأن الآية نزلت في تحريم العسل فاختلف أيضا فمن أوجب في تحريم الطعام كفارة قال:

هذه الكفارة للتحريم ومن قال: لا كفارة فيه قال: إنما هذه الكفارة لأنه حلف ألا يشربه، وقيل: هي في يمينه عليه السلام أن لا يدخل على نسائه شهرا والله مولاكم يحتمل أن يكون المولى بمعنى الناصر أو بمعنى السيد الأعظم.

وإذ أسر النبي إلى بعض أزواجه حديثا اختلف في هذا الحديث على ثلاثة أقوال:

أحدها أنه تحريم الجارية، فإنه لما حرمها قال لحفصة: لا تخبري بذلك أحدا، والآخر أنه قال: إن أبا بكر وعمر يليان الأمر من بعده، والثالث أنه قوله شربت عسلا والأول أشهر وبعض أزواجه حفصة فلما نبأت به وأظهره الله عليه عرف بعضه وأعرض عن بعض كانت حفصة قد أخبرت عائشة بما أسر إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم من تحريم الجارية، فأخبر الله رسوله عليه السلام بذلك، فعاقب حفصة على إفشائها لسره فطلقها، ثم أمره الله بمراجعتها فراجعها.

وقيل: لم يطلقها. فقوله فلما نبأت به حذف المفعول وهو عائشة. وقوله:

وأظهره الله عليه أي أطلعه على إخبارها به، وقوله: عرف بعضه أي عاتب حفصة على بعضه وأعرض عن بعض حياء وتكريما، فإن من عادة الفضلاء التغافل عن الزلات والتقصير في **العتاب**، وقرأ [الكسائي] عرف بالتخفيف من المعرفة فلما نبأها به قالت من أنبأك هذا أي لما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم حفصة بأنها قد أفشت سره، ظنت بأن عائشة هي التي أخبرته فقالت له: من أنبأك هذا؟ فلما أخبرها أن الله هو الذي أنبأه سكتت وسلمت.

إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما هذا خطاب لعائشة وحفصة، وتوبتهما مما." (١)

"سورة عبس

مكية وآياتها ٤٢ نزلت بعد النجم بسم الله الرحمن الرحيم

(سورة عبس) سبب نزول صدر هذه السورة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان حريصا على إسلام قريش، وكان يدعو أشرافهم إلى الله تعالى ليسلموا فيسلم بإسلامهم غيرهم، فبينما هو مع رجل من عظمائهم قيل: هو الوليد بن المغيرة

---

(١) تفسير ابن جزي = التسهيل لعلوم التنزيل ابن جزي الكلبي ٢/٣٩٠

وقيل: عتبة بن ربيعة وقيل: أمية بن خلف، وقال ابن عباس: كانوا جماعة إذ أقبل عبد الله بن أم مكتوم الأعمى فقال: يا رسول الله علمني مما علمك الله، وكرر ذلك وهو لا يعلم عنه بتشاغله بالقوم، فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم قطع الأعمى كلامه، فعبس وأعرض عنه.

وذهب الرجل الذي كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم. فنزلت الآية فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا رأى عبد الله بن أم مكتوم بعد ذلك يقول: مرحبا بمن عاتبني فيه ربي، ويبسط له رداءه، وقد استخلفه على المدينة مرتين عبس وتولى أي عبس في وجه الأعمى وأعرض عنه، قال ابن عطية: في مخاطبته بلفظ الغائب مبالغة في العتب لأن في ذلك بعض الإعراض، وقال الزمخشري: في الإخبار بالغيبة زيادة في الإنكار، وقال غيرهما، هو إكرام للنبي صلى الله عليه وسلم وتنزيه له عن المخاطبة **بالعتاب** وهذا أحسن أن جاءه الأعمى في موضع مفعول من أجله، وهو منصوب بتولى أو عبس. وذكر ابن أم مكتوم بلفظ الأعمى ليدل أن عماه هو الذي أوجب احتقاره، وفي هذا دليل على أن ذكر هذه العاهات جائز إذا كان لمنفعة، أو يشهد صاحبها ومنه قول المحدثين:

سليمان الأعمش، وعبد الرحمن الأعرج وغير ذلك وما يدريك أي أي شيء يطلعك على حال هذا الأعمى لعله يزكى أي يتطهر وينتفع في دينه بما يسمع منك «١» .

أما من استغنى فأنت له تصدى «٢» أي تتعرض للغنى رجاء أن يسلم وما عليك ألا يزكى أي لا حرج عليك أن لا يتزكى هذا الغني وأما من جاءك يسعى إشارة إلى عبد الله بن أم مكتوم، ومعنى يسعى يسرع في مشيه من حرصه في طلب الخير وهو يخشى الله أو يخاف

---

(١) . في الآية التالية: أو يذكر فتنفعه الذكرى: قرأ عاصم بفتح العين والباقون: بالضم: فتنفعه.

(٢) . قوله: تصدى: قرأها نافع وابن كثير: تصدى بالتشديد والباقون بالتخفيف.." (١)

"الكفار وإذايتهم له على اتباعك، وقيل: جاء وليس معه من يقوده، فكان يخشى أن يقع وهذا ضعيف

فأنت عنه تلهى أي تشتغل عنه بغيره من قولك: لهيت عن الشيء إذا تركته، وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تأدب بما أدبه الله في هذه السورة فلم يعرض بعدها عن فقير ولا تعرض لغني، وكذلك اتبعه فضلاء العلماء، فكان الفقراء في مجلس سفيان الثوري كالأمراء، وكان الأغنياء يتمنون أن يكونوا فقراء.

كلا ردع عن معاودة ما وقع **العتاب** فيه إنها تذكرة فيه وجهان، أحدهما: أن هذا الكلام المتقدم تذكرة أو موعظة للنبي صلى الله عليه وسلم، والآخر أن القرآن تذكرة لجميع الناس، فلا ينبغي أن يؤثر فيه أحد على أحد، وهذا أرجح لأنه يناسبه: فمن شاء ذكره، وما بعده، وأنث الضمير في قوله: إنها تذكرة على معنى القصة أو الموعظة أو السورة أو القراءة، وذكرها في قوله: فمن شاء ذكره على معنى الوعظ أو الذكرى والقرآن في صحف صفة لتذكرة أي ثابتة في صحف، وهي الصحف المنسوخة من اللوح المحفوظ وقيل: هي مصاحف المسلمين مرفوعة إن كانت الصحف المصاحف فمعناه

---

(١) تفسير ابن جزي = التسهيل لعلوم التنزيل ابن جزي الكلبي ٢/٤٥٢

مرفوعة المقدار، وإن كانت صحف الملائكة فمعناه كذلك، أو مرفوعة في السماء ومطهرة أي منزهة عن أيدي الشياطين بأيدي سفرة هي الملائكة، والسفرة جمع سافر وهو الكاتب لأنهم يكتبون القرآن، وقيل: لأنهم سفراء بين الله وبين عبيده، وقيل: يعني القراء من الناس. والأول أرجح. وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة «١» أي أنه يعمل مثل عملهم في كتابة القرآن وتلاوته، أو له من الأجر على القرآن مثل أجورهم.

قتل الإنسان دعاء عليه على ما جرت به عادة العرب من الدعاء بهذا اللفظ، ومعناه تقبيح حاله، وأنه ممن يستحق أن يقال له ذلك، وقيل: معناه لعن وهذا بعيد ما أكفره تعجيب من شدة كفره، مع أنه كان يجب عليه خلاف ذلك من أي شيء خلقه توقيف [سؤال] وتقرير ثم أجاب عنه بقوله من نطفة خلقه يعني المني ومقصد الكلام تحقير الإنسان ومعناه أنه يجب عليه أن يعظم الرب الذي خلقه فقدره أي هيأه لما يصلح له ومنه: خلق كل شيء فقدره تقديرا الفرقان: ٢] ، وقيل: معناه جعله على مقدار معلوم في إعطائه وأجله ورزقه وغير ذلك ثم السبيل يسره نصب السبيل بفعل مضمر فسره يسره، وفي معناه ثلاثة أقوال أحدها: يسر سبيل خروجه من بطن أمه والآخر أنه سبيل الخير والشر لقوله: إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا [الإنسان: ٣] ، الثالث سبيل النظر السديد المؤدي إلى الإيمان، والأول أرجح لعطفه على قوله: من نطفة خلقه فقدره

---

(١) . الحديث رواه أحمد عن عائشة في ج ٦ ص ٢٣٩.." (١)

"سورة الانفطار

مكية وآياتها ١٩ نزلت بعد النازعات بسم الله الرحمن الرحيم

(سورة الإنفطار) إذا السماء انفطرت أي انشقت وإذا الكواكب انتثرت أي سقطت من مواضعها وإذا البحار فجرت أي فرغت وقيل: فجر بعضها إلى بعض فاختلط وإذا القبور بعثرت أي نبشت على الموتى الذين فيها، وقال الزمخشري: أصله من البعث والبحث فضمت إليها الراء والمعنى بحثت وأخرج موتاها علمت نفس ما قدمت وأخرت هذا هو الجواب ومعناه: علمت كل نفس جميع أعمالها، وقيل ما قدمت في حياتها وما أخرت مما تركته بعد موتها من سنتها أو وصية أوصت بها، وأفردت النفس والمراد به العموم حسبما ذكرنا في التكوير.

يا أيها الإنسان خطاب لجنس بني آدم ما غرك بربك الكريم هذا توبيخ **وعتاب** معناه: أي شيء غرك بربك حتى كفرت به أو عصيته، أو غفلت عنه فدخل في **العتاب** الكفار وعصاة المؤمنين، ومن يغفل عن الله في بعض الأحيان من الصالحين. وروي أن رسول اللہ صلى الله عليه وآله وسلم قرأ ما غرك بربك الكريم فقال: غره جهله وقال عمر:

غره جهله وحمقه. وقرأ إنه كان ظلوما جهولا، وقيل: غره الشيطان المسلط عليه. وقيل:

غره ستر الله عليه وقيل: غره طمعه في عفو الله عنه. ولا تعارض بين هذه الأقوال لأن كل واحد منهما مما يغر الإنسان، إلا أن بعضها يغر قوما وبعضها يغر قوما آخرين فإن قيل: ما مناسبة وصفه بالكريم هنا للتوبيخ على الغرور؟ فالجواب أن

---

(١) تفسير ابن جزي = التسهيل لعلوم التنزيل ابن جزي الكلبي ٢/٤٥٣

الكريم ينبغي أن يعبد ويطاع شكرا لإحسانه ومقابلة لكرمه، ومن لم يفعل ذلك فقد كفر النعمة وأضاع الشكر الواجب فعدلك «١» بالتشديد والتخفيف أي عدل أعضاءك وجعلها متوازية فلم يجعل إحدى اليدين أطول من الأخرى، ولا إحدى العينين أكبر من الأخرى ولا إحداهما كحلاء

---

(١) . قرأ عاصم وحمزة والكسائي بالتخفيف والباقون بالتشديد. [.....]." (١)

"وبكتبه: جميع ما يكتب في اللوح وغيره. واحتمل أن تكون الكلمات: ما صدر في أمر عيسى عليه السلام. وقرأ الحسن ومجاهد والجحدري: بكلمة على التوحيد، فاحتمل أن يكون اسم جنس، واحتمل أن يكون كناية عن عيسى، لأنه قد أطلق عليه أنه كلمة الله ألقاها إلى مريم. وقرأ أبو عمرو وحفص: وكتبه جمعا، ورواه كذلك خارجة عن نافع. وقرأ باقي السبعة: وكتابه على الإفراد، فاحتمل أن يراد به الجنس، وأن يراد به الإنجيل لا سيما إن فسرت الكلمة بعيسى. وقرأ أبو رجاء: وكتبه. قال ابن عطية: بسكون التاء وكتبه، وذلك كله مراد به التوراة والإنجيل. وقال صاحب اللوامح أبو رجاء: وكتبه بفتح الكاف، وهو مصدر أقيم مقام الاسم. قال سهل: وكتبه أجمع من كتابه، لأن فيه وضع المضاف موضع الجنس، فالكتب عام، والكتاب هو الإنجيل فقط. انتهى.

وكانت من القانتين: غلب الذكورية على التأنيث، والقانتين شامل للذكور والإناث، ومن للتبعيض. وقال الزمخشري: ويجوز أن تكون لابتداء الغاية على أنها ولدت من القانتين، لأنها من أعقاب هارون أخي موسى، صلوات الله وسلامه عليهما، وقال يحيى بن سلام: مثل ضربه الله يحذر به عائشة وحفصة من المخالفة حين تظاهرتا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم ضرب لهما مثلا بامرأة فرعون ومريم ابنة عمران ترغيبا في التمسك بالطاعات والثبات على الدين. انتهى. وأخذ الزمخشري كلام ابن سلام هذا وحسنه وزمكه بفصاحة فقال: وفي طي هذين التمثيلين تعريض بأمي المؤمنين المذكورتين في أول السورة، وما فرط منهما من التظاهر على رسول الله صلى الله عليه وسلم بما كرهه، وتحذير لهما على أغلظ وجه وأشده لما في التمثيل من ذكر الكفر ونحوه. ومن التغليظ قوله: ومن كفر فإن الله غني عن العالمين «١» ، وإشارة إلى أن من حقهما أن يكونا في الإخلاص والكتمان فيه كمثل هاتين المؤمنتين، وأن لا يشكلا على أنهما زوجتا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإن ذلك الفضل لا ينقصهما إلا مع كونهما مخلصين. والتعريض بحفصة أرج، لأن امرأة لوط أفشت عليه كما أفشت حفصة على رسول الله صلى الله عليه وسلم. وأسرار التنزيل ورموزه في كل باب بالغة من اللطف والخفاء حدا يدق عن تفطن العالم ويزل عن تبصره. انتهى. وقال ابن عطية: وقال بعض الناس: إن في المثلين عبرة لزوجات النبي صلى الله عليه وسلم حين تقدم عتابهن، وفي هذا بعد، لأن النص أنه للكفار يبعد هذا، والله سبحانه وتعالى أعلم.

---

(١) تفسير ابن جزي = التسهيل لعلوم التنزيل ابن جزي الكلبي ٢/٤٥٨

(١) سورة آل عمران: ٣/ ٩٧.." (١)

"صفا، وجيء يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى، يقول يا ليتني قدمت لحياتي، فيومئذ لا يعذب عذابه أحد، ولا يوثق وثاقه أحد، يا أيتها النفس المطمئنة، ارجعي إلى ربك راضية مرضية، فادخلي في عبادي، وادخلي جنتي.

هذه السورة مكية في قول الجمهور.

وقال علي بن أبي طلحة: مدنية.

ولما ذكر فيما قبلها وجوه يومئذ خاشعة «١» ، ووجوه يومئذ ناعمة «٢» ، أتبعها بذكر الطوائف المتكبرين المكذبين المتجبرين الذين وجوههم خاشعة، وأشار إلى الصنف الآخر الذين وجوههم ناعمة بقوله: يا أيتها النفس المطمئنة. وأيضا لما قال: إلا من تولى وكفر «٣» ، قال هنا: إن ربك لبالمرصاد، تهديدا لمن كفر وتولى. وقرأ أبو الدينار الأعرابي: والفجر، والوتر، ويسر بالتنوين في الثلاثة. قال ابن خالويه: هذا كما روي عن بعض العرب إنه وقف على آخر القوافي بالتنوين، وإن كان فعلا، وإن كان فيه ألف ولام.

قال الشاعر:

أقلي اللوم عاذل **والعتابا** ... وقولي إن أصبت لقد أصابا

انتهى. وهذا ذكره النحويون في القوافي المطلقة إذا لم يترنم الشاعر، وهو أحد الوجهين اللذين للعرب إذا وقفوا على الكلم في الكلام لا في الشعر، وهذا الأعرابي أجرى الفواصل مجرى القوافي. وقرأ الجمهور: وليال عشر بالتنوين وابن عباس: بالإضافة، فضبطه بعضهم. وليال عشر بلام دون ياء، وبعضهم وليالي عشر بالياء، ويريد: وليالي أيام عشر. ولما حذف الموصوف المعدود، وهو مذكر، جاء في عدده حذف التاء من عشر.

والجمهور: والوتر بفتح الواو وسكون التاء، وهي لغة قريش. والأغر عن ابن عباس، وأبو رجاء وابن وثاب وقتادة وطلحة والأعمش والحسن: بخلاف عنه والأخوان: بكسر الواو، وهي لغة تميم، واللغتان في الفرد، فأما في الرحل فالكسر لا غير. وحكى الأصمعي: فيه اللغتين ويونس عن أبي عمرو: بفتح الواو وكسر التاء. والجمهور: يسر بحذف الياء وصلا ووقفا وابن كثير: بإثباتها فيهما ونافع وابن عمرو: بخلاف عنه بياء في الوصل وبحذفها في الوقف والظاهر

وقول الجمهور، منهم علي وابن عباس وابن الزبير: أن الفجر هو المشهور، أقسم به كما أقسم بالصبح ، ويراد به الجنس، لا فجر يوم مخصوص. وقال ابن عباس ومجاهد من يوم النحر وعكرمة: من يوم الجمعة

(١) سورة الغاشية: ٨٨/ ٢.

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيّان الأندلسي ٢١٧/١٠

(٢) سورة الغاشية: ٨٨/ ٨. [.....]

(٣) سورة الغاشية: ٨٨/ ٢٣.." (١)

"وروي عن أبي ربيعة، عن البزي: تخفيف التاء كباقي القراء، وهذه التاءات منها ما قبله متحرك، نحو: فتفرق بكم «١» فإذا هي تلقف «٢» ومنها ما قبله ساكن من حرف المد واللين نحو: ولا تيمموا ومنها ما قبله ساكن غير حرف مدولين نحو: فإن تولوا «٣» نارا تلظى «٤» إذ تلقونه «٥» هل تربصون «٦» قال صاحب (الممتع) : لا يجيز سيبويه إسكان هذه التاء في يتكلمون ونحوه، لأنها إذا سكنت احتيج لها ألف وصل، وألف الوصل لا تلحق الفعل المضارع، فإذا اتصلت بما قبلها جاز، لأنه لا يحتاج إلى همزة وصل. إلا أن مثل إن تولوا وإذ تلقونه لا يجوز عند البصريين على حال لما في ذلك من الجمع بين الساكنين، وليس الساكن الأول حرف مدولين. انتهى كلامه.

وقراءة البزي ثابتة تلقتها الأمة بالقبول، وليس العلم محصورا ولا مقصورا على ما نقله وقاله البصريون، فلا تنظر إلى قولهم: إن هذا لا يجوز.

وقرأ عبد الله: ولا تأمموا، من: أممت، أي: قصدت. وقرأ ابن عباس، والزهري، ومسلم بن جندب: تيمموا.

وحكى الطبري أن في قراءة عبد الله ولا تأموا، من: أممت، أي: قصدت، والخبيث والطيب صفتان غالبتان لا يذكر معهما الموصوف إلا قليلا، ولذلك جاء:

والطيبون للطيبات وجاء: والخبيثون للخبيثات «٧» وقال تعالى: ويحرم عليهم الخبائث «٨»

وقال صلى الله عليه وسلم: «أعوذ بالله من الخبث والخبائث»

. و: منه، متعلق بقوله: تنفقون، والضمير في: منه، عائد على الخبيث. و: تنفقون، حال من الفاعل في: تيمموا، قيل: وهي حال مقدرة، لأن الإنفاق منه يقع بعد القصد إليه، ويجوز أن يكون حالا من المفعول، لأن في الكلام ضميرا يعود عليه، وأجاز قوم أن يكون الكلام في قوله: الخبيث، ثم ابتدأ خبرا آخر في وصف الخبيث، فقال: تنفقون منه، وأنتم لا تأخذونه إلا إذا أغمضتم، أي تساهلتم، كأن هذا المعنى **عتاب** للناس وتقريع، وفيه تنبيه

---

(١) سورة الأنعام: ٦/ ١٥٣.

(٢) سورة الأعراف: ٧/ ١١٧ والشعراء: ٢٦/ ٤٥.

(٣) سورة آل عمران: ٣/ ٣٢. وهود: ١١/ ٥٧، والنور: ٢٤/ ٥٤.

(٤) سورة الليل: ٩٢/ ١٤.

(٥) سورة النور: ٢٤/ ١٥.

(٦) سورة التوبة: ٥٩/ ٥٢.

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيّان الأندلسي ٤٦٩/١٠

(٧) سورة النور: ٢٤/ ٢٦.

(٨) سورة الأعراف: ٧/ ١٥٧.." (١)

"معنى ذلك أنه في صدد شغل آخر يريد أن يستقبله. وذهب إلى هذا التأويل جماعة من الفقهاء، وانتزعوا من الآية جواز السجن، لأن الذي يقوم عليه غريمه هو يمنعه من تصرفاته في غير القضاء، ولا فرق بين المنع من التصرفات وبين السجن. وقيل: قائما بوجهك فيهابك ويستحي منك. وقيل: معنى: دمت عليه قائما، أي: مستعليا، فإن استلان جانبك لم يؤد إليك أمانتك.

وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي، ويحيى بن وثاب، والأعمش، وابن أبي ليلى، والفياض بن غزوان، وطلحة، وغيرهم: دمت بكسر الدال، وتقدم أنها لغة تميم وتقدم الخلاف في مضارعه.

و: ما، في: ما دمت، مصدرية ظرفية. و: دمت، ناقصة فخبرها: قائما، وأجاز أبو البقاء أن تكون: ما، مصدرية فقط لا ظرفية، فتقدر بمصدر، وذلك المصدر ينتصب على الحال، فيكون ذلك استثناء من الأحوال لا من الأزمان. قال: والتقدير: إلا في حال ملازمتك له. فعلى هذا يكون: قائما، منصوبا على الحال، لا خبرا لدام، لأن شرط نقص: دام، أن يكون صلة لما المصدرية الظرفية.

ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل

روي أن بني إسرائيل كانوا يعتقدون استحلال أموال. العرب لكونهم أهل أوثان، فلما جاء الإسلام، وأسلم من أسلم من العرب، بقي اليهود فيهم على ذلك المعتقد، فنزلت الآية مانعة من ذلك.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كل شيء من أمر الجاهلية فهو تحت قدمي، إلا الأمانة فإنها مؤادة إلى البر والفاجر» .

والإشارة بذلك إلى ترك الأداء الذي دل عليه لا يؤده، أي: كونهم لا يؤدون الأمانة كان بسبب قولهم.

والضمير في: بأنهم، قيل: عائد على اليهود وقيل: عائد على لفيف بني إسرائيل.

والأظهر أنه عائد على: من، في قوله: من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك وجمع حملا على المعنى، أي ترك الأداء في الدينار فما دونه وفما فوقه كائن بسبب قول المانع للأداء الخائن: ليس علينا في الأميين وهم الذين ليسوا من أهل الكتاب، وهم العرب. وتقدم كونهم سموا أميين في سورة البقرة.

والسبيل، قيل: **العتاب** والذم. وقيل: الحجة على، نحو قول حميد بن ثور:." (٢)

"المنافقين أنها من رؤية العين، صدوا مجاهرة وتصريحا، ويحتمل أن يكون من رؤية القلب أي: علمت. ويكون صدهم مكرا وتخابثا ومسارقة حتى لا يعلم ذلك منه إلا بالتأويل عليه. وصدودا: مصدر لصد، وهو هنا متعد بحرف الجر، وقد يتعدى بنفسه نحو:

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيّان الأندلسي ٦٧٩/٢

(٢) البحر المحيط في التفسير أبو حيّان الأندلسي ٢٢٣/٣

«فصدهم عن السبيل» «١» وقياس صد في المصدر فعل نحو: صده صدا. وحكى ابن عطية: أن صدودا هنا ليس مصدرا، والمصدر عنده صد.

فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاؤك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحسانا وتوفيقا قال الزجاج: كيف في موضع نصب تقديره: كيف تراهم، أو في موضع رفع أي: فكيف صنيعهم والمصيبة. قال الزجاج: قتل عمر الذي رد حكم الرسول صلى الله عليه وسلم.

وقيل: كل مصيبة تصيب المنافقين في الدنيا والآخرة، ثم عاد الكلام إلى ما سبق يخبر عن فعلهم فقال: ثم جاؤك يحلفون بالله. وقيل: هي هدم مسجد الضرار، وفيه نزلت الآية، حلفوا دفاعا عن أنفسهم ما أردنا ببناء المسجد إلا طاعة وموافقة الكتاب. وقيل: ترك الاستعانة بهم وما يلحقهم من الذل من قوله: فقل لن تخرجوا معي أبدا ولن تقاتلوا معي عدوا، والذي قدمت أيديهم ردهم حكم الرسول أو معاصيهم المتقدمة أو نفاقهم واستهزاؤهم ثلاثة أقوال. وقيل في قوله: إلا إحسانا وتوفيقا أي: ما أردنا بطلب دم صاحبنا الذي قتله عمر إلا إحسانا إلينا، وما يوافق الحق في أمرنا. وقيل: ما أردنا بالرفع إلى عمر إلا إحسانا إلى صاحبنا بحكومة العدل، وتوفيقا بينه وبين خصمه. وقيل: جاؤوا يعتذرون إلى الرسول صلى الله عليه وسلم من محاكمتهم إلى غيره ما أردنا في عدولنا عنك إلا إحسانا بالتقريب في الحكم، وتوفيقا بين الخصوم، دون الحمل على الحق. وفي قوله: فكيف إذا أصابتهم مصيبة، وعيد لهم على فعلهم، وأنهم سيندمون عليه عند حلول بأس الله تعالى حين لا ينفعهم الندم، ولا يغني عنهم الاعتذار.

أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم في أنفسهم قولا بليغا أي: يعلم ما في قلوبهم من النفاق. والمعنى: يعلمه فيجازيهم عليه، أو يجازيهم على ما أسروه من الكفر، وأظهروه من الحلف الكاذب. وعبر بالعلم عن المجازاة. فأعرض عنهم: أي عن معاتبتهم وشغل البال بهم، وقبول إيمانهم وأعذارهم.

وقيل: المعنى بالإعراض معاملتهم بالرفق والأناة، ففي ذلك تأديب لهم، وهو **عتابهم**. ولا

---

(١) سورة النمل: ٢٧/ ٢٤.." (١)

"يطأطىء رأسه ويضع ذقنه على يده معتمدا عليها ويصبر على هيئة لو نزعت يده لسقط على وجهه كأن اليد مسقوط فيها ومعنى في على أي سقط على يده ومعنى في أيديهم أي على أيديهم كقوله ولأصلبنكم في جذوع النخل «١» انتهى. وكان متعلق سقط قوله في أيديهم لأن اليد هي الآلة التي يؤخذ بها ويضبط وسقط مبني للمفعول والذي أوقع موضع الفاعل هو الجار والمجرور كما تقول: جلس في الدار وضحك من زيد، وقيل:

سقط تتضمن مفعولا وهو هاهنا المصدر الذي هو الإسقاط كما يقال: ذهب بزيد انتهى، وصوابه وهو هنا ضمير المصدر

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيّان الأندلسي ٣/٦٩٠

الذي هو السقوط لأن سقط ليس مصدر الإسقاط وليس نفس المصدر هو المفعول الذي لم يسم فاعله بل هو ضميره وقرأت فرقة منهم ابن السميقع سقط في أيديهم مبنيا للفاعل.

قال الزمخشري أي وقع الغض فيها، وقال الزجاج: سقط الندم في أيديهم، قال ابن عطية: ويحتمل أن الخسران والخيبة سقط في أيديهم، وقرأ ابن أبي عبلة: أسقط في أيديهم رباعيا مبنيا للمفعول ورأوا أي علموا أنهم قد ضلوا.

قال القاضي: يجب أن يكون المؤخر مقدما لأن الندم والتحسر إنما يقعان بعد المعرفة فكأنه تعالى قال: ولما رأوا أنهم قد ضلوا وسقط في أيديهم لما نالهم من عظيم الحسرة انتهى، ولا يحتاج إلى هذا التقدير بل يمكن تقدم الندم على تبين الضلال لأن الإنسان إذا شك في العمل الذي أقدم عليه أهو صواب أو خطأ حصل له الندم ثم بعد يتكامل النظر والفكر فيعلم أن ذلك خطأ، قالوا: لئن لم يرحمنا ربنا انقطاع إلى الله تعالى واعتراف بعظيم ما أقدموا عليه وهذا كما قال: آدم وحواء وإن لم تغفر لنا وترحمنا «٢» ولما كان هذا الذنب وهو اتخاذ غير الله إلها أعظم الذنوب بدؤوا بالرحمة التي وسعت كل شيء ومن نتاجها غفران الذنب وأما في قصة آدم فإنه جرت محاورة بينه تعالى وبينهما **وعتاب** على ما صدر منهما من أكل ثمر الشجرة بعد نهيه إياهما عن قربانها فضلا عن أكل ثمرها فبادرا إلى الغفران وأتبعاه بالرحمة إذ غفران ما وقع **العتاب** عليه أكد ما يطلب أولا.

وقرأ الأخوان والشعبي وابن وثاب والجحدري وابن مصرف والأعمش وأيوب بالخطاب في ترحمنا وتغفر ونداء ربنا، وقرأ باقي السبعة ومجاهد والحسن والأعرج وأبو جعفر وشيبة بن نصاح وغيرهم: يرحمنا ربنا ويغفر لنا بالياء فيهما ورفع ربنا وفي

---

(١) سورة طه: ٢٠/ ٧١.

(٢) سورة الأعراف: ٧/ ٢٣.." (١)

"وصدقتم لمسكم العذاب لأخذكم هذه المفاداة، وقال الزمخشري: لولا حكم منه تعالى سبق إثباته في اللوح وهو أن لا يعاقب أحدا بخطأ وكان هذا خطأ في الاجتهاد لأنهم نظروا في أن استبقاءهم ربما كان سببا في إسلامهم وتوبتهم وأن فداءهم يتقوى به على الجهاد في سبيل الله وخفي عنهم أن قتلهم أعز للإسلام وأهيب لمن وراءهم وأفل لشوكتهم انتهى.

وروي لو نزل في هذا الأمر عذاب لنجا منه عمر وفي حديث آخر وسعد بن معاذ وذلك أن رأيهما كان أن تقتل الأسارى. والذي أقوله أنهم كانوا مأمورين أولا بقتل الكفار في غير ما آية كقوله واقتلوهم حيث وجدتموهم «١» واقتلوهم حيث ثقفتموهم «٢» فلما كانت وقعة بدر وأسروا جماعة من المشركين اختلفوا في أخذ الفداء منهم وفي قتلهم فعوتب من رأى الفداء إذ كان قد تقدم الأمر بالقتل حيث لم يستصحبوا امتثال الأمر ومالوا إلى الفداء وحرصوا على تحصيل المال ألا ترى إلى

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيّان الأندلسي ١٧٩/٥

قول المقداد حين أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بقتل عقبة بن أبي معيط قال: أسيري يا رسول الله

،

وقول مصعب بن عمير لمن أسر أخاه: شد يدك عليه فإن له أما مؤسرة، ثم بعد هذه المعاتبة أمر الرسول بقتل بعض والمن بالإطلاق في بعض والفداء في بعض فكان ذلك نسخا لتحتم القتل، ثم قال تعالى: لولا كتاب من الله سبق في تأييدكم ونصركم وقهركم أعداءكم حتى استوليتم عليهم قتلا وأسرا ونهبا على قلة عددكم وعددكم لمسكم فيما أخذتم من غنائمهم وفدائهم عذاب عظيم منهم لكونهم كانوا أكثر عددا منكم وعددا ولكنه سهل تعالى عليكم ولم يمسكم منهم عذاب لا يقتل ولا أسر ولا نهب وذلك بالحكم السابق في قضائه أنه يسلطكم عليهم ولا يسلطهم عليكم فليس المعنى لمسكم من الله وإنما المعنى لمسكم من أعدائكم كما قال: إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله «٣» . قال: إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون «٤» .

ثم قال تعالى: فكلوا مِمَّا غنمتم حلالا طيبا أي مما غنمتم ومنه ما حصل بالفداء الذي أقره الرسول صلى الله عليه وسلم وقال لا يفلتن منهم رجل إلا بفدية أو ضرب عنق وليس هذا الأمر منشأ لإباحة الغنائم إذ قد سبق تحليلها قبل يوم بدر ولكنه أمر يفيد التوكيد واندراج مال الفداء في عموم ما غنمتم إذ كان قد وقع **العتاب** في الميل للفداء ثم أقره الرسول وانتصب حلالا على الحال من ما إن كانت موصولة أو من ضميره المحذوف أو على أنه نعت لمصدر محذوف أي أكلا حلالا وجوزوا في ما أن تكون مصدرية وروي أنهم أمسكوا عن

---

(١) سورة النساء: ٤/ ٨٩.

(٢) سورة البقرة: ٢/ ١٩١.

(٣) سورة آل عمران: ٣/ ١٤٠.

(٤) سورة النساء: ٤/ ١٠٤.." (١)

"لك أي طعم، واختاره الطبري قال: والسكر في كلام العرب ما يطعم. وأنشد أبو عبيدة:

جعلت أعراض الكرام سكرا أي: تنقلت بأعراضهم. وقيل: هو من الخمر، وأنه إذا ابترك في أعراض الناس فكأنه تخمر بها، قاله الزمخشري، وتبع الزجاج قال: يصف أنه يخمر بعيوب الناس، وعلى هذه الأقوال لا نسخ. وقال الزجاج: قول أبي عبيدة لا يصح، وأهل التفسير على خلافه. وقيل: السكر ما لا يسكر من الأنبذة، وقيل: السكر النبيذ، وهو عصير

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيّان الأندلسي ٥/٣٥٤

العنب والزبيب والتمر إذا طبخ حتى يذهب ثلثاه ثم يترك حتى يشتد، وهو حلال عند أبي حنيفة إلى حد السكر انتهى. وإذا أريد بالسكر الخمر فقد تقدم أن ذلك منسوخ، وإذا لم نقل بنسخ فقيل: جمع بين **العتاب** والمنة. يعني **بالعتاب** على اتخاذ ما يحرم، وبالمنة على اتخاذ ما يحل، وهو الخل والرب والزبيب والتمر. وقال الزمخشري: ويجوز أن يجعل السكر رزقا حسنا كأنه قيل: تتخذون منه ما هو سكر ورزق حسن انت ه ى. فيكون من عطف الصفات، وظاهر العطف المغايرة.

ولما كان مفتتح الكلام: وإن لكم في الأنعام لعبرة، ناسب الختم بقوله: يعقلون، لأنه لا يعتبر إلا ذوو العقول كما قال: إن في ذلك لعبرة لأولي الألباب «١» .

وانظر إلى الإخبار عن نعمة اللبن ونعمة السكر والرزق الحسن، لما كان اللبن لا يحتاج إلى معالجة من الناس، أخبر عن نفسه تعالى بقوله: نسقيكم. ولما كان السكر والرزق الحسن يحتاج إلى معالجة قال: تتخذون، فأخبر عنهم باتخاذهم منه السكر والرزق، ولأمر ما عجزت العرب العرباء عن معارضته. ولما ذكر تعالى المنة بالمشروب اللبن وغيره، أتم النعمة بذكر العسل النحل. ولما كانت المشروبات من اللبن وغيره هو الغالب في الناس أكثر من العسل، قدم اللبن وغيره عليه، وقدم اللبن على ما بعده لأنه المحتاج إليه كثيرا وهو الدليل على الفطرة. ولذلك اختاره الرسول صلى الله عليه وسلم حين أسري به، وعرض عليه اللبن والخمر والعسل، وجاء ترتيبها في الجنة لهذه الآية قال تعالى: وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى «٢» ففي إخراج اللبن من النعم والسكر، والرزق الحسن من ثمرات النخيل والأعناب، والعسل من النحل، دلائل باهرة على الألوهية والقدرة والاختيار. والإيحاء هنا الإلهام والإلقاء في روعها، وتعليمها على وجه هو تعالى أعلم بكنهه لا سبيل إلى الوقوف عليه. والنحل: جنس واحده

---

(١) سورة آل عمران: ٣/ ١٣ وفي لفظها لأولي الأبصار.

(٢) سورة محمد: ٤٧/ ١٥.." (١)

"(قلت) : الدلالة على أن إنكارهم مستبعد بعد حصول المعرفة، لأن حق من عرف النعمة أن يعترف لا أن ينكر. ويوم نبعث من كل أمة شهيدا ثم لا يؤذن للذين كفروا ولا هم يستعتبون وإذا رأى الذين ظلموا العذاب فلا يخفف عنهم ولا هم ينظرون وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعوا من دونك فألقوا إليهم القول إنكم لكاذبون وألقوا إلى الله يومئذ السلم وضل عنهم ما كانوا يفترون الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابا فوق العذاب بما كانوا يفسدون ويوم نبعث في كل أمة شهيدا عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيدا على هؤلاء ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين: لما ذكر إنكارهم لنعمة الله تعالى، ذكر حال يوم القيامة حيث لا ينفع فيه الإنكار على سبيل الوعيد لهم بذلك اليوم. وانتصب يوم بإضمار اذكر قاله:

الحوفي، والزمخشري، وابن عطية، وأبو البقاء. وقال الزمخشري: أو يوم نبعث وقعوا فيما وقعوا فيه. وقال الطبري: هو

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيّان الأندلسي ٥٥٨/٦

معطوف على ظرف محذوف العامل فيه: ثم ينكرونها، أي ينكرونها اليوم. ويوم نبعث أي: ينكرون كفرهم، فيكذبهم الشهيد، والشهيد نبي تلك الأمة يشهد عليهم بإيمانهم وبكفرهم، ومتعلق الإذن محذوف. فقيل: في الرجوع إلى دار الدنيا. وقيل: في الكلام والاعتذار كما قال: هذا يوم لا ينطقون. ولا يؤذن لهم «١» فيعتذرون أي بعد شهادة أنبيائهم عليهم، وإلا فقبل ذلك تجادل كل أمة عن نفسه. وجاء كلامهم في ذلك، ولكنها مواطن يتكلمون في بعضها ولا ينطقون في بعضها ولا هم يستعتبون أي: مزال عنهم العتب. وقال قوم: معناه لا يسألون أن يرجعوا عن ما كانوا عليه في الدنيا، فهذا **استعتاب** معناه طلب عتباهم، ونحوه قول من قال: ولا هم يسترضون أي:

لا يقال لهم ارضوا ربكم، لأن الآخرة ليست بدار عمل قاله الزمخشري. وقال الطبري:

معناه يعطون الرجوع إلى الدنيا فيق ع منهم توبة وعمل.

قال الزمخشري: (فإن قلت) : فما معنى ثم هذه؟ (قلت) : معناها أنهم يمنون بعد شهادة الأنبياء بما هو أطم منه، وأنهم يمنعون الكلام فلا يؤذن لهم في إلقاء معذرة، ولا إدلاء بحجة انتهى. ولما كانت حالة العذاب في الدنيا مخالفة لحال الآخرة إذ من رأى العذاب في الدنيا رجا أن يؤخر عنه، وإن وقع فيه أن يخفف عنه، أخبر تعالى أن عذاب

---

(١) سورة المرسلات: ٧٧/ ٣٥- ٣٦.." (١)

"عليه فتردى يجوز أن يكون منصوبا على جواز النهي وأن يكون مرفوعا أي فأنت تردى.

وقرأ يحيى فتردى بكسر التاء.

وما تلك بيمينك يا موسى هو تقرير مضمنه التنبيه، وجمع النفس لما يورد عليها وقد علم تعالى في الأزل ما هي وإنما سأله ليريه عظم ما يخترعه عز وجل في الخشبة اليابسة من قلبها حية نضناضة، ويتقرر في نفسه المباينة البعيدة بين المقلوب عنه والمقلوب إليه، وينبهه على قدرته الباهرة وما استفهام مبتدأ وتلك خبره وبيمينك في موضع الحال كقوله وهذا بعلي شيخا «١» والعامل اسم الإشارة. قال الزمخشري: ويجوز أن يكون تلك اسما موصولا صلته بيمينك، ولم يذكر ابن عطية غيره وليس ذلك مذهبا للبصريين وإنما ذهب إليه الكوفيون، قالوا: يجوز أن يكون اسم الإشارة موصولا حيث يتقدر بالموصول كأنه قيل: وما التي بيمينك؟ وعلى هذا فيكون العامل في المجرور محذوفا كأنه قيل: وما التي استقرت بيمينك؟ وفي هذا السؤال وما قبله من خطابه تعالى لموسى عليه السلام استئناس عظيم وتشريف كريم.

قال هي عصاي. وقرأ ابن أبي إسحاق والجحدري عصي بقلب الألف ياء وإدغامها في ياء المتكلم. وقرأ الحسن عصاي بكسر الياء وهي مروية عن ابن أبي إسحاق أيضا وأبي عمرو معا، وهذه الكسرة لالتقاء الساكنين. وعن أبي إسحاق والجحدري عصاي بسكون الياء. أتوكؤا عليها أي أتحامل عليها في المشي والوقوف، وهذا زيادة في الجواب كما جاء «هو الطهور ماؤه الحل ميتته» .

في جواب من سأل أيتوضأ بماء البحر؟

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيّان الأندلسي ٦/٥٧٩

وكما

جاء في جواب ألهذا حج؟ قال: «نعم ولك أجر» .

وحكمة زيادة موسى عليه السلام رغبته في مطاولة مناجاته لربه تعالى، وازدياد لذاذته بذلك كما قال الشاعر:

وأملى عتابا يستطاب فليتني ... أطلت ذنوبا كي يطول عتابه

وتعداده نعمه تعالى عليه بما جعل له فيها من المنافع، وتضمنت هذه الزيادة تفضيلا في قوله أتوكؤا عليها وأهش بها على غنمي وإجمالا في قوله ولي فيها مآرب أخرى.

وقيل: أتوكؤا عليها جواب لسؤال آخر وهو أنه لما قال هي عصاي قال له تعالى فما تصنع بها؟ قال: أتوكؤا عليها الآية.

وقيل: سأله تعالى عن شيئين عن العصا بقوله وما تلك وبقوله بيمينك عما يملكه، فأجابه عن وما تلك؟ بقوله هي عصاي وعن

(١) سورة هود: ١١/ ٧٢.." (١)

"عنهم. قال الزمخشري: وكان قد مضى مع النقباء إلى الطور على الموعد المضروب ثم تقدمهم شوقا إلى كلام ربه وينجز ما وعد به بناء على اجتهاده، وظن أن ذلك أقرب إلى رضا الله، وزال عنه أنه عز وجل ما وقت أفعاله إلا نظرا إلى دواعي الحكمة وعلما بالمصالح المتعلقة بكل وقت، فالمراد بالقوم النقباء انتهى.

والظاهر أن قوله عز وجل عن قومك يريد به جميع بني إسرائيل كما قد بينا قبل لا السبعين. وقال الزمخشري: وليس يقول من جوز أن يراد جميع قومه وأن يكون قد فارقهم قبل الميعاد وجه صحيح ما يأباه قوله هم أولاء على أثري انتهى.

وما أعجلك سؤال عن سبب العجلة وأجاب بقوله هم أولاء على أثري وعجلت إليك رب لترضى لأن قوله وما أعجلك تضمن تأخر قومه عنه، فأجاب مشيرا إليهم لقربهم منه إنهم على أثره جائين للموعد، وذلك على ما كان عهد إليهم أن يجيئوا للموعد. ثم ذكر السبب الذي حمله على العجلة وهو ما تضمنه قوله وعجلت إليك رب لترضى من طلبه رضا الله تعالى في السبق إلى ما وعده ربه ومعنى إليك إلى مكان وعدك ولترضى أي ليدوم رضاك ويستمر، لأنه تعالى كان عنه راضيا.

وقال الزمخشري: فإن قلت: ما أعجلك سؤال عن سبب العجلة، فكان الذي ينطبق عليه من الجواب أن يقال: طلب زيادة رضاك والشوق إلى كلامك وينجز موعدك وقوله هم أولاء على أثري كما ترى غير منطبق عليه. قلت: قد تضمن ما واجهه به رب العزة شيئين أحدهما إنكار العجلة في نفسها، والثاني السؤال عن سبب المستنكر والحامل عليه، فكان أهم الأمرين إلى موسى بسط العذر وتمهيد العلة في نفس ما أنكر عليه، فاعتل بأنه لم يوجد مني إلا تقدم يسير مثله لا يعتد به في العادة ولا يحتفل به، وليس بيني وبين من سبقته إلا مسافة قريبة يتقدم بمثلها الوفد رأسهم ومقدمهم، ثم عقبه بجواب السؤال عن السبب فقال وعجلت إليك رب لترضى ولقائل أن يقول: حار لما ورد عليه من التهيب لعتاب الله

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيّان الأندلسي ٧/٣٢١

فأذهله ذلك عن الجواب المنطبق المترتب على حدود الكلام انتهى. وفيه سوء أدب على الأنبياء عليهم السلام.
وقرأ الحسن وابن معاذ عن أبيه أولائي بياء مكسورة وابن وثاب وعيسى في رواية أولاء بالقصر. وقرأت فرقة أولاي بياء مفتوحة. وقرأ عيسى ويعقوب وعبد الوارث عن أبي عمرو وزيد بن علي إثري بكسر الهمزة وسكون الثاء. وحكى الكسائي أثري بضم الهمزة وسكون الثاء وتروى عن عيسى. وقرأ الجمهور أولاء بالمد والهمز على أثري." (١)

"موسى بعد استكمال الأربعين، فعتب موسى على عدم اتباعه لما رآهم قد ضلوا ولا زائدة كهي في قوله ما منعك ألا تسجد «١» . وقال علي بن عيسى دخلت لا هنا لأن المعنى ما دعاك إلى أن لا تتبعني، وما حملك على أن لا تتبعني بمن معك من المؤمنين أفعصيت أمري يريد قوله اخلفني «٢» الآية. وقال الزمخشري: ما منعك أن تتبعني في الغضب لله وشدة الزجر على الكفر والمعاصي، وهلا قاتلت من كفر بمن آمن وما لك لم تباشر الأمر كما كنت أباشره أنا لو كنت شاهدا، أو ما لك لم تلحقني. وفي ذلك تحميل للفظ ما لا يحتمله وتكثير ولما كان قوله تتبعني لم يذكر متعلقه كان الظاهر أن لا تتبعني إلى جبل الطور ببني إسرائيل فيجيء اعتذار هارون بقوله ني خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل

إذ كان لا يتبعه إلا المؤمنون ويبقى عباد العجل عاكفين عليه كما قالوا لن نبرح عليه عاكفين ويحتمل أن يكون المعنى تتبعني تسير بسيري في الإصلاح والتسديد، فيجيء اعتذاره أن الأمر تفاقم فلو تقويت عليه تقاتلوا واختلفوا فكان تفريقا بينهم وإنما لا ينت جهدي.

وقرأ عيسى بن سليمان الحجازي بلحيتي بفتح اللام وهي لغة أهل الحجاز.

وكان موسى عليه السلام شديد الغضب لله ولدينه، ولما رأى قومه عبدوا عجلا من دون الله بعد ما شاهدوا من الآيات العظام لم يتمالك أن أقبل على أخيه قابضا على شعر رأسه، وكان كثير الشعر وعلى شعر وجهه يجره إليه فأبدى عذره فإنه لو قاتل بعضهم ببعض لتفرقوا وتفانوا، فانتظرتك لتكون المتدارك لهم، وخشيت **عتابك** على اطراح ما وصيتني به والعمل بموجبها.

وتقدم الكلام على ابن أم قراءة وإعرابا وغير ذلك. وقرأ أبو جعفر ولم ترقب بضم التاء وكسر القاف مضارع أرقب.

ولما اعتذر له أخوه رجع إلى مخاطبة الذي أوقعهم في الضلال وهو السامري وتقدم الكلام في الخطب في سورة يوسف.

وقال ابن عطية فما خطبك كما تقول ما شأنك وما أمرك، لكن لفظة الخطب تقتضي انتهارا لأن الخطب مستعمل في المكاره فكأنه قال: ما نحسك وما شؤمك، وما هذا الخطب الذي جاء من قبلك انتهى. وهذا ليس كما ذكر ألا ترى إلى قوله قال فما خطبكم أيها المرسلون «٣» وهو قول إبراهيم لملائكة الله فليس هذا يقتضي انتهارا ولا شيئا مما ذكر.

وقال الزمخشري: خطب مصدر خطب الأمر إذا طلبه،

---

(١) سورة الأعراف: ٧/ ١٢.

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيّان الأندلسي ٣٦٦/٧

(٢) سورة الأعراف: ٧/ ١٤٢.

(٣) سورة الحجر: ١٥/ ٥٧.." (١)

"عقيلة حي من لؤي بن غالب ... كرام المساعي مجدها غير زائل

مهذبة قد طيب الله خيمها ... وطهرها من كل شين وباطل

فإن كان ما بلغت عني قلته ... فلا رفعت سوطي إلي أناملي

وكيف وودي ما حييت ونصرتي ... بآل رسول الله زين المحافل

له رتب عال على الناس فضلها ... تقاصر عنها سورة المتطاول

والمشهور أنه حد حسان ومسطح وحمنة. قيل: وعبد الله بن أبي وقد ذكره بعض شعراء ذلك العصر في شعر. وقيل: لم يحد مسطح. وقيل: لم يحد عبد الله. وقيل: لم يحد أحد في هذه القصة وهذا مخالف للنص. فاجلدوهم ثمانين جلدة «١» وقابل ذلك بقول: إنما يقال الحد بإقرار أو بينة، ولم يتقيد بإقامته بالإخبار كما لم يتقيد بقتل المنافقين، وقد أخبر تعالى بكفرهم.

وقرأ الجمهور كبره بكسر الكاف. وقرأ الحسن وعمرة بنت عبد الرحمن والزهري وأبو رجاء ومجاهد وأبو البرهسم والأعمش وحميد وابن أبي عبلة وسفيان الثوري ويزيد بن قطيب ويعقوب والزعفراني وابن مقسم وسورة عن الكسائي ومحبوب عن أبي عمرو بضم الكاف، والكبر والكبر مصدران لكبر الشيء عظم لكن استعمال العرب الضم ليس في السن. هذا كبر القوم أي كبيرهم سنا أو مكانة.

وفي الحديث في قصة حويصة ومحيصة: «الكبر الكبر» .

وقيل كبره بالضم معظمه، وبالكسر البداءة بالإفك. وقيل: بالكسر الإثم.

لولا إذ سمعتموه هذا تحريض على ظن الخير وزجر وأدب، والظاهر أن الخطاب للمؤمنين حاشا من تولى كبره. قيل: ويحتمل دخولهم في الخطاب وفيه **عتاب**، أي كان الإنكار واجبا عليهم، وعدل بعد الخطاب إلى الغيبة وعن الضمير إلى الظاهر فلم يجئ التركيب ظننتم بأنفسكم خيرا وقلتم ليبالغ في التوبيخ بطريقة الالتفات وليصرح بلفظ الإيمان دلالة على أن الاشتراك فيه مقتض أن لا يصدق مؤمن على أخيه قول عائب ولا طاعن، وفيه تنبيه على أن حق المؤمن إذا سمع قالة في أخيه أن يبني الأمر فيه على ظن الخير، وأن يقول بناء على ظنه هذا إفك مبين هكذا باللفظ الصريح ببراءة أخيه كما يقول المستيقن المطلع على حقيقة الحال. وهذا من الأدب الحسن ومعنى بأنفسهم أي كأن يقيس فضلاء المؤمنين والمؤمنات هذا الأمر على أنفسهم فإذا كان ذلك يبعد عليهم

---

(١) سورة النور: ٢٤/ ٤.." (٢)

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيّان الأندلسي ٣٧٥/٧

(٢) البحر المحيط في التفسير أبو حيّان الأندلسي ٢١/٨

"ومعنى لا يجدون نكاحا أي لا يتمكنون من الوصول إليه، فالمعنى أنه أمر بالاستعفاف كل من تعذر عليه النكاح ولا يجده بأي وجه تعذر، ثم أغلب الموانع عن النكاح عدم المال وحتى يغنيهم ترجئة للمستعففين وتقدمة للوعد بالتفضل عليهم، فالمعنى ليكون انتظار ذلك وتأميله لطفا في استعفافهم وربطا على قلوبهم، وما أحسن ما ترتبت هذه الأوامر حيث أمر أولا بما يعصم عن الفتنة ويبعد عن مواقعة المعصية وهو غض البصر، ثم بالنكاح الذي يحصن به الدين ويقع به الاستغناء بالحلال عن الحرام، ثم بالحمل على النفس الأمارة بالسوء وعزفها عن الطموح إلى الشهوة عند العجز عن النكاح إلى أن يرزق القدرة عليه انتهى. وهو من كلام الزمخشري وهو حسن، ولما بعث السيد على تزويج الصالحين من العبيد والإماء رغبهم في أن يكاتبوهم إذا طلبوا ذلك ليصيروا أحرارا فيتصرفون في أنفسهم.

والذين يبتغون الكتاب أي المكاتبة **كالعتاب** والمعاتبة. مما ملكت يعم المماليك الذكور والإناث. والذين يحتمل أن يكون مبتدأ وخبره الجملة، والفاء دخلت في الخبر لما تضمن الموصول من معنى اسم الشرط، ويحتمل أن يكون منصوبا كما تقول: زيدا فاضربه لأنه يجوز أن تقول زيدا فاضرب، وزيدا اضرب، فإذا دخلت الفاء كان التقدير بنية فاضرب زيدا فالفاء في جواب أمر محذوف، وهذا يوضح في النحو بأكثر من هذا. قال الأزهري: وسمي هذا العقد مكاتبة لما يكتب للعبد على السيد من العتق إذا أدى ما تراضيا عليه من المال، وما يكتب للسيد على العبد من النجوم التي يؤديها، والظاهر وجوب المكاتبة لقوله فكاتبوهم وهذا مذهب عطاء وعمرو بن دينار والضحاك وابن سيرين وداود، وظاهر قول عمر لأنه قال لأنس حين سأل سيرين الكتابة فتلكأ أنس كاتبه، أو لأضربنك بالدرة، وذهب مالك وجماعة إلى أنه أمر ندب وصيغتها كاتبتك على كذا، ويعين ما كاتبه عليه، وظاهر الأمر يقتضي أنه لا يشترط تنجيم ولا حلول بل يكون حالا ومؤجلا ومنجما وغير منجم، وهذا مذهب أبي حنيفة.

وقال الشافعي: لا يجوز على أقل من ثلاثة أنجم. وقال أكثر العلماء: يجوز على نجم واحد. وقال ابن خويز منداد: إذا كاتب على مال معجل كان عتقا على مال ولم تكن كتابة، وأجاز بعض المالكية الكتابة الحالية وسماها قطاعة. والخير المال قاله ابن عباس ومجاهد وعطاء والضحاك، أو الحيلة التي تقتضي الكسب قاله ابن عباس أيضا أو الدين قاله الحسن، أو إقامة الصلاة قاله عبيدة السلماني، أو الصدق والوفاء والأمانة قاله الحسن." (١)

"القسري، قال: فأين قول موسى؟ وتلا الآية: فأصبح في المدينة خائفا من قبل القبطي أن يؤخذ به، يترقب وقوع المكروه به، أو الإخبار هل وقفوا على ما كان منه؟ وقيل: خائفا من أنه يترقب المغفرة. وقيل: خائفا يترقب نصرة ربه، أو يترقب هداية قومه، أو ينتظر أن يسلمه قومه. فإذا الذي استنصره بالأمس: أي الإسرائيلي الذي كان قتل القبطي بسببه. وإذا هنا للمفاجأة، وبالأمس يعني اليوم الذي قبل يوم الاستصراخ، وهو معرب، فحركة سينه حركة إعراب لأنه دخلته أل، بخلاف حاله إذا عري منها، فالحجاز تنبيه إذا كان معرفة، وتميم تمنعه الصرف حالة الرفع فقط، ومنهم من يمنعه الصرف مطلقا، وقد يبنى مع أل على سبيل الندور. قال الشاعر:

وإني حسبت اليوم والأمس قبله ... إلى الليل حتى كادت الشمس تغرب

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيّان الأندلسي ٣٩/٨

يستصرخه: يصيح به مستغيثا من قبطي آخر، ومنه قول الشاعر:

كنا إذا ما أتانا صارخ فزع ... كان الصراخ له قرع الطنابيب

قال له موسى: الظاهر أن الضمير في له عائد على الذي إنك لغوي مبين لكونك كنت سببا في قتل القبطي بالأمس، قال له ذلك على سبيل **العتاب** والتأنيب. وقيل:

الضمير في له، والخطاب للقبطي، ودل عليه قوله: يستصرخه، ولم يفهم الإسرائيلي أن الخطاب للقبطي. فلما أن أراد أن يبطش: الظاهر أن الضمير في أراد ويبطش هو لموسى. بالذي هو عدو لهما: أي للمستصرخ وموسى وهو القبطي يوهم الإسرائيلي أن قوله: إنك لغوي مبين هو على سبيل إرادة السوء به، وظن أنه يسطو عليه. قال، أي الإسرائيلي: يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفسا بالأمس، دفعا لما ظنه من سطو موسى عليه، وكان تعيين القائل القبطي قد خفي على الناس، فانتشر في المدينة أن قاتل القبطي هو موسى، ونمى ذلك إلى فرعون، فأمر بقتل موسى. وقيل: الضمير في أراد ويبطش للإسرائيلي عند ذلك من موسى، وخاطبه بما يقبح، وأن بعد لما يطرد زيادتها.

وقيل: لو إذا سبق قسم كقوله:

فأقسم أن لو التقينا وأنتم ... لكان لكم يوم من الشر مظلم

وقرأ الجمهور: يبطش، بكسر الطاء والحسن، وأبو جعفر: بضمها. إن تريد إلا أن تكون جبارا في الأرض: وشأن الجبار أن يقتل بغير حق. وقال الشعبي: من قتل رجلين فهو جبار، يعني بغير حق، ولما أثبت له الجبروتية نفى عنه الصلاح. وجاء رجل." (١)

"كيف جعلهم غضابا. ثم قال: فأعتبوا: أي أزيل غضبهم، والغضب في معنى العتب، والمعنى: لا يقال لهم ارضوا ربكم بتوبة وطاعة، ومثله قوله تعالى: فاليوم لا يخرجون منها ولا هم يستعتبون «١» . فإن قلت: كيف جعلوا غير مستعتبين في بعض الآيات، وغير معتبين في بعضها؟ وقوله: وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين «٢» ؟ قلت: أما كونهم غير مستعتبين، فهذا معناه وأما كونهم غير معتبين، فمعناه أنهم غير راضين بما هم فيه فشبهت حالهم بحال قوم جني عليهم، فهم عاتبون على الجاني، غير راضين منه. فإن يستعتبوا الله: أي يسألوه إزالة ما هم فيه، فما هم من المجابين إلى إزالته. وقال ابن عطية:

هذا إخبار عن هول يوم القيامة، وشدة أحواله على الكفرة في أنهم لا ينفعهم الاعتذار، ولا يعطون عتبى، وهو الرضا. ويستعتبون بمعنى: يعتبون، كما تقول: يملك ويستملك.

والباب في استفعل أنه طلب الشيء وليس هذا منه، لأن المعنى لا يفسد إذا كان المفهوم منه، ولا يطلب منهم عتبى. انتهى. فيكون استفعل في هذا بمعنى الفعل المجرد، وهو عتب، أي هم من الإهمال وعدم الالتفات إليهم بمنزلة من لا يؤهل للعتب. وقد قيل:

لا يعاتبون على سيئاتهم، بل يعاقبون. وقيل: لا يطلب لهم العتبى. وقيل: لا يلتمس منهم عمل وطاعة، ولكن ضربنا إشارة

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيّان الأندلسي ٢٩٤/٨

إلى إزالة الأعذار والإتيان بما فوق الكفاية من الإنذار.

وقال الزمخشري: وصفنا لهم كل صفة كأنها مثل في غرابتها، وقصصنا عليهم كل قصة عجيبة الشأن، كصفة المبعوثين يوم القيامة، وما يقال لهم، وما لا يقع من اعتذارهم، ولا يسمع من **استعتابهم**، ولكنهم لقسوة قلوبهم ومج أسماعهم حديث الآخرة، إذا جئتهم بآية من آيات القرآن قالوا: أجئتنا بزور باطل؟ انتهى. وأنتم: خطاب للرسول والمؤمنين، أي: تبطلون في دعواكم الحشر والجزاء. وقال أبو عبد الله الرازي: وفي توحيد الخطاب بقوله: ولئن جئتهم، والجمع في قوله: إن أنتم لطيفة، وهي: أن الله عز وجل قال: ولئن جئتهم بكل آية جاءت بها الرسل، فيمكن أن يجاوبوه بقوله: أنتم كلكم أيها المدعون الرسالة مبطلون.

كذلك يطبع الله: أي مثل هذا الطبع يطبع الله، أي يختم على قلوب الجهلة الذين قد ختم الله عليهم الكفر في الأزل، وأسند الطبع إلى ذاته تعالى، إذ هو فاعل ذلك ومقدره. وقال الزمخشري: ومعنى طبع الله: صنع الألطاف التي يشرح لها الصدور حتى تقبل الحق، ثم قال: فكأنه كذلك تصدأ القلوب وتقسو قلوب الجهلة حتى يسموا المحققين

---

(١) سورة الجاثية: ٤٥/ ٣٥. [.....]

(٢) سورة فصلت: ٤١/ ٢٤.." (١)

"أي اغترارا بينا. وقال الزمخشري: فإن قلت: ما معنى إن نظن إلا ظنا؟ قلت أصله نظن ظنا، ومعناه إثبات الظن مع نفي ما سواه، وزيد نفي ما سوى الظن توكيدا بقوله:

وما نحن بمستيقنين. انتهى. وهذا الكلام ممن لا شعور له بالقاعدة النحوية، من أن التفريغ يكون في جميع المعمولات من فاعل ومفعول وغيره، إلا المصدر المؤكد فإنه لا يكون فيه. وقدره بعضهم: إن نظن إلا أنكم تظنون ظنا، قال: وإنما احتيج إلى هذا التقدير لأنه لا يجوز في الكلام: ما ضربت إلا ضربا، فاهتدى إلى هذه القاعدة النحوية، وأخطأ في التخريج، وهو محكي عن المبرد، ولعله لا يصح. وقولهم: إن نظن، دليل على أن الكفار قد أخبروا بأنهم ظنوا البعث واقعا، ودل قولهم قبل قوله: إن هي إلا حياتنا الدنيا «١» ، على أنهم منكرون البعث، فهم، والله أعلم، فرقتان، أو اضطربوا، فتارة أنكروا، وتارة ظنوا، وقالوا: إن نظن إلا ظنا على سبيل الهزء.

وبدا لهم سيئات ما عملوا: أي قبائح أعمالهم، أو عقوبات أعمالهم السيئات وأطلق على العقوبة سيئة، كما قال: وجزاء سيئة سيئة مثلها «٢» . وحاق بهم أي أحاط، ولا يستعمل حاق إلا في المكروه. ننساكم: نترككم في العذاب، أو نجعلكم كالشيء المنسي الملقى غير المبالى بهم. كما نسيتم لقاء يومكم: أي لقاء جزاء الله على أعمالكم، ولم تخطروه على بال بعد ما ذكرتم به وتقدم إليكم بوقوعه. وأضاف اللقاء لليوم توسعا كقوله: بل مكر الليل والنهار «٣» . وقرأ الجمهور: لا يخرجون، مبنيا للمفعول والحسن، وابن وثاب، وحمزة، والكسائي: مبنيا للفاعل. منها: أي من النار. ولا هم يستعتبون أي بطلب مراجعة إلى عمل صالح. وتقدم الكلام في **الاستعتاب**. وقرأ الجمهور: رب، بالجر في الثلاثة

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيّان الأندلسي ٨/٤٠٣

على الصفة، وابن محيصن:

بالرفع فيهما على إضمار هو.

---

(١) سورة المؤمنون: ٢٣/ ٣٧.

(٢) سورة الشورى: ٤٢/ ٤٠.

(٣) سورة سبأ: ٣٤/ ٣٣.." (١)

"هذه؟ قلت: معناه أنهم يمنون بعد شهادة الأنبياء بما هو أطم منه، وهو أنهم يمنعون الكلام، فلا يؤذن لهم في إلقاء معذرة ولا إدلاء بحجة» . انتهى. ومفعول الإذن محذوف، أي: لا يؤذن لهم في الكلام، كما قاله الزمخشري، أو: في الرجوع إلى الدنيا.

قوله: ﴿ولا هم يستعتبون﴾ أي: لا تزال عتباهم، وهي ما يعتبون عليها ويلامون. يقال: استعتبت فلانا بمعنى أعتبته، أي: أزلت عتباه، واستفعل بمعنى أفعل غير مستنكر. قالوا: استدنيت فلانا، وأدنيته، بمعنى واحد. وقيل: السين على بابها من الطلب، ومعناه: أنهم لا يسألون أن يرجعوا عما كانوا عليه في الدنيا، فهذا **استعتاب** معناه طلب عتباهم. وقال الزمخشري: «ولا هم يسترضون أي: لا يقال لهم: أرضوا ربكم؛ لأن الآخرة ليست بدار عمل» . وسيأتي لهذا مزيد بيان إن شاء الله في سورة حم السجدة؛ لأنه أليق به لاختلاف القراء فيه.." (٢)

"وقوله: «الظنونا» قرأ نافع وابن عامر وأبو بكر بإثبات ألف بعد نون «الظنونا» ولام «الرسول» في قوله: ﴿وأطعنا الرسولا﴾ [الأحزاب: ٦٦] ولام «السبيل» في قوله: ﴿فأضلونا السبيلا﴾ [الأحزاب: ٦٧] وصلا ووقفا موافقة للرسم؛ لأنهن رسمن في المصحف كذلك. وأيضا فإن هذه الألف تشبه هاء السكت لبيان الحركة، وهاء السكت تثبت وقفا، للحاجة إليها. وقد ثبتت وصلا إجراء للوصل مجرى الوقف كما تقدم في البقرة والأنعام. فكذلك هذه الألف. وقرأ أبو عمرو وحمزة بحذفها في الحالين؛ لأنها لا أصل لها. وقولهم: «أجريت الفواصل مجرى القوافي» غير معتد به؛ لأن القوافي يلزم الوقف عليها غالبا، والفواصل لا يلزم ذلك فيها فلا تشبه بها. والباقون بإثباتها وقفا وحذفها وصلا إجراء للفواصل مجرى القوافي في ثبوت ألف الإطلاق كقوله:

٣٦٧٦ - استأثر الله بالوفاء وبال ... عدل وولى الملامة الرجلا

وقوله:

---

(١) ا لبحر المحيط في التفسير أبو حيّان الأندلسي ٤٢٧/٩

(٢) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون السم ين الحلبي ٢٧٨/٧

٣٦٧٧ - أقلي اللوم عاذل و العتابا ... وقولي إن أصبت لقد أصابا

ولأنها كهاء السكت، وهي تثبت وقفا وتخفف وصلا. قلت: كذا يقولون." (١)

"الظرف؛ حيث أضاف إليه ما هو واقع فيه كقوله: ﴿بل مكر اليل والنهار﴾ [سبأ: ٣٣] . وتقدم الخلاف في قوله: «لا يخرجون» في أول الأعراف. وتقدم معنى الاستعتاب." (٢)

"تسليم أن التركيب هكذا، وإنما ذكرته للتنبيه على سقوطه. وقيل: ثم مضاف محذوف، أي: وصلاة الفجر أو ورب الفجر.

والعامة على عدم التنوين في «الفجر» و «الوتر» و «يسر» . وأبو الدينار الأعرابي بتنوين الثلاثة. قال ابن خالويه: «هذا ما روي عن بعض العرب أنه يقف على أواخر القوافي بالتنوين، وإن كان فعلا، وإن كان فيه الألف واللام. قال الشاعر:

٤٥٥٨ - أقلي اللوم عاذل والعتابن ... وقولي إن أصبت لقد أصابن

يعني بهذا تنوين الترنم، وهو أن العربي إذا أراد ترك الترنم وهو مد الصوت نون الكلمة، وإنما يكون في الروي المطلق. وقد عاب بعضهم قول النحويين» تنوين الترنم «وقال: بل ينبغي أن يسموه بتنوين ترك الترنم، ولهذا التنوين قسيم آخر يسمى» التنوين الغالي «، وهو ما يلحق الروي المقيد كقوله:

٤٥٥٩ -. . . . . خاوي المخترقن." (٣)

"من لم ير بأسا أن يقول:

سورة البقرة، وسورة كذا وكذا

حدثنا عمر بن حفص بن غياث (١) حدثنا أبي، حدثنا الأعمش، حدثني إبراهيم، عن علقمة وعبد الرحمن بن يزيد، عن أبي مسعود الأنصاري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " الآيتان من آخر سورة البقرة، من قرأ بهما في ليلة كفتاه " (٢) .

وهذا الحديث قد أخرجه الجماعة من حديث عبد الرحمن بن يزيد وصاحبا الصحيح والنسائي وابن ماجه من حديث علقمة، كلاهما عن أبي مسعود عقبة بن عامر الأنصاري البكري (٣) .

الحديث الثاني: ما رواه من حديث الزهري، عن عروة، عن المسور وعبد الرحمن بن عبد القارئ، كلاهما عن عمر قال: سمعت هشام بن حكيم [ابن حزام] (٤) يقرأ سورة الفرقان ... وذكر الحديث بطوله، كما تقدم، وكما سيأتي (٥) .

الحديث الثالث: ما رواه من حديث هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة قالت: " سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم قارئا يقرأ من الليل في المسجد، فقال: "يرحمه الله، لقد أذكرني كذا وكذا آية، كنت أسقطتهن من سورة كذا وكذا " (٦) .

---

(١) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون السمين الحلبي ٩٨/٩

(٢) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون السمين الحلبي ٦٥٨/٩

(٣) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون السمين الحلبي ٧٧٨/١٠

وهكذا في الصحيحين عن ابن مسعود: أنه كان يرمي الجمرة من الوادي ويقول: هذا مقام الذي أنزلت عليه سورة البقرة (٧) . وكره بعض السلف ذلك، ولم يروا إلا أن يقال: السورة التي يذكر فيها كذا وكذا، كما تقدم من رواية يزيد الفارسي عن ابن عباس، عن عثمان أنه قال: إذا نزل شيء من

---

(١) في جـ: "عتاب".

(٢) صحيح البخاري برقم (٥٠٤٠) .

(٣) صحيح البخاري برقم (٤٠٠٨، ٥٠٥١، ٥٠٠٨) وصحيح مسلم برقم (٨٠٧، ٨٠٨) وسنن أبي داود برقم (١٣٩٧) وسنن الترمذي برقم (٢٨٨١) وسنن النسائي الكبرى برقم (٨٠١٨، ٨٠١٩) وسنن ابن ماجة برقم (١٣٦٨، ١٣٦٩) .

(٤) زيادة من ط، جـ.

(٥) صحيح البخاري برقم (٥٠٤١) .

(٦) صحيح البخاري برقم (٥٠٤٢) .

(٧) صحيح البخاري برقم (١٧٤٧) وصحيح مسلم برقم (١٢٩٦) .." (١)

"العتبي، قال: كنت جالسا عند قبر النبي صلى الله عليه وسلم، فجاء أعرابي فقال: السلام عليك يا رسول الله، سمعت الله يقول: ﴿ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما﴾ وقد جئتك مستغفرا لذنبي مستشفعا بك إلى ربي ثم أنشأ يقول:

يا خير من دفنت بالقاع (١) أعظمه ... فطاب من طيبهن القاع والأكم ...

نفسي الفداء لقبر أنت ساكنه ... فيه العفاف وفيه الجود والكرم ...

ثم انصرف الأعرابي فغلبتني عيني، فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم في النوم فقال: يا عتبى، الحق الأعرابي فبشره أن الله قد غفر له (٢) .

---

(١) في أ: "في القاع".

---

(١) تفسير ابن كثير ت سلامة ابن كثير ٧٦/١

(٢) ذكر هذه الحكاية النووي في المجموع (٢١٧/٨) وفي الإيضاح (ص٤٩٨) ، وزاد البيتين التاليين: أنت الشفيع الذي ترجى شفاعته ... على الصراط إذا ما زلت القدم

وصاحباك فلا أنساهما أبدا ... مني السلام عليكم ما جرى القلم

وساقها بقوله: "ومن أحسن ما يقول: ما حكاه أصحابنا عن العتبي مستحسنين له ثم ذكرها بتمامها"، وابن كثير هنا لم يروها ولم يستحسنها بل نقلها كما نقل بعض الإسرائيليات في تفسيره، وهي حكاية باطلة، وقصة واهية، استدل بها بعض الناس بجواز التوسل بالرسول صلى الله عليه سلم بعد وفاته، والرد عليها بأربعة أمور ذكرها الشيخ الفاضل صالح آل الشيخ في كتابه: "هذه مفاهيمنا" (ص٧٦) .

أولا: ما دام أنها ليست من سنة الرسول صلى الله عليه وسلم ولا فعل خلفائه الراشدين، وصحابته المكرمين، ولا من فعل التابعين، والقرون المفضلة، وإنما هي مجرد حكاية عن مجهول نقلت بسند ضعيف، فكيف يحتج بها في عقيدة التوحيد، الذي هو أصل الأصول، وكيف يحتج بها وهي تعارض الأحاديث الصحيحة التي نهي فيها عن الغلو في القبور، والغلو في الصالحين عموما، وعن الغلو في قبره، والغلو فيه صلى الله عليه وسلم خصوصا، وأما من نقلها من العلماء أو استحسنها فليس ذلك بحجة تعارض بها النصوص الصحيحة وتخالف من أجلها عقيدة السلف، فقد يخفى على بعض العلماء ما هو واضح لغيرهم، وقد يخطئون في نقلهم ورأيهم، وتكون الحجة مع من خالفهم.

وما دمنا قد علمنا طريق الصواب، فلا شأن لنا بما قاله فلان أو حكاه فلان، فليس ديننا مبنيا على الحكايات والمنامات، وإنما هو مبني على البراهين الصحيحة.

ثانيا: قد تخفى بعض المسائل والمعاني على من خلع الأنداد، وتبرأ من الشرك وأهله، كما قال بعض الصحابة: "اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط" فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الله أكبر، إنها السنن، قلتم والذي نفسي بيده ما قاله أصحاب موسى: (اجعل لنا إلها كما لهم آلهة) " حديث صحيح.

والحجة في هذا: أن هؤلاء الصحابة، وإن كانوا حديثي عهد بكفر، فهم دخلوا في الدين بلا إله إلا الله، وهي تخلع الأنداد، وأصناف الشرك، وتوحد المعبود، فمع ذلك وم ع معرفة قائليها الحقة بمعنى لا إله إلا الله، خفي عليهم بعض المسائل من أفرادها، وإنما الشأن أنه إذا وضح الدليل، وأبينت الحجة، فيجب الرجوع إليها والتزامها، والجاهل قد يعذر، كما عذر أولئك الصحابة في قولهم: "اجعل لنا ذات أنواط"، وغيرهم من العلماء أولى باحتمال أن يخفى عليهم بعض المسائل ولو في التوحيد والشرك.

ثالثا: كيف يتجاسر أحد أن يعارض نصوص كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم بقول حكاه حاك مستحسنا له، والله سبحانه يقول: (فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم) [النور: ٦٣] .

قال الإمام أحمد: عجبت لقوم عرفوا الإسناد وصحته، يذهبون إلى رأي سفيان، والله تعالى يقول: (فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة) أتدري ما الفتنة؟.

الفتنة: الشرك لعله إذا رد بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك. رواه عن أحمد الفضل بن زياد وأبو طالب، ولعله في كتاب "طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم" لأحمد رحمه الله.

فطاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم مقدمة على طاعة كل أحد، وإن كان خير هذه الأمة أبا بكر وعمر، كما قال ابن عباس: يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء أقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وتقولون: قال أبو بكر وعمر.

فكيف لو رأى ابن عباس هؤلاء الناس الذين يعارضون السنة الثابتة، والحجة الواضحة بقول أعرابي في قصة العتبى الضعيفة المنكرة.

إن السنة في قلوب محبيها أعظم وأغلى من تلك الحجج المتهافتة، التي يدلي بها صاحب المفاهيم البدعية، تلك المفاهيم المبنية على المنامات والمنكرات، فاعجب لهذا، وجرد المتابعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وحذار ثم حذار من أن ترد الأحاديث الصحيحة وتؤمن بالأخبار الباطلة الواهية، فيوشك بمن فعل ذلك أن يقع في قلبه فتنة فيهلك.

رابعا: ما من عالم إلا ويرد عليه في مسائل اختارها إما عن رأي، أو عن ضعف حجة، وهم معذورون قبل إيضاح المحجة بدلائلها، ولو تتبع الناس شذوذات المجتهدين ورخصهم، لخرجوا عن دين الإسلام إلى دين آخر، كما قيل: من تتبع الرخص تزندق، ولو أراد مبتغ الفساد والعدول عن الصراط أن يتخذ له من رخصهم سلما يرتقي به إلى شهواته لكان الواجب على الحاكم قمعه وصده، وتعزيره، كما هو مشهور في فقه الأئمة الأربعة، وغيرهم.

وما ذكر ففيه أن من أحال لتبرير جرمه على قول عالم، علم خطؤه فيه أنه يقبل منه ولا يؤخذ **بالعتاب**.

اللهم احفظ علينا ديننا، وتوحيدنا.." (١)

"الرجلان اللذان في القرآن، اللذان قال الله: ﴿واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق﴾ من بني إسرائيل، ولم يكونا ابني آدم لصلبه، وإنما كان القربان في بني إسرائيل، وكان آدم أول من مات. وهذا غريب جدا، وفي إسناده نظر.

وقد قال عبد الرزاق، عن معمر، عن الحسن قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن ابني آدم، عليه السلام، ضربا لهذه الأمة مثلا فخذوا بالخير منهما (١) (٢)

ورواه ابن المبارك عن عاصم الأحول، عن الحسن قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله ضرب لكم ابني آدم مثلا فخذوا من خيرهم ودعوا الشر".

وكذا أرسل هذا الحديث بكر بن عبد الله المزني، روى ذلك كله ابن جرير. (٣)

وقال سالم بن أبي الجعد: لما قتل ابن آدم أخاه، مكث آدم مائة سنة حزينا لا يضحك، ثم أتي فقيل له: حياك الله وبياك. أي: أضحكك.

رواه ابن جرير، ثم قال: حدثنا ابن حميد، حدثنا سلمة، عن غياث (٤) بن إبراهيم عن أبي إسحاق الهمداني قال: قال علي بن أبي طالب: لما قتل ابن آدم أخاه، بكاه آدم فقال:

تغيرت البلاد ومن عليها ... فلون الأرض مغبر قبيح ...

تغير كل ذي لون وطعم ... وقل بشاشة الوجه المليح ...

فأجيب آدم عليه السلام:

---

(١) تفسير ابن كثير ت سلامة ابن كثير ٣٤٨/٢

أبا هابيل قد قتلا جميعا ... وصار الحي كالميت (٥) الذبيح

وجاء بشرة قد كان منها (٦) على خوف فجاء بها يصيح (٧)

---

(١) في أ: "منها".

(٢) تفسير عبد الرزاق (١/١٨٣) وتفسير الطبري (١٠/٣٢٠) .

(٣) تفسير الطبري (١٠/٣٢٠)

(٤) في أ: "عتاب".

(٥) في ر: "بالميت".

(٦) في أ: "منه".

(٧) تفسير الطبري (١٠/٢٠٩، ٢١٠) .

وقال الشيخ محمد أبو شهبة في كتابه القيم: "الإسرائيليات وأثرها في كتب التفسير" (ص١٨٣) : "وقد طعن في نسبة هذه الأشعار إلى نبي الله آدم الإمام الذهبي في كتابه: "ميزان الاعتدال" وقال: إن الآفة فيه من المخرمي أو شيخه.

وما الشعر الذي ذكروه إلا منحول مختلق، والأنبياء لا يقولون الشعر، وصدق الزمخشري حيث قال: "روي أن آدم مكث بعد قتل ابنه مائة سنة لا يضحك، وأنه رثاه بشعر، وهو كذب بحت، وما الشعر إلا منحول ملحون، وقد صح أن الأنبياء معصومون من الشعر.

وقد قال الله تبارك وتعالى: (وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين) .

وقد قال الإمام الألوسي في تفسيره: وروي عن ميمون بن مهران عن الحبر ابن عباس، رضي الله عنهما، أنه قال: "من قال: آدم -عليه السلام- قد قال شعرا فقد كذب، إن محمدا صلى الله عليه وسلم والأنبياء كلهم في النهي عن الشعر سواء، ولكن لما قتل قابيل هابيل بكاه آدم بالسريانية، فلم يزل ينقل، حتى وصل إلى يعرب بن قحطان، وكان يتكلم بالعربية، والسريانية، فقدم فيه وأخر، وجعله شعرا عربيا"، وذكر بعض علماء العربية: أن في ذلك لحنا، وإقواء، وارتكاب ضرورة، والأولى عدم نسبته إلى يعرب؛ لما فيه من الركاكة الظاهرة.

والحق: أنه شعر في غاية الركاكة، والأشبه أن يكون هذا الشعر اختلاق إسرائيلي ليس له من العربية إلا حظ قليل، أو قصاص يريد أن يستولي على قلوب الناس بمثل هذا الهراء".." (١)

"قال: وبعضهم يقول: هم ناس من بني سليم، ومنهم عرينة ناس من بجيلة. (١)

وقد اختلف الأئمة في حكم هؤلاء العرنيين: هل هو منسوخ أو محكم؟ فقال بعضهم: هو منسوخ بهذه الآية، وزعموا أن فيها عتابا للنبي صلى الله عليه وسلم كما في قوله [تعالى] (٢) ﴿عفا الله عنك لم أذنت لهم﴾ [التوبة:٤٣] ومنهم من قال: هو منسوخ بنهي النبي صلى الله عليه وسلم عن المثلة. وهذا القول فيه نظر، ثم صاحبه مطالب (٣) ببيان تأخر

---

(١) تفسير ابن كثير ت سلامة ابن كثير ٣/٩١

الناسخ الذي ادعاه عن المنسوخ. وقال بعضهم: كان هذا قبل أن تنزل الحدود، قاله محمد بن سيرين، وفي هذا نظر، فإن قصتهم متأخرة، وفي (٤) رواية جرير بن عبد الله لقصتهم ما يدل على تأخرها (٥) فإنه أسلم بعد نزول المائدة. ومنهم من قال: لم يسمل النبي صلى الله عليه وسلم أعينهم، وإنما عزم على ذلك، حتى نزل القرآن فبين حكم المحاربين. وهذا القول أيضا فيه نظر؛ فإنه قد تقدم في الحديث المتفق عليه أنه (٦) سمل -وفي رواية: سمر- أعينهم.

وقال ابن جرير: حدثنا علي بن سهل، حدثنا الوليد بن مسلم قال: ذاكرت الليث بن سعد ما كان من سمل النبي صلى الله عليه وسلم أعينهم، وتركه (٧) حسمهم حتى ماتوا، قال: سمعت محمد بن عجلان يقول: أنزلت هذه الآية على رسول الله صلى الله عليه وسلم معاتبة في ذلك، وعلمه (٨) عقوبة مثلهم: من القتل والقطع والنفي، ولم يسمل بعدهم غيرهم. قال: وكان هذا القول ذكر لأبي عمرو -يعني الأوزاعي- فأنكر أن يكون (٩) نزلت معاتبة، وقال: بل كانت عقوبة أولئك النفر بأعيانهم، ثم نزلت هذه الآية في عقوبة غيرهم ممن حارب بعدهم، ورفع عنهم السمل.

ثم قد احتج بعموم هذه الآية جمهور العلماء في ذهابهم إلى أن المحاربة (١٠) في الأمصار وفي السبلان على السواء لقوله: ﴿ويسعون في الأرض فسادا﴾ وهذا مذهب مالك، والأوزاعي، والليث بن سعد، والشافعي، أحمد بن حنبل، حتى قال مالك -في الذي يغتال الرجل فيخدعه حتى يدخله بيتا فيقتله، ويأخذ ما معه-: إن هذا محاربة، ودمه إلى السلطان لا [إلى] (١١) ولي المقتول، ولا اعتبار بعفوه عنه في إنفاذ القتل.

وقال أبو حنيفة وأصحابه: لا تكون المحاربة إلا في الطرقات، فأما في الأمصار فلا؛ لأنه يلحقه الغوث إذا استغاث، بخلاف الطريق لبعده ممن يغيثه ويعينه. [والله أعلم] (١٢)

وأما قوله: ﴿أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض﴾ الآية: قال (١٣) [علي] (١٤) بن أبي طلحة عن ابن عباس في [قوله: ﴿إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله﴾]

---

(١) تفسير الطبري (١٠/٢٤٧)

(٢) زيادة من ر، أ.

(٣) في أ: "ثم قائله يطالب".

(٤) في ر: "في".

(٥) في أ: "تأخيرها".

(٦) في أ: "إنما".

(٧) في أ: "وترك".

(٨) في أ: "وعلمهم".

(٩) في أ: "تكون".

(١٠) في أ: "أن حكم المحاربة".

(١١) زيادة من ر.

(١٢) زيادة من أ.

(١٣) في ر، أ: "فقال".

(١٤) زيادة من ر، أ.." (١)

"كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، ثم قام بعده على ذلك ابنه عباد ثم من بعد عباد ابنه قلع بن عباد، ثم ابنه أمية بن قلع، ثم ابنه عوف بن أمية، ثم ابنه أبو ثمامة جنادة بن عوف، وكان آخرهم، وعليه قام الإسلام. فكانت العرب إذا فرغت من حجها اجتمعت إليه، فقام فيهم خطيبا، فحرم رجبا، وذا القعدة، وذا الحجة، ويحل المحرم عاما، ويجعل مكانه صفر، ويحرمه عاما ليواطئ عدة ما حرم الله، فيحل ما حرم الله، يعني: ويحرم ما أحل الله.

﴿يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل (٣٨) إلا تنفروا يعذبكم عذابا أليما ويستبدل قوما غيركم ولا تضروه شيئا والله على كل شيء قدير (٣٩) ﴾

هذا شروع في **عتاب** من تخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك، حين طابت الثمار والظلال في شدة الحر وحمارة (١) القيظ، فقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله﴾ أي: إذا دعيتم إلى الجهاد في سبيل الله ﴿اثاقلتم إلى الأرض﴾ أي: تكاسلتم وملتم إلى المقام في الدعة والخفض وطيب الثمار، ﴿أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة﴾ أي: ما لكم فعلتم (٢) هكذا أرضا منكم بالدنيا بدلا من الآخرة

ثم زهد تبارك وتعالى في الدنيا، ورغب في الآخرة، فقال: ﴿فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل﴾ كما قال الإمام أحمد.

حدثنا وكيع ويحيى بن سعيد قالا حدثنا إسماعيل بن أبي خالد، عن قيس، عن المستورد أخي بني فهر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل إصبعه هذه في اليم، فلينظر بما ترجع؟ (٣) وأشار بالسبابة. انفرد بإخراجه مسلم (٤)

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا بشر بن مسلم بن (٥) عبد الحميد الحمصي، حدثنا الربيع بن روح، حدثنا محمد بن خالد الوهبي، حدثنا زياد -يعني الجصاص -عن أبي عثمان قال: قلت: يا أبا هريرة، سمعت من إخواني بالبصرة أنك تقول: سمعت نبي الله يقول: "إن الله يجزي بالحسنة ألف ألف حسنة" قال أبو هريرة: بل سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إن الله يجزي بالحسنة ألفي ألف

---

(١) تفسير ابن كثير ت سلامة ابن كثير ٩٩/٣

(١) في أ: "وحماوة".
(٢) في ت، ك، أ: "صنعتم".
(٣) في أ: "يرجع".
(٤) المسند (٢٢٨/٤) وصحيح مسلم برقم (٢٨٥٨) .
(٥) في أ: "عن".." (١)

"وقوله: ﴿قال هذا رحمة من ربي﴾ أي: لما بناه ذو القرنين ﴿قال هذا رحمة من ربي﴾ أي: بالناس حيث جعل بينهم وبين يأجوج ومأجوج حائلا يمنعهم من العيث (١) في الأرض والفساد. ﴿فإذا جاء وعد ربي﴾ أي: إذا اقترب الوعد الحق ﴿جعله دكاء﴾ أي: ساواه (٢) بالأرض. تقول العرب: ناقة دكاء: إذا كان ظهرها مستويا لا سنام لها. وقال تعالى: ﴿فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا﴾ [الأعراف: ١٤٣] أي: مساويا للأرض (٣) .

وقال عكرمة في قوله: ﴿فإذا جاء وعد ربي جعله دكاء﴾ قال: طريقا كما كان.

﴿وكان وعد ربي حقا﴾ أي: كائنا لا محالة.

وقوله: ﴿وتركنا بعضهم [يومئذ يموج في بعض] ﴾ (٤) أي: الناس يومئذ أي: يوم يدك (٥) هذا السد ويخرج هؤلاء فيموجون في الناس ويفسدون على الناس أموالهم ويتلفون أشياءهم، وهكذا قال السدي في قوله: ﴿وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض﴾ قال: ذاك حين يخرجون على الناس. وهذا كله قبل يوم القيامة وبعد الدجال، كما سيأتي بيانه [إن شاء الله تعالى] (٦) عند قوله: ﴿حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون * واقترب الوعد الحق﴾ [الأنبيا: ٩٦، ٩٧] وهكذا قال هاهنا: ﴿وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض ونفخ في الصور فجمعناهم جمعا﴾ قال ابن زيد في قوله: ﴿وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض﴾ قال: هذا أول يوم القيامة، ﴿ونفخ (٧) في الصور﴾ على أثر ذلك ﴿فجمعناهم جمعا﴾ .

وقال آخرون: بل المراد بقوله: ﴿وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض﴾ أي: يوم القيامة يختلط الإنس والجن.

وروى ابن جرير، عن محمد بن حميد، عن يعقوب القمي (٨) عن هارون بن عنترة، عن شيخ من بني فزارة (٩) في قوله: ﴿وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض﴾ قال: إذا ماج الإنس والجن قال إبليس: أنا أعلم لكم علم هذا الأمر. فيظعن إلى المشرق فيجد الملائكة قد بطنوا (١٠) الأرض، ثم يظعن إلى المغرب فيجد الملائكة بطنوا (١١) الأرض فيقول: "ما من محيص". ثم يظعن يمينا وشمالا إلى أقصى الأرض فيجد الملائكة بطنوا (١٢) الأرض فيقول: "ما من محيص" فبينما هو كذلك، إذ عرض له طريق كالشراك، فأخذ عليه هو وذريته، فبينما هم عليه إذ هجموا على النار، فأخرج الله خازنا من خزان النار، فقال: يا إبليس، ألم تكن لك المنزلة عند ربك؟! ألم تكن في الجنان؟! فيقول: ليس

---

(١) تفسير ابن كثير ت سلامة ابن كثير ١٥٣/٤

هذا يوم **عتاب**، لو أن الله فرض علي فريضة لعبدته فيها عبادة لم يعبده مثلها أحد من

---

(١) في أ: "العبث".

(٢) في ت، أ: "واساه".

(٣) في ت: "الأرض".

(٤) زيادة من ف، أ.

(٥) في ت: "بذكر".

(٦) زيادة من ف، أ.

(٧) في ت: "ينفخ".

(٨) في أ: "العمى".

(٩) في أ: "قرارة".

(١٠) في أ: "قد تطبقوا".

(١١) في أ: "قد تطبقوا".

(١٢) في أ: "قد تطبقوا".." (١)

"في لحافها دون غيرها.

ومن خصائصها: أن الله، عز وجل، لما أنزل عليه آية التخيير بدأ بها فخيرها، فقال: "ولا عليك ألا تعجلي حتى تستأمري أبويك". فقالت: أفي هذا أستأمر أبوي، فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة. فاستن بها بقية أزواجه صلى الله عليه وسلم، وقلن كما قالت.

ومن خصائصها: أن الله، سبحانه، برأها مما رماها به أهل الإفك، وأنزل في عذرها، وبراءتها، وحيا يتلى في محاريب المسلمين، وصلواتهم إلى يوم القيامة، وشهد لها أنها من الطيبات، ووعدها المغفرة والرزق الكريم، وأخبر سبحانه، أن ما قيل فيها من الإفك كان خيرا لها، ولم يكن بذلك الذي قيل فيها شر لها، ولا عيب لها، ولا خافض من شأنها، بل رفعها الله بذلك، وأعلى قدرها وعظم شأنها، وأصار لها ذكرا بالطيب والبراءة بين أهل الأرض والسماء، فيا لها من منقبة ما أجلها. وتأمل هذا التشريف والإكرام الناشئ عن فرط تواضعها واستصغارها لنفسها، حيث قالت: ولشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله في بوحي يتلى، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم رؤيا يبرئني الله بها، فهذه صديقة الأمة، وأم المؤمنين، وحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهي تعلم أنها بريئة مظلومة، وأن قاذفيها ظالمون مفترون عليها، قد بلغ أذاهم إلى أبويها، وإلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذا كان احتقارها لنفسها وتصغيرها لشأنها، فما ظنك بمن قد صام يوما أو يومين، أو شهرا أو شهرين، قد قام ليلة أو ليلتين، فظهر عليه شيء من

---

(١) تفسير ابن كثير ت سلامة ابن كثير ١٩٩/٥

الأحوال، ولاحظوا أنفسهم بعين استحقاق الكرامات، وأنهم ممن يتبرك بلقائهم، ويغتنم بصالح دعائهم، وأنهم يجب على الناس احترامهم وتعظيمهم وتعزيزهم وتوقيرهم، فيتمسح بأثوابهم، ويقبل ثرى **أعتابهم**، وأنهم من الله بالمكانة التي تنتقم لهم لأجلها من تنقصهم في الحال، وأن يؤخذ من أساء الأدب عليهم من غير إمهال، وإن إساءة الأدب عليهم ذنب لا يكفره شيء إلا رضاهم.

ولو كان هذا من وراء كفاية لهان، ولكن من وراء تخلف، وهذه الحماقات والرعونات نتاج الجهل الصميم، والعقل غير المستقيم، فإن ذلك إنما يصدر من جاهل معجب بنفسه، غافل عن جرمه وعيوبه وذنوبه، مغتر بإمهال الله له عن أخذه بما هو فيه من الكبر والازدراء على من لعله عند الله خير منه. نسأل الله العافية في الدنيا والآخرة. وينبغي للعبد أن يستعيذ بالله أن يكون عند نفسه عظيما، وهو عند الله حقير، ومن خصائص عائشة، رضي الله عنها: أن الأكابر من الصحابة، رضي الله عنهم، كان إذا أشكل الأمر عليهم من الدين، استفتوها فيجدون علمه عندها.

ومن خصائصها: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم توفي في بيتها. ومن خصائصها: أن الملك أرى صورتها للنبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يتزوجها في خرقة حرير، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "إن يكن هذا من عند الله يمضه" (١) . ومن خصائصها: أن الناس كانوا يتحرون هداياهم يومها من رسول الله صلى الله عليه وسلم تقربا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، فيتحفونه بما يحب في منزل أحب نسائه إليه، رضي الله عنهم أجمعين، وتكنى أم عبد الله، وروي أنها أسقطت من النبي صلى الله عليه وسلم سقطا، ولا يثبت ذلك.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه برقم (٥٠٧٨) من حديث عائشة، رضي الله عنها.." (١)

"فكذبوهم وخالفوهم، ﴿وإلى الله ترجع الأمور﴾ أي: وسنجزيهم على ذلك أوفر الجزاء.

ثم قال: ﴿يا أيها الناس إن وعد الله حق﴾ أي: المعاد كائن لا محالة، ﴿فلا تغرنكم الحياة الدنيا﴾ أي: العيشة الدنيئة (١) بالنسبة إلى ما أعد (٢) الله لأوليائه وأتباع رسله من الخير العظيم فلا تتلهوا (٣) عن ذلك (٤) الباقي بهذه الزهرة الفانية، ﴿ولا يغرنكم بالله الغرور﴾ وهو الشيطان. قاله ابن عباس. أي: لا يفتننكم الشيطان ويصرفنكم عن اتباع رسل الله وتصديق كلماته فإنه غرار كذاب أفاك. وهذه الآية كالآية التي في آخر لقمان: ﴿فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور﴾ [لقمان: ٣٣] . قال مالك، عن زيد بن أسلم: هو الشيطان. كما قال: يقول المؤمنون للمنافقين يوم القيامة حين يضرب ﴿بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب * ينادونهم ألم نكن معكم قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأماني حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور﴾ [الحديد: ١٣، ١٤] .

ثم بين تعالى عداوة إبليس لابن آدم فقال: ﴿إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا﴾ (٥) أي: هو مبارز لكم بالعداوة، فعادوه أنتم أشد العداوة، وخالفوه وكذبوه فيما يغركم به، ﴿إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير﴾ أي: إنما يقصد أن يضلكم حتى تدخلوا معه إلى عذاب السعير، فهذا هو العدو المبين. فنسأل الله القوي العزيز أن يجعلنا أعداء الشيطان

---

(١) تفسير ابن كثير ت سلامة ابن كثير ٤٠٥/٦

(٦) ، وأن يرزقنا اتباع كتابه، والاقتفاء بطريق رسوله، إنه على ما يشاء قدير، وبالإجابة جدير. وهذه كقوله: ﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا﴾ [الكهف: ٥٠] .

[وقال بعض العلماء: وتحت هذا الخطاب نوع لطيف من **العتاب** كأنه يقول: إنما عاديت إبليس من أجل أبيكم ومن أجلكم، فكيف يحسن بكم أن توالوه؟ بل اللائق بكم أن تعادوه وتخالفوه ولا تطاوعوه] . (٧)

﴿الذين كفروا لهم عذاب شديد والذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر كبير (٧) أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن الله عليم بما يصنعون (٨) ﴾ .

لما ذكر [الله] (٨) تعالى أن أتباع إبليس مصيرهم إلى [عذاب] (٩) السعير، ذكر بعد ذلك أن الذين كفروا لهم عذاب شديد (١٠) ؛ لأنهم أطاعوا الشيطان وعصوا الرحمن، وأن الذين آمنوا بالله

---

(١) في أ: "المعيشة الدنية".

(٢) في ت: "ما وعد".

(٣) في أ: "فلا يلتهوا".

(٤) في س: "ذاك".

(٥) في س بعدها: "إنما يدعو حزبه".

(٦) في ت: "للشياطين".

(٧) زيادة من ت، أ.

(٨) زيادة من ت.

(٩) زيادة من ت، أ.

(١٠) في ت: "للذين كفروا عذا با شديدا".." (١)

"جزلا ثم أوقدوا فيه نارا، حتى إذا [أكلت] (١) لحمي وخلصت إلى عظمي فامتحشت، فخذوها فدقوها فذروها في اليم. ففعلوا، فجمعه الله إليه فقال له: لم فعلت ذلك؟ قال: من خشيتك. فغفر الله له". فقال عقبة بن عمرو: وأنا سمعته يقول ذلك، وكان نباشا. (٢)

وقد أخرجاه في الصحيحين، من حديث عبد الملك بن عمير، بألفاظ كثيرة (٣) منها: أنه أمر بنيه أن يحرقوه ثم يسحقوه، ثم يذروا نصفه في البر ونصفه في البحر، في يوم رائح، (٤) أي: كثير الهواء -ففعلوا ذلك. فأمر الله البحر فجمع ما فيه، وأمر البر فجمع ما فيه، ثم قال له: كن. فإذا هو رجل قائم. فقال له: ما حملك على ما صنعت؟ فقال: مخافتك وأنت أعلم. فما تلافاه أن غفر له".

---

(١) تفسير ابن كثير ت سلامة ابن كثير ٥٣٤/٦

وقوله: ﴿الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون﴾ أي: الذي بدأ خلق هذا الشجر من ماء حتى صار خضرا نضرا ذا ثمر وينع، ثم أعاده إلى أن صار حطبا يابسا، توقد به النار، كذلك هو فعال لما يشاء، قادر على ما يريد لا يمنعه شيء.

قال قتادة في قوله: ﴿الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون﴾ يقول: الذي أخرج هذه النار من هذا الشجر قادر على أن يبعثه.

وقيل: المراد بذلك سرح المرخ والعفار، ينبت في أرض الحجاز فيأتي من أراد قدح نار وليس معه زناد، فيأخذ منه عودين أخضرين، ويقدح (٥) أحدهما بالآخر، فتتولد النار من بينهما، كالزناد سواء. روي هذا عن ابن عباس، رضي الله عنهما (٦) . وفي المثل: (٧) لكل شجر نار، واستمجد المرخ والعفار. (٨) وقال الحكماء: في كل شجر نار إلا الغاب. (٩)

﴿أوليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم (٨١) إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون (٨٢) فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون (٨٣) ﴾

يقول تعالى منبها على قدرته العظيمة في خلق السموات السبع، بما فيها من الكواكب السيارة والثوابت، والأرضين السبع وما فيها من جبال ورمال، وبحار وقفار، وما بين ذلك، ومرشدا إلى الاستدلال على إعادة الأجساد بخلق هذه الأشياء العظيمة، كقوله تعالى: ﴿لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس﴾ [غافر: ٥٧] . وقال هاهنا: ﴿أوليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم﴾ أي: مثل البشر، فيعيدهم كما بدأهم. قاله ابن جرير. (١٠) وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿أولم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض ولم يعي بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى بلى إنه على كل شيء قدير﴾ [الأحقاف: ٣٣] ،

---

(١) زيادة من ت، س، والمسند.

(٢) المسند (٥/٣٩٥) .

(٣) صحيح البخاري برقم (٦٤٨٠) وصحيح مسلم برقم (٢٧٥٦) .

(٤) في س، أ: "راح".

(٥) في أ: "فيحك".

(٦) في ت، س: "عنه".

(٧) في أ: "الراجز".

(٨) مجمع الأمثال للميداني برقم (٢٧٥٢) .

(٩) في أ: "العتاب".

(١٠) تفسير الطبري (٢٣/٢١) .." (١)

---

(١) تفسير ابن كثير ت سلامة ابن كثير ٦/٥٩٥

"ألم أسخر لك الخيل والإبل، وأذرك ترأس وتربع؟ فيقول: بلى، يا رب. فيقول: أفظننت أنك ملاقي؟ فيقول: لا. فيقول الله تعالى: فاليوم أنساك كما نسيتني" (١) .

قال الله تعالى: ﴿ذلكم بأنكم اتخذتم آيات الله هزوا﴾ أي: إنما جازيناكم هذا الجزاء لأنكم اتخذتم حجج الله عليكم سخريا، تسخرون وتستهزئون بها، ﴿وغرتكم الحياة الدنيا﴾ أي: خدعتكم فاطمأننتم إليها، فأصبحتم من الخاسرين؛ ولهذا قال: ﴿فاليوم لا يخرجون منها﴾ أي: من النار ﴿ولا هم يستعتبون﴾ أي: لا يطلب منهم العتبى، بل يعذبون بغير حساب ولا **عتاب**، كما تدخل طائفة من المؤمنين الجنة بغير عذاب ولا حساب.

ثم لما ذكر حكمه في المؤمنين والكافرين قال: ﴿فلله الحمد رب السموات ورب الأرض﴾ أي: المالك لهما وما فيهما؛ ولهذا قال: ﴿رب العالمين﴾ .

ثم قال: ﴿وله الكبرياء في السموات والأرض﴾ قال مجاهد: يعني السلطان. أي: هو العظيم الممجد، الذي كل شيء خاضع لديه فقير إليه. وقد ورد في الحديث الصحيح: "يقول الله تعالى (٢) العظمة إزاري والكبرياء ردائي، فمن نازعني واحدا منهما أسكنته ناري". ورواه مسلم من حديث الأعمش، عن أبي إسحاق، عن الأغر أبي مسلم، عن أبي هريرة وأبي سعيد، رضي الله عنهما، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، بنحوه (٣) .

وقوله: ﴿وهو العزيز﴾ أي: الذي لا يغالب ولا يمانع، ﴿الحكيم﴾ في أقواله وأفعاله، وشرعه وقدره، تعالى وتقدس، لا إله إلا هو (٤) .

آخر تفسير سورة الجاثية [ولله الحمد والمنة] (٥)

---

(١) صحيح مسلم برقم (٢٩٦٨) من حديث أبي هريرة، رضي الله عنه.

(٢) في ت: "أن الله تعالى يقول".

(٣) صحيح مسلم برقم (٢٦٢٠) .

(٤) في أ: "لا إله غيره ولا رب سواه".

(٥) زيادة من ت، م، أ.." (١)

"حدثنا أبي، حدثنا صفوان بن صالح، حدثنا الوليد بن مسلم، عن صفوان بن عمرو، عن أيفع بن عبد الكلاعي: أنه سمعه وهو يعظ الناس يقول: إن لجهنم سبع قناطر -قال: والصراط عليهن، قال: فيحبس الخلائق عند القنطرة الأولى، فيقول: ﴿وقفوهم إنهم مسئولون﴾ [الصافات:٢٤] ، قال: فيحاسبون على الصلاة ويسألون عنها، قال: فيهلك فيها من هلك، وينجو من نجا، فإذا بلغوا القنطرة الثانية حوسبوا على الأمانة كيف أدوها، وكيف خانوها؟ قال: فيهلك من هلك

---

(١) تفسير ابن كثير ت سلامة ابن كثير ٢٧٣/٧

وينجو من نجا. فإذا بلغوا القنطرة الثالثة سئلوا عن الرحم كيف وصلوها وكيف قطعوها؟ قال: فيهلك من هلك وينجو من نجا. قال: والرحم يومئذ متدلية إلى الهوي في جهنم تقول: اللهم من وصلني فصله، ومن قطعني فاقطعه. قال: وهي التي يقول الله عز وجل: ﴿إن ربك لبالمرصاد﴾ .

هكذا أورد هذا الأثر، ولم يذكر تمامه.

﴿فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي أكرمن (15) وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانن (١٦) كلا بل لا تكرمون اليتيم (١٧) ولا تحاضون على طعام المسكين (١٨) وتأكلون التراث أكلا لما (١٩) وتحبون المال حبا جما (٢٠) ﴾

يقول تعالى منكرا على الإنسان في اعتقاده إذا وسع الله عليه في الرزق ليختبره في ذلك، فيعتقد أن ذلك من الله إكرام له وليس كذلك، بل هو ابتلاء وامتحان. كما قال تعالى: ﴿أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون﴾ [المؤمنون:٥٥، ٥٦] . وكذلك في الجانب الآخر إذا ابتلاه وامتحنه وضيق عليه في الرزق، يعتقد أن ذلك من الله إهانة له. قال الله: ﴿كلا﴾ أي: ليس الأمر كما زعم، لا في هذا ولا في هذا، فإن الله يعطي المال من يحب ومن لا يحب، ويضيق على من يحب ومن لا يحب، وإنما المدار في ذلك على طاعة الله في كل من الحالين، إذا كان غنيا بأن يشكر الله على ذلك، وإذا كان فقيرا بأن يصبر.

وقوله: ﴿بل لا تكرمون اليتيم﴾ فيه أمر بالإكرام له، كما جاء في الحديث الذي رواه عبد الله ابن المبارك، عن سعيد بن أبي أيوب، عن يحيى بن سليمان، عن زيد بن أبي **عتاب** (١) عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم: "خير بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يحسن إليه، وشر بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يساء إليه" ثم قال بأصبعه: "أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا" (٢) .

وقال أبو داود: حدثنا محمد بن الصباح بن سفيان، أخبرنا عبد العزيز -يعني ابن أبي حازم-حدثني أبي، عن سهل - يعني ابن سعد-أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة". وقرن (٣) بين إصبعيه: الوسطى والتي تلي الإبهام (٤) .

---

(١) في م: "غياث".

(٢) الزهد لابن المبارك برقم (٦٥٤) ورواه ابن ماجة في السنن برقم (٣٦٧٩) من طريق ابن المبارك، وقال البوصيري في الزوائد (١٦٥/٣) : "هذا إسناد ضعيف، يحيى بن سليمان -أبو صالح- قال فيه البخاري: منكر، وقال أبو حاتم: مضطرب الحديث، وذكره ابن حبان في الثقات".

(٣) في أ: "وفرق".

(٤) سنن أبي داود برقم (٥١٥٠) وهو في صحيح البخاري برقم (٦٠٠٥) من طريق ابن أبي حازم به.." (١)

---

(١) تفسير ابن كثير ت سلامة ابن كثير ٣٩٨/٨

"وأما من حيث النقل فلقوله عليه الصلاة والسلام : «رفع عن أمتي الخطأ والنسيان» .

وقد يجاب عن الأول بأنا لا نسلم أن آدم وحواء – عليهما الصلاة والسلام – قبلا من إبليس ذلك الكلام وصدقاه؛ لأنهما لو صدقاه لكانت معصيتهما في ذلك التصديق أعظم من أكل الشجرة؛ لأن إبليس لما قال لهما: ﴿ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين﴾ [الأعراف: ٢٠] الآية فقد ألقى إليهما سوء الظن بالله – تعالى – ودعاهما إلى ترك التسليم لأمره، والرضا بحكمه، وان يعتقدوا فيه كون إبليس ناصحا لهما، وأن الرب – تعالى – قد غضهما ولا شك أن هذه الأشياء أعظم من أكل الشجرة، فوجب أن تكون المعاتبة في ذلك أشد، وأيضا آدم – عليه الصلاة والسلام – كان عالما بتمرد «إبليس» ، وكونه مبغضا له وحاسدا له، فكيف يجوز من العاقل أن يقبل قول عدوه مع هذه القرائن، وليس في الآية أنهما أقدما على ذلك الفعل عند ذلك الكلام.

وأما الجواب الثاني: فهو أن **العتاب** إنما حصل على قلة التحفظ من سباب النسيان، وهذا الضرب من السهو موضوع عن المسلمين، وقد كان يجوز أن يؤاخذوا به، وليس بموضوع عن الأنبياء لعظم خطرهم ومثلوه بقوله: ﴿يانسآء النبي لستن كأحد من النسآء﴾ [الأحزاب: ٣٢] ، ثم قال: ﴿من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين﴾ [الأحزاب: ٣٠] .

وقال عليه الصلاة والسلام : «أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأولياء ثم الأمثل فالأمثل» ، ولقد كان على النبي صلى الله عليه وسلم من التشديدات في التكليف ما لم يكن على غيره.

وذكر بعض المفسرين أن حواء سقته الخمر، فسكر وفي أثناء السكر فعل ذلك قالوا وهذا ليس ببعيد؛ عليه الصلاة والسلام – كان مأذونا له في تناول كل الأشياء سوى تلك الشجرة، فكان مأذونا له في تناول الخمر، ولقائل أن يقول: إن خمر الجنة لا يسكر لقوله تعالى في صفة خمر الجنة: ﴿لا فيها غول﴾ [الصافات:4 ٧] .

القول الثاني: أن آدم – عليه الصلاة والسلام – فعله عامدا؛ فها هنا قولان:

أحدهما: أن ذلك النهي نهي تنزيه، لا نهي تحريم، وقد تقدم.

الثاني: أنه تعمد وأقدم على الكل بسبب اجتهاد أخطأ فيه، وذلك لا يقتضي كون الذنب كبيرة، وهذا اختيار أكثر المعتزلة.." (١)

"وبيان خطأ الاجتهاد أنه لما قيل له: ﴿ولا تقربا هذه الشجرة﴾ [الأعراف: ١٩] فلفظ «هذه» يشار به إلى الشخص، وقد يشار به إلى النوع، كما روي أنه – عليه الصلاة والسلام – اخذ حريرا وذهبا بيده وقال: «هذان حلال لإناث أمتي حرام على ذكرها» وأراد به توعهما، وتوضأ مرة وقال: «هذا وضوء لا يقبل الله الصلاة إلا به» وأراد نوعه، فلما سمع آدم – عليه الصلاة والسلام – قوله: «ولا تقربا هذه الشجرة» ظن أن النهي إنما يتناول تلك الشجرة المعينة، فتركها وتناول من شجرة أخرى من ذلك النوع، فكان مخطئا في ذلك الاجتهاد؛ لأن مراد الله – تعالى – النهي عن النوع لا عن الشخص.

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٥٦٤/١

والاجتهاد في الفروع إذا كان خطأ لا يوجب استحقاق العقاب لاحتمال كونه صغيرة مغفورة كما في شرعنا.
فغن قيل: الكلام على هذا القول من وجوه:
أحدها: أن كلمة «هذا» في أصل اللغة للإشارة إلى الشيء الحاضر، وهو لا يكون إلا شيئا معينا، فإن أشير بها إلى النوع، فذاك على خلاف الأصل، وأيضا فأنه – تعالى – لا تجوز الإشارة عليه، فوجب ان يكون أمر بعض الملائكة بالإشارة إلى ذلك الشخص، فكان ما عداه خارجا عن النهي لا محالة، وإذا ثبت هذا فالمجتهد مكلف يحمل اللفظ على حقيقته، فأدم – عليه الصلاة والسلام – لما حمل لفظ «هذه» على المعين كان قد فعل الواجب، ولا يجوز له حمله على النوع، وهذا متأيد بأمرين:
أحدهما: أن قوله: ﴿وكلا منها رغدا حيث شئتما﴾ [البقرة: ٣٥] أفاد الإذن في تناول كل ما في الجنة إلا ما خصه الدليل.
والثاني: أن العقل يقتضي حل الانتفاع بجميع المنافع إلا ما خصه الدليل، والدليل المخصص لم يدل على ذلك المعين، وإذا ثبت هذا امتنع أن يستحق بسبب تناول غيره وغن كان من ذلك النوع المنهي عنه **عتابا**، فوجب على هذا أن يكون مصيبا لا مخطئا.
الاعتراض الثاني: هب أن لفظة «هذه» مترددة بين الشخص والنوع، ولكن هل قرن الله بـهذا اللفظ ما يدل على أن المراد منه النوع دون الشخص أو لا؟
فإن قرن به، فإما أن يقال: إن آدم – عليه الصلاة والسلام – قصر في معرفة ذلك البيان، فحينئذ يكون قد أتى بالذنب وإن لم يقصر بل عرفه، فحينئذ يكون إقدامه على التناول من شجرة من ذلك النوع إقداما على الذنب قصدا.
الاعتراض الثالث: أن الأنبياء – عليهم الصلاة والسلام – لا يجوز لهم الاجتهاد؛ لأن الاجتهاد إقدام على العمل بالظن وذلك إنما يجوز في حق من لا يتمكن من تحصيل العلم، أما الأنبياء فإنهم قادرون على تحصيل اليقين، فوجب ألا يجوز لهم الاجتهاد؛ لأن الاكتفاء بالظن مع القدرة على تحصيل اليقين غير جائز عقلا وشرعا، وذا ثبت ذلك ثبت أن افقدام على الاجتهاد معصية.." (١)

"والمعنى: أنه تعالى كره خروجهم مع الرسول – عليه الصلاة والسلام –، فصرفهم عنه.
فإن قيل: خروجهم مع الرسول صلى الله عليه وسلم إما أن يقال إنه كان مفسدة، وإما أن يقال إنه مصلحة، فإن كان مفسدة، فلم عاتب الرسول في إذنه لهم بالقعود؟ وإن كان مصلحة فلم قال تعالى: إنه كره انبعاثهم وخروجهم؟
والجواب: أن خروجهم مع الرسول ما كان مصلحة؛ لأنه تعالى صرح بعد هذه الآية بذكر المفاسد بقوله: ﴿لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا﴾ ، بقي أن يقال: فلما كان الأصلح أن لا يخرجوا، فلم عاتب الرسول في الإذن؟ فنقول: قد حكينا عن أبي مسلم أنه قال: ليس في قوله: ﴿لم أذنت لهم﴾ [التوبة: ٤٣] أنه عليه الصلاة والسلام ، قد أذن لهم بالقعود، بل يحتمل أن يقال: إنهم استأذنوه في الخروج معه، فأذن لهم، وعلى هذا يسقط السؤال.

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ١/٥٦٥

قال أبو مسلم «ويدل على صحة ما قلنا أن هذه الآية دلت على أن خروجهم معه كان مفسدة؛ فوجب حمل ذلك العتاب على أنه عليه الصلاة والسلام أذن لهم في الخروج معه» ويؤكد ذلك قوله تعالى:

﴿فإن رجعك الله إلى طآئفة منهم فاستأذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معي أبدا ولن تقاتلوا معي عدوا﴾ [التوبة: ٨٣] وقوله تعالى: ﴿سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها ذرونا نتبعكم﴾ [الفتح: ١٥] فاندفع السؤال على طريق أبي مسلم.

والجواب على طريقة غيره، وهو أن نسلم أن العتاب في قوله: ﴿لم أذنت لهم﴾ [التوبة: ٤٣] يوجب أنه عليه الصلاة والسلام أذن لهم في القعود، فنقول: ذلك العتاب ما كان لأجل أن ذلك القعود كان مفسدة، بل لأجل أن إذنه عليه الصلاة والسلام بذلك القعود مفسدة، وبيانه من وجوه:

الأول: أنه عليه الصلاة والسلام أذن قبل إتمام التفحص وإكمال التأمل، ولهذا قال تعالى ﴿لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين﴾ [التوبة: ٤٣] .

والثاني: أن التقدير أنه عليه الصلاة والسلام ما كان يأذن لهم في القعود، فهم كانوا يقعدون من تلقاء أنفسهم وكان يصير ذلك القعود علامة على نفاقهم، وإذا ظهر نفاقهم احترز المسلمون منهم، ولم يغتروا بقولهم، فلما أذن الرسول في ذلك القعود بقي نفاقهم مخفيا، وفاتت تلك المصالح.

والثالث: أنهم لما استأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم غضب عليهم وقال: ﴿اقعدوا مع القاعدين﴾ ثم إنهم اغتنموا هذه اللفظة وقالوا: قد أذن لنا، فقال تعالى: ﴿لم أذنت لهم﴾ [التوبة: ٤٣] أي: لم ذكرت عندهم هذا اللفظ الذي أمكنهم أن يتوسلوا به إلى غرضهم.

الرابع: أن الذين يقولون إن الاجتهاد غير جائز على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، قالوا: إنه إنما أذن بمجرد الاجتهاد وذلك غير جائز؛ لأنهم لما تمكنوا من الوحي، وكان." (١)

"وتعالى -: ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا﴾ [النساء: ٤١] .

قوله: ﴿ثم لا يؤذن للذين كفروا﴾ قال الزمخشري: «فإن قلت: ما معنى» ثم «هذه؟ قلت: معناه: أنهم يمنعون بعد شهادة الأنبياء عليه السلام بما هو أطم منه، وهو أنهم يمنعون الكلام، فلا يؤذن لهم في إلقاء معذرة ولا [إدلاء] حجة:. انتهى.

ومفعول الإذن محذوف، أي: لا يؤذن لهم في الكلام؛ كما قال - تعالى -: ﴿ولا يؤذن لهم فيعتذرون﴾ [المرسلات: ٣٦] أي: في الرجوع إلى الدنيا.

وقيل: لا يؤذن لهم في الكلام أصلا، ﴿ولا هم يستعتبون﴾ أي: لا تزال عتابهم وهي ما يعتبون عليها ويلامون؛ يقال: استعتبت فلانا بمعنى: أعتبته، أي: أزلت عتباه، و» استفعل «بمعنى:» أفعل «غير مستنكر، قالوا: استدنيت فلانا وأدنيته بمعنى واحد.

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ١٠٦/١٠

وقيل: السين على بابها من الطلب، ومعناه: أنهم لا يسألون أن يرجعوا عما كانوا عليه في الدنيا، فهذا **استعتاب** معناه طلب **عتابهم**.

وقال الزمخشري» ولا هم يسترضون، أي: لا يقال لهم: أرضوا ربكم؛ لأن الآخرة ليست بدار عمل «. وسيأتي لهذا مزيد بيان إن شاء الله – تعالى – في سورة حم السجدة؛ لأنه أليق لاختلاف القراء فيه. ثم إنه – تعالى – أكد هذا الوعيد فقال: ﴿وإذا رأى الذين ظلموا العذاب﴾ أي: أن هؤلاء المشركين إذا رأوا العذاب ووصلوا إليه، فعند ذلك ﴿فلا يخفف عنهم ولا هم ينظرون﴾ ولا يؤخرون ولا يمهلون؛ لأن التوبة هناك غير موجودة.

قوله:» فلا يخفف «هذه الفاء وما حيزها جواب» إذا «، ولا بد من إضمار مبتدأ قبل هذه الفاء، أي: فهو لا يخفف؛ لأن جواب» إذا «متى كان مضارعا، لم يحتج إلى فاء سواء كان موجبا؛ كقوله – تعالى –: ﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات تعرف﴾ [الحج: ٧٢] أم منفيا؛ نحو:» إذا جاء زيد لا يكرمك «.

قوله تعالى: ﴿وإذا رأى الذين أشركوا شركآءهم﴾ وهذا من بقية وعيد المشركين، وفي الشركاء قولان:

الأول: أن الله – تعالى –: يبعث الأصنام فتكذب المشركين، ويشاهدونها في غاية الذل والحقارة، وكل ذلك مما يوجب زيادة الغم والحسرة في قلوبهم.

والثاني: أن المراد بالشركاء: الشياطين الذين دعوا الكفار إلى الكفر؛ قاله الحسن – رضي الله عنه –، وإنما ذهب إلى هذا القول؛ – لأنه – تعالى – حكى عن الشركاء أنهم كذبوا الكفار، والأصنام جمادات فلا يصح منهم هذا القول.

وهذا بعيد؛ لأن الله – تعالى – قادر على خلق الحياة في الأصنام وعلى خلق العقل والنطق فيها.." (١)

"مسافة قريبة يتقدم بمثلها الوفد رأسهم ومقدمتهم، ثم عقبه بجواب السؤال عن السبب فقال: ﴿وعجلت إليك رب لترضى﴾ .

وأجاب غيره عن هذا السؤال بأنه – عليه السلام – ورد عليه من هيبة **عتاب** الله ما أذهله عن الجواب المنطبق المرتب على حدود الكلام.

فصل

في الآية سؤالات:

الأول: قوله: «وما أعجلك» استفهام، وهو على الله تعالى محال.

والجواب: أنه إنكار في صيغة الاستفهام ولا امتناع فيه.

الثاني: أن موسى – عليه السلام – إما أن يقال: إنه كان ممنوعا عن ذلك التقدم، أو لم يكن ممنوعا عنه، فإن كان ممنوعا كان ذلك التقدم معصية فيلزم وقوع المعصية من الأنبياء، وإن لم يكن ممنوعا كان ذلك الإنكار غير جائز.

والجواب: لعله – عليه السلام – ما وجد نصا في ذلك إلا أنه باجتهاده تقدم فأخطأ في ذلك الاجتهاد فاستوجب **العتاب**.

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ١٣٧/١٢

الثالث: قوله: «وعجلت» والعجلة مذمومة.

والجواب: أنها ممدوحة في الدين قال الله تعالى: ﴿وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة﴾ [آل عمران: ١٣٣] .

الرابع: قوله: «لترضى» يدل على أنه – عليه السلام – إنما فعل ذلك ليحصل الرضا لله تعالى، وذلك باطل من وجهين:

أحدهما: يلزم تجدد صفة الله.

والآخر: أنه – تعالى – قبل حصول ذلك الرضا يجب أن يقال: (إنه ما) كان راضيا عن موسى، لأن تحصيل الحاصل محال، ولما لم يكن راضيا عنه وجب أن." (١)

"قلنا: لأن القرآن لم يكن مستقرا على حالة واحدة في زمان حياته، لأنه كان تأتيه الآيات فيلحقها بالسور، فلم تكن تأدية تلك السورة بدون الزيادة سببا لزوال اللبس.

وثانيهما: لو كان كذلك لاستحق **العتاب** على فعل الغير، وذلك لا يليق بالحكيم.

الوجه الرابع: أن المتكلم بهذا هو الرسول – عليه السلام – ثم هذا يحتمل ثلاثة أوجه:

إما أن يكون قال هذه الكلمة سهوا أو قسرا أو اختيارا. فإن قالها سهوا كما يروى عن قتادة ومقاتل أنهما قالا: إنه عليه السلام كان يصلي عند المقام فنعس وجرى على لسانه هاتان الكلمتان، فلما فرغ من السورة سجد وسجد كل من في المسجد، وفرح المشركون بما سمعوا، وأتاه جبريل واستقرأه فلما انتهى إلى الغرانيق قال: لم آتك بهذا، فحزن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إلى أن أنزلت هذه الآية. وهذا ضعيف لوجوه:

أحدها: أنه لو جاز هذا السهو لجاز في سائر المواضع، وحينئذ تزول الثقة عن الشرع.

وثانيها: أن الساهي لا يجوز أن يقع منه مثل هذه الألفاظ المطابقة لوزن السورة، وطريقتها ومعناها، فإنا نعلم بالضرورة أن واحدا لو أنشد قصيدة لما جاز أن يسهو حتى يتفق منه بيت شعر في وزنها ومعناها وطريقتها.

وثالثها: هب أنه تكلم بذلك سهوا فكيف لا يتنبه لذلك حين قرأها على جبريل وذلك ظاهر. وأما إن تكلم بذلك قسرا، كما قال قوم إن الشيطان أجبر النبي على التكلم به وهذا أيضا فاسد لوجوه:

أحدها: أن الشيطان لو قدر على ذلك في حق النبي لكان اقتداره علينا أكثر، فوجب أن يزيل الشيطان الناس عن الدين، ولجاز في أكثر ما يتكلم به أحدنا أن يكون ذلك بإجبار الشيطان.

وثانيها: أن الشيطان لو قدر على هذا الإجبار لارتفع الأمان عن الوحي لقيام هذا الاحتمال.

وثالثها: أنه باطل لقوله تعالى حاكيا عن الشيطان ﴿وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي﴾ [إبراهيم: ٢٢] ، وقوله تعالى: ﴿إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا﴾ [النحل: ٩٩]." (٢)

"قوله: ﴿وليستعفف الذين لا يجدون نكاحا﴾ الآية.

لما ذكر تزويج الحرائر والإماء ذكر حال من يعجز عن ذلك فقال: «وليستعفف» أي: وليجتهد في العفة، كأن المستعفف

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ١٣/٣٤٧

(٢) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ١٤/١٢١

طالب من نفسه العفاف.

وقوله: ﴿لا يجدون نكاحا﴾ أي: لا يتمكنون من الوصول إليه، يقال: لا يجد المرء الشيء إذا لم يتمكن منه، قال تعالى: ﴿فمن لم يجد فصيام شهرين﴾ [النساء: ٩٢] ويقال: هو غير واجد للماء، وإن كان موجودا، إذا لم يمكنه أن يشتريه. ويجوز أن يراد بالنكاح: ما ينكح به من المال، فبين تعالى أن من لا يتمكن من ذلك فليطلب التعفف ولينتظر أن يغنيه الله من فضله ثم يصل إلى بغيته من النكاح. فإن قيل: أفليس ملك اليمين يقوم مقام نفس النكاح؟

قلنا: لكن من لم يجد المهر والنفقة فبأن لا يجد ثمن الجارية أولى.

قوله تعالى: ﴿والذين يبتغون الكتاب ... ﴾ الآية لما بعث السيد على تزويج الصالحين من العبيد والإماء مع الرق رغبهم في أن يكاتبوهم إذا طلبوا ذلك ليصيروا أحرارا فيتصرفون في أنفسهم كالأحرار، فقال: ﴿والذين يبتغون الكتاب﴾ .

يجوز في الذين الرفع على الابتداء، والخبر الجملة المقترنة بالفاء لما تضمنه المبتدأ من معنى الشرط.

ويجوز نصبه بفعل مقدر على الاشتغال، كقولك: «زيدا فاضربه» وهو أرجح لمكان الأمر. والكتاب والكتابة **كالعتاب والعتابة**، وفي اشتقاق لفظ الكتابة وجوه:." (١)

"يعملون﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣] فالجواب: يحمل ذلك على وقتين كما قررناه.

وقال أبو مسلم: السؤال قد يكون للمحاسبة، وقد يكون للتقريع والتوبيخ، وقد يكون **للاستعتاب**، وأليق الوجوه بهذه الآية **الاستعتاب** لقوله ﴿ثم لا يؤذن للذين كفروا ولا هم يستعتبون﴾ [النحل: ٨٤] ﴿هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون﴾ [المرسلات: ٣٥، ٣٦] .

قوله: «في زينته» إما متعلق ب «خرج» ، وإما بمحذوف على أنه حال من فاعل خرج.." (٢)

"فصل

وتلك الأمثال: الأشباه، والمثل: كلام سائغ يتضمن تشبيه الآخر بالأول، يريد امثال القرآن التي شبه بها أحوال الكفار هذه الأمة بأحوال كفار الأمم المتقدمة «نضربها» تنبيها للناس، قال مقاتل: لكفار مكة ﴿وما يعقلهآ إلا العالمون﴾ أي ما يعقل الأمثال إلا العلماء الذين يعقلون عن الله. روى جابر «أن النبي – صلى الله عليه وسلم – تلا هذه الآية ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون﴾ قال:» العالم من عقل عن الله فعمل بطاعته، واجتنب سخطه «

فصل

روي أن الكفار قالوا: كيف يضرب خالق الأرض والسموات الأمثال بالهوام والحشرات كالبعوض والذباب والعنكبوت، فقيل: الأمثال تضربها للناس إذ لم يكونوا كالأنعام يحصل لكم منه إدراك ما يوجب نفرتكم مما أنتم فيه لأن التشبيه يؤثر في النفس تأثيرا مثل تأثير الدليل، فإذا قال الحكيم لمن يغتاب (بالغيبة) كأنك تأكل لحم ميت لأنك وقعت في هذا

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ١٤/٣٦٩

(٢) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ١٥/٢٩٤

الرجل الغائب وهو غائب لا يفهم ما تقول ولا يسمع حتى يجيبك كمن يقع في ميت يأكل كما ينفر إذا قال له: إنك توجب العقاب ويورث **العتاب**." (١)

"مجرى النفس والمريء الطعام والشراب وهو تحت الحلقوم وقال الراغب: رأس الغصمة من خارج.

قوله:» الظنونا «قرأ نافع وابن عامر وأبو بكر بإثبات ألف بعد نون» الظنون «ولام الرسول في قوله: ﴿وأطعنا الرسولا﴾ [الأحزاب: ٦٦] ولام السبيل في قوله: ﴿فأضلونا السبيلا﴾ [الأحزاب: ٦٧] وصلا ووقفا موافقة للرسم؛ لأنهن رسمن في المصحف كذلك وأيضا فإن هذه الألف تشبه هاء السكت لبيان الحركة، وهاء السكت تثبت وقفا للحاجة إليها وقد ثبتت وصلا إجراء للوصل مجرى الوقف كما تقدم في البقرة والأنعام فكذلك هذه الألف، وقرأ أبو عمرو وحمزة بحذفها في الحالين؛ لأنها لا أصل لها وقولهم: أجريت الفواصل مجرى القوافي غير معتد به لأن القوافي يلتزم الوقف عليها غابا، والفواصل لا يلزم ذلك فيها فلا تشبه بها، والباقون بإثباتها وقفا وحذفها وصلا إجراء للفواصل مجرى القوافي في ثبوت ألف الإطلاق كقوله:

٤٠٦٩ - استأثر الله بالوفاء وبالعدل ... وولى الملامة الرجلا

وقوله:

٤٠٧٠ - أقلي اللوم عاذل **والعتابا** ... وقولي إن أصبت لقد أصابا

ولأنها كهاء السكت وهي تثبت وقفا وتحذف وصلا، قال شهاب الدين: «كذلك يقولون تشبيها للفواصل بالقوافي وأنا لا أحب هذه العبارة فإنها منكرة لفظا» . ولا خلاف في قوله: ﴿وهو يهدي السبيل﴾ أنه بغير ألف في الحالين.." (٢)

"وساح فلان في الأرض مر مر السائح. ورجل سائح وسياح انتهى. ويحتمل أن يكثون لها مادتان لكن كان ينبغي أن يذكر ما هي الأشهر أو يذكرهما معا.

قوله تعالى: ﴿فإذا نزل بساحتهم﴾ يعني العذاب بساحتهم، قال مقاتل: بحضرتهم وقيل: **بعتابهم**.

قال الفراء: العرب تكتفي بذكر الساحة عن القوم ﴿فسآء صباح المنذرين﴾ فبئس صباح الكافرين الذين أنذروا بالعذاب. لما خرج - عليه (الصلاة و) السلام - إلى خبيبر أتاها ليلا، وكان إذا جاء قوما بليل لم يغز حتى يصبح فلما أصبح خرجت يهود (خيبر) بمساحيها ومكاتلها، فلما رأوه قالوا: محمد والله محمد والخميس فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

«الله

أكبر خربت خيبر إنا إذا نزلنا بساحة قوم فسوف يبصرون» .

قوله: ﴿فتول عنهم حتى حين وأبصرهم فسوف يبصرون﴾

قيل: المراد من هذه الكلمة فيما تقدم أحوال الدنيا وفي هذه الكلمة أحوال القيامة وعلى التقديرين فالتكرير زائل، وقيل:

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٣٥٨/١٥

(٢) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٥١١/١٥

المراد من التكرير المبالغة في التهديد والتهويل.
فإن قيل: ما الحكمة في قوله أولا: «وأبصرهم» وههنا قال: «وأبصر» بغير ضمير؟
فالجواب أنه حذف مفعول «أبصر» الثاني إما اختصرا لدلالة الأولى عليه وما اقتصار تقننا في البلاغة ثم إنه تعالى ختم السورة بتنزيه نفسه عن كل ما لا يليق بصفات الإلهية فقال: ﴿سبحان ربك رب العزة﴾ أي الغلبة والقوة، أضاف الرب إلى العزة لاختصاصه بها كأنه قيل: ذو العزة، كما تقول: صاحب صدق لاختصاصه به. وقيل: المراد بالعزة المخلوقة الكائنة بين خلقه.
ويترتب على القولين مسألة اليمين.
فصل
قوله: ﴿ربك رب العزة﴾ الربوبية إشارة إلى كمال الحكمة والرحكمة والعزة إشارة إلى كمال القدرة، فقوله: «رب العزة» يدل على أنه القادر على جميع الحوادث، لأن الألف." (١)

"قوله تعالى: ﴿فإن يصبروا فالنار مثوى لهم﴾ أي سكن لهم، يعني إن أمسكوا عن الاستغاثة لفرج يتنظرونه لم يجدوا ذلك وتكون النار مثوى لهم أيم مقاما لهم.
قوله: ﴿وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين﴾ العامة على فتح الياء من «يستعتبوا» وكسر التاء الثانية مبنيا للفاعل ﴿فما هم من المعتبين﴾ بكسر التاء اسم الفاعل ومعناه وإن طلبوا العتبى وهي الرضا فما هم ممن يعطاها. والمعتب الذي قبل **عتابه** وأجيب إلى ما سأل، يقال: أعتبني فلان، أي أرضاني بعد إسخاطه إياي، وا ستعتبته طلبتمنه أن يعتب أي يرضى. وقيل: المعنى وإن طلبوا زوال ما يعتبون فيه فماهم من المجابين إلى إزالة العتب. وأصل العتب المكان النائي بنازله، ومنه قيل لأسكفة الباب والمرقاة: عتبة، ويعبر بالعتب عن الغلظة التي يجدها الإنسان في صدره على صاحبه، وعتبت فلانا أبرزت له الغلظة، وأعتبته أزلت عتباه كأشكيته وقيل: حملته على العتب.
وقرأ الحسن وعمرو بن عبيد: وإن يستعتبوا مبنيا للمفعول فما هم من المعتبين اسم فاعل بمعنى إن يطلب منهم أن يرضوا فما هم فاعلون ذلك، لأنهم فارقوا دار التكليف، وقيل: معناه أن يطلب ما لا يعتبون عليه فما هم ممن يريد العتبى وقال أبو ذؤيب:
٤٣٦٣ - أمن المنون وريبه تتوجع ... والدهر ليس بمعتب من يجزع." (٢)

"عبتم أنفسكم أي كل واحد عاب واحد فصرتم عائبين من وجه معيبين من وجه. وهذا ههنا ظاهر ولا كذلك في قوله: «ولا تقتلوا أنفسكم» .
فصل
قال: «ولا تنابزوا» ولم يقل: ولا تنبزوا لأن الامز إذا لمز فالملموز قد لا يجد فيه في الحال عيبا يلمزه به وإنما يبحث

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ١٦/٣٦٠

(٢) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ١٧/١٣٠

ويتتبع ليطلع منه على عيب فيوجد اللمز في جانب.
وأما النبز فلا يعجز كل أحد عن الإتيان بنبز، فالظاهر أن النبز يفظي في الحال إلى التنابز، ولا كذلك اللمز.
فصل
قال المفسرون: اللقب هو أن يدعي الإنسان بغير ما يسمى به، وقال عكرمة: هو قول الرجل للرجل يا فاسق، يا منافق، يا كافر. وقال الحسن: كان اليهودي والنصراني يسلم، فيقال له بعد إسلامه، يا يهودي يا نصراني فنهوا عن ذلك، وقال عطاء: هو أن يقول الرجل لأخيه: يا حمار يا خنزير. وعن ابن عباس (رضي الله عنهما) : التنابز بالألقاب أن يكون الرجل عمل السيئات ثم تاب عنها فنهي أن يعير بما سلف من عمل.
قوله: ﴿بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان﴾ أي بئس الاسم أن يقول له: يا يهودي يا فاسق بعدما آمن. وقيل: معناه من فعل ما نهي عنه من السخرية واللمز والنبز فهو فاسق وبئس الاسم الفسصوق بعد الإيمان فلا تفعلوا ذلك فستحقوا اسم الفسوق. ثم قال: ﴿ومن لم يتب﴾ أي من ذلك ﴿فأولئك هم الظالمون﴾ .
قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن ... ﴾ الآية. قيل: نزلت في رجلين اعتابا رفيقهما، «وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كسان غزا أو سافر ضم الرجل المحتاج إلى رجلين موسرين يخدمهما ويقتدم لهما إلى المنزل فيهييء لهما طعامهما وشرابهما فضم سلمان الفارسي إلى رجلين في بعض أسفاره فتقدم سلمان الفارسي إلى المنزل فغلبته عيناه فلم يهييء لهما فلما قدما قالا له ما صنعت شيئا؟ قال: لا غلبتني عيناي، قالا له: انطلق إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم واطلب لنا منه طعاما، فجاء سلمان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وسأله طعاما، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : انطلق إلى أسامة بن زيد وقل له: إن كان عند فضل من طعام فليعطك؛ وكان أسامة خازن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى رحله فأتاه فقال ما عندي شيء فرجع سلمان إليهما فأخبرهما فقالا: كمان عند أسامةم ولكن بخل." (١)

"[فإن قيل: لم قدم العلم بالإخفاء على العلم بالإعلان مع أن ذلك مستلزم لهذا من غير عكس؟ .
فالجواب هذا بالنسبة إلى علمنا، لا بالنسبة إلى علمه – تعالى – إذ هما سيان في علمه تعالى؛ لأن المقصود بيان ما هو الإخفاء، وهو الكفر، فيكون مقدما.
فإن قيل: لم لم يقل: بما أسررتم، ثم وما أعلنتم، مع أنه أليق بما سبق في قوله: «تسرون؟» فالجواب: أن فيه من المبالغة ما ليس في ذلك، فإن الإخفاء أبلغ من الإسرار بدليل قوله: ﴿يعلم السر وأخفى﴾ [طه: ٧] ، أي: أخفى من السر] .
فصل في معاتبة حاطب
قال القرطبي: وهذا كله معاتبة لحاطب، وهو يدل على فضله وكرامته، ونصيحته للرسول صلى الله عليه وسلم وصدق

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٥٤٨/١٧

إيمانه؛ فإن المعاتبة لا تكون إلا من محب لحبيب؛ كما قال: [الوافر]

٤٧٦٠ – إذا ذهب العتاب فليس ود ... ويبقى الود ما بقي العتاب

فصل في المراد بالمودة

والمراد بالمودة في الآية النصيحة.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: وأنا أعلم بما أخفيتم في صدوركم، وما أظهرتم بألسنتكم من الإقرار والتوحيد.

﴿ومن يفعله منكم﴾ أي: من يسر إليهم ويكاتبهم ﴿فقد ضل سوآء السبيل﴾ أي: أخطأ طريق الهدى.

قوله: «ومن يفعله» . في الضمير وجهان:

أظهرهما: أنه يعود على الإسرار؛ لأنه أقرب مذكور.

والثاني: يعود على الاتخاذ. قاله ابن عطية.

قوله: ﴿سوآء السبيل﴾ .

يجوز أن يكون منصوبا على الظرف، إن قلنا: ضل قاصر.

وأن يكون مفعولا به، إن قلنا: هو متعد.." (١)

"قال القرطبي: وقد روى الدارقطني عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: أنه أتاه رجل فقال: إني جعلت امرأتي علي حراما، فقال: كذبت، ليست عليك بحرام، ثم تلا: ﴿يا أيها النبي لم تحرم مآ أحل الله لك﴾ ؟ عليك أغلظ الكفارات عتق رقبة، وقد قال جماعة من المفسرين: إنه لما نزلت هذه الآية كفر عن يمينه بعتق رقبة، وعاد إلى مارية صلى الله عليه وسلم قاله زيد بن أسلم وغيره «.

هذا كله في الزوجة، وأما الأمة [فليس] فيها شيء من ذلك إلا أن ينوي العتق عند مالك، وذهب عامة العلماء إلى أن عليهن كفارة يمين.

قال ابن العربي:» والصحيح أنها طلقة واحدة؛ لأنه لو ذكر الطلاق لكان أقله، وهو الواحدة إلا أن يعدده، فكذلك إذا ذكر التحريم يكون أقله إلا أن يقيده بالأكثر، مثل أن يقول: أنت علي حرام إلا بعد زوج، فهذا نصف في المراد «.

فصل في هذا الاستفهام

قال ابن الخطيب: قال صاحب» النظم «: قوله:» لم تحرم «استفهام بمعنى الإنكار، وذلك من الله نهي، وتحريم الحلال مكروه؛ لأن الحلال لا يحرم إلا بتحريم الله تعالى.

فإن قيل: قوله: ﴿لم تحرم مآ أحل الله لك﴾ يوهم أن هذا الخطاب بطريق العتاب، وخطاب النبي صلى الله عليه وسلم ينافي ذلك لما فيه من التشريف والتعظيم؟ .

فالجواب: أن هذا الخطاب ليس بطريق العتاب، بل بطريق التنبيه على أن ما صدر منه لم يكن على ما ينبغي.

فإن قيل: تحريم ما أحل الله غير ممكن، فكيف قال: لم تحرم ما أحل الله؟ فالجواب: أن المراد بهذا التحريم هو الامتناع

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ١١/١٩

من الانتفاع بالأزواج؛ لاعتقاد كونه حراما بعدما أحله الله تعالى، فالنبي صلى الله عليه وسلم امتنع عن الانتفاع بها مع اعتقاد كونها حلالا؛ فإن من اعتقد أن هذا التحريم هو تحريم ما أحله الله - تعالى - فقد كفر، فكيف يضاف إلى الرسول - عليه الصلاة والسلام - مثل هذا؟ .

قوله: ﴿تبتغي﴾ .." (١)

"قال ابن خالويه: هذا ما روي عن بعض العرب أنه يقف على آخر القوافي: بالتنوين، وإن كان فعلا، وإن كان فيه الألف واللام؛ قال الشاعر: [الوافر]

٥١٨٩ - أقلي اللوم عاذل والعتابن ... وقولي إن أصبت لقد أصابن

يعني: هذا تنوين الترنم، وهو أن العربي إذا أراد ترك الترنم - وهو: مد الصوت - نون الكلمة، وإنما يكن في الروي المطلق.

وقد عاب بعضهم النحويين تنوين الترنم، وقال: بل ينبغي أن يسموه بتنوين تركه، ولهذا التنوين قسيم آخر، يسمى: التنوين الغالي وهو ما يلحق الروي المقيد؛ كقوله: [الرجز]

٥١٩٠ - خاوي المخترقن ... على أن بعض العروضيين أنكروا وجوده، ولهذين التنوينين أحكام مخالفة لحكم التنوين مذكورة في علم النحو.

والحاصل: أن هذا القارئ أجرى الفواصل مجرى القوافي، وله نظائر منها:» الرسولا، والسبيلا، والظنونا «» في الأحزاب ١٠ و٦٦ و٦٧ «و» المتعال «في الرعد و» عشر «هنا.

قال الزمخشري: فإن قيل: فما بالها منكرة من بين ما أقسم به؟ قلت: لأنها ليال مخصوصة من نفس جنس الليالي العشر بعض منها، أو مخصوصة بفضيلة ليست لغيرها، فإن قلت: فهلا عرفت بلام العهد؛ لأنها ليال معلومة معهودة؟ .

قلت: لو فعل ذلك لم تستقل بمعنى الفضيلة الذي في التنكير؛ ولأن الأحسن أن تكون الكلمات متجانسة، ليكون الكلام أبعد من الإلغاز والتعمية.." (٢)

"٩٦٥ - وإذا نظرت إلى أسرة وجهه ... برقت كبرق العارض المتهلل

وقد تقدم أن الإهلال: الصراخ عند قوله ﴿ومآ أهل به لغير الله﴾ [البقرة: ١٧٢] . «وفعال» المضعف يطرد في تكسيره «أفعلة» كأهلة، وشذ فيه فعل؛ كقوله: عنن، وحجج، في عنان، وحجاج.

وقدر بعضهم مضافا قبل «الأهلة» أي: عن حكم اختلاف الأهلة، لأن السؤال عن ذاتها غير مفيد؛ ولذلك أجيبوا بقوله: ﴿قل هي مواقيت للناس والحج﴾ وقيلك إنهم لما سألوا عن شيء قليل الجدوى، أجيبوا بما فيه فائدة، وعدل عن سؤالهم،

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ١٩/٩١.

(٢) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٢٠/٣٠٨

إذ لا فائدة فيه، وعلى هذا، فلا يحتاج إلى تقدير مضاف.

و «للناس» متعلق بمحذوف؛ لأنه صفة ل «مواقيت» أي: مواقيت كائنة للناس. ولا يجوز تعلقه بنفس المواقيت؛ لما فيها من معنى النقل؛ إذ لا معنى لذلك. والمواقيت: جمع ميقات؛ رجعت الواو إلى أصلها؛ إذ الأصل: موقات من الوقت، وإنما قلبت ياء؛ لكسر ما قبلها، فلما زال موجبه في الجمع، ردت واوا، ولا ينصرف؛ لأنه بزنة منتهى الجموع.

فإن قيل: لم صرفت قوارير؟ قيل لأنها فاصلة وقعت في رأس الآية الكريمة فنون، ليجري على طريقة الآيات كما تنون القوافي في مثل قوله: [الوافر]

٩٦٦ – أقلي اللوم، عاذل، **والعتابن**..... ... ...

و «الميقات» : منتهى الوقت؛ قال تبارك وتعالى: ﴿فتم ميقات ربه﴾ [الأعراف: ١٤٢] والهلال: ميقات الشهر؛ أي: منتهاه، ومواضع الإحرام: مواقيت الحج؛ لأنها مواضع ينتهى إليها، وقيل: الميقات: الوقت؛ كالميعاد بمعنى الوعد.

فصل في تخصيص المواقيت بالهلال دون الشمس

فإن قيل: لم خص المواقيت بالأهلة وأشهرها دون الشمس وأشهرها؟." (١)

"والثاني: أنها حال من الخبيث؛ لأن في الجملة ضميرا يعود إليه، أي: لا تقصدوا منفقا منه.

والثالث: أنه مستأنف منه ابتداء إخبار بذلك، وتم الكلام عند قوله: ﴿ولا تيمموا الخبيث﴾ ثم ابتدأ خبرا آخر، فقال: تنفقون منه، وأنتم لا تأخذونه إلا إذا أغمضتم، كأن هذا **عتاب** للناس، وتقريع.

والتقدير: تنفقون مع أنكم لستم بآخذيه إلا مع الإغماض، فهو استفهام على سبيل الإنكار. قال شهاب الدين: وهذا يرده المعنى.

فصل في بيان المراد من النفقة

اختلفوا في المراد بهذه النفقة: فقال الحسن: المراد بها الزكاة المفروضة؛ لأن هذا أمر، والأمر للواجب.

وقال قوم: صدقة التطوع؛ لما روي عن علي، والحسن، ومجاهد: أنهم قالوا: كانوا يتصدقون بشرار ثمارهم، ورديء أموالهم؛ فنزلت هذه الآية.

«وعن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال جاء رجل ذات يوم بعذق خشف فوضعه في الصدقة. فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –:» بئس ما صنع صاحب هذا «فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وقال آخرون: المراد الفرض، والنفل؛ لأن المفهوم من الأمر ترجيح جانب الفعل على جانب الترك من غير أن يكون فيه بيان أنه يجوز الترك أو لا يجوز وهذا المفهوم قدر مشترك بين الفرض والنفل؛ فوجب أن يدخلا فيه، فعلى القول بأنه الزكاة فنقول: ظاهر الآية يدل على وجوب الزكاة في كل مال يكتسبه الإنسان، من الذهب، والفضة، والتجارة، وزكاة الإبل، والغنم، والبقر؛ لأن ذلك مما يوصف بأنه مكتسب.

قال القرطبي: والكسب يكون بتعب بدن، وهي الإجارة، أو مقاولة في تجارة، وهو البيع، والميراث داخل في هذا؛ لأن

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٣/٣٣٣

غير الوارث قد كسبه.

وقال ابن خويزمنداد: ولهذه الآية جاز للوالد أن يأكل من كسب ولده؛ لقوله صلى الله عليه وسلم :» أولادكم من طيبات ما كسبتم فكلوا من أموال أولادكم هنيئا «.." (١)

"وقوله سبحانه: انفروا خفافا وثقالا معنى الخفة والثقل هاهنا: مستعار لمن يمكنه السفر بسهولة، ومن يمكنه بصعوبة، وأما من لا يمكنه، كالعمي ونحوهم، فخارج عن هذا.

وقال أبو طلحة «١» : ما سمع الله عذر أحد، وخرج إلى الشام، فجاهد حتى مات.

وقال أبو أيوب: ما أجدني أبدا إلا خفيفا أو ثقيلا «٢» .

وقوله سبحانه: ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون: تنبيه وهز للنفوس.

[سورة التوبة (٩) : الآيات ٤٢ الى ٤٥]

لو كان عرضا قريبا وسفرا قاصدا لاتبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم لكاذبون (٤٢) عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين (٤٣) لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم والله عليم بالمتقين (٤٤) إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون (٤٥)

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٤٠٩/٤

وقوله سبحانه: لو كان عرضا قريبا وسفرا قاصدا لاتبعوك، هذه الآية في المنافقين المتخلفين في غزوة تبوك، وكشف ضمائرهم، وأما الآيات التي قبلها، / فعامة فيهم وفي غيرهم، والمعنى: لو كان هذا الغزو لعرض، أي: لمال وغنيمة تنال قريبا بسفر قاصد يسير، لبادروا لا لوجه الله، ولكن بعدت عليهم الشقة وهي المسافة الطويلة.

وقوله: وسيحلفون بالله، يريد: المنافقين، وهذا إخبار بغيب.

وقوله عز وجل: عفا الله عنك لم أذنت لهم، هذه الآية هي في صنف مبالغ في النفاق، استأذنوا دون اعتذار، منهم: الجد بن قيس ورفاعة بن التأبوت ومن اتبعهم قال مجاهد: وذلك أن بعضهم قال: نستأذنه، فإن أذن في القعود قعدنا «٣» ، وإلا قعدنا، وقدم له العفو قبل **العتاب**: إكراما له صلى الله عليه وسلم، وقالت فرقة: بل قوله سبحانه عفا الله عنك:

استفتاح كلام كما تقول: أصلحك الله، وأعزك الله، ولم يكن منه عليه السلام ذنب يعفى عنه لأن صورة الاستنفار وقبول الأعذار مصروفة إلى اجتهاده.

---

(١) أخرجه الطبري (٦/ ٣٧٦) برقم: (١٦٧٥١) ، وذكره ابن عطية (٣/ ٣٧) .

(٢) ذكره ابن عطية (٣/ ٣٧) .

(٣) أخرجه الطبري (٦/ ٣٨١) برقم: (١٦٧٧٨) ، وذكره ابن عطية (٣/ ٣٨) ، والبغوي في «تفسيره» (٣/ ٤٤١) ، وزاد نسبته إلى ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم. [.....]." (١)

"**عتاب** على سوء الخلق من بعض الناس، ومضمنه النهي عن مثل هذا، والأمر بالتسليم إلى الله والضراعة إليه في كل حال، والعلم بأن الخير والشر منه، لا رب غيره، وقوله:

لجنبه، في موضع الحال كأنه قال: مضطجعا، والضر عام لجميع الأمراض والرزايا.

وقوله: مر يقتضي أن نزولها في الكفار، ثم هي بعد تتناول كل من دخل تحت معناها من كافر وعاص.

وقوله سبحانه: ولقد أهلكنا القرون من/ قبلكم ... الآية: آية وعيد للكفار، وضرب أمثال لهم، وخلائف: جمع خليفة.

وقوله: لننظر: معناه: لنبين في الوجود ما علمناه أزلا، لكن جرى القول على طريق الإيجاز والفصاحة والمجاز، وقال عمر رضي الله عنه: إن الله تعالى إنما جعلنا خلفاء لينظر كيف عملنا فأروا الله حسن أعمالكم في السر والعلانية «١» .

[سورة يونس (١٠) : الآيات ١٥ الى ١٨]

وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي إن أتبع إلا ما يوحى إلي إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم (١٥) قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمرا من قبله أفلا تعقلون (١٦) فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته إنه لا

---

(١) تفسير الثعالبي = الجواهر الحسان في تفسير القرآن الثعالبي، أبو زيد ١٨٣/٣

يفلح المجرمون (١٧) ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السماوات ولا في الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون (١٨)

وقوله سبحانه: وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا يعني:

بعض كفار قريش: ائت بقرآن غير هذا أو بدله، ثم أمر سبحانه نبيه أن يرد عليهم بالحق الواضح، فقال: قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أعلمكم به، وأدراكم بمعنى:

أعلمكم، تقول: دريت بالأمر، وأدريت به غيري، ثم قال: فقد لبثت فيكم عمرا من قبله يعني: الأربعين سنة قبل بعثته عليه السلام، أي: فلم تجربوني في كذب، ولا تكلمت في شيء من هذا أفلا تعقلون أن من كان على هذه الصفة لا يصح منه كذب بعد أن ولى عمره، وتقاصر أمله، واشتدت حنكته وخوفه لربه.

---

(١) أخرجه الطبري (٦/ ٥٣٩) برقم: (١٧٥٩٤) ، وذكره ابن عطية (٣/ ١١٠) ، والسيوطي (٣/ ٥٤٠) ، وعزاه لابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، عن قتادة.." (١)

"بحمل أهله، وابنه من أهله، فينبغي أن يحمل، فأظهر الله له أن المراد من آمن من الأهل، وهذه الآية تقتضي أن نوحا عليه السلام ظن أن ابنه مؤمن/.

وقوله: إنه ليس من أهلك أي: الذين عمهم الوعد لأنه ليس على دينك، وإن كان ابنك بالولادة.

وقوله: عمل غير صالح: جعله وصفا له بالمصدر على جهة المبالغة في وصفه بذلك كما قالت الخنساء تصف ناقة ذهب عنها ولدها: [البسيط]

ترتع ما رتعت حتى إذا ادكرت ... فإنما هي إقبال وإدبار «١»

أي: ذات إقبال وإدبار ويبين هذا قراءة الكسائي «إنه عمل غير صالح» فعلا ماضيا، ونصب «غير» على المفعول ل «عمل» ، وقول من قال: «إن الولد كان لغية» خطأ محض، وهذا قول ابن عباس «٢» والجمهور قالوا: وأما قوله تعالى: فخانتاهما [التحريم: ١٠] فإن الواحدة كانت تقول للناس: هو مجنون، والأخرى كانت تنبه على الأضياف، وأما خيانة غير هذا، فلا ويعضده المعنى، لشرف النبوة، وجوز المهدوي أن يعود الضمير في «إنه» على السؤال، أي: إن سؤالك إياي ما ليس لك به علم عمل غير صالح قاله النخعي وغيره. انتهى. والأول أبين وعليه الجمهور، وبه صدر المهدوي، ومعنى قوله: فلا تسئلن ما ليس لك به علم أي: إذا وعدتك، فاعلم يقينا أنه لا خلف في الوعد، فإذا رأيت ولدك لم يحمل، فكان الواجب عليك أن تقف، وتعلم أن ذلك بحق واجب عند الله.

قال ع «٣» : ولكن نوحا عليه السلام حملته شفقة الأبوة وسجية البشر على التعرض لنفحات الرحمة، وعلى هذا القدر وقع **عتابه** ولذلك جاء بتلطف وترفيع في قوله سبحانه: إني أعظك أن تكون من الجاهلين، ويحتمل قوله: فلا تسئلن ما ليس لك به علم أي: لا تطلب مني أمرا لا تعلم المصلحة فيه علم يقين، ونحا إلى هذا أبو علي

---

(١) تفسير الثعالبي = الجواهر الحسان في تفسير القرآن الثعالبي، أبو زيد ٢٤٠/٣

(١) ينظر: «ديوانها» ص: (٣٨٣) ، و «الأشباه والنظائر» (١/ ١٩٨) ، و «خزانة الأدب» (١/ ٤٣١) ، (٢/ ٣٤) ، و «شرح أبيات سيبويه» (١/ ٢٨٢) ، و «ال شعر والشعراء» (١/ ٣٥٤) و «الكتاب» (١/ ٣٣٧) و «لسان العرب» (٧/ ٣٠٥) (رهط) (١١/ ٥٣٨) (قبل) ، (١٤/ ٤١٠) (سوا) ، و «المقتضب» (٤/ ٣٠٥) ، و «المنصف» (١/ ١٩٧) ، بلا نسبة في «الأشباه والنظائر» (٢/ ٣٨٧) ، (٤/ ٦٨) و «شرح الأشموني» (١/ ٢١٣) ، و «شرح المفصل» (١/ ١١٥) ، و «المحتسب» (٢/ ٤٣) .

(٢) ذكره البغوي (٢/ ٣٨٧) ، وابن عطية (٣/ ١٧٧) بنحوه.

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ١٧٧- ١٧٨) .." (١)

"قال ع «١» : فهي في معنى قوله: ودوا لو تدهن فيدهنون [القلم: ٩] ، وأما لثقيف، فقال ابن عباس وغيره: لأنهم طلبوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يؤخرهم بعد إسلامهم س نة يعبدون فيها اللات، وقالوا: إنما نريد أن نأخذ ما يهدى لها ولكن إن خفت أن تنكر/ ذلك عليك العرب، فقل: أوحى الله ذلك إلي، فنزلت الآية في ذلك «٢» . ت: والله أعلم بصحة هذه التأويلات، وقد تقدم ما يجب اعتقاده في حق النبي صلى الله عليه وسلم، فالتزمه تفلح.

وقوله: وإذا لاتخذوك خليلا: توقيف على ما نجاه الله منه من مخالة الكفار، والولاية لهم.

[سورة الإسراء (١٧) : الآيات ٧٤ الى ٧٥]

ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا (٧٤) إذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيرا (٧٥)

وقوله سبحانه: ولولا أن ثبتناك ... الآية تعديد نعمه على النبي صلى الله عليه وسلم، وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم لما نزلت هذه الآية، قال: «اللهم، لا تكلني إلى نفسي طرفة «٣» عين» وقرأ الجمهور «٤» (تركن) بفتح الكاف، والنبي صلى الله عليه وسلم لم يركن، لكنه كاد بحسب همه بموافقتهم طمعا منه في استئلافهم، وذهب ابن الأنباري إلى أن معنى الآية: لقد كادوا أن يخبروا عنك أنك ركنت ونحو هذا ذهب في ذلك إلى نفي الهم عن النبي صلى الله عليه وسلم، فحمل اللفظ ما لا يحتمل وقوله: شيئا قليلا يبطل ذلك.

ت: وجزى الله ابن الأنباري خيرا، وإن تنزيه سائر الأنبياء لواجب، فكيف بسيد ولد آدم صلى الله عليه وعليهم أجمعين. قال أبو الفضل عياض في «الشفا» : قوله تعالى: ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا: قال بعض المتكلمين: عاتب الله تعالى نبينا عليه السلام قبل وقوع ما يوجب **العتاب** ليكون بذلك أشد انتهاء ومحافظة لشرائط المحبة، وهذه غاية العناية، ثم انظر كيف بدأ بثباته وسلامته قبل ذكر ما عاتبه عليه، وخيف أن يركن إليه، وفي أثناء عتبه

---

(١) تفسير الثعالبي = الجواهر الحسان في تفسير القرآن الثعالبي، أبو زيد ٢٨٦/٣

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ٤٧٥) . [.....]

(٢) أخرجه الطبري (٨/ ١١٩) برقم: (٢٢٥٤٠) ، وذكره البغوي (٣/ ١٢٦) بنحوه، وابن عطية (٣/ ٤٧٥) ، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٣٥٣) ، وعزاه لابن جرير، وابن مردويه.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) وقرأ ابن مصرف، وقتادة، وعبد الله بن أبي إسحاق «تركن» بضم الكاف.

ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ٤٧٥) ، و «البحر المحيط» (٦/ ٦٢) ، و «الدر المصون» (٤/ ٤١٠) .." [(١)]

"لمسلم، وفي رواية لمسلم وأبي داود: «من آخر الكهف» ، وعن أبي سعيد الخدري، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: من قرأ سورة الكهف كما أنزلت، كانت له نورا من مقامه إلى مكة، ومن قرأ بعشر آيات من آخرها، فخرج الدجال، لم يسلط عليه «١» رواه الترمذي والحاكم في «المستدرك» والنسائي، وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم، وله في رواية: «من قرأ سورة الكهف يوم الجمعة أضاء له من النور ما بين الجمعتين» «٢» ، وقال: صحيح الإسناد، وأخرجه الدارمي في مسنده موقوفا ورواته «٣» متفق على الاحتجاج بهم إلا أبا هاشم يحيى بن دينار الرماني وقد وثقه أحمد ويحيى وأبو زرعة وأبو حاتم. انتهى من «السلاح» .

[سورة الكهف (١٨) : الآيات ١ الى ٥]

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا (١) قيما لينذر بأسا شديدا من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا حسنا (٢ (ماكثين فيه أبدا (٣) وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا (٤)

ما لهم به من علم ولا لآبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا (٥)

قوله تعالى: الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب كان حفص عن عاصم «٤» يسكت عند قوله: عوجا سكتة خفيفة، وعند مرقدنا في يس [يس: ٥٢] وسبب هذه البداءة في هذه السورة أن النبي صلى الله عليه وسلم لما سألته قريش عن المسائل الثلاث: الروح، وأصحاب الكهف، وذي القرنين، حسب ما أمرتهم به يهود- قال لهم صلى الله عليه وسلم: «غدا أخبركم بجواب ما سألتم» ولم يقل: إن شاء الله، فعاتبه الله عز وجل، وأمسك عنه الوحي خمسة عشر يوما، وأرجف به كفار قريش، وشق ذلك على النبي صلى الله عليه وسلم وبلغ منه، فلما انقضى الأمد الذي أراد الله **عتاب** نبيه، جاءه الوحي بجواب ما سألوه، وغير ذلك، فافتتح الوحي ب الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب، وهو القرآن. وقوله: ولم يجعل له عوجا، أي: لم ينزله عن طريق الاستقامة، «والعوج» فقد الاستقامة، ومعنى قيما، أي: مستقيما قاله ابن «٥» عباس وغيره، وقيل: معناه أنه قيم

---

(١) تفسير الثعالبي = الجواهر الحسان في تفسير القرآن الثعالبي، أبو زيد ٤٨٨/٣

(١) أخرجه النسائي في «عمل اليوم والليلة» برقم: (٩٥٢، ٩٥٤) ، والحاكم (٢/ ٣٦٨) ، والبيهقي (٣/ ٢٤٩) ، عن أبي سعيد مرفوعا، وقال الحاكم: صحيح الإسناد، وأخرجه الدارمي (٢/ ٤٥٤) عن أبي سعيد موقوفا.

(٢) أخرجه الحاكم (٢/ ٣٦٨) .

(٣) ينظر: «سنن الدارمي» (٢/ ٤٥٤) .

(٤) ينظر: «العنوان» (١٢٢) ، و «شرح الطيبة» (٥/ ٣) ، و «شرح شعلة» (٤٦٨) ، و «إتحاف» (٢/ ٢٠٨) .

(٥) ذكره الطبري (٨/ ١٧٣- ١٧٤) ، وابن عطية (٣/ ٤٩٥) ، والبغوي (٣/ ١٤٤) ، بلفظ عدلا، والسيوطي." [1]

"أن هذه الآية **عتاب** من الله تعالى لنبيه حيث لم يستثن، والتقدير: إلا أن تقول إلا أن يشاء الله أو إلا أن تقول: إن شاء الله، والمعنى: إلا أن تذكر مشيئة الله.

وقوله سبحانه: واذكر ربك إذا نسيت قال ابن عباس «١» والحسن «٢» معناه:

الإشارة به إلى الاستثناء، أي: ولتستثن بعد مدة إذا نسيت، أو لا لتخرج من جملة من لم يعلق فعله بمشيئة الله، وقال عكرمة: واذكر ربك إذا غضبت «٣» ، وعبارة الواحدي:

واذكر ربك إذا نسيت، أي: إذا نسيت الاستثناء بمشيئة الله، فاذكره وقله إذا تذكرت.

اه.

وقوله سبحانه: وقل عسى أن يهدين ربي ... الآية: الجمهور أن هذا دعاء مأمور به، والمعنى: عسى أن يرشدني ربي فيما أستقبل من أمري، والآية خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم، وهي بعد تعم جميع أمته.

وقال الواحدي: وقل عسى أن يهديني، أي: يعطيني ربي الآيات من الدلالات على النبوة ما يكون أقرب في الرشد، وأدل من قصة أصحاب الكهف، ثم فعل الله له ذلك حيث آتاه علم غيوب المرسلين وخبرهم. انتهى.

وقوله سبحانه: ولبثوا في كهفهم ثلاث مائة سنين ... الآية: قال قتادة وغيره:

الآية حكاية عن بني إسرائيل «٤» ، أنهم قالوا ذلك واحتجوا بقراءة «٥» ابن مسعود وفي مصحفه: «وقالوا لبثوا في كهفهم» ، ثم أمر الله نبيه بأن يرد العلم إليه ردا على مقالهم وتفنيدا لهم، وقال المحققون: بل قوله تعالى: ولبثوا في كهفهم ... الآية خبر من الله تعالى عن مدة لبثهم، وقوله تعالى: قل الله أعلم بما لبثوا، أي: فليزل اختلافكم أيها المخرصون، وظاهر قوله سبحانه: وازدادوا تسعا أنها أعوام.

---

(١) أخرجه الطبري (٨/ ٢٠٨) ، برقم: (٢٢٩٩٠) بنحوه، وذكره ابن عطية (٣/ ٥٠٩) ، والبغوي (٣/ ١٥٧) ، وابن كثير (٣/ ٧٩) ، والسيوطي (٤/ ٣٩٤) ، وعزاه لسعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم، وابن مردويه.

(٢) أخرجه الطبري (٨/ ٢٠٨) برقم: (٢٢٩٩٢) بنحوه، وذكره ابن عطية (٣/ ٥٠٩) ، والبغوي (٣/ ١٥٧) .

---

(١) تفسير الثعالبي = الجواهر الحسان في تفسير القرآن الثعالبي، أبو زيد ٣/٥٠٦

(٣) أخرجه الطبري (٨/ ٢٠٩) برقم: (٢٢٩٩٣) بلفظ: «عصيت» ، وذكره البغوي (٣/ ١٥٧) ، وابن كثير (٣/ ٧٩) ، والسيوطي (٤/ ٣٩٥) ، وعزاه لابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في «شعب الإيمان» .
(٤) أخرجه الطبري (٨/ ٢١٠) برقم: (٢٢٩٩٦) بنحوه، وذكره ابن عطية (٣/ ٥١٠) ، والبغوي (٣/ ١٥٧- ١٥٨) ، وابن كثير (٣/ ٧٩) ، والسيوطي (٤/ ٣٩٦) ، وعزاه لابن أبي حاتم.
(٥) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ٥١٠) .." (١)

"وإني في ذلك لمن الصادقين، ثم يقول في الخامسة: وأن لعنة الله علي إن كنت من الكاذبين، وأما في لعان نفي الحمل فيقول: ما هذا الولد مني، وتقول المرأة: أشهد بالله ما زنيت، وأنه في ذلك لمن الكاذبين، ثم تقول: غضب الله علي إن كان من الصادقين، فإن منع جهلهما من ترتيب هذه الألفاظ، وأتيا بما في معناها أجزأ ذلك، ومشهور المذهب: أن نفس تمام اللعان بينهما فرقة، ولا يحتاج معها إلى تفريق حاكم، وتحريم اللعان أبدي باتفاق فيما أحفظ من مذهب مالك، وجواب لولا محذوف تقديره: لكشف الزناة بأيسر من هذا، أو لأخذهم بعقابه ونحو هذا.

[سورة النور (٢٤) : الآيات ١١ الى ١٣]

إن الذين جاؤ بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم (١١) لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا وقالوا هذا إفك مبين (١٢) لولا جاؤ عليه بأربعة شهداء فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون (١٣)

وقوله تعالى: إن الذين جاؤ بالإفك ... الآية: نزلت في شأن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ففي «البخاري» في غزوة بني المصطلق عن عائشة رضي الله عنها قالت: وأنزل الله العشر الآيات في براءتي: إن الذين جاؤ بالإفك ... الآيات:

والإفك: الزور والكذب، وحديث الإفك في «البخاري» و «مسلم» وغيرهما مستوعب، والعصبة: الجماعة من العشرة إلى الأربعين.

وقوله سبحانه: لا تحسبوه خطاب لكل من ساءه ذلك من المؤمنين.

وقوله تعالى: بل هو خير لكم معناه: أنه تبرئة في الدنيا، وترفيع من الله تعالى في أن نزل وحيه بالبراءة من ذلك، وأجر جزيل في الآخرة، وموعظة للمؤمنين في غابر الدهر، واكتسب: مستعملة في المآثم، والإشارة بقوله تعالى: والذي تولى كبره هي إلى: عبد الله بن أبي ابن سلول وغيره من المنافقين، وكبره: مصدر كبر الشيء وعظم ولكن استعملت العرب ضم الكاف في السن.

وقوله تعالى: لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا ... الآية:

الخطاب للمؤمنين حاشا من تولى كبره، وفي هذا **عتاب** للمؤمنين، أي: كان الإنكار واجبا عليهم، ويقيس فضلاء المؤمنين

---

(١) تفسير الثعالبي = الجواهر الحسان في تفسير القرآن الثعالبي، أبو زيد ٥١٩/٣

الأمر على أنفسهم، فإذا كان ذلك يبعد فيهم فأم المؤمنين أبعد، لفضلها، ووقع هذا النظر السديد من أبي أيوب وامرأته وذلك أنه دخل عليها فقالت له: «يا أبا أيوب، أسمعت ما قيل؟ فقال: نعم، وذلك الكذب أكنت أنت يا أم أيوب." (١)

"تفعلين ذلك؟ قالت: لا، والله، قال: فعائشة- والله- أفضل منك، قالت أم أيوب:

نعم» «١» فهذا الفعل ونحوه هو الذي عاتب الله فيه المؤمنين إذ لم يفعله جميعهم، والضمير في قوله: لولا جاؤ للذين تولوا كبره.

[سورة النور (٢٤) : الآيات ١٤ الى ١٨]

ولولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم (١٤) إذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم (١٥) ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم (١٦) يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا إن كنتم مؤمنين (١٧) ويبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم (١٨)

وقوله تعالى: ولولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم هذا **عتاب** من الله تعالى، بليغ في تعاطيهم هذا الحديث وإن لم يكن المخبر والمخبر مصدقين، ولكن نفس التعاطي والتلقي من لسان إلى لسان والإفاضة في الحديث- هو الذي وقع **العتاب** فيه، وقرأ ابن يعمر «٢» وعائشة (رضي الله عنها) وهي أعلم الناس بهذا الأمر: «إذ تلقونه» /- بفتح التاء، وكسر اللام، وضم القاف-، ومعنى ٣٦ أهذه القراءة من قول العرب: ولق الرجل ولقا إذا كذب، وحكى «٣» الطبري: أن هذه اللفظة مأخوذة من: الولق الذي هو إسراعك بالشيء بعد الشيء يقال: ولق في سيره إذا أسرع، والضمير في: تحسبونه للحديث والخوض فيه والإذاعة له.

وقوله تعالى: سبحانك أي: تنزيها لله أن يقع هذا من زوج نبيه صلى الله عليه وسلم وحقيقة البهتان: أن يقال في الإنسان ما ليس فيه، والغيبة: أن يقال في الإنسان ما فيه، ثم وعظهم تعالى في العودة إلى مثل هذه الحالة.

[سورة النور (٢٤) : الآيات ١٩ الى ٢١]

إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون (١٩) ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رؤف رحيم (٢٠) يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبدا ولكن الله يزكي من يشاء والله سميع عليم (٢١)

---

(١) تفسير الثعالبي = الجواهر الحسان في تفسير القرآن الثعالبي، أبو زيد ٤/١٧٤

(١) أخرجه الطبري (٩/ ٢٨٤) برقم (٢٥٨٥٩) ، وذكره ابن عطية (٤/ ١٧٠) ، وابن كثير (٣/ ٢٧٣) ، والسيوطي (٥/ ٦٠) ، وعزاه لابن إسحاق، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، وابن عساكر.
(٢) وقرأ بها ابن عباس، وعثمان الثقفي.
ينظر: «مختصر الشواذ» ص ١٠٢، و «المحتسب» (٢/ ١٠٤) ، و «الكشاف» (٣/ ٢١٩) ، و «المحرر الوجيز» (٤/ ١٧١) ، و «البحر المحيط» (٦/ ٤٠٢) ، و «الدر المصون» (٥/ ٢١٣) .
(٣) ينظر: «الطبري» (٩/ ٢٨٥) .." (١)

"لمن تبع دينكم؛ لأن معناه حينئذ لا تقروا بحقية دين لأحد إلا لمن هو على دينكم فإنه لا دين سواه يماثله، وهذا إنكار لأن يؤتى أحد مثل دينهم، وقد بسطت الكلام هنالك فاستفده، (قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله واسع) فضله (عليم): بكل شيء.
(يختص برحمته من يشاء): لحكمته، (والله ذو الفضل العظيم) هذا كله رد وإبطال لزعمهم الفاسد.
(ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك)، كعبد الله بن سلام أودعه رجل ألفا وكل ومائتي أوقية من ذهب، فأداه، (ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك)، كفنحاص بن عازوراء أودع دينارا فجحده، (إلا ما دمت عليه قائما). إلا مدة دوامك قائما على رأسه مبالغا بالتقاضي أو الترافع، (ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل) أي: ترك الأداء بسبب أنهم قالوا: ليس علينا في شأن العرب ذم **وعتاب**، وأحل الله أموالهم لنا (ويقولون على الله الكذب): اخترعوا، واخ‍تلقوا، وليس في التوراة شيء مما قالوا، (وهم يعلمون): إنهم كاذبون.
(بلى) أي: بلى عليهم فيهم سبيل، وقوله: (من أوفى) إلى آخره استئناف، (بعهده) أي بعهد الله الذي عهد إليه في التوراة من الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم وبالقرآن وأداء الأمانة أو بعهد نفسه، (واتقى) أي: الكفر والخيانة، (فإن الله يحب المتقين) أي: يحبه فإنه متق، وقيل: بلى بمعنى لكن.." (٢)

"فإني أعذبه عذابا): تعذيبا، (لا أعذبه)، الضمير للمصدر فيكون في موقع المفعول المطلق ويقوم مقام العائد فإن لا أعذبه صفة عذابا أو من باب الحذف والإيصال أي: لا أعذب به، (أحدا من العالمين): عالمي زمانهم والأصح أن المائدة نزلت وكفروا بها فمسخوا قردة وخنازير، قيل ما مسخ أحد قبلهم خنزيرا، فالعالمين مطلق قال عبد الله بن عمر: أشد الناس عذابا (١) يوم القيامة المنافقون، ومن كفر من أصحاب المائدة، وآل فرعون.
* * *

(وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب (١١٦) ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب

---

(١) تفسير الثعالبي = الجواهر الحسان في تفسير القرآن الثعالبي، أبو زيد ١٧٥/٤
(٢) تفسير الإيجي جامع البيان في تفسير القرآن الإيجي، محمد بن عبد الرحمن ٢٦٣/١

عليهم وأنت على كل شيء شهيد (١١٧) إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم (١١٨) قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم لهم جنات

---

(١) في الأصل " **عتابا** " والتصويب من بحر العلوم للسمرقندي.." (١)

"خروجهم معك، (فثبطهم)، حبسهم ومنعهم عن الخروج، (وقيل اقعدوا)، في بيوتكم تمثيل لإلقاء الله تعالى كراهة الخروج في قلوبهم، أو قال بعضهم لبعض، (مع القاعدين)، الذين لهم عذر، أو مع الصبيان والنسوان وعلى هذا صلاحكم في تخلفهم، **وعتاب** الله تعالى عليه لمبادرة الإذن في التخلف، (لو خرجوا)، يبين وجه كراهته تعالى، (فيكم ما زادوكم)، بخروجهم شيئا، (إلا خبالا)، فسادا ولا يلزم من هذا أن يكون للمؤمنين فساد وهم زادوه، (ولأوضعوا)، لأسرعوا ركائبهم، (خلالكم)، في وسطكم بإيقاع العداوة للنميمة، (يبغونكم الفتنة)، يريدون أن يفتنوتكم بإيقاع الخلاف فيكم، (وفيكم سماعون لهم)، مطيعون مستجيبون لحديثهم أو سماعون لهم الأخبار لينقلوها عليهم، (والله عليم بالظالمين)، فيجازيهم، (لقد ابتغوا الفتنة)، تفريق أصحابك." (٢)

"تقتل نفسا وجب عليها القتل (لقد جئت شيئا نكرا): منكرا لما كان هذا أقبح بحسب الظاهر بالغ في إنكاره (قال ألم أقل لك) زاد في هذه المرة لك زيادة **لعتابه** على رفض وصيته وقلة صبره (إنك لن تستطيع معي صبرا قال إن سألتك عن شيء بعدها) سؤال اعتراض وإنكار (فلا تصاحبني قد بلغت): وجدت، (من لدني): من قبلي (عذرا): لما خالفتك مرارا وفي الحديث: " رحمة الله علينا وعلى موسى لو لبث مع صاحبه لأبصر العجب "، (فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية) هي أنطاكية، وقيل أيلة (استطعما أهلها): سألاهم الطعام (فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض) استعار الإرادة للمداناة والمشارفة، كما استعير الهم والعزم لذلك، يقال: عزم السراج أن يطفأ إذا قرب،." (٣)

"من العلماء هذه الحكاية وبالغوا في الإنكار وطعنوا في الرواة، وقال بعض: إنها من وضع الزنادقة وهي أنه عليه السلام تمني أن يأتيه من ربه ما يقرب بينه وبين قومه رجاء أن يسلموا، فكان يوما في محضر قريش إذ أنزل عليه سورة " والنجم " فأخذ يقرأها، فلما بلغ ومناة الثالثة الأخرى ألقى الشيطان في قراءته فسبق لسانه: سهوا أو تكلم الشيطان فحسب أن القارئ رسول الله أو نام نومة فجرى على لسانه تلك الغرانيق العلى، وإن شفاعتهن لترتجى، فلما وصل قراءته إلى السجدة سجد فسجد من في النادي من المسلم والمشرك، وفرح المشركون فأتاه جبريل وقال: ماذا صنعت؟! لقد تلوت ما لم آتك به عن الله فحزن حزنا وخاف خوفا فعزاه الله بتلك الآية يعني: ما أنت بأوحدي بهذا، بل مكنا الشيطان ليلقي في أمانيهم كما ألقى في أمانيك ابتلاء منا ليزيد المنافقون شكا وظلمة، والمؤمنون يقينا ونورا (١)، (فينسخ الله): يزيل ويبطل، (ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته): يثبتها بحيث لا تشتبه بكلام غيره، (والله عليم حكيم): فيما يفعل،

---

(١) تفسير الإيجي جامع البيان في تفسير القرآن الإيجي، محمد بن عبد الرحمن ٥١١/١

(٢) تفسير الإيجي جامع البيان في تفسير القرآن الإيجي، محمد بن عبد الرحمن ٧١/٢

(٣) تفسير الإيجي جامع البيان في تفسير القرآن الإيجي، محمد بن عبد الرحمن ٤٥٥/٢

(ليجعل)، أي: مكنا الشيطان منه ليجعل، (ما يلقي الشيطان فتنة): ضلالة، (للذين في قلوبهم مرض): شك ونفاق، (والقاسية قلوبهم): المشركين فإنهم لما سمعوا نسخ قول الشيطان ازدادوا غيظا وظنوا أنه ندم مما ألقى من عند نفسه، (وإن الظالمين): المنافقين والمشركين، (لفي

---

(١) قال الإمام فخر الدين الرازي ما نصه:
ذكر المفسرون في سبب نزول هذه الآية أن الرسول صلى الله عليه وسلم لما رأى إعراض قومه عنه وشق عليه ما رأى من مباعدتهم عما جاءهم به تمنى في نفسه أن يأتيهم من الله ما يقارب بينه وبين قومه وذلك لحرصه على إيمانهم فجلس ذات يوم في ناد من أندية قريش كثير أهله وأحب يومئذ أن لا يأتيه من الله شيء ينفروا عنه وتمنى ذلك فأنزل الله تعالى سورة والنجم إذا هوى [النجم: ١] فقرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بلغ قوله أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى [النجم: ١٩، ٢٠] ألقى الشيطان على لسانه «تلك الغرانيق العلى منها الشفاعة ترتجى» فلما سمعت قريش ذلك فرحوا ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم في قراءته فقرأ السورة كلها فسجد وسجد المسلمون لسجوده وسجد جميع من في المسجد من المشركين فلم يبق في المسجد مؤمن ولا كافر إلا سجد سوى الوليد بن المغيرة وأبي أحيحة سعيد بن العاصي فإنهما أخذا حفنة من التراب من البطحاء ورفعاها إلى/ جبهتيهما وسجدا عليها لأنهما كانا شيخين كبيرين فلم يستطيعا السجود وتفرقت قريش وقد سرهم ما سمعوا وقالوا قد ذكر محمد آلهتنا بأحسن الذكر فلما أمسى رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه جبريل عليه السلام فقال ماذا صنعت تلوت على الناس ما لم آتك به عن الله وقلت ما لم أقل لك؟! فحزن رسول الله صلى الله عليه وسلم حزنا شديدا وخاف من الله خوفا عظيما حتى نزل قوله تعالى: وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته الآية.
هذا رواية عامة المفسرين الظاهريين، أما أهل التحقيق فقد قالوا هذه الرواية باطلة موضوعة واحتجوا عليه بالقرآن والسنة والمعقول. أما القرآن فوجوه: أحدها: قوله تعالى: ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين [الحاقة: ٤٤ - ٤٦]، وثانيها: قوله: قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي إن أتبع إلا ما يوحى إلي [يونس: ١٥] وثالثها: قوله: وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى فلو أنه قرأ عقيب هذه الآية تلك الغرانيق العلى لكان قد ظهر كذب الله تعالى في الحال وذلك لا يقوله مسلم ورابعها: قوله تعالى: وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك لتفتري علينا غيره وإذا لاتخذوك خليلا [الإسراء: ٧٣] وكلمة كاد عند بعضهم معناه قرب أن يكون الأمر كذلك مع أنه لم يحصل وخامسها: قوله: ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا [الإسراء: ٧٤] وكلمة لولا تفيد انتفاء الشيء لانتفاء غيره فدل على أن ذلك الركون القليل لم يحصل وسادسها: قوله: كذلك لنثبت به فؤادك [الفرقان: ٣٢]. وسابعها: قوله: سنقرئك فلا تنسى [الأعلى: ٦]. وأما السنة فهي ما روي عن محمد بن إسحاق بن خزيمة أنه سئل عن هذه القصة فقال هذا وضع من الزنادقة وصنف فيه كتابا. وقال الإمام أبو بكر أحمد بن الحسن البيهقي هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل ثم أخذ يتكلم في أن رواة هذه القصة مطعون فيهم، وأيضا فقد روى البخاري في صحيحه أن النبي عليه السلام قرأ سورة النجم وسجد فيها المسلمون والمشركون والإنس والجن وليس فيه حديث الغرانيق. وروي هذا الحديث

من طرق كثيرة وليس فيها البتة حديث الغرانيق. وأما المعقول فمن وجوه: أحدها: أن من جوز على الرسول صلى الله عليه وسلم تعظيم الأوثان فقد كفر لأن من المعلوم بالضرورة أن أعظم سعيه كان في نفي الأوثان وثانيها: أنه عليه السلام ما كان يمكنه في أول الأمر أن يصلي ويقرأ القرآن عند الكعبة آمنا أذى المشركين له حتى كانوا ربما مدوا أيديهم إليه وإنما كان يصلي إذا لم يحضروها ليلا أو في أوقات خلوة وذلك يبطل قولهم وثالثها: أن معاداتهم للرسول كانت أعظم من أن يقروا بهذا القدر من القراءة دون أن يقفوا على حقيقة الأمر فكيف أجمعوا على أنه عظم آلهتهم حتى خروا سجدا مع أنه لم يظهر عندهم موافقته لهم ورابعها: قوله: فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته وذلك لأن إحكام الآيات بإزالة ما يلقيه الشيطان عن الرسول أقوى من نسخه بهذه الآيات التي تبقى الشبهة معها، فإذا أراد الله إحكام الآيات لئلا يلتبس ما ليس بقرآن قرآنا، فبأن يمنع الشيطان من ذلك أصلا أولى وخامسها: وهو أقوى الوجوه/ أنا لو جوزنا ذلك ارتفع الأمان عن شرعه وجوزنا في كل واحد من الأحكام والشرائع أن يكون كذلك ويبطل قوله تعالى: يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس [المائدة: ٦٧] فإنه لا فرق في العقل بين النقصان عن الوحي وبين الزيادة فيه فبهذه الوجوه عرفنا على سبيل الإجمال أن هذه القصة موضوعة أكثر ما في الباب أن جمعا من المفسرين ذكروها لكنهم ما بلغوا حد التواتر، وخبر الواحد لا يعارض الدلائل النقلية والعقلية المتواترة، ولنشرع الآن في التفصيل فنقول التمني جاء في اللغة لأمرين: أحدهما: تمني القلب والثاني: القراءة قال الله تعالى: ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني [البقرة: ٧٨] أي إلا قراءة لأن الأمي لا يعلم القرآن من المصحف وإنما يعلمه قراءة، وقال حسان:

تمنى كتاب الله أول ليلة ... وآخرها لاقى حمام المقادر

قيل إنما سميت القراءة أمنية لأن القارئ إذا انتهى إلى آية رحمة تمنى حصولها وإذا انتهى إلى آية عذاب تمنى أن لا يبتلى بها، وقال أبو مسلم التمني هو التقدير وتمنى هو تفعل من منيت والمنية وفاة الإنسان في الوقت الذي قدره الله تعالى، ومنى الله لك أي قدر لك. وقال رواة اللغة الأمنية القراءة واحتجوا ببيت حسان، وذلك راجع إلى الأصل الذي ذكرناه فإن التالي مقدر للحروف ويذكرها شيئا فشيئا، فالحاصل من هذا البحث أن الأمنية، إما القراءة، وإما الخاطر، أما إذا فسرناها بالقراءة ففيه قولان: الأول: أنه تعالى أراد بذلك ما يجوز أن يسهو الرسول صلى الله عليه وسلم فيه ويشتبه على القارئ دون ما رووه من قوله تلك الغرانيق العلى الثاني: المراد منه وقوع هذه الكلمة في قراءته ثم اختلف القائلون بهذا على وجوه: الأول: أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يتكلم بقوله تلك الغرانيق العلى ولا الشيطان تكلم به ولا أحد تكلم به لكنه عليه السلام لما قرأ سورة النجم اشتبه الأمر على الكفار فحسبوا بعض ألفاظه ما رووه من قولهم تلك الغرانيق العلى وذلك على حسب ما جرت العادة به من توهم بعض الكلمات على غير ما يقال وهذا الوجه ذهب إليه جماعة وهو ضعيف لوجوه: أحدها: أن التوهم في مثل ذلك إنما يصح فيما قد جرت العادة بسماعه فأما غير المسموع فلا يقع ذلك فيه وثانيها: أنه لو كان كذلك لوقع هذا التوهم لبعض السامعين دون البعض فإن العادة مانعة من اتفاق الجم العظيم في الساعة الواحدة على خيال واحد فاسد في المحسوسات وثالثها: لو كان كذلك لم يكن مضافا إلى الشيطان الوجه الثاني: قالوا إن ذلك الكلام كلام شيطان الجن وذلك بأن تلفظ بكلام من تلقاء نفسه أوقعه في درج تلك التلاوة في

بعض وقفاته ليظن أنه من جنس الكلام المسموع من الرسول صلى الله عليه وسلم قالوا والذي يؤكده أنه لا خلاف في أن الجن والشياطين متكلمون فلا يمتنع أن يأتي الشيطان بصوت مثل صوت الرسول عليه السلام فيتكلم بهذه الكلمات في أثناء كلام الرسول عليه السلام وعند سكوته فإذا سمع الحاضرون تلك الكلمة بصوت مثل صوت الرسول وما رأوا شخصا آخر ظن الحاضرون أنه كلام/ الرسول، ثم هذا لا يكون قادحا في النبوة لما لم يكن فعلا له، وهذا أيضا ضعيف فإنك إذا جوزت أن يتكلم في أثناء الشيطان كلام الرسول صلى الله عليه وسلم بما يشتبه على كل السامعين كونه كلاما للرسول بقي هذا الاحتمال في كل ما يتكلم به الرسول فيفضي إلى ارتفاع الوثوق عن كل الشرع فإن قيل هذا الاحتمال قائم في الكل ولكنه لو وقع لوجب في حكمة الله تعالى أن يشرح الحال فيه كما في هذه الواقعة إزالة للتلبيس، قلنا لا يجب على الله إزالة الاحتمالات كما في المتشابهات وإذا لم يجب على الله ذلك تمكن الاحتمال من الكل الوجه الثالث: أن يقال المتكلم بذلك بعض شياطين الإنس وهم الكفرة فإنه عليه السلام لما انتهى في قراءة هذه السورة إلى هذا الموضع وذكر أسماء آلهتهم وقد علموا من عادته أنه يعيبها فقال بعض من حضر تلك الغرانيق العلى فاشتبه الأمر على القوم لكثرة لغط القوم وكثرة صياحهم وطلبهم تغليطه وإخفاء قراءته، ولعل ذلك كان في صلاته لأنهم كانوا يقربون منه في حال صلاته ويسمعون قراءته ويلغون فيها، وقيل إنه عليه السلام كان إذا تلا القرآن على قريش توقف في فصول الآيات فألقى بعض الحاضرين ذلك الكلام في تلك الوقفات فتوهم القوم أنه من قراءة الرسول صلى الله عليه وسلم ثم أضاف الله تعالى ذلك إلى الشيطان لأنه بوسوسته يحصل أولا ولأنه سبحانه جعل ذلك المتكلم في نفسه شيطانا وهذا أيضا ضعيف لوجهين: أحدهما: أنه لو كان كذلك لكان يجب على الرسول صلى الله عليه وسلم إزالة الشبهة وتصريح الحق وتبكيت ذلك القائل وإظهار أن هذه الكلمة منه صدرت وثانيهما: لو فعل ذلك لكان ذلك أولى بالنقل، فإن قيل إنما لم يفعل الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك لأنه كان قد أدى السورة بكمالها إلى الأمة من دون هذه الزيادة فلم يكن ذلك مؤديا إلى التلبيس كما يؤدي سهوه في الصلاة بعد أن وصفها إلى اللبس، قلنا إن القرآن لم يكن مستقرا على حالة واحدة في زمان حياته لأنه كان تأتيه الآيات فيلحقها بالسور فلم يكن تأدية تلك السورة بدون هذه الزيادة سببا لزوال اللبس، وأيضا فلو كان كذلك لما استحق **العتاب** من الله تعالى على ما رواه القوم الوجه الرابع: هو أن المتكلم بهذا هو الرسول صلى الله عليه وسلم ثم هذا يحتمل ثلاثة أوجه فإنه إما أن يكون قال هذه الكلمة سهوا أو قسرا أو اختيارا أما الوجه الأول: وهو أنه عليه السلام قال هذه الكلمة سهوا فكما يروى عن قتادة ومقاتل أنهما قالا إنه عليه السلام كان يصلي عند المقام فنعس وجرى على لسانه هاتان الكلمتان فلما فرغ من السورة سجد وسجد كل من في المسجد وفرح المشركون بما سمعوه وأتاه جبريل عليه السلام فاستقرأه، فلما انتهى إلى الغرانيق قال لم آتك بهذا، فحزن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أن نزلت هذه الآية وهذا ضعيف أيضا لوجوه: أحدها: أنه لو جاز هذا السهو لجاز في سائر المواضع وحينئذ تزول الثقة عن الشرع وثانيها: أن الساهي لا يجوز أن يقع منه مثل هذه الألفاظ المطابقة لوزن السورة وطريقتها ومعناها، فإنا نعلم بالضرورة أن واحدا لو أنشد قصيدة لما جاز أن يسهو حتى يتفق منه بيت شعر في وزنها ومعناها وطريقتها وثالثها: هب أنه تكلم/ بذلك سهوا، فكيف لم ينبه لذلك حين قرأها على جبريل عليه السلام وذلك

ظاهر أما الوجه الثاني: وهو أنه عليه السلام تكلم بذلك قسرا وهو الذي قال قوم إن الشيطان أجبر النبي صلى الله عليه وسلم على أن يتكلم بهذا فهذا أيضا فاسد لوجوه: أحدها: أن الشيطان لو قدر على ذلك في حق النبي عليه السلام لكان اقتداره علينا أكثر فوجب أن يزيل الشيطان الناس عن الدين ولجاز في أكثر ما يتكلم به الواحد منا أن يكون ذلك بإجبار الشياطين وثانيها: أن الشيطان لو قدر على هذا الإجبار لارتفع الأمان عن الوحي لقيام هذا الاحتمال وثالثها: أنه باطل بدلالة قوله تعالى حاكيا عن الشيطان وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم [إبراهيم: ٢٢] وقال تعالى: إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون إنما سلطانه على الذين يتولونه [النحل: ٩٩، ١٠٠] وقال: إلا عبادك منهم المخلصين [الحجر: ٤٠] ولا شك أنه عليه السلام كان سيد المخلصين أما الوجه الثالث: وهو أنه عليه السلام تكلم بذلك اختيارا فههنا وجهان:

أحدهما: أن نقول إن هذه الكلمة باطلة والثاني: أن نقول إنها ليست كلمة باطلة أما على الوجه الأول فذكروا فيه طريقين: الأول:

قال ابن عباس رضي الله عنهما في رواية عطاء إن شيطانا يقال له الأبيض أتاه على صورة جبريل عليه السلام وألقى عليه هذه الكلمة فقرأها فلما سمع المشركون ذلك أعجبهم فجاء جبريل عليه السلام فاستعرضه فقرأها فلما بلغ إلى تلك الكلمة قال جبريل عليه السلام أنا ما جئتك بهذه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إنه أتاني آت على صورتك فألقاها على لساني

الطريق الثاني: قال بعض الجهال إنه عليه السلام لشدة حرصه على إيمان القوم أدخل هذه الكلمة من عند نفسه ثم رجع عنها، وهذان القولان لا يرغب فيهما مسلم البتة لأن الأول يقتضي أنه عليه السلام ما كان يميز بين الملك المعصوم والشيطان الخبيث والثاني يقتضي أنه كان خائنا في الوحي وكل واحد منهما خروج عن الدين أما الوجه الثاني: وهو أن هذه الكلمة ليست باطلة فههنا أيضا طرق الأول: أن يقال الغرانيق هم الملائكة وقد كان ذلك قرآنا منزلا في وصف الملائكة. فلما توهم المشركون أنه يريد آلهتهم نسخ الله تلاوته الثاني: أن يقال المراد منه الاستفهام على سبيل الإنكار، فكأنه قال: أشفاعتهن ترتجى؟ الثالث: أن يقال إنه ذكر الإثبات وأراد النفي كقوله تعالى: يبين الله لكم أن تضلوا [النساء: ١٧٦] أي لا تضلوا كما قد يذكر النفي ويريد به الإثبات كقوله تعالى: قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا [الأنعام: ١٥١] والمعنى أن تشركوا، وهذان الوجهان الأخيران يعترض عليهما بأنه لو جاز ذلك بناء على هذا التأويل فلم لا يجوز أن يظهروا كلمة الكفر في جملة القرآن أو في الصلاة بناء على هذا التأويل، ولكن الأصل في الدين أن لا يجوز عليهم شيء من ذلك لأن الله تعالى قد نصبهم حجة واصطفاهم للرسالة فلا يجوز عليهم ما يطعن في ذلك أو ينفر، ومثل ذلك في التنفير أعظم من الأمور التي حثه الله تعالى على تركها كنحو لفظاظة والكتابة وقول الشعر فهذه الوجوه المذكورة/ في قوله تلك الغرانيق العلا قد ظهر على القطع كذبها، لهذا كله إذا فسرنا التمني بالتلاوة. وأما إذا فسرناها بالخاطر وتمني القلب فالمعنى أن النبي صلى الله عليه وسلم متى تمنى بعض ما يتمناه من الأمور يوسوس الشيطان إليه بالباطل ويدعوه إلى ما لا ينبغي ثم إن الله تعالى ينسخ ذلك ويبطله ويهديه إلى ترك الالتفات إلى وسوسته، ثم اختلفوا في كيفية تلك الوسوسة على وجوه: أحدها: أنه يتمنى ما يتقرب به إلى المشركين من ذكر آلهتهم بالثناء قالوا

إنه عليه السلام كان يحب أن يتألفهم وكان يردد ذلك في نفسه فعند ما لحقه النعاس زاد تلك الزيادة من حيث كانت في نفسه وهذا أيضا خروج عن الدين وبيانه ما تقدم وثانيها: ما قال مجاهد من أنه عليه السلام كان يتمنى إنزال الوحي عليه على سرعة دون تأخير فنسخ الله ذلك بأن عرفه بأن إنزال ذلك بحسب المصالح في الحوادث والنوازل وغيرها وثالثها: يحتمل أنه عليه السلام عند نزول الوحي كان يتفكر في تأويله إن كان مجملا فيلقي الشيطان في جملته ما لم يرده، فبين تعالى أنه ينسخ ذلك بالإبطال ويحكم ما أراده الله تعالى بأدلته وآياته ورابعها: معنى الآية (إذا تمنى) إذا أراد فعلا مقربا إلى الله تعالى ألقى الشيطان في فكره ما يخالفه فيرجع إلى الله تعالى في ذلك وهو كقوله تعالى: إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون [الأعراف: ٢٠١] وكقوله: وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله [الأعراف: ٢٠٠] ومن الناس من قال لا يجوز حمل الأمنية على تمني القلب لأنه لو كان كذلك لم يكن ما يخطر ببال رسول الله صلى الله عليه وسلم فتنة للكفار وذلك يبطله قوله تعالى: ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم، والجواب: لا يبعد أنه إذا قوي التمني اشتغل الخاطر به فحصل السهو في الأفعال الظاهرة بسببه فيصير ذلك فتنة للكفار فهذا آخر القول في هذه المسألة. اهـ (مفاتيح الغيب ٢٣/ ٢٣٧ - ٢٤١)." (١)

"﴿وإذا لقوا﴾ جملة مستأنفة سيقت إثر بيان ما صدر عن أشباههم لبيان ما صدر عنهم بالذات من الشنائع المؤيسة عن إيمانهم من نفاق بعض **وعتاب** آخرين عليهم أو معطوفة على ما سبق من الجلمة الحالية والضمير لليهود لما ستقف على سره لالمنافقيهم خاصة كما قيل تحريا لاتحاد الفاعل في فعلي الشرط والجزاء حقيقة

﴿الذين آمنوا﴾ من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم

﴿قالوا﴾ أي الاقون لكن لا بطريق تصدي الكل للقول حقيقة بل بمباشرة منافقهم وسكوت الباقين كما يقال بنو فلان قتلوا فلانا والقاتل واحد منهم وهذا أدخل في تقبيح حال الساكتين أولا العاتبين ثانيا لما فيه من الدلالة على نفاقهم واخلاف أحوالهم وتناقض آرائهم من إسناد القول إلى المباشرين خاصة بتقدير المضاف أي قال منافقوهم

﴿آمنا﴾ لم يقتصروا على ذلك بل عللوه بأنهم وجدوا نعت النبي صلى الله عليه وسلم في التوراة وعلموا أنه النبي المبشر به وإنما لم يصرح به تعويلا على شهادة التوبيخ الآتي

﴿وإذا خلا بعضهم﴾ أي بعض المذكورين وهم الساكتون منهم أي إذا فرغوا من الاشتغال بالمؤمنين متوجهين ومنضمين

﴿إلى بعض﴾ آخر منهم وهم منافقوهم بحيث لم يبق معهم غيرهم وهذا نص على اشتراك الساكتين في لقاء المؤمنين كما أشير إليه آنفا إذ الخلو إنما يكون بعد الاشتغال ولأن **عتابهم** معلق بمحض الخلو ولولا أنهم حاضرون عند المقاولة لوجب أن يجعل سماعهم لها من تمام الشرط ولأن فيه زيادة تشنيع لهم على ما أتوا من السكوت ثم **العتاب**

﴿قالوا﴾ أي الساكتون موبخين لمنافقيهم على ما صنعوا

﴿أتحدثونهم﴾ يعنون المؤمنين

---

(١) تفسير الإيجي جامع البيان في تفسير القرآن الإيجي، محمد بن عبد الرحمن ٦٥/٣

﴿بما فتح الله عليكم﴾ ما موصولة والعائد محذوف أي بينه لكم خاصة في التوراة من نعت النبي صلى الله عليه وسلم والتعبير عنه بالفتح للإيذان بأنه سر مكنون وباب مغلق لا يقف عليه أحد وتجويز كون هذا التوبيخ من جهة المنافقين لأعقابهم إراءة للتصلب في دينهم كما ذهب إليه عصابة مما لا يليق بشأن التنزيل الجليل واللام في قوله عز وجل ﴿ليحاجوكم به﴾ متعلقة بالتحديث دون الفتح والمراد تأكيد النكير وتشديد التوبيخ فإن التحديث بذلك وإن كان منكرا في نفسه لكن التحديث به لأجل هذا الغرض." (١)

"البقرة (٧٧)

مما لا يكاد يصدر عن العاقل أي أتحدثونهم بذلك ليحتجوا عليكم فيبكتوكم والمحدثون به وإن لم يحوموا حول ذلك الغرض لكن فعلهم ذلك لما كان مستتبعا له ألبتة جعلوا فاعلين للغرض المذكور وإظهارا لكمال سخافة عقولهم وركاكة آرائهم

﴿عند ربكم﴾ أي في حكمه وكتابه كما يقال هو عند الله كذا إى في يدفعه إذ هم عالمون بأنهم محجوجون يومئذ حدثوا به أو لم يحدثوا والاعتذار إلزام المؤمنين كتابه وشرعه وقيل عند ربكم يوم القيامة ورد عليه بأن الإخفاء لا إياهم وتبكيتهم بأن يقولوا لهم ألم تحدثونا بما في كتابكم في الدنيا من حقية ديننا وصدق نبينا أفحش فيجوز أن يكون المحذور عندهم هذا الإلزام بإرجاع الضمير في به إلى التحديث دون المحدث به ولا ريب في أنه مدفوع بالإخفاء لا تساعده الآية الكريمة الايتة كما ستقف عليه بإذن الله عز وجل

﴿أفلا تعقلون﴾ من تمام التوبيخ **والعتاب** والفاء للعطف على مقدر ينسحب عليه الكلام أي ألا تلاحظون فلا تعقلون هذا الخطأ الفاحش أو شيئا من الأشياء التي من جملتها هذا فالمنكر عدم التعقل ابتداء أو أتفعلون ذلك فلا تعقلون بطلانه مع وضوحة حتى تحتاجون إلى التنبيه عليه فالمنكر حينئذ عدم التعقل بعد الفعل هذا وأما ما قيل من أنه خطاب من جهة الله سبحانه للمؤمنين متصل بقوله تعالى ﴿أفتطمعون﴾ والمعنى أفلا تعقلون حالهم وأن لا مطمع لكم في إيمانهم فيأباه قوله تعالى." (٢)

"﴿أو لا يعلمون﴾ فإنه إلى آخره تجهيل لهم من من جهته تعالى فيما حكى عنهم فيكون إيراد خطاب المؤمنين في أثنائه من قبيل الفصل بين الشجر ولحائه على أن في تخصيص الخطاب بالمؤمنين من التعسف وفي تعميمه للنبي أيضا صلى الله عليه وسلم كما في أفتطمعون من سوء الأدب مالا يخفى والهمزة للإنكار والتوبيخ كما قبلها والواو للعطف على مقدر ينساق إليه الذهن والضمير للموبخين أي أيلومونهم على التحديث المذكور مخافة المحاجة ولا يعلمون ﴿أن الله يعلم ما يسرون﴾ أي يسرونه فيما بينهم من المؤمنين أو ما يضمرونه في قلوبهم فيثبت الحكم في ذلك بالطريق الأولى ﴿وما يعلنون﴾ أي يظهرونه للمؤمنين لأصحابهم حسبما سبق فحينئذ يظهر الله تعالى ما أرادوا إخفاءه بواسطة الوحى إلى النبي صلى الله عليه وسلم فتحصل المحاجة ويقع التبكيت كما وقع في آية الرجم وتحريم بعض المحرمات

---

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ١١٧/١

(٢) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ١١٨/١

عليهم فأي فائدة في اللوم **والعتاب** ومن ههنا تبين أن المحذور عندهم هو المحاجة بما فتح الله عليهم وهي حاصلة في الدارين حدثوا به أم لا لا بالتحديث به حتى يندفع بالإخفاء وقيل الضمير للمنافقين فقط أولهم وللموبخين أو لآبائهم المحرفين أي أيفعلون ما يفعلون ولا يعلمون أن الله يعلم جميع ما يسرون وما يعلنون ومن جملته إسرارهم الكفر وإظهارهم الإيمان وإخفاء ما فتح الله عليهم وإظهار غيره وكتم أمر الله وإظهار ما أظهروه افتراء وإنما قدم الإسرار على الإعلان للإيذان بافتضاحهم ووقوع ما يحذرونه من أول الأمر والمبالغة في بيان شمول علمه المحيط لجميع المعلومات كأن علمه بما يسرونه أقدم منه بما يعلنونه مع كونهما في الحقيقة على السوية فإن علمه تعالى بمعلوماته ليس بطريق حصول صورها بل وجود كل شئ في نفسه علم بالنسبة إليه تعالى وفي." (١)

"﴿ومن أهل الكتاب﴾ شروع في بيان خيانتهم في المال بعد بيان خيانتهم في الدين والجار والمجرور في محل الرفع على الابتداء حسبما مر تحقيقه في تفسير قوله تعالى ﴿ومن الناس من يقول﴾ الخ خبره قوله تعالى

﴿من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك﴾ على أن المقصود بيان اتصافهم بمضمون الجملة الشرطية لا كونهم ذوات المذكورين كأنه قيل بعض أهل الكتاب بحيث إن تأمنه بقنطار أي بمال كثير يؤده إليك كعبد الله بن سلام استودعه قرشي ألفا ومائتي أو قية ذهبا فأداه إليه

﴿ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك﴾ كفنحاص بن عازوراء استودعه قرشي آخر دينارا فجحده وقيل المأمونون على الكثير النصارى إذ الغالب فيهم الأمانة والخائنون في القليل اليهود إذ الغالب فيهم الخيانة

﴿إلا ما دمت عليه قائما﴾ استثناء مفرغ من أعم الأحوال أو الأوقات أي لا يؤده إليك في حال من الأحوال أو في وقت من الأوقات إلا في حال دوام قيامك أو في وقت دوام قيامك على رأسه مبالغا في مطالبته بالتقاضي وإقامة البينة

﴿ذلك﴾ إشارة إلى ترك الأداء المدلول عليه بقوله تعالى لا يؤده وما فيه من معنى البعد للإيذان بكمال غلوهم في الشر والفساد

﴿بأنهم﴾ أي بسبب أنهم

﴿قالوا ليس علينا فى الأميين﴾ أي في شأن من ليس من أهل الكتاب

﴿سبيل﴾ أي **عتاب** ومؤاخذة

﴿ويقولون على الله الكذب﴾ بادعائهم ذلك

﴿وهم يعلمون﴾ أنهم كاذبون مفترون على الله تعالى وذلك لأنه أستحلوا أظلم من خالفهم وقالوا لم يجعل في التوراة في حقهم حرمة وقيل عامل اليهود رجالا من قريش فلما أسلموا تقاضوهم فقالوا سقط حقكم حيث تركتم دينكم وزعموا أنه كذلك في كتابهم وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال عند نزولها كذب أعداء الله." (٢)

---

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ١١٨/١

(٢) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٥٠/٢

"﴿ولقد كنتم تمنون الموت﴾ أي تتمنون الحرب فإنها من مبادئ الموت أو الموت بالشهادة والخطاب للذين لم يشهدوا بدرا وكانوا يتمنون أن يشهدوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مشهدا لينالوا ما ناله شهداء بدر من الكرامة فألحوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم في الخروج ثم ظهر منهم خلاف ذلك

﴿من قبل أن تلقوه﴾ متعلق بتمنون مبين لسبب إقدامهم على التمنى من قبل أن تشاهدوه وتعرفوا هوله وشدته وقرئ تلاقوه

﴿فقد رأيتموه﴾ أي ما تتمنونه من أسباب الموت أو الموت بمشاهدة أسبابه وقوله تعالى

﴿وأنتم تنظرون﴾ حال من ضمير المخاطبين وفي إيثار الرؤية على الملاقاة وتقييدها بالنظر مزيد مبالغة في مشاهدتهم له والفاء فصيحة كأنه قيل إن كنتم صادقين في تمنيكم ذلك فقد رأيتموه معاينين له حين قتل بين أيديكم من قتل من إخوانكم وأقاربكم وشارفتم أن تقتلوا فلم فعلتم ما فعلتم وهو توبيخ لهم على تمنيهم الحرب وتسببهم لها ثم جبنهم وانهزامهم لا على تمني الشهادة بناء على تضمنها لغلبة الكفار لما أن مطلب من يتمناها نيل كرامة الشهداء من غير أن يخطر بباله شئ غير ذلك فلا يستحق **العتاب** من تلك الجهة." (١)

"﴿ما كان لنبي﴾ وقرئ للنبي على العهد والأول أبلغ لما فيه من بيان أن ما يذكر سنة مطردة فيما بين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أي ما صح وما استقام لنبي من الأنبياء عليهم السلام

﴿أن يكون له أسرى﴾ وقرئ بتأنيث الفعل وأسارى أيضا

﴿حتى يثخن في الارض﴾ أي يكثر القتل ويبالغ فيه حتى يذل الكفرة ويقل حزبه ويعز الإسلام ويستولي أهله من أثخنه المرض والجرح إذا أثقله وجعله بحيث لا حراك به ولا براح وأصله الثخانة التي هي الغلظ والكثافة وقرئ بالتشديد للمبالغة

﴿تريدون عرض الدنيا﴾ استئناف مسوق **للعتاب** أي تريدون حطامها بأخذكم الفداء وقرئ يريدون بالياء

﴿والله يريد الاخرة﴾ أي يريد لكم ثواب الآخرة الذي لا مقدار عنده الدنيا وما فيها أو يريد سبب نيل الآخرة من إعزاز دينه وقمع أعدائه وقرئ بجر الآخرة على إضمار المضاف كما في." (٢)

"وإن كان كاذبا حادثا متعلقا بأمر خاص لكنه أمر جار على عادتهم المستمرة ناشئ عن رسوخهم في الكذب والتعبير عن ظهور الصدق بالتبين وعما يتعلق بالكذب بالعلم لما هو المشهور من أن مدلول الخبر هو الصدق والكذب احتمال عقلي فظهور صدقه إنما هو تبين ذلك المدلول وانقطاع احتمال نقيضه بعد ما كان محتملا له احتمالا عقليا وأما كذبه فأمر حادث لا دلالة للخبر عليه في الجملة حتى يكون ظهوره تبينا له بل هو نقيض لمدلوله فما يتعلق به يكون علما مستأنفا وإسناده إلى ضميره صلى الله عليه وسلم لا إلى المعلومين ببناء الفعل للمفعول مع إسناد التبين إلى الأولين لما أن المقصود ههنا علمه صلى الله عليه وسلم بهم ومؤاخذتهم بموجبه بخلاف الأولين حيث لا مؤاخذة عليهم

---

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٩٢/٢

(٢) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أب و السعود ٣٥/٤

ومن لم ينتبه لهذا قال حتى يتبين لك من صدق في عذره ممن كذب فيه وإسناد التبين إلى الأولين وتعليق العلم بالآخرين مع أن مدار الإسناد والتعلق أولا وبالذات هو وصف الصدق والكذب كما أشير إليه لما أن المقصد هو العلم بكلا الفريقين باعتبار اتصافهما بوصفيهما المذكورين ومعاملتهما بحسب استحقاقهما لا العلم بوصفيهما بذاتيهما أو باعتبار قيامهما بموصوفيهما هذا وفي تصدير فاتحة الخطاب ببشارة العفو دون ما يوهم **العتاب** من مراعاة جانبه صلى الله عليه وسلم وتعهده بحسن المفاوضة ولطف المراجعة ما لا يخفى على أولي الألباب قال سفيان بن عيينة انظروا إلى هذا اللطف بدأ بالعفو قبل ذكر المعفو ولقد أخطأ وأساء الأدب وبئسما فعل فيما قال وكتب من زعم أن الكلام كناية عن الجناية وأن معناه أخطأت وبئسما فعلت هب أنه كناية أليس إيثارها على التصريح بالجناية للتلطيف في الخطاب والتخفيف في **العتاب** وهب أن العفو مستلزم للخطأ فهل هو مستلزم لكونه من القبح واستتباع اللائمة بحيث يصحح هذه المرتبة من المشافهة بالسوء أو يسوغ إنشاء الاستقباح بكلمة بئسما المنبئة عن بلوغ القبح إلى رتبة يتعجب منها ولا يخفى أنه لم يكن في خروجهم مصلحة للدين أو منفعة للمسلمين بل كان فيه فساد وخبال حسبما نطق به قوله عز وجل لو خرجوا الخ وقد كرهه سبحانه كما يفصح عنه قوله تعالى ولكن كره الله انبعاثهم الآية نعم كان الأولى تأخير الإذن حتى يظهر كذبهم آثر ذي أثير ويفتضحوا على رءوس الأشهاد ولا يتمكنوا من التمتع بالعيش على الأمن والدعة ولا يتسنى لهم الابتهاج فيما بينهم بأنهم غروه صلى الله عليه وسلم وأرضوه بالأكاذيب على أنه لم يهنأ لهم عيش ولا قرت لهم عين إذ لم يكونوا على أمن واطمئنان بل كانوا على خوف من ظهور أمرهم وقد كان

سورة براءة آية (٤٤)." (١)

"﴿لو خرجوا فيكم﴾ بيان لسر كراهته تعالى لانبعاثهم أي لو خرجوا مخالطين لكم

﴿ما زادوكم﴾ أي ما أورثوكم شيئا من الأشياء

﴿إلا خبالا﴾ أي فسادا وشرا فالاستثناء مفرغ متصل وقيل منقطع وليس بذلك

﴿ولاوضعوا خلالكم﴾ أي ولسعوا فيما بينكم بالنمائم والتضريب وإفساد ذات البين من وضع البعير وضعا إذا أسرع وأوضعته أنا أي حملته على الإسراع والمعنى لأوضعوا ركائبهم بينكم والمراد به المبالغة في الإسراع بالنمائم لأن الراكب أسرع من الماشي وقرئ ولأرقصوا من رقصت الناقة أسرعت وأرقصتها أنا وقرئ ولأوفضوا أي أسرعوا

﴿يبغونكم الفتنة﴾ يحاولون أن يفتنوكم بإيقاع الخلاف فيما بينكم وإلقاء الرعب في قلوبكم وإفساد نياتكم والجملة حال من ضمير أوضعوا أو استئناف

﴿وفيكم سماعون لهم﴾ أي نمامون يسمعون حديثكم لأجل نقله إليهم أو فيكم قوم ضعفة يسمعون للمنافقين أي يطيعونهم والجملة حال من مفعول يبغونكم أو من فاعله لاشتمالها على ضميريهما أو مستأنفة ولعلهم لم يكونوا في كمية العدد وكيفية الفساد بحيث يخل مكانهم فيما بين المؤمنين بأمر الجهاد إخلالا عظيما ولم يكن فساد خروجهم معادلا لمنفعته ولذلك لم تقتض الحكمة عدم خروجهم فخرجوا مع المؤمنين ولكن حيث كان انضمام المنافقين القاعدين

---

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٦٩/٤

إليهم مستتبعا لخلل كلي كره الله انبعاثهم فلم يتسن اجتماعهم فاندفع فسادهم ووجه **العتاب** على الأذن في قعودهم مع تقرره لا محالة وتضمن خروجهم لهذه المفاسد أنهم لو قعدوا بغير إذن منه صلى الله عليه وسلم لظهر نفاقهم فيما بين المسلمين من أول الأمر ولم يقدروا على مخالطتهم والسعي فيما بينهم بالأراجيف ولم يتسن لهم التمتع بالعيش إلى أن يظهر حالهم بقوارع الآيات النازلة

﴿والله عليم بالظالمين﴾ علما محيطا بضمائرهم وظواهرهم وما فعلوا فيما مضى وما يتأتى منهم فيما سيأتي ووضع المظهر موضع المضمر للتسجيل عليهم بالظلم والتشديد في الوعيد والإشعار بترتبه على الظلم ولعله شامل للفريقين السماعين والقاعدين." (١)

"﴿سيحلفون بالله لكم﴾ تأكيد لمعاذيرهم الكاذبة وتقريرا لها والسين للتأكيد والمحلوف عليه محذوف يدل عليه الكلام وهو ما اعتذروا به من الأكاذيب والجملة بدل من يعتذرون أو بيان له

﴿إذا انقلبتم﴾ أي انصرفتم من الغزو

﴿إليهم﴾ ومعنى الانقلاب هو الرجوع والانصراف مع زيادة معنى الوصول والاستيلاء وفائدة تقييد حلفهم به الإيذان بأنه ليس لدفع ما خاطبهم النبي صلى الله عليه وسلم به من قوله تعالى لا تعتذروا الخ بل هو أمر مبتدأ

﴿لتعرضوا﴾ وتصفحوا

﴿عنهم﴾ صفح رضا فلا توبخوهم ولا تعاتبوهم كما يفصح عنه قوله تعالى لترضوا عنهم

﴿فأعرضوا عنهم﴾ لكن لا إعراض رضا كما هو طلبتهم بل إعراض اجتناب ومقت كما يعرب عنه قوله عز وجل

﴿إنهم رجس﴾ فإنه صريح في أن المراد بالإعراض عنهم إما الاجتناب عنهم لما فيهم من الرجس الروحاني وإما ترك استصلاحهم بترك المعاتبة لأن المقصود بها التطهير بالحمل على الإنابة وهؤلاء أرجاس لا تقبل التطهير فلا يتعرض لهم بها وقوله عز وعلا

﴿ومأواهم جهنم﴾ إما من تمام التعليل فإن كونهم من أهل النار من دواعي الاجتناب عنهم وموجبات ترك استصلاحهم باللوم **والعتاب** وإما تعليل مستقل أي وكفتهم النار **عتابا** وتوبيخا فلا تتكلفوا أنتم في ذلك

﴿جزاء﴾ نصب على أنه مصدر مؤكد لفعل مقدر من لفظه وقع حالا أي يجزون جزاء أو لمضمون الجملة السابقة فإنها مفيدة لمعنى المجازاة قطعا كأنه قيل مجزيون جزاء

﴿بما كانوا يكسبون﴾ فى الدنيا من فنون السيئات أو على أنه مفعول له." (٢)

"﴿ثم قيل﴾ الخ تأكيد للتوبيخ **والعتاب** بوعيد العذاب والعقاب وهو عطف على ما قدر قبل الآن

﴿الذين ظلموا﴾ أى وضعوا الكفر والتكذيب موضع الإيمان والتصديق أو ظلموا أنفسهم بتعريضها للعذاب والهلاك ووضع الموصول موضع الضمير لذمهم بما في حيز الصلة والإشعار بعليته لإصابة ما أصابهم ذوقوا عذاب الخلد المؤلم على

---

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٧١/٤

(٢) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٩٤/٤

الدوام

﴿هل تجزون﴾ اليوم

﴿إلا بما كنتم تكسبون﴾ في الدنيا من أصناف الكفر والمعاصي التي من جملتها ما مر من." (١)

"(وبرزوا الله جميعا) أي يبرزون يوم القيامة وإيثار صيغة الماضي للدلالة على تحقيق وقوعه كما في قوله سبحانه ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار أو لأنه لا مضي ولا استقبال بالنسبة إليه سبحانه والمراد بروزهم من قبورهم لأمر الله تعالى ومحاسبته أو لله على ظنهم فإنهم كانوا يظنون عند ارتكابهم الفواحش سرا أنها تخفى على الله سبحانه فإذا كان يوم القيامة انكشفوا الله عند أنفسهم (فقال الضعفاء) الأتباع جمع ضعيف والمراد ضعف الرأي وإنما كتب بالواو وعلى لفظ من يفخم الألف قبل الهمزة (للذين استكبروا) لرؤسائهم الذين استتبعوهم واستغفووهم (إنا كنا) في الدنيا (لكم تبعا) في تكذيب الرسل عليهم السلام والإعراض عن نصائحهم وهو جمع تابع كغيب في جمع غائب أو مصدر نعت به مبالغة أو على إضمار أي ذوي تبع (فهل أنتم مغنون) دافعون (عنا) والفاء للدالة على سببية الاتباع للإغناء والمراد التوبيخ **والعتاب** وال‍تقريع والتبكيت (من عذاب الله من شيء) من الأولى للبيان واقعة موقع الحال والثانية للتبعيض واقعة موقع المفعول أي بعض الشيء الذي هو عذاب الله تعالى ويجوز كونهما للتبعيض أي بعض شيء هو بعض عذاب الله والإعراب كما سبق ويجوز أن تكون الأولى مفعولا والثانية مصدرا أي فهل أنتم مغنون عنا بعض العذاب بعض الإغناء ويعضد الأول قوله تعالى فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار (قالوا) أي المستكبرون جوابا عن معاتبة الأتباع واعتذارا عما فعلوا بهم (لو هدانا الله) أي للإيماء ووفقنا له (لهديناكم) ولكن ضللنا فأضللناكم أي اخترنا لكم ما اخترناه لأنفسنا أو لو هدانا الله طريق النجاة من العذاب لهديناكم وأغنينا عنكم كما عرضنا له ولكن سددوننا طريق الخلاص ولات حين مناص (سواء علينا أجزعنا) مما لقينا (أم صبرنا) على ذلك أي مستو علينا الجزع والصبر في عدم الإنجاء والهمزة وأم لتأكيد التسوية كما في قوله تعالى سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم وإنما أسندوهما ونسبوا استواءهما إلى ضمير المتكلم المنتظم للمخاطبين أيضا مبالغة في النهي عن." (٢)

"إبراهيم ٢٢ التوبيخ بإعلام أنهم شركاء لهم فيما ابتلوا به وتسلية لهم ويجوز أن يكون قوله سواء علينا الخ من كلام الفريقين على منوال قوله تعالى ذلك ليعلم أني لم أخنه ويؤيده ما روي أنهم يقولون تعالوا نجزع فيجزعون خمسمائة عام فلا ينفعهم فيقولون تعالوا نصبر فيصبرون كذلك فلا ينفعهم فعند ذلك يقولون ذلك ولما كان **عتاب** الأتباع من باب الجزع ذيلوا جوابهم ببيان أن لا جدوى في ذلك فقالوا (ما لنا من محيص) من منجى ومهرب من العذاب من حاص الحمار إذا عدل بالفرار وهو إما اسم مكان كالمبيت والمصيف أو مصدر كالمغيب والمشيب وهي جملة مفسرة لإجمال ما فيه الاستواء فلا محل لها من الإعراب أو حال مؤكدة أو بدل منه." (٣)

---

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ١٥٣/٤

(٢) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٤١/٥

(٣) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٤٢/٥

"﴿ومن ثمرات النخيل والأعناب﴾ متعلق بما يدل عليه الإسقاء من مطلق الإطعام المنتظم لإعطاء المطعوم والمشروب فإن اللبن مطعوم كما أنه مشروب أي ونطعمكم من ثمرات النخيل ومن الأعناب أي من عصيرهما وقوله تعالى ﴿تتخذون منه سكرا﴾ استئناف لبيان كنه الإطعام وكشفه أو بقوله تتخذون منه وتكرير الظرف للتأكيد أو خبر لمبتدأ محذوف صفته تتخذون أي ومن ثمرات النخيل والأعناب ثمر تتخذون منه وحذف الموصوف إذا كان في الكلام كلمة من سائغ نحو قوله تعالى ﴿وما منا إلا له مقام معلوم﴾ وتذكير الضمير على الوجهين الأولين لأنه للمضاف المحذوف أعني العصير أو لأن المراد هو الجنس والسكر مصدر سمي به الخمر وقيل هو النبيذ وقيل هو الطعم ﴿ورزقا حسنا﴾ كالتمر والدبس والزبيب والخل والآية إن كانت سابقة النزول على تحريم الخمر فدالة على كراهتها وإلا فجامعة بين **العتاب** والمنة ﴿إن في ذلك لأية﴾ باهرة ﴿لقوم يعقلون﴾ يستعملون عقولهم في الآيات بالنظر والتأمل." (١)

"﴿قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معى صبرا﴾ زيد لك لزيادة المكافحة **بالعتاب** على رفض الوصية وقلة التثبت والصبر لما تكرر منه الاشمئزاز والاستنكار ولم يرعو بالتذكير حتى زاد في النكير في المرة الثانية." (٢)

"﴿قال﴾ أي الخضر عليه الصلاة والسلام ﴿هذا فراق بيني وبينك﴾ على إضافة المصدر إلى الظرف اتساعا وقد قرئ على الأصل والمشار إليه إما نفس الفراق كما في هذا أخوك أو الوقت الحاضر أي هذا الوقت وقت فراق بيني وبينك أو السؤال الثالث أي هذا سبب ذلك الفراق حسبما هو الموعود ﴿سأنبئك﴾ السين للتأكيد لعدم تراخي التنبئة ﴿بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا﴾ التأويل رجع الشيء إلى مآله والمراد به ههنا المآل والعاقبة إذ هو المنبأ به دون التأويل وهو خلاص السفينة من اليد العادية وخلاص أبوي الغلام من شره مع الفوز بالبدل الأحسن واستخراج اليتيمين للكنز وفي جعل صلة الموصول عدم استطاعة موسى عليه الصلاة والسلام للصبر دون أن يقال بتأويل ما فعلت أو بتأويل ما رأيت ونحوهما نوع تعريض به عليه الصلاة والسلام **وعتاب**." (٣)

"الكهف ٨٣ صحف فيها علم ﴿وكان أبوهما صالحا﴾ تنبيه على أن سعيه في ذلك كان لصلاحه قيل كان بينهما وبين الأب الذي حفظا فيه سبعة آباء ﴿فأراد ربك﴾ أي مالكك ومدبر أمورك ففي إضافة الرب إلى ضمير موسى عليه الصلاة والسلام دون ضميرهما تنبيه له عليه الصلاة والسلام على تحتم كمال الانقياد والاستسلام لإرادته سبحانه ووجوب الاحتراز عن المناقشة فيما وقع بحسبها من الأمور المذكورة ﴿أن يبلغا أشدهما﴾ أي حلمهما وكما رأيهما ﴿ويستخرجا﴾ بالكلية ﴿كنزهما﴾ من تحت الجدار ولولا أني أقمته لا نقض وخرج الكنز من تحته قبل اقتدارهما على حفظ المال وتنميته وضاع ﴿رحمة من ربك﴾ مصدر في موقع الحال أي مرحومين منه عز وجل أو مفعول له أو مصدر مؤكد لأراد فإن إرادة الخير رحمة وقيل متعلق بمضمر أي فعلت ما فعلت من الأمور التي شاهدتها رحمة من ربك ويعضده إضافة الرب إلى ضمير المخاطب دون ضميرهما فيكون قوله عز وعلا ﴿وما فعلته عن أمرى﴾ أي عن رأيي واجتهادي تأكيد

---

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ١٢٥/٥

(٢) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٢٣٦/٥

(٣) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٢٣٧/٥

لذلك ﴿ذلك﴾ إشارة إلى العواقب المنظومة في سلك البيان وما فيه من معنى البعد للإيذان ببعد درجتها في الفخامة ﴿تأويل ما لم تسطع﴾ أي لم تستطع فحذف التاء للتخفيف ﴿عليه صبرا﴾ من الأمور التي رابته أي مآله وعاقبته فيكون إنجازا للتنبئة الموعودة أو إلى البيان نفسه فيكون التأويل بمعناه وعلى كل حال فهو فذلكة لما تقدم وفي جعل الصلة عين ما مر تكرير للتنكير وتشديد **للعتاب** تنبيه اختلفوا في حياة الخضر عليه الصلاة والسلام فقيل إنه حي وسببه أنه كان على مقدمة ذي القرنين فلما دخل الظلمات أصاب الخضر عين الحياة فنزل واغتسل منها وشرب من مائها وأخطأ ذو القرنين الطريق فعاد قالوا وإلياس أيضا في الحياة يلتقيان كل سنة بالموسم وقيل إنه ميت لما روي أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى العشاء ذات ليلة ثم قال أرأيتكم ليلتكم هذه فإن رأس مائة سنة منها لا يبقي ممن هو اليوم على ظهر الأرض أحد ولو كان الخضر حينئذ حيا لما عاش بعد مائة عام روي أن موسى عليه الصلاة والسلام لما أراد أن يفارقه قال أوصني قال لا تطلب العلم لتحدث به واطلبه لتعمل به." (١)

"﴿كلا﴾ ردع لهم عن ذلك الاعتقاد الباطل وإنكار لوقوع ما علقوا به أطماعهم الفارغة ﴿سيكفرون بعبادتهم﴾ أي ستجحد الآلهة بعبادتهم لها بأن ينطقها الله تعالى وتقول ما عبدتمونا أو سينكر الكفرة حين شاهدوا سوء عاقبة كفرهم عبادتهم لها كما في قوله تعالى والله ربنا ما كنا مشركين ومعنى قوله تعالى ﴿ويكونون عليهم ضدا﴾ على الأول تكون الآلهة التي كانوا يرجون أن تكون لهم عزا ضدا للعز أي ذلا وهوانا أو تكون عونا عليهم وآلة لعذابهم حيث تجعل وقود النار وحصب جنهم أو حيث كانت عبادتهم لها سببا لعذابهم وإطلاق الضد على العون لما أن عون الرجل يضاد عدوه وينافيه بإعانته له عليه وعلى الثاني يكون الكفرة ضدا وأعداء اللآلهة كافرين بها بعد أن كانوا يحبونها كحب الله ويعبدونها وتوحيد الضد لوحدة المعنى الذي عليه تدور مضادتهم فإنهم بذلك كشيء واحد كما في قوله عليه السلام وهم يد على من سواهم وقرئ كلا بفتح الكاف والتنوين على قلب الألف نونا في الوقف قلب ألف الإطلاق في قوله

أقلي اللوم عاذل **والعتابن** ... وقولي إن أصبت لقد أصابن

أو على معنى كل هذا الرأي كلا وقرئ كلا على إضمار فعل يفسره ما بعده أي سيجحدون كلا سيكفرون الخ." (٢)

"الروم ٥٨ ٦٠ بينهما فاصل ﴿ولا هم يستعتبون﴾ لا يدعون إلى ما يقتضي **إعتابهم** أي إزالة عتبهم من التوبة والطاعة كما دعوا إليه في الدنيا من قولهم استعتبني فلان فاعتبته أي استرضاني فأرضيته." (٣)

"﴿إن كنتم خرجتم جهادا فى سبيلى وابتغاء مرضاتى﴾ متعلق بلا تتخذوا كأنه قيل لا تتولوا أعدائي إن كنتم أوليائي وقوله تعالى ﴿تسرون إليهم بالمودة﴾ استئناف وارد على نهج **العتاب** والتوبيخ أي تسرون إليهم المودة أو الأخبار بسبب المودة ﴿وأنا أعلم﴾ أي والحال أني أعلم منكم ﴿بما أخفيتم وما أعلنتم﴾ ومطلع رسولي على ما تسرون فأي طائل لكم

---

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٢٣٩/٥

(٢) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٢٨٠/٥

(٣) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٦٧/٧

في الإسرار وقيل أعلم مضارع والباء مزيدة وما موصلة أو مصدرية وتقديم الإخفاء على الإعلان قد مر وجهه في قوله تعالى يعلم ما يسرون وما يعلنون ﴿ومن يفعله منكم﴾ أي الاتخاذ ﴿فقد ضل سواء السبيل﴾ فقد أخطأ طريق الحق والصواب." (١)

"﴿إن تتوبا إلى الله﴾ خطاب لحفصة وعائشة على الالتفات للمبالغة في **العتاب** ﴿فقد صغت قلوبكما﴾ الفاء للتعليل كما في قوله اعبد ربك فالعبادة حق أي فقد وجد منكما ما يوجب التوبة من ميل قلوبكما عما يجب عليكما من مخالصة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحب ما يحبه وكراهة ما يكرهه وقرىء فقد زاغت ﴿وإن تظاهرا عليه﴾ بإسقاط إحدى التاءين وقرىء على الأصل وبتشديد الظاء وتظهرا أي تتعاونا عليه بما يسوؤه من الإفراط في الغير وإفشاء سره ﴿فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين﴾ أي فلن يعدم من يظاهره فإن الله هو ناصره وجبريل رئيس الكروبيين قرينه ومن صلح من المؤمنين أتباعه وأعوانه قال ابن عباس رضي تعالى عنهما أراد بصالح المؤمنين أبا بكر وعمر رضي الله عنهما وقد روي ذلك مرفوعا إلى النبي عليه الصلاة والسلام وبه قال عكرمة ومقاتل وهو اللائق بتوسطه بين جبريل والملائكة عليهم السلام فإنه جمع بين الظهير المعنوي والظهير الصوري كيف لا وإن جبرل ظهير له عليهما السلام يؤيده بالتأييدات الاهية وهما وزيراه وظهيراه في تدبير أمور الرسالة وتمشية أحكامها الظاهرة ولأن بيان مظاهرتهما له عليه الصلاة والسلام أشد تأثيرا في قلوب بنتيهما وتوهينا لأمرهما فكان حقيقا بالتقديم بخلاف ما إذا أريد به جنس الصالحين كما هو المشهور ﴿والملائكة﴾ مع تكاثر عددهم وامتلاء السموات من جموعهم ﴿بعد ذلك﴾ قيل أي بعد نصرة الله عز وجل وناموسه الأعظم وصالح المؤمنين ﴿ظهير﴾ أي فوج مظاهر له كأنهم يد واحدة على من يعاديه فماذا يفيد تظاهر امرأتين على من هؤلاء ظهراؤه وما ينبيء عنه قوله تعالى بعد ذلك من فضل نصرتهم على نصرة غيرهم من حيث إن نصرة الكل نصرة الله تعالى وإن نصرته تعالى بهم وبمظاهرتهم أفضل من سائر وجوه نصرته هذا ما قالوه ولعل الأنسب أن يجعل ذلك إشارة إلى مظاهرة صالح المؤمنين خاصة ويكون بيان بـعدية مظاهرة الملائكة تداركا لما يوهمه الترتيب الذكري من أفضلية المقدم فكأنه قيل بعد ذكر مظاهرة صالح المؤمنين وسائر الملائكة بعد ذلك ظهير له عليه الصلاة والسلام إيذانا بعلو رتبة مظاهرتهم وبعد منزلتها وجبرا لفصلها عن مظاهرة جبريل عليه السلام." (٢)

"وما يدريك

لذلك فإن المشافهة أدخل في تشديد **العتاب** أي وأي شيء يجعلك داريا بحاله حتى تعرض عنه وقوله تعالى

لعله يزكى

استئناف وارد لبيان ما يلوح به ما قبله فإنه مع إشعاره بأن له شأنا منافيا للإعراض عنه خارجا عن دراية الغير وادرائه مؤذن بأنه تعالى يدريه ذلك أي لعله يتطهر بما يقتبس منك من أوضار الأوزار بالكلية وكلمة لعل مع تحقق التزكي واردة على سنن الكبرياء أو على اعتبار معنى الترجي بالنسبة إليه عليه الصلاة والسلام للتنبيه على أن الإعراض عنه عند كونه مرجو

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٢٣٦/٨

(٢) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٢٦٧/٨

التزكي مما لا يجوز فكيف إذا كان مقطوعا بالتزكي كما في قولك لعلك ستندم على ما فعلت وفيه إشارة إلى أن من تصدى لتزكيتهم من الكفرة لا يرجى منهم التزكي والتذكر أصلا." (١)

"فمن شاء ذكره أي حفظه واتعظ به ومن رغب عنها كما فعل المستغني فلا حاجة إلى الاهتمام بأمره فالضميران للقرآن تأنيث الأول لتأنيث خبره وقيل الأول للسورة أو للآيات السابقة والثاني للتذكرة والتذكير لأنها في معنى الذكر والوعظ وليس بذاك فإن السورة والآيات وإن كانت متصفة بما سيأتي من الصفات الشريفة لكنها ليست مما ألقي على من استغنى عنه واستحق بسبب ذلك ما سيأتي من الدعاء عليه والتعجب من كفره المفرط لنزولها بعد الحادثة وأما من جوز رجوعهما إلى **العتاب** المذكور فقد أخطأ وأساء الأدب وخبط خبطا يقضي منه العجب فتأمل وكن على الحق المبين وقوله وتعالى." (٢)

"بل تؤثرون الحياة الدنيا

إضراب عن مقدر ينساق إليه الكلام كأنه قيل إثر بيان ما يؤدي الى الفلاح لا تفلعون ذلك بل تؤثرون اللذات العاجلة الفانية فتسعون لتحصيلها والخطاب إما للكفرة فالمراد بإيثار الحياة الدنيا هو الرضا والاطمئنان بها والإعراض عن الآخرة بالكلية كما في قوله تعالى ﴿إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها﴾ الآية أو للكل فالمراد بإيثارها ما هو أعم مما ذكر وما لا يخلو عنه الإنسان غالبا من ترجيح جانب الدنيا على الآخرة في السعي وترتيب المبادىء والالتفات على الأول لتشديد التوبيخ وعلى الثاني كذلك في حق الكفرة وتشديد **العتاب** في حق المسلمين وقرىء يؤثرون بالياء وقوله تعالى." (٣)

"٨٧ سورة الأعلى (١٨ ١٩)

خير وأبقى

حال من فاعل تؤثرون مؤكدة للتوبيخ **والعتاب** أي تؤثرونها على الآخرة والحال أن الآخرة خير في نفسها لما أن نعيمها مع كونه في غاية ما يكون من اللذة خالص عن شائبة الغائلة أبدي لا انصرام له وعدم التعرض لبيان تكدر نعيم الدنيا بالمنغصات وانقطاعه عما قليل لغاية ظهوره." (٤)

"ويقول العلامة الآلوسى عند تفسير قوله تعالى: يحرفون الكلم من بعد مواضعه.. «١» ليس ما نحن فيه- أي: التفسير الإشارى- من هذا القبيل- أي: من قبيل التفاسير الباطنية- كما يزعمه المحجوبون لأن ذلك إنما يكون بإنكار أن يكون الظاهر مرادا لله تعالى، وقصر مراده سبحانه على هذه التأويلات، ونحن نبرأ إلى الله عز وجل من ذلك، فإنه كفر صريح، وإنما نقول: المراد هو الظاهر، وبه تعبد الله تعالى خلقه، لكن فيه إشارة إلى أشياء أخر لا يكاد يحيط بها

---

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ١٠٧/٩

(٢) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ١٠٩/٩

(٣) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ١٤٦/٩

(٤) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ١٤٧/٩

نطاق الحصر، يوشك أن يكون ما ذكر بعضا منها) «٢» . وسنقرأ فى مقدمة تفسير البحر المديد قول الشيخ ابن عجيبة (ولا يصح ذكره- أي التفسير الإشارى- إلا بعد تقرير الظاهر..) .

هل الإشارات تفسير؟

التفسير بالمصطلح العلمي التقليدى لا يمكن تطبيقه على إشارات السادة الصوفية لأن الإشارات غير مرتبطة بالخط المنهجى للتفسير، والصوفي نفسه لا يقول بأن ما وقع له من مواجيد ومعان هو تفسير للقرآن، ولكنه قبس من إشراق، وفيض من فتح، لا يتعلق به حكم ولا يرتبط به واجب، ومن ثم فقد أطلق الصوفية على هذه المعاني (إشارات) كما فعل العلامة (ابن عجيبة) والعلامة الآلوسى. وإطلاق تسمية (التفسير) عليها يعتبر من قبيل العرف والمجاز. يقول الزركشي فى البرهان: (كلام الصوفية فى تفسير القرآن، قيل: إنه ليس بتفسير، وإنما هو معان ومواجيد يجدونها عند التلاوة) «٣» .

الإشارات في البحر المديد:

أفصح الشيخ عن مراده من تفسيره حين قال: (مرادنا تربية اليقين بكلام رب العالمين) . وقد بسط المفسر الحديث فى إشاراته عن آداب السلوك، والأخلاق، والمقامات، والثمرات، وقدم لنا من خلال ذلك منهجا تربويا صوفيا إسلاميا متكاملا، يسلكه من أراد أن تصفو روحه، وتزكو نفسه، ويحيا قلبه بنور معرفة الحق تعالى.

- ويلاحظ أن الشيخ ابن عجيبة لا ينظر إلى الخطابات الواردة فى القرآن على أنها موجهة إلى أقوام مخصوصين فحسب، وإنما يرى مع ذلك أن الخطاب بهذه الآيات مازال قائما، يوجه إلى الإنسان في كل عصر وأوان، يقول الشيخ رضى الله عنه: (إذا توجه الخطاب إلى طائفة مخصوصة، حمله أهل الفهم عن الله على عمومه، فإن الملك إذا عاتب قوما بمحضر آخرين كان المراد بذلك تحذير لكل سامع) .

- والشيخ ابن عجيبة باعتباره صوفى يدعو إلى مقام الإحسان، فإن له قاعدة فى إشارته، يقول الشيخ عنها:

(اعلم أن قاعدة تفسير أهل الإشارة هي أن كل **عتاب** توجه لمن ترك طريق الإيمان، وأنكر على أهله، يتوجه مثله لمن ترك طريق مقام الإحسان، وأنكر على أهله) .

---

(١) الآية ٤١ من سورة المائدة.

(٢) روح المعاني ٦/ ١٤٧.

(٣) راجع مناهل العرفان للزرقانى ٢/ ٧٨.." [1]

"فإن منعك من ذلك حب الرئاسة والجاه، فاستعن على ذلك بالصبر والصلاة، فإن الصبر عنوان الظفر، والصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر. فأدمن قرع الباب حتى تدخل مع الأحباب، فالإدمان على عبادة الصلاة أمره كبير، إلا من

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ١/٣٧

خلص إلى مناجاة العلي الكبير، وتحقق بملاقاة الشهود والعيان، ورجع إلى مولاه في كل أوان، فإن الصلاة حينئذ تكون له من قرة العين. وبالله التوفيق، وهو الهادي إلى سواء الطريق.
ولما أمرهم بالأصول والفروع، ذكرهم بالنعم، وخوفهم بالوعيد على عدم شكرها، فقال:

[سورة البقرة (٢) : الآيات ٤٧ الى ٤٨]
يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين (٤٧) واتقوا يوما لا تجزي نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون (٤٨)
قلت: العدل بالفتح: الفداء، وبالكسر: الحمل، وجملة لا تجزي: صفة ليوم، والعائد محذوف، أي: لا تجزي فيه.
يقول الحق جل جلاله: يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت على آبائكم بالهداية وبعث الرسل، وأني فضلتكم على العالمين: أهل زمانكم، فاذكروا هذه النعم واشكروني عليها بأن تتبعوا هذا النبي الجليل، الذي تجدونه مكتوبا عندكم في التوراة والإنجيل.
وخافوا يوما لا تقضي فيه نفس عن نفس شيئا بحيث لا تجلب لها نفعا، ولا تدفع عنها ضررا، ولا تقبل منها شفاعة إن وقعت الشفاعة فيها، ولا يؤخذ منها فداء، إن أرادت الفداء عنها، ولا تنتصر في دفع العذاب، إن أرادت الانتصار بعشيرتها. فانتفى عنها وجوه الامتناع من العذاب بأي وجه أمكن فإن الإنسان إذا أخذ للنكال احتال على نفسه إما بالشفاعة، أو بالفداء إن لم تقبل الشفاعة فيه، أو بالانتصار بأقاربه، والآية في الكفار، فلا حجة لمن ينفي الشفاعة في عصاة المؤمنين، والله تعالى أعلم.
الإشارة: قد يتوجه **العتاب** إلى أهل الرئاسة والجاه، من العلماء والصالحين، وكل من خص بشرف أو خصوصية، فيقول لهم الحق تعالى: اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم بالعلم أو السيادة أو الصلاح، وبأن فضلتكم على أهل زمانكم، وخصصتكم من أبناء جنسكم فقد روي: «أن العبد يحاسب على جاهه كما يحاسب على ماله» . فمن صرفه في طاعة الله، وتواضع لعباد الله، وسعى في حوائجهم، وأبلغ الجهد في قضاء مآربهم، كان ذلك شكرا لنعمة الجاه فقد روي في الحديث: «من سعى في حاجة أخيه المسلم، قضيت أو لم تقض، غفر له ما تقدم من ذنبه، وكتب له براءتان: براءة من النار وبراءة من النفاق» .." (١)

"فلما رأوا جده قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي، هل هي كبيرة أو صغيرة أو متوسطة؟ قال إنه يقول إنها بقرة لا فارض أي: كبيرة، ولا بكر أي: ولا صغيرة، عوان متوسطة بين ما ذكر من الصغر والكبر، فافعلوا ما تؤمرون، فإن الله يبين لكم القاتل، قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها، أهي حمراء أو سوداء أو صفراء؟ قال إنه تعالى يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها ناصع صفرتها تسر الناظرين لسمنها وبهجة لونها، قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي، فإن البقر الصفر كثير، وقد تشابه علينا أمرها؟ قال إنه تعالى يقول: إنها مسلمة من العمل ليست ذلولا، أي: مذللة بالعمل لا تثير أي: تقلب

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ١٠٣/١

الأرض ولا تسقي الحرث بالسانية «١» . مسلمة من العيوب كلها، لا شية فيها أي: لا رقم فيها يخالف الصفرة.
فلما تبين لهم الأمر قالوا الآن جئت بالحق الواضح، فوجدوها عند شاب كان بيد أمه، قد استودعها له أبوه في غيضة «٢» ، فاشتروها منه بملء جلدها ذهبا، أو بوزنها، فذبحوها، وضربوا القتيل بجزء منها، فجلس وعروقه تسيل دما، وقال: قتلني ابن عم لي، ثم رجع، وما كادوا يفعلون لكثرة ترددهم، أو لفحش غلوها. قال عليه الصلاة والسلام: «لو ذبحوا أدنى بقرة لكفتهم لكن شددوا فشدد الله عليهم» .
ثم ذكر أول القصة، فقال:

[سورة البقرة (٢) : الآيات ٧٢ الى ٧٣]
وإذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون (٧٢) فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحي الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون (٧٣)
قلت: حق هذه الآية أن تتقدم قبل قوله: إن الله يأمركم ... وإنما أخرها الحق تعالى ليتوجه **العتاب** إليهم مرتين على ترك المسارعة لامتثال أمر نبيهم، وعلى قتل النفس، ولو قدمها لكانت قصة واحدة بتوبيخ واحد.
يقول الحق جل جلاله: واذكروا إذ قتلتم نفسا حرصا على الدنيا فادارأتم أي: تدافعتم في شأنها، كل قرية تدفع عنها، والله تعالى مخرج ومبين ما كنتم تكتمون من القتل، ومن قتله، فقلنا
: اضربوا القتيل أو قبره ببعضها
قيل: اللسان، وقيل: القلب، وقيل: الفخد أو الذنب، فضربوه فحيى، وأخبر بقاتله كما تقدم، كذلك
أي: كما أحيا هذا القتيل، يحي الله الموتى
من قبورها ويريكم آياته
الدالة على قدرته، لعلكم تعقلون
فتعلمون أن من قدر على إحياء نفس واحدة يقدر على إحياء الأنفس كلها.

---

(١) السانية: الساقية.
(٢) الموضع الذي يكثر فيه الشجر.." (١)
"قلت: (قفينا) : أتبعنا، و (عيسى) عجمي معدول عن أيشوع في لغة السريانية، وهو غير منصرف للعلمية والعجمة، و (مريم) : بمعنى الخادم، ووزنه: مفعل لا فعيل، و (أيدناه) أي: قويناه ونصرناه، و (روح القدس) هنا جبريل عليه السلام أي: الروح المقدسة- من إضافة الموصوف إلى الصفة-، سمي به لطهارته من كدر الحس.
يقول الحق جل جلاله: ولقد آتينا موسى التوراة، فما قمتم بحقها ولا عملتم بما فيها، واتبعنا بعده الرسل كلما مات

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ١١٩/١

رسول بعثنا بعده آخر اعتناء بكم، وآتينا عيسى ابن مريم المعجزات الواضحات كإحياء الموتى، وإبراء الأكمة والأبرص، والإخبار بالمغيبات، والإنجيل، وأيدناه بجبريل عليه السلام كان يسير معه حيث سار، ورفعه إلى السماء حين أردتم يا معشر اليهود قتله، أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم من مشاق الطاعات وترك الحظوظ والشهوات، استكبرتم وامتنعتم من الإيمان به ففريقا منهم كذبتموه كعيسى وسليمان ومحمد- عليهم السلام-، وفريقا تقتلونه كزكريا ويحيى- عليهما السلام-؟ قال القشيري:

أصغوا إلى الداعين بسمع الهوى، فصار معبودهم صفاتهم وهواهم. هـ-.

الإشارة: كل ما قاله الحق جل جلاله لبني إسرائيل في فحوى الخطاب يقوله لهذه الأمة في سر الخطاب، فلقد آتانا الكتاب، وبين فيه الرشد والصواب، وقفى بعد إنزاله بعلماء أتقياء، وأولياء أصفياء، يحكمون بحكمه، ويهدون بهديه، فإذا أمروا بالزهد في الدنيا وترك الحظوظ والهوى رفضوهم وكذبوهم، وربما كفروهم وقتلوهم، واستكبروا عن الأذعان لهم والانقياد لقولهم، ففريقا كذبوا وفريقا يقتلون.

وفى الحديث قال صلى الله عليه وسلم: «لتتبعن سنن من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه، فقالوا: من يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال: نعم.. ومن إذن؟» أي: ومن تتبعون إلا هم؟. فالدعاة إلى الله لا ينقطعون ما دام الدين قائما، فقوم يدعون إلى أحكام الله، وقوم يدعون إلى معرفة الله، فالأول: العلماء، والثاني: الأولياء، فإذا أمروا بالخروج عن العوائد والشهوات، رموهم بسهام **العتاب** والمخالفات، إذ لم يأت أحد بمثل ما جاءوا به إلا عودي، إلا من خصته سابق العناية، وهبت عليه ريح الهداية، فيتبع آثارهم، وقليل ما هم.

ثم ذكر الحق تعالى مقالتهم الشنيعة، فقال:

[سورة البقرة (٢) : آية ٨٨]

وقالوا قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم فقليلا ما يؤمنون (٨٨)

قلت: (غلف) : جمع أغلف، كأحمر وحمر، وأصفر وصفر، وهو الذي عليه غشاوة، أي: هي في غلاف فلا تفقه ما تقول، بمنزلة الأغلف، وهو غير المختون، وقيل: أصله (غلف) بضم اللام، وبه قرأ ابن محيصن.." (١)

"و (ما) المتصلة ببئس ونعم: نكرة منصوبة على التمييز، أي: بئس شيئا اشتروا به أنفسهم، وهو كفرهم، أو معرفة تامة مرفوعة على الفاعل، أي: بئس الشيء شيء اشتروا به أنفسهم. و (اشتروا) هنا بمعنى باعوا، كشروا على خلاف الأصل، وقد يمكن ان يبقى على أصله، على ما يأتي في بيان المعنى.

و (بغيا) مفعول من اجله ليكفروا، و (يكفرون) حال من الفاعل في (قالوا) ، و (وراء) في الأصل: مصدر جعل ظرفا، ويضاف إلى الفاعل ويراد به ما يتوارى به وهو خلفه، وإلى المفعول فيراد به ما يواريه وهو قدامه، ولذلك عد من الأضداد، قاله البيضاوي.

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ١٣١/١

يقول الحق جل جلاله في شأن اليهود: بئس شيئا باعوا به حظ أنفسهم، وهو كفرهم بما أنزل الله، أو بئسما اشتروا به أنفسهم بحسب ظنهم، فإنهم ظنوا أنهم خلصوا أنفسهم من العذاب بما فعلوا، وهو كفرهم بما أنزل الله على محمد نبيه صلى الله عليه وسلم بغيا وحسدا أن يكون النبي من غيرهم، فانقلبوا بغضب على غضب للكفر والحسد لمن هو أفضل الخلق، أو لكفرهم بمحمد- عليه الصلاة والسلام- بعد عيسى عليه السلام، أو لتضييعهم التوراة، وكفرهم بمحمد صلى الله عليه وسلم، وللكافرين عذاب مهين أي: يذلهم ويخزيهم في الدنيا والآخرة، بخلاف عذاب العاصي فإنه كفارة لذنوبه.
وإذا قيل لهؤلاء اليهود: آمنوا بما أنزل الله على محمد صلى الله عليه وسلم قالوا نؤمن بما أنزل علينا من التوراة، وهم يكفرون بما وراءه أي: بما سواه، وهو القرآن، حال كونه مصدقا لما معهم من التوراة ومهيمنا عليه. قل لهم يا محمد: فلم تقتلون أنبياء الله من قبل هذا الزمان، وهو محرم عليكم في التوراة، إن كنتم مؤمنين به؟ فهذا يبطل دعواكم الإيمان بالتوراة إذ الإيمان بالكتاب يقتضي العمل به، وإلا كان دعوى، وإن فعله أسلافكم فأنتم راضون به وعازمون عليه.
الإشارة: اعلم أن قاعدة تفسير أهل الإشارة هي أن كل عتاب توجه لمن ترك طريق الإيمان، وأنكر على أهله يتوجه مثله لمن ترك طريق مقام الإحسان، وأنكر على أهله. وكل وعيد توعد به أهل الكفران يتوعد به من ترك السلوك لمقام الإحسان، غير أن عذاب أهل الكفر حسي بدني، وعذاب أهل الحجاب معنوي قلبي.
فنقول فيمن رضي بعيبه وأقام على مرض قلبه وأنكر الأطباء ووجود أهل التربية: بئسما اشتروا به أنفسهم، وهو كفرهم بما أنزل الله من الخصوصية على قلوب أوليائه بغيا وحسدا، أو جهلا وسوء ظن، أن ينزل الله من فضله على." (١)
"ولما ظهر حسد اليهود واجتهادهم فى الرد على الإسلام، أمر الحق تعالى المسلمين بالعفو والصفح حتى يأذن فى قتالهم، فقال:

[سورة البقرة (٢) : الآيات ١٠٩ الى ١١٠]
ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره إن الله على كل شيء قدير (١٠٩) وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله إن الله بما تعملون بصير (١١٠)
قلت: لو مصدرية مفعول «ود» ، وكفارا: مفعول ثان، وحسدا: مفعول له، علة لود، أو حال من الواو، ومن عند متعلق بود، أي: يتمنوا ذلك من عند أنفسهم وتشهيهم، أو بقوله: «حسدا» ، فالوقف على قوله كفارا، أي: حسدا حاصلا من تلقاء أنفسهم، لم يستندوا فيه إلى شبهة ولا دليل، والعفو: ترك العقوبة بالذنب. والصفح: الإعراض عن المذنب، كأنه يولي عنه صفحة عنقه، فهو أبلغ من العفو.
يقول الحق جل جلاله في التحذير من اليهود وغيرهم من الكفار: تمنى الذين كفروا من أهل الكتاب وغيرهم لو يصرفونكم عن دينكم ويردونكم من بعد إيمانكم بنبيكم كفارا ضالين، كما كنتم قبل الدخول فيه، وذلك حسدا من تلقاء أنفسهم

---
(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ١٣٤/١

غيرة أن تكون النبوة في غيرهم، وذلك من بعد ما تبين لهم الحق وعرفوه كما يعرفون أبناءهم، فاعفوا عن **عتابهم**، وأعرضوا عن تشغيبهم حتى يأتي الله بأمره فيهم بالقتل والجلاء. إن الله على كل شيء قدير، واشتغلوا بما كلفكم به من أداء حقوق العبودية، والقيام بوظائف الربوبية، كإتقان الصلاة وأداء الزكاة، واعلموا أن الله لا يضيع من أعمالكم شيئا، فما تقدموا لأنفسكم ليوم فقركم تجدوه عند الله خيرا وأعظم أجرا، إن الله لا يخفى عليه شيء من أعمالكم وأحوالكم.

نزلت الآية في عمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان، أتيا بيت المدراس «١» ، فألانوا لهم الكلام، فطمعوا في صرفهما عن دينهما، ففضحهم الله ورد كيدهم في نحرهم. والله تعالى أعلم.

الإشارة: من جملة ما دب إلى بعض الطوائف المتجمدين على تقليد أشياخهم: التعصب والحمية على طريق أشياخهم، ولو ظهر الحق عند غيرهم، وخصوصا أولاد الصالحين منهم، فإذا رأوا أحدا ظهرت عليه أنوار الولاية،

---

(١) المدراس- بتقديم الراء على الألف: البيت الذي يدرسون فيه. وقال فى النهاية: مفعال غريب فى المكان.." (١)

"الإشارة: مساجد الله هي حضرة القلوب وحضرة الأرواح وحضرة الأسرار، فحضرة القلوب لأهل المراقبة من أهل الإيمان، وحضرة الأرواح والأسرار لأهل المشاهدة والمكالمة من أهل الإحسان، فمن منع نفسه من الدخول في هذه الحضرات الثلاث، وسعى في خراب باطنه باتباع الحظوظ والشهوات، ومال إلى الدنيا وزخارفها الغرارات، فلا أحد أظلم منه نفسا، ولا أبخس منه صفقة. فلا ينجع في هؤلاء إلا خوف مزعج أو شوق مقلق. فإن لم يكن أحد من هذين بقي على غيه حتى مخايل الموت، فيحن إلى الدخول فيها خائفا، ولا ينفع حينئذ الندم، وقد زلت به القدم، له في الدنيا ذلك الفقر والجزع، وله في الآخرة غم الحجاب وسوء الحساب وحسرة **العتاب**، نسأل الله العافية في الدارين. آمين، بمنه وكرمه.

وقال القشيري: نفس العابد وطن العبادة، وقلب العارف وطن المعرفة، وروح الواجد وطن المحبة، وسر الموحد وطن المشاهدة، ولا أظلم ممن سعى في خراب وطن العابد بالشهوات، وفي وطن المعرفة بالمنى والعلاقات، وفي وطن المحبة بالحظوظ والمساكنات، وفي وطن الموحد بالالتفات إلى القربات. هـ. وبالله التوفيق.

ولما ذكر الحق تعالى تعطيل بعض المساجد والمنع من الصلاة فيها، وسع على عباده فى الصلاة حيث شاءوا، فقال:

[سورة البقرة (٢) : آية ١١٥]

ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله إن الله واسع عليم (١١٥)

قلت: (أينما) شرطية، و (تولوا) شرطها، وجملة (فثم) جوابها، و «ولي» يستعمل بمعنى أدبر وبمعنى أقبل، تقول: وليت عن كذا أو كذا، والوجه هنا بمعنى الجهة، تقول: سافرت في وجه كذا، أي في جهة كذا. قاله ابن عطية.

يقول الحق جل جلاله: ولله المشرق والمغرب، والجهات كلها له، لا يختص ملكه بمكان دون آخر، فإذا منعتم من

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ١/١٥١

الصلاة في المساجد ففي أي مكان كنتم ووليتم وجهكم إلى القبلة التي أمرتم بالتوجه إليها فثم جهته التي أمر بها، أو فثم ذاته المقدسة، أي: عالم مطلع على ما يفعل فيه، إن الله واسع بإحاطته بالإشياء، أو برحمته يريد التوسعة على عباده، عليم بمصالحهم وأعمالهم في الأماكن كلها.

وعن ابن عمر: أنها نزلت في صلاة المسافر على الراحلة حيثما توجهت به، وقيل: في قوم عميت عليهم القبلة فصلوا إلى أنحاء مختلفة، فلما أصبحوا تبينوا خطأهم، وعلى هذا: لو أخطأ المجتهد ثم تبين له الخطأ، لم يلزمه التدارك. قاله البيضاوي.

الإشارة: اعلم أن الأماكن والجهات، وكل ما ظهر من الكائنات، قائمة بأنوار الصفات، ممحوة بأحدية الذات، «كان الله ولا شيء معه، وهو الآن على ما عليه كان» إذ لا وجود لشئ مع الله، فأينما تولوا فثم." (١)

"تنبيه: العلم باعتبار وجوب إظهاره وكتمه على ثلاثة أقسام:

قسم يجب إظهاره، ومن كتمه دخل في وعيد الآية، وهو علم الشريعة الظاهرة، إذا تعين على المسئول بحيث لم يوجد من يفتي في تلك النازلة.

وقسم يجب كتمه، وهو علم سر الربوبية، أعني التوحيد الخاص، فهذا لا يجوز إفشاؤه إلا لأهله، وهو من بذل نفسه وفلسه وخرق عوائد نفسه، فهذا لا يحل كتمه عنه إذا طلبه.

وقسم يستحب كتمه، وهو أسرار القدر المغيبات، فهذا من باب الكرامات يستحب كتمها ولا يجب، والله تعالى أعلم.

هنا انتهى **العتاب** لبني إسرائيل والكلام معهم، وابتداؤه من قوله تعالى: يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم..،. وإنما تخلل الكلام ذكر إبراهيم وبنيه توطئة لنسخ القبلة الذي أنكروه، فذكر بناء الكعبة وبيان شرفها، وانجر الكلام إلى ذكر الصفا والمروة لقرب المناسبة والجوار.

فلما فرغ من **عتابهم** دلهم على التوحيد، وشاركهم فى ذلك غيرهم، فقال:

[سورة البقرة (٢) : الآيات ١٦٣ الى ١٦٤]

وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم (١٦٣) إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون (١٦٤)

قلت: إلهكم إله واحد مبتدأ وخبر، وجملة لا إله إلا هو: تقرير لها وتأكيد، والرحمن الرحيم: خبران آخران، أو عن مبتدأ مضمر، وأنث الفلك لأنه بمعنى السفينة، ومن السماء ابتدائية، ومن ماء بيانية، وبث: عطف على أنزل أو فأحيا لأن الحيوانات تنمو بنزول المطر والخصب، والبث: النشر والتفريق وتصريف الرياح: هبوبها من الجهات المختلفة.

يقول الحق جل جلاله: وإلهكم يا معشر العباد الذي يستحق ان يعبد إله واحد لا شريك له، ولا نظير، ولا ضد له ولا

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ١/١٥٥

ند، لا إله إلا هو، إذ لا يستحق العبادة غيره، إذ هو الرحمن بنعمة الإيجاد الرحيم بنعمة الإمداد، فكل ما سواه مكون مخلوق، إما منعم عليه أو نعمة، فلم يستحق العبادة غيره.." (١)

"زللتم واعترضتم، أو سخطتم، من بعد ما جاءتكم الآيات البينات الدالة على وحدانية الحق في ذاته وصفاته وأفعاله، فاعلموا أن الله عزيز حكيم، لا يعجزه عقوبتكم وإبعادكم، لكنه من حكمته يمهل ولا يهمل، والله غالب على أمره، ومن تاب تاب الله عليه.

ثم ذكر وعيد من خالف أمره، فقال:

[سورة البقرة (٢) : آية ٢١٠]

هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة وقضي الأمر وإلى الله ترجع الأمور (٢١٠)

قلت: (الظلل) : جمع ظله، وهي ما أظلك من فوق، و (الغمام) : السحاب الرقيق الأبيض.

يقول الحق جل جلاله: ما ينتظر هؤلاء الممتنعون من الدخول في شرائع الإسلام- إلا أن تقوم الساعة، ويأتيهم الله للفصل بين عباده في ظلل من الغمام، بأن يتجلى لعباده على ما يليق بجلاله إذ تجليات الحق لا تنحصر. وتأتيهم الملائكة تحيط بهم وقضي الأمر بعذابهم، وإلى الله ترجع الأمور كلها، فهو المتصرف وحده. وقد ذكر المنذري حديث هذا التجلي بطوله، وذكر فيه النزول والفصل بين عباده، والمرور على الصراط، والناس في أنوار إيمانهم. وذكره الفاسي في الحاشية بتمامه. ومن كحل عين بصيرته بإثمد «١» التوحيد الخاص، لم يستصعب عليه فهم هذا الحديث وأمثاله لسعة دائرة معرفته. والله تعالى أعلم.

الإشارة: في الآية تهديد لأهل الحجاب الذين لم يتحققوا بالصلح مع الله، بل هم يخاصمون الله في مظاهر خلقه، ويعترضون على الله في قضائه وحكمه، فقال لهم الحق جل جلاله: هل ينتظر هؤلاء المنكرون علي في أفعالي، المعترضون علي في حكمي وإبرامي- إلا أن أتعرف لهم في ظلل من الغمام، وهو سحب الآثار، فإذا أنكروني أخذتهم الملائكة، وقضي الأمر بهلاكهم، وإلى الله ترجع الأمور كلها، فليلتزم العبد الأدب مع مولاه، وليسلم الأمور كلها إلى الله، إذ لا موجود سواه «٢» ، فما برز من العباد: كله من الله، فمن اشتغل بعتابهم فاته الأدب مع الله، إلا ما أمرت به الشريعة، فليكن في ذلك كالعبد يؤدب ابن سيده يده تؤدب وقلبه يعظم، والله تعالى أعلم وأرحم.

---

(١) الإثمد: حجر يتخذ منه الكحل. وقيل: هو نفس الكحل.

(٢) أي: لا موجود بحق.." (٢)

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ١/١٩٠

(٢) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ١/٢٣٦

"يقول الحق جل جلاله: يسئلونك يا محمد عن الشهر الحرام أي: عن القتال فى الأشهر الحرم، قل لهم: القتال في الشهر الحرام أمره كبير، لكن ما وقع من الكفار من صد الناس عن سبيل الله أي:

منعهم من الإسلام والطاعة، وكذلك كفرهم بالله وصدهم المسلمين عن المسجد الحرام عام الحديبية، وإخراج المسلمين من مكة التي هي بلدهم- والفتنة التي هم فيها من الكفر، وافتتان الناس عن دينهم- أكبر جرما من القتال الذي وقع في الشهر الحرام تأويلا وظنا أنه لم يدخل الشهر الحرام.

وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث سرية وأمر عليها عبد الله بن جحش في آخر جمادى الآخرة، فلقوا عمرو بن الحضرمي، مع أناس من قريش، بعد غروب الشمس من جمادى الآخرة، فرموا عمرا فقتلوه، وأخذوا الغنيمة، فقال لهم عليه الصلاة والسلام: «لم آمركم أن تقتلوا في الشهر الحرام» فندموا، وبعثت قريش **بالعتاب** للنبي صلى الله عليه وسلم: كيف تستحل القتال في الشهر الحرام؟ فنزلت هذه الآية. ثم نسخ تحريم القتال في الأشهر الحرم بقوله تعالى: وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة.

ثم قال الحق جل جلاله في التحذير من الكفار: ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا، لكن لا يطيقون ذلك، ومن يرتدد منكم عن دينه ويستمر عليه حتى يموت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا فلا حرمة له، ولا نصيب له في الفيء والغنيمة، وفي الآخرة فلا يرى لها ثوابا، وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون.

ومفهوم الآية: أنه إن رجع قبل الموت لا يحبط عمله، وهو قول الشافعي. وقال مالك: يحبط أجر كل ما عمل، ويعيد الحج، إن تقدم على الردة، ويقبل منه الإسلام إن رجع، فإن لم يرجع أمهل ثلاثة أيام، ثم يقتل.

ولما نزلت الآية في إسقاط الحرج، ظنوا أنه لا أجر لهم في ذلك الجهاد، فأنزل الحق جل جلاله: إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل اله أولئك يرجون رحمت الله أي ثوابه، والله غفور لهم رحيم بهم، فلا يضيع جهادهم في هذه السرية، وأعاد الموصول لتعظيم شأن الهجرة والجهاد، وعبر بالرجاء إشعارا بأن العمل غير موجب للثواب، وإنما هو عبودية، والأمر بيد الله إن شاء أثاب وإن شاء عاقب، لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون.

الإشارة: تعظيم الزمان والمكان يكون بقدر ما يقع فيه من طاعة الملك الديان، فالزمان الذي تهب فيه نفحات القبول والإقبال، لا ينبغي أن يقع فيه ملاجحة ولا قتال، وهو وقت حضرة الذكر، أو التذكير، أو الجلوس مع." (١)

"وقال بعضهم: طالب الدنيا كشارب ماء البحر، كلما زاد شربه ازداد عطشه. هـ. وقال صلى الله عليه وسلم: «من أشرب قلبه حب الدنيا التاط «١» منها بثلاث: بشغل لا ينفد عناه، وأمل لا يبلغ منتهاه، وحرص لا يدرك مداه» وقال عيسى عليه السلام: الدنيا مزرعة لإبليس، وأهلها حراث له. هـ. وقال على رضي الله عنه: الدنيا كالحية: لين مسها، قاتل سمها، فكن احذر ما تكون منها، أسر ما تكون بها فإن من سكن منها إلى إيناس أزاله عنها إيحاش.

وقال عليه الصلاة والسلام: «من هوان الدنيا على الله أنه لا يعصى إلا فيها، ولا ينال ما عنده إلا بتركها» .

وقال سيدنا علي- كرم الله وجهه-: أول الدنيا عناء، وآخرها فناء، حلالها حساب، وحرامها عقاب، ومتشابهها **عتاب**،

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٢٤٤/١

من استغنى فيها فتن، ومن افتقر فيها حزن. هـ. وقيل: الدنيا تقبل إقبال الطالب، وتدبر إدبار الهارب، وتصل وصال الملول، وتفارق فراق العجول، خيرها يسير، وعمرها قصير، ولذاتها فانية، وتبعاتها باقية.

وقال عيسى عليه السلام: تعملون للدنيا، وأنتم ترزقون فيها بغير عمل، ولا تعملون للآخرة وأنتم لا ترزقون فيها إلا بالعمل. هـ. وقيل: أوحى الله إلى الدنيا: من خدمني فاخدميه، ومن خدمك فاستخدميه.

وكان عمر بن عبد العزيز يتمثل بهذه الأبيات «٢» :

نهارك يا مغرور سهو وغفلة ... وليلك نوم، والأسى لك لازم

تسر بما يفنى، وتفرح بالمنى ... كما سر باللذات في النوم حالم

وشغلك فيها سوف تكره غبه ... كذلك في الدنيا تعيش البهائم

وقال آخر «٣» :

هي الدار دار الأذى والقذى ... ودار الفناء ودار الغير

فلو نلتها بحذافيرها ... لمت ولم تقض منها الوطر

أيا من يؤمل طول الخلود ... وطول الخلود عليه ضرر

إذا ما كبرت وفات الشباب ... فلا خير في العيش بعد الكبر

---

(١) التاط: أي التصق.

(٢) الأبيات لمسعر بن كدام، كما فى حلية الأولياء ٧/ ٢٢٠

(٣) وهو أبو العتاهية.." (١)

"سورة آل عمران

مدنية. وآياتها: مائتان، وقيل: مائة وسبع وثمانون. وكلماتها: ثلاثة آلاف وأربعمائة وثمانون كلمة، ومناسبتها لما قبلها: قوله تعالى فى أولها: إن الذين كفروا بآيات الله ... إلخ، فكأنه تتميم لقوله، فانصرنا على القوم الكافرين، وتفسير له.

ومضمنها: توجيه العتاب لثلاث طوائف: للنصارى لغلوهم في عيسى عليه السلام، ولامتناعهم من الدخول فى الإسلام، وبسببهم نزلت السورة، أعنى نصارى نجران، ولليهود لتفريطهم فى اتباع النبي- عليه الصلاة والسلام- وللمسلمين لما وقع لهم من الفشل يوم أحد، ولذلك افتتح السورة بذكر الكتب الثلاثة، إذ لو قاموا بحقوقها ما توجه لهم عتاب، فقال:

[سورة آل عمران (٣) : الآيات ١ الى ٣]

بسم الله الرحمن الرحيم

الم (١) الله لآ إله إلا هو الحي القيوم (٢) نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل (٣)

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٢٧٨/١

قلت: فواتح السور كلها موقوفة خالية عن الإعراب لفقدان موجبه ومقتضيه، فيوقف عليها بالسكون، كقولهم: واحد، اثنان. وإنما فتح الميم هنا في القراءة المشهورة لإلقاء حركة الهمزة عليها. انظر البيضاوي. قال ابن عباس رضي الله عنه: (الألف آلاؤه، واللام لطفه، والميم ملكه) .

قلت: ولعل كل حرف يشير إلى فرقة ممن توجه **العتاب** إليهم، فالآلاء لمن أسلم من النصارى، واللطف لمن أسلم من اليهود، والملك لمن أسلم من الصحابة- رضوان الله عليهم-، فقد ملكهم الله مشارق الأرض ومغاربها. والله تعالى أعلم.

يقول الحق جل جلاله: أيها الملك المعظم، والرسول المفخم، بلغ قومك أن الله واحد في ملكه، ليس معه إله، ولا يحب أن يعبد معه سواه إذ لا يستحق أن يعبد إلا الحي القيوم، الذي تعجز عن إدراكه العقول ومدارك الفهوم، قائم بأمر عباده، متصرف فيهم، على وفق مراده، فأعذر إليهم على ألسنة المرسلين، وأنزل عليهم الكتب بيانا للمسترشدين، فنزل عليك الكتاب منجما في عشرين سنة، متلبسا بالحق، حتى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، أو متلبسا بالحجج التي تدفع كل باطل، أو بالعدل حتى ينتفي به جور كل مائل، مصدقا لما تقدم قبله من الكتب الإلهية إذ هو موافق لما فيها من القصص والأخبار، فكان شاهدا عليها بالصحة والإبرار.." (١)

"روى عن عائشة- رضي الله عنها-: أن النبي صلى الله عليه وسلم- قرأ هذه الآية فقال: «إذا رأيتم الذين يسألون عن المتشابه منه، ويجادلون فيه، فهم الذين عنا الله تعالى، فاحذروهم، ولا تجالسوهم» .

(وما يعلم تأويله) على الحقيقة (إلا الله) تعالى، وقد يطلع عليه بعض خواص أوليائه، وهم (الراسخون) أي: الثابتون في العلم، وهم العارفون بالله أهل الفناء والبقاء، وهم أهل التوحيد الخاص ... فقد أطلعهم تعالى على أسرار غيبه، فلم يبق عندهم متشابه في الكتاب ولا في السنة، حال كونهم (يقولون آمنا به) ، وصدقنا أنه من كلامه، (كل من عند ربنا) المحكم والمتشابه، وقد فهمنا مراده في القسمين، وهم أولو الألباب، ولذلك مدحهم فقال:

(وما يذكر إلا أولوا الألباب) أي: القلوب الصافية من ظلمة الهوى وغبش الحس.

سئل عليه الصلاة والسلام: من الراسخون في العلم؟ فقال: «من بر يمينه، وصدق لسانه، واستقام قلبه، وعف بطنه وفرجه، فذلك الراسخ في العلم» . وقال نافع بن يزيد: الراسخون في العلم: المتواضعون لله، المتذللون في طلب مرضات الله، لا يتعظمون على من فوقهم، ولا يحقرون من دونهم. هـ. وقيل: الراسخ في العلم: من وجد فيه أربعة أشياء: التقوى بينه وبين الله، والتواضع بينه وبين الخلق، والزهد بينه وبين الدنيا، والمجاهدة بينه وبين نفسه. هـ. قلت: ويجمع هذه الأوصاف العارف بالله، فهو الراسخ في العلم كما تقدم.

ويقولون أيضا في تضرعهم إلى الله: ربنا لا تزغ قلوبنا عن نهج الحق بالميل إلى اتباع الهوى، بعد إذ هديتنا إلى طريق الوصول إلى حضرتك، وهب لنا من لدنك رحمة تجمع قلوبنا بك، وتضم أرواحنا إلى مشاهدة وحدانيتك، إنك أنت الوهاب تهب للمؤمل فوق ما يؤمل. ربنا إنك جامع الناس ليوم الجزاء الذي لا ريب فيه، فاجمعنا مع المقربين إنك لا يخلف الميعاد، فأنجز لنا ما وعدتنا في ذلك اليوم. وخلف الوعد في حقه تعالى محال. أما الوعد بالخير فلا إشكال،

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٣٢١/١

وأما الوعيد بالشر، فإن كان في معين فلا يخلفه، وإن كان في الجملة فيخلفه بالعفو. والله تعالى أعلم.
وقال في النوادر أيضا: لما رد الراسخون في العلم علم المتشابه إلى عالمه، حيث قالوا: آمنا به كل من عند ربنا، خافوا شره النفوس لطلبها فإن العلم لذيذ، وفتنة تلك اللذة لها **عتاب**، ففزعوا إلى ربهم فقالوا: ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة، علموا أن الرحمة تطفئ تلك الفتنة. ولما كان يوم القيامة ينكشف فيه سر القدر حنوا إليه فقالوا: ربنا إنك جامع الناس ... الآية. سكنوا نفوسهم لمجيء ذلك اليوم الذي تبطن فيه الحكمة، وتظهر فيه القدرة. هـ. بالمعنى.
الإشارة: إذا صفت القلوب، وسكنت في حضرة علام الغيوب، تنزلت عليها الواردات الإلهية والعلوم اللدنية، والمواهب القدسية، فمنها ما تكون محكمات المبنى، واضحات المعنى، ومنها ما تكون مجملة في حال ورودها،." (١)
"وقال آخر:
من فاته طلب الوصول ونيله ... منه، فقل: ما الذي هو يطلب!
حسب المحب فناؤه عما سوى ... محبوبه إن حاضر ومغيب
وقال آخر:
لكل شيء إذا فارقته عوض ... وليس لله إن فارقت من عوض
وفي الحكم: «ماذا وجد من فقدك؟ وما الذي فقد من وجدك؟ لقد خاب من رضي دونك بدلا، ولقد خسر من بغى عنك متحولا» . فكل من وقف مع شيء من السوى، وفاته التوجه إلى معرفة المولى، فهو في نار القطيعة والهوى، مع النفوس الفرعونية، وأهل الهمم الدنية. نسأل الله تعالى العافية.
ثم بدأ **بعتاب** اليهود، بعد أن قرر شأن كتابه العزيز وما اشتمل عليه من المحكم والمتشابه، توطئة للكلام معهم، فقال:

[سورة آل عمران (٣) : الآيات ١٢ الى ١٣]
قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد (١٢) قد كان لكم آية في فئتين التقتا فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأي العين والله يؤيد بنصره من يشاء إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار (١٣)
قلت: لما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة بدر غالبا منصورا بالغنائم والأسارى، جمع اليهود في سوق بني قينقاع، وقال لهم: يا معشر اليهود، اتقوا الله وأسلموا، فإنكم تعلمون أني رسول الله حقا، واحذروا أن ينزل الله بكم من نقمته ما أنزل على قريش يوم بدر، فقالوا: يا محمد، لا يغرنك لا أنك لقيت أغمارا لا علم لهم بالحرب، لئن قاتلتنا لتعلمن أنا نحن الناس. فأنزل الله فيهم هذه الآية.
يقول الحق جل جلاله: قل يا محمد للذين كفروا من بني إسرائيل، أو مطلقا: ستغلبون إن قاتلتم المسلمين، وتحشرون بعد الموت والهزيمة إلى جهنم وبئس المهاد ما مهدتم لأنفسكم من العذاب، وقد صدق وعده بقتل قريظة، وإجلاء بني

---
(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ١/٣٢٥

النضير، وفتح خيبر، وضرب الجزية على من عداهم. فقد غلبوا أينما ثقفوا، وحشروا إلى جهنم، إلا من أسلم منهم.
ثم ندبهم للاعتبار بما وقع من النصر للمسلمين يوم بدر فقال لهم: قد كان لكم يا معشر اليهود، آية أي:
عبرة ظاهرة، ودلالة على صدق ما أقول لكم: إنكم ستغلبون، في فئتين أي: جماعتين التقتا يوم بدر، وهم." (١)
"ثم شرع فى معاتبة اليهود وذكر مساوئهم، فقال:

[سورة آل عمران (٣) : الآيات ٦٩ الى ٧١]
ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم وما يضلون إلا أنفسهم وما يشعرون (٦٩) يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون (٧٠) يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون (٧١)
قلت: (لو) : مصدرية، أي: تمنوا إضلالكم.
يقول الحق جل جلاله لبعض المسلمين- وهم حذيفة وعمار ومعاذ- دعاهم اليهود إلى دينهم وطمعوا فيهم:
ودت طائفة أي: تمنت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم أي: يفتنونكم عن دينكم، ويتلفونكم عن طريق الحق، وما يضلون إلا أنفسهم لأن المسلمين لا يقبلون ذلك منهم، فرجع الضلال عليهم، وعاد وباله إليهم، وتضاعف عذابه عليهم، وما يشعرون أن وباله راجع إليهم.
ثم صرح الحق تعالى **بعتابهم**، فقال: يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله المنزلة على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وتجحدون رسالته؟ وأنتم تشهدون أنها من عند الله، وأنه نبي الله، وهو منعوت عندكم في التوراة والإنجيل، والمراد أحبارهم، أو تشهدون أنه نبي الله بالمعجزات الواضحات. يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل بالتحريف وإبراز الباطل في صورة الحق، حتى كتمتم نعت محمد وحرفتموه، وأظهرتم موضعه الباطل الذي سولت لكم أنفسكم؟ وتكتمون الحق نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، وأنتم تعلمون أنه رسول الله حقا وأن دينه حق، أو:
وأنتم عالمون بكتمانكم.
الإشارة: ترى كثيرا من أهل الرئاسة والجاه من أولاد الصالحين، وممن ينتسب لهم، إذا رأوا من ظهر بالخصوصية في زمانهم يتمنون إضلالهم وإطفاء أنوارهم، خوفا على زوال رئاستهم، وما يضلون إلا أنفسهم وما يشعرون، (والله متم نوره ولو كره الكافرون) ، وهذه نزعة يهودية سببها الحسد، والحسود لا يسود، وبعضهم يتحقق بخصوصية غيرهم، فيكتمها وهو يشهد بصحتها، فيقال لهم: لم تكفرون ب آيات الله وأنتم تشهدون؟ ولم تلبسون الحق بالباطل، وتكتمون الحق وأنتم تعلمون؟.
ثم ذكر الحق- تعالى- خدع أهل الكتاب وحيلهم الفارغة، فقال:

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ١/٣٢٧

[سورة آل عمران (٣) : آية ٧٢]

وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون (٧٢)." (١)

"انقادوا طائعين، وأهل الأرض منهم من انقاد طوعا بالنظر واتباع الحجة أو بغيرها، ومنهم من انقاد كرها أو بمعاينة ما يلجئ إلى الإسلام كنتق الجبل وإدراك الغرق والإشراف على الموت، أو: «طوعا» كالملائكة والمؤمنين، فإنهم انقادوا لما يراد منهم طوعا، (وكرها) كالكفار فانقادوا لما يراد منهم كرها، وكل إليه راجعون، لا يخرج عن دائرة حكمه، أو راجعون إليه بالبعث والنشور. والله تعالى أعلم.

الإشارة: اعلم أن الدين الحقيقي هو الانقياد إلى الله في الظاهر والباطن، أما الانقياد إلى الله في الظاهر فيكون بامتثال أمره واجتناب نهيه، وأما الانقياد إلى الله في الباطن فيكون بالرضى بحكمه والاستسلام لقهره.

فكل من قصر في الانقياد في الظاهر، أو تسخط من الأحكام الجلالية في الباطن، فقد خرج عن كمال الدين، فيقال له: أفغير دين الله تبغون وقد انقاد له (من في السموات والأرض طوعا وكرها) ، فإما أن تنقاد طوعا أو ترجع إليه كرها. وفي بعض الآثار يقول الله تبارك وتعالى: «من لم يرض بقضائي ولم يصبر على بلائي، فليخرج من تحت سمائي، وليتخذ ربا سواي» .

وسبب تبرم القلب عن نزول الأحكام القهرية مرضه وضعف نور يقينه، فكل من استنكف عن صحبة الطبيب، فله من هذا **العتاب** حظ ونصيب، فالأولياء حجة الله على العلماء، والعلماء حجة الله على العوام، فمن لم يستقم ظاهره عوتب على تفريطه في صحبة العلماء، ومن لم يستقم باطنه عاتبه الله تعالى على ترك صحبة الأولياء، أعني العارفين. وبالله التوفيق، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

ثم بين الحق- تعالى- حقيقة الإيمان والإسلام الذي يجب اتباعه على جميع الأنام، فقال:

[سورة آل عمران (٣) : آية ٨٤]

قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون (٨٤)

قلت: (أنزل) : يتعدى بإلى لأنه ينتهي إلى الرسل، ويتعدى بعلى، لأنه يأتي من ناحية العلو والاستعلاء، وفرق بعضهم بين التعبير هنا بعلى وفي البقرة بإلى، فقال: لأن الخطاب هنا للرسول بالخصوص، وقد أنزل عليه الوحي مباشرة، وهناك الخطاب للمسلمين، وإنما أنزل الوحي متوجها إليهم بالواسطة، ولم يكن عليهم بالمباشرة.

والله تعالى أعلم.." (٢)

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٣٦٧/١

(٢) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٣٧٦/١

"الإشارة: قد وضع الله للناس بيتين: أحدهما حسي، وهو الكعبة، والآخر معنوي، وهو القلب، الذي هو بيت الرب، فما دام بيت القلب خاليا من نور الرب اشتاق إلى حج البيت الحسي، فإذا تعمر البيت بنور ساكنه، صار قبلة لغيره، واستغنى عن الالتفات إلى غير نور ربه، بل صار كعبة تطوف به الواردات والأنوار، وتحفه المعارف والعلوم والأسرار، ثم يصير قطب دائرة الأكوان، وتدور عليه من كل جانب ومكان، فكيف يشتاق هذا إلى الكعبة الحسية «١» ، وقد طافت به دائرة الوفود الكونية؟ ولله در الحلاج رضي الله عنه حيث قال:

يا لائمي لا تلمني في هواه فلو ... عاينت منه الذي عاينت لم تلم

للناس حج ولي حج إلى سكني ... تهدى الأضاحي، وأهدي مهجتي ودمي

يطوف بالبيت قوم لا بجارحة، ... بالله طافوا فأغناهم عن الحرم «٢» .

في هذا البيت آيات واضحات، وهي إشراق شموس المعارف والأنوار، فى فضاء سماء الأرواح والأسرار، وسطوع أنوار قمر التوحيد في أرض التجريد والتفريد، وظهور أنوار نجوم العلم والحكم، في أفق سماء ارتفاع الهمم، فهذا كان مقام إبراهيم، إمام الموحدين، فمن دخله كان آمنا من الطرد والبعاد إلى يوم الدين، ومن كفر وجوده فإن الله غني عن العالمين. قال في الحاشية في قوله: (ومن دخله كان آمنا) ، قيل: وهكذا من دخل في قلب ولي من أوليائه، فإن قلب العارف حرم المراقبات والمشاهدات. هـ. وبالله التوفيق، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

ثم رجع الحق تعالى إلى معاتبة أهل الكتاب، فقال:

[سورة آل عمران (٣) : الآيات ٩٨ الى ٩٩]

قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله والله شهيد على ما تعملون (٩٨) قل يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجا وأنتم شهداء وما الله بغافل عما تعملون (٩٩)

قلت: (تبغونها) : جملة حالية من الواو، أي: لم تصدون عن السبيل باغين لها عوجا. والعوج- بالكسر- في الدين والقول والعمل-، وبالفتح- في الجدار والحائط وكل شخص قائم.

يقول الحق جل جلاله: قل يا محمد في **عتابك** لليهود: يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله السمعية والعقلية الدالة على صدق نبيه صلى الله عليه وسلم فيما يدعوكم إليه من الإسلام؟ والله شهيد على ما تعملون مطلع على سرها وجهرها، فيجازيكم عليها، فلا ينفعكم التحريف ولا الإسرار.

---

(١) الصالحون فى كل وقت يشتاقون إلى الكعبة المشرفة، فهى قبلتهم فى الصلاة. وإليها يكون حج من استطاع منهم. وهى فى بلد ولد فيها سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكيف لا يشتاقون إليها!!.

(٢) لو أن الله أغنى أحدا عن الحرم لأغنى سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم. [.....]." (١)

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٣٨٥/١

"يا أهل الكتاب لم تصدون عن طريق الله من آمن بها، وتبع من جاء بها، تبغونها عوجا أي:
طالبين لها اعوجاجا، بأن تلبسوا على الناس، وتوهموا أن فيها عوجا عن الحق، بزعمكم أن التوراة لا تنسخ، وبتغيير صفة الرسول- عليه الصلاة والسلام، أو بأن تحرشوا بين المسلمين لتختلف كلمتهم، ويختل أمر دينهم، وأنتم شهداء على أنها حق، وأن الصد عنها ضلال، أو: وأنتم عدول عند أهل ملتكم، يثقون بأقوالكم، ويستشهدونكم في القضايا، وما الله بغافل عما تعملون فلا بد ان يجازيكم على أعمالكم، فإنه يمهل ولا يهمل.
كرر الخطاب والاستفهام مرتين مبالغة في التقريع ونفي العذر، وإشعارا بأن كل واحد من الأمرين مستقبح في نفسه، مستقل باستجلاب العذاب. ولما كان المنكر عليهم في الآية الأولى: كفرهم، وهم يجهرون به، ختم بقوله:
والله شهيد على ما تعملون، ولما كان في هذه الآية: صدهم المؤمنين عن الإسلام، وكانوا يخفونه ويحتالون فيه، قال:
وما الله بغافل عما تعملون. قاله البيضاوي.
الإشارة: كل من جحد وجود الخصوصية عند أهلها، وصد القاصدين للدخول فيها، استحق هذا **العتاب** بلا شك ولا ارتياب. والله تعالى أعلم.
ثم حذر المؤمنين من الاستماع لهم، فقال:

[سورة آل عمران (٣) : الآيات ١٠٠ الى ١٠٢]
يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين (١٠٠) وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم (١٠١) يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون (١٠٢)
يقول الحق جل جلاله: يا أيها الذين آمنوا، الخطاب عام، والمراد: نفر من الأوس والخزرج، إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب، وهو شاس بن قيس اليهودي، كان شيخا كبيرا، وكان عظيم الكفر شديد الضغن على المسلمين، مر بنفر من الأوس والخزرج، جلوسا يتحدثون، وكان بينهما عداوة في الجاهلية، فغاظه تآلفهم واجتماعهم، وقال: قد اجتمع ملأ بني قيلة بهذه البلاد، فما لنا معهم قرار، فأمر شابا من اليهود أن يجلس بينهم ويذكرهم يوم بعاث- وهو يوم حرب كان بينهم في الجاهلية- وينشدهم بعض ما قيل فيه، وكان الظفر في ذلك اليوم للأوس، ففعل، وتنازع القوم وتفاخروا وتغاضبوا، وقالوا: السلاح السلاح، واجتمع من القبيلتين خلق عظيم، فتوجه إليهم رسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه، فقال: «أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم، بعد إذ أكرمكم الله بالإسلام، وقطع به عنكم أمر الجاهلية، وألف بينكم؟» فعلموا أنها نزغة من الشيطان وكيد من عدوهم، فألقوا السلاح، واستغفروا، وعانق بعضهم بعضا، وانصرفوا مع الرسول- صلوات الله عليه وسلامه- فنزلت الآية.." (١)

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ١/٣٨٦

"ما فعل من الادالة ليعلم، أو عطف على علة محذوفة، أي: نداولها ليكون كيت وكيت، وليعلم ... الخ، إيذانا بأن العلة فيه غير واحدة، وأن ما يصيب المؤمن: فيه من المصالح ما لا يعلم، و (يعلم الصابرين) : منصوب بأن، على أن الواو للجمع.

يقول الحق جل جلاله: إن يمسسكم في غزوة أحد قرح كقتل أو جرح، فقد مس القوم من أعدائكم يوم بدر قرح مثله، فإن كان قتل منكم خمسة وسبعون يوم أحد، فقد قتل منهم يوم بدر سبعون وأسر سبعون. أو: فقد مس القوم يوم أحد قرح مثل ما أصابكم، فإنكم نلتم منهم وهزمتموهم، قبل أن تخالفوا أمر الرسول- عليه الصلاة والسلام-، كما نالوا منكم يومئذ. وتلك الأيام نداولها بين الناس أي: نصرف دولتها بينهم، فنديل لهؤلاء تارة ولهؤلاء أخرى، كما قال الشاعر:

فيوم علينا، ويوم لنا، ... ويوم نساء، ويوم نسر «١»

فقد أديل المسلمون على المشركين يوم بدر، فكانت الدولة لهم، وأديل المشركون يوم أحد. والمراد بالأيام: أيام الدنيا، أو أيام النصر والغلبة. وإنما أديل للمشركين يوم أحد ليتميز المؤمنون من المنافقين، ويظهر علمهم للناس، وليتخذ الله منكم شهداء حين ماتوا في الجهاد، أكرمهم الله بالشهادة، ولا تدل إدالة المشركين على أن الله يحبهم، فإن الله لا يحب الظالمين. وإنما أدالهم ليمحص الله الذين آمنوا أي: ليطهرهم ويصفيهم من الذنوب، وأنما أدال المسلمين على المشركين ليمحق الكافرين ويقطع دابرهم. والمحق: نقص الشيء قليلا قليلا.

ثم عاتب المسلمين فقال: أم حسبتم أي: ظننتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم علم ظهوره، ويعلم الصابرين أي: لا تظنوا أن تدخلوا الجنة كما دخلها من قتل منكم، ولم يقع منكم مثل ما وقع لهم من الجهاد والصبر على القتل والجرح حتى يقع العلم ظاهرا بجهادكم وصبركم.

ولقد كنتم قبل خروجكم إلى الجهاد تمنون الموت أي: الحرب لأنه سبب الموت، وتقولون: ليت لنا يوما مثل يوم بدر، فلقد لقيتموه وعاينتموه يوم أحد وأنتم تنظرون من مات من إخوانكم، فما لكم حين رأيتموه جبنتم وانهزمتم؟ وهو **عتاب** لمن طلب الخروج يوم أحد، ثم انهزم عن الحرب، ثم تداركهم بالتوبة والعفو، على ما يأتي إن شاء الله. والله تعالى أعلم.

الإشارة: إن يمسسكم يا معشر الفقراء قرح كحبس أو ضرب أو سجن أو حرج أو جلاء، فقد مس العموم مثل ذلك، غير أنكم تسيرون به إلى الله تعالى لمعرفتكم فيه، وهم لا سير لهم لعدم معرفتهم، أو إن يمسسكم قرح فقد مس القوم المتقدمين من أهل الخصوصية مثل ما أصابكم، ففيهم أسوة لكم، وهذه عادة الله في أوليائه، يديل عليهم حتى يتطهروا ويتخلصوا، ثم يديل لهم، وإنما أديل عليهم أولا ليتطهروا من البقايا وتكمل فيهم المزايا، وليعلم

---

(١) البيت للنمر بن كولب، كما ورد فى الكتاب لسيبويه ١/ ٨٦.." (١)

"المخالفة، وذلك درجة الأول من الولاية، والأبرار أهل الاستقامة في المعرفة، وبين أن أهل التقوى في الجنة، والأبرار في الحضرة. هـ.

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ١/٤١٣

ولما عاتب الحق تعالى، فيما تقدم، أهل الكتاب، وكان فيهم من لا يستحق **العتاب** لاتباعه الحق والصواب، أخرجه الحق تعالى بقوله:

[سورة آل عمران (٣) : آية ١٩٩]
وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمنا قليلا أولئك لهم أجرهم عند ربهم إن الله سريع الحساب (١٩٩)
يقول الحق جل جلاله: وإن من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأصحابه ممن أسلم من اليهود، لمن يؤمن بالله إيمانا حقيقيا، وما أنزل إليكم من القرآن، وما أنزل إليهم من التوراة، حال كونهم خاشعين لله خاضعين مخبتين وافين بالعهد، لا يشترون بآيات الله ثمنا قليلا، كما فعل المحرفون من أحبار اليهود، أولئك لهم أجرهم عند ربهم أي: ما وعدوا به من تضعيف أجرهم مرتين، إن الله سريع الحساب فيسرع إلى توفية أجورهم وإكرام منقلبهم لأن الله عالم بالأعمال وما تستوجبه من النوال، فلا يحتاج إلى تأمل ولا احتياط لأنه غني عن التأمل والاحتياط.
وقيل: نزلت في النصارى: أربعين من نجران، واثنين وثلاثين من الحبشة، قدموا على النبي صلى الله عليه وسلم وأسلموا.
وقيل: نزلت في النجاشي، لما نعاه جبريل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فخرج- عليه الصلاة والسلام-، وصلى عليه، فقال المنافقون: انظروا إلى هذا، يصلي على علج «١» نصراني، فنزلت الآية. والله تعالى أعلم.
الإشارة: قد رأينا بعض الفقهاء حصل لهم الإيمان بخصوص أهل زمانهم، فتحققوا بولايتهم، ونالوا شيئا من محبتهم، لكن لم تساعفهم الأقدار في صحبتهم، فظهرت عليهم آثار أنوارهم، واقتبسوا شيئا من أسرارهم، فتنورت سريرتهم، وكملت شريعتهم، وأظهر عليهم آثار الخشوع، وأخذوا حظا من التواضع والخضوع، متخلقين بالقناعة والورع، قد ذهب عن قلبهم ما ابتلى به غيرهم من الجزع والهلع، فلا جرم أن هؤلاء لهم أجرهم مرتين: أجر ما تحملوا من الشريعة لنفع العوام، وأجر ما اكتسبوا من محبة القوم «المرء مع من أحب» . وبالله التوفيق، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

---

(١) العلج: الرجل القوى الضخم.." (١)

"ولما كان الصبر من الدين كالرأس من الجسد، فلو حصل للناس دائما لم يتوجه **العتاب** لأحد، ختم به السورة، التي عاتب فيها جل العباد، فقال:

[سورة آل عمران (٣) : آية ٢٠٠]
يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون (٢٠٠)
قلت: المرابطة: أن يربط هؤلاء خيولهم، وهؤلاء خيولهم، إرصادا لمن حاربهم، ثم أطلق على كل مقيم في ثغر يدفع عمن

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ١/٤٥٦

وراءه، وإن لم يكن له مركب، إذا كان بنية الدفع عن المسلمين كان بأهله أو وحده. المدار على خلوص النية، خلاف ما قاله ابن عطية «١» ، وسيأتي صوابه «٢» في تفسير المعنى، إن شاء الله.

يقول الحق جل جلاله: يا أيها الذين آمنوا اصبروا على مشاق الطاعات، وما يصيبكم من الشدائد والأزمات، وعلى مجانبة المعاصي والمخالفات، وعلى شكر ما أوليتكم من مواهب العطيات وصابروا أي:

غالبوا الأعداء في مواطن الصبر، والثبوت في مداحض الحرب، ورابطوا أبدانكم وخيولكم في الثغور لتحفظوا المسلمين من العدو الكفور، كي تفوزوا بعظائم الأجور قال صلى الله عليه وسلم: «من رابط يوما وليلة في سبيل الله كان كعدل صيام شهر وقيامه، لا يفطر ولا ينفتل «٣» عن صلاته إلا لحاجة، ومن توفي في سبيل الله- أي: مرابطا في سبيل الله- أجرى الله عليه أجره حتى يقضي بين أهل الجنة وأهل النار» . ومما يلحق بالرباط: «أنتظار الصلاة بعد الصلاة» ، كما في الحديث.

واتقوا الله فيما يأمركم به وينهاكم عنه، لعلكم تفلحون فلاحا لا خسران بعده أبدا.

الإشارة: (يا أيها الذين آمنوا) إيمان أهل الخصوص، (اصبروا) على حفظ مراسم الشريعة، (وصابروا) على تحصيل أنوار الطريقة، (ورابطوا) قلوبكم على شهود أسرار الحقيقة، أو: اصبروا على أداء العبادة، وصابروا على تحقيق العبودية، ورابطوا في تحصيل العبودة- أي: الحرية- أو: اصبروا على تحقيق مقام الإسلام، وصابروا على دوام الإيمان، ورابطوا على العكوف في مقام الإحسان، أو: اصبروا على تخليص الطاعات، وصابروا على رفض الحظوظ والشهوات، ورابطوا أسراركم على أنوار المشاهدات، (واتقوا الله) فلا تشهدوا معه سواه، (لعلكم تفلحون) ، بتحقيق معرفة الله. وبالله التوفيق، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

---

(١) قال ابن عطية- بعد كلام-: فأما سكان الثغور دائما بأهليهم الذين يعتمرون ويكتسبون هناك، فهم وإن كانوا حماة فليسوا بمرابطين.

(٢) فى الأصول: ثوابه.

(٣) انفتل: انصرف.." (١)

"الإشارة: يقول الحق جل جلاله لخواص أحبابه: إذا دارت الكؤوس بخمرة الملك القدوس، وتعاطيتم قسمتها بين أرواحكم حتى امتلأت جميع أشباحكم، ورويت منها عروقكم، وحضر معكم من ليس من أبناء جنسكم، ممن لا يحل شرب خمرتكم، فإن كان من أهل المحبة والوداد، أو من له بكم قرابة واستناد، فلا تحرموه من شراب خمرتكم، ولا من نفحات نسمتكم، فإنكم قوم لا يشقى جليسكم، فارزقوه من ثمار علومكم، واسقوه من شراب خمرتكم، وذكروه بالله، وقولوا له ما يدله على الله، ويوصله إلى حضرة الله، وهذا هو القول المعروف، الذي هو بالنصح موصوف.

روي أن أبا هريرة رضي الله عنه نادى في سوق المدينة: يا معشر التجار، اذهبوا إلى المسجد، فأن تركة محمد تقسم

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٤٥٧/١

فيه، لتأخذوا حقكم منها مع الناس قبل أن تنفد، فذهب التجار إلى المسجد النبوي، فوجدوه معمورا بالناس، بعضهم يصلي، وبعضهم يتلو، وبعضهم يذكر، وبعضهم يعلم العلم، فقالوا: يا أبا هريرة، ليس هنا ما ذكرت من قسم التركة! فقال لهم: (هذه تركة محمد صلى الله عليه وسلم، لا ما أنتم عليه من جمع الأموال) أو كما قال رضي الله عنه.

ثم حث الأوصياء على الرفق بأولاد الناس، الذي هم فى حجرهم، فقال:

[سورة النساء (٤) : آية ٩]

وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولا سديدا (٩)

قلت: «لو» - هنا- شرطية، تخلص للاستقبال، وجوابها: (خافوا) ، وحذف مفعول ليخش للعموم، فيصدق بخشية العذاب وخشية **العتاب** وخشية البعد عن الأحباب، على حسب حال المخاطبين بهذه الخشية.

يقول الحق جل جلاله للأوصياء الذين في ولايتهم أولاد الناس: وليخش الذين يتولون يتامى الناس، فليحفظوا ما لهم، وليحسنوا تنميته لهم ولا يضيعوه، وليخافوا عليهم الضيعة، كما يخافون على أولادهم، فإنهم لو ماتوا وتركوا ذرية ضعافا خافوا عليهم، فكما يخافون على أولادهم بعدهم كذلك يخافون على أولاد الناس، فليتقوا الله في شأنهم، وليحفظوا عليهم أموالهم، وليرفقوا بهم ويلاطفوهم في الكلام، كما يحبون أن يلاطف بأولادهم، وليقولوا لهم قولا سديدا أي: عدلا صوابا بالشفقة وحسن الأدب.

وقيل: الخطاب لمن حضر المريض عند الإيصاء فيقولون له: قدم لنفسك، أعتق، تصدق، أعط كذا، حتى يستغرق ماله، فنهاهم الحق- تعالى- عن ذلك، وقال لهم: كما تخافون الضيعة على أولادكم بعدكم خافوا على أولاد الناس، فليتقوا الله في أمر المريض بإعطاء ماله كله، وليقولوا له قولا سديدا: عدلا، وهو الثلث، وقيل:

للمؤمنين كلهم عند موتهم، بأن ينظروا للورثة، فلا يسرفوا في الوصية بمجاوزة الثلث. والله تعالى أعلم.." (١)

"بالحس والمعنى، لأن الفتوة من شأن أهل التوحيد، ومن شيم أهل التجريد، كما هو معلوم من حالهم، نفعنا الله بذكرهم، وخرطنا في سلكهم. آمين.

قال الورتجبي: «الوالدين» : مشايخ المعرفة. ثم نقل عن الجنيد، أنه قال: أمرني أبي أمرا، وأمرني السري أمرا.

فقدمت أمر السري على أمر أبي، وكل ما وجدت فهو من بركاته. هـ. وذوو القربى هم الأخوة في الشيخ، واليتامى: من قصدهم من المتفقرة الجاهلة، والمساكين: ضعفاء اليقين من العامة، أمر الله تعالى أهل الخصوصية بالإحسان إليهم والبرور بهم، وهو أن يقرهم في طريقهم، ويحوشهم إلى ربهم.

والجار ذي القربى وهو جارك في السكنى وأخوك في النسبة، فيستحق عليك زيادة الإحسان. والجار الجنب: من جاورك من العوام فتنصحه وترشده، والصاحب بالجنب: من رافقك في أمر من العوام، كسفر وغيره، وابن السبيل: من نزل بأهل الخصوصية من الأضياف، فلهم حق الضيافة عليهم حسا ومعنى، وما ملكت أيمانكم: مالكم تصرف

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٤٦٩/١

عليهم من الأهل والبنين والإماء والعبيد، فتقربونهم إلى حضرة الملك المجيد. ثم أمرهم بالتواضع والإقبال على الخاص والعام. فقال: إن الله لا يحب من كان مختالا فخورا. والله تعالى أعلم.

ثم بين حال أضداد هؤلاء، فقال:

[سورة النساء (٤) : الآيات ٣٧ الى ٣٩]

الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا (٣٧) والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا (٣٨) وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله وكان الله بهم عليما (٣٩)

قلت: (الذين) بدل من: «من كان» ، أو منصوب على الذم، أو مرفوع عليه، أي: هم. أو مبتدأ حذف خبره، أي: نعذبهم عذابا مهينا، أو أحقاء بكل ملامة، و (الذين ينفقون) : عطف على الأولى، أو مبتدأ حذف خبره، أي: الشيطان قرينهم. والبخل فيه لغتان: البخل والبخل بحركتين.

يقول الحق جل جلاله: الذين يبخلون بأموالهم على أقاربهم وجيرانهم، ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من الغنى، فيظهرون القلة والعيلة، أو يكتمون العلم بصفة النبي صلى الله عليه وسلم، هم أحقاء بكل لوم **وعتاب**. وأعتدنا للكافرين منهم عذابا مهينا يهينهم ويخزيهم، نزلت في اليهود، كانوا يقولون." (١)

"قال ابن عباس: إن منافقا خاصم يهوديا فدعاه اليهودي إلى النبي صلى الله عليه وسلم، ودعاه المنافق إلى كعب بن الأشرف، ثم اختصما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فحكم لليهودي بالحق فلم يرض المنافق، وقال: نتحاكم إلى عمر، فقال اليهودي:

نعم فذهبا إلى عمر رضي الله عنه فقال اليهودي: قضى لي رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يرض بقضائه وخاصم إليك. فقال عمر للمنافق: أكذلك؟. قال: نعم، فقال: على رسلكما حتى أخرج إليكما، فدخل وأخذ سيفه فخرج، فضرب به عنق المنافق حتى برد «١» ، وقال: هكذا أقضي لمن لم يرض بقضاء الله وسوله، فنزلت الآية.. وقال جبريل عليه السلام: أن عمر فرق بين الحق والباطل. فسمي الفاروق.

وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين أي: بعضهم، يصدون عنك غير راضين بحكمك صدودا عظيما. فكيف يكون حالهم إذا أصابتهم مصيبة كقتل عمر المنافق، بسبب ما قدمت أيديهم من عدم الرضى بحكم الله، ثم جاؤك يطلبون دية صاحبهم، يحلفون بالله إن أردنا بالإنصراف إلى عمر إلا إحسانا منه بالخصمين، وتوفيقا بينهما، قطعا للنزاع بينهما، قال تعالى: أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم من النفاق، فلا يغني عنهم الكتمان والحلف الكاذب من الله شيئا، أو يعلم الله ما في قلوبهم من الطمع في الدية، فأعرض عنهم، أي: عن قبول معذرتهم ولا تمكنهم من طمعهم، وقل لهم في أنفسهم، أي: خاليا بهم قولا بليغا يبلغ إلى قلوبهم، ويؤثر فيهم، لينزجروا عن طلب دم صاحبهم،

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٥٠٣/١

وإنما أمر أن يعظهم خاليا بهم لأن النصح في ذلك أنجح، وأقرب للقبول، ولذلك قيل: من نصحك وحدك فقد نصحك، ومن نصحك مع الناس فقد فضحك. والله تعالى أعلم.

الإشارة: كل من دخل تحت ولاية شيخ التربية، وجب أن يرد حكوماته كلها إليه، ويرضى بما قضى عليه، وترى بعض الفقراء يزعمون أنهم في تربية الشيخ وتحت أحكامه، ثم يتحاكمون إلى حكام الجور وقضاة الزمان في أمر الدنيا وما يرجع إليها، فهؤلاء قد ضلوا ضلالا بعيدا. إلا أن يتوبوا ويصلحوا ما أفسدوا، بإصلاح قلب الشيخ حتى يجبر كسرهم، فالمريد الصادق لا يصل إلى الحاكم، ولو ذهب ماله كله. فإن كان ولا بد. فليوكل عنه فى ذلك.

فكيف إذا أصابت هؤلاء مصيبة وهي ظلمة القلب، وفتنة الدنيا بسبب ما قدمت أيديهم من تخطى حكم شيخهم إلى حكم غيره، ثم جاؤوك يحلفون بالله ما أردنا إلا أحسانا وهو حفظ مالنا، وتوفيقا بيننا وبين خصمنا، فيجب على الشيخ أن يعرض عن **عتابهم** ويذكرهم حتى يتوبوا،. فإن تابوا فإن الله غفور رحيم.

---

(١) أي: مات.." (١)

"الإشارة: اعلم أن الباطن إذا كمل تطهيره وتحقق تنويره ظهر أثر ذلك على الظاهر من مكارم الأخلاق، ولين الجانب، وحسن الخطاب، وترك **العتاب**، فما كمن في غيب السرائر ظهر في شهادة الظواهر وما كمن فيك ظهر على فيك، وهذه أخلاق الصوفية- رضى الله عنهم وأرضاهم- وبذلك وصفهم القائل فيهم، فقال:

هينون لينون أيسار بنو يسر ... سواس مكرمة أبناء أيسار

لا ينطقون بغير الحق إن نطقوا ... ولا يمارون إن ماروا بإكثار

من تلق منهم تقل هذاك سيدهم ... مثل النجوم التي يهدى بها السار

ومن شأن الحضرة التهذيب والتأديب، فلا يبقى معها لغو ولا تأثيم، لأنها جنة معجلة، قال تعالى:

لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما إلا قيلا سلاما سلاما.

وأيضا أهل الحضرة حصل لهم القرب من الحبيب، فهم في حضرة القريب على بساط القرب على الدوام، ولا يتصور منهم الجهر بالكلام، وهم في حضرة الملك العلام. قال تعالى: وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همسا، فرفع الصوت عند الصوفية مذموم شنيع، يدل على بعد صاحبه كيف ما كان، وتأمل قضية الصديق حيث قال له- عليه الصلاة والسلام-: «مالك تقرأ سرا؟» فقال: (إن الذي نناجيه ليس ببعيد) . أو كما قال، وإنما قال له صلى الله عليه وسلم: «ارفع قليلا» إخراجا له عن مراده، تربية له. والله تعالى أعلم.

ولما قدم أقبح الكفر، وهو كفر المنافقين، ذكر ما يليه، وهو كفر اليهود، فقال:

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٥٢١/١

[سورة النساء (٤) : الآيات ١٥٠ الى ١٥١]
إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا (١٥٠) أولئك هم الكافرون حقا وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا (١٥١)
قلت: (حقا) : مصدر مؤكد للجملة، أو صفة لمصدر الكافرين، أي: كفروا كفرا محققا يقينا. وأصل (أعتدنا) : أعددنا، أبدلت الدال تاء لقرب المخرج.
يقول الحق جل جلاله: إن الذين يكفرون بـالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله بأن يؤمنوا بالله ويكفروا برسله، ويقولون نؤمن ببعض الأنبياء ونكفر ببعض، كاليهود، آمنوا بموسى." (١)
"ولما قرر أمر النبوة، وبين الطريق الموصل إلى العلم بها، وأوعد من أنكرها، خاطب الناس بالدعوة إليها فقال:

[سورة النساء (٤) : آية ١٧٠]
يا أيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم فآمنوا خيرا لكم وإن تكفروا فإن لله ما في السماوات والأرض وكان الله عليما حكيما (١٧٠)
قلت: (فآمنوا خيرا لكم) ، و (انتهوا خيرا لكم) : قال سيبويه: هو منصوب بفعل مضمر، تقديره: وائتوا خيرا لكم، وقال الخليل: منصوب بآمنوا وبانتهوا على المعنى. أي: اقصدوا. وقال الفراء: صفة لمصدر، أي: آمنوا إيمانا خيرا لكم. وقال بعض الكوفيين: هو خبر كان المحذوفة، وتقديره: ليكن الإيمان خيرا لكم.
قلت: وهو أظهر من جهة المعنى، وإن منعه البصريون، قالوا: لأن (كان) لا تحذف مع اسمها إلا في مواضع مخصوصة، قال ابن مالك:
ويحذوفونها ويبقون الخبر ... وبعد إن، ولو، كثيرا ذا اشتهر
ولعل هذا الموضع أتى على غير المشهور تنبيها على الجواز.
يقول الحق جل جلاله: يا أيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم وهو محمد صلى الله عليه وسلم، فآمنوا به يكن خيرا لكم مما أنتم فيه من الضلال، وإن تكفروا فإن لله ما في السماوات والأرض وما تركبتا منه، ملكا وخلقا وعبيدا، فهو غني عنكم، لا يتضرر بكفركم، كما لا ينتفع بإيمانكم، وكان الله عليما بأحوالكم، حكيما فيما دبر لكم.
الإشارة: الذي جاء به الرسول- عليه الصلاة والسلام- هو إتقان مقام الإسلام، وتصحيح مقام الإيمان، الذي من أركانه: الإيمان بالقدر خيره وشره، حلوه ومره، وتحقيق مقام الإحسان الذي هو مقام الشهود والعيان، ولا يكمل هذا إلا بصحبة أهل العرفان، الذين صححوا مقام الفناء، وخرجوا إلى البقاء، خاضوا بحار التوحيد، وانفردوا بأسرار التفريد، ورسخ فيهم مقام الرضى والتسليم، فتلقوا المقادير كلها بقلب سليم، فمن لم يصحبهم ويتأدب بآدابهم بقي إيمانه ناقصا، وحقه

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٥٨٣/١

العتاب، فكأن الحق- تعالى- يقول على لسان الإشارة: قد جاءكم وليي، وهو خليفة رسولي، فآمنوا بخصوصيته، وأذعنوا لأمره وتربيته، يكن خيرا لكم مما أنتم فيه من المساوئ والأمراض، لئلا تلقوني بقلب سقيم، وبالله التوفيق.." (١)

"ثم خص أهل الكتاب بالخطاب والعتاب، فقال:

[سورة النساء (٤) : آية ١٧١]

يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيرا لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما في السماوات وما في الأرض وكفى بالله وكيلا (١٧١)

قلت: أصل الغلو: مجاوزة الحد في كل شيء، يقال: غلا بالجارية لحمها وعظمها، إذا أسرعت إلى الشباب فجاوزت لداتها أي: أقرانها، تغلو غلوا.

يقول الحق جل جلاله في عتاب النصارى- بدليل ما بعده: يا أهل الكتاب الإنجيل لا تغلوا في دينكم فتجاوزوا الحد فيه باعتقادكم في عيسى أنه الله، أو ابن الله، قصدوا تعظيمه فغلوا وأفرطوا، ولا تقولوا على الله إلا الحق، وهو تنزيه عن الصاحبه والولد.

ثم بين الحق فيه فقال: إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله، لا كما قالت اليهود: ليس برسول، ولا كما قالت النصارى: إنه الله، أو ابن الله، وإنما هو عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم أي:

أوصلها إليها وحصلها فيها، وهي كلمة: كن. فتكون بها في رحم أمه فسمى بها، وروح منه وهو نفخ جبريل في جيبها فحملت بذلك النفخ، وسمي النفخ روحا لأنه ريح يخرج عن الروح، فكانت روحه صادرة من روح القدس، كما قال فى آدم: نفخت فيه من روحي، وقد قال: إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم، فنفخ جبريل في الحقيقة لما كان بأمر الله صار هو نفخ الحق لأن الواسطة محذوفة عند المحققين، فلذلك أضاف روحه إليه كروح آدم عليه السلام.

فآمنوا بالله ورسله أي: وحدوا الله في إلوهيته، ولا تقولوا ثلاثة أي: الآلهة ثلاثة: الله، والمسيح، ومريم، انتهوا عن التثليث يكن خيرا لكم إنما الله إله واحد في ذاته وصفاته وأفعاله، سبحانه أي: تنزيها له أن يكون له ولد، لأنه لا يجانس ولا يتطرقه الفناء، له ما في السماوات وما في الأرض، ملكا وخلقا وعبيدا، والعبودية تنافي البنوة، وكفى بالله وكيلا فلا يحتاج إلى ولد لأن الولد يكون وكيلا عن أبيه وخليفته، والله تعالى قائم بحفظ الأشياء كاف لها، مستغن عمن يعينه أو يخلفه لوجوب بقائه وغناه.." (٢)

"يقول الحق جل جلاله: يا أيها الرسول لا يحزنك صنع المنافقين، الذين يسارعون في الكفر أي: يقعون فيه سريعا، فيظهرونه إن وجدوا فرصة، ثم بينهم بقوله: من الذين قالوا آمنا، قالوه بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم، فلا يهولنك

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ١/٥٩٥

(٢) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ١/٥٩٦

شأنهم ولا تحتفل بكيدهم، فإن الله سيكفيك أمرهم.
الإشارة: من شأن العارفين بالله تذكير عباد الله، ثم ينظرون إلى ما يفعل الله، فلا يحزنون على من لم تنفعه الموعظة، ولا يفرحون بسبب نجاح موعظتهم، إلا من حيث موافقة رضا ربهم، فهم في ذلك على قدم نبيهم، آخذين بوصية ربهم. والله تعالى أعلم.
ثم رجع إلى **عتاب** اليهود، فقال:

[سورة المائدة (٥) : الآيات ٤٢ الى ٤٣]
سماعون للكذب أكالون للسحت فإن جاؤك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئا وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين (٤٢) وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ثم يتولون من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين (٤٣)
قلت: (ومن الذين هادوا) : يحتمل أن يكون عطفا على (الذين قالوا) أي: لا يحزنك شأن المنافقين واليهود، و (سماعون) : خبر، أي: هم سماعون، ويحتمل أن يكون استئنافا، فيكون (سماعون) : مبتدأ على حذف الموصوف، و (من) : خبر، أي: ومن الذين هادوا قوم سماعون، واللام في: (للكذب) : إما مزيدة للتأكيد، أو لتضمين السماع معنى القبول، وجملة (لم يأتوك) : صفة لقوم، وجملة (يحرفون) : صفة أخرى له.
يقول الحق جل جلاله: ومن الذين هادوا صنف سماعون للكذب أي: كثيروا السماع للكذب والقبول له، وهم يهود بني قريظة، سماعون لقوم آخرين وهم يهود خيبر، لم يأتوك أي: لم يحضروا مجلسك، تكبرا وبغضا، يحرفون الكلم من بعد مواضعه أي: يميلونه عن مواضعه الذي وضعه الله فيها، إما." (١)
"الموافق لكتابهم من بعد التحكيم، وفيه تنبيه على أنهم ما قصدوا بالتحكيم معرفة الحق وإقامة الشرع، وإنما قصدوا به ما يكون عونا لهم على هواهم، وإن لم يكن حكم الله في زعمهم، وما أولئك بالمؤمنين بكتابهم ولا بكتابك لإعراضهم عنه أولا، وعنك ثانيا، بل أولئك هم الفاسقون التابعون لأهوائهم. والله تعالى أعلم.
الإشارة: كل من تعرض للشيخوخة وادعى مقام التربية، وهو يأمر أصحابه باتباع رخص الشريعة، والبقاء مع العوائد، ويقول لهم: (إن أوتيتم هذا فخذوه) ويزعم أنه سنة، وإن لم تؤتوه، ولقيتم من يأمركم بقتل النفوس، وحط الرؤوس ودفع الفلوس، وخرق العوائد فاحذروه. فمن كان حاله هذا، فالآية تجر ذيلها عليه، لأنه تعرض لفتنة نفسه بحب الجاه وغرور أولاد الناس، ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم من الهوى، ولا بصيرتهم من شهود السوى لأن تطهير القلوب م شروط بقتل النفوس، وقتل النفوس إنما يكون باتباع ما يثقل عليها من خرق عوائدها، كالذل والفقر وغير ذلك من الأعمال الشاقة عليها، ومن لم يطهر قلبه من الهوى يعش في الدنيا في ذل الحجاب مسجونا بمحيط انه، محصورا في هيكل ذاته، وله في الآخرة أشد **العتاب**، حيث تعرض لمقام الرجال وهو عنه بمعزل،

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٢/٤٠

ويقال لمن تبعه في اتباع الرخص:
سماعون للكذب أكالون للسحت قال الشيخ أبو العباس المرسى رضى الله عنه: من كان من فقراء الزمان يسمع الغناء، ويأكل أموال الظلمة، ففيه نزعة يهودية، قال تعالى: سماعون للكذب أكالون للسحت. هـ فإن جاءوك أيها العارف، يستخبرونك، ويخاصمونك في الأمر بخرق العوائد، ويزعمون أنهم موافقون للسنة، فاحكم بينهم أو أعرض عنهم وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئا وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط، وهو الأخذ بكل ما يقتل النفوس، ويجهز عليها، إن الله يحب المقسطين وكيف يحكمونك أو يخاصمونك، وعندهم القرآن فيه حكم الله بذلك، قال تعالى: والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا «١» ، ولا يكون جهاد النفس إلا بمخالفتها، وقتلها بترك حظوظها وهواها. والله تعالى أعلم.
ثم قرر صحة كتابه التوراة، ووبال من أعرض عنه من اليهود، فقال:

[سورة المائدة (٥) : آية ٤٤]
إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون (٤٤)

---

(١) من الآية ٦٩ من سورة العنكبوت.." (١)

"يقول الحق جل جلاله: إن الذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم والذين هادوا والصابئون: قوم بين النصارى والمجوس، أو عباد الكواكب، أو قوم بقوا على دين نوح- عليه السلام- والنصارى: قوم عيسى، من آمن منهم بالله إيمانا حقيقيا بلا شرك ولا تفريق، وآمن باليوم الآخر، وعمل صالحا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون، قال ابن عباس: نسخها: ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه «١» ، وقيل: إن هؤلاء الطوائف من آمن منهم إيمانا صحيحا فله أجره، فيكون في حق المؤمنين: الثبات عليه إلى الموت، وفي حق غيرهم: الدخول في الإسلام، فلا نسخ. وقيل: إنها فيمن كان قبل بعث النبي صلى الله عليه وسلم فلا نسخ أيضا. قاله ابن جزي.
الإشارة: الذي طلب الله من العباد ورغبهم في تحصيله، وجعله سببا للنجاة من كل هول في الدنيا والآخرة ثلاثة أمور: أحدها: تحقيق الإيمان بالله، والترقي فيه إلى محل شهود المعبود، الثاني: تحقيق الإيمان بالبعث وما بعده، حتى يكون نصب عينيه، ويقربه كأنه واقع يشاهده إذ كل آت قريب. والثالث: إتقان العمل إظهارا للعبودية، وتعظيما لكمال الربوبية، على قدر الاستطاعة من غير تفريط ولا إفراط، وبالله التوفيق.
ثم خص اليهود بالعتاب لعظم جرأتهم، فقال:

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٤٢/٢

[سورة المائدة (٥) : الآيات ٧٠ الى ٧١]

لقد أخذنا ميثاق بني إسرائيل وأرسلنا إليهم رسلا كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم فريقا كذبوا وفريقا يقتلون (٧٠) وحسبوا ألا تكون فتنة فعموا وصموا ثم تاب الله عليهم ثم عموا وصموا كثير منهم والله بصير بما يعملون (٧١)

قلت: المضارع إذا وقع بعد العلم وجب إهمال (إن) معه، فتكون مخففة، وإن وقعت بعد الظن يصح فيها الوجهان، فمن قرأ: (وحسبوا ألا تكون) بالرفع، فأن مخففة، ومن قرأ بالنصب فأن مصدرية. والفرق بين العلم والظن، أن علم العبد إنما يتعلق بالحال، و (أن) تخلص للاستقبال، فلا يصح وقوعه ا بعد العلم، فأهملت وكانت مخففة من الثقيلة، بخلاف الظن فيتعلق بالحال والاستقبال، فصح وقوع (أن) بعده. و (كلما) : ظرف لكذبوا أو يقتلون، و (كثير) : بدل من فاعل عموا وصموا.

يقول الحق جل جلاله: لقد أخذنا ميثاق بني إسرائيل أن يعملوا بأحكام التوراة، وأرسلنا إليهم رسلا يجددون العهد ويحثون على الوفاء به، ثم إنهم طغوا وعتوا كلما جاءهم رسول من عند الله بما لا تهوى أنفسهم من الشرائع التي تخالف أهواءهم ومشاق الطاعة، فريقا منهم كذبوهم وفريقا يقتلونهم، أي: كذبوا فريقا كداود وسليمان، وفريقا قتلوهم بعد تكذيبهم كزكريا ويحيى، وقصدوا قتل عيسى عليه السلام فليس ما فعلوا معك ببدع منهم، فلهم سلف في ذلك.

---

(١) من الآية ٨٥ من سورة آل عمران.." (١)

"كفر من الأمم، وإقامة الحجة عليهم، فيقولون له في الجواب: لا علم لنا مع علمك، تأدبوا فوكلوا العلم إليه، أو علمنا ساقط في جنب علمك إنك أنت علام الغيوب لأن من علم الخفيات لا تخفي عليه الظواهر والبواطن، وقرىء بنصب علام، على إن الكلام قد تم بقوله: إنك أنت أي: إنك الموصوف بصفاتك المعروفة، وعلام نصب على الاختصاص أو النداء. قاله البيضاوي.

الإشارة: من حجة الله على عباده، أن بعث في كل أمة نذيرا يدعو إلى الله، أما عارفا يعرف بالله، أو عالما يعلم أحكام الله، ثم يجمعهم يوم القيامة فيسألهم: ماذا أجيبوا، وهل قوبلوا بالتصديق والإقرار، أو قوبلوا بالتكذيب والإنكار؟ فتقوم الحجة على العوام بالعلماء، وعلى الخواص بالعارفين الكبراء، أهل التربية النبوية، فلا ينجو من **العتاب** إلا من ارتفع عنه الحجاب، بصحبة العارفين وتعظيمهم وخدمتهم، إذ لا يتخلص من العيوب إلا من صحبهم وأحبهم وملك نفسه إليهم. والله تعالى أعلم.

ثم خص عيسى عليه السلام بتذكير النعم يوم الجمع توطئة لتوبيخ من عبده من دون الله، فقال:

[سورة المائدة (٥) : الآيات ١١٠ الى ١١١]

إذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس في المهد وكهلا وإذ

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٦٣/٢

علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني فتنفخ فيها فتكون طيرا بإذني وتبرئ الأكمه والأبرص بإذني وإذ تخرج الموتى بإذني وإذ كففت بني إسرائيل عنك إذ جئتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحر مبين (١١٠) وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون (١١١)

قلت: (إذ) : بدل من (يوم يجمع) ، أو باذكر، وجملة (تكلم) : حال من مفعول (أيدتك) .

يقول الحق جل جلاله: واذكر إذ يقول الله- جل وعز- يوم القيامة: يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك بالنبوة والرسالة، وعلى أمك بالاصطفائية والصديقية، وذلك حين أيدتك أي: قويتك بروح القدس، وهو جبريل عليه السلام كان لا يفارقك في سفر ولا حضر، أو بالكلام الذي تحيا به الأنفس والأرواح، الحياة الأبدية. كنت تكلم الناس في المهد أي: كائنا في المهد وكهلا أي: تكلم في الطفولة والكهولة بكلام يكون سببا في حياة القلوب، وبه استدل أنه ينزل، لأنه رفع قبل أن يكتهل، واذكر إذ علمتك الكتاب أي: الكتابة،." (١)

"تقتضي التسليم، والعزة تقتضي التعظيم، فإن العزيز هو الذي يفعل ما يريد، ولا يغلبه غيره، ولا يمتنع عليه شيء أراده، فاقتضى الكلام تفويض الأمر إلى الله في المغفرة لهم أو عدمها لأنه قادر على كلا الأمرين لعزته، وأيهما فعل فهو جميل لحكمته. وقال أبو جعفر بن الزبير: إنما لم يقل الغفور الرحيم لئلا يكون شفيعا لهم بطلب المغفرة، فاقتصر على التسليم والتفويض، دون الطلب، إذ لا نصيب في المغفرة للكفار. انظر بقية كلامه.

قال التفتازاني: ذكر المغفرة، يوهم أن الفاصلة: (الغفور الرحيم) ، لكن يعرف بعد التأمل أن الواجب هو العزيز الحكيم لأنه لا يغفر لمن يستحق العذاب إلا من ليس فوقه أحد يرد عليه حكمه، وهو العزيز، أي: الغالب، ثم وجب أن يوصف بالحكمة على سبيل الاحتراس لئلا يتوهم أنه خارج عن الحكمة. هـ.

قال الله تعالى: هذا أي: يوم القيامة يوم ينفع الصادقين صدقهم أي: هنا ينتفع الصادقون في الدنيا بصدقهم، ويفتضح الكاذبون على الله بكذبهم. والمراد بالصادقين أهل التوحيد، الذين نزهوا الله تعالى عما لا يليق بجلاله وجماله، فصدقوا فيما وصفوا به ربهم.

ثم ذكر ما وعدهم به، فقال: لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضي الله عنهم ورضوا عنه حيث رضوا بأحكامه القهرية والتكليفية، ذلك الفوز العظيم، لله ملك السماوات والأرض وما فيهن وهو على كل شيء قدير، وهذا تنبيه على تكذيب النصارى، وفساد دعواهم في المسيح وأمه، وإنما لم يقل: ومن فيهن، تغليبا لغير العقلاء، وإنما غلب غير أولى العقل للإعلام بأنهم في غاية القصور عن معنى الربوبية، وإهانة لهم وتنبيها على أنهم جنس واحد، فمن يعقل منهم لقصور عقله ونظره كمن لا يعقل، فيبعد استحقاقهم للألوهية التي تنبيء عن تمام الحكمة وإحاطة العلم. والله تعالى أعلم.

الإشارة: كل من صدر نفسه للشيخوخة من غير إذن، وأشار إلى تعظيمه بلسان الحال أو المقال يلحقه **العتاب** يوم القيامة فيقال له: أأنت قلت للناس عظموني من دون الله؟ فإن كان مقصوده بالأمر بالتعظيم الوصول إلى تعظيم الحق

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٨٨/٢

تعالى، والأدب معه في الحضرة دون الوقوف مع الواسطة، وبذل جهده في توصيل المريدين إلى هذا المقام، يقول: سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق، إلى تمام ما قال السيد عيسى عليه السلام، فيقال له:
(هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم) . وإن كان مقصوده بالتصدر للتعظيم والآمر به، حظ نفسه، وفرح بتربية جاهه والإقبال عليه، افتضح وأهين بما افتضح به الكاذبون المدعون. نسأل الله تعالى الحفظ والرعاية بمنه وكرمه، وسيدنا محمد رسوله ونبيه- صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وصحبه وسلم-.." (١)

"الإشارة: إذا علم العبد أن الخلق كلهم في قبضة الله، وأمورهم كلها بيد الله، أحاط بهم علما وسمعا وبصرا، لم يبق له على أحد عتاب، ولا ترتيب خطأ ولا صواب، إلا ما أمرت به الشريعة على ظاهر اللسان. بل شأنه أن ينظر إلى ما يفعل المالك في ملكه، فيتلقاه بالقبول والرضى، وفي الحكم: «ما ترك من الجهل شيئا من أراد أن يظهر في الوقت غير ما أظهره الله فيه» ، هذا شأن أهل التوحيد يدورون مع رياح الأقدار حيثما دارت، غير أنهم يتحننون بقلوبهم إلى رحمة الكريم المنان، وينهضون بهمتهم إلى مظان السعادة والغفران، ويرجون منه الجمع عليه في روح وريحان، وجنة ورضوان، بمحض فضل منه وإحسان. جعلنا الله منهم بفضله وكرمه. آمين.
ثم أقام الحجة على أهل الشرك، فقال:

[سورة الأنعام (٦) : الآيات ١٤ الى ١٨]
قل أغير الله أتخذ وليا فاطر السماوات والأرض وهو يطعم ولا يطعم قل إني أمرت أن أكون أول من أسلم ولا تكونن من المشركين (١٤) قل إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم (١٥) من يصرف عنه يومئذ فقد رحمه وذلك الفوز المبين (١٦) وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يمسسك بخير فهو على كل شيء قدير (١٧) وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير (١٨)
قلت: (فاطر) : نعت لله، ومعناه: خالق ومبدع. قال ابن عباس رضى الله عنه: (ما كنت أعرف معنى فاطر، حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتها بيدي) . وجملة: (وهو يطعم) : حال، وقرىء بعكس الأول ببناء الأول للمفعول، والثاني للفاعل، على أن ضمير (هو) راجع لغير الله، وببنائهما للفاعل على معنى يطعم تارة، ويمنع أخرى، كقوله: يقبض ويبسط «١» ، وجملة (إن عصيت) : معترضة بين الفعل والمفعول، والجواب: محذوف دل عليه ما قبله، أي: إن عصيت فإني أخاف عذاب يوم عظيم.
يقول الحق جل جلاله: قل لهم يا محمد: أغير الله أتخذ وليا أي: معبودا أواليه بالعبادة والمحبة، وأشركه مع الله الذي أبدع السموات والإرض، وهو الغني عما سواه، الصمدانى، يطعم عباده ولا يطعم ولا يحتاج إلى من يطعمه، فهو يرزق ولا يرزق، وتخصيص الطعام لشدة الحاجة إليه. قل لهم: إني أمرت أن أكون أول من أسلم، وأنقاد بكليتي إلى هذا الإله الحقيقي، الغنى بالإطلاق، وأرفض كل ما سواه، ممن عمه الفقر ابتداء ودواما. فكان عليه الصلاة والسلام هو أول سابق

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٢/ ٩٤

إلى الدين. ثم قيل له: ولا تكونن من المشركين تنفيرا لغيره من الشرك، وإلا فهو مبرأ منه- عليه الصلاة والسلام-.

---

(١) من الآية: ٢٤٥ من سورة البقرة.." (١)

"«إذا التبس عليك أمران، فانظر أثقلهما على النفس فاتبعه فإنه لا يثقل عليها إلا ما كان حقا» . وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه: والله ما ثقل ميزان عبد إلا باتباعه الحق، وما خف إلا باتباعه الهوى. قال تعالى: والوزن يومئذ الحق.

هـ. بمعناه، ذكره في القوت. وهذا في غير النفس المطمئنة، وأما هي فلا يثقل عليها شيء، وقد يثقل عليها الباطل، ويخف عليها الحق، لكمال رياضتها. والله تبارك وتعالى أعلم.

ثم ذكرهم بالنعم، فقال:

[سورة الأعراف (٧) : آية ١٠]

ولقد مكناكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معايش قليلا ما تشكرون (١٠)

يقول الحق جل جلاله: ولقد مكناكم في الأرض تتصرفون فيها بالبناء والسكن، وبالغرس والحرث والزرع، وغير ذلك من أنواع التصرفات، وجعلنا لكم فيها معايش: أسبابا تعيشون بها كالتجارة وسائر الحرف، قليلا ما تشكرون على هذه النعم، فتقابلون المنعم بالكفر والعصيان، فأنتم جديرون بسلبه ا عنكم، وإبدالها بالنقم، لولا فضله ورحمته.

الإشارة: نعمة التمكين في الأرض متحققة في أهل التجريد، المنقطعين إلى الله تعالى، فهم يذهبون في الأرض حيث شاءوا، ومائدتهم ممدودة يأكلون منها حيث شاءوا، فهم متمكنون من أمر دينهم لقلة عوائدهم، ومن أمر دنياهم لأنها قائمة بالله، تجري عليهم أرزاقهم من حيث لا يحتسبون، تخدمهم ولا يخدمونها «يا دنياي اخدمي من خدمني، وأتعبي من خدمك» . فمن قصر منهم في الشكر توجه إليه **العتاب** بقوله: ولقد مكناكم في الأرض إلى قوله: قليلا ما تشكرون، ومن تحقق شكره قيل له: ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين. ونمكن لهم في الأرض «١» . والله تعالى أعلم.

ولما ذكر نعمة الإمداد أتبعه بنعمة الإيجاد، فقال:

[سورة الأعراف (٧) : الآيات ١١ الى ١٨]

ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين (١١) قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين (١٢) قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين (١٣) قال أنظرني إلى يوم يبعثون (١٤) قال إنك من المنظرين (١٥)

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٢/١٠٣

قال فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم (١٦) ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين (١٧) قال اخرج منها مذؤما مدحورا لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين (١٨)

---

(١) الآيتان: ٥- ٦ من سورة القصص.." (١)

"وقاسمهما أي: حلف لهما إني لكما لمن الناصحين فيما قلت لكما. وذكر قسم إبليس بصيغة المفاعلة التي تكون بين اثنين مبالغة لأنه اجتهد فيه، أو لأنه أقسم لهما، وأقسما له أن يقبلا نصيحته.

فدلاهما، أي: أنزلهما إلى الأكل من الشجرة، بغرور أي: بما غرهما به من القسم، لأنهما ظنا أن أحدا لا يحلف بالله كاذبا، فلما ذاقا الشجرة أي: وجدا طعمها، آخذين في الأكل منها، بدت لهما سوآتهما، وتهافت عنهما ثيابهما، فظهرت لهما عوراتهما أدبا لهما. وقيل: كان لباسهما نورا يحول بينهما وبين النظر، فلما أكلا انكشف عنهما، وظهرت عورتهما، وطفقا أي: جعلا يخصفان عليهما من ورق الجنة أي: أخذا يرقعان ويلزقان ورقة فوق ورقة ليستترا به، قيل: كان ورق التين. فآدم أول من لبس المرقعه، وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين هذا **عتاب** على المخالفة، وتوبيخ على الاغترار بالعدو. وفيه دليل على أن مطلق النهي للتحريم.

ثم صرحا بالتوبة فقالا: ربنا ظلمنا أنفسنا حين صدرناها للمعصية، وتعرضنا للإخراج من الجنة، وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين وهذه هي الكلمات التي تلقاها من ربه فتاب عليه بها.

قال البيضاوي: فيه دليل على أن الصغائر يعاقب عليها إن لم تغفر، وقالت المعتزلة: لا يجوز المعاقبة عليها مع اجتناب الكبائر، ولذلك قالوا: إنما قالا ذلك على عادة المقربين في تعظيم الصغير من السيئات، واستحقار العظيم من الحسنات. هـ.

قال اهبطوا الخطاب لآدم وحواء وذريتهما، أو: لهما ولإبليس، وكرر الأمر له تبعا ليعلم أنهم قرناء له أبدا. حال كونكم بعضكم لبعض عدو أي: متعادين، ولكم في الأرض مستقر أي: استقرار، ومتاع أي: تمتع، إلى حين انقضاء آجالكم، قال فيها أي: في الأرض تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون للجزاء، بالنعيم، أو بالعذاب الأليم، على حسب سعيكم في هذه الدار الفانية.

الإشارة: قال بعض العارفين: كل ما نهى الله تعالى عنه فهو شجرة آدم، فمن دخل جنة المعارف، ثم غلبه القدر فأكل من تلك الشجرة- وهي شجرة سوء الأدب- أخرج منها، فإن كان ممن سبقت له العناية ألهم التوبة، فتاب عليه وهداه، وأهبطه إلى أرض العبودية ليكون خليفة الله في أرضه، فأنعم بها معصية أورثت الخلافة والزلفى. وفي الحكم: «ربما قضى عليك بالذنب فكان سبب الوصول» . وقال أيضا: «معصية أورثت ذلا وافتقارا، خير من طاعة أورثت عزا واستكبارا» . وقال بعضهم: كل سوء أدب يثمر لك أدبا فهو أدب. والله تعالى أعلم.." (٢)

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٢/٢٠٠

(٢) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٢/٢٠٦

"وإنما فعل ذلك ليقطع طرفا من الكفار، ويحد شوكتهم، وليبلي المؤمنين منه بلاء حسنا أي: ليختبر المؤمنين منه اختبارا حسنا، ليظهر شكرهم على هذه النعمة، أو لينعم عليهم نعمة عظيمة بالنصر والغنيمة ومشاهدة الآيات، إن الله سميع لاستغائتهم ودعائهم، عليم بنياتهم وأحوالهم. ذلكم أي: البلاء الحسن، أو القتل، أو الرمي، واقع لا محالة، أو الأمر ذلكم، وأن الله موهن كيد الكافرين أي: مضعف كيد الكافرين، ومبطل حيلهم، أي: المقصود بذلك القتل أو الرمي إبلاء المؤمنين، وتوهين كيد الكافرين وإبطال حيلهم.

الإشارة: يقول الحق جل جلاله للمريدين المتوجهين لحضرة محبوبهم: فلم تقتلوا نفوسكم بمجاهدتكم إذ لا طاقة لكم عليها، ولكن الله قتلها بالنصر والتأييد، حتى حييت بمعرفته، ويقول للشيخ: وما رميت القلوب بمحبتي ومعرفتي، ولكن الله رمى تلك القلوب بشيء من ذلك، وإنما أنت واسطة وسبب من الأسباب العادية، لا تأثير لك في شيء من ذلك.

حكي أن الحلاج، لما كان محبوسا للقتل، سأله الشبلي عن المحبة، فقال: الغيبة عما سوى المحبوب، ثم قال:

يا شبلي، ألست تقرأ كتاب الله؟ فقال الشبلي: بلى، فقال: قد قال الله لنبيه- عليه الصلاة والسلام-: وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى، يا شبلى إذا رمى الله قلب عبده بحبة من حبه، نادى عليه مدى الأزمان بلسان **العتاب**. هـ. والمقصود بذلك: تخصيص أوليائه المقربين بالمحبة والمعرفة والتمكين، وتوهين كيد الغافلين المنكرين لخصوصية المقربين. والله تعالى أعلم.

ولما أرادت قريش الخروج إلى غزوة بدر، تعلقوا بأستار الكعبة، وطلبوا الفتح، وقالوا: اللهم انصر أعلى الجندين، وأهدى الفئتين، وأكرم الحزبين، كما أشار إلى ذلك الحق تعالى بقوله:

[سورة الأنفال (٨) : آية ١٩]

إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح وإن تنتهوا فهو خير لكم وإن تعودوا نعد ولن تغني عنكم فئتكم شيئا ولو كثرت وأن اﷲ مع المؤمنين (١٩)

يقول الحق جل جلاله لكفار مكة على جهة التهكم: إن تستفتحوا أي: تطلبوا الفتح، أي: الحكم على أهدى الفئتين وأعلى الجندين وأكرم الحزبين، فقد جاءكم الحكم كما طلبتم، فقد نصر الله أعلى الجندين وأهدى الفئتين وأكرم الحزبين، وهو محمد صلى الله عليه وسلم وحزبه، وإن تنتهوا عن الكفر ومعاداة الرسول، فهو خير لكم لتضمنه سلامة الدارين وخير المنزلين، وإن تعودوا لمحاربته نعد لنصره، ولن تغني تدفع عنكم فئتكم جماعتكم شيئا من المضار ولو كثرت فئتكم، إذ العبرة بالنصرة لا بالكثره، وأن الله مع المؤمنين بالنصر والمعونة.." (١)

"رضى الله عنه: اضرب أعناقهم، فإنهم أئمة الكفر، وإن الله أغناك عن الفداء، فمكني من فلان- لنسيب له- ومكن عليا وحمزة من أخويهما، فلنضرب أعناقهم، فلم يهو ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال: «إن الله ليلين قلوب رجال حتى تكون ألين من كل لين، وإن الله ليشدد قلوب رجال حتى تكون أشد من الحجارة، وإن مثلك يا أبا

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٢/٣١٥

بكر مثل إبراهيم، قال:

فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم «١» ، ومثلك يا عمر مثل نوح، قال: رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا» «٢» . فخير أصحابه، فأخذوا الفداء، فنزلت، فدخل عمر رضى الله عنه على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإذا هو وأبو بكر يبكيان، فقال: يا رسول الله: أخبرني، فإن أجد بكاء بكيت، وإلا تباكيت؟ فقال: «أبكي على أصحابك في أخذهم الفداء، ولقد عرض علي عذابهم أدنى من هذه الشجرة» «٣» لشجرة قريبة.

والآية دليل على أن الأنبياء- عليهم السلام- يجتهدون، وأنه قد يكون الخطأ، ولكن لا يقرون عليه. قاله البيضاوي. قال القشيري: أخذ النبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر منهم الفداء، وكان ذلك جائزا لوجوب العصمة، ولكن لو قتلهم كان أولى. هـ. وقال ابن عطية: إنما توجه **العتاب** للصحابة على استبقاء الرجال دون قتلهم، لا على الفداء لأن الله تعالى قد كان خيرهم، فاختاروا الفداء على أن يقتل منهم سبعين، كما تقدم في سورة آل عمران «٤» . ثم قال:

والنبي عليه الصلاة والسلام خارج عن ذلك الاستبقاء. انظر تمامه في الحاشية.

فإن قلت: إذا كان الحق تعالى خيرهم فكيف عاتبهم، وهم لم يرتكبوا محظورا؟ فالجواب: أن **العتاب** تابع لعلو المقام، فالخواص يعاتبون على المباح، إن كان فعله مرجوحا، والحق تعالى إنما عاتبهم على رغبتهم في أمر دنيوي، وهو الفداء، حتى آثروا قتل أنفسهم على أخذه، ويدل عليه قوله: تريدون عرض الدنيا، وهذا إنما كان في بعضهم، وجلهم إنما اختاروا الفداء استبقاء لقرابة الرسول عليه الصلاة والسلام. والله تعالى أعلم.

ثم قال تعالى في تمام **عتابهم**: لولا كتاب من الله سبق أي: لولا حكم الله سبق إثباته فى اللوح المحفوظ، وهو ألا يعاقب المخطئ في اجتهاده، أو أنه سيحل لكم الغنائم، أو ما سبق في الأزل من العفو عنكم، لمسكم فيما أخذتم من الفداء أو من الأسارى، عذاب عظيم. روى أنه عليه الصلاة والسلام قال، حين نزلت:

«لو نزل العذاب ما نجا منه غير عمر وسعد بن معاذ» وذلك لأنه أيضا أشار بالإثخان.

---

(١) الآية ٣٦ من سورة إبراهيم.

(٢) الآية ٢٦ من سورة نوح.

(٣) أخرجه أحمد فى المسند (١/ ٣٨٣) والترمذي ببعض الاختصار فى (تفسير سورة الأنفال) والحاكم وصححه ووافقه الذهبي فى (المغازي، ٣/ ٢١) وكذلك أخرجه البيهقي فى الدلائل (٣/ ١٣٨) كلهم عن ابن مسعود. وأخرجه بنحوه مسلم فى (الجهاد- باب الإمداد بالملائكة) من حديث ابن عباس عن سيدنا عمر- رضى الله عن الجميع.

(٤) عند تفسير قوله تعالى: (أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا) الآية ١٦٥.." (١)

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٣٤٨/٢

"قلت: مفعول (نبأ) الثاني: محذوف، أي: نبأنا جملة من أخباركم، و (جزاء) : مصدر لمحذوف، أي: يجازون جزاء، أو علة، أي: للجزاء بما كسبوا.

يقول الحق جل جلاله: يعتذرون إليكم يعني: المنافقين، إذا رجعتم إليهم من تبوك، قل لهم: لا تعتذروا بالمعاذير الكاذبة لأنه لن نؤمن لكم أي: لن نصدقكم فيها لأنه قد نبأنا الله من أخباركم أعلمنا بالوحي، على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم، ببعض أخباركم، وهو ما فى ضمائركم من الشر والفساد.

وسيرى الله عملكم ورسوله: هل تتوبون من الكفر، أم تثبتون عليه؟ وكأنه استتابة وإمهال للتوبة، ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة وهو الله، والأصل: ثم تردون إليه فوضع هذا الوصف موضع الضمير للدلالة على أنه مطلع على سرهم وعلانيتهم، لا يعزب عن علمه شيء من ضمائرهم وأعمالهم، فينبئكم أي: يخبركم بما كنتم تعملون بالتوبيخ والعقاب عليه.

سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم مِن غزوكم لتعرضوا عنهم أي: عن **عتابهم**، فأعرضوا عنهم لا توبخوهم إنهم رجس لخبث قلوبهم لا ينفع فيهم التأنيب، فإن المقصود من **العتاب**: التطهير بالحمل على الإنابة، وهؤلاء أرجاس لا تقبل التطهير، فهو علة للإعراض وترك المعاتبة، ومأواهم جهنم أي: منقلبهم إليها، والمعنى: أن النار كفتهم **عتابا**، فلا تتكلفوا **عتابهم**، وذلك جزاء بما كانوا يكسبون من الكفر والنفاق.

يحلفون لكم لترضوا عنهم بحلفهم، فتستديموا عليهم ما كنتم تفعلون بهم من الستر والإرفاق، وإشراكهم في الغنائم، فإن ترضوا عنهم بذلك فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين

أي: فإن رضاكم لا يستلزم رضى الله، ورضاكم وحدكم لا ينفعهم إذا كانوا في سخط الله وبصدد عقابه، أو إن أمكنهم أن يلبسوا عليكم لا يمكنهم أن يلبسوا على الله فإنه يهتك سترهم وينزل الهوان بهم. والمقصود من الآية: النهي عن الرضا عنهم والاغترار بمعاذيرهم، بعد الأمر بالإعراض عنهم وعدم الالتفات نحوهم. قاله البيضاوي.

الإشارة: قد يظهر لهذه الطائفة منافقون، إذا ظهر على أهل الله عز أو نصر جاءوا يعتذرون عن تخلفهم عنه، ويحلفون أنهم على محبتهم فلا ينبغي الاغترار بشأنهم، ولا مواجهتهم **بالعتاب** بل الواجب الإعراض عنهم والغيبة في الله عنهم، فسيرى الله عملهم ورسوله، ثم يردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبؤهم بما كانوا يعملون.." (١)

"عنهم بالكلية، وهو مثل لشدة الحيرة. وضاقت عليهم أنفسهم من فرط الوحشة والغم، وظنوا أي: علموا أن لا ملجأ من الله اي: من سخطه إلا إليه أي: إلا إلى استغفاره والرجوع إليه، ثم تاب عليهم بالتوفيق بالتوبة، ليتوبوا بإظهارها والدوام عليها، وليعدوا من التوابين، إن الله هو التواب لمن تاب، ولو عادوا في اليوم سبعين مرة، الرحيم متفضل عليهم بالنعم التي لا تحصى.

الإشارة: قال الورتجبي: التوبة توبتان: توبة العبد، وتوبة الله، توبة العبد: الرجوع من الزلات إلى الطاعات، وتوبة الله: رجوعه إلى العبد بنعت الوصال، وفتح باب المآب، وكشف النقاب عن الاحتجاب، وطلب **العتاب**.

إذا مرضنا أتيناكم نعودكم ... وتذنبون فنأتيكم ونعتذر.

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٢/٤١٩

انظر لطف الله بنبيه وأصحابه، كيف تاب لأجلهم مكان توبتهم، رجع إليه قبل رجوعهم إليه، ليسهل عليهم طريق الرجوع إليه، فرجوعه إلى نبيه بكشف المشاهدة، ورجوعه إليهم بكشف القربة، فتوبته للنبى صلى الله عليه وسلم من غيبته عن المشاهدة باشتغاله بأداء الرسالة، وتوبة القوم من غيبتهم عن ملاحظة الحضرة، فلما ذاقوا طعم الجنايات، واحتجبوا عن المشاهدات أدركهم فيض الوصال، وانكشف لهم أنوار الجمال، وهكذا سنة الله في الأنبياء والأولياء، إذا ذابوا في مقام الامتحان، وبقوا في الحجاب عن مشاهدة الرحمن، تمطر عليهم وبل سحاب الكرم، ويلمع لأبصار أسرارهم نور شرف القدم فيؤنسهم بعد إياسهم، ويوصلهم بعد قنوطهم. قال تعالى: وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا «١» ، وقال تعالى: حتى إذا استيأس الرسل ... الآية «٢» . ثم قال عن بعضهم: توبة الأنبياء في مشاهدة الخلق في وقت الإبلاغ إذ الأنبياء لا يغيبون عن الحضرة، بل لا يحضرون في مواضع الغيبة لأنهم في عين الجمع أبدا. هـ.
قال المحشي: وحاصلة: توبة الله المذكورة وهبية، وهي في كل أحد على حسب ما يليق بمقامه، وإنما يليق بمقام الرسل ترقيته عن مقام إلى أعلى، أو من شعور بخلق لأجل الإبلاغ، إلى الغيبة عن ذلك، وكذلك أبدا كأهل الجنة. هـ.
ثم حض على الصدق، فقال:

[سورة التوبة (٩) : آية ١١٩]
يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين (١١٩)
يقول الحق جل جلاله: يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله بالمحافظة على ما أمركم به، والانكفاف عما نهاكم عنه، وكونوا مع الصادقين في إيمانهم وأقوالهم وأفعالهم وعهودهم.

---

(١) الآية ٢٨ من سورة الشورى.
(٢) الآية ١١٠ من سورة يوسف.." (١)
"أن يكون أشفق- عليه الصلاة والسلام- من صعوبة استقامته التي تليق به، فبقدر ما يعلو المقام يطلب بزيادة الأدب، وبقدر ما يشتد القرب يتوجه العتاب. ولذلك كان الحق تعالى يعاتبه على ما لا يعاتب عليه غيره. وقد قالوا: حسنات الأبرار سيئات المقربين. وقد تقدم كلام الإحياء في قوله: ألا بعدا لعاد «١» .
ثم قال تعالى: ولا تطغوا ولا تخرجوا عما حد لكم، إنه بما تعملون بصير، فيجازيكم على النقير والقطمير، وهو تهديد لمن لم يستقم، وتعليل للأمر والنهي. ولا تركنوا إلى الذين ظلموا: لا تميلوا إليهم أدنى ميل، فإن الركون: هو الميل اليسير، كالتزيي بزيهم، وتعظيم ذكرهم، وصحبتهم من غير تذكيرهم ووعظهم.
فتمسكم النار لركونهم إليهم. قال الأوزاعي: ما من شيء أبغض إلى الله تعالى من عالم يزور عاملا «٢» . هـ.
وقال سفيان: في جهنم واد لا يسكنه إلا القراء الزائرون للملوك. هـ. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من دعا

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٤٣٨/٢

لظالم بالبقاء- أي: بأن قال: بارك الله في عمرك- فقد أحب أن يعصى الله في أرضه» «٣» وسئل سفيان عن ظالم أشرف على الهلاك في برية، هل يسقى شربة ماء؟ فقال: لا. فقيل له: يموت؟! فقال: دعه يموت. هـ. وهذا إغراق، ولعله في الكافر المحارب، والله أعلم.

قال البيضاوي: وإذا كان الركون إلى من وجد منه ما يسمى ظلما موجبا للنار، فما ظنك بالركون إلى الظالمين الموسومين بالظلم، ثم بالميل إليهم، ثم بالظلم نفسه، والانهماك فيه. ولعل الآية أبلغ ما يتصور في النهي عن الظلم والتهديد عليه. وخطاب الرسول صلى الله عليه وسلم ومن معه من المؤمنين بها للتثبيت على الاستقامة التي هي العدل فإن الزوال عنها بالميل إلى أحد طرفي إفراط أو تفريط، ظلم على نفسه أو غيره، بل ظلم في نفسه. هـ.

وما لكم من دون الله من أولياء من أنصار يمنعون العذاب عنكم، ثم لا تنصرون: ثم لا ينصركم الله إن سبق في حكمه أنه يعذبكم.

ولما كان الركون إلى الظلم، أو إلى من تلبس به فتنة، وهي تكفرها الصلاة، كما في الحديث «٤» ، أمر بها أثره، فقال: وأقم الصلاة طرفي النهار غدوة وعشية، وزلفا من الليل ساعات منه قريبة من النهار.

والمراد بالصلاة المأمور بها: الصلوات الخمس. فالطرف الأول: الصبح، والطرف الثاني: الظهر والعصر، والزلف من الليل: المغرب، والعشاء، إن الحسنات يذهبن السيئات يكفرنها قال ابن عطية: لفظ الآية عام في

---

(١) راجع إشارة الآيات: ٥٨- ٦٠ من سورة نفسها.

(٢) المراد بالعامل هنا: الحاكم أو الوالي.

(٣) قال الحافظ العراقي فى المغني: لم أجده مرفوعا، وإنما أورده ابن أبى الدنيا فى كتاب الصمت، من قول الحسن البصري.

(٤) سيذكر الشيخ الحديث بعد قليل.." (١)

"قالوا تالله لقد آثرك الله علينا بحسن الصورة وكمال السيرة، أو فضلك علينا رغما على أنفنا، وإن كنا لخاطئين أي: والحال أن شأننا أنا كنا مذنبين فيما فعلنا معك. قال لا تثريب: لا **عتاب** عليكم اليوم أي: لا عقوبة عليكم في هذا اليوم. ثم دعا لهم فقال: يغفر الله لكم، فيوقف على اليوم. وقيل: يتعلق بيغفر، فيوقف على ما قبله، وهو بعيد لأنه تحكم على الله، وإنما يصلح أن يكون دعاء، إذ هو الذي يليق بآداب الأنبياء، فكأنه أسقط حق نفسه بقوله: لا تثريب عليكم اليوم، ثم دعا الله أن يغفر لهم الله حقه. قاله ابن جزي، وصدر به البيضاوي. وبه تعلم ضعف وقف الهبطي. ثم قال في تمام دعائه: وهو أرحم الراحمين فإنه يغفر الصغائر والكبائر، ويتفضل على التائب.

قال البيضاوي: ومن كرم يوسف عليه السلام أنهم لما عرفوه أرسلوا له، وقالوا: إنك تدعوننا بالبكرة والعشي إلى الطعام، ونحن نستحي منك لما فرط منا فيك، فقال لهم: إن أهل مصر كانوا ينظرون إلي بالعين الأولى، ويقولون:

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٥٦٣/٢

سبحان من بلغ عبدا بيع بعشرين درهما ما بلغ، ولقد شرفت بكم، وعظمت في أعينهم حيث إنكم إخوتي، وإني من حفدة إبراهيم عليه السلام. هـ.

الإشارة: من رام الدخول إلى حضرة الكريم الغفار، فليدخل من باب الذل والانكسار. وفي الحكم: «ما طلب لك شيء مثل الاضطرار، ولا أسرع بالمواهب مثل الذلة والافتقار» . فإذا قرعت الباب، ورمت الدخول مع الأحباب، فقل بلسان التضرع والانكسار: يا أيها العزيز الغفار مسنا الضر، وهو البعد والغفلة، وجئنا ببضاعة مزجاة عمل مدخول، وقلب معلول، فأوف لنا ما أملناه من الجزاء المأمول، وتفضل علينا بالقبول والوصول، وقل: اليوم نغفر لكم ونغطي مساوءكم، ونوصلكم بما مني إليكم من الإحسان، لا بما منكم إلينا من الطاعة والإذعان. هؤلاء إخوة يوسف لما أظهروا فاقتهم، واستقلوا بضاعتهم، وأحضروا شكايتهم، سمح لهم وقربهم، وكشف لهم عن وجهه الجميل، ومنحهم العطاء الجزيل، فما ظنك بالرب العظيم الجليل، الذي هو أرحم الراحمين، ومحل أمل القاصدين.

ثم أمرهم بالرجوع إلى أبيهم، والإتيان به وبمن معه من أولادهم، فقال:

[سورة يوسف (١٢) : الآيات ٩٣ الى ٩٨]

اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيرا وأتوني بأهلكم أجمعين (٩٣) ولما فصلت العير قال أبوهم إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون (٩٤) قالوا تالله إنك لفي ضلالك القديم (٩٥) فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيرا قال ألم أقل لكم إني أعلم من الله ما لا تعلمون (٩٦) قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين (٩٧) قال سوف أستغفر لكم ربي إنه هو الغفور الرحيم (٩٨)." (١)

"وكذلك أنزلناه أي: ومثل هذا الإنزال المشتمل على أصول الدين المجمع عليها، أنزلناه حكما عربيا أي: يحكم في القضايا والوقائع، بما تقتضيه الحكمة، مترجما بلسان العرب ليسهل عليهم فهمه وحفظه.

ولئن اتبعت أهواءهم التي يدعونك إليها كتقرير دينهم، والصلاة إلى قبلتهم بعد ما حولت عنها، بعد ما جاءك من العلم بنسخ ذلك، ما لك من الله من ولي ينصرك، ولا واق يقيك **عتابه**. وهو حسم لأطماعهم، وتهييج للمؤمنين على الثبات في دينهم. وبالله التوفيق.

الإشارة: الفرح بما أنزل من عند الله هو مقدمات الفرح بالله، فإذا رفعت أكنة الغفلة عن القلب تلذذ بسماع الخطاب من وراء الباب، وذلك أمارة القرب. وهذا مقام أهل المراقبة من المحبين. فإذا جد في السير رفعت عنه الحجب والأستار، وواجهته الأنوار والأسرار، فيكاشف بأسرار الذات وأنوار الصفات، فيتلذذ بشهود المتكلم، فيسمع حينئذ الكلام من المتكلم به بلا واسطة. وهذا مقام أهل الشهود من المحبين المقربين. (ومن الأحزاب) ، وهم أهل الرئاسة والجاه، من ينكر وجود بعض هذه المقامات تعصبا وحمية. أو ينسبها لنفسه غلطا وجهلا، فيقول له من تحقق بهذا المقام: إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به، إليه أدعو وإليه مآب. ويغيب عنه بالاشتغال بالله، وبالدعاء إليه. فإن غفل واشتغل به،

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٢/٦٢٤

أو ركن إلى قوله، قيل له: ولئن اتبعت أهواءهم بعد ما جاءك من العلم ما لك من الله من ولي ولا واق.
ولما قالت اليهود- لعنهم الله- لو كان محمد رسولا لما أولع بالنساء، رد الله عليهم بقوله:

[سورة الرعد (١٣) : الآيات ٣٨ الى ٣٩]
ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله لكل أجل كتاب (٣٨) يمحوا الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب (٣٩)

يقول الحق جل جلاله: ولقد أرسلنا رسلا من قبلك يا محمد، وجعلنا لهم أزواجا كثيرة:
كداود عليه السلام كان له مائة امرأة، وابنه كان له ألف، على ما قيل، وغيرهما من الأنبياء والرسل. وجعلنا لهم منهن ذرية، وأنت يا محمد منهم فليس ببدع أن يكون الرسول بشرا، يتزوج النساء، ويحتاج إلى ما يحتاج إليه البشر، إلا أنه لا يشغله ذلك عن أداء الرسالة، ونصيحة الأمة، وإظهار شريعة الدين، والقيام بحقوق رب العالمين. ولما أجابهم بشبهتهم قالوا: أظهر لنا معجزة كما كانت لهم، كالعصا وفلق البحر، وإحياء الموتى؟ فإنزل الله وما كان لرسول ما صح له ولم يكن في وسعه أن يأتي بآية تقترح عليه، ويظهرها إلا بإذن الله وإرادته فإنه القادر على ذلك. لكل أجل من آجال بني آدم وغيرهم، كتاب يكتب فيه وقت موته، وانتقاله من الدنيا.." (١)

"قال له تعالى لما امتنع واستكبر: فاخرج منها أي: من السماء، أو من الجنة، أو من زمرة الملائكة، فإنك رجيم:
مطرود من الخير والكرامة فإن من يطرد يرجم بالحجر، أو شيطان يرجم بالشهب، فهو وعيد يتضمن الجواب عن شبهته، أي: ليس الشرف بالأصل، إنما الشرف بالطاعة والقرب. وإن عليك اللعنة:
الطرد والإبعاد إلى يوم الدين يوم الجزاء، ثم يتصل باللعن الدائم. وقيل: إنما حد اللعن لأنه أبعد غاية يضربها الناس، أو لأنه يعذب فيه بما ينسى اللعن، فيصير كأنه زال عنه ذلك اللعن.
قال رب فأنظرني: أخرني إلى يوم يبعثون، أراد أن يجد فسحة في الإغواء، ونجاة من الموت، إذ لا موت بعد وقت البعث، فأجابه إلى الأول دون الثاني، قال فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم:
المعين فيه أجلك عند الله، وانقراض الناس كلهم، وهو النفخة الأولى عند الجمهور.
وهذه المخاطبة، وإن لم تكن بواسطة، لا تدل على منصب إبليس لأن خطاب الله له على سبيل الإهانة والإذلال. قاله البيضاوي. وجزم ابن العربي، في سراج المريدين، بأن كلام الحق تعالى إنما كان بواسطة، قال:
لأن الله لا يكلم الكفار الذين هم من جند إبليس، فكيف يكلم من تولى إضلالهم. هـ. وتردد المازري في ذلك وقال:
لا قاطع في ذلك، وإنما فيه ظواهر، والظواهر لا تفيد اليقين. ثم قال: وأما قوله: ما منعك أن تسجد:
فيحتمل أن يكون بواسطة أو بغيرها، تقول العرب: كلمت فلانا مشافهة، بالكلام، وتارة بالبعث. هـ. قلت: الظاهر أنه كلمه بلا واسطة من وراء حجاب، كلام **عتاب** وإهانة، كما يوبخ الكفار يوم القيامة، مع أن الواسطة محذوفة عند

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٣/٣٤

المحققين، وإن وجدت، صورة.
ثم قال: رب بما أغويتني أي: بسبب إغوائك لي، لأزينن لهم في الأرض، وقيل: الباء للقسم، أي:
بقدرتك على إغوائي، لأزينن لهم المعاصي والكفر في الدنيا، التي هي دار الغرور. قال ابن عطية: قوله:
رب: مع كفره، يخرج على أنه يقر بالربوبية والخلق، وهذا لا يدفع في صدر كفره. وقال، على قوله: لم أكن لأسجد:
ليس هذا موضع كفره عند الحذاق لأن إبايته إنما هي معصية فقط، أي: وإنما كفره لاعتراضه لأمر الحق واستكباره. وأما قوله وتعليله فإنما يقتضي أن آدم مفضول، وقد أمره أن يسجد لمن هو أفضل منه، فرأى أن ذلك جور، فقاس وأخطأ، وجهل أن الفضائل إنما هي حيث جعلها الله تعالى المالك للجميع. هـ. مختصرا. وقال المازري: أما كفر إبليس فمقطوع به لقوله: استكبر وكان من الكافرين «١» ثم قال: ويؤكده قوله: رب بما أغويتني، وقوله: لأملأن جهنم منك ... الآية «٢» ، وغير ذلك من ظواهر ما يدل على كفره.

---

(١) من آية ٣٤ من سورة البقرة.

(٢) الآية ٨٥ من سورة (ص) .." (١)

"الإشارة: قال في التنوير: أبى المحققون أن يشهدوا غير الله لما حققهم به من شهود القيومية، وإحاطة الديمومية. هـ. فمن فتح الله بصيرته، لم يشهد مع الحق سواه إذ الأكوان ثابتة بإثباته، ممحوة بأحدية ذاته، فما حجبك عن الحق وجود موجود معه إذ لا شيء معه، وإنما حجبك توهم موجود معه» . فمن غاب عن ثنوية نفسه غاب عن ثنوية الأكوان، ووقع على عين الشهود والعيان. فما ظهر في الوجود إلا أسرار ذاته وأنوار صفاته. وبالله التوفيق.
ثم ذكر جهالة أهل الشرك وسفاهة رأيهم، فقال:

[سورة النحل (١٦) : الآيات ٥٦ الى ٦٠]
ويجعلون لما لا يعلمون نصيبا مما رزقناهم تالله لتسئلن عما كنتم تفترون (٥٦) ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون (٥٧) وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم (٥٨) يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ألا ساء ما يحكمون (٥٩) للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء ولله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم (٦٠)
قلت: الضمير في (يجعلون) للكفار، وفى (يعلمون) لهم، أو للأصنام. و (لهم ما يشتهون) : يجوز أن يكون (ما يشتهون) مبتدأ، وخبره: (لهم) ، وأن يكون مفعولا بفعل مضمر، أي: ويجعلون لأنفسهم ما يشتهون، وأن يكون معطوفا على البنات، وهذا منعه البصريون لاتحاد الفاعل والمفعول، وهو الواو، وضمير لهم في الغيبة، فلا يقال:
زيد ضربه، وإنما يقال: ضرب نفسه، ولا يقال: أنا ضربتني، ويجوز ذلك في أفعال القلوب. وقال البيضاوي:

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٣/٨٨

ولا يبعد تجويزه في المعطوف، كما في الآية.
يقول الحق جل جلاله: ويجعلون أي: كفار العرب لما لا يعلمون إلاهيتهم ببرهان ولا حجة، وهم الأصنام. أو: لما لا علم لهم من الجمادات التي يعبدونها، نصيبا مما رزقناهم من الزرع والأنعام، بقولهم:
هذا لله وهذا لشركائنا، تالله لتسئلن سؤال توبيخ **وعتاب** عما كنتم تفترون من أنها آلهة بالتقرب إليها، أو عما كنتم تفترون على الله من أنه أمركم بذلك.
ويجعلون لله البنات من قولهم: الملائكة بنات الله، وكانت خزاعة وكنانة يقولون ذلك. سبحانه تنزيها له عن ذلك، ولهم ما يشتهون أي: ويجعلون لأنفسهم ما يشتهون، وهم البنون، والمعنى: أنهم يجعلون لله البنات التي يكرهونها- وهو منزه عن الولد-، ويختارون لأنفسهم ما يشتهون من الذكور. وإذا بشر أحدهم بالأنثى." (١)
"ساداتهم. وهو احتجاج على وحدانيته تعالى، وإنكار ورد على المشركين، فكأنه يقول: أنتم لا تسوون بين أنفسكم وبين مماليككم في الرزق، ولا تجعلونهم شركاء لكم، بل تأنفون من ذلك، فكيف تجعلون عبيدي شركاء لي في ألوهيتي؟! وهذا كقوله: ضرب لكم مثلا من أنفسكم هل لكم من ما ملكت أيمانكم من شركاء في ما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم «١» . ويحتمل أن يكون ذما **وعتابا** لمن لا يحسن إلى مملوكه، حتى يرد ما رزقه الله عليه، كما في الحديث: «أطعموهم مما تأكلون، وألبسوهم مما تلبسون» «٢» .
أفبنعمة الله يجحدون، حيث يجعلون له شركاء، فإنه يقتضي أن يضاف إليهم بعض ما أنعم الله عليهم، ويجحدوا أنه من عند الله، أو حيث أنكروا هذه الحجج، بعد ما أنعم الله عليهم بإيضاحها، أو حيث بخسوا مماليكهم مما يجب لهم من الإنفاق. على التفسير الثاني.
الإشارة: والله فضل بعضكم على بعض في أرزاق العلوم، والأسرار والمواهب، فمنكم غني بالله، ومنكم فقير منه في قلبه، ومنكم عالم به ومنكم جاهل، ومنكم قوي اليقين ومنكم ضعيف، فما الذين فضلوا بالعلوم اللدنية والأسرار الربانية برادي تلك العلوم على الجهلة وضعفاء اليقين، بأن يطلعوهم على أسرار الربوبية قبل استحقاقها- فإن ذلك بخس بحقها- حتى يرونهم أهلا لها بأن يبذلوا لهم أنفسهم وأموالهم، ويملكون لهم رقابهم يتصرفون فيها تصرف المالك في مملوكه، فحينئذ يشاركونهم فيما منحهم الله من أرزاق العلوم وأسرار الفهوم، وقد قيل: لا تؤتوا الحكمة غير أهلها فتظلموها، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم.
وفي هذا المعنى يقول الشاعر:
سأكتم علمي عن ذوي الجهل طاقتي ... ولا أنثر الدر النفيس على البهم
فإن قدر الله الكريم بلطفه ... ولا قيت أهلا للعلوم وللحكم
بذلت علومي واستفدت علومهم ... وإلا فمخزون لدي ومكتتم
فمن منح الجهال علما أضاعه ... ومن منع المستوجبين فقد ظلم

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ١٣٧/٣

ثم ذكرهم بالنعم التي لا قدرة لأحد عليها، فقال:

[سورة النحل (١٦) : آية ٧٢]
والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ورزقكم من الطيبات أفبالباطل يؤمنون وبنعمت الله هم يكفرون (٧٢)

---

(١) من الآية ٢٨ من سورة الروم.

(٢) أخرجه مسلم فى (الزهد، باب حديث جابر الطويل) ، من حديث أبى اليسر.." (١)

"ثم رغب فى التوبة، فقال:

[سورة النحل (١٦) : آية ١١٠]
ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا إن ربك من بعدها لغفور رحيم (١١٠)
قلت: إن الثانية: تأكيد، والخبر للأول.
يقول الحق جل جلاله: ثم إن ربك للذين هاجروا من دار الكفر إلى المدينة من بعد ما فتنوا أي: عذبوا على الإسلام كعمار بن ياسر، وأشباهه من المعذبين على الإسلام. هذا على قراءة الضم. وقرأ ابن عامر: «فتنوا» بفتح التاء، أي: فتنوا المسلمين وعذبوهم، فتكون فيمن عذب المسلمين، ثم أسلم وهاجر وجاهد، كعامر ابن الحضرمي، أكره مولاه جبرا حتى ارتد، ثم أسلما وهاجرا ثم جاهدا، وصبرا على الجهاد وما أصابهم من المشاق، إن ربك من بعدها من بعد الهجرة والجهاد والصبر، لغفور رحيم أي: لغفور لما مضى قبل، رحيم يجازيهم على ما صنعوا بعد.
الإشارة: من نزلت به قهرية، أو حصلت له فترة، حتى رجع عن طريق القوم، ثم تاب وهاجر من موطن حظوظه وهواه، وجاهد نفسه في ترك شواغل دنياه، واستعمل السير إلى من كان يدله على الله إن ربك من بعدها لغفور رحيم يغفر له ما مضى من فترته، ويلحقه بأصحابه وأبناء جنسه. وبالله التوفيق.
ثم ذكر يوم الجزاء لمن صبر وهاجر، أو الخسران لمن جحد وكفر، فقال:

[سورة النحل (١٦) : آية ١١١]
يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها وتوفى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون (١١١)
قلت: يوم: منصوب باذكر، أو بغفور رحيم.
يقول الحق جل جلاله: واذكر يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها عن ذاتها، وتسعى في خلاصها، لا يهمها شأن

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ١٤٧/٣

غيرها يوم يفر المرء من أخيه، وأمه وأبيه، وصاحبته وبنيه «١» ، وتوفى كل نفس جزاء ما عملت على التمام، وهم لا يظلمون: لا ينقصون من أجورهم مثقال ذرة.

الإشارة: النفس التي تجادل عن نفسها، وتوفى ما عملت من خير أو شر، إنما هي النفس الأمارة أو اللوامة.

وأما النفس المطمئنة بالله، الفانية في شهود ذات الله، لا ترى وجودا مع الله فلا يتوجه عليها **عتاب**، ولا يترتب عليها حساب إذ لم يبق لها فعل تحاسب عليه. وعلى تقدير وجوده فقد حاسبت قبل أن تحاسب، بل هي في عداد

---

(١) الآيات: ٣٤- ٣٦ من سورة عبس.." (١)

"لنختبرهم، حتى يظهر ذلك للعيان، أيهم أحسن عملا، أيهم أزهد فيها، وأقبلهم على الله بالعمل الصالح إذ لا عمل أحسن من الزهد في الدنيا إذ هو سبب للتفرغ لأنواع العبادة، بدنية وقلبية.

قال أبو السعود: وحسن العمل: الزهد فيها، وعدم الاكتراث بها، والقناعة باليسير منها، وصرفها على ما ينبغي، والتأمل في شأنها، وجعلها ذريعة إلى معرفة خالقها، والتمتع بها حسبما أذن الشرع، وأداء حقوقها، والشكر على نعمها، لا جعلها وسيلة إلى الشهوات، والأغراض الفاسدة، كما يفعله الكفرة وأهل الأهواء.. انظر بقية كلامه.

وإنا لجاعلون ما عليها عند تناهي الدنيا، صعيدا جرزا أي: ترابا يابسا، لا نبات فيه، بعد ما كان يتعجب من بهجته النظار، ويتشرف بمشاهدته الأبصار، فلا يغتر بما يذهب ويفنى إلا من لا عقل له، فلا تستغرب إدبارهم، إذ لا عقل لهم.

ويحتمل أن يكون تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم من حيث إنه أرشده إلى شهود تدبير الحق، فيسلو، بذلك، عن إعراضهم لغيبته في المصور المدبر عن الصور، وعن الزينة في المزين، فالكون مظهر الصفات ومرآتها، ويغيب في الذات- التي هي معدنها- بإفناء الظاهر، وإفناء الأفعال، كما نبه عليه بقوله: وإنا لجاعلون ... الخ.

الإشارة: الخصوصية- من حيث هي- لها بداية ونهاية، فمن شأن أهل بدايتها: الحرص على الخير لهم ولعباد الله، فيتمنون أن الناس كلهم خصوص أو صالحون، فإذا رأوا الناس أعرضوا عنها تأسفوا عليهم، وإذا أقبلوا عليهم فرحوا من أجلهم، زيادة في الهداية لعباد الله، فإذا تمكنوا منها ورسخت أقدامهم فيها، وحصل لهم الفناء الأكبر، لم يحرصوا على شيء، ولم يتأسفوا من فوات شيء، لهم ولغيرهم. وقد يتوجه **العتاب** لهم على الحرص في بدايتهم تكميلا لهم، وترقية إلى المقام الأكمل.

وقوله تعالى: إنا جعلنا ما على الأرض ... الخ، هو حكمة تخلف الناس عن الخصوصية، حتى يتميز الطالب لها من المعرض عنها، فمن أقبل على زينة الدنيا وزهرتها، فاتته الخصوصية، وبقي من عوام الناس، ومن أعرض عنها وعن بهجتها، وتوجه بقلبه إلى الله، كان من المخصوصين بها، المقربين عند الله.

وهذا هو أحسن الأعمال التي اختبر الله به عباده بقوله: لنبلوهم أيهم أحسن عملا، وفي الحديث: «الدنيا مال من لا

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ١٦٨/٣

مال له، لها يجمع من لا عقل له. وعليها يعادى من لا علم عنده» «١» . وفي الزهد والترغيب أحاديث كثيرة مفردة بالتأليف، وبالله التوفيق.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى المسند (٦/ ٧١) ، والبيهقي فى شعب الإيمان (باب فى الزهد/ ١٠٦٣٧) عن السيدة عائشة.

رضى الله عنها، بدون العبارة الأخيرة.." (١)

"صحبتهم، فلا أحد أظلم ممن ذكر بالله وبآياته، فأعرض واستكبر ونسي ما قدمت يداه من المعاصي والأوزار، سبب ذلك: جعل الأكنة على القلوب، وسفح ران المعاصي والذنوب، فلا يفقهون وعظا ولا تذكيرا، ولا يستمعون تحذيرا ولا تبشيرا، وإن تدعهم إلى الهدى والرجوع عن طريق الردى، فلن يهتدوا إذا أبدا لما سبق لهم في سابق القضاء، فلولا مغفرته العامة، ورحمته التامة، لعجل لهم العذاب، لكن له وقت معلوم، وأجل محتوم، لا محيد عنه إذا جاء، ولا ملجأ منه ولا منجا. نسأل الله العصمة بمنه وكرمه.

ولما ذكر الحق جل جلاله قصة أهل الكهف، وكان وقع فيها **عتاب** للرسول- عليه الصلاة والسلام- حيث لم يستثن بتأخير الوحي، وبقوله: ولا تقولن لشيء ... الخ، ذكر هنا قصة موسى مع الخضر- عليهما السلام- وكان سببها **عتاب** الحق لموسى عليه السلام حيث لم يرد العلم إليه، حين قال له القائل: هل تعلم أحدا أعلم منك؟ فقال: لا، فذكر الحق تعالى قصتهما تسلية لنبينا عليه الصلاة والسلام بمشاركة **العتاب**، فقال:

[سورة الكهف (١٨) : آية ٦٠]

وإذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضي حقبا (٦٠)

قلت: لا أبرح: ناقصة، وخبرها: محذوف: اعتمادا على قرينة الحال إذ كان ذلك عن التوجه إلى السفر، أي: لا أبرح أسير في سفري هذا، ويجوز أن تكون تامة، من زال يزول، أي: لا أفارق ما أنا بصدده حتى أبلغ ... الخ.

يقول الحق جل جلاله: واذكر إذ قال موسى لفتاه يوشع بن نون بن إفرائيم بن يوسف عليه السلام، وكان ابن أخته، سمي فتاه إذ كان يخدمه ويتبعه ويتعلم منه العلم. والفتى في لغة العرب: الشاب، ولما كانت الخدمة أكثر ما تكون من الفتيان، قيل للخادم: فتى، ويقال للتلميذ: فتى، وإن كان شيخا، إذا كان في خدمة شيخه، فقال موسى عليه السلام: لا أبرح: لا أزال أسير في طلب هذا الرجل، يعني: الخضر عليه السلام، حتى أبلغ مجمع البحري‌ن، وهو ملتقى بحر فارس والروم مما يلي المشرق، وهذا مذهب الأكثر. وقال ابن جزي: مجمع البحرين:

عند «طنجة» حيث يتجمع البحر المحيط والبحر الخارج منه، وهو بحر الأندلس. قلت: وهو قول كعب بن محمد القرظي. أو أمضي حقبا أي: زمنا طويلا أتيقن معه فوات الطلب. والحقب: الدهر، أو ثمانون سنة، أو سبعون.

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٣/٢٤٨

وسبب هذا السفر: أن موسى عليه السلام لما ظهر على مصر، بعد هلاك القبط، أمره الله تعالى أن يذكر قومه هذه النعمة، فقام فيهم خطيبا بخطبة بليغة، رقت بها القلوب، وذرفت منها العيون، فقالوا له: من أعلم الناس؟ فقال: أنا.
وفي رواية: هل تعلم أحدا أعلم منك؟ فقال: لا. فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه عز وجل، فأوحى الله إليه: أعلم." (١)

"قال موسى عليه السلام في اعتراضه: أقتلت نفسا زكية «١» : طاهرة من الذنوب، وقرئ بغير ألف مبالغة، بغير نفس أي: بغير قتل نفس محرمة، فيكون قصاصا. وتخصيص نفي هذا القبيح بالذكر من بين سائر القبيحات من الكفر بعد الإيمان، والزنا بعد إحصان لأنه أقرب إلى الوقوع نظرا لحال الغلام. لقد جئت شيئا نكرا أي: منكرا، قيل: أنكر من الأول، إذ لا يمكن تداركه، كما يمكن تدارك الأول بالسد ونحوه. وقيل:
«الإمر» أعظم لأن قتل نفس واحدة أهون من إغراق أهل السفينة.
قال له الخضر عليه السلام: ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبرا، زاد «لك» لزيادة تأكيد المكافحة **بالعتاب** على رفض الوصية وقلة التثبت والصبر، لما تكرر منه الإنكار، ولم يرعو بالتذكير، حتى زاد في النكير في المرة الثانية بذكر المنكر. قال موسى عليه السلام: إن سألتك عن شيء بعدها بعد هذه المرة فلا تصاحبني إن سألت صحبتك، وقرأ يعقوب: «فلا تصحبني« رباعيا، أي: لا تجعلني صاحبا لك، قد بلغت من لدني عذرا أي: قد أعذرت ووجدت من قبلي عذرا في مفارقتي، حيث خالفتك ثلاث مرات.
وعن النبي صلى الله عليه وسلم: «يرحم الله أخي موسى، استحيا، فقال ذلك، لو لبث مع صاحبه لأبصر أعجب الأعاجيب» «٢» .
وفي البخاري: «وددنا لو صبر موسى، حتى يقص الله علينا من أمرهما» «٣» .
فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية، هي أنطاكية، وقيل: أيلة، وقيل الأبلة، وهي أبعد أرض الله من السماء، وقيل: برقة، وقال أبو هريرة وغيره: هي بالأندلس. ويذكر أنها الجزيرة الخضراء. قلت: وهي التي تسمى اليوم طريفة، وأصلها بالظاء المشالة. وذلك على قول إن مجمع البحرين عند طنجة وسبتة. وعن النبي صلى الله عليه وسلم: «كانوا أهل قرية لئاما» . وقال قتادة: شر القرى التي لا يضاف فيها الضيف، ولا يعرف لابن السبيل حقه.
ثم وصف القرية بقوله: استطعما أهلها أي: طلبا منهم طعاما، ولم يقل: استطعماهم، على أن يكون صفة لأهل لزيادة تشنيعهم على سوء صنيعهم، فإن الإباء من الضيافة، مع كونهم أهلها قاطنين بها، أشنع وأقبح.
روي أنهما طافا بالقرية يطلبان الطعام، فلم يطعموهما. واستضافاهم فأبوا أن يضيفوهما بالتشديد، وقرئ بالتخفيف. يقال: ضافه: إذا كان له ضيفا، أضافه وضيفه: أنزله ضيفا. وأصل الإضافة: الميل، من: ضاف السهم

---

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر: «زاكية» بألف بعد الزاى، وتخفيف الياء، اسم فاعل من «زكا» ، وقرأ

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٣/٢٨٤

الباقون: «زكية» بتشديد الياء من غير ألف ... انظر الإتحاف ٢/ ٢٢١.

(٢) أخرجه، بنحوه، أبو داود فى (الحروف والقراءات ح ٢٩٨٤) ، وأصل الحديث فى صحيح مسلم فى (الفضائل، باب من فضائل الخضر) .. فى سياق طويل.

(٣) أخرجه البخاري فى (التفسير، سورة الكهف) .." (١)

"ثم ذكر افتراقهما، وبيان الحكمة فى تلك الخوارق التي فعل، فقال:

[سورة الكهف (١٨) : الآيات ٧٨ الى ٨٢]

قال هذا فراق بيني وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا (٧٨) أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر فأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا (٧٩) وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغيانا وكفرا (٨٠) فأردنا أن يبدلهما ربهما خيرا منه زكاة وأقرب رحما (٨١) وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحا فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك وما فعلته عن أمري ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبرا (٨٢)

قلت: هذا، الإشارة إما إلى نفس الفراق، كقولك: هذا أخوك، أو إلى الوقت الحاضر، أي: هذا وقت الفراق.

أو إلى السؤال الثالث. و (بيني) : ظرف مضاف إليه المصدر مجازا، وقرئ بالنصب، على الأصل، وغصبا: مصدر نوعي ليأخذ.

يقول الحق جل جلاله: قال الخضر عليه السلام: هذا فراق بيني وبينك فلا تصحبني بعد هذا، سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا أي: سأخبرك بالخبر الباطن، فيما لم تستطع عليه صبرا لكونه منكرا في الظاهر، فالتأويل: رجوع الشيء إلى مآله، والمراد هنا: المآل والعاقبة، وهو خلاص السفينة من اليد العادية، وخلاص أبوي الغلام من شره، مع الفوز بالبدل الأحسن، واستخراج اليتيمين للكنز، وفي جعل صلة الموصول عدم استطاعته، ولم يقل: «بتأويل ما رأيت» نوع تعريض به، وعتابه عليه السلام.

ثم جعل يفسر له، فقال: أما السفينة التي خرقتها، فكانت لمساكين: ضعفاء، لا يقدرون على مدافعة الظلمة، فسماهم مساكين لذلهم وضعفهم، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: «اللهم أحيني مسكينا، وأمتني مسكينا، واحشرني في زمرة المساكين» «١» . فلم يرد مسكنة الفقر، وإنما أراد التواضع والخضوع، أي: احشرني مخبتا متواضعا، غير جبار ولا متكبر، وقيل: كانت السفينة لعشرة إخوة: خمسة زمنى»

، وخمسة يعملون في

---

(١) أخرجه الترمذي فى (الزهد، باب ما جاء أن فقراء المهاجرين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم) ، وابن ماجة (فى الزهد،

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٢٩٣/٣

باب مجالسة الفقراء) .

(٢) أخرجه الترمذي فى (الزهد، باب ما جاء أن فقراء المهاجرين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم) ، وابن ماجة (فى الزهد، باب مجالسة الفقراء) .." (١)

"بالقدر كيف يحزن؟ وعجبت لمن يؤمن بالرزق كيف يتعب؟ وعجبت لمن يؤمن بالموت كيف يفرح؟ وعجبت لمن يؤمن بالحساب كيف يغفل؟ وعجبت لمن يعرف الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها؟ لا إله إلا الله، محمد رسول الله) «١» . وقيل: كانت صحفا فيها علم مدفون.

وكان أبوهما صالحا، فيه تنبيه على أن سعيه في ذلك كان لصلاح أبيهما، وفيه دليل على أن الله تعالى يحفظ أولياءه في ذريتهم، قيل: كان بينهما وبين الأب الذي حفظا به سبعة أجداد. قال محمد بن المنكدر: (إن الله تعالى ليحفظ بالرجل الصالح ولده، وولد ولده، ومسربته التي هو فيها، والدويرات التي حولها، فلا يزالون في حفظ الله وستره) . وكان سعيد بن المسيب يقول لولده: إني لأزيد في صلاتي من أجلك، رجاء أن أحفظ فيك، ويتلو هذه الآية. وفي الحديث: «ما أحسن أحد الخلافة في ماله إلا أحسن الله الخلافة في تركته» «٢» . ويؤخذ من الآية:

القيام بحق أولاد الصالحين إذ قام الخضر عليه السلام بذلك.

فأراد ربك أي: مالكك ومدبر أمرك. وفي إضافة الرب إلى ضمير موسى عليه السلام، دون ضميرهما، تنبيه له عليه السلام على تحتم كمال الانقياد، والاستسلام لإرادته سبحانه، ووجوب الاحتراز عن المناقشة فيما برز من القدرة في الأمور المذكورة وغيرها. أراد أن يبلغا أشدهما: حلمهما وكمال رأيهما، ويستخرجا كنزهما من تحت الجدار، ولولا أني أقمته لا نقض، وخرج الكنز من تحته، قبل اقتدارهما على حفظ المال وتنميته، وضاع بالكلية رحمة من ربك مصدر في موضع الحال، أي: يستخرجا كنزهما مرحومين به من الله تعالى. أو: يتعلق بمضمر، أي: فعلت ما فعلت من الأمور التي شاهدتها، رحمة من ربك بمن فعل له أو به.

وقد استعمل الخضر عليه السلام غاية الأدب في هذه المخاطبة فنسب ما كان عيبا لنفسه، وما كان ممتزجا له ولله تعالى فإن القتل بلا سبب ظاهره عيب، وإبداله بخير منه خير، فأتى بضمير المشاركة، وما كان كمالا محضا، وهو إقامة الجدار، نسبه لله تعالى.

ثم قال: وما فعلته أي: ما رأيت من الخوارق عن أمري أي: عن رأيي واجتهادي، بل بوحي إلهي ملكي، أو إلهامي، على اختلاف في نبوته أو ولايته، ذلك أي: ما تقدم ذكره من التأويلات، تأويل أي: مآل وعاقبة ما لم تسطع عليه صبرا أي: تفسير ما لم تستطع عليه صبرا، فحذف التاء تخفيفا، وهو فذلكة لما تقدم، وفي جعل الصلة غير ما مر تكرير للتنكير عليه وتشديد **للعتاب**. قيل: كل ما أنكر سيدنا موسى

---

(١) أخرجه الطبري فى تفسيره (١٦/ ٦) . وانظر تفسير ابن كثير (٣/ ٩٩) .

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٣/٢٩٥

(٢) عزاه فى كنز العمال (١٦٠٧١) لابن المبارك، عن ابن شهاب، مرسلا. وذكره مرفوعا: ابن عدى فى الكامل (٦/ ٢٢٩١) عن ابن عمر، وضعفه.." (١)

"ثم وجه **العتاب** إلى السامري، فقال:

[سورة طه (٢٠) : الآيات ٩٥ الى ٩٨]

قال فما خطبك يا سامري (٩٥) قال بصرت بما لم يبصروا به فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها وكذلك سولت لي نفسي (٩٦) قال فاذهب فإن لك في الحياة أن تقول لا مساس وإن لك موعدا لن تخلفه وانظر إلى إلهك الذي ظلت عليه عاكفا لنحرقنه ثم لننسفنه في اليم نسفا (٩٧) إنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو وسع كل شيء علما (٩٨)

يقول الحق جل جلاله: قال موسى عليه السلام في توبيخ السامري: فما خطبك يا سامري أي:

ما شأنك، وما مطلوبك فيما فعلت من فتنة القوم؟ خاطبه بذلك ليظهر للناس بطلان كيده باعترافه، وليفعل به وبما صنع من العقاب ما يكون نكالا للمفتونين به، ولمن خلفهم من الأمم من بعده، قال السامري في جوابه:

بصرت بما لم يبصروا به أي: علمت مالم يعلمه القوم، وفطنت لما لم يفطنوا به، أو رأيت مالم يروه، وهذا أنسب، وقد كان رأى جبريل عليه السلام، جاء راكبا فرسا، وكان كلما رفع الفرس يده أو رجله عن الطريق اليبس، اخضر ما تحت قدمه بالنبات، فعرف أن له شأنا، فأخذ من موطئه شيئا من التراب. وذلك قوله تعالى: فقبضت قبضة من أثر الرسول أي: أثر فرس الرسول، وهو جبريل، الذي أرسل إليك ليذهب بك إلى الطور.

وقال في اللباب: كان السامري من المقربين لموسى عليه السلام، فرأى جبريل راكبا على فرس، وقد دخل البحر فانفلق، فأخذ من أثره، ولم ير ذلك إلا من كان مع موسى. هـ. وقال قتادة: كان السامري عظيما في بني إسرائيل، من قبيلة يقال لها: سامرة، ولكن عدو الله نافق، بعد ما قطع البحر مع بني إسرائيل، فلما مرت بنو إسرائيل بالعمالقة، وهم يعكفون على أصنام لهم، وكانوا يعبدون البقر، قالوا يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة «١» . فاغتنمها السامري فاتخذ العجل. هـ.

وقال الكواشي: وإنما عرف السامري جبريل من بين سائر الناس لأن أمه ولدته في السنة التي يقتل فيها الغلمان، فوضعته في كهف حذرا عليه، فبعث الله تعالى جبريل ليربيه لما قضى على يديه من الفتنة. هـ.

وضعفه ابن عطية. قلت: ولعل تضعيفه من جهة النقل، وأما القدرة فهي صالحة ليقضي الله أمرا كان مفعولا.

---

(١) من الآية ١٣٨ من سورة الأعراف.." (٢)

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٢٩٧/٣

(٢) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٤١٥/٣

"يقول الحق جل جلاله: يا أيها الرسل كلوا من الطيبات، هذا النداء والخطاب ليسا على ظاهرهما لأنهم أرسلوا متفرقين في أزمنة مختلفة، وإنما المعنى: الإعلام بأن كل رسول في زمانه نودي بذلك، ووصي به للإيذان بأن إباحة الطيبات شرع قديم، جرى عليه جميع الرسل- عليهم الصلاة والسلام- ووصوا به، أي: وقلنا لكل رسول: كل من الطيبات واعمل صالحا. فعبر عن تلك الأوامر المتعددة المتعلقة بالرسل بصيغة الجمع للإيجاز، وفيه من الدلالة على بطلان ما عليه الرهابنة من رفض الطيبات مالا يخفى. قاله أبو السعود. وقيل:

خطاب لعيسى عليه السلام لا تصال الآية به، وكان يأكل من غزل أمه، وهو من أطيب الطيبات، وقيل: لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم لفضله وقيامه مقام الكل، وكان يأكل من الغنائم، وما رزقه الله من غير اختيار على الله، والجمع: للتعظيم فيهما، والطيبات: ما يستطاب ويستلذ من مباحات المآكل والفواكه، حسبما ينبيء عنه سياق النظم الكريم.

واعملوا عملا صالحا، فإنه المقصود منكم شكرا لما أسدي إليكم، ولا تشتغلوا بالنعم عن طاعة المنعم وشهوده، إني بما تعملون من الأعمال الظاهرة والباطنة، عليم، فأجازيكم عليه، وفيه تهديد للمذكورين، فما بالك بغيرهم ممن ألهته النعم عن شهود المنعم وشكره؟! وإن هذه أمتكم «١» أي: ملتكم وشريعتكم التي أنتم عليها أمة واحدة أي: ملة واحدة، متحدة في أصول الشرائع، التي لا تبدل بتبدل الأعصار، وهو التوحيد وما يتبعه من أصول العقائد. وأنا ربكم من غير أن يكون لي شريك في الربوبية، فاتقون: فخافوا عتابي في مخالفتكم أمري، أو في شق العصا، والمخالفة بالإخلال بمواجب ما ذكر من اختصاص الربوبية بي.

والخطاب للرسل والأمم جميعا، على أن الأمر في حق الرسل للتهييج، وفي حق الأمم للتحذير. قيل: وجاء هنا: «فاتقون» ، الذي هو أبلغ في التخويف والتحذير من قوله في الأنبياء: فاعبدون «٢» لأن هذه جاءت عقب إهلاك طوائف كثيرين، وفي الأنبياء، وإن تقدمت أيضا قصة نوح وما قبلها، فإنه جاء بعدها ما يدل على الإحسان واللطف التام، في قصة أيوب ويونس وزكريا ومريم، فناسب الأمر بالعبادة لمن هذه صفته.

ثم قال تعالى: فتقطعوا أمرهم أي: فتفرقوا في أمر دينهم مع اتحاده، وجعلوه قطعا متفرقة، وأديانا مختلفة، بينهم زبرا أي: قطعا- جمع زبور، بمعنى الفرقة، ويؤيده قراءة من قرأ: (زبرا) بفتح الباء، جمع زبرة كغرفة، أي: قطعا مختلفة، كل ينتحل كتابا، وقيل: جمع زبور، بمعنى كتاب، أي: كل فريق يزعم أن له كتابا يتمسك به. وعن الحسن: قطعوا كتاب الله قطعا وحرفوه، والأول أقرب، أي: تفرقوا في أصل الدين فرقا،

---

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب «وأن» بفتح الهمزة. وقرأ عاصم وحمزة والكسائي بكسر الهمزة على الاستئناف.. انظر الإتحاف (٢/ ٢٨٥) .

(٢) أي: في قوله تعالى: «إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون» . الآية ٩٢ من سورة الأنبياء.." (١)

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٣/٥٨٠

"الله فهم لا ينطقون لانقطاعهم عن الجواب بالكلية، وابتلائهم بشغل شاغل من العذاب الأليم، يشغلهم العذاب عن النطق والاعتذار.

ثم ذكر دلائل قدرته على البعث، وما ينشأ بعد ذلك، بقوله: ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه، الرؤية هنا قلبية، أي: ألم يعلموا أنا جعلنا الليل بما فيه من الإظلام ليستريحوا فيه بالنوم والقرار. والنهار مبصرا أي: يبصروا، بما فيه من الإضاءة، طرق التقلب في أمور المعاش. وبولغ فيه، حيث جعل الإبصار الذي هو حال الناس، حالا له، ووصفا من أوصافه، بحيث لا ينفك عنها، ولم يسلك في الليل هذا المسلك لأن تأثير ظلام الليل في السكون ليس بمثابة تأثير النهار في الإبصار. قاله أبو السعود.. قلت: وقد جعله كذلك في قوله:

وجعل الليل سكنا «١» فانظره.

إن في ذلك لآيات كثيرة لقوم يؤمنون يصدقون، فيعتبرون، فإن من تأمل في تعاقب الليل والنهار، واختلافهما على وجوه بديعة، مبنية على حكم رائقة، تحار في فهمها العقول، وشاهد في الآفاق تبدل ظلمة الليل، المحاكية للموت، بضياء النهار، المضاهي للحياة، وعاين في نفسه غلبة النوم، الذي هو يضاهي الموت، وانتباهه منه، الذي هو يضاهي البعث، قضى بأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور.

قال لقمان لابنه: يا بني إن كنت تشك في الموت فلا تنم، فكما أنك تنام قهرا كذلك تموت، وإن كنت تشك في البعث فلا تنتبه، فكما أنك تنتبه بعد نومك كذلك تبعث بعد موتك هـ. وبالله التوفيق.

الإشارة: يوم نحشر من كل إمة فوجا ينكر على أهل الخصوصية، ممن يكذب بآياتنا، وهم العارفون بنا، الدالون علينا، المعرفون بنا، فهم يوزعون: يجمعون **للعتاب**، حتى إذا جاءوا إلينا بقلب سقيم، قال: أكذبتم بأوليائي، الدالين على حضرتي، بعد التطهير والتهذيب، ولم تحيطوا بهم علما، منعكم من ذلك حب الرئاسة والجاه، أم ماذا كنتم تعملون؟.

ووقع القول عليهم بالبقاء مع عامة أهل الحجاب، فهم لا ينطقون، ولا يجدون اعتذارا يقبل منهم.

ألم يعلموا أنهم يموتون على ما عاشوا عليه، ويبعثون على ما ماتوا عليه، فهلا صحبوا أهل اليقين الكبير، - وهو عين اليقين أو حق اليقين، المستفاد من شهود الذات الأقدس- فيكتسبوا منهم اليقين، حتى يموتوا على اليقين ويبعثوا على اليقين. وبالله التوفيق.

---

(١) من الآية ٩٦ من سورة الأنعام. وقد سار المفسر على قراءة «جاعل» .." (١)

"العز والاقتراب. قال القشيري على قوله: وجعلناهم أئمة إلخ: كانوا في الدنيا مبعدين عن معرفته، وفي الآخرة مبعدين عن مغفرته، فانقلبوا من طرد إلى طرد، ومن هجر إلى بعد، ومن فراق إلى احتراق. هـ.

ولما أغرق أهل الظلم والعناد، أنزل الهداية على أهل العناية والوداد، كما قال تعالى:

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٢٢١/٤

[سورة القصص (٢٨) : آية ٤٣]
ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى بصائر للناس وهدى ورحمة لعلهم يتذكرون (٤٣)
يقول الحق جل جلاله: ولقد آتينا موسى الكتاب: التوراة من بعد ما أهلكنا القرون الأولى قوم نوح وهود وصالح ولوط- عليهم السلام-، حال كون الكتاب بصائر للناس أنوارا لقلوبهم، يتبصرون الحقائق، ويميزون بين الحق والباطل. فالبصيرة: عين القلب، الذي يبصر بها الحق، ويهتدى بها إلى الرشد والسعادة. كما أن البصر عين الرأس التي يبصر بها الحسيات، أي: آتيناه التوراة، أنوارا للقلوب التي كانت عميا لا تستبصر ولا تعرف حقا من باطل، وهدى وإرشادا إلى الشرائع لأنهم كانوا يخبطون في الضلال.
ورحمة لمن اتبعها لأنهم، إذا عملوا بها، وصلوا إلى نيل الرحمة، لعلهم يتذكرون، أي: ليكونوا على حال يرجى منهم التذكر والاتعاظ. وبالله التوفيق.
الإشارة: إنما تطيب المنازل إذا خلت من الأجانب والأراذل. وأطيب عيش الأحباب إذا غابت عنهم الرقباء وأهل **العتاب**، فلما أهلك الله فرعون وجنوده، وأورث بني إسرائيل ديارهم، ومحى عن جميعها آثارهم، طاب عيشهم، وظهرت سعادتهم، وتمكنوا من إقامة الدين. وكذلك أهل التوجه إلى يوم الدين.
ثم ذكر دلائل نبوته صلى الله عليه وسلم، بعد ذكر قصة موسى لاشتراكهما فى شدة المعالجة، فقال:

[سورة القصص (٢٨) : الآيات ٤٤ الى ٤٦]
وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين (٤٤) ولكنا أنشأنا قرونا فتطاول عليهم العمر وما كنت ثاويا في أهل مدين تتلوا عليهم آياتنا ولكنا كنا مرسلين (٤٥) وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ولكن رحمة من ربك لتنذر قوما مآ أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون (٤٦)
يقول الحق جل جلاله: وما كنت يا محمد بجانب المكان الغربي من الطور، وهو الذي كلم الله فيه موسى، وهو الجانب الأيمن. قال السهيلي: إذا استقبلت القبلة، وأنت بالشام، كان الجبل يمينا منك،." (١)
"[سورة الروم (٣٠) : الآيات ٥٨ الى ٦٠]
ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل ولئن جئتهم بآية ليقولن الذين كفروا إن أنتم إلا مبطلون (٥٨) كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون (٥٩) فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون (٦٠)
يقول الحق جل جلاله: ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل أي: بينا لهم فيه من كل مثل، ينبؤهم عن التوحيد والمعاد، وصدق الرسل، وغير ذلك، مما يحتاجون إلى بيانه، ولئن جئتهم بآية من الآيات الدالة على صدقك، أو: القرآن. ليقولن الذين كفروا إن أنتم إلا مبطلون مزورون. وإسناد الإبطال إلى الجميع، مع أن المجيء بالحق واحد مراعاة لمن شايعه معه من المؤمنين، أو: ولقد وصفنا كل صفة، كأنها مثل في غرابتها، وقصصنا عليهم كل قصة عجيبة الشأن، كقصة

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٤/٢٥٥

المبعوثين يوم القيامة، وما يقولون، وما يقال لهم، وما لا ينفع من اعتذارهم، ولا يسمع من **استعتابهم**، ولكنهم لقسوة قلوبهم، إذا جئتهم بآية من آيات القرآن، قالوا: جئتنا بزور باطل. كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون، أي: مثل ذلك الطبع- وهو الختم- يطبع الله على قلوب الجهلة الذين علم الله منهم اختيار الضلال، حتى سموا المحققين مبطلين، وهم أغرق خلق الله في تلك الصفة.

فاصبر على أذاهم وعداوتهم، إن وعد الله بنصرتك، وإظهار دين الإسلام على كل دى، ن حق لا بد من إنجازه والوفاء به، ولا يستخفنك الذين لا يوقنون لا يحملنك هؤلاء الذين لا يوقنون بالآخرة على الخفة والعجلة في الرد عليهم، أو: لا يحملنك على الخفة والقلق فزعا مما يقولون فإنهم ضلال، شاكون، لا يستغرب منهم ذلك. وقرأ يعقوب: بسكون النون على أنه نون التوكيد الخفيفة.

الإشارة: قد بين الله في القرآن ما يحتاج السائرون إليه، من علم الشريعة والطريقة والحقيقة، لمن خاض بحر معانيه وأسراره. ولئن جئتهم بآية، من غوامض أسراره ليقول أهل الجمود: هذا إلحاد وباطل. فاصبر إن وعد الله بالنصر لأوليائه حق، ولا يحملنك على العجلة من لا يقين عنده. وبالله التوفيق، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه، وسلم.." (١)

"وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرا أعرض عن تدبرها متكبرا رافعا نفسه عن الإصغاء إلى القرآن، كأن لم يسمعها كأنه لم يسمعها، ولا ذكرت على سمعه. شبه حاله بحال من لم يسمعها قط، كأن في أذنيه وقرا ثقلا وصمما، فبشره بعذاب أليم أخبره بأن العذاب يوجعه لا محالة. وذكر البشارة على سبيل التهكم. وهذا في مقابلة مدح المحسنين المقيمين المزكين. فكما قال في المحسنين: أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون، قال في هؤلاء: أولئك لهم عذاب مهين، بعد أن وصفهم بالضلال والإضلال، في مقابلة المحسنين بالهداية والفلاح. والله تعالى أعلم.

الإشارة: لهو الحديث هو كل ما يشغل عن الله، ويصد عن حضرة الله، كائنا ما كان، سواء كان غناء أو غيره، وإذا كان الغناء يهيج لذكر الله، ويحرك الروح إلى حضرة الله، كان حقا، وإذا كان يحرك إلى الهوى النفساني كان باطلا. والحاصل: أن السماع عند الصوفية ركن من أركان الطريقة، بشروطه الثلاثة: الزمان والمكان والإخوان.

وقد ألف الغزالي تأليفا في تكفير من أطلق تحريم السماع. وقال في الإحياء، في جملة من احتج به المحرم للسماع: احتج بقوله تعالى: ومن الناس من يشتري لهو الحديث، وقد قال ابن مسعود والنخعي والحسن: إنه الغناء.

وأجاب ما حاصله: أنه إنما يحرم إذا كان استبدالا بالدين، وليس كل غناء بدلا عن الدين، مشترى به، ومضلا عن سبيل الله، ولو قرأ القرآن ليضل عن سبيل الله كان حراما. كما حكي عن بعض المنافقين أنه كان يؤم الناس ولا يقرأ إلا بسورة عبس، لما فيها من **العتاب** مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهم عمر بقتله. فالإضلال بالشعر والغناء أولى بالتحريم. هـ. وأما إن لم يكن شيء من ذلك، فلا يحرم.

وقال في القوت، في كتاب المحبة: ولم يزل الحجازيون، عندنا بمكة، يسمعون السماع في أفضل أيام السنة، وهي الأيام

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٤/٣٥٧

المعدودات، التي أمر الله عز وجل عباده في١٥ بذكره، أيام التشريق، من وقت عطاء بن أبي رباح، إلى وقتنا هذا، ما أنكره عالم، وكان لعطاء جاريتان تلحنان، فكان إخوانه يستمعون إليهما، ولم يزل أهل المدينة مواطئين لأهل مكة على السماع إلى زماننا هذا. وأدركنا أبا مروان القاضي، له جوار يسمعن التلحين، قد أعدهن للطوافين. فكان يجمعهن لهم، ويأمرهن بالإنشاد، وكان فاضلا. وسئل شيخنا أبو الحسن بن سالم، فقيل له: إنك تنكر السماع، وقد كان الجنيد وسري السقطي وذو النون يسمعون؟ فقال: كيف أنكر السماع وقد أجازه وسمعه من هو خير مني. هـ.

وقال ابن ليون التجيبي في الإنالة: روي عن مصعب بن الزبير، قال: حضرت مجلس مالك، فسأله أبو مصعب عن السماع، فقال: ما أدري، إلا أن أهل العلم ببلدنا لا ينكرون ذلك، ولا يقعدون عنه، ولا ينكره إلا غبي." (١)

"الإشارة: (الم) الألف: ألف المحبون قربى، فلا يصبرون عني. اللام: لمع نوري لقلوب السائرين، فزاد شوقهم إلي. الميم: ملك الواصلون ملكي وملكوتي، فلا يغيبون عني. تنزيل الكتاب، إذا طال أمد لقاء الأحباب، فأعز شيء على المحبين كتاب الأحباب. أنزلت على أحبابي كتابي، وحملت إليهم بالرسل خطابي، ولا عليهم إن قرع أسماعهم **عتابي**، فإنهم مني في أمان من عذابي. أم يقولون افتراه، إنكار الأعداء على المحبين سنة لازمة. فإن ألبس الحق على الأعداء فلا يضركم، ولا عليكم، فإن [صحبة] «١» الحبيب للحبيب ألذ ما تكون عند فقد الرقيب. قاله القشيري.

ثم ذكر المقصود بالذات، وهو الاستدلال على البعث، فقال:

[سورة السجده (٣٢) : الآيات ٤ الى ٦]

الله الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع أفلا تتذكرون (٤) يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون (٥) ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم (٦)

يقول الحق جل جلاله: الله الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما في مقدار ستة أيام، ثم استوى على العرش أي: استولى بقهريه ذاته. وسئل مالك عنه، فقال: الاستواء معلوم، والكيفية مجهولة، والسؤال عن هذا بدعة. هـ. ولم تتكلم الصحابة على الاستواء، بل أمسكوا عنه، ولذلك قال مالك: السؤال عنه بدعة. وسيأتي شيء في الإشارة. ما لكم من دونه من دون الله من ولي ولا شفيع أي: إذا جاوزتم رضاه لم تجدوا لأنفسكم وليا، أي: ناصرا ينصركم، ولا شفيعا يشفع لكم، أفلا تتذكرون تتعظون بمواعظ الله.

يدبر الأمر أي: أمر الدنيا. وما يكون من شؤونه تعالى في ملكه، فهو كقوله: كل يوم هو في شأن «٢» ، أي: يبديه لا يبتديه. وهو إشارة إلى القضاء التفصيلي، الجزئي، لا الكلي، فإنه كان دفعة. يكون ذلك التدبير من السماء إلى الأرض، فيدبر أمر الدنيا بأسباب سماوية، نازلة آثارها إلى الأرض. في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون من أيام الدنيا.

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٣٦٢/٤

(١) في الأصول: محبة، والمثبت هو الذي في القشيري، وهو المناسب للسياق.

(٢) من الآية ٢٩ من سورة الرحمن.." (١)

"ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم، قال النسفي: وقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم على نوح ومن بعده لأن هذا العطف لبيان فضيلة هؤلاء لأنهم أولو العزم، وأصحاب الشرائع، فلما كان نبينا محمد صلى الله عليه وسلم أفضل هؤلاء قدم عليهم، ولولا ذلك لقدم من قدمه زمانه. هـ. وأخذنا منهم ميثاقا غليظا وثيقا. وأعاد ذكر الميثاق لانضمام الوصف إليه.

وإنما فعلنا ذلك ليسئل الله الصادقين أي: الأنبياء عن صدقهم عما قالوه لقومهم، وهل بلغوا ما كلفهم به. وفيه تبكيت للكفار، كقوله: فلنسئلن الذين أرسل إليهم ولنسئلن المرسلين «١» ، أو: ليسأل المصدقين للأنبياء عن تصديقهم: هل كان بإخلاص أم لا؟ لأن من قال للصادق: صدقت كان صادقا في قوله. أو: ليسأل الأنبياء: ما الذي أجابتهم أممهم؟ وهو كقوله: يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذآ أجبتم «٢» ، وأعد للكافرين بالرسل عذابا أليما، وهو عطف على «أخذنا» لأن المعنى: أن الله تعالى أخذ على الأنبياء العهد بالدعوة إلى دينه لأجل إثابة المؤمنين، وأعد للكافرين عذابا أليما. أو: على ما دل عليه: ليسئل الصادقين، كأنه قال: فأثاب المؤمنين، وأعد للكافرين عذابا أليما.

الإشارة: كما أخذ الله الميثاق على الأنبياء والرسل أخذ الميثاق على العلماء والأولياء. أما العلماء فعلى تبيين الشرائع وتغيير المناكر، وألا تأخذهم في الله لومة لائم، وأما أخذه على الأولياء فعلى تذكير العباد وإرشادهم إلى معرفة الله، وتربية من تعلق بهم، وسياسة الخلق، ودلالتهم على الحق، فمن قصر من الفريقين استحق **العتاب**.

قال القشيري: فلكل من الأولياء والأكابر حال، على ما يؤهلهم له قال صلى الله عليه وسلم: «لقد كان في الأمم محدثون، وإن يكن في أمتي فعمر» ، وغير عمر مشارك لعمر في خواص كثيرة، وذلك سر بينهم وبين ربهم.

ثم قال: قوله تعالى: ليسئل الصادقين عن صدقهم سؤال تشريف لا تعنيف، وإيجاب لا **عتاب**.

والصدق: ألا يكون في أحوالك شوب، ولا في اعتقادك ريب، ولا في عملك عيب، ويقال: من أمارات الصدق في المعاملة: وجود الإخلاص من غير ملاحظة، وفي الأحوال: تصفيتها [من غير مداخلة الحجاب] «٣» ، وفي القول: سلامته من المعاريض، [فيما بينك وبين نفسك] «٤» . وفيما بينك وبين الناس: تباعد من التلبيس والتدليس، وفيما

---

(١) الآية ٦ من سورة الأعراف.

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري في (فضائل الصحابة، باب: مناقب عمر، ح ٣٦٨٩) ومسلم في (فضائل الصحابة، باب: من فضائل عمر ٤/ ٨١٦٤، ح ٢٣٩٨) .

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٣٨٦/٤

(٣) في القشيري [من غير مداخلة إعجاب] .

(٤) ما بين المعقوفتين ليس في الأصول، وأثبته من القشيري، وهو ضروري يقتضيه السياق.." (١)

"إذ جاؤكم هو بدل من: (إذ جاءتكم) ، من فوقكم من أعلى الوادي، من قبل المشرق. وهم بنو غطفان.

ومن أسفل منكم من أسفل الوادي من قبل المغرب، وهم قريش. وإذ زاغت الأبصار مالت عن مستوى نظرها حيرة وشخوصا. أو: مالت إلى عدوها لشدة الخوف، وبلغت القلوب الحناجر رعبا.

والحنجرة: رأس الغلصمة، وهي منتهى الحلقوم، الذي هو مدخل الطعام والشراب. قالوا: إذا انتفخت الرئة، من شدة الفزع والغضب، ربت، وارتفع القلب بارتفاعها إلى رأس الحنجرة. وقيل: هو مثل في اضطراب القلوب، وإن لم تبلغ الحناجر حقيقة.

روي أن المسلمين قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم: هل من شيء نقوله، فقد بلغت القلوب الحناجر؟ قال: «نعم، قولوا:

اللهم استر عوراتنا، وآمن روعاتنا» «١» .

وتظنون بالله الظنونا الأنواع من الظن. والمؤمنون أصناف منهم الأقوياء، ومنهم الضعفاء، ومنهم المنافقون. فظن الأقوياء، المخلصون، الثبت القلوب أن ين جز الله وعده في إعلاء دينه، ويمتحنهم، فخافوا الزلل وضعف الاحتمال، وأما الآخرون فظنوا ما حكى عنهم، وهم الذين زاغت أبصارهم، وبلغت قلوبهم الحناجر، دون الأقوياء رضى الله عنهم، وقرأ أبو عمرو وحمزة: الظنون بغير ألف، وهو القياس. وبالألف فيهما: نافع، والشامي، وشعبة إجراء للوصل مجرى الوقف. والمكي، وعلي، وحفص: بالألف في الوقف. ومثله: الرسولا «٢» و (السبيلا) «٣» ، زادوها في الفاصلة، كما زادوها في القافية، كقوله:

«أقلي اللوم، عاذل **والعتابا**» «٤» وهو في الإمام: بالألف.

هنالك ابتلي المؤمنون أي: اختبروا، فظهر المخلص من المنافق، والثابت من المزلزل، وزلزلوا زلزالا شديدا وحركوا، بالخوف، تحريكا شديدا.

الإشارة: يا أيها الذين آمنوا إيمان الخصوص اذكروا نعمة الله عليكم بالتأييد والنصر، فحين توجهتم إلي، ودخلتم في طريق ولايتي، رفضتكم الناس، ونكرتكم، ورمتكم عن قوس واحدة، فجاءتكم جنود الخواطر والوساوس

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٣) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) من الآية ٦٦ من سورة الأحزاب.

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٤١١/٤

(٣) من الآية ٦٧ من سورة الأحزاب. وانظر الحجة لأبى على الفارسي (٥/ ٤٦٨- ٤٦٩) .

(٤) صدر بيت لجرير، وعجزه: وقولى- إن أصبت- لقد أصابا. انظر: معانى القرآن للزجاج (٤/ ٢١٨) .." [1]

"رعاية لما يقال، وتركا لتدبير الله، مع كونه أحق بالرعاية، وكيف، وفي ذلك تشريع لئلا يكون على المؤمنين حرج وضيق فيما فرض الله له فيما أعلمه. ثم قال: والحاصل أنه- عليه الصلاة والسلام- لم يلم بخطيئة، بدليل أنه لم يؤمر بتوبة ولا استغفار، وإنما أخبره بما أضمر في نفسك، خشية افتتان الغير، والله أحق أن يخشى، بأن يبتهل إليه ليزيل عنهم ما يخشى فيهم.

قال ابن عرفة: الصواب: أن ما أخفاه في نفسه هو: أن الله أخبره أن سيتزوجها. وما قاله ابن عطية لا يحل أن يقال، لأنه تنقيص لم يرد في حديث صحيح. وإنما ذكره المفسرون. هـ. قلت: إنما يكون تنقيصا إذا كان ذلك الواقع في القلب ثابتا، وأما إن كان خاطرا مارا فلا نقص إذ ليس في طوق البشر لأنه من أوصاف العبودية، بل الكمال في دفعه ورده بعد هجومه.

ثم قال ابن عرفة، على قوله: وتخشى الناس: هو تمهيد لعذره، وإن كان لمجرد أمر الله له بذلك، ولا ينبغي حمله على أنه خاف الناس فقط. بل المراد: عتابه على خلط خوفه من الله بخوفه من الناس، وأمره ألا يخاف إلا من الله فقط، خوفا غير مشوب بشيء. هـ. قلت: إذا فسرنا الخشية بالحياء لا يحتاج إلى هذا التعسف، مع أن الخوف من الخلق مذموم، وحده أو مع خوف الله، والنبي صلى الله عليه وسلم منزه عن ذلك، أي: تستحي من الناس أن يقولوا: نكح امرأة ابنه، وكان- عليه الصلاة والسلام- أشد الناس حياء من العذراء في خدرها. والحياء ممدوح عند الخاص والعام. وأما قوله تعالى: والله أحق أن تخشاه فتنبيه على أن الحياء في بعض المواضع تركه أولى، فهو ترقية له، وتربية لوقت آخر. أو: وتخشى أن يفتتن الناس بذلك، والله أرحم بهم من غيره، فالله أحق أن تخشى، فتبتهل إليه في زوال ذلك عنهم. والله تعالى أعلم.

الإشارة: في الآية الأولى حث على التفويض وترك الاختيار، مع ما أمر به الواحد القهار. وفي الحكم: «ما ترك من الجه ل شيئا من أراد أن يظهر في الوقت غير ما أظهر الله» «١» . فالواجب على العبد أن يكون في الباطن مستسلما لقهره، وفي الظاهر متمثلا لأمره، تابعا لسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، ولما يوجب رضاه ومحبته. وفي الآية الثانية تنبيه على أن خواص الخواص يعاتبون على ما لا يعاتب عليه الخواص. والخواص، يعاتبون على ما لا يعاتب عليه العوام، فكلما علا المقام، واشتد القرب، اشتدت المطالبة بالأدب، ووقع العتاب على أدنى ما يخل بشيء من الأدب، على عادة الوزراء مع الملك. وذلك أمر معلوم، مذوق عند أهل القلوب. وبالله التوفيق.

---

(١) انظر الحكم بتبويب المتقى الهندي (ص ٢٠، حكمة: ١٧)." [2]

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٤/٤١٤

(٢) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٤/٤٣٦

"ومفوضا إليه الأمر في الأحوال كلها، ولعله تعالى لما وصفه بخمسة أوصاف، قابل كلا منها بخطاب مناسب له، فقابل الشاهد بقوله: وبشر المؤمنين لأنه يكون شاهدا على أمته، وهم يكونون شهداء على سائر الأمم، وهو الفضل الكبير، وقابل المبشر بالإعراض عن الكافرين والمنافقين لأنه إذا أعرض عنهم أقبل بكليته على المؤمنين، وهو مناسب للبشارة، وقابل النذير بدع أذاهم لأنه إذا ترك أذاهم في العاجل، والأذى له، لا بد له من عقاب عاجل أو آجل، كانوا منذرين به في المستقبل. وقابل الداعي إلى الله بأمره بالتوكل عليه لأن من توكل على الله يسر عليه كل عسير، فتسهل الدعوة، ويتيسر أمرها، وقابل السراج المنير بالاكتفاء به وكيلا لأن من أناره الله وجعله برهانا على جميع خلقه كان حقيقا بأن يكتفي به عن جميع خلقه. والله تعالى أعلم.

الإشارة: قال الورتجبي: إنا أرسلناك بالحقيقة شاهدا، أنت شاهدنا، شاهدناك وشهدت علينا، فألبستك أنوار ربوبيتي، فمن شهدك بالحقيقة فقد شهدنا. قلت: لأن نوره صلى الله عليه وسلم أول نور ظهر من نور الحق، فمن شهده شهد الحق.

ثم قال: ومن نظر إليك فقد نظر إلينا. قال صلى الله عليه وسلم: «من عرفنى فقد عرف الحق، ومن رآني فقد رأى الحق» . ثم قال:

وسراجا منيرا، أسرجت نورك من نوري، فتنور بنوري عيون عبادي المؤمنين، فيأتون إلي بنورك. ثم أمره بأن يبشر المؤمنين بأنهم يصلون إلى مشاهدته، بلا حجاب ولا عتاب. هـ.

قال القشيري: يا أيها المشرف من قبلنا إنا أرسلناك شاهدا بوحدانيتنا، ومبشرا، تبشر عبادنا بنا، وتحذرهم مخالفة أمرنا، وتعلمهم مواضع الخوف منا، وداعيا الخلق إلينا بنا، وسراجا منيرا يستضيئون بك، وشمسا ينبسط شعاعك على جميع من صدقك وآمن بك، ولا يصل إلينا إلا من اتبعك وخدمك وقدمك، وبشر المؤمنين بفضلنا عليهم، ونيلهم طولنا عليهم، وإحساننا إليهم. ومن لم تؤثر فيهم بركة إيمانهم بك فلا قدر لهم عندنا. ولا تطع من أعرضنا عنه وأضللناه، من أهل الكفر والنفاق، وأهل البدع والشقاق، وتوكل على الله بدوام الانقطاع إليه، وكفى بالله وكيلا. هـ.

ثم ذكر حكم المطلقة قبل الدخول، وأنه لا عدة عليها. مناسب لقوله: فلما قضى زيد ... إلخ، فقال:

[سورة الأحزاب (٣٣) : آية ٤٩]

يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فما لكم عليهن من عدة تعتدونها فمتعوهن وسرحوهن سراحا جميلا (٤٩)." (١)

"قلت: والذي يظهر أن من أرجاه صلى الله عليه وسلم من النساء إنما كان بوحي، ومن ضمه كذلك إذ لا يتصرف إلا بإذن من الله، فإذا علم النساء أن الإرجاء والإيواء كان بوحي من الله رضين بذلك، وقرت أعينهن، وزال تغايرهن، وأما مطلق التفويض إليه فقط، فلا يقطع الغيرة في العادة، فالإشارة تعود إلى حكم الإرجاء والإيواء فتأمله. و «كلهن» :

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٤/٤٤٥

تأكيد ضمير «يرضين» .

والله يعلم ما في قلوبكم من أمر النساء، والميل إلى بعضهن، أو: يعلم ما في قلوبكم من الرضا بحكم الله والتفويض إليه، ففيه تهديد لمن لم يرض منهن بما دبر الله، وفوض إلى رسوله، وكان الله عليما بذات الصدور، حليما لا يعاجل بالعقوبة، فهو حقيق بأن يتقى ويحذر.

الإشارة: إذا تحقق فناء العبد وزواله، وتكملت ولايته، كان مفوضا إليه في الأمور، يفعل ما يشاء، ويترك ما يشاء، لم يبق عليه تحجير، ولم يتوجه إليه **عتاب** لأن العبد المملوك إذا تحققت محبة سيده له، كتب له عقد التحرير. وشاهده حديث: «إذا أحب الله عبدا لم يضره ذنب» «١» ، وحديث البخاري: «لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم، فقد غفرت لكم» «٢» ، وسببه معلوم.

وفي القوت عن زيد بن أرقم: إن الله عز وجل ليحب العبد، حتى يبلغ من حبه أن يقول له: اصنع ما شئت، فقد غفرت لك. وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضى الله عنه: يبلغ الولي مبلغا يقال له: أصحبناك السلامة، وأسقطنا عنك الملامة، فاصنع ما شئت. ومصداقه من كتاب الله: قوله تعالى في حق سليمان عليه السلام: هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب «٣» . وهذا وإن كان للنبي من أجل العصمة، فلمن كان من الأولياء في مقام الإمامة قسط منه،

---

(١) ذكره الغزالي فى الإحياء (كتاب المحبة ٤/ ٣٤٥) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه. وقال العراقي فى المغني: ذكره صاحب الفردوس- الديلمي- ولم يخرجه ولده فى مسنده. هـ. والحديث أخرجه- مطولا- القشيري فى الرسالة (باب التوبة/ ٧٦) عن شيخه «ابن فورك» بسنده عن أنس. وزاد الزبيدي فى إتحاف السادة المتقين (٩/ ٦٠٩) عز والحديث لابن أبى الدنيا، وابن النجار فى تاريخه.

قلت: معناه: أنه إذا أحب الله العبد تاب عليه قبل الموت، فلم تضره الذنوب الماضية، ولو كثرت، كما لا يضر الكفر الماضي قبل الإسلام.

(٢) جزء من حديث، أخرجه بطوله البخاري فى (الجهاد، باب الجاسوس، ح ٣٠٠٧) ومسلم فى (فضائل الصحابة، باب من فضائل أهل بدر- رضى الله عنهم ٤/ ١٩٤١- ١٩٤٢، ح ٢٤٩٤) عن سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

وسبب الحديث: أن حاطب بن أبي بلتعة، أرسل رسالة مع امرأة إلى قريش، يخبرهم فيه ببعض أمر رسول صلى الله عليه وسلم، فلما أتى برسالة إلى النبي صلى الله عليه وسلم، قال: «يا حاطب! ما هذا؟» قال: لا تعجل علي يا رسول الله! إني كنت امرأ ملصقا فى قريش، وكان ممن كان معك من المهاجرين، لهم قرابات بمكة يحمون بها أهليهم، فأحببت إذا فاتنى ذلك من النسب فيهم، أن أتخذ فيهم يدا، يحمون بها قرابتى، ولم أفعل كفرا ولا ارتدادا عن دينى، ولا رضا بالكفر بعد الإسلام. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «صدق» فقال عمر: دعني، يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق

فقال: «إنه قد شهد بدرا..» الحديث.

(٣) الآية ٣٩ من سورة «ص» .." (١)

"ثم خطأ من اتبعه بأن غرضه أن يورد شيعته موارد الهلاك، بقوله: إنما يدعوا حزبه ليكونوا من أصحاب السعير، فهو تقرير لعداوته، وبيان لغرضه في دعوى شيعته إلى اتباع الهوى، والركون إلى الدنيا، أي: إنما يدعوهم إلى الهوى، ليكونوا من أهل النار.

ثم بين مآل من اتبعه ومن عاداه، فقال: الذين كفروا لهم عذاب شديد أي: فمن أجابه إلى ما دعي فله عذاب شديد لأنه صار من حزبه وأتباعه، والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولم يجيبوه، ولم يصيروا من حزبه، بل عادوه، لهم مغفرة وأجر كبير لكبر جهاده ودوامه.

الإشارة: وعد الله هنا عام، وكله حق، واجب الوقوع، لا يتخلف، فيصدق بوعد الرزق، وكفاية من انقطع إليه عن الخلق، لقوله: ومن يتوكل على الله فهو حسبه «١» وتولى من أصلح حاله لقوله: وهو يتولى الصالحين «٢» ، ويصدق بإثابة المطيع، وعتاب العاصي، أو: حلمه عنه، وغير ذلك من المواعد كلها، فيجب على العبد كفه عن الاهتمام بالرزق، وخوف الخلق، والتشمير في الطاعة، والفرار من المعصية، إن كان له ثقة بوعد ربه، وإلا فالخلل في إيمانه.

وقوله تعالى: إن الشيطان لكم عدو ... الخ، قوم فهموا من الخطاب أنهم أمروا بعداوة الشيطان، فاشتغلوا بعداوته ومحاربته، فشغلهم ذلك عن محبة الحبيب، وقوم فهموا من سر الخطاب: إن الشيطان لكم عدو، وأنا لكم حبيب، فاشتغلوا بمحبة الحبيب، فكفاهم عداوة العدو. قيل لبعضهم: كيف صنعك مع الشيطان؟ فقال: نحن قوم صرفنا هممنا إلى الله، فكفانا من دونه. فالشيطان كالكلب إن اشتغلت بدفعه مزق الثياب، أو قطع الإهاب، وإن رفعته إلى مولاه كفاك شره. وكذلك النفس إن اشتغلت بتصفيتها ومجاهدتها على الدوام شغلتك عن ذكر الله، والفناء فيه، ولكن الدواء هو الغيبة عنها، والاشتغال بالله دائما، فإذا أظهرت رأسها بقيام شهوتها، دقه، بعكس مرادها، وغب عنها في ذكر الله. ومن حكم شيخنا البوزيدى رضي الله عنه: «انس نفسك بالله، واعتمد على فضل الله، وامتثل شيئا ما، وينوب الله» . «٣» وفي الحكم العطائية: «إذا علمت أن الشيطان لا يغفل عنك، فلا تغفل أنت عمن ناصيتك بيده» . وقال أيضا: «وحرك عليك النفس ليدوم إقبالك عليه» . وقال: «لو كنت لا تصل إليه إلا بعد فناء مساوئك، ومحو دعاويك، لم تصل إليه أبدا. ولكن إذا أراد أن يوصلك إليه، غطى وصفك بوصفه، ونعتك بنعته، فوصلك بما منه إليك، لا بما منك إليك» . «٤»

---

(١) من الآية ٣ من سورة الطلاق.

(٢) من الآية ١٩٦ من سورة الأعراف.

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٤٥١/٤

(٣) انظر الحكم بتبويب المتقى الهندي (ص/ ٢٣، حكمة/ ٢٣٦) .

(٤) (ص/ ٣١، حكمة ١٣٠) .." (١)

"والفرق بين الخوف والرهبة والخشية: أن الخوف من العقاب، والرهبة من **العتاب**، والخشية من الإبعاد. قال القشيري: والفرق بين الخشية والرهبة: أن الرهبة: خوف يوجب هرب صاحبه، فيجري في تفرقته. والخشية إذا حصلت كبحت صاحبها، فيبقى مع الله. فقدمت الخشية على الرهبة في الجملة، والخوف قضية الإيمان، قال تعالى: وخافون إن كنتم مؤمنين «١» . والخشية قضية العلم والهيبة. هـ. ثم قال: العالم يخاف تقصيره في حق ربه، والعارف يخشى من سوء أدبه وترك احترام، وانبساط في غير وقت، بإطلاق لفظ، أو ترخيص بترك الأولى. هـ.

قال الورتجبي: الخوف عموم، والخشية خصوص. وقد قرن سبحانه الخشية بالعلم، أي: العلم بالله وجلاله وقدره وربوبيته وعبوديته له. وحقيقة الخشية: وقوع إجلال الحق في قلوب العارفين، ممزوجا بسنا التعظيم، ورؤية الكبرياء والعظمة، ولا يحصل ذلك إلا لمن شاهد القدم، والأزل، والبقاء، والأبد، فمن زاد علمه بالله زاد خشية، لقوله صلى الله عليه وسلم: «أنا أعرفكم بالله وأخشاكم منه» . هـ. وفي الحديث: قيل يا رسول الله: أي الأعمال أفضل؟ قال: «العلم» قيل: أي العلم؟ قال: «العلم بالله سبحانه» «٢» . وقال صلى الله عليه وسلم: «ما بال أقوام يتنزهون عن الشيء أصنعه؟ والله إني لأعلمكم بالله، وأشدكم له خشية» «٣» .

ثم قال «٤» : عن جعفر الصادق: العلم أمر ترك الحرمة في العبادات، وترك الحرمة في الحياء من الحق، وترك الحرمة في متابعة الرسول، وترك الحرمة في خدمة الأولياء الصديقين. هـ. ومعى كلامه: أن العلم الحقيقي هو الذي يأمن صاحبه من انتهاك حرمة العبادات، ومن هتك حرمة الاحتشام من الله ورسوله وأوليائه. ومن أراد من العلماء السلامة من الاغترار بالعلم فليطالع شرح ابن عباد، في قول الحكم: «العلم إن قارنته الخشية فلك، وإلا، فعليك» . وبالله التوفيق.

---

(١) من الآية ١٧٥ من سورة آل عمران.

(٢) ذكره ابن عراق فى تنزيه الشريعة (كتاب العلم، ١/ ٢٧٨، القسم الثالث) وعزاه لابن حبان، والديلمي عن أنس، عن طريق عباد ابن عبد الصمد. قال فى تنزيه الشريعة (١/ ٧٠) : «عباد بن عبد الصمد عن أنس، بنسخة، أكثرها موضوع. قاله ابن حبان» .

قلت: معني الحديث صحيح.

(٣) أخرجه البخاري فى (الاعتصام، باب ما يكره من التعمق والتنازع والغلو فى الدين والبدع، ح ٧٣٠١) ، ومسلم فى (الفضائل، باب علمه صلى الله عليه وسلم بالله وشدة خشيته، ٤/ ١٨٢٩، ح ٢٣٥٦) من حديث السيدة عائشة

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٥١٩/٤

بلفظ: « ... لأنا أعلمهم بالله، وأشدهم له خشية» . [.....]

(٤) أي: الورتجبي.." (١)

"أي: وإن كلهم مجموعون محضرون للحساب، أو معذبون. وإنما أخبر عن «كل» بجميع لأن «كل» تفيد معنى الإحاطة. والجميع: فعيل، بمعنى مفعول، ومعناه: الاجتماع، والمعنى: أن المحشر يجمعهم، فكلهم مجموعون محضرون للحساب.

الإشارة: يا حسرة على العباد، ما يأتيهم من داع يدعو إلى الله، على طريق التربية الكاملة، إلا كانوا به يستهزؤون. ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون، ماتوا على الغفلة والحجاب، وكلهم محضرون **للعتاب** والحساب، ماتوا محجوبين، ويبعثون محجوبين لإنكارهم في الدنيا من يرفع عنهم الحجاب، ويفتح لهم الباب، وهم شيوخ التربية، الموجودون في كل زمان. أو: يا حسرة على المتوجهين، ما يأتيهم من وارد على قلوبهم إلا كانوا به يستهزؤون، ولو فهموا عن الله لعملوا بما يرد على قلوبهم الصافية.

ثم ذكر دلائل قدرته على البعث والإحضار، فقال:

[سورة يس (٣٦) : الآيات ٣٣ الى ٣٦]

وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون (٣٣) وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون (٣٤) ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون (٣٥) سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون (٣٦)

قلت: «وآية لهم» : مبتدأ، وجملة «الأرض الميتة» : خبر.

يقول الحق جل جلاله: وآية لهم الأرض الميتة أحييناها أي: وعلامة لهم تدل على أن الله يبعث الموتى، ويحضرهم للحساب، إحياء الأرض اليابسة بالمطر، فاهتزت وربت بالنبات. وأخرجنا منها حبا جنس الحب، فمنه يأكلون، هم وأنعامهم. وقدم الظرف ليدل على أن الحب هو الشيء الذي يتعلق به معظم العيش، ويقوم، بالارتفاق به، صلاح الإنسان، إذا قل جاء القحط، ووقع الضر، وإذا فقد حضر الهلاك، ونزل البلاء.

وجعلنا فيها في الأرض جنات بساتين من نخيل وأعناب، وفجرنا فيها من العيون، «من» :

زائدة عند الأخفش، وعند غيره: المفعول: محذوف، أي: ما تتمتعون به من العيون.." (٢)

"حد الفرية على الأنبياء- يعني الحد مرتين- وروي: أن رجلا حدث بها عند عمر بن عبد العزيز، وعنده رجل من أهل الحق، فكذب المحدث، وقال: إن كانت القصة على ما في كتاب الله، فما ينبغي أن يلتمس خلافها، ولا أن يقال غير ذلك، وإن كانت على ما ذكرت، وقد سترها الله على نبيه، فما ينبغي إظهارها عليه، فقال عمر: لسماعي لهذا

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٥٣٩/٤

(٢) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٥٦٧/٤

الكلام أحب إلي مما طلعت عليه الشمس «١» .
والذي يدل عليه المثل الذي ضربه الله لقصته عليه السلام ليس إلا أنه طلب من زوج المرأة أن ينزل عنها فحسب، فتزوجها، وإنما جاءت على طريق التمثيل والتعريض، دون التصريح لكونها أبلغ في التوبيخ، من قبل أن المتأمل إذا أداه إلى الشعور بالمعرض به كان أوقع في نفسه، وأشد تمكنا من قلبه، وأعظم أثرا فيه، مع مراعاة حسن الأدب، بترك المجاهرة **بالعتاب**. قاله النسفى.
ثم ذكر التعريض بقوله: إن هذا أخي في الدين، أو: في الصداقة، أو: الشركة. والتعبير به لبيان كمال قبح ما فعل به صاحبه، له تسع وتسعون نعجة النعجة: الأنثى من الضأن، وقد يكنى بها عن المرأة، والكناية والتعريض أبلغ من التصريح «٢» . ولي نعجة واحدة لا أملك غيرها، فقال أكفلنيها أي:
ملكنيها، واجعلني أكفلها كما أكفل ما تحت يدي، وعزني غلبني في الخطاب في الخصومة، أي: كان أقدر مني على الاحتجاج والمجادلة، أو: غلبني في الخطبة، حيث خطبت وخطب، فأخذها، وهذا منهما تعريض وتمثيل، كأنهما قالا: نحن كخصمين هذه حالهما، فمثلت قصة أوريا مع داود بقصة رجل له نعجة واحدة، وخليطه له تسع وتسعون، فأراد صاحبه تتمة المائة، فطمع في نعجة خليطه، وحاجه في أخذها، محاجة حريص على بلوغ مراده. وإنما كان ذلك على وجه التحاكم إليه، ليحكم بما حكم به من قوله:
قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه، حتى يكون محجوجا بحكمه. وهو جواب عن قسم محذوف، قصد به عليه السلام المبالغة في إنكار فعل صاحبه به، وتهجين طمعه في نعجة من ليس له غيرها، مع أن له قطيعا منها. ولعله عليه السلام قال ذلك بعد اعتراف صاحبه بما ادعاه عليه، أو: بناه على تقدير صدق المدعي، أي:
إن كنت صدقت فقد ظلمك، والسؤال: مصدر مضاف إلى المفعول، وتعديته إلى مفعول آخر لتضمينه معنى الضم.

---

(١) ذكره النسفى فى تفسيره (٣/ ١٥٠) . [.....]
(٢) الظاهر: إبقاء لفظ النعجة على الحقيقة، من كونها أنثى الضأن، ولا يكنى بها عن المرأة، ولا ضرورة تدعو إلى ذلك. انظر البحر المحيط (٧/ ٣٧٦) .." (١)

"وأولئك هم أولوا الألباب أي: هم أصحاب العقول الصافية، السليمة من معارضة الوهم ومنازعة الهوى، المستحقون للهداية، لا غيرهم.
وفيه دليل على أن الهداية تحصل بفضل الله تعالى، لقوله: هداهم الله، وقبول النفس لها لقوله: هم أولوا الألباب الإشارة: مذهب الصوفية: الأخذ بالعزائم، والأرجح من كل شيء، عقدا، وقولا، وعملا، فأخذوا من العقائد مقام العيان، ولم يقنعوا بالدليل والبرهان، وأخذوا من الأقوال ألينها وأطيبها، ويجمع ذلك: حسن الخلق مع كل مخلوق، فآثروا العفو على القصاص، والصفح على **العتاب**، وغير ذلك من عزائم الشريعة على رخصها، ومن الأذكار: أرجحها وأجمعها، وهو الاسم

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ١٧/٥

المفرد، الذي هو سلطان الأسماء، ومن الأعمال: أعظمها وأرجحها، وهو عمل القلوب، الذي هو الذرة منه تعدل أمثال الجبال من أعمال الجوارح، كعبادة الفكرة والنظرة، وفي الحديث:

«تفكر ساعة أفضل من عبادة سبعين سنة» «١» ، فأوقاتهم كلها ليلة القدر، وكالتخلق بمكارم الأخلاق، كالرضا، والتسليم، والحلم، والسخاء، والكرم، وغير ذلك من محاسن الخلل، الذي هو من عمل القلوب، فهم الذين تحققت فيهم البشارة بقوله: فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

وقال الورتجبي- بعد كلام: ويتبع الكلام الأزلي- الذي هو الخطاب- بالفهم العجيب، والعلم الغريب، والإدراك الصافي، وانفراد الحق عن المخلوق، في المحبة، والشوق، والمعرفة، والتوحيد، والإخلاص، والعبودية، والربوبية، والحرية، فهذا أفضل ورد بالبديهة، من حيث ظهور الأنباء العجيبة، والروح القدسية، والإلهامات الربانية.. انظر بقية كلامه. وقال القشيري: الاستماع يكون لكل شيء، والاتباع يكون للأحسن. ثم قال: من عرف الله لا يسمع إلا بالله. هـ. أولئك الذين هداهم الله إلى صريح معرفته العيانية. وأولئك هم أولوا الألباب، ولب الشيء: قلبه وخالصه، فقلوبهم خالصة لمولاهم، وأرواحهم متنعمة بشهود حبيبها، وأسرارهم متنزهة في رياض ملكوت سيدها. وبالله التوفيق.

ثم ذكر ضدهم، فقال:

[سورة الزمر (٣٩) : آية ١٩]

أفمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذ من في النار (١٩)

---

(١) أخرجه أبو الشيخ فى كتاب العظمة (١/ ٣٠٠، ح ٤٣) عن أبى هريرة بلفظ: «فكرة ساعة خير من عبادة ستين سنة» وأخرجه الديلمي فى الفردوس (٢/ ٧٠ ح ٢٣٩٧) من حديث أنس بلفظ «ثمانين سنة» وانظر الموضوعات لابن الجوزي (٣/ ١٤٤) . [.....]." (١)

"تهكم بهم لأن الجماد الذي لا يعقل لا يقال فيه: يقضي ولا يقضي، وقرأ نافع بالخطاب أو: على إضمار «قل» ، إن الله هو السميع البصير تقرير لقوله: يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ووعيد لهم لأنه يسمع ما يقولون، ويبصر ما يعملون، وأنه يعاقبهم عليه، وتعريض بما يدعون من دون الله، بأنها لا تسمع ولا تبصر.

الإشارة: قال القشيري: قيامة الكل مؤجلة، وقيامة المحبين معجلة، في كل نفس من **العتاب** والعذاب، والبعاد والاقتراب، ما لم يكن في حساب، وشهادة الأعضاء بالدمع تشهد، وخفقان القلب ينطق، والنحول يخبر، واللون يفضح، والعبد يستر، ولكن البلاء يظهر، قال:

يا من تغير صورتي لما بدا ... لجميع ما ظنوا بنا تحقيق هـ. «١»

وقوله تعالى: إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين، هو في حق من فاته التأهب والترقي في هذه الدار، فتحسر حين يعاين

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٥/٦٤

مقامات الرجال، وليس له شفيع يرقيه، ولا حميم يصافيه. وقوله تعالى: يعلم خائنة الأعين هو في حق العارفين: النظر إلى السوى بعين الاستحسان. قال القشيري: خائنة الأعين هي من المحبين استحسانهم شيئا- أي: من السوى- وأنشدوا:

يا قرة العين: سل عيني هل اكتحلت ... بمنظر حسن مذ غبت عن عيني؟

وأنشد أيضا:

وعيني إذا استحسنت غيركم ... أمرت الدمع بتأديبها «٢»

قلت: ومثله قول الشاعر:

وناطر في سوى معناك حق له ... يقتص من جفنه بالدمع وهو دم

والسمع إن حال فيه ما يحدثه ... سوى حديثك، أمسى وقره الصمم

ثم قال: ومن خائنة الأعين: أن تأخذهم السنة والسنات «٣» في أوقات المناجاة، وفي قصص داود عليه السلام: «كذب من ادعى محبتي، فإذا جنه الليل نام عني» ومن خائنة أعين العارفين: أن يكون لهم خير، أي: استحسان يقع لقلوبهم مما تقع عليه أعينهم، ينظرون ولكن لا يبصرون- أي: ينظرون إلى المستحسنات، ولكن لا يقفون

---

(١) فى لطائف الإشارات: [لجميع ما ظنوا بنا تصديقا] .

(٢) فى ا لقشيري: [أمرت السهاد بتعذيبها] . والبيت منسوب إلى سلم الخاسر، كما فى نهاية الأرب (٢/ ٥٦) وفيه:

تقول وفى قولها حشمة ... أتبكي بعين ترانى بها

فقلت إذ استحسنت غيركم ... أمرت الدموع بتأديبها با أديبها

(٣) فى القشيري: والسبات. [.....]." (١)

"فإذا لم يرض عن نفسه، وهذبها، استقامت أحواله، وكان من المحسنين، الذين قال الله- تعالى- فى شأنهم:

[سورة الأحقاف (٤٦) : الآيات ١٣ الى ١٤]

إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون (١٣) أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون (١٤)

يقول الحق جل جلاله: إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا أي: جمعوا بين التوحيد، الذي هو خاصة العلم، والاستقامة في الظاهر، التي هي منتهى العمل، فلا خوف عليهم من لحوق مكروه، ولا هم يحزنون على فوات مرغوب، و «ثم» للدلالة على تراخي رتبة العمل، وتوقف الاعتداد به على التوحيد. ودخلت الفاء لتضمن الموصول معنى الشرط، والتعبير بالمضارع للدلالة على دوام نفي الحزن عنهم، أولئك الموصوفون بما ذكر من الاسمين الجليلين، أصحاب الجنة خالدين

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ١٢٤/٥

فيها: حال من أصحاب الجنة، والعامل:

معنى الإشارة، جزاء بما كانوا يعملون من الأعمال الصالحة، و «جزاء» مصدر لمحذوف، أي: جوزوا جزاء، أو بمعنى ما تقدم، فإن قوله: أولئك أصحاب الجنة في معنى: جزيناهم.

الإشارة: مضى تفسير الاستقامة، وأن من درج على الإيمان والاستقامة حظي بكل كرامة، ووصل إلى جزيل السلامة، وقيل: السين في الاستقامة سين الطلب، وأن المستقيم يتوسل إلى الله- تعالى- في أن يقيمه على الحق، ويثبته على الصدق. هـ.

قال الورتجبي: ما قال القوم هذا القول- أي: «ربنا الله» - حتى شاهدوه بقلوبهم، وعقولهم، وأرواحهم، وأسرارهم، مشاهدة الحق سبحانه، فإذا رأوه يقولون: هذا الهلال، وصاحوا، وضحكوا، فهذا القول منهم بعد كشف مشاهدة الحق لهم، فلما رأوه أحبوه وعرفوه، وشربوا من بحار وصالة، حتى تمكنوا، فاستقاموا بقوتها في موازاة رؤية أنوار الأزل والآباد، واستقاموا في مراد الله منهم، وأداء حقوق عبوديته، فلا يبقى عليهم خوف الحجاب، ولا حزن **العتاب**، قال الله تعالى: فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون. هـ.

ثم وصى بالربوبية الصغرى بعد الكبرى، فقال:." (١)

"بحق اليقين. ويقال: قال صلى الله عليه وسلم: «أنا أعملكم بالله وأخشاكم له» فنزلت الآية «١» ، أي: أمر بالتواضع. وهنا سؤال:

كيف قال: «فاعلم» ولم يقل صلى الله عليه وسلم بعد: علمت، كما قال إبراهيم حين قال له: أسلم قال أسلمت «٢» ويجاب:

بأن الله تعالى أخبر عنه بقوله: آمن الرسول «٣» والإيمان هو العلم، فإخبار الحق- تعالى- عنه أتم من إخباره عن نفسه بقوله: علمته.

ويقال: إبراهيم عليه السلام لما قال: أسلمت ابتلي، ونبينا صلى الله عليه وسلم لم يقل علمت، فعوفي، ويقال: فرق بن موسى، لما احتاج إلى زيادة العلم أحيل على الخضر، ونبينا صلى الله عليه وسلم قال له: قل رب زدني علما «٤» فكم بين من أحيل في استزادة العلم على عبد، وبين من أمر باستزادة العلم من الحق. ويقال: إنما أمره بقوله: فاعلم بالانقطاع إليه من الحظوظ من الخلق، ثم بالانقطاع منه إليه، وإذا قال العبد هذه الكلمة على العادة، والغفلة عن الحقيقة، [وهي نصف البيان] «٥» فليس لهذا القول كبير قيمة، وهذا إذا تعجب من شيء فذكر هذه الكلمة، فليس له قدر، وإذا قاله مخلصا ذاكرا لمعناها، متحققا بحقيقتها، فإن قاله بنفسه فهو في وطن التفرقة، وعندهم هذا من الشرك الخفي، وإن قاله بالحق فهو إخلاص، والعبد أولا يعلم ربه بدليل وحجة، فعلمه بنفسه ضروري، وهو أصل الأصول، وعليه ينبني كل علم استدلالي، ثم تزداد قوة علمه بزيادة البيان، وزيادة الحجج، ويتناقض علمه بنفسه لغلبة ذكر الله بقلبه عليه، فإذا انتهى لحال المشاهدة، واستيلاء سلطان الحقيقة عليه، صار علمه في تلك الحالة ضروريا، ويقل إحساسه بنفسه، حتى يصير

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٣٣٢/٥

علمه بنفسه كالاستدلال، وكأنه غافل عن نفسه، أو ناس لنفسه، ويقال: الذي في البحر غلب عليه ما يأخذه من الرؤية عن ذكر نفسه، فإذا ركب البحر فر من هذه الحالة، فإذا غرق في البحر فلا إحساس له بشيء سوى ما هو مستغرق فيه مستهلك. هـ.

قلت: لا مدخل للحجج هنا، وإنما هو أذواق وكشوفات، فالصواب أن يقول: ثم تزداد قوة علمه، بزيادة الكشف والذوق، حتى يغيب عن وجوده، بشهود معبوده، فيتناقض علمه، فيصير علمه بالله ضروريا، وعلمه بعدم وجوده ضروريا، والله تعالى أعلم.

---

(١) نزول الآية فى هذا لم أقف عليه، أما الحديث فصحيح، فقد ترجم البخاري فى صحيحه (كتاب الإيمان، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم «أنا أعلمكم بالله» ح ٢٠) وأورد حديث السيدة عائشة- رضي الله عنها- قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أمرهم من الأعمال بما يطيقون، قالا: إنا لسنا كهيئتك يا رسول الله، إن الله قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فيغضب صلى الله عليه وسلم، حتى يعرف الغضب فى وجهه، ثم يقول: «إن أتقاكم وأعلمكم بالله أنا» . وأخرج البخاري أيضا فى (الأدب، باب من لم يواجه الناس **بالعتاب** ح ٦١٠١) عن السيدة عائشة- رضى عنها- قالت: صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا، فترخص فيه، فتنزه عنه قوم، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم، فخطب فحمد الله، ثم قال: «ما بال أقوام يتنزهون عن الشيء أصنعه، فالله إنى لأعلمهم بالله عز وجل، وأشدهم له خشية» .

(٢) من الآية ١٣١ من سورة البقرة.

(٣) من الآية ٢٨٥ سورة البقرة.

(٤) من الآية ١١٤ من سورة طه.

(٥) فى القشيري: [أي كان بصفة النسيان] وهو أنسب.." (١)

"واختار ابن عطية: أن المثل شامل للنبى صلى الله عليه وسلم وللصحابة، فإن النبي صلى الله عليه وسلم بعث وحده، فهو الزرع، حبة واحدة، ثم كثر المسلمون، فهم كالشطء، تقوى بهم صلى الله عليه وسلم.

ليغيظ بهم الكفار تعليل لما يعرب عنه الكلام من تشبيههم بالزرع في ذكائه واستحكامه، أي: جعلهم كذلك ليغيظ بهم من كفر بالله.

وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما استئناف مبين لما خصهم به من الكرامة في الآخرة، بعد بيان ما خصهم به في الدنيا، ويجوز أن يرجع لقوله: (ليغيظ بهم ...) الخ: أي: ليغيظ بهم وعدهم بالمغفرة والأجر العظيم لأن الكفار إذا سمعوا ما أعد لهم في الآخرة مع ما خصهم في الدنيا من العزة والنصر غاظهم ذلك أشد الغيظ، و «من» في «منهم» للبيان، كقوله: فاجتنبوا الرجس من الأوثان «١» ، أي: وعد الله الذين آمنوا من هؤلاء.

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٣٦٩/٥

الإشارة: هو الذي أرسل رسوله بالهدى: بي ا ن الشرائع، ودين الحق: بيان الحقائق، فمن جمع بينهما من أمته ظهر دينه وطريقته، وهذا هو الولي المحمدي، أعني: ظاهره شريعة، وباطنه حقيقة، وما وصف به سبحانه أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم هو وصف الصوفية، أهل التربية النبوية، خصوصا طريق الشاذلية، حتى قال بعضهم: من حلف أن طريق الشاذلية عليها كانت بواطن الصحابة ما حنث. وقوله تعالى: يبتغون فضلا من الله ورضوانا قال الورتجبي: أي: يطلبون مزيد كشف في الذات والدنو والوصال والبقاء مع بقائه بلا عتاب ولا حجاب، وهذا محل الرضوان الأكبر. هـ.

وقوله تعالى: سيماهم في وجوههم أي: نورهم في وجوههم، لتوجههم نحو الحق، فإن من قرب من نور الحق ظهرت عليه أنوار المعرفة، وجمالها وبهاؤها، ولو كان زنجيا أو حبشيا، وفي ذلك قيل:

وعلى العارفين أيضا بهاء ... وعليهم من المحبة نور

ويقال: السيما للعارفين، والبهجة للمحبين، فالسيما هي الطمأنينة، والرزانة، والهيبة والوقار، كل من رآهم بديهة هابهم، ومن خالطهم معرفة أحبهم، والبهجة: حسن السمت والهدي، وغلبة الشوق، والعشق، واللهج بالذكر اللساني. والله تعالى أعلم.

---

(١) من الآية ٣٠ من سورة الحج.." (١)

"في دار الكسب على ألسنة رسلي، فلا تطمعوا في الخلاص منه بما أنتم فيه من التعلل بالمعاذير الباطلة.

والجملة فيها تعليل للنهي، على معنى: لا تختصموا وقد صح عندكم أني قدمت إليكم بالوعيد حيث قلت: «لأملأن جهنم..» الخ، فاتبعتموه معرضين عن الحق، فلا وجه للاختصام في هذا الوقت. والباء إما مزيدة كما في قوله:

ولا تلقوا بأيديكم «١» أو معدية على أن «قدم» مضارع تقدم.

ما يبدل القول لدي أي: لا تطمعوا أن يبدل قولي ووعيدي بإدخال الكفار في النار، وما أنا بظلام للعبيد فلا أعذب عبدا بغير ذنب من قبله، بل بما صدر منه من الجنايات، حسبما أشير إليه آنفا. والتعبير عنه بالظلم مع أن تعذيبهم بغير ذنب ليس بظلم على ما تقرر من قاعدة أهل السنة، فضلا عن كونه ظلما مفرطا لتأكيد هذا المعنى، بإبراز ما ذكر من التعذيب بغير ذنب في معرض المبالغة في الظلم، وقيل: هو لرعاية جمعية العبيد، من قولهم: فلان ظالم لعبده وظلام لعبيده، وقيل: ظلام بمعنى: ذي ظلم، كلبان لذي اللبن. والله تعالى أعلم.

الإشارة: قرين الإنسان نفسه الأمارة وروحه المطمئنة، فإذا غلبت النفس على الروح وصرفت صاحبها في الهوى، تقول يوم القيامة: هذا ما لدي عتيد، مهيا للعتاب، فيقال لهما: ألقيا في نار القطيعة كل كفار للنعم، جحود لوجود الطبيب، مناع للخير، فلم يصرفه فيما يخلصه من نفسه، معتد على الله بتكبره، وعدم حط رأسه للداعي إلى الله، مريب، قد لعبت به الشكوك والأوهام والخواطر، أو: شاك في وجود الطبيب، الذي جعل مع الله إلها آخر، يحبه ويخضع له، من الهوى والدنيا، وكل ما أشركه مع الله في المحبة، فألقياه في العذاب الشديد: الحجب عن الله، وعدم اللحوق بأولياء الله، أو

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٥/٤١٠

العذاب الحسي. قال قرينه- روحه التي كانت سماوية، فصيرها أرضية، بمتابعة هواه: ربنا ما أطغيته، فإنه ليس الإغواء والإطغاء من شأني، ولكن كان في ضلال بعيد، حيث أطاع نفسه وهواه، ورماني في مزابل الشهوات والغفلة، قال تعالى: (لا تختصموا لدي) اليوم، قد قدمت إليكم بالوعيد، حيث قلت:

إن النفس لأمارة بالسوء «٢» قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها «٣» وقلت في شأن من جاهد نفسه، وردها لأصلها: يا أيتها النفس المطمئنة «٤» الآية، ما يبدل القول لدي فإني وعدت أهل المجاهدة بالوصول إلى حضرتي، والتنعم برؤيتي بقولي: والذين جاهدوا فينا ... «٥» الآية، وأهل الغفلة بالحجاب، بقولي: كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون، كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون «٦» ، وما ظلمت أحدا قط، لأن الظلم ليس من شأني، ولا يليق بملكي.

---

(١) من الآية ١٩٥ من سورة البقرة.

(٢) من الآية ٥٣ من سورة يوسف.

(٣) الآيتان ٩- ١٠ من سورة الشمس. [.....]

(٤) من الآية ٢٧ من سورة الفجر.

(٥) الآية ٦٩ من سورة العنكبوت.

(٦) الآيتان ١٤- ١٥ من سورة المطففين.." (١)

"ألكم الذكر وله الأنثى أي: أتحبون لكم الذكر وتنسبون له الأنثى كهذه الأصنام والملائكة؟ تلك إذا قسمة ضيزى أي: جائرة، من: ضازه يضيزه: إذا ظلمه، وصرح في القاموس بأنه مثلث الضاد ضيزى وضوزى وضازى، وهو هنا فعلى بالضم، من الضيز، لكنه كسر فاؤه لتسلم الياء، كما فعل في «بيض» ، فإن «فعلى» بالكسر لم تأت وصفا، وإنما هي من بناء الأسماء، كالشعرى والدفلى. وقال ابن هشام: فإن كانت فعلى صفة محضة وجب قلب الضمة كسرة، ولم يسمع من ذلك إلا «قسمة ضيزى» «ومشية حيكى» ، أي: يتحرك فيها المنكبان. هـ.

وقرأ المكي بالهمز «١» ، من: ضأزه: ظلمه، فهو مصدر نعت به.

إن هي أي: هذه الأصنام إلا أسماء وليس تحتها في الحقيقة مسميات لأنكم تدعون لها الألوهية، وهي أبعد شيء منها، سميتموها آلهة، أو: سميتم بها هذه الأصنام، واعتقدتم أنها آلهة، بمقتضى أهوائكم الباطلة، أنتم وآباؤكم، ما أنزل الله بها بعبادتها من سلطان من حجة. إن يتبعون فيما ذكر من التسمية والعمل بموجبها إلا الظن: إلا توهم أن ما هم عليه حق، توهما باطلا، وما تهوى الأنفس أي: ما تشتهيه أنفسهم الأمارة، ولقد جاءهم من ربهم الهدى الرسول والكتاب فتركوه.

أم للإنسان ما تمنى. «أم» : منقطعة، والهمزة للإنكار، أي: ليس للإنسان كل ما يتمناه وتشتهيه نفسه من الأمور التي

---

(١) البحر الم ديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٤٥٤/٥

من جملتها أطماعهم الفارغة في شفاعة الآلهة ونظائرها، كقول بعضهم: ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى «٢» ، وكتمني بعضهم أن يكون هو النبي، فلله الآخرة والأولى أي: الدنيا والآخرة، هو مالكهما والحاكم فيهما، يعطي الشفاعة والنبوة من شاء، لا من تمناهما بمجرد الهوى، وهو تعليل لانتفاء أن يكون للإنسان ما تمنى، فإن اختصاص أمور الآخرة والأولى به تعالى مقتض لانتفاء أن يكون للإنسان شيء مما تمنى إلا ان يشاء ويرضى.

الإشارة: هذه الأصنام موجودة في كل إنسان، فاللات: حب اللذات والشهوات الجسمانية الفانية، فمن كان حريصا عليها، جامعا لأسبابها، فهو عابد لها، والعزى: حب العز والجاه والرئاسة وسائر الشهوات القلبية، فمن طلبها فهو عبد لها، ومناة: تمني البقاء في الدنيا الدنية الحقيرة، وطول الأمل فيها، وكراهية الموت، فمن كان هذا وصفه فهو عبد الدنيا، كاره لقاء الله، فيكره الله لقاءه، فتوجه لهؤلاء **العتاب** بقوله تعالى: أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، ألكم الذكر حيث تحبون ما هو كمال لأنفسكم، وله الأنثى؟ حيث جعلتم هذه الأشياء الحقيرة

---

(١) «ضئزى» بهمزة ساكنة، وبها قرأ ابن كثير المكي. انظر الإتحاف (١/ ٥٠١) .

(٢) الآية ٥٠ من سورة فصلت.." (١)

"شريكة لله في استحقاق العبادة والمحبة، تلك إذا قسمة ضيزى جائرة، ما هي إلا أسماء ليس تحتها طائل، تفنى ويبقى عليها العذاب **والعتاب**، سميتموها واعتنيتم بشأنها والانكباب عليها، أنتم وآباؤكم، ما أنزل الله بمتابعتها والحرص على تحصيلها من سلطان ولا برهان، إن يتبعون في اتباعها والحرص عليها إلا الظن، ظنوا أنها حيث كانت مباحة في ظاهر الشرع لا تضر القلب ولا تحجبه عن شهود الرب، وهو رأي فاسد إذ ليس للقلب إلا وجهة واحدة، إن توجه لطلب الحظوظ أعرض عن الله قطعا، وإن توجه لله أعرض عما سواه، وراجع ما تقدم في قوله:

أذهبتم طيباتكم الآية «١» . ويتبعون أيضا ما تهوى الأنفس الأمارة لأنها لا تهوى إلا ما فيه حظها وهواها، ولقد جاءهم من ربهم الهدى، أي: من يهدي إلى طريق السلوك، بقطع العلائق النفسانية والقلبية، وهم خلفاء الرسول عليه السلام، الدعوان إلى الله، من شيوخ التربية في كل زمان، أم للإنسان ما تمنى، ليس له ما يتمنى إلا بسابق العناية، فلا يدرك العبد من الدنيا والآخرة، ومن الله تعالى، إلا ما سبق به القدر، كما قال الشاعر:

ما كل ما يتمنى المرء يدركه ... تجري الرياح بما لا تشتهي السفن

فلله الآخرة والأولى، قال القشيري: يشير إلى قهرمانية الحق تعالى على العالم كله، ملكه وملكوته، الأخروي والدنيوي، فلا يملك الإنسان من أمر الدارين شيئا، بل ملك الآخرة تحت تصرف يده اليمنى، المقتضية لموجبات حصول الآخرة من الأعمال الصالحة والأفعال الحسنة، يهبه باسمه الواهب لمن شاء أن يكون مظهرا للطفه وجماله، وملك الدنيا تحت تصرف يده اليسرى، المقتضية لأسباب حصول الدنيا، من حب الدنيا الدنية، المنتجة للخطيئة ومتابعة النفس الخبيثة، وموافقة الطبيعة اللئيمة، باسمه المقسط، لمن شاء أن يكون مظهر قهره وجلاله، وليس ذلك يزيد في ملكه، ولا هذا

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٥/٥٠٦

ينقص من ملكه، وكلتا يديه ملأى سحاء، أي: فياضة. هـ.

ثم نفى الشفاعة عمن يستحقها من الملائكة الكرام، فضلا عمن لا يستحقها من الأصنام اللئام، فقال:

[سورة النجم (٥٣) : الآيات ٢٦ الى ٣٠]

وكم من ملك في السماوات لا تغني شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى (٢٦) إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الأنثى (٢٧) وما لهم به من علم إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغني من الحق شيئا (٢٨) فأعرض عن من تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا (٢٩) ذلك مبلغهم من العلم إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى (٣٠)

---

(١) الآية ٢٠ من سورة الأحقاف.." (١)

"ولقد صبحهم بكرة أول النهار عذاب مستقر لا يفارقهم حتى يسلمهم إلى النار، وفي وصفه بالاستقرار إيماء إلى أن عذاب الطمس ينتهي إليه، فذوقوا عذابي ونذر، حكاية لما قيل لهم حينئذ من جهته- تعالى- تشديدا **للعتاب**.

ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر، قال النسفي: وفائدة تكرير هذه الآية أن يجددوا عند سماع كل نبأ من أنباء الأولين ادكارا واتعاظا إذا سمعوا الحث على ذلك، وأن يستأنفوا تنبها واستيقاظا إذا سمعوا الحث على ذلك، وهكذا حكم التكرير في قوله، فبأي آلاء ربكما تكذبان «١» عند كل نعمة عدها، وقوله: ويل يومئذ للمكذبين «٢» عند كل آية أوردها، وكذا تكرير القصص في أنفسها لتكون تلك العبر حاضرة للقلوب، مصورة في الأذهان، [مذكرة] «٣» غير منسية في كل أوان. هـ.

الإشارة: قال القشيري: يشير إلى أن كل من غلبته الشهوة البهيمية- شهوة الجماع- يجب عليه أن يقهر تلك الصفة، ويكسرها بأحجار ذكر «لا إله إلا الله» ، ويعالج تلك الصفة بضدها، وهو العفة. هـ. فالإشارة بقوم لوط إلى الشهوات الجسمانية، فقد كذبت الروح حين دعتها إلى مقام الصفا، ودعتها النفس بالميل إليها إلى الحضيض الأسفل، فإذا أراد الله نصر عبده أرسل عليها حاصب الواردات والمجاهدات، فمحت أوصافها الذميمة، ونقلتها إلى مقام الروحانية، قال تعالى: إنا أرسلنا عليهم حاصبا إلا آل لوط يعني الأوصاف المحمودة، نجيناهم في آخر ليل القطيعة، أو: الروح وأوصافها الحميدة، نجيناها في وقت النفحات من التدنس بأوصاف النفس الأمارة، نعمة من عندنا، لا بمجاهدة ولا سبب، كذلك نجزي من شكر نعمة العناية، وشكر من جاءت على يديه الهداية، وهم الوسائط من شيوخ التربية. ولقد أنذر الروح النفس وهواها وجنودها بطشتنا: قهرنا، بوارد قهري، من خوف مزعج، أو شوق مقلق، حتى يخرجها من وطنها، فتماروا بالنذر، وقالوا: لم يبق من يخرجنا من وطننا، فقد انقطعت التربية، ولا يمكن إخراجنا بغيرها، ولقد راودوه عن ضيفه، راودوا الروح عن نور معرفته ويقينه، بالميل إلى شهوات النفس فطمسنا أعينهم، فلم يتمكنوا من رد الروح إذا سبقت

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٥/٥٠٧

لها العناية، فيقال للنفس وجنودها: ذوقوا عذابي ونذري بالبقاء مع الخواطر والهموم، ولقد صبحهم أول نهار المعرفة حين أشرقت شموس العيان عذاب مستقر، وهو محق أوصاف النفس، والغيبة عنها أبدا سرمدا. والله تعالى أعلم.

---

(١) كررت هذه الآية فى سورة الرحمن إحدى وثلاثين مرة، المرة الأولى جاءت فى الآية ١٣.

(٢) الآية ١٥ من سورة المرسلات.

(٣) فى النسفى [مذكورة] .." (١)

"هذا "؟ فقال: يا رسول الله! ما كفرت منذ أسلمت، ولا غششت منذ نصحت، ولكني كنت امرءا ملصقا في قريش، ليس لي فيهم من يحمي أهلي، فأردت أن أتخذ عندهم يدا، وعملت أن كتابي لا يغني شيئا، فصدقه صلى الله عليه وسلم، وقبل عذره، فقال عمر: دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق، فقال رسول الله صلى الله عليه سلم: " وما يدريك يا عمر، لعل الله قد اطلع على أهل بدر، فقال لهم: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم " ففاضت عينا عمر رضي الله عنه، أي: من بكاء الفرح. والعدو: فعول، من: عدا، ولكونه على زنة المصدر أوقع على الجمع إيقاعه على الواحد. وفي الآية دليل على أن الكبيرة لا تسلب الإيمان.

وقوله: ﴿تلقون إليهم بالمودة﴾ : حال، أي: لا تتخذوهم أولياء ملقين إليهم، أو: استئناف، أو: صفة لأولياء، أي: توصلون إليهم المودة، على أن الباء زائدة، كقوله: ﴿ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾ [البقرة: ١٩٥] ، أو: تلقون إليهم أخبار النبي صلى الله عليه وسلم بسبب المودة التي بينكم وبينهم، فتكون أصلية. ﴿وقد كفروا بما جاءكم من الحق﴾ : حال من فاعل " تتخذوا " أو " تلقون "، أي: لا تتولوهم، أو: لا تودوهم وهذه حالتهم يكفرون ﴿بما جاءكم من الحق﴾ ؛ الإسلام، أو: القرآن، جعلوا ما هو سبب الإيمان سبب الكفر. ﴿يخرجون الرسول وإياكم﴾ من مكة، وهواستئناف مبين لكفرهم وعتوهم، أو حال من "كفروا ". وصيغة المضارع لاستحضار الصورة. وقوله: ﴿أن تؤمنوا بالله ربكم﴾ تعليل للإخراج، أي: يخرجونكم لإيمانكم، ﴿إن كنتم خرجتم جهادا في سبيلي وابتغاء مرضاتي﴾ ، هو متعلق بـ " لاتتخذوا " كأنه قيل: لا تودوا أعدائي إن كنتم أوليائي.

﴿تسرون إليهم بالمودة﴾ أي: تفضون إليهم بمودتكم سرا، أو تسرون إليهم أسرار رسول الله صلى الله عليه وسلم بسبب المودة، وهو استئناف وارد على نهج **العتاب** والتوبيخ. ﴿وأنا أعلم﴾ أي: والحال أني أعلم منكم ﴿بما أخفيتم وما أعلنتم﴾ ومطلع رسولي على ما تسرون، فإني طائل لكم في الإسرار، وقيل: الباء زائدة، و " أعلم " مضارع و " ما " موصولة، أو مصدرية. ﴿ومن يفعله منكم﴾ أي: الاتخاذ ﴿فقد ضل سواء السبيل﴾ ؛ فقد أخطأ طريق الحق والصواب. ﴿إن يثقفوكم﴾ أي: يظفروا بكم ﴿يكونوا لكم أعداء﴾ أي: يظهروا ما في قلوبهم من العداوة، ويرتبوا عليها أحكامها، ﴿ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء﴾ ؛ بما يسوؤكم من القتل والأسر. ﴿وودوا لو تكفرون﴾ أي: تمنوا ارتدادكم. وصيغة الماضي لتحقق ودادهم قبل أن يثقفوكم.

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٥٣٢/٥

﴿لن تنفعكم أرحامكم﴾ ؛ قراباتكم ﴿ولا أولادكم﴾ الذين توالون المشركين لأجلهم، وتتقربون إليهم محاماة عليهم، ﴿يوم القيامة يفصل بينكم﴾ وبين أقاربكم." (١)

"قاله النسفي، فانظره، مع أن سورة براءة متأخرة عن هذه، وفيها: ﴿ولآ تصل على أحد منهم ... ﴾ [التوبة: ٨٤] التي نزلت فيه.

قالت تعالى: ﴿سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم﴾ ، أي: لا مساغ للنصح فيهم، ﴿لن يغفر الله لهم﴾ أي: ما داموا على النفاق. والمعنى: سواء عليهم الاستغفار وعدمه؛ لأنهم لا يلتفتون إليه، ولا يعتدون به؛ لكفرهم، أو لأن الله لا يغفر لهم أبدا، ﴿إن الله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ ؛ لإصرارهم على الفسق، ورسوخهم في الكفر والنفاق. والمراد: إما هم بأعيانهم، والإظهار في موضع الإضمار لبيان غلوهم في الفسق، أو: الجنس، وهم داخلون في زمرتهم دخولا أوليا. ﴿هم الذين يقولون﴾ للأنصار: ﴿لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا﴾ ؛ يتفرقوا، وهذه المقالة كانت السبب في استدعائه إلى الاستغفار، كما تقدم، فحقها التقديم قبل قوله: ﴿وإذا قيل لهم تعالوا﴾ وإنما أخرت ليتوجه **العتاب** إليه مرتين، كما تقدم في سورة البقرة.

ثم قال تعالى، في الرد على الخبيث: ﴿ولله خزائن السموات والأرض﴾ ، فهو رد وإبطال لما زعموا من أن عدم إنفاقهم يؤدي إلى انفضاض الفقراء من حوله صلى الله عليه وسلم ببيان أن خزائن الأرزاق بيد الله تعالى خاصة، يعطي من يشاء، ويمنع من يشاء، فيرزق منها المهاجرين، وإن أمسك أهل المدينة عنهم، ﴿ولكن المنافقين لا يفقهون﴾ ؛ ولكن عبد الله وأضرابه لايفقهون ذلك فيهتدون، بما يزين لهم الشيطان.

﴿يقولون لئن رجعنا﴾ من غزوة بني الصطلق ﴿إلى المدينة ليخرجن الأعز منها﴾ يعني: نفسه ـ لعنه الله ـ ﴿الأذل﴾ يعني: جانب المؤمنين، وإسناد القول بذلك إلى المنافقين؛ لرضاهم به، فرد تعالى عليهم ذلك بقوله: ﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾ أي: ولله الغلبة والعزة، ولمن أعزه من رسوله والمؤمنين، لا لغيرهم، كما أن المذلة والهوان للشيطان وذويه من الكافرين والمنافقين. وعن بعض الصالحات، وكانت في هيئة رثة من الفقر: ألست على الإسلام، وهو العز الذي لا ذل معه، والغنى الذي لا فقر معه؟ وعن الحسن بن علي رضي الله عنه: أن رجلا قال له: إن فيك تيها؟ قال: ليس بتيه، ولكنه عزة، وتلا هذه الآية. هـ.

﴿ولكن المنافقين لا يعلمون﴾ ذلك؛ لفرط جهلهم وغرورهم، فيهذون ما يهذون. روي أن ولد عبد الله بن أبي، واسمه عبد الله، وكان رجلا صالحا، لما سمع الآية جاء إلى أبيه، فقال له: أنت والله يا أبت الذليل، ورسول الله العزيز، ووقف على باب السكة التي يسلكها أبوه، وجرد السيف، ومنعه الدخول، وقال: والله لا دخلت منزلك إلا أن يأذن في ذلك

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٢١/٧

رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعبد الله في أذل حال، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فبعث إليه: " أن خله يمضي إلى منزله، وجزاه خيرا " فقال: الآن فنعم. هـ.." (١)

"﴿فذاقت وبال أمرها﴾ أي: وخامة شأنها، وعقوبة فعلها. قال في الصحاح: والوبلة ـ بالتحريك: الثقل والوخامة، وقد وبل المرتع بالضم وبلا ووبالا، فهو وبيل، أي: وخيم. هـ. وفي القاموس: وبل ككرم وبالة ووبالا ووبولا، وأرض وبيلة: وخيمة المرتع. هـ. ﴿وكان عاقبة أمرها خسرا﴾ أي: خسارا وهلاكا.

﴿أعد الله لهم﴾ في الآخرة ﴿عذابا شديدا﴾ ، وعلى أن الكل في الآخرة يكون هذا تكريرا للوعيد وبيانا لكونه مترقبا، كأنه قال: أعد الله لهم هذا العذاب الشديد، ﴿فاتقوا الله يا أولي الألباب﴾ في مخالفة أمره، واحذروا ما حل بمن طغى وعتا. وأولو الألباب هم أهل العقول الصافية، ثم فسرهم بقوله: ﴿الذين آمنوا﴾ إيمانا خالصا من شوائب الشرك والشك، فالموصول عطف بيان لأولي الألباب، أو نعت، أو منصوب بأعني، ﴿قد أنزل الله إليكم ذكرا﴾ أي: القرآن.

وانتصب ﴿رسولا﴾ بفعل مضمر، أي: وأرسل رسولا، أو: هو بدل من " ذكرا "كأنه في نفسه ذكر، أو: على تقدير حذف مضاف، قد أنزل ذا ذكر رسولا، وأريد بالذكر: الشرف، كقوله: ﴿وإنه لذكر لك ولقومك﴾ [الزخرف: ٤٤] أي: ذو شرف ومجد عند الله، أو: للمنزل عليه، أو: لقارئه، وبالرسول: جبريل، أو محمد ـ عليهما الصلاة والسلام ـ ﴿يتلوا﴾ أي: الرسول، أو الله ـ عز وجل ـ ﴿عليكم آيات الله مبينات﴾ أي: واضحات، قد بينها الله تعالى لقوله: ﴿قد بينا لكم الأيات﴾ [آل عمران: ١١٨والحديد: ١٧] وقرىء بكسر الياء، أي: تبين ما تحتاجون إليه من الأحكام، ﴿ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور﴾ متعلق بـ " يتلو "، أو: بـ " أنزل "، وفاعل " يخرج " إما الله، أو الرسول، أي: ليحصل لهم الله أو الرسول ما هم عليه الآن من الإيمان والعمل الصالح، أو: ليخرج من علم وقدر أنه سيؤمن، ﴿ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا﴾ حسبما بين في تضاعيف ما أنزل من الآيات المبينات ﴿يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ ، وقرأ نافع والشامي بنون العظمة ﴿خالدين فيها أبدا﴾ ، والجمع باعتبار معنى " من "كما أن الإفراد في الضمائر الثلاثة باعتبار لفظها، ﴿قد أحسن الله له رزقا﴾ في الدنيا والآخرة. قال القشيري: الرزق الحسن: ما كان على حد الكفاية، لا نقصان فيه، ليضعف عن كفاية صاحبه، ولا زيادة فيه تشغله عن ربهم. هـ. بالمعنى. وسيأتي في الإشارة بقيته.

الإشارة: وكأين من قرية من قرى القلوب عتت عن أمر ربها؛ عن تحمل أعباء العبودية؛ لأن القلب لا يحب إلا العلو والغنى والراحة، فإذا أراد العبد أن ينزل إلى الخمول والذل والفقر والتعب عتا وتكبر، وقد حكم الله تعالى بالطبع على القلب المتكبر، بقوله: ﴿كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار﴾ [غافر: ٣٥] في قراءة الإضافة، والمراد بالرسل: الواردات القهرية، فالقلب أيضا شأنه الفرار منها؛ لأنها تهدم عليه عوائده، وحسابه تعالى لها إحصاؤه لخواطرها، **وعتابه** عليها، وتعذيبه بالجزع." (٢)

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٥١/٧

(٢) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٧٥/٧

"سورة التحريم

يقول الحق جل جلاله: ﴿يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله﴾ . في سبب نزول هذه السورة روايتان؛ إحداهما: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء يوما إلى بيت زوجه حفصة، فوجدها ذهبت لزيارة أبيها، فبعث إلى جاريته مارية، فقال معها في البيت، فجاءت حفصة، فقالت: يا رسول الله؛ أما كان في نسائك أهون مني، أتفعل هذا في بيتي، وعلى فراشي؟ فقال لها عليه الصلاة والسلام: " أيرضيك أن أحرمها "؟ فقالت: نعم، فقال: " إني قد حرمتها " زاد ابن عباس: وقال مع ذلك: " والله لا أطؤها أبدا "، ثم قال لها: " لاتخبري بهذا أحدا، وأبشرك أن أبا بكر وعمر يملكان بعدي أمر أمتي " ثم إن حفصة قرعت الجدار الذي بينها وبين عائشة، وأخبرتها، وكانتا مصادقتين، ولم تر في إفشائها حرجا، واستكتمتها، فأوحى الله إلى نبيه بذلك. وروي أنه عليه السلام طلق حفصة، واعتزل نساءه، فمكث تسعا وعشرين ليلة في بيت مارية، فنزل جبريل، وأمره بردها، وقال له: إنها صوامة قوامة، وإنها من نسائك في الجنة، فردها.

والرواية الثانية: أنه عليه الصلاة والسلام كان يدخل على زوجه زينب بنت جحش، فتسقيه عسلا، فاتفقت عائشة وحفصة وسودة على أن تقول له من دنا منهن: أكلت مغافير، وهو ضمغ العرفط، وهو حلو كريه الريح، ففعل ذلك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لا، ولكني شربت عسلا "، فقلن له: جرست نحله العرفط، أي: أكلت، ويقال للنحل: جراس، فقال صلى الله عليه وسلم: " لا أشربه أبدا "، وكان يكره أن توجد منه رائحة كريهة، فدخل بعد ذلك على زينب، فقالت: ألا أسقيك من ذلك العسل؟ فقال: " لا حاجة لي به " فنزلت الآية عتابا له على أن ضيق على نفسه تحريم الجارية والعسل. والرواية الأولى أشهر عند." (١)

"المفسرين والثانية خرجها البخاري في صحيحه.

فإن قلت: لم عاتبه الله على هذا التحريم، ولم يعاتب يعقوب على تحريم لحوم الإبل على ما ذكر في سورة آل عمران؟ قلت: رتبة نبينا ـ عليه الصلاة والسلام ـ أرفع في المحبة والاعتناء، فلم يرض منه أن يضيق على نفسه، أرأيت إن كان لك ولد تحبه، ووسعت عليه، ثم أراد أن يضيق على نفسه، فإنك لا ترضى له ذلك، محبة فيه، وشفقة عليه. وانظر تفسير ابن عرفة.

قال ابن جزي: ولنتكلم على فقه التحريم: فأما تحريم الطعام والمال وسائر الاشياء ما عدا النساء فلا يلزم، ولا شيء عليه فيه عند مالك، وأوجب عليه أبو حنيفة كفارة اليمين، وأما تحريم الأمة فإن نوى به العتق لزم، وإن لم ينو به ذلك لم يلزم، وكان حكمه ما ذكرناه في الطعام، وأما تحريم الزوجة، فاختلف الناس فيه على أقوال كثيرة، فقال أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وابن عباس وعائشة وغيرهم: إنما يلزم فيه كفارة يمين. هـ. قلت: وظاهره: سواء قال لها: أنت حرام، أو حلف بالحرام واحدا أو ثلاثا، وسواء كان منجزا أومعلقا، كما إذا قال: كل امرأة تزوجتها عليك فهي حرام، مثلا، فلا يلزم من ذلك شيء علي قول هؤلاء السادات رضي الله عنهم. ثم قال: وقال مالك في المشهور عنه: هي ثلاث تطليقات في

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٧/٧٩

المدخول بها وينوي في غيرها، وقال ابن الماجشون: هي ثلاث في الوجهين، وروي عن مالك: أنها طلقة بائنة ـ قلت: وبهذا جرى العمل اليوم ـ وقيل: رجعية. هـ.

﴿تبتغي مرضات أزواجك﴾ : حال، أو استئناف مبين للحال الداعي، أي: تطلب رضا أزواجك بالتضييق على نفسك، والمراد: رضا حفصة، وهذا يؤيد أنها نزلت في تحريم الجارية، وأما تحريم العسل فلم يقصد به رضا أزواجه، وإنما تركه لرائحته. ﴿والله غفور﴾ أي: غفور لك ما كان تركه أولى من الصدع بالحق من غير مبالاة بأحد، ولا تضيق على نفسك، ﴿رحيم﴾ بك، حيث وسع عليك، ولم يرض لك أن تضيق على نفسك. قال القشيري: ظاهر هذا الخطاب عتاب على كونه حرم على نفسه ما أحله الله لمراعاة قلب امرأته، والإشارة فيه: وجوب تقديم حق الله على كل شيء في كل وقت. ثم قال تعالى، عناية بأمره: ﴿قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم﴾ وتجاوزا عنه بما كان تركه أولى. هـ.

والحاصل: أنه تعالى غفر له ميله للسوى سهوا، والسهو قهرية الحق تعالى، قهر بها عباده ليتميز ضعف العبودية من قوة الربوبية، وهو ليس بنقص في حق البشر، لكنه لما." (١)

"كان في الغالب لا يحصل إلا مع عدم العزم عد تفريطا وهفوة، كما قال تعالى في حق آدم: ﴿فنسي ولم نجد له عزما﴾ [طه: ١١٥] ، فالمغفرة في الحقيقة، وطلب التوبة من السهو، إنما هو لقلة العزم وعدم الحزم، وحسنات الأبرار سيئات المقربين، ولا تصغ بأذنك إلى ما قاله الزمخشري ومن تبعه من كون ما فعله عليه السلام زلة، حيث حرم ما أحل الله، فإنه تجاسر على منصب النبوة، وقلة أدب. وقوله تعالى: ﴿ما أحل الله لك﴾ زيادة " لك " ترد ما زعمه الزمخشري، ولو كان كما قال لقال له: لم تحرم ما أحل الله.

ثم قال تعالى: ﴿قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم﴾ أي: شرع لكم تحليلها، وهو حل ما عقده بالكفارة، أو بالاستثناء متصلا، والأول هو المراد هنا، وهل كفر عليه الصلاة والسلام؟ قال مقاتل: أعتق رقبة، وقال الحسن: لم يكفر؛ لأنه مغفور له. قال بعضهم: هذه التحلة إنما هي لليمين المقرونة بالتحريم، وقال بعضهم: بل هي لنفس التحريم، وبه تمسك أبو حنيفة في تحريم الحلال، فأوجب كفارة اليمين. ﴿والله مولاكم﴾ أي: سيدكم ومتولي أموركم، فلا يحب ما ضيق عليكم. قال في الحاشية الفاسية: ومن تأمل هذه السورة لاح له منزلة حبيب الله عند الله، وحقق معنى قول عائشة: " يا رسول الله؛ ما أرى ربك إلا يسارع في هواك " الحديث متفق على صحته هـ ﴿وهو العليم﴾ بما يصلحكم، فيشرعه لكم، ﴿الحكيم﴾ المتقن في أفعاله وأحكامه، فلا يأمركم ولا ينهاكم ألا بما تقتضيه الحكمة البالغة.

الإشارة: هذا العتاب يتوجه لكل من سبقت له عند الله عناية وزلفى، إذا ضيق على نفسه فيما أحل الله له، فلا يرضى منه ذلك، محبة فيه، وقد صدر مني مثل هذا زمان الوباء، فحلفت لبعض أزواجي: أني لا أتزوج عليها، وسبب ذلك أنها كانت مصارمة لي، في غاية الغضب والقطيعة، وقد كان غلب على ظني الموت، لما رأيت من الازدحام عليه، فخفت أن نموت متقاطعين، فلما حلفت لها رأى بعض الفقراء من أصحابنا: أنه يقرأ علي أو معي: ﴿يا أيها النبي لم تحرم ... ﴾ الخ السورة، ففهمت الإشارة على أن اليمين لا تلزم، والله أعلم، لأن بساط اليمين كان غلبة ظن الموت، فلما تخلف

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٧/٨٠

انحل اليمين، كقضية الرجل الذي وجد الزحام على اللحم، فحلف لا يشتري لحما أبدا، ثم وجد الفراغ، فقال مالك: لا يلزمه شيء. هـ.

وقال الورتجبي: أدب نبيه عليه الصلاة والسلام ألا يستبد برأيه، ويتبع ما يوحى إليه. هـ. وجعل القشيري النبي إشارة إلى القلب، أي: يا أيها القلب المتوجه لم تحرم ما أحل الله من حلاوة الشهود، تبتغي مرضاة نفسك وحظوظها، فتتبع هواها، وتترخص في مباحات الشريعة، وهي تحجب عن أسرار الحقيقة، أو: لم تحرم ما أحل الله من." (١)

"جازى عليه، من قولك للمسيء: لأعرفن لك ما فعلت، أي: لأجازينك عليه، فاجازاها عليه السلام بأن طلقها، وآلى من نسائه شهرا، وقعد في مشربة مارية حتى نزلت آية التخيير، وقيل: هم بطلاقها، فقال له جبريل: لا تطلقها، فإنها صوامة قوامة. هـ. قيل: المعرف: حديث الإمامة، والمعرض عنه: حديث مارية. ﴿فلما نبأها به﴾ أي: أخبر صلى الله عليه وسلم حفصة بما عرفه من الحديث، قالت حفصة للنبي عليه السلام: ﴿من أنبأك هذا قال نبأني العليم الخبير﴾ الذي لا تخفى عليه خافية.

﴿إن تتوبا إلى الله﴾ ، الخطاب لحفصة وعائشة، على الالتفات للمبالغة في **العتاب**، ﴿فقد صغت قلوبكما﴾ ؛ مالت عن الواجب في مخالصة رسول الله صلى الله عليه وسلم، من حب ما يحبه، وكراهة ما يكرهه، وكان عليه الصلاة والسلام شق عليه تحريم مارية وكرهه، وهما فرحا بذلك. وجواب الشرط: محذوف، أي: إن تتوبا إلى الله فهو الواجب، فقد زالت قلوبكما عن الحق، أو: تقبل توبتكما، أو هو: " فقد صغت " أي: إن تتوبا زاغب قلوبكما فاستوجبتما التوبة، أو: فقد كان منكما ما يقضي أن يتاب منه. قال ابن عطية: وهذا الجواب للشرط، وهو متقدم في المعنى، وإنما نزلت جوابا في اللفظ. هـ. وقرىء " زاغت " من الزيغ.

﴾

وإن تظاهرا عليه﴾ أي: تتعاونا عليه بما يسوؤه، من الإفراط في الغيرة، وإفشاء سره، والفرح بتحريم مارية، ﴿فإن الله هو مولاه﴾ ؛ وليه وناصره، وزيادة " هو " إيذان: أنه يتولى ذلك بذاته بلا واسطة، ﴿وجبريل﴾ أيضا وليه، الذي هو رئيس الملائكة المقربين، ﴿وصالح المؤمنين﴾ أي: ومن صلح من المؤمنين، أي: كل من آمن وعمل صالحا، وقيل: من بريء من النفاق، وقيل: الصحابة جملة، وقال ابن عباس: أبو بكر وعمر، وروي مرفوعا، وبه قال عكرمة ومقاتل، وهو اللائق؛ لتوسيطه بين جبريل والملائكة عليهم السلام، فإنه جمع بين التظاهر المعنوي والتظاهر الحسي، فجبريل ظاهره عليه السلام بالتأييدات الإلهية، وهما وزيراه وظهيراه في أمور الرسالة، وتمشية أحكامها الظاهرة، ولأن تظاهرهما له صلى الله عليه وسلم أشد تأثيرا في قلوب ينتيهما، وتوهينا في حقهما، فكانا حقيقا بالذكر، بخلاف ما إذا أريد به جنس الصالحين، كما هو المشهور. قاله أبو السعود.

﴿والملائكة﴾ مع تكاثر عددهم وامتلاء السموات من جموعهم ﴿بعد ذلك﴾ أي: بعد نصرة الله عز وجل، وناموسه

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٨١/٧

الأعظم، وصالح المؤمنين، ﴿ظهيرا﴾ أي: فوج ظهير معاون له، كأنهم يد واحدة على من يعاديه، فماذا يفيد تظاهر امرأتين على من هؤلاء ظهراؤه؟ ولما كانت مظاهرة الملائكة من جملة نصرة الله، قال: ﴿بعد ذلك﴾ تعظيما لنصرتهم ومظاهرتهم.

﴿عسى ربه إن طلقكن أن يبدله﴾ بالتخفيف، والتشديد للتكثير، أي: يعطيه الله." (١)

"تعالى بدلكن ﴿أزواجا خيرا منكن﴾ ، قال النسفي: فإن قلت: كيف تكون المبدلات خيرا منهن، ولم يكن على وجه الأرض نساء خيرا من أمهات المؤمنين؟ قلت: إذا طلقهن رسول الله صلى الله عليه وسلم لإيذائهن إياه لم يبقين على تلك الصفة، وكان غيرهن من الموصوفات بهذه الأوصاف خيرا منهن. هـ. وأجاب أبو السعود: بأن ما علق بما لم يقع لا يجب وقوعه. هـ. وليس فيه ما يدل على أنه صلى الله عليه وسلم لم يطلق حفصة، فإن تعليق طلاق الكل لا ينافي تطليق واحدة.

ثم وصف المبدلات بقوله: ﴿مسلمات مؤمنات﴾ أي: مقرات مخلصات، أو: منقادات مصدقات، ﴿قانتات﴾ ؛ طائعات، فالقنوت: هو القيام بطاعة الله، وطاعة الله في طاعة رسوله، ﴿تائبات﴾ من الذنوب ﴿عابدات﴾ ؛ متعبدات متذللات، ﴿سائحات﴾ ؛ صائمات، وقيل للصائم: سائح؛ لأن السائح لا زاد معه، فلا يزال ممسكا إلى أن يجد من يطعمه، فشبه به الصائم في إمساكه إلى وقت إفطاره، أو: مهاجرات. قال زيد بن أسلم: لم يكن في هذه الأمة سياحة إلا الهجرة، ﴿ثيبات وأبكارا﴾ ، إنما وسط العاطف بين الثيبات والأبكار، دون سائر الصفات؛ لأنهما صفتان متباينتان، وعطف الأبكار على الثيبات من باب الترقي من الأدنى إلى الأعلى، كقوله تعالى: ﴿ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ... ﴾ [التوبة: ١٢١] . والله تعالى أعلم.

الإشارة: توجه **العتاب** له صلى الله عليه وسلم مرتين في تحريم الجارية، وفي إخفائه لذلك، إذ فيه بعض مراقبة الخلق، والعارف لا يراقب إلا الحق، فهذا قريب من قوله تعالى: ﴿وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه﴾ [الأحزاب: ٣٧] ، ففيه من التصوف: أن العارف يكون الناس عنده كالموتى، أو كالهباء في الهواء، وفي الحديث عنه عليه الصلاة والسلام: " لا يؤمن أحدكم حتى يكون الناس عنده كالأباعر " إذا ليس بيدهم نفع ولا ضر.

وإشارة الآية على ما قال القشيري: وإذ أسر القلب إلى بعض أزواجه، وهي النفس والهوى، حديث المخالفة، على طريق " شاوروهن وخالفوهن " فلما نبأت النفس الهوى لتفعلا ذلك، وأظهره الله عليه بوحي الإلهام، عرف بعضه وأعرض عن بعض، أي: عاتبهما على البعض، وسامحهما في الآخر، فلما نبأ القلب النفس بما أفشت للهوى، قالت: من أنبأك هذا.. الخ، إن تتوبا إلى الله، وتنقادا لحكمه فقد وقع منكما ما يوجب التوبة، وإن تظاهرا على القلب بتزيين المخالفة وتتبع الحظوظ والشهوات، فإن الله هو مولاه، ينصره بالأجناد السماوية والأرضية، من التأييدات والواردات، عسى ربه إن طلقكن." (٢)

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٨٣/٧

(٢) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٨٤/٧

"سورة المزمل
يقول الحق جل جلاله: ﴿يا أيها المزمل﴾ أي: المتزمل، وهو الذي تزمل في ثيابه، أي: التف بها، بإدغام التاء في الزاي. قال السهيلي: المزمل: اسم مشتق من الحال التي كان عليها صلى الله عليه وسلم حين الخطاب، وكذلك المدثر. وفي خطابه بهذا الاسم فائدتان: إحداهما الملاطفة؛ فإن العرب إذا قصدت ملاطفة المخاطب، وترك **عتابه**، سموه باسم مشتق من حالته، كقوله صلى الله عليه وسلم لعلي حين غاضب فاطمة: " قم أبا تراب " إشعارا له أنه غير عاتب عليه، وملاطفة له. والفائدة الثانية: التنبيه لكل متزمل، راقد ليله، لينتبه إلى قيام الليل وذكر الله فيه؛ لأن الاسم المشتق من الفعل يشترك فيه المخاطب، وكل من عمل بذلك العمل، واتصف بتلك الصفة. هـ.
وكان صلى الله عليه وسلم ذات ليلة متزملا في ثيابه نائما، فنزل جبريل يأمره بقيام الليل بقوله: ﴿قم الليل﴾ أي: قم للصلاة بالليل، فـ " الليل " نصب على الظرفية، و ﴿إلا قليلا﴾ : استثناء من الليل، و ﴿نصفه﴾ : بدل من " الليل " الباقي بعد الثنيا، بدل الكل، أي: قم نصفه، أو: من " قليلا "، والتعبير عن النصف المخرج بالقليل لإظهار كمال الاعتداد بشأن الجزاء المقارن للقيام، والإيذان بفضله، وكون القيام فيه بمنزلة القيام في أكثره في كثرة الثواب.." (١)
"والدعوى. ثم قال ويقال: من سقاه اليوم شراب محبته لا يستوحش في وقته من شيء، ومن مقتضى شربه بكأس محبته أن يجود على كل أحد بالكونين من غير تمييز، لا يبقى على قلبه أثر للأخطار، ومن آثر شربه بذل كله لكل أحد لأجل محبوبه؛ فيكون لأصغر الخدم تراب القدم، لا يتحرك فيه للتكبر عرق، وقد يكون من مقتضى ذلك الشراب أيضا في بعض الأحيان أن يتيه على أهل الدارين، وأن يملكه سرور، ولا يتمالك معه عن خلع العذار، وإلقاء قناع الحياء وإظهار ما به من المواجيد. ومن موجبات ذلك السكر: سقوط الحشمة، فيتكلم بمقتضى البسط، أو بموجب لطف السكون بما لا يستخرج منه في حال صحوه شبهة بالمناقيش،، وعلى هذا قول موسى: ﴿رب أرنيا أنظر إليك﴾ [الأعراف: ١٤٣] قالوا: سكر من سماع كلامه، فنطق بذلك لسانه، وأما حين يسقيهم شراب التوحيد فينتفي عنهم شهود كل غير، فيهيمون في أودية العز، ويتيهون في مفاوز الكبرياء، وتتلاشى جملتهم في هوى الفردانية، فلا عقل ولا تمييز، ولا فهم ولا إدراك. والعبد يكون في ابتداء الكشف مستوعبا، ثم يصير مستغرقا، ثم يصير مستهلكا ﴿وأن إلىا ربك المنتهىا﴾ [النجم: ٤٢] . هـ. وقال الورتجبي: فتلك الكائنات المروقات عن علل الحجاب **والعتاب** دارت عليها في الدنيا حتى ترجع إلى معادنها من الغيب. ثم قال: فإذا شربوا تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله، سقاهم ذلك في الدنيا، في ميدان ذكره، بكأس محبته، على منابر أنسه بمخاطبة الإيمان، وسقاهم في الآخرة، في ميدان قربه، بكأس رؤيته، على منابر من نور بمخاطبة العيان. هـ. قلت: تفريقه بين الدنيا والآخرة غير لائق بمقام المحققين من العارفين، فالعارف لم تبق له دنيا ولا آخرة، لم يبق له إلا الله، تتلون تجلياته، فما هناك هو حاصل اليوم، لولا تكثيف الحجاب. ثم يقال

---
(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٧/١٦٣

لأهل التمكين: إن هذا

كان لكم جزاء على مجاهدتكم وصبركم، وكان سعيكم مشكورا، وحضكم منه موفورا. وبالله التوفيق.." (١)

"هذا يوم لا ينطقون من شدة تحيرهم، وقوة دهشهم، ولا يؤذن لهم فيعتذرون عن بطالتهم وتقصيرهم وقلة استعدادهم لهذا اليوم. ﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾ قال القشيري: لأنهم أفسدوا الاستعداد، بالركون إلى الدنيا وشهواتها، والميل عن الآخرة ودرجاتها. هـ. هذا يوم الفصل بين أهل الجد والاجتهاد، وأهل البطالة والفساد، أو بين أهل القرب والوصال، وبين أهل البعد والانفصال، أو بين أهل الشهود والعيان وأهل الدليل والبرهان، أو: بين المقربين وعامة أهل اليمين، جمعناكم والأولين، فيقع التمييز بين الفريقين من المتقدمين والمتأخرين، فإن كان لكم كيد وحيلة ترتفعون بها إلى درجات المقربين، فكيدونن ولا قدرة على ذلك، حيث فاتهم ذلك في الدنيا. ويل يومئذ للمكذبين بهذا الفصل والتمييز.

يقول الحق جل جلاله: ﴿إن المتقين﴾ الكفر والتكذيب ﴿في ظلال﴾ ممدودة ﴿وعيون﴾ جارية ﴿وفواكه مما يشتهون﴾ ؛ مما يستلذون من فنون الترفه وأنواع التنعم. يقال لهم: ﴿كلوا واشربوا﴾ ، فالجملة: حال من الضمير المستقر في الظرف، أي: هم يستقرون في ظلال مقولا لهم: ﴿كلوا واشربوا هنيئا﴾ لا تباعة عليه ولا **عتاب**، ﴿بما كنتم تعملون﴾ في الدنيا من الأعمال الصالحة، ﴿إنا كذلك﴾ أي: مثل هذا الجزاء العظيم ﴿نجزي المحسنين﴾ في عقائدهم وأعمالهم، فأحسنوا تنالوا مثل هذا أو أعظم. ﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾ بهذا، حيث نال المؤمنون هذا الجزاء الجزيل، وبقوا هم في العذاب المخلد الوبيل.

ويقال لهم في الدنيا على وجه التحذير: ﴿كلوا وتمتعوا﴾ كقوله: ﴿اعملوا ما شئتم﴾ [فصلت: ٤٠] أو: في الآخرة، أي: الويل ثابت لهم، مقولا لهم ذلك، تذكيرا لهم بحالهم في الدنيا، بما جنوا على أنفسهم من إيثارهم المتاع الفاني عن قريب على التمتع الخالد، أي: تمتعوا زمنا ﴿قليلا﴾ أو متاعا قليلا، لأن متاع الدنيا كله قليل، ﴿إنكم مجرمون﴾ أي: كافرون، أي: إن كل مجرم يأكل ويتمتع أياما قلائل، ثم يبقى في الهلاك الدائم. ﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾ ، زيادة توبيخ وتقريع، أو: ويل يومئذ للمكذبين الذين كذبوا.

﴿وإذا قيل لهم اركعوا﴾ أي: أطيعوا الله واخشعوا وتواضعوا لله، بقبول وحيه واتباع رسوله، وارفضوا هذا الاستكبار والنخوة، ﴿لا يركعون﴾ ؛ لا يخشعون ولا يقبلون ذلك،." (٢)

"سورة عبس

يقول الحق جل جلاله: ﴿عبس﴾ أي: كلح ﴿وتولى﴾ ؛ أعرض ﴿أن جاءه﴾ أي: لأن جاءه ﴿الأعمى﴾ ، وهو عبد الله ابن أم مكتوم، وأم مكتوم: أم أبيه، وأبوه: شريح بن مالك بن ربيعة الفهري، وذلك أنه أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده صناديد قريش، عتبة وشيبة ابنا ربيعة، وأبو جهل، والعباس بن عبد المطلب، وأمية بن خلف، والوليد بن المغيرة، يدعوهم إلى الإسلام، رجاء أن يسلم بإسلامهم غيرهم، فقال: يا رسول الله، علمني مما علمك الله، وكرر ذلك،

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٢٠٢/٧

(٢) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٢١٢/٧

وهو لا يعلم تشاغله صلى الله عليه وسلم بالقوم، فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم قطعه لكلامه، وعبس وأعرض عنه، فنزلت، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكرمه، ويقول إذا رأه: " مرحبا بمن عاتبني فيه ربي "، ويقول: " هل لك من حاجة "، واستخلفه على المدينة مرتين.

ولم يواجهه . تعالى . بالخطاب، فلم يقل: عبست وتوليت؛ رفقا به وملاطفة؛ لأن مواجهة **العتاب** من رب الأرباب من أصعب الصعاب، خلافا للزمخشري وابن عطية ومن وافقهما. و " أن جاءه ": علة لـ " تولى "، أو " عبس "، على اختلاف المذهبين في التنازع، والتعرض لعنوان عماه إما لتمهيد عذره في الإقدام على قطع كلامه عليه السلام بالقوم،." (١)

"والإيذان باستحقاقه بالرفق والرأفة، وإما لزيادة الإنكار، كأنه تولى عنه لكونه أعمى. قاله أبو السعود.

﴿وما يدريك﴾ أي: أي شيء يجعلك داريا بحال هذا الأعمى حتى تعرض عنه ﴿لعله يزكى﴾ ؛ لعل الأعمى يتطهر بما سمع منك من دنس الجهل، وأصله: يتزكى، فأدغم. وكلمة الترجي مع تحقق الوقوع وارد على سنن الكبرياء، أو: على أن الترجي بالنسبة إليه عليه السلام للتنبيه على أن الإعراض عنه عند كونه مرجوا للتزكي مما لا ينبغي، فكيف إذا كان مقطوعا بالتزكي، وفيه إشارة إلى أن من تصدى لتزكيتهم من الكفرة لا يرجى لهم التزكي والتذكر أصلا. وقوله تعالى: ﴿أو يذكر﴾ : عطف على " يزكى "، داخل في حكم الترجي، قوله: ﴿فتنفعه الذكرى﴾ : عطف على " يذكر "، ومن نصبه فجواب الترجي، أي: أو يتذكر فتنفعه موعظتك إن لم يبلغ درجة التزكي التام، أي: إنك لا تدري ما هو مترقب منه من تزك أو تذكر، ولو دريت لما فرط ذلك منك.

﴾

أما من استغنى﴾ أي: من كان غنيا بالمال، أو: استغنى عن الإيمان، أو عما عندك من العلوم والمعارف التي انطوى عليه القرآن ﴿فأنت له تصدى﴾ ؛ تتصدى وتتعرض له بالإقبال عليه، والاهتمام بإرشاده واستصلاحه. وفيه مزيد تنفير له صلى الله عليه وسلم عن مصاحبتهم، فإن الإقبال على المدبر ليس من شأن الكرام، أهل الغنى بالله. ﴿وما عليك ألا يزكى﴾ أي: وليس عليك بأس في ألا يزكى بالإسلام حتى تهتم بأمره، وتعرض عمن أسلم وأقبل إليك، وقيل: " ما " استفهامية، أي: أي شيء عليك في ألا يزكى هذا الكافر.

﴿وأما من جاءك يسعى﴾ أي: حال كونه مسرعا طالبا لما عندك من أحكام الرشد، وخصال الخير، ﴿وهو يخشى﴾ الله تعالى أو الكفار، أي: أذاهم في إتيانك، أو: الكبوة، أي: السقطة، كعادة العميان، ﴿فأنت عنه تلهى﴾ ؛ تتشاغل، وأصله: تتلهى. روي: أنه صلى الله عليه وسلم ما عبس بعدها في وجه فقير قط، ولا تصدى لغني بعد.

﴿كلا﴾ أي: لا تعد إلى مثلها. وحاصل **العتاب**: ترجيح الإقبال على من فيه القبول والأهلية للانتفاع، دون من ليس كذلك ممن فيه استغناء، وإن كان قصده عليه السلام صالحا، ولكن نبهه الله . تعالى . على طريق الأولى في سلوك الدعوة إليه، وأن مظنة ذلك الفقراء؛ لتواضعهم، بخلاف الأغنياء، لتكبرهم وتعاظمهم. ولذلك لم يتعرض صلى الله عليه

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٢٣٧/٧

وسلم لغني بعدها، ولم يعرض عن فقير، وكذلك ينبغي لفضلاء أمته من العلماء الدعاة إلى الله، وقد كان الفقراء في مجلس الثوري أمراء. ثم قال تعالى: ﴿إنها تذكرة﴾ ؛ موعظة يجب أن يتعظ بها، ويعمل بموجبها، وهو تعليل للردع عما ذكر ببيان رتبة القرآن العظيم الذي استغنى عنه من تصدى له، ﴿فمن شاء ذكره﴾ أي: فمن شاء الله أن يذكره ذكره. أي: ألهمه الله الاتعاظ به، أو: من شاء حفظه واتعظ به، ومن رغب عنها، كما فعله المستغني، فلا حاجة إلى الاهتمام بأمره.." (١)

"وذكر الضمير؛ لأن التذكرة في معنى الذكر والوعظ. وقال أبو السعود: الضميران للقرآن، وتأنيث الأول لتأنيث خبره، وقيل: الأول للسورة، أو للآيات السابقة، والثاني للتذكرة؛ لأنها في معنى الذكر والوعظ، وليس بذلك؛ فإن السورة والآيات وإن كانت متصفة بما سيأتي من الصفات الشريفة، لكنها ليست مما ألقي على المستغنى عنه، واستحق بسبب ذلك ما سيأتي من الدعاء عليه، والتعجب من كفره المفرط، لنزولها بعد الحادثة، وأما من جوز رجوعهما إلى **العتاب** المذكور، فقد أخطأ وأساء الأدب، وخبط خبطا يقضي منه العجب، فتأمل. هـ.

وحاصل المعنى: أن هذه الآيات ـ أي آيات القرآن ـ تذكرة، فمن شاء فليتعظ بها، حاصلة ﴿في صحف﴾ منتسخة من اللوح، ﴿مكرمة﴾ عند الله عز وجل، ﴿مرفوعة﴾ في السماء السابعة، أو: مرفوعة المقدار والمنزلة، ﴿مطهرة﴾ عن مساس أيدي الشياطين، أو: عما ليس من كلام الله تعالى أو: من خلل في اللفظ أو المعنـى، ﴿بأيدي سفرة﴾ أي: كتبة من الملائكة، يستنسخون الكتب من اللوح، على أنه جمع: " سافر "، من السفر، وهو الكتب، وقيل: بأيدي رسل من الملائكة يسفرون بالوحي، بينه تعالى وبين أنبيائه، على أنه جمع " سفير " من السفارة، وحمل " السفرة " على الأنبياء ـ عليهم السلام ـ أو على القراء، لأنهم يقرؤون الأسفار، أو على الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ بعيد؛ لأن هذه اللفظة مختصة بالملائكة، لا تكاد تطلق على غيرهم، وقال القرطبي: " المراد بقوله تعالى في الواقعة: ﴿لا يمسه إلا المطهرون﴾ [الواقعة: ٧٩] هؤلاء السفرة ". ﴿كرام﴾ عند الله تعالى، أو: متعطفين على المؤمنين يكلؤونهم ويستغفرون لهم، ﴿بررة﴾ ؛ أتقياء، أو: مطيعين لله تعالى، من قولهم: فلان يبر خالقه، أي: يطيعه، أو: صادقين، من قولهم: بر في يمينه: صدق. والله تعالى أعلم.

الإشارة: ينبغي للداعي إلى الله أن ينبسط عند الضعفاء، ويقبل عليهم بكليته وي‌واجههم بالبشاشة والفرح، سواء كانوا ضعفاء الأموال، أو ضعفاء الأبدان، كالعميان والمحبوسين والمرضى، أو: ضعفاء اليقين، إن أقبلوا إليه، فقد كان الشيخ أبو العباس المرسي يحتفل بملاقاة أهل العصيان والجبابرة أكثر من غيرهم، فقيل له في ذلك، فقال: هؤلاء يأتونا فقراء منكسرين، بخلاف غيرهم من العلماء والصالحين. قلت: وكذلك رأيت حال أشياخنا ـ رضي الله عنهم ـ يبرون بالجبابرة وأهل العصيان، ليجروهم بذلك إلى الله تعالى، قالوا: يأتينا الرجل سبع فنهلس عليه فيرجع ذئبا، ثم نهلس عليه فيرجع قطا، ثم نجعل السلسلة في عنقه ونقوده إلى ربه. نعم إن تزاحم حق الفقراء وحق الجبابرة في وقت واحد قدم حق الفقراء؛

---

(١) البحر المديد في تفسير القر آن المجيد ابن عجيبة ٢٣٨/٧

لشرفهم عند الله، إلا إن كانوا راسخين، فيقدم عليهم غيرهم؛ لأنهم حينئذ يحبون الإيثار عليهم.

قال الورتجبي: بين الله تعالى هنا ـ يعني في هذه الآية ـ درجة الفقر، وتعظيم أهله،." (١)

"ووجدان رضاه، والعلم ببقائها مع بقاء الله. ثم وصف وجوه الأعداء والمدعين فقال: ﴿ووجوه يومئذ عليه غبرة﴾ الفراق يوم التلاق، وعليها قتر ذل الحجاب، وظلمة العذاب ـ نعوذ بالله من العتاب ـ قال السري: ظاهر عليها حزن البعاد؛ لأنها صارت محجوبة، عن الباب مطرودة، وقال سهل: غلب عليها إعراض الله عنها، ومقته إياها، فهي تزداد في كل يوم ظلمة وقترة. هـ.

اللهم أسفر وجوهنا بنور ذاتك، وأضحكنا وبشرنا بين أوليائك في الدنيا والآخرة، إنك على كل شيء قدير، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما.." (٢)

"هذه الحياة الدنيوية، ويحصل بعد ذلك محض سعادته وراحته الأبدية. هـ.

قلت: إن كان كدحه في طلب مولاه؛ حصل له بعد موته دوام الوصال، وصار إلى روح وريحان، وجنات ورضوان، وإن كان كدحه في طلب الحور والقصور، بشر بدوام السرور، وربما اتصلت روحه بما كان يتمنى، وإن كان كدحه في طلب الدنيا مع إقامة الدين أفضى إلى الراحة من تعبه، وإن كان في طلب الحظوظ والشهوات مع التقصير، انتقل من تعب إلى تعب، والعياذ بالله. وقال أبو بكر بن طاهر: إنك تعامل ربك معاملة ستعرض عليك في المشهد الأعلى، فاجتهد ألا تخجل من معاملتك مع خالقك. أهـ.

ثم فصل ما يلقى بعد اللقاء فقال: ﴿فأما من أوتي كتابه بيمينه﴾ أي: كتاب عمله ﴿فسوف يحاسب حسابا يسيرا﴾ ؛ سهلا هينا، وهو الذي يجازي على الحسنات ويتجاوز عن السيئات. وفي الحديث: " من يحاسب عذب " فقيل له: فأين قوله تعالى: ﴿فسوف يحاسب حسابا يسيرا﴾ فقال: " ذلكم العرض، م ن نوقش الحساب عذب " والعرض: أن يقال له: فعلت كذا وفعلت كذا، ثم يقال له: سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم. ﴿وينقلب إلى أهله﴾ أي: إلى عشيرته إن كانوا مؤمنين، أو: إلى فريق المؤمنين، أو: إلى أهله في الجنة من الآدمية أو الحور والغلمان، أو: إلى من سبقه من أهله أو عشيرته، إن قلنا: إن الكتاب يعطى بمجرد اللقاء في البرزخ، فإن الأرواح بعد السؤال تلحق بأهلها وعشيرتها، حسبما تقدم في الواقعة. وقوله تعالى: ﴿مسرورا﴾ أي: مبتهجا بحاله، قائلا: ﴿هآؤم اقرؤا كتابيه﴾ [الحاقة: ١٩] أو: مسرورا بلقاء ربه ودوام وصاله.

تنبيه: الناس في الحساب على أقسام، منهم من لا حساب عليهم ولا عتاب، وهم العارفون المقربون، أهل الفناء في الذات، ومنهم من يحاسب حسابا يسيرا، وهم الصالحون الأبرار، ومنهم من يناقش ويعذب ثم ينجو بالشفاعة، وهم

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٧/٢٣٩

(٢) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٧/٢٤٥

عصاة المؤمنين ممن ينفذ فيهم الوعيد، ومنهم من يناقش ويخلد في العذاب، وهم الكفرة، وإليهم أشار بقوله: ﴿وأما من أوتي كتابه وراء ظهره﴾ ، قيل: تغل يمناه إلى عنقه، وتجعل شماله وراء ظهره. وقيل: يثقب صدره وتخرج منه إلى ظهره، فيعطى كتابه بها وراء ظهره، ﴿فسوف يدعو ثبورا﴾ يقول: واثبوراه. والثبور: الهلاك، ﴿ويصلى سعيرا﴾ أي: يدخلها، ﴿إنه كان﴾ في الدنيا ﴿في أهله﴾ أي: معهم ﴿مسرورا﴾ بالكفر، يضحك على من آمن بالبعث. وقيل: كان لنفسه متابعا، وفي هواه راتعا، ﴿إنه ظن أن لن يحور﴾ ؛ لن يرجع إلى ربه، تكذيبا بالبعث. قال ابن عباس: ما عرفت تفسيره حتى سمعت أعرابية تقول لبنتها: حوري. أي: ارجعي. ﴿بلى﴾ جواب النفي، أي: يرجع لا محالة، ﴿إن ربه كان به بصيرا﴾ أي: إن ربه الذي خلقه كان به وبأعماله الموجبة للجزاء " بصيرا " بحيث لا تخفى." (١)

"في هياكل ذواتكم، وإحاطة دائرة الكون بكم، لا تنفذون إلا بسلطان: إلا بقوة سلطان أرواحكم على نفوسكم، فتجذبها إلى عالم الروحانية، بصحبة طبيب ماهر، فحيئذ تنفذ بصيرتكم عن دائرة الأكوان، وتفضوا إلى فضاء العيان، وإذا كان يوم القيامة خرقت أرواحهم بأشباحهم محيطات الأكوان، وأفضوا في الهوى إلى سعة الجنان، قال تعالى: ﴿وأزلفت الجنة للمتقين﴾ [الشعراء: ٩٠] ، وقد تقدم معناه.

﴿يرسل عليكم شواظ من نار ونحاس ... ﴾ الخ، قال القشيري: يخاطب معشر جن النفس بإرسال لهب البعد والقطيعة عليهم، بواسطة انغماسهم وانهماكهم في استيفاء اللذات الجسمانية، والشهوات الحيوانية، على الدوام والاستمرار، ويخاطب معشر إنس الروح بصب الصفر المذاب على رؤوسهم، بسبب انحطاطهم من المقام الروحي العلوي، إلى المقام النفس السفلي بالتراجع، ولا يقدر أحدهما على نصرة الآخر. ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ فإن تعذيب مستحق العذاب، وتنعيم متسحق النعيم، والتمييز بين جن النفس العاصي، وبين إنس الروح، من الآلاء العظيمة. هـ. فإذا انشقت السماء الحسية، أي: ذابت وتلاشت بذكر اسم الله عليها من العارف، فكانت وردة يهب بنسيم المعاني من أكنافها، كالدهان: كالزيت المذاب، حين تذوب بالفكرة الصافية، والحاصل: أن سائر الكائنات، تذوب وتتلطف حين تستولي عليها المعاني القائمة بها، ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ مع ظهور هذه النعمة العظيمة، التي خفيت عن جل الناس، ﴿فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جآن﴾ ممن بلغ منهم إلى هذه المرتبة العظيمة، فأهل العيان لم يبق في حقهم طاعة ولا عصيان، فلا يتوجه إليهم سؤال ولا **عتاب**، وفي مناجاة الحق لسيدنا موسى عليه السلام: لا يا موسى إنما يطيعني ويعصيني أهل الحجاب، وأما من لا حجاب بيني وبينه فلا طاعة في حقه ولا معصية. وقال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: يبلغ الولي مبلغا يقال له: افعل ما شئت، أصحبناك السلام، وأسقطنا عنك الملامة. هـ. وهذا بعد محق أوصاف النفس، وبعد التحقق بالفناء والبقاء. والله تعالى أعلم.

يقول الحق جل جلاله: ﴿يعرف المجرمون﴾ أي: الكفرة ﴿بسيماهم﴾ بسواد وجوههم، وزرقة عيونهم، أو: بما يعلوهم

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٢٧٠/٧

من الكآبة والحزن. قيل: هو تعليل لقوله: ﴿فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جآن﴾ أي: لا يسألون لأنهم معروفون، ﴿فيؤخذ بالنواصي والأقدام﴾ أي: يجمع بين نواصيهم وأقدامهم في سلسلة من وراء ظهورهم." (١)

"الذكريا﴾ [طه: ١٤] فيكون تفعل من الزكاة، أو: أفلح من تزكى: أخرج زكاة الفطر، وذكر اسم ربه في طريق خروجه إلى أن يخرج الإمام، فصلى صلاة العيد، وقد روي هذا عن النبي صلى الله عليه وسلم فتكون الآية مدنية، أو: إخبارا بما سيكون، إذ لم تشرع زكاة الفطر، ولا صلا العيد إلا بالمدينة.

﴿بل تؤثرون الحياة الدنيا﴾ على الآخرة، فلا تفعلون ما به تفلحون، وهو إضراب عن مقدر ينساق إليه الكلام، كأنه قيل إثر بيان ما يؤدي إلى الفلاح: فلا تفعلون ذلك بل تؤثرون اللذات العاجلة الفانية، فتسعون لتحصيلها، وتشتغلون بذلك عن التزود للأخرة، ﴿والآخرة خير وأبقى﴾ أي: خير في نفسها، لنفاسة نعيمها، وخلوصه من شوائب التكدير، وأدوم لا انصرام له ولا تمام. والخطاب للكفرة. بدليل قراءة الغيب، وإيثارها حينئذ: نسيانها بالكلية، والإعراض عنها، أو: للكل، فالمراد بإيثارها: هو ما لا يخلوا الناس منه غالبا، من ترجيح جانب الدنيا على الآخرة في السعي، إلا القليل. قال الغزالي: إيثار الحياة الدنيا طبع غالب على الإنسان، قل من ينفك عنه، ولذلك قال تعالى: ﴿بل تؤثرون الحياة الدنيا﴾ . وجملة: ﴿والآخرة ... ﴾ الخ: حال من فاعل ﴿تؤثرون﴾ مؤكد للتوبيخ **والعتاب**، أي: تؤثرونها على الآخرة والحال أنها خير منها وأبقى، قال بعضهم لو كانت الدنيا من ذهب يفنى، والآخرة من طين يبقى، لكان العاقل يختار ما يبقى على ما يفنى، لا سيما والأمر بالعكس. هـ.

وقوله تعالى: ﴿إن هذا لفي الصحف الأولى﴾ الإشارة إلى قوله: ﴿قد أفلح من تزكى﴾ إلى قوله: ﴿وأبقى﴾ ، قال ابن جزي: الإشارة إلى ما ذكر قبل من الترهيب من الدنيا، والترغيب في الآخرة، أو: إلى ما تضمنته السورة، أو: إلى القرآن، والمعنى: إنه ثابت في كتب الأنبياء المتقدمين. هـ. وقوله تعالى: ﴿صحف إبراهيم وموسى﴾ بدل من " الصحف الأولى ".

وفي حديث أبي ذر: قلت: يا رسول الله: كم كتابا أنزل الله؟ قال: " مائة كتاب وأربعة كتب، أنزل على شيث خمسين صحيفة، وعلى إدريس ثلاثين صحيفة، وعلى إبراهيم عشر صحائف، وعلى موسى قبل التوراة عشر صحائف، وأنزل التوراة والإنجيل والزبور والفرقان " قال: قلت: يا رسول الله: ما كانت صحف إبراهيم عليه السلام؟ قال: "كانت أمثالا كلها، أيها الملك المسلط المغرور، إني لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها على بعض، ولكن بعثتك لترد على دعوة المظلوم، فإني لا أردها ولو من كافر. وكان فيها: وعلى العاقل أن تكون له ساعات، ساعة يناجي فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يفكر في صنع الله عز وجل إليه، وساعة يخلو فيها لحاجته من المطعم والمشرب. وعلى العاقل ألا يكون

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٢٧٧/٧

ظاعنا إلا لثلاث: تزور لمعاد، أو مرمة لمعاش، أو لذة في غير محرم. وعلى العاقل أن يكون بصيرا بزمانه، مقبلا على شأنه، حافظا للسانه، ومن حسب." (١)

"﴿وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه﴾ أي: ضيق عليه رزقه، وجعله بمقدار بلغته، حسبما تقتضيه ميشئته المبينة على الحكم البالغة، ﴿فيقول ربي أهانن﴾ ، ولا يخطر بباله أن ذلك ليبلوه أيصبر أم يجزع، مع أنه ليس من الإهانة في شيء بل التقتير قد يؤدي إلى كرامة الدارين، والتوسعة قد تفضي إلى خسرانهما، فالواجب لمن علم أن ربه بالمرصاد منه أن يسعى للعاقبة، ولا تهمه العاجلة، وهو قد عكسن فإذا امتحنه ربه بالنعمة والسعة ليشكر قال ربي أكرمني، وفضلني بما أعطاني، فيرى الإكرام في كثرة الحظ من الدنيا، وإذا امتحنه بالفقر، فقدر عليه رزقه ليصبر، قال: ربي أهانني، فيرى الهوان في قلة الحظ من الدنيا؛ لأنه لا يهمه إلا العاجلة، وهو ما يلذه وينعمه فيها، وإنما أنكر قوله: ﴿ربي أكرمن﴾ مع أنه أثبته بقوله: ﴿فأكرمه ونعمه﴾ ، لأنه قاله على قصد خلاف ما صححه الله عليه وأثبته، وهو قصده إلى أن الله أعطاه إكر ا ما له لاستحقاقه، كقوله: ﴿إنمآ أوتيته علىا علم عنديا﴾ [القصص: ٧٨] وإنما أعطاه الله ابتلاء من غير استحقاق منه، فرد تعالى عليه زعمه بقوله: ﴿كلا﴾ أي: ليس الإكرام والإهانة في كثرة المال وقلته، بل الإكرام في التوفيق للطاعة، والإهانة في الخذلان ف "كلا " ردع للإنسان عن مقالته، وتكذيب له في الحالتين، قال ابن عباس: المعنى: لم أبتله بالغنى لكرامته علي، ولم أبتله بالفقر لهوانه علي، بل ذلك بمحض القضاء والقدر.

وقوله تعالى: ﴿بل لا تكرمون اليتيم﴾ انتقال من بيان سوء أقواله إلى بيان سوء أفعاله، والالفتات إلى الخطاب؛ للإيذان بمشافهته **بالعتاب**، تشديدا للتقريع، وتأكيدا للتشنيع، والجمع باعتبار معنى الإنسان، إذ المراد به الجنس، أي: بل لكم أحوال أشد شرا مما ذكر، وأدل على تهالككم على المال، حيث يكرمكم الله تعالى بكثرة المال فلا تؤدون ما يلزمكم فيه من إكرام اليتيم بالمبرة به.

﴿ولا تحاضون على طعام المسكين﴾ أي: يحض بعضكم بعضا على إطعام المساكين، ﴿وتأكلون التراث﴾ أي: الميراث، وأصله الوراث، فقلبت الواو تاء، ﴿أكلا لما﴾ أي: ذا لم، وهو الجمع بين الحلال والحرام، فإنهم كانوا لا يورثون النساء والصبيان، ويأكلون أنصباءهم، ويأكلون كل ما تركه المورث من حلال وحرام، عالمين بذلك، ﴿وتحبون المال حبا جما﴾ أي: كثيرا شديدا، مع الحرص ومنع الحقوق، ﴿كلا﴾ ردع عن ذلك، وإنكار عليهم. والله تعالى أعلم.

الإشارة: إن ربك لبالمرصاد، المطلع على أسرار العباد، العالم بمن أقبل عليه أو أدبر عنه، ثم يختبرهم بالجمال والجلال، فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه في الظاهر، فيقول ربي أكرمني، ويبطر ويتكبر، وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانني، ويقنط ويتسخط، كلا لينزجرا عن اعتقادهما وفعلهما، وليعلما أنه اختبار من الحق، فمن شكر النعم، وأطعم الفير والمسكين، وأبر اليتيم والأيم، كان من الأبرار." (٢)

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٢٨٩/٧

(٢) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٣٠١/٧

"المعافري: كنت الصاحب في زمن البطالة، يعني: قبل ملاقاته بالشيخ. وإنما كان القسم به عظيما؛ لأنه ليس عند الله أعظم من قلوب الواصلين وأسرار العارفين، لأنها وسعت الرب تعالى علما وتجليا، " لم يسعني أرضي ولا سمائي، ووسعني قلب عبدي المؤمن ". فالقسم عظيم، والمقسم به أعظم، والمقسم عليه أعظم، وهو القرآن الكريم، ﴿لا يمسه إلا المطهرون﴾ قال الجنيد: لا يمسه إلا العارفون بالله، المطهرون سرهم عما سوى الله. هـ. أي: لا يمس أبكار حقائقه ودقائق إشارته إلا القلوب المطهرة من الأكدار والأغيار، وهي قلوب العارفين: ﴿تنزيل من رب العالمين﴾ على سيد المرسلين، ثم غرفت أسراره قلوب خلفائه العارفين. أفبهذا الحديث أنتم مدهنون. قال القشيري: أي: أنتم تتهاونون في قبول مثل هذا الكلام الحق، وتعجبون من مثل هذه الحقيقيات والتدقيقات. هـ. **والعتاب** لمن يتهاون بعلم الإشارة وينكرها. ويتنكب مطالعتها. وتجعلون شكر رزقكم إياها – حيث استخرجها بواسطة قلوب العارفين – التكذيب بها والإنكار على أربابها.

يقول الحق جل جلاله لما وبخهم على تكذيبهم بالقرآن الناطق بقوله: ﴿نحن خلقناكم﴾ [الواقعة: ٧٥] ، ثم أوقفهم على أنهم تحت قهر ملكوته، من حيث طعامهم وشرابهم وسائر أسباب معاشهم، عجزهم بقهرية الموت، فقال: ﴿فلولا﴾ أي: هلا ﴿إذا بلغت﴾ الروح عند الموت ﴿الحلقوم﴾ وهو ممر الطعام والشراب، وتداعت للخروج ﴿وأنتم حينئذ﴾ أيها الحاضرون حول صاحبها ﴿تنظرون﴾ إلى ما هو فيه من الغمرات، ﴿ونحن أقرب إليه﴾ علما وقدرة وإحاطة ﴿منكم﴾ حيث لا تعرفون من حاله إلا ما تشاهدون من أثر الشدة، من غير أن تقفوا على كنهها وكيفيتها وأسبابها، ولا أن تقدروا على دفع أدنى شيء منها، ونحن المتولون لتفاصيل أحواله، ﴿ولكن لا تبصرون﴾ لا تدركون ذلك لجهلكم بشؤوننا، ﴿فلولا إن كنتم غير مدينين﴾ غير مربوبين مقهورين، من: دان السطلان رعيته: إذا ساسهم واستعبدهم، والمحضض عليه قوله: ﴿ترجعونها﴾." (١)

"وأشهر الأقوال هو ما تضافرت به الروايات في الصحاح، وغيرها، أنها نزلت في قوم «عرينة» ، و «عكل» الذين قدموا على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فاجتووا المدينة، فأمر لهم – صلى الله عليه وسلم – بلقاح، وأمرهم أن يشربوا من أبوالها، وألبانها، فانطلقوا، فلما صحوا وسمنوا، قتلوا راعي النبي – صلى الله عليه وسلم – واستاقوا اللقاح، فبلغه – صلى الله عليه وسلم – خبرهم، فأرسل في أثرهم سرية فجاءوا بهم، فأمر بهم فقطعت أيديهم وأرجلهم، وسملت أعينهم، وألقوا في الحرة يستسقون، فلا يسقون حتى ماتوا.

وعلى هذا القول، فهي نازلة في قوم سرقوا، وقتلوا، وكفروا بعد إيمانهم، هذه هي أقوال العلماء في سبب نزولها، والذي يدل عليه ظاهر القرآن أنها في قطاع الطريق من المسلمين، كما قاله جماعة من الفقهاء بدليل قوله تعالى: إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم الآية، فإنها ليست في الكافرين قطعا ؛ لأن الكافر تقبل توبته بعد القدرة عليه، كما تقبل قبلها إجماعا ؛ لقوله تعالى: قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف [٨ \ ٣٨] ، وليست في المرتدين ؛ لأن المرتد يقتل بردته وكفره، ولا يقطع لقوله – صلى الله عليه وسلم – عاطفا على ما يوجب القتل: «والتارك لدينه المفارق

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٣٠٣/٧

للجماعة» ، وقوله: «من بدل دينه فاقتلوه» ، فيتعين أنها في المحاربين من المسلمين، فإن قيل: وهل يصح أن يطلق على المسلم أنه محارب لله ورسوله؟ فالجواب: نعم.

والدليل قوله تعالى: يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله [٢ \ ٢٧٨، ٢٧٩] .

تنبيه

استشكل بعض العلماء تمثيله – صلى الله عليه وسلم – بالعرنيين ؛ لأنه سمل أعينهم مع قطع الأيدي والأرجل، مع أن المرتد يقتل ولا يمثل به.

واختلف في الجواب، فقيل فيه ما حكاه الطبري عن بعض أهل العلم: أن هذه الآية نسخت فعل النبي – صلى الله عليه وسلم – بهم، وقال محمد بن سيرين: كان ذلك قبل نزول الحدود، وقال أبو الزناد: إن هذه الآية معاتبة له – صلى الله عليه وسلم – على ما فعل بهم، وبعد **العتاب** على ذلك لم يعد، قاله أبو داود.

والتحقيق في الجواب هو أنه – صلى الله عليه وسلم – فعل بهم ذلك قصاصا، وقد ثبت في صحيح." (١)

"بشركة وبالتوطي قالا ... بعض وأوجب فيه الاتصالا

وفي البواقي دون ما اضطرار ... وأبطلن بالصمت للتذكار

فإن قيل: فما الجواب الصحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما فيما نسب إليه من القول بصحة الاستثناء المتأخر.

فالجواب أن مراد ابن عباس رضي الله عنهما أن الله عاتب نبيه على قوله إنه سيفعل كذا غدا، ولم يقل إن شاء الله، وبين له أن التعليق بمشيئة الله هو الذي ينبغي أن يفعل ؛ لأنه تعالى لا يقع شيء إلا بمشيئته، فإذا نسي التعليق بالمشيئة ثم تذكر ولو بعد طول فإنه يقول إن شاء الله، ليخرج بذلك من عهدة عدم التعليق بالمشيئة، ويكون قد فوض الأمر إلى من لا يقع إلا بمشيئته، فنتيجة هذا الاستثناء: هي الخروج من عهدة تركة الموجب **للعتاب** السابق، لا أنه يحل اليمين لأن تداركها قد فات بالانفصال، هذا هو مراد ابن عباس كما جزم به الطبري وغيره، وهذا لا محذور فيه ولا إشكال.

وأجاب بعض أهل العلم بجوا ب آخر وهو: أنه نوى الاستثناء بقلبه ونسي النطق به بلسانه، فأظهر بعد ذلك الاستثناء الذي نواه وقت اليمين، هكذا قاله بعضهم، والأول هو الظاهر، والعلم عند الله تعالى.

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن الشنقيطي، محمد الأمين ٤٠١/١

قوله تعالى: له غيب السماوات والأرض.
بين تعالى في هذه الآية الكريمة أنه هو المختص بعلم الغيب في السماوات والأرض، وذكر هذا المعنى في آيات كثيرة، كقوله: قل لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب إلا الله وما يشعرون أيان يبعثون [٢٧ \ ٦٥] ، وقوله تعالى: عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال [١٣ \ ٩] ، وقوله تعالى: ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب وما كان الله ليطلعكم على الغيب الآية [٣ \ ١٧٩] ، وقوله تعالى: ولله غيب السماوات والأرض وإليه يرجع الأمر كله الآية [١١ \ ١٢٣] ، وقوله تعالى: وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين [٦ \ ٥٩] ، وقوله تعالى: وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين [١٠ \ ٦١] ، وقوله تعالى: عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين [٣٤ \ ٣] ، وقوله." (١)

"فالعذر له وجه في الجملة، كما يشير إليه قوله تعالى في القصة في هذه السورة الكريمة قال ياهارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ألا تتبعني أفعصيت أمري قال يابن أم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي إني خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل ولم ترقب قولي [٢٠ ٩٢] .
والمصدر في قوله بملكنا مضاف إلى فاعله ومفعوله محذوف، أي: بملكنا أمرنا. وقال القرطبي: كأنه قال بملكنا الصواب بل أخطأنا. فهو اعتراف منهم بالخطأ. وقال الزمخشري: أفطال عليكم العهد: الزمان، يريد مدة مفارقته لهم.

تنبيه
كل فعل مضارع في القرآن مجزوم بـ «لم» إذا تقدمتها همزة استفهام. كقوله هنا: ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا فيه وجهان معروفان عند العلماء:
الأول: أن مضارعته تنقلب ماضوية، ونفيه ينقلب إثباتا. فيصير قوله: ألم يعدكم بمعنى وعدكم، وقوله: ألم نشرح بمعنى شرحنا، وقوله: ألم نجعل له عينين جعلنا له عينين. وهكذا. ووجه انقلاب المضارعة ماضوية ظاهر، لأن «لم» حرف قلب تقلب المضارع من معنى الاستقبال إلى معنى المضي كما هو معروف. ووجه انقلاب النفي إثباتا أن الهمزة إنكارية، فهي مضمنة معنى النفي، فيتسلط النفي الكامن فيها على النفي الصريح في «لم» فينفيه، ونفي النفي إثبات فيؤول إلى معنى الإثبات.
الوجه الثاني: أن الاستفهام في ذلك التقرير، وهو حمل المخاطب على أن يقر فيقول «بلى» وعليه فالمراد من قوله ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا حملهم على أن يقروا بذلك فيقولوا بلى هكذا. ونظير هذا من كلام العرب قول جرير:
ألستم خير من ركب المطايا ... وأندى العالمين بطون راح

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن الشنقيطي، محمد الأمين ٢٥٦/٣

فإذا عرفت أن قوله هنا فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفا إلى قوله بملكنا قد بين الله فيه أن موسى لما رجع إليهم في شدة غضب مما فعلوا وعاتبهم قال لهم في ذلك **العتاب** ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا أفطال عليكم العهد الآية [٢٠ ٨٦] فاعلم أن بعض **عتابه** لهم لم يبينه هنا، وكذلك بعض فعله، ولكنه بينه في غير هذا الموضع. كقوله في «الأعراف» في القصة بعينها: ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفا قال بئسما خلفتموني من بعدي أعجلتم أمر ربكم [٧ ١٥٠]." (١)

"وقرأه باقي السبعة بإسقاطها، وصلا ووقفا.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم [٢٢ \ ٢٥] قد أوضحنا إزالة الإشكال عن دخول الباء على المفعول في قوله: بإلحاد، ونظائره في القرآن، وأكثرنا على ذلك من الشواهد العربية في الكلام على قوله تعالى: وهزي إليك بجذع النخلة [١٩ \ ٢٥] فأغنى ذلك عن إعادته هنا.

والإلحاد في اللغة أصله: الميل، والمراد بالإلحاد في الآية: أن يميل ويحيد عن دين الله الذي شرعه، ويعم ذلك كل ميل وحيدة عن الدين، ويدخل في ذلك دخولا أوليا الكفر بالله، والشرك به في الحرم، وفعل شيء مما حرمه، وترك شيء مما أوجبه. ومن أعظم ذلك: انتهاك حرمات الحرم. وقال بعض أهل العلم: يدخل في ذلك احتكار الطعام بمكة، وقال بعض أهل العلم: يدخل في ذلك قول الرجل: لا والله، و: بلى والله. وعن ابن عمر رضي الله عنهما أنه كان له فسطاطان: أحدهما في طرف الحرم، والآخر في طرف الحل، فإذا أراد أن يعاتب أهله أو غلامه فعل ذلك في الفسطاط الذي ليس في الحرم، يرى أن مثل ذلك يدخل في الإلحاد فيه بظلم.

قال مقيده – عفا الله عنه وغفر له –: الذي يظهر في هذه المسألة أن كل مخالفة بترك واجب، أو فعل محرم تدخل في الظلم المذكور، وأما الجائزات **كعتاب** الرجل امرأته، أو عبده، فليس من الإلحاد، ولا من الظلم.

مسألة

قال بعض أهل العلم: من هم أن يعمل سيئة في مكة، أذاقه الله العذاب الأليم بسبب همه بذلك وإن لم يفعلها، بخلاف غير الحرم المكي من البقاع، فلا يعاقب فيه بالهم. وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: لو أن رجلا أراد بإلحاد فيه بظلم وهو بعدن أبين لأذاقه الله من العذاب الأليم، وهذا ثابت عن ابن مسعود، ووقفه عليه أصح من رفعه، والذين قالوا هذا القول استدلوا له بظاهر قوله تعالى: ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم [٢٢ \ ٢٥] لأنه تعالى رتب إذاقة العذاب الأليم على إرادة الإلحاد بالظلم فيه ترتيب الجزاء على شرطه، ويؤيد هذا قول بعض أهل العلم: إن الباء في قوله: «بإلحاد» لأجل أن الإرادة مضمنة معنى الهم؛ أي: ومن يهمم فيه بإلحاد، وعلى هذا الذي قاله ابن مسعود وغيره.." (٢)

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن الشنقيطي، محمد الأمين ٨٢/٤

(٢) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن الشنقيطي، محمد الأمين ٢٩٤/٤

"بسم الله الرحمن الرحيم

سورة التحريم

قوله تعالى: يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك الآية.

تقدم في أول السورة قبلها بيان علاقة الأمة بالخطاب الخاص به – صلى الله عليه وسلم – وقد اختلف في تحريم ما أحل الله له بين كونه العسل أو هو مارية جاريته – صلى الله عليه وسلم – وسيأتي زيادة إيضاحه عن الكلام على حكمه.

وقوله تعالى: لم تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضاة أزواجك [٦٦ \ ١] ، ظاهر فيه معنى **العتاب**، كما في قوله تعالى: عبس وتولى أن جاءه الأعمى وما يدريك لعله يزكى [٨٠ \ ١ – ٣] .

وكلاهما له علاقة بالجانب الشخصي سواء ابتغاء مرضاة الأزواج، أو استرضاء صناديد قريش، وهذا مما يدل على أن التشريع الإسلامي لا مدخل للأغراض الشخصية فيه.

وبهذا نأخذ بقياس العكس دليلا واضحا على بطلان قول القائلين: إن إعماره – صلى الله عليه وسلم – لعائشة من التنعيم كان تطييبا لخاطرها، ولا يصح لأحد غيرها.

ومحل الاستدلال هو أن من ليس له حق في تحريم ما أحل الله له ابتغاء مرضاة أزواجه لا يحل له إحلال وتجويز ما لا يجوز ابتغاء مرضاتهن، وهذا ظاهر بين، ولله الحمد.

أما تحلة اليمين وكفارة الحنث وغير ذلك، فقد تقدم بيانه للشيخ – رحمة الله تعالى علينا وعليه – عند قوله تعالى: لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم [٢ \ ٢٢٥] .

أما حقيقة التحريم هنا، ونوع الكفارة، وهل كفر – صلى الله عليه وسلم – عن ذلك أم أن الله غفر له فلم يحتج لتكفير، فقد أوضحه الشيخ – رحمة الله تعالى علينا وعليه – في مذكرة الإملاء عند هذه الآية.." (١)

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن الشنقيطي، محمد الأمين ٨/٢١٩